

رَفَع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

تيسير التفسير

عرض مختصر لمعاني القرآن الكريم

الفقيه إلى عضوريه

د. محمد بن صالح بن إبراهيم الفويان

دار النشر: دار التيسير للنشر والتوزيع

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



تيسير التفسير

عرض مختصر لمعاني القرآن الكريم

ح) دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطويان، أحمد صالح

تيسير التفسير / أحمد بن صالح الطويان - ط٢ - الرياض ١٤٣٦هـ

ص ٠٠×٠٠ سم

ردمك: ٦ - ٣٣٢ - ٥٠٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير الحديث أ - العنوان

ديوي ٢٢٧.٦ ١٤٣٦/٤١٤٢

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٤١٤٢

ردمك: ٦ - ٣٣٢ - ٥٠٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ - ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤

المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

تيسير التفسير

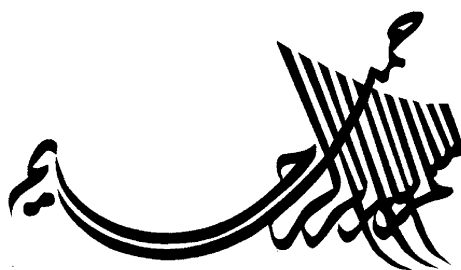
عرض مختصر لمعاني القرآن الكريم

الفقير إلى عفوريه

أحمد بن صالح بن إبراهيم الفوزان

رقع
عبد الرحمن المحمدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دار الحصانة للنشر والتوزيع



المقدمة

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين
أما بعد

فإن أولى ما صرفت فيه نفائس الأيام والأوقات وأعلى ما بذلت فيه المهج والجهود، وأعلى ما خص بمزيد الاهتمام العناية بكتاب الله العزيز تدبراً، وتفهماً وتفسيراً وعملاً واهتداءً، ففي القرآن العظيم الهداية، والعلم النافع فهو حبل الله المتين، والنور المبين والشفاء النافع وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، عصمة من تمسك به ونجاة من تبعه، لا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا تزيف به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد، من ابتغى الهدى في غيره أضله الله، ومن أراد العزة بغيره أذله الله وهو العلم النافع، وقد اعتنى علماء الإسلام بتفسير القرآن الكريم فألفوا المؤلفات المتعددة في إيضاح كلام الله تعالى وتنوعت أساليبهم في التفسير والتوضيح، فأفادوا الأمة بمؤلفاتهم القيمة التي كان لها أعظم الأثر في فهم معاني القرآن، وكانت الأمانة في كتابة تفسير مختصر يقرب ما كتبه علماء الإسلام في إيضاح القرآن؛ ليكون سبيلاً لتدبر كتاب الله، ويكون مشجعاً على قراءة كتب التفسير فاستخرت الله تعالى في كتابة تيسير التفسير معتمداً تقريب معاني الآيات إجمالاً دون التوسع في تفاصيل دقائق التفسير؛ لأن القصد تقريب المعاني لا تحليل الآيات، فاعتمدت التفسير على

المصحف كل وجه يقابله تفسيره دون زيادة أو نقصان، وقد حرصت على اعتماد كتب الأئمة الأعلام كإمام المفسرين أبي جعفر الطبري الذي كانت اختياراته هي الغالبة في هذا الكتاب، والحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير في تفسيره تفسير القرآن العظيم وهو العمدة في النقل والاختيار فقد ضمنت هذا الكتاب زبدة تفسيره بحروفه، والإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي في كتابه معالم التنزيل، والإمام عبدالرحمن بن الجوزي في كتابه زاد المسير والإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي في كتابه إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، والإمام أبي الحسن علي بن محمد الماوردي في كتابه النكت والعيون، والإمام محمد بن علي الشوكاني في كتابه فتح القدير والشيخ محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه أضواء البيان، وتقارير مشايخنا في العقيدة والتوحيد وبالأخص شيخنا العلامة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز والعلامة الشيخ محمد الصالح العثيمين، فمن هؤلاء يرحمهم الله اقتبست وكتبت هذا المختصر..

الذي أسأل الله أن ينفع به الأمة وأن يجعل العمل خالصاً لوجه الكريم، كما أسأله سبحانه أن لا يحرمني شفاعة القرآن العظيم ووالدي وأهلي وذريتي وجميع أقاربي والمسلمين.

وقد استغرقت في كتابة التفسير خمس سنوات عشتها مع القرآن العزيز في الحل والترحال فالحمد لله أولاً وآخراً على التوفيق وما امتن به علي من الإنعام والإتمام، كما أسأل الله تعالى أن يغفر لأبي وأن يرفع درجاته في المهديين وأن يجعله من ورثة جنة النعيم الذي رباني على الخير والهدى، وأسأله تعالى أن يبارك لوالدي في عمرها ويختم لها بخاتمة السعادة.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لِأَخِي فِي اللَّهِ الشَّيْخِ سَلِيحَانَ بْنِ حَمْدِ الْكَرِيدَاءِ يَرْحَمَهُ اللَّهُ
وَأَنْ يَرْفَعَ دَرَجَاتِهِ فِي الْمَهْدِيِّينَ، الَّذِي تَكْفُلُ طَبَاعَةُ هَذَا الْكِتَابِ كَمَا أَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَبَارِكَ
فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَزَوْجَاتِهِ وَلَا يَحْرِمَهُ وَلَا يَحْرِمَهُمْ أَجْرَ نَفْعِ هَذَا الْكِتَابِ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى
نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

وكتبه

الفقيه إلى عضوريه

أحمد بن صالح بن إبراهيم الطويان

المسجد الحرام قبالة الكعبة المشرفة

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

آياتها ٧

ترتيبها ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ مَلِكِ
يَوْمِ الدِّينِ ٣ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ٤ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ٥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
الضَّالِّينَ ٦

سورة الفاتحة

وهي سورة مدنية، سميت بالفاتحة لافتتاح القرآن بها

وهي أم الكتاب والشافية والرقية والكافية والصلاة وأم القرآن وهي السبع المثاني وهي أفضل سورة في كتاب الله.

والمشروع للمسلم عند قراءة القرآن أن يستعذ بالله ويلتجئ به ويعتصم به من الشيطان وهو المبعّد عن رحمة الله الرحيم المطرود عن الخير كله فهو عدو لأوليائه الله يدعوه إلى النار، فيُشرع للمسلم الاستعاذة منه، ومن المواطن التي يستعاذ من الشيطان فيها عند قراءة القرآن. ويشعر للقارئ البسمة، وهي استعانة العبد بربه جلّ وعلا في جميع أموره فهو يستعين بالله على قراءة كتابه العزيز، فالعبد لا عون له إلا من الله الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء وهو الرحيم بعباده المؤمنين المتقين، وهي جزء من آية من سورة النمل، والصحيح أنها ليست من آيات الفاتحة ولذلك لا يجهر بها في الصلاة.

والعبد مأمور بشكر الله وحمده والثناء عليه بما هو أهله ولذلك افتتح القرآن بالحمد، فالعبد يشي على الرب المالك المتصرف الذي أنعم على جميع المخلوقات وهي العالمين فكل ما سوى الله فهو عالم، فمن رحمته بخلقه أن أنعم عليهم ورزقهم وأوجدهم فهو سبحانه الرحمن يرحم المخلوقات كلها وهو الرحيم يرحم المؤمنين، وهو سبحانه مالك يوم القيامة فلا مُلك إلا لله ﷻ، وهو اليوم الذي تدان فيه الخلائق بأعمالهم، وهو يوم الجزاء والحساب لا يملكه إلا الله ﷻ.

ولذا يتوجب على العبد الإخلاص لله تعالى فلا يعبد إلا الله وحده لا شريك له فلا يصرف أي نوع من أنواع العبادة إلا لله، ومنها الاستعانة فلا يستعين إلا بالله ﷻ فهو سبحانه يعين عباده على تحقيق العبادة، فالعباد لا حول لهم ولا قوة لهم إلا بالله ولذا يسأل العبد ربه الهداية لسلوك الصراط المستقيم وهو الإسلام والتوحيد فلا موقف لسلوك طريق الإسلام إلا الله ﷻ فالهداية بيد الله ﷻ..

فهو الذي يهدي عباده ويوفقهم ويلهمهم التزام الدين الذي هو طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو سبحانه الذي يعصم عباده من سلوك طريق اليهود الذين عرفوا الحق وتركوه وجحدوه وطريق النصارى الذين ضلوا فعبدوا الله عن جهل، فوقعوا في الشرك، فاليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم وهذا يؤكد للمسلم أنه يجب عليه الحذر من طريقة اليهود والنصارى، فلا يتشبه بهم في الإعراض عن العلم الشرعي، ولا يوالهم ولا يواؤهم بل يعتقد ضلالهم وانحرافهم وكفرهم وأنه لا طريق ولا نجاة إلا بالإسلام الدين الخالص الذي هو طريق الأنبياء ومن اقتفى أثرهم واستن بسنتهم.

اللهم أحينا عليه وأمتنا عليه..

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

آيَاتُهَا
٢٨٦

نُزِيلُهَا
٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤
أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥

سورة البقرة

وهي سورة مدنية، وسميت بذلك لذكر قصة البقرة فيها

وهي سورة عظيمة يفر الشيطان من البيت الذي تقرأ فيه ولا تستطيع عليها السحرة وأخذها بركة وهي تشفع لصاحبها يوم القيامة.

أنزل الله ﷻ هذا القرآن معجزة لمحمد ﷺ، وهداية للبشرية فقد تحداهم الله ﷻ بالإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، فلم يستطيعوا، والقرآن بلغتهم التي يتكلمون بها مكوّن من حروف اللغة العربية الألف واللام والميم وغيرها ولذلك افتتحت بعض سور القرآن بتلك الحروف إظهارًا لعجز البشر أن يأتوا بمثل هذا القرآن

فهو كتاب الله تنزيلٌ من رب العالمين وهو كلام الله لا شك فيه نزل هداية للخلق أجمعين وموعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين..

فهدى الله به قلوب المتقين الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل أو امره واجتناب نواهيه فآمنوا بالغيب بما أخبر الله به وما أخبر به رسوله ﷺ، ولو لم يروه ولم يشاهدوه، وأقاموا الصلاة المفروضة في أوقاتها وأتوا بشروطها وأركانها وواجباتها، وتنافسوا بالتواضع، وأنفقوا مما رزقهم الله من الأموال ابتغاء وجه الله ﷻ، سرًا وعلانية يرجون تجارة لن تبور وأدوا زكاة أموالهم فلم ييخلوا بها، وصدقوا بما نزل على محمد ﷺ من الحق والهدى وما أنزل الله على الأنبياء قبله لا يفرقون بين أحد من رسل الله..

وأيقنوا بالبعث والنشور وما يكون يوم القيامة مما أخبر الله به وأخبر به رسوله ﷻ من الجنة والنار والحساب والميزان والصراط.

فهم على هداية من الله ونور وبصيرة وفقهم الله لذلك وما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم الله فكانوا من الفائزين الناجين من عذاب الله فكتب لهم الفوز والفلاح والنجاة.

فالإيمان بالغيب من صفة أهل الإيمان، وإقامة الصلوات والمحافظة عليها والاستزادة من نوافلها في جميع الأوقات هي قرة عيون المؤمنين، والإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى سرًا وعلانية من علامة الإيمان، والاستعداد للدار الآخرة واليقين بما أخبر الله ورسوله ﷻ بما يكون فيها صفة المهتدين المتقين الذين يعلمون أن الحياة ظل زائل وأن الآخرة هي دار القرار.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا
 يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى
 أَبْصَارِهِمْ غِشَوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن
 يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
 يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا
 يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا
 تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا
 إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
 ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا
 إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ
 إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي
 طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ
 بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

افترق الناس عند نزول القرآن فكان منهم المؤمنين الصادقين المتقين الذين آمنوا به وقد سبق ذكرهم، وكان منهم الذين كفروا الذين غطوا الحق وستره فلم ينفعهم إنذار النبي ﷺ وتبليغه لهم فلم يؤمنوا مع بذله ﷺ من النصح والإشفاق والحرص على هدايتهم، لأن الله كتب عليهم الشقاوة، فقد طبع على القلوب فلا تقبل الحق ولا تؤمن به، وطبع على سمعهم فلا يسمعون الحق سماع قبول وإذعان وتسليم، فلهم قلوب لا يعقلون بها، ولههم آذان لا يسمعون بها، ولههم أعين لا يبصرون بها الحق فعليها غطاء ستر أبصارهم عن رؤيته، فلهم العذاب الأليم والشديد يوم القيامة لكفرهم وعنادهم، والفرقة الثالثة هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر فهم يدعون بالستهم الإيثار وقلوبهم مصرة على الكفر كل ذلك خداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين فهم يظنون أنهم يخادعون الله وما علموا أن الله خادعهم، فهم المخدوعون حقيقة، فقلوبهم المريضة بمرض النفاق والرياء هي التي قادتهم للمخادعة فزادهم الله نفاقاً وإعراضاً جزاءً وفاً وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار لكذبهم ونفاقهم، وإفسادهم في الأرض بالكفر والعمل بالمعصية، وهم يدعون الإصلاح وما علموا أنهم هم الذين يفسدون في الأرض بموالاة الكفار وتوليهم، وتلك حال المنافقين في كل عصر ومصر، يدعون لأنفسهم العلم والبصيرة فإذا دُعوا إلى الإيمان الصحيح رموا أهل الإيمان بالسفه والجهل وفي الحقيقة هم السفهاء الذين ضعفت عقولهم عن إدراك الحق فرأوا الباطل حقاً والحق باطلاً وهم لا يعلمون بحالهم وجهلهم وذلك أشد وأبلغ العمى والبعد عن الهدى، ومن جهل المنافقين أنهم يظهرون الإيمان غروراً للمؤمنين وإذا ذهبوا إلى ساداتهم ورؤسائهم من أهل الشرك وأهل الكتاب اعترفوا ببقائهم على الكفر والشرك وإنما فعلوا ذلك استهزاءً بالمؤمنين.

وما علموا أن الله يستهزئ بهم فيملي لهم ليزدادوا إثماً ونفاقاً ومجازاة في الضلال حتى يكونوا في ضلالهم يترددون حيارى لا يجدون سبيلاً للخروج مما هم فيه فقلوبهم أصابها العمى، وهو عدم إبطار الحق وأنى لهم إبطار الحق واتباعه، فهم بنفاقهم اشتروا الكفر بالإيمان فبدلوا الهدى ثمناً للضلالة وهم أهل التجارة الخاسرة والبضاعة الخبيثة فلا هداية لهم بل لهم النهاية المؤلمة الخاسرة.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
 ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ
 بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ
 ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنِعْهُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ
 حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
 أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
 بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
 فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
 النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ضرب الله مثلاً للمنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى بمن أوقد ناراً وأشعلها فلما انتفع بنورها وأبصر ما حوله انطفأت النار وبقي حرها ودخانها وهم مع ذلك صم لا يسمعون الحق وبكم لا ينطقون بالحق وعمي فلا يبصرون الحق.

فهؤلاء المنافقون ذهب نور الإيمان من قلوبهم وبقوا في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى حق.

وهم وإن عاشوا في الدنيا في نعيم وحُقت دماؤهم وحفظت أموالهم بما أظهروا من الإسلام فهم في الآخرة لا نور لهم.

ومثلهم نوع آخر من المنافقين يعيشون الخيرة والشك بما في قلوبهم من مرض النفاق فهم في حالة من الشك والاضطراب والتقلب كمن يعيش في جو مطير أصاب الأرض ومعه الظلمة والرعد والبرق فهو يعيش حالة من القلق والرعب والخوف إذا أضاء له البرق مشى واستقامت حاله وإذا أظلم وقف حائرًا تائهاً، فهؤلاء المنافقون يتكلمون بما يخدع الناس في الظاهر وبواطنهم فيها النفاق فيبقون في تناقض وتذبذب وحيرة

والله ﷻ قادر على أن يأخذ سمعهم وأبصارهم فلا يسمعون ولا يبصرون، فهذه النعمة تستغل فيما يدل على الحق واتباعه.

فالله المنعم بها سبحانه وهو القادر على أخذها فالعباد يهتدون بنعم الله إلى عبادة الله وتوحيده ولذلك أمرهم بعبادته وحده لا شريك له فهو الذي خلقهم وأوجدهم من العدم وخلق جميع المخلوقات، فمن أراد النجاة فليعبد الله وحده لا شريك له الذي جعل الأرض فراشاً يتقلب العباد عليها وثبتها بالجبال الراسيات وجعل لهم السماء بناء وسقفاً محفوظاً وأنزل عليهم الماء من السماء فأنبث لهم الزروع والثمار، وكل ذلك دليل على وحدانيته فكل ما في الكون من المخلوقات تدل على الله وعلى استحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، وهو سبحانه لا مثيل له ولا شبيهه ولا كفو له فلا يجعل العبد لله شريكاً يصرف له شيئاً من العبادة.

فلا معبود بحق إلا الله، فمن اعترف بتوحيد الربوبية لا بد أن يعترف بتوحيد الألوهية.. وتلك هي العقيدة التي جاءت بها الرسل ودعت إليها..

فمن كان في شك وريبة من نبوة محمد ﷺ وما نزل عليه من التوحيد فليأت بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله ولن يستطيع ولو استعان بمن يصرف لهم العبادة ويدعوهم فلن ولن يستطيع الإتيان بمثل هذا القرآن، فإن كانوا لا يستطيعون فعلهم الإيمان والإيقان أنه من عند الله فيسلموا ويؤمنوا حتى يكون إيمانهم سبب وقايتهم من النار التي وقودها مما يلقي فيها من الناس والحجارة وهي حجارة من الكبريت تزيد النار احتراقاً، تلك النار التي هيئت وأعدت لمن كفر بالله وجحد رسالة محمد ﷺ.

فهذه النار مخلوقة ومعدة الآن وهي عذاب الله وعقابه للكافرين..

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ
رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿٢٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا
وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ
اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ
الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى
السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾



لما ذكر الله ما أعد للكافرين، ذكر ما أعد للمتقين المؤمنين من النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول فيشرهم ربهم بما أعده لهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الجنات التي تجري تحتها الأنهار وفيها من الثمار الذي يتشابه في الشكل ويختلف في الطعم ويتشابه بالجودة والحسن ولهم فيها الحور العين التي طهرت من القدر والأذى وهم منعّمون نعيمًا دائيًا لا انقطاع له وذلك تشويقًا لأهل الإيمان بالإعداد في هذه الحياة الدنيا، الذي يجعل المسلم يُسلم ويدعن فلا خيرة عند أمر الله وأمر رسوله

ﷺ

فما ضُرب من الأمثال في القرآن فهو للعبرة والعظة سواء ما كان في صغير أو كبير فتلك الأمثال لا يعقلها إلا العالمون الذين يعلمون أنها حق من عند الله.

فالله سبحانه يضرب المثل في البعوضة والذباب والعنكبوت وغيرها لتكون هداية للمؤمنين وضلالًا للفاستقين.

فالكفار هم الذين يعترضون على كتاب الله وهم الذين خرجوا عن طاعة الله، ونقضوا العهد والميثاق وهو وصية الله لعباده بطاعته ونهيبهم عن معصيته، وقطعوا أرحامهم التي أمر الله بوصلها والإحسان إليها فهم الخاسرون في الدنيا والآخرة؛ لأنهم أفسدوا في الأرض بالشرك بعد إصلاحها بالتوحيد، وكيف يكفر هؤلاء بالله ويشركون مع الله غيره وقد كانوا عمدًا فخلقهم وأوجدهم ورزقهم وأنعم عليهم فجحدوا نعمة الله، ثم أماتهم بعد حياتهم ثم يحيبهم بعد الممات ليوم البعث والنشور فيجازيهم بأعمالهم فإليه ﷻ المرجع والمآل، ومن نعمة الله على عباده أن خلق لهم ما يشاهدونه على وجه هذه الأرض حتى يستعينوا بذلك على طاعته، وخلق السماوات السبع وذلك دليل على قدرته وأنه المستحق للعبادة وهو العليم بكل شيء فعلمه وسع كل شيء فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

والعبد المؤمن إذا قرأ في كتاب الله ما أعد الله للمؤمنين استعد بالعمل الصالح واشتاق نفسه إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

فيعيش في هذه الحياة مستسلمًا لله بالتوحيد منقادًا إليه بالطاعة مخلصًا في عمله محافظًا على حدود الله يصل الرحم ويصلح في الأرض ولا يتبع سبيل المفسدين مستعينًا بنعم الله على طاعة الله ﷻ.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ
فَقَالَ أُنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا
سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَادَمُ أُنَبِّئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أُنَبِّأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُيُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَادَمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾
فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾
فَنَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

ذكر الله ﷻ قصة آدم عليه السلام فقد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن يجعل في الأرض من خلقه من يعمرها بالطاعة والعبادة تتوالى أجيالهم في هذه الأرض إلى قيام الساعة، ولم يكن للملائكة علم عن حكمة ذلك فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها بإراقة الدماء والقتال فيما بينهم ونحن نعبدك وننزهك عن النقائص ونسبحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا.

فقال تعالى إني أعلم ما لا تعلمون فسيكون منهم الأنبياء والرسل والصديقون والشهداء والصالحون والعباد والأولياء والعلماء، وشرف الله آدم بعد خلقه من تراب بالعلم فعلمه الأشياء كلها وما تسمى به وظهر علم آدم عليه السلام عليهم إذ لم يعرفوها ولم يعلموا ما طلب منهم معرفته.

وكان من أدب الملائكة أن ردوا العلم إليه سبحانه فلا علم لهم إلا ما علمهم الله، فعلمهم آدم أسماء الأشياء التي لم يعلموها فظهر فضله وكرامته فآله ﷻ يعلم غيب السماوات والأرض وما تضره النفوس وتخفيه وما تعلنه وتظهره، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وأراد الله إكرام آدم فأمر الملائكة بالسجود له فسجد الملائكة إلا إبليس الذي آيس من رحمة الله، لم يستجب كبرًا وعنادًا وحسدًا فطرد من رحمة الله فكان من الكافرين الضالين وهو إمام الضلالة.

وأكرم الله آدم وزوجته - وقد خلقت من أحد أضلاعه لتكون زوجة له - واخبرهما أن الشيطان لهما عدو مبين فأسكنهما الله الجنة وأباح لهما كل شيء فيها ينعمون به وحرّم عليهما شجرة واحدة ابتلاء وامتحانًا لهما، فما أباح للإنسان أكثر مما حرم عليه فيأبى إلا العصيان، فوسوس لهما الشيطان وأظهر لهما النصيح والإشفاق والمحبة وأنه يريد لهما الخلد في الجنة والبقاء فيها وأمرهما بأكل الشجرة المحرمة..

فأكلا منها فكان ذلك سببًا في الخروج من الجنة أخرجهما من دار النعيم والراحة فأهبطوا إلى الأرض جميعًا؛ إبليس وآدم وحواء لتكون العداوة بينهما إلى قيام الساعة فهذه الأرض قرار لهم فيها يرزقون ويحيون وفيها يدفنون بعد الموت إلى قيام الساعة..

فما كان من آدم من العصيان يستوجب للمسلم أن يخاف من المعصية ويتخذ الشيطان عدوا والعبد حين يذنب يتوب ويستغفر اقتداءً بأبيه آدم فدعا آدم ربه ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

فتاب الله عليه فهو سبحانه الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويفرح بتوبة العبد وهو كثير قبول التوبة من عباده وهو الرحيم المؤمن التائبين الصادقين.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ
 هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾
 يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
 أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ
 مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي
 ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
 وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
 الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ
 وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا
 هُدَايَ يُلَاقُوا رَبَّهُمْ وَالْغَافِلِينَ ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٧﴾
 يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ
 عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا
 يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٩﴾



بعد نزول آدم ﷺ إلى الأرض جعل الله لأهل هذه الأرض هداية ربانية بإرسال الرسل وإنزال الكتب لتكون لهم نوراً وهداية فمن اتبع هذه الهداية وصدق بها كانت نجاته وفلاحه فهو في الآخرة من الفائزين لا يخاف على ما يستقبله من أمر الآخرة ولا يحزن على ما فاتته من الدنيا.

وأما الذين كفروا وكذبوا وجحدوا هذه الهداية وأنكروها فهم أهل النار الذين لا يخرجون منها مخلصين فيها أبد الأبد، ويذكر الله ﷻ ما عليه بنو إسرائيل من التكذيب والجحود لرسالة محمد ﷺ وإسرائيل هو يعقوب فهم من ذريته، ويمتن الله عليهم بذكر ما أنعم الله عليهم مما سيأتي ذكره وما لم يذكر، فقد نقضوا عهد الله الذي أخذه عليهم من الإيثار بالرسول فقد وعدهم أنهم إن آمنوا برسول الله وضع عنهم الأصار والأغلال التي في أعناقهم وكفّر عنهم سيئاتهم وأدخلهم الجنة، وهذا ترغيب لهم بالإيمان وتوعدهم إن لم يؤمنوا بإنزال العقوبة عليهم كما نزل على من كان قبلهم من المسخ وغيره.

ونهاهم الله أن يكونوا أول الكافرين برسالة محمد ﷺ من بني إسرائيل ولا يعتاضوا عن الإيثار بآيات الله وتصديق الرسل بالدنيا وشهواتها فإنها قليلة فانية.

وأمرهم بالتقوى فهي النجاة والمخرج لهم وذلك بالإيمان بالله وبرسوله ﷺ ونهاهم عن خلط الحق بالباطل وكتيان الحق وإظهار الباطل ونهاهم عن كتمان نبوة النبي ﷺ التي يقرؤونها في كتبهم وأوصافه التي ذكرت في كتبهم وأمرهم أن يسلموا ويؤمنوا فيصلوا مع المسلمين ويدفعوا الزكاة للنبي ﷺ وأن يكونوا من جماعة المسلمين في جميع أعمالهم.

ويوجه إليهم سؤال إنكار كيف تأمرون الناس بالخير وتحذرونهم عليه فلما جاءكم رسالة الإسلام نسيتم أنفسكم فلم تأمروها بقبول الحق والهدى وأنتم تعلمون في كتبكم من أوصاف النبي ﷺ وصدقه فإن العقل والرشد في اتباع الحق وعدم مخالفة الفعل للقول، وهذه الوصايا هي وصية لجميع المؤمنين أن يعترفوا بنعم الله ويشكروه عليها وأن يوفوا بالعهد والميثاق والالتزام بعهد الله وميثاقه والتزام التوحيد ولا يدفعهم الهوى والشهوة لرد الحق واتباع الباطل ولا تغرهم الحياة الدنيا، وعليهم بالتزام التقوى فهي النجاة والمخرج، وعلى المسلم ألا يخادع ولا يخلط الحق بالباطل ويلبس على الحق هوى وشهوة وعليه أن يلزم الصلاة ويحافظ عليها فهي النجاة والنور والبرهان يوم القيامة والزكاة حق يجب إخراجها وإعطائها مستحقها ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم من أهم المهات والمسلم في الحياة يعيش في لأوائها وكبدها فيستعين على ذلك بالصبر على طاعة الله وعن معصية الله وعلى أقدار الله المؤلة ويستعين بالصلاة فهي نعم العون للعبد يجدها فيها المسلم الراحة والطمأنينة والسعادة والأنس واللذة.

وهي شاقة على المنافقين ولكنها على الخاشعين الخائفين المتواضعين المتدللين لله قرة عيونهم وأنس نفوسهم، فهم يستعدون بالصلاة ليوم تشخص فيه الأبصار، فهم يوقنون بيوم لا ريب فيه تجازى فيه الخلائق فاتخذوا الدنيا دار تزود واستعداد للدار الآخرة، فالعباد لا فضل لهم إلا بما فضلهم الله فإن أكرمهم عند الله أتقاهم، وإن ما كان فضلاً للأمم قبلنا إنما هو بما كان منهم من طاعة وعبادة الله فإذا عصوا وجحدوا فلا فضل لهم.

فهذه الأمة خيرها وفضلها في تمسكها بدينها وطاعتها لربها، فلا ينفع النسب ولا الجاه ولا المال فيوم القيامة يتبرأ الأخ من أخيه والابن من أبيه، فلا شفاعة لأحد إلا من أذن له بالشفاعة ورضى الله عن المشفوع ولا يستطيع أحد أن يفدي نفسه وليس له ناصر ولا معين فمن كفر فلا يقبل منه فدية ولا شفاعة ولا ينقذه من عذاب الله أحد.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ
وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ
بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طِيبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

يمتن الله على بني إسرائيل بإنقاذهم من فرعون فقد كان يذبح أبناءهم ويقتل نسائهم خوفاً من أن يخرج منهم من يكون سبباً في زوال ملكه وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة والرذيلة. فأنجاهم الله من ذلك العذاب وكان من نعم الله العظيمة عليهم فهو بلاء بالنعمة يجب أن يشكروه بالإيمان بالله وبرسوله ﷺ.

ويمتن الله على بني إسرائيل بعفوه عنهم لما عبدوا العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه وقد كانت أربعين ليلة ذو القعدة بتاهمه وعشر من ذي الحجة، وكان بعد نجاتهم من البحر. ويمتن الله تعالى على بني إسرائيل بما أنزل على موسى من التوراة التي هي فرقان بين الحق والباطل وهداية لبني إسرائيل ورحمة لهم.

ويمتن الله على بني إسرائيل بقبول توبتهم بعد عبادتهم العجل، وكان من توبتهم أن يقتلوا أنفسهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ومن عفو الله وتوبته على بني إسرائيل إحياء الله لهم بعد الصعق فقد طلبوا من موسى ﷺ أن يروا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فأحياهم الله بعد الموت، وفي ذلك دلالة على قدرة البارئ ﷻ على البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم للجزاء والحساب

ومن نعم الله على بني إسرائيل إضلال الله لهم بالسحاب الأبيض ليقبض حر الشمس وهم في التيه وإنزال الطعام والشراب عليهم من السماء، والطيور التي تنزل عليهم كل سبت.

ولكن بني إسرائيل ظلموا أنفسهم بالعصيان والجحود والكفر ولم يشكروا نعمة الله عليهم، والعبد المؤمن يعترف بنعم الله عليه ويشكره على نعمه الظاهرة والباطنة ومن أعظم النعم على العبد أن يهديه الله للإسلام ويشرح صدره بالإيمان.

والواجب على المسلم تحقيق التوحيد وتجريد العبادة لله وحده لا شريك له، وعليه أن يخاف من الشرك والوقوع فيه، ويحجب كل وسائله وطرقه الموصلة إليه، فالشرك ظلم عظيم يوصل إلى النار ويوجب الخلود فيها، وعلى المؤمن المسارعة إلى التوبة من كل ذنب، ومنها وسائل الشرك، وأنواعه، فالله يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ
أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا
وَأَشْرِبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسِيٰ لَن نَّصِيرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدْسِهَا وَبَصِلَهَا قَالِ اتَّسَبَدُوا الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ
اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾



لما قدم بنو إسرائيل من مصر أمرهم موسى ﷺ بدخول الأرض المقدسة فلسطين وذلك بعد التيه أربعين سنة فأمرهم أن يدخلوا باب البلد سجداً لله سائلين الله أن يحط عنهم ذنوبهم وأن يغفر لهم خطاياهم فإن في الاستغفار زيادة من الله وعفو وغفران فبدلوا وغيروا واستهزؤوا وقالوا حنطة في شعيرة مخالفة وعناداً

فأنزل الله عليهم العقوبة من السماء لفسقهم وكفرهم وعنادهم وتركهم أمر الله تبارك وتعالى، وهذا مصير كل من عاند وكابر واستكبر، وقد امتن الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل في استسقايتهم وإخراج العيون لهم من الحجارة القاسية، فأمر الله نبيه وكليمه موسى ﷺ بضرب الحجر بعصاه فانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً على عدد أسباط بني إسرائيل كل سبط علموا قدر شربهم، وأبيح لهم رزق الله وثبوا عن الفساد في الأرض، هذا هو الواجب على المسلم أن يستعمل نعمة الله عليه في طاعة الله.

ونعم الله لم تنقطع عن بني إسرائيل ولكنهم يجحدون وينكرون نعم الله فقد تضجروا من المن والسلوى الذي ينزل عليهم من السماء وطلبوا أن يأكلوا من الأطعمة الدنيئة من العدس والبصل والبقل والثوم.

فاستبدلوا الرديء بالذي هو خير فطلبوا تبدل العيش الرغيد والطعام الهنيء بأطعمة دنيئة فقال لهم نبيهم موسى ﷺ أن ما طلبتموه موجود في كل مصر وبلد.

فكانت الذلة والصغار عليهم بكفرهم برسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقتلهم الأنبياء وعصيائهم لأوامر الله ولاعتدائهم وعدوانهم.

فكانت الذلة عليهم بدفعهم الجزية لهذه الأمة وغضب الله عليهم وهذه عاقبة العصيان واستعمال نعم الله بمعصيته ونتيجة جحود النعم وكفرها، والمسلم المستجيب لأوامر الله الممثل لما كُلف به من الأوامر والنواهي يعيش في هذه الحياة عزيزاً بطاعة الله، فالعزة والكرامة والمجد والسؤدد هي بالطاعة والعبادة، والذلة والمهانة والمسكنة بالمعصية والسيئة.

فليعتبر المسلم بما جرى لبني إسرائيل وكيف أنزل الله عليهم عقابه وغضبه بعصيائهم وكفرهم.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ
 مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِذْ
 أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ
 بِقُوَّةٍ وَآذِكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
 فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٦﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا
 بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِذْ قَالَ
 مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنُخِذْنَا
 هَٰذَا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا
 ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ
 وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا
 ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
 إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٧٠﴾

لما بين الله تعالى حال الذين خالفوا أمره وارتكبوا نهيهِ وتعدوا حدوده بين حال من اتبع هديه واتبع أمره وآمن بالنبي محمد ﷺ بأن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ولهم السعادة الأبدية فبعد بعثه هذا النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام لا يقبل الله ديناً غير الإسلام ولا يرضى من أحد إلا اتباع محمد ﷺ فلا نجاة لأحد إلا باتباعه والاهتداء بهديه عليه الصلاة والسلام فيجب على أهل الأرض الإيمان به وتصديقه.

فلا اليهود ولا النصارى ولا الصابئة وهم الذين بقوا على فطرتهم يقبل منهم إلا الإسلام فكل من لم يكن مسلماً فهو من أهل النار، فلا حوار مع الأديان، إلا حوار دعوة إلى الإسلام

ثم يذكر الله تعالى منته ونعمه على بني إسرائيل لما رفضوا طاعة الله ونقضوا عهد الله رفع الله عليهم جبل الطور فرأوه فوقهم كالظلة كأنه سيقع عليهم فلما رأوه سجدوا لله فرحمهم الله وكشف عنهم.

وأمرهم الله أن يأخذوا التوراة بقوة وجد وحزم وأن يقرءوا ما فيها ويعملوا بها فتولوا وأعرضوا، ولكن فضل الله عليهم بقبول توبتهم وإرسال النبيين والمرسلين إليهم كانت سبب نجاتهم وإلا كانوا من الخاسرين بنقضهم الميثاق وعصيانهم أمر الله تعالى، ثم يذكر الله قصة أهل القرية الذي نهوا عن الصيد يوم السبت فتحايلوا على النهي فوضعوا شباكهم يوم الجمعة فوق الصيد فيها فمسخهم الله قردة وخنازير فكان عقابهم آية وعبرة لغيرهم وموعظة لمن بعدهم من المتقين الذين يتقون غضب الله تبارك وتعالى، وقصة البقرة صورة من صور عناد بني إسرائيل، وفيها من صور إحياء الله الموتى، وقد كان في بني إسرائيل رجل لا يرثه إلا ابن أخيه فقتله واتهم به الآخرين وكادوا يقتتلون فجاءوا إلى نبي الله موسى ﷺ فأمرهم بأمر الله بأن يذبحوا بقرة وظنوا أنه يستهزئ بهم يسألونه عن القتل ويأمرهم بذبح بقرة ولكنه أمر الله تبارك وتعالى، ليكون جزء من البقرة سبباً في إحياء القتل وإخباره بمن قتله.

والمسلم يأخذ أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ بالتسليم والإذعان ولو لم تظهر له الحكمة والعلة، ولا يتحايل على شرع الله ولا يرتكب النواهي بأدنى الخيل، ويأخذ كتاب الله العزيز بقوة فيعمل بها فيه من الأحكام بكل جد وحزم وقبول وإذعان.

قَالُوا اَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
 إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ
 تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا
 أَأَنْتَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ
 قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
 فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
 آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
 مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
 مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
 ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ أَفَنُظْمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
 يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا
 وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا نَهْمًا بِمَا فَتَحَ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

تعنت بني إسرائيل وكثرة أسئلتهم وتضييقهم على أنفسهم من أسباب تشديد الله عليهم، فلو ذبحوا أدنى بقرة لكفتهم، فأمرهم الله بذبح بقرة لا كبيرة هرمة ولا صغيرة بل هي بينها على النصف بين الكبيرة والصغيرة وبين لونها أنها صفراء صافية اللون ليس فيها لون غير لونها وليست مدللة بالحرارة ولا معدة للسقي في السواني بل مكرمة حسنة صحيحة لا عيوب فيها.

فذبحوها بعد كثرة أسئلتهم وترددهم فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فأخذوها بملء جلدھا ذهباً فذبحوها فضربوا بجزء منها القتل فقالوا من قتلك فقال ابن أخي ثم مال ميتاً. فأخرج الله القاتل وما كانوا يغيبون من أمره وهذا دليل وشاهد على إحياء الله الموتى سبحانه المحيي المميت.

ومع مشاهدة بني إسرائيل لإحياء القتل ونطقه إلا أنهم لا يزالون على قسوة قلوبهم وتمردهم وعتوهم وعنادهم فكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة.

فالحجارة تهبط من خشية الله وتسبح بحمد الله وتتصدق من ذكر الله ومن الحجارة ما تخرج منها العيون والماء، ولكن القلوب القاسية التي امتلأت معصية وإعراضاً وغفلة تكون أشد وأقسى فأبعد الناس من الله القلب القاسي.

فالقلب إذا امتلأ عناداً وكبراً اشتد قسوة وإعراضاً واسوداداً ويتوجه النداء للمؤمنين ألا يطمعوا بإيمان اليهود الذين شاهد آباؤهم البينات فلم تؤثر فيهم ولم تقدمهم للإيمان والتسليم بل حرفوا الآيات وبدلوا كلام الله بعدما فهموه وخالفوه، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا إنه نبي إليكم خاصة وإذا خلوا مع بعضهم قالوا لا تحدثوا العرب بأنه نبي وقد كنتم تخبرون أن النبي سيخرج آخر الزمان وقد أخذ عليكم الميثاق باتباعه والإيمان به فيحاجوكم بذلك ولا تخبروهم بما وقع لكم من العذاب والعقاب فيقولوا نحن أحب إلى الله منكم، والعبد المؤمن يكون على التسليم والقبول ويؤمن بقدرة الله ﷻ وأنه سبحانه محيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

ويبتعد عن كل ما يقسي القلب ويأخذ بأسباب خشوع القلب ورقته ولا يكتم الحق بل يؤمن به ويُسَلِّم.

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

الله تعالى يعلم ما تكنه الصدور وما تكتمه النفوس فهو سبحانه يعلم سر العباد ونجواهم فلا يخفى عليه خافية يعلم السر وأخفى.

ومن هؤلاء اليهود من لا يقرأ ولا يكتب ولا يعلم ما في كتبهم من الحق وإنما يعلمون الكذب والبهتان والافتراء.

ومنهم من يدعو إلى الضلالة بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل ويكتبون كتبًا وينسبونها إلى الله فويل هؤلاء مما كتبوا بأيديهم من الكذب وويل لهم مما أكلوا من تلك الأموال التي كسبوها من ذلك الكذب، وهم مع ذلك الباطل ادعوا لأنفسهم ما ليس لهم فقالوا لا تمسنا النار إلا أيامًا معدودة وهي مدة عبادة العجل أربعين يومًا فجاء الرد على كذبتهم واقترائهم هل اتخذوا عند الله عهدًا، فلا يخلف الله وعده ولكنهم يقولون على الله ما لا يعلمون بل الأمر على خلاف ما ادعوه؛ فمن عمل سيئة ومات على خطاياها ولم يتب منها وليس له من الأعمال حسنة فهو من أهل النار وأما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات فهم أهل الجنة خالدون فيها أبد الآباد.

وقد أمر الله بني إسرائيل بالتوحيد وتحقيق الإخلاص لله وحده لا شريك له وير الوالدين والإحسان إليهم وصلة الأرحام وبالإحسان إلى اليتامى والإحسان إلى الفقراء والمساكين، وبإحسان الكلام وقول المعروف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم تولوا وكفروا وأعرضوا عن أوامر الله وارتكبوا النهي.

والعبد المسلم يراقب الله ﷻ في جميع أموره فالله سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولا يسأل الله ما ليس له ولا يدعي ما ليس له بحق وليخلص العمل لله ويحقق التوحيد لله وحده لا شريك له ويحسن إلى والديه ويرهما ويصل الرحم ويحسن الجوار ويحسن إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ويطيب الكلمة ويحسن المعاملة ويحسن إلى الناس ويتعامل بالرفق واللين والإحسان وبالأخلاق الفاضلة.

ويقيم الصلاة على أكمل وجه وأحسن صورة ويؤدي زكاة ماله طيبة بها نفسه ليكون من المتقين.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
 ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
 مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلْثَامِ وَالْعُدْوَانِ
 وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
 إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا
 اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ
 بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
 بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ
 اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
 قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

أخذ الله على بني إسرائيل ألا يقتل بعضهم بعضًا ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم بالإقرار على ذلك ثم نقضوا ذلك العهد والميثاق فقتل بعضهم بعضًا وأخرج بعضهم بعضًا من ديارهم وذلك لما كانوا يشاركون حلفاءهم من الأوس والخزرج فكل طائفة تحارب مع حلفائها فيقع قتل اليهودي لليهودي وينتهبون بيوتهم وأثاثهم فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أولئك الأسرى من الحرب لأمر التوراة لهم فأنكر عليهم أيؤمنون بفك الأسرى وفدائهم ولا يؤمنون بتحريم قتال بعضهم بعضًا.

فمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض له الخزي في الحياة الدنيا من الذلة والصغار والهزيمة، وفي الآخرة من العذاب وهذه صفة من اشترى الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنه العذاب ولا يقل عنه ساعة وليس لهم ناصر ولا معين ينقذهم من ذلك العذاب، ويأتي وصف هؤلاء القوم بالعتو والاستكبار فلقد أرسل إليهم موسى عليه السلام وأتبع بالرسول بعده وأرسل عيسى ابن مريم بالمعجزات الباهرات وأهداه الله بجبريل عليه السلام فكذبوا وعصوا وحاولوا قتل عيسى عليه السلام وقتلوا غيره من الأنبياء وحاولوا قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عدة محاولات باءت بالفشل والخسران، وسحروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووضعت المرأة السم في الشاة.

ووصفوا أنفسهم بعدم الفقه والفهم فرد الله عليهم بأن ذلك كان سبب كفرهم وعتادهم واستكبارهم فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون وطردهم من رحمة فلا يؤمن منهم إلا القليل النادر. وكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه فلا يقتل المسلم أخاه المسلم ولا يظلمه ولا يُسلمه ولا يخذله فمن قتل مسلمًا فكأنما قتل نفسه، والمسلم لا يأخذ ببعض أحكام الشريعة ويترك بعضها بل يعمل بها جميعًا، فلا يأخذ من الشريعة ما يريد ويهوى ويترك الشريعة والعمل بها من أجل الهوى والشهوة والدنيا بل يكون وقافًا عند كتاب الله وسنة رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فكل ما أمر به في شريعة الإسلام يجب الأخذ به والعمل به وكل ما نهى عنه في شريعة الإسلام يجب اجتنابه وتركه.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا
 مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ
 مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾
 بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا
 أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا
 لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ
 مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ
 ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
 مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
 وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
 بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ ءِيمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾



كان اليهود قبل بعثة النبي ﷺ يتوعدون الأوس والخزرج بنبي يخرج آخر الزمان يقاتلون العرب معه قتال عاد وإرم ولكن لما بُعث النبي ﷺ من العرب وآمنت به الأوس والخزرج كفروا وكذبوا وجحدوا فطردهم الله من رحمته لأنهم من الكافرين الجاحدين لما كانوا من قبل يترقبونه ويتنظرون بعثته فشروا الباطل وأخذوا به وكتموا ما يعرفونه عن النبي الأُمي الذي يخرج آخر الزمان كل ذلك جحدًا وإِعراضًا وحسدًا فَبَسَّ ما باعوا به أنفسهم فرضوا بالكفر عن الإِيمان بالنبي ﷺ وتصديقه ونصرته وقد كانوا يرجون أن يبعث الرسول الخاتم منهم فلما كان من العرب حسدوا وكفروا وكتموا.

فكان غضب الله عليهم وعقابه عليهم وعذابه الذي يهينهم ويخزيهم.

وإذا طُلب منهم الإِيمان بالرسول ﷺ وتصديقه قالوا يكفينا ما أنزل الله علينا من التوراة والإنجيل ويكفرون بغيره، وما يكفرون إلا بالحق المبين وهو الوارد في كتبهم فتصديقه لما جاء في كتبهم من وصف النبي ﷺ والبطارة به، ولكنهم الكاذبون فقد قتلوا الأنبياء، وعبدوا العجل وظلموا أنفسهم بالشرك والكفر مع ما جاءهم به موسى ﷺ من المعجزات والآيات الواضحات ولم تزدهم تلك الآيات إلا عصيَانًا وجحدًا.

فقد أخذ الله عليهم الميثاق فلم يطيعوا ورفع فوقهم جبل الطور حتى ظنوا أنه واقع عليهم فنجاهم الله من ذلك فعصوا ولم يأخذوا التوراة بقوة وحزم وجد، وأحبوا الشرك من عبادة العجل، فكيف يدعون الإِيمان وهم قد نقضوا ميثاق ربهم وعصوا أوامر الله وعبدوا العجل وكفروا بما أنزل على محمد ﷺ.

فيعلم المسلم حقيقة اليهود وتاريخهم في الكفر والشرك والظلم والعدوان وما يحملونه للمؤمنين من الحقد والكراهية والحسد، فتاريخهم مليء بالأفعال القبيحة من نقض المواثيق وقتل الأنبياء والكفر بآيات الله وهم على الكفر ومن أهل النار لأن من لم يؤمن بالنبي ﷺ فهو من أهل النار.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ
 دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾
 وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ
 ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمَنَ الَّذِينَ
 أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ
 مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ
 مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
 مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
 وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا
 إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾
 أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
 مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

لما زعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى دعاهم النبي ﷺ بالدعاء على أنفسهم بالموت إن كانوا كاذبين، دعاهم إلى الدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فأبوا فدلّ أنهم يعلمون أنهم على الباطل وأن دين الإسلام هو الدين الصحيح ولكنه الحسد والكبر.

وهم مع ذلك يحبون البقاء في الدنيا لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة فهم يودون لو تأخروا عن الآخرة ويقوا في الدنيا.

ولن ينجيهم من العذاب أن يعمرُوا في الدنيا فمآلهم إلى العقاب والعذاب المهين فأحبوا البقاء في الدنيا بما عملوا فيها من المعاصي والسيئات فحببت الخطيئة لهم طول العمر، والعبد المؤمن يحب البقاء لعمل الآخرة، وخير المؤمنين من طال عمره وحسن عمله، والمسلم يتعلق قلبه بالآخرة والعمل لها وينظر للدنيا على أنها دار مر و ليست دار مقر وأنها مزرعة للآخرة، ويستعد دائمًا للآخرة والرحيل إليها..

واليهود أعداء المؤمنين وأعداء الملائكة فكانوا يقولون إن عدونا جبريل ﷺ فأظهر الله ﷻ مكانة جبريل ﷺ وأنه هو الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلب محمد ﷺ وأن من عاداه فقد عادى جميع الرسل لأنه الواسطة بين الله ورسله.

فهذا القرآن قد نزل به جبريل ﷺ ليكون هداية وبشارة للمؤمنين

فمن عادى الله وملائكته ورسله من الملائكة ومن البشر فإن الله عدو للكافرين وقد أنزل الله ﷻ على محمد ﷺ آيات واضحات دالات على نبوته وهي هداية لمن اهتدى بها ولكن اليهود كفروا بها وما يكفر بها إلا من طمست بصيرته، فهم نقضة المواثيق والعهد إلى يوم القيامة لا يفون بعهد ولا ميثاق وأكبر شاهد على ذلك نقضهم عهد الله الذي أخذ عليهم بالإيمان بنبوة النبي الخاتم محمد ﷺ فلما جاءت رسالته أنكروها وجحدوها مع أن كتبهم مليئة بأخباره وأوصافه وعرفوا نبوته كما يعرفون أبناءهم ولكنهم حسدوا وحقدوا.

وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۖ وَمَا كَفَرَ
 سَلِيمٌ ۚ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
 السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ
 وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ
 فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ
 وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ
 مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
 مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ ۚ
 أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا
 وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
 ﴿١٠٣﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
 آنْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾
 مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
 أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
 بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

اليهود من بهتهم وكذبهم نسبوا السحر إلى الله وأنه أنزله على سليمان ﷺ واتبع اليهود ما تنسبه الشياطين عن ملك سليمان وما تروي من الأخبار الكاذبة وتركوا نبوة محمد ﷺ وشريعته، وجاء القرآن بتكذيبهم بأن سليمان نبي من أنبياء الله ولم ينزل الله عليه السحر وأن السحر كفر مخرج من الملة.

وإنما أنزل الله الملكين هاروت وماروت لبيان أن السحر علم يتعلم وليس للساحر من خصائص الألوهية شيء، وكان نزولهما وتعليمهما الناس السحر ابتلاء وامتحاناً للخلق، والسحر له حقيقة يؤثر في نفس المسحور وهو أنواع منه الصرف والعطف وهو ما يفرق بين الزوج وزوجته وما يحب المرأة إلى زوجها والزوج إلى زوجته، وتعلم هذا السحر كفر بالله تعالى ويخرج من الملة ويضر ولا ينفع ويضر بالآخرين ومن تعلمه فقد ضل ضلالاً بعيداً وما له في الآخرة من نصيب ولا حظ واليهود اعتاضوا بالإيمان السحر وقد سحر لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله ﷺ.

وحد الساحر ضربة بالسيف لأنه كافر يصرف العبادة للشياطين، فلو أن السحرة آمنوا واتقوا وأطاعوا لكان خيراً لهم وأحسن حالاً ومالاً من حالهم في الكفر والسحر. والسحر تغيير للحقائق وطمس لها ولذلك أمر المؤمنون بأن لا يكونوا كاليهود يحرفون الكلم ويتكلمون بكلام ويقصدون غيره مثل قولهم راعنا إذا أرادوا أن يقولوا انظرونا فهم يقصدون الرعونة فنهي المسلمون عن مشابهتهم

وهذا نهي عن التشبه بالكفار بأقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعبادتهم فهم يحسدون أهل الإيمان ولا يريدون أن ينعموا بالخير حسداً وحقداً وبغضاً للمؤمنين، والله سبحانه هو المنعم على عباده وهو سبحانه الذي يعطي ويمنع ويرزق من يشاء وهو الرزاق الكريم وهو الذي يتفضل على عباده بالنعم والخير ولا يمنعه فضله وعطاءه أحد من الناس، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا يتفع ذا الجدم منه الجدم.

﴿٩٦﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا
 أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٩٨﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
 كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ
 فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٩٩﴾ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
 مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا
 وَاصْفَحُوا ۚ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 ﴿١٠٠﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ
 مِّنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
 ﴿١٠١﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ
 تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
 فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٣﴾

النسخ في القرآن أنواع؛ نسخ اللفظ والحكم جميعاً أو نسخ اللفظ وبقاء الحكم أو بقاء اللفظ ونسخ الحكم.

وما ينسخه الله من الآيات أو يؤخر نسخها فإنه يأتي بخير منها أو مثلها فالنسخ لحكم عظيمة فقد تكون الآية الناسخة لها خير للمكلفين وأرفق بهم وفيها تيسير عليهم وتخفيف.

فالله ﷻ له ملك السماوات والأرض ينسخ ما يشاء ويثبت ما يأمر بما يشاء وفي ذلك رد على اليهود الذين أنكروا النسخ، فإله سبحانه خلق الخلق وهو سبحانه المدبر لهم فعلى العباد الطاعة والانقياد والقبول، فله سبحانه الخلق والأمر، والمسلم يمثل ويذعن، ونهي المسلمون عن كثرة الأسئلة عن الأشياء قبل وقوعها أو السؤال على وجه التعنت والاختبار أو التكذيب والعناد فقد سأل بنو إسرائيل موسى أكبر وأعظم فقالوا أرنا الله جهرة، فمن اشترى الكفر بالإيمان فقد ضل الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهي حالة كل من كذب الأنبياء والمرسلين وخالفهم من أهل الكتاب وغيرهم فأهل الكتاب يحملون الحسد والحقد ويودون كفر المؤمنين مثلهم لما رأوهم على الحق والهدى فهم يعلمون أن المؤمنين على الحق فحسدوهم وودوا لو يكفرون كما كفروا، فأمر المؤمنون بالعفو والصفح عمن ظلمهم حتى جاء أمر الله بقتل المشركين حيثما وجدوا فكل مشرك محارب يجب قتاله أما المعاهد والذمي والمستأمن فلا يجوز قتلهم؛ لأنهم قد عصمت دماؤهم بالعقد والعهد، والميثاق، وأمر المؤمنون بإقامة الصلاة فهي سبب لقوتهم على أعدائهم، والإنفاق في سبيل الله من إتياء الزكاة والصدقة والبذل، وما يقدم المسلم من شيء إلا سيجده ظلاً يستظل به يوم القيامة.

فالمؤمنون يعتزون بإيمانهم وأعمالهم الصالحة وهي التي تميزهم عن غيرهم فإن الكرامة والشرف في الالتزام بتعاليم الإسلام.

أما اليهود والنصارى فإنهم يرون أنه لا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً أو نصرانياً وتلك أمانى يتمنونها ويدعونها بدون حق وبدون علم وبدون حجة ولا دليل ولكنها أمانى يدعوها فاليهود قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، ولكن الحقيقة الصحيحة أن العقاب الحميدة لمن أسلم وجهه لله وأخلص العمل لله وعمل صالحاً فهو من المحسنين الذين يراقبون الله تعالى في جميع أعمالهم وأقوالهم.

والذين لهم الحسنى وزيادة فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما يتركونه في الدنيا فلهم الأمن في الدنيا والآخرة.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ
اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ
لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
فَإِنَّمَا تُوَلُّوا فُجَاهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾
وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ
قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ
قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

أهل الكتاب من اليهود والنصارى متناقضون ومتباغضون ولكنهم يتحدثون ضد الإسلام وأهله فاليهود يدعون أنهم على الحق والهدى وأن النصارى ليسوا على ذلك، والنصارى يدعون أنهم هم الذين على الحق وأن اليهود ليسوا على شيء، وهم بأيديهم كتبهم ويعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ولكنهم تجاهدوا فيما بينهم عنادًا وكفرًا، وقال العرب الذي لا يعلمون مثل قولهم فقالوا محمد ليس على شيء.

والله ﷻ الذي يقضي بينهم يوم القيامة ويظهر أهل الحق والهدى بأن تكون لهم العاقبة في الدارين. والمساجد بيوت الله تعالى بنيت لذكره وإقامة الصلاة فيها فأشد الناس ظلمًا من منع إقامة ذكر الله فيها وإقامة الصلاة، وسعى بقطع الناس عن دخولها وارتياحها فالنصارى الذين خربوا بيت المقدس وسعوا في خرابه والمشركون الذين منعوا الرسول ﷺ من دخول مكة يوم الحديبية وغيرهم إلى قيام الساعة لهم خزي في الدنيا وفي الآخرة عذاب عظيم فهؤلاء وأمثالهم لهم الخوف في الدنيا والخزي والعذاب في الآخرة. ومن منع من دخول المساجد وأخرج من بلده فلله المشرق والمغرب أينما صلى فهو يصلي لله تبارك وتعالى وله الصلاة في أي مكان يستقبل المسجد الحرام في صلاته، ويجوز له أن يصلي النافلة في السفر على أي اتجاه كما كان النبي ﷺ يفعله، فالله ﷻ مطلع على أعمال العباد في كل مكان عليهم بأفعالهم وصلواتهم وحركاتهم وسكناتهم.

فالمسلم يعلم باطلاع الله عليه فيراقب الله في كل شيء وينزه الله عن النقائص ويسبحه ويقده، فهؤلاء اليهود والنصارى نسبوا الله الولد، والمشركون قالوا الملائكة بنات الله تعالى الله وتقديس عما يقول الظالمون علواً كبيراً فالخلق عباد الله له يصلون ويسجدون ويركعون وله يقرون بالعبودية، خلق السماوات والأرض فأحسن خلقهما، وإنما أمره إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وهذا دليل قدرته سبحانه وهو على كل شيء قدير، ولكن المشركين الكافرين يحسدون نبوة النبي محمد ﷺ ويطلبون منه أن يخاطبهم الله ويكلهم بنبوته أو يرسل آية تدل على صدقه، وهذه المطالب طالب بها اليهود والنصارى من قبلهم فقد تشابهت قلوب المشركين في الكفر والعناد والعتو والاستكبار، تلك القلوب التي لا تبصر الحق والهدى فقد أوضح الله سبحانه صدق رسله بالدلائل والبراهين والمعجزات ولكن لا يبصرها إلا أهل اليقين عن اتباع الرسل وآمن بهم، فلقد أرسل هذا النبي الخاتم ﷺ بالحق والهدى يبشر بالجنة وينذر من النار فعليه البلاغ ولن يُسأل عن حال أهل الجحيم الذين عصوا وكذبوا وجحدوا.

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَادِي وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٣٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣١﴾ يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٣٣﴾ وَإِذْ أَبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٣٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٣٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٣٦﴾



مهما قدم المسلمون من تنازلات لليهود والنصارى فلن يرضيهم ذلك، ولن يرضوا إلا بالخروج من الدين الإسلامي ودخول اليهودية أو النصرانية لما يحملونه من حقد وكرهية للمسلمين، فهؤلاء تحمل قلوبهم الحقد والكرهية للمسلمين.

والأمة المسلمة يجب أن تعلم أن اليهود والنصارى لا يرضيهم إلا التخلي عن الإسلام، فجاء التوجيه للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه بأن اليهود والنصارى لن يرضوا عنه، ودين الإسلام خير الهدي وخير الأديان جعل الله فيه الخير والهداية فلن يجد أحد الهداية إلا عن طريق الإسلام، فمن اتبع أهواء أهل الكتاب فقد ضل سواء السبيل ومن استبدل الهداية بالضلالة فما له من دون الله من ولي ولا نصير، وأما المتمسكون بكتاب ربهم يقرؤونه ويتبعون ما فيه من الهداية فهم المؤمنون حقاً، أما من كفر به فهو الخاسر في الدنيا والآخرة، ويأتي التذكير لربي إسرائيل مرة أخرى بذكر النعم عليهم وتفضيلهم على أهل زمانهم فعليهم تقوى الله واتقاء عذاب يوم القيامة ذلك اليوم الذي تجزى فيه النفوس ولا يملك أحد لأحد نفعاً ولا ضرراً.

ويذكر الله شرف إبراهيم أبي الأنبياء وسيد الخنفاء ﷺ فقد كلف واختبر وامتنحن فقام بما كلف به وفاز فيما امتنح به، ابتلي بشرائع وأوامر ونواهي فقام بها فكان من المؤمنين الصادقين حتى كان إماماً في الحق والهدى جزاء بما قام به من الأوامر وترك الزواجر، فكان قدوة يقتدى به ويحتذى به وأسوة، وجعل الله من ذريته الصالحة أنبياء ورسل، أما من ظلم من ذريته وعصى الله فلا يكون كذلك.

وجعل الله البيت الحرام الذي بناه إبراهيم ﷺ وابنه إسماعيل مجتمعاً للناس يترددون عليه فلا يقضون منه حاجتهم ونفوسهم متعلقة بهذا البيت، يجدون فيه الأمن والأمان، أمنٌ للقلوب وللأبدان، فيه مقام إبراهيم معجزة خالدة وباقية وآية عظيمة، يقصد للصلاة خلفه ركعتي الطواف، ذلك البيت الذي طهر من الأذى والنجس، ومن الشرك والوثنية فهو طاهر بتطهير الله له على يد أنبيائه إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فبه يطوفون ويعتكفون ويركعون ويسجدون، وتلك دعوة إبراهيم ﷺ لهذا البيت بالأمن والأمان والسعة في الرزق والرغد في العيش وبركة في الطعام والشراب، تلك الدعوة للذين آمنوا وأخلصوا العمل لله أما من كفر فهو يتمتع فيها ويمهله الله في الدنيا وله في الآخرة العذاب الأليم.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
 مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
 لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا
 إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
 مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
 وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنِ
 مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
 وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ
 قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ
 وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
 وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
 الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ
 إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا
 وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
 مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

أمر الله ﷻ خليله ونبيه إبراهيم ﷺ أن يبني البيت الحرام بمكة فقد أسكن ابنه إسماعيل وأمه هاجر في ذلك الوادي الذي لا زرع فيه ولا ماء بأمر من الله.

ثم أمره الله ببناء البيت ورفع قواعد البيت ويساعده ابنه وفلذة كبده إسماعيل ﷺ، فبناه بالحجارة فكانا بينان البيت ويدعوان الله بالقبول منها، وأن يبارك في ذريتهما ويجعل فيها الإسلام والخيرية ويجعل في هذه الذرية الإخلاص والتوحيد ودعوا الله أن يعلمهما المناسك، فعلم الله إبراهيم مناسك الحج، وكان من دعائها الدعوة لأهل هذا البيت الحرام ببعثة سيد المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام، فبعث الله من هذا البلد الحرام رسول الله ﷺ، فعلمهم القرآن والسنة، وكانت دعوته تزكية للعرب والعجم وهداية للبشرية، ودعوة محمد ﷺ هي أولى الدعوات بدعوة إبراهيم ﷺ فهي دعوة التوحيد فمن زهد في هذه الدعوة وهي ملة إبراهيم فقد ظلم نفسه بسفهو وسوء تدبيره حيث خالف طريق من اصطفى الله من عباده في الدنيا للهداية والرشاد، وإمامهم إبراهيم ومحمد ﷺ، فأبراهيم إمام الحنفاء وقدوتهم أمره الله بالإخلاص له والاستسلام له فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرًا، وكانت وصيته لأبنائه بالتزام هذه الملة وهي الإسلام والحياة عليها والموت عليها فإن من التزمها في الحياة مات عليها بإذن الله تبارك وتعالى وثبته الله عند الممات. وتواصت ذريته من بعده على ذلك فيعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وهو إسرائيل وصى بها بنيه عند الموت، وصاهم أن تكون نهايتهم على كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وصاهم ليموتوا عليها فيبعثوا عليها، وهي أعظم وصية يوصى بها، وخير نهاية للحياة، فمن كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة.

اللهم أحينا عليها وأمتنا عليها وثبتنا عند قولها يا حي يا قيوم.

تلك الأمة العظيمة التي دعت إلى التوحيد وعاشت عليه وماتت عليه لها عملها وأجرها وثوابها ولكل عملها وأجره، فكل نفس لا تُسأل إلا عن نفسها، ولن تسأل عن غيرها.

فالعبد المؤمن يتعاهد نفسه وذريته بالوصية بالتوحيد والدعوة إليه والتذكير به جعلنا الله من أهل لا

إله إلا الله.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
 حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
 أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
 مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
 فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
 هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 ﴿١٣٧﴾ صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
 عِبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
 وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
 نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
 بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
 وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام هي الخنيفية وهي الهداية للبشرية، ولو ادعى اليهود والنصارى أن طريقتهم هي الهدى، فالهداية في توحيد الله وحده لا شريك له، فالخنيفية هي الميل عن الشرك إلى التوحيد وهي الانبعاث لمنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام وهي الإيمان بجميع الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم.

فإن أراد أهل الكتاب الهداية فليؤمنوا بجميع الرسل أولهم نوح وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام ومنهم إبراهيم وابناه إسماعيل وإسحاق، ويعقوب بن إسحاق، والأسباط وهم أبناء يعقوب، وموسى وعيسى عليهما السلام فلا يفرقون بين أحد من رسل الله بل يؤمنون بهم جميعاً لأن من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، والإيمان برسل الله يتضمن الإيمان بأنهم رسل مكرمون أرسلوا الهداية البشرية وحجة على عباد الله.

فمن آمن بهم فقد اهتدى ومن أعرض وكذب بالرسل فإنما هو مجادل ومعرض فسينصر الله نبيه والمؤمنين عليه، فعلى المسلم الالتزام بالتوحيد والعقيدة الصحيحة فهي النجاة من النار وهي سبب دخول الجنة والفوز بمروضة الله تعالى، فبالتوحيد تحقيق العبودية لله تعالى، فمن خاصمنا وناظرنا في التوحيد والإخلاص لله والانقياد له فهو شرك ربنا وحده لا شريك له وهو ربهم ولنا أعمالنا ولهم أعمالهم فنتبرأ مما عملوا من الشرك واللوثنية والمعصية والتكذيب

ونحن على الإخلاص والتوحيد أما ادعاؤهم أن أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا من اليهود أو النصارى فالله سبحانه وتعالى أخبر وهو العليم أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، فهل اليهود والنصارى أعلم أم الله.

ومن أعظم الظلم كتمان الشهادة والحقيقة هوئى وطمعاً فإن الله يعلم أعمال العباد وما هم عاملون، فلا ينفع الانتساب إلى أنبياء الله دون عمل ومتابعة، فلا بد من الانقياد إلى ما جاءت به الرسل والعمل به وبالأخص دعوة سيد المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فمن أراد الشرف والمكانة والعز والتمكين فليؤمن برسالته وليكن من أتباعه حشرنا الله في زمرة وجعلنا من أتباعه.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا
 عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
 شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا
 جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ
 مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
 هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
 لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ زُرِيَ تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ
 فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ
 عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ
 آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ
 بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

الله الحكمة البالغة فيما يأمر به ويشرعه لعباده وعلى العباد التسليم والقبول والإذعان، ومما ابتلى الله عباده به تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام فكان فتنة وابتلاء، فقد صلى النبي ﷺ بأمر الله إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا ثم أمر بالتحويل إلى استقبال المسجد الحرام.

فقال اليهود لا يدري محمد أين يتجه ترك قبلة الأنبياء قبله، وقال المشركون اليوم تحول إلى قبلتنا وسيتحول إلى ديننا، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا، فالله سبحانه له المشرق والمغرب يأمر عباده بما يشاء ولكن السفهاء الذين لا يعلمون هم الذين يعارضون أوامر الله عن جهل وعناد وإصرار.

فالله سبحانه يهدي عباده لما فيه خيرهم وصلاحتهم فهو سبحانه الذي هداهم للإسلام وعلمهم الحكمة والقرآن، وجعل أمة الإسلام خير الأمم وجعل قبلتهم خير قبلة إلى خير بقعة، لتكون شهادة للأنبياء بالبلاغ لرسالاتهم لأن الله سبحانه أخبر في القرآن عن تبليغهم دعوة الله، فهي أمة العدل الوسط، ويكون نبيها محمد ﷺ شاهداً عليها.

تلك الأمة الخيرة هي الأمة المستجيبة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وما كان تحويل القبلة إلا ليميز الله أهل الإيمان من أهل النفاق فالذين آمنوا وصدقوا يعلمون أنه الحق من ربهم وأما من في قلبه مرض كان ذلك سبب ارتداده عن الإسلام، ومن مات قبل تحويل القبلة فما كان الله ليضيع صلاتهم التي صلوها إلى بيت المقدس بل لهم أجرها وثوابها فمن رحمة الله بعباده ألا يكلفهم بما لا يطيقون ولا يستطيعون، ومن رحمته سبحانه ثوابه لعباده.

وكان النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه يحب أن يستقبل المسجد الحرام بعد هجرته، وكان ينظر في السماء فأمره الله بالتحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام فإلى جهة الكعبة يصلي، وكانت أول صلاة صلاها صلاة العصر، وأمر المسلمون بالتوجه لاستقبال البيت الحرام في كل مكان من الأرض، وذلك أمر قد كتبه الله وقضاه، وأهل الكتاب من اليهود يعلمون ما في كتبهم من وصفه ﷺ ووصف شريعته الكاملة ولكنهم يكتمون الحق حسداً وكفراً وعناداً.

ولذلك لن يستقبلوا قبلة النبي ﷺ فكما أنكروا نبوته سينكرون قبلته ولو أقيم لهم الدليل، فما كان النبي ﷺ ليتبع قبلتهم ويخالف أمر الله ﷻ، ونهى الله المؤمنين أن يتركوا الحق لمجرد الهوى فإن ذلك ظلم للنفس واتباع للباطل.

فالمسلم الحق هو الذي يمثل ويقبل أمر الله ويسارع للعمل دون أن يتردد أو يشك به أو يجادل، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ولذلك الصحابة لما أخبروا بتحويل القبلة استداروا في الصلاة فكان أول الصلاة إلى بيت المقدس وآخرها إلى البيت الحرام.

الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ
 فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا
 فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
 وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا
 اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
 شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ
 يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُونِي
 أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

أهل الكتاب يعرفون صدق نبوة النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم وهم يكتُمون ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ وهم يعلمون أنه الحق وأنه النبي الخاتم الذي كانوا يتمنون أن يكون منهم وهم متيقنون من صدقه وذلك تسلياً للنبي ﷺ لأنه هو الحق الذي نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين فلا يحصل له أدنى شك ولا ريباً برسالته وإن أنكرها اليهود، وإن رسالة النبي ﷺ خير الرسالات وأشرفها ولكل أمة من الأمم وجهة يتوجهون إليها ولكن هذه الأمة لا ترتبط بالأماكن ولا بالأزمان وإنما ترتبط بالأوامر الربانية وتتعلق بالالتزام في التسابق في ميدان الخيرات فإنه مضمار المؤمنين وسبيل المتقين، فالمؤمنون حقاً هم المسارعون والمتنافسون والمتسابقون في طريق الحق، فهذه الحياة ميدان للسباق والجميع تحت قدرة الله ومشيئته، وسيجمع الله الخلائق يوم القيامة، ويأتي التأكيد على استقبال البلد التي خرج منها النبي ﷺ مهاجراً لبيان شرفها ومكانتها، ويتوجه إليها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لتتقطع حجج اليهود الذين يعلمون في كتبهم أن قبلته الكعبة، وتتقطع حجة المشركين الذين يفخرون بالبيت ولكن الظلمة من اليهود والنصارى لا يقنعهم شيء، فهؤلاء وإن ظلموا وتجبروا وطغوا فالمسلم لا يخشاهم ويخافهم وإنما يخاف الله تبارك وتعالى، فإن من خاف الله واتقاه أتم الله عليه نعمة الإسلام والهداية إليه، فإن من أعظم النعم الهداية لهذا الدين فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ومن النعم على هذه الأمة إرسال هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، بعثه الله من العرب بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً جاء بالآيات البينات التي تطهر القلوب والنفوس من الرذائل ودنس الجاهلية ورجسها، ويعلمهم القرآن والسنة التي فيها العلم النافع الذي يزيل الجهل وينير للمسلم الطريق، فعلى المسلم شكر هذه النعمة وذكر الله تعالى سرّاً وجهراً فإن ذكر الله رأس الشكر، فالشكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح، فمن ذكر الله ذكره الله في الملاء الأعلى، فيشكر المسلم ربه للهداية والتوفيق للصراف المستقيم والمنهج القويم فيستعمل نعمة الله في طاعته ومرضاته، ولا يكفر النعمة باستعمالها فيما حرم الله، فإن كفر النعم سبب لزوالها.

ويستعين المسلم على أمور دينه ودنياه بالصبر بأنواعه، الصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله والصبر على أقدار الله المؤلة، ويستعين بالصلاة فهي النور والنجاة والبرهان والصلة بين العبد وربّه، وهي تعين المسلم وهي قرة عين المؤمن يجد فيها المسلم السعادة والطمأنينة والراحة من كبد الدنيا وشدتها، فينعم بالأسس بالصلاة، لأنها مناجاة ودعاء وذكر وقراءة وابتهاال، يتعلق فيها القلب فيطمئن ويأس فمن استعان بها وجد فيها نعم العون.

فالصبر والصلاة سلاح للمؤمن في كل أزمة وكل شدة، فالله مع الذين صبروا يؤيدهم ويحفظهم.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ
لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٥﴾
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ
فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ
بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كَفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ
﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾



الصبر له مجالات متنوعة ومن ذلك الصبر على أقدار الله المؤلمة ومنها فراق الأحبة، ففقدتهم يحتاج إلى صبر ومصابرة سواء كان فقدهم في القتال في سبيل الله أو في غيره، فالشرف لمن قتل في سبيل الله وحياته الأخروية تعزية لمن يحبه، فهو حي يرزق في حواصل طير خضر تأوي إلى قناديل تحت العرش، فالشهداء لهم نورهم وأجرهم عند الله، وإن انتقلوا من الدنيا إلى نعيم الآخرة يستبشرون بنعمة الله عليهم، ويمتنح الله عباده المؤمنين بالخوف وعدم الأمن، فالأمن نعمة من الله تعالى، والخوف بلاء وشدة يبتلي الله فيه العباد، ويبتليهم بالجوع ونقص في الأموال والثمرات لعلهم يرجعون وينيبون ويتوبون ويستغفرون فما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة، ويمتنح الله تعالى عباده بفقد الأنفس من الأتارب والأحباب والأصحاب فتكون البشري بالأجر والثواب وبالغفور للصابرين وحدهم الذين إذا وقعت عليهم المصائب علموا أنها من عند الله وهي قضاؤه وقدره فيسلموا ويرضوا ويصبروا ويقولوا إنا لله وإنا إليه راجعون فكلهم تحت قدر الله وقضائه، وهم خلق الله وهم سيتقلون من هذه الدار وراجعون إلى ربهم فيجزئهم بصبرهم وإيمانهم فلهم ثناء الله عليهم في الملأ الأعلى ولهم الرحمة منه سبحانه، ومن رحمته لهم أن رزقهم الصبر والاحتساب، فهم الذين اهتمدوا وعرفوا الحق فجمعوا بين الإيمان بالقضاء والقدر وبين الصبر والاحتساب فكانت لهم العاقبة الحميدة، ومثال للصبر والمصابرة صبر هاجر أم إسماعيل عليه السلام على أقدار الله المؤلمة وسعيها بالأخذ بالأسباب مع الصبر والتسليم فكانت لها العاقبة الحميدة والفرج القريب فكان سعيها بين الصفا والمروة شعارًا لذلك، والصبر تسليم وإذعان ومن تمام التسليم والمتابعة الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث سعى بين الصفا والمروة وقال إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا، فالصفا والمروة من أعلام الدين الظاهرة التي يتعبد الله بالسعي بينهما فمن قصد هذا البيت لحج أو عمرة فلا بد أن يسعى بينهما ليكمل نسكه، ولا يترجأ أحد من المسلمين أن كانت الأصنام عليها تعبد من دون الله فقد زال ذلك وأمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالسعي فالسعي من الطاعات التي يتقرب بها الحاج والمعتمر وما يفعل أحد طاعة لله إلا كانت خيرًا له في الثواب والأجر والله تعالى يقبل من عباده القليل ويثيب الكثير، وهو سبحانه الذي يعلم نياتهم، وهو تعالى هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم فقد أنزل الله البينات والهدى والعلم النافع لينير للناس طريقهم إليه، فمن حمله من أهل العلم فيجب عليه تبليغه ويحرم عليه كتمانها فمن كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة، فكتان العلم سبب لغضب الله والطرده عن رحمة الله وسبب للعن الناس لأنه غش لهم، وتفريط في الأمانة، وعصيان لله وعصيان للرسول صلى الله عليه وسلم، ومن تاب من كتمان العلم تاب الله عليه، فهو سبحانه يتوب على من تاب ومن علامة التوبة البيان بعد الكتمان والقيام بالمسئولية، ومن مات على الكفر فهو مطرود عن رحمة الله وهو من أهل النار تلعه الملائكة والناس أجمعون، فلا يجوز الترحم عليه ولا تصحيح كفره فهو قد ختم له بالكفر نسأل الله السلامة والعافية كما نسأل الله الممات على هذا الدين، وعلى التوحيد الخالص، والذي يجب على كل مسلم اعتقاده أن الله وحده لا شريك له في الألوهية فهو متوحد في ذاته وأفعاله وأسمائه وصفاته، وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفورًا أحد فمن مات على هذه العقيدة فهو من أهل الجنة فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
 مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
 بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ
 النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ
 الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
 إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
 وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا
 لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
 أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾
 يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا
 خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
 بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

التفكر في مخلوقات الله تبارك وتعالى عبادة يتعبد بها المسلم ربه، وهو يقود إلى التوحيد، فتلك المخلوقات تدل على استحقاقه للعبادة، فخلق السماوات في ارتفاعها واتساعها وكواكبها ونجومها. والأرض في بحارها وجبالها ووديانها ووهادها وعمراها يعيش الناس على ظهرها قد خلق الله لهم ما على ظهرها من كل دابة، واختلاف الليل والنهار يذهب هذا ويحيي هذا يتعاقبان على الدوام واختلافهما في الطول والقصر والحرارة والبرودة والظلمة والنور، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون

وتلك السفن التي سخر الله لها البحر والرياح تحمل الناس وتحمل أرزاقهم وأثاثهم، وإنزال الماء من السماء فتحيا الأرض بعد موتها بأنواع النباتات فتأخذ الأرض زيتها وزخرفها من الجبال الذي يكسوها، وما انتشر على وجه الأرض من الدواب المختلفة منهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ومنها الذي يحمل الناس ومنها ما يكون غذاء وطعاماً ومنها ما يكون جماًلاً كلها تجري بأمر الله وتسبح الله ﷻ، واختلاف الرياح فمنها الرياح الباردة ومنها الحارة ومنها ما يأتي من الشمال ومنها ما يأتي من الجنوب ومنها ما يأتي للرحمة ومنها ما يأتي للعذاب ومنها التي تقود السحاب، ومنها ما يؤلف بينه، ومنها ما يلقي السحاب، وذلك السحاب الذي يكون بين السماء والأرض يحمل المطر الغزير ينزل على العباد فيكون لبعضهم نعمة ولبعضهم نقمة، كل ذلك آيات لمن تدبرها وعقلها وتفكر فيها، فمن تأملها بحضور قلب قاده ذلك إلى الإيمان بالله ﷻ، فتلك الآيات الدالة على وحدانيته ﷻ قد حجبت عن عقول من اتخذ مع الله شريكاً يصرف العبادة له، أو نوعاً من أنواعها، فالمحبة مع الذل والتعظيم عبادة لا تصرف إلا لله ﷻ، فمن أحب غير الله كحب الله فقد أشرك، والمؤمنون الصادقون هم الذين يحبون الله ويحبهم ﷻ، فلا توجد حلاوة الإيمان إلا بحب الله ورسوله ﷺ، فالحب مع الذل من ركائز العبودية أما الذين ظلموا أنفسهم بالشرك فإنهم إذا عاينوا العذاب يوم القيامة علموا علم اليقين أن الأمر لله والحكم له وحده لا شريك له، وأن القوة لله جميعاً وهو ﷻ شديد العقاب لمن أشرك معه غيره وهو أغنى الشركاء عن الشرك، وفي ذلك الموقف يتبرأ المتبعون من الأتباع وتنقطع أسباب الوصل التي كانت بينهم في الدنيا، فليتبرأ المسلم من كل عمل لا يوافق شريعة الله وليحذر من الشرك ووسائله قبل أن يتبرأ من ذلك يوم القيامة فهاهو اليوم يستطيع أن يتبرأ قبل أن يتمنى ذلك ولا يستطيعه، وقبل أن يكون عمله ندامة يوم القيامة وحسرة، فلا نجاة له إلا بالتوحيد والبراءة من الشرك وأهله، لأن الله حرم الجنة على المشركين وأوجب عليهم الخلود في النار، فإن الله تعالى جعل ما في الأرض من الطيبات حلالاً طيباً تستطيبه النفوس، فيأكل المؤمن من رزق الله ويستعين بذلك على طاعة الله وليحذر أن يتبع وساوس الشيطان وتزيينه ويسلك طرقه فإنه يدعو إلى المعاصي والسيئات خطوة خطوة ويأمر بالوقوع في الموبقات والإشراك بالله تعالى والقول على الله بغير علم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
 ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا لَكُمْ ءَآبَاءُ وَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا
 يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ
 بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
 ﴿١٧١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
 وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
 عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ
 لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
 الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ
 فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا
 أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ
 بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

التعصب للآباء والأجداد طريقة جاهلية وتقليد الأسلاف طريق الشيطان وسبيله، فمن اكتفى بالتقليد وزهد بالاتباع لسنة محمد ﷺ فهو من الخاسرين، ومثل من كانت تلك حالته كمثل البهائم تسمع صوت راعيها ولا تفهم معناه، فهم لا يفقهون ما يدعون إليه من الحق فهم لا ينتفعون لأنهم صم لا يسمعون الحق وعمي لا يبصرون الحق وبكم لا ينطقون بالحق فهم كالمجانين، فهذه الشريعة الغراء التي هي خير للبشرية جاءت بإباحة الطيبات وتحريم الخبائث وهذه من النعم التي تستحق الشكر لله تعالى، فإن الشكر من تمام العبادة، وما حرم الله على عباده من المحرمات من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله فإنه يباح عند الاضطرار دون تعد ولا مجاوزة للحد وإنما لدفع الضرر فهو سبحانه رحيم بعباده حرم عليهم ما يضرهم وأباح لهم المحرم عند اضطرارهم إليه وهو غفور لذنوبهم ولأكلهم الحرام حال الضرورة، ويتجدد الدم لأهل الكتاب الذين أنكروا نبوة النبي ﷺ ولم يصدقوه وكفروا بما جاء به وكنتموا ما في كتبهم من صفته وأحواله، واستعاضوا بذلك الكفر والطغيان وقنعوا بالأموال مقابل الجحود والتكذيب طمعاً في الدنيا وإثارة لها على الآخرة فما يأكلون في بطونهم إنما هو قطعة من النار، وهذه حال كل من كتم الحق وباع الآخرة بالدنيا وكنم الحقائق بعرض من الدنيا قليل، فلهم العقوبة في الدنيا بأن الله لا يكلمهم بل سخط عليهم ولم يطهرهم ولم يثن عليهم ويمدحهم بل يذمهم ويعذبهم عذاباً أليماً فهم قد اشتروا الضلالة والغويا بالهداية، وهم كفروا وكنتموا ولم يصدقوا ويذكروا ما في كتبهم من حقيقة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام وتلك حالة كل من كتم فإنه يشتري الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فلم يطلبوا أسباب المغفرة بل طلبوا أسباب العذاب والنكال والعقاب فما أكثر ما يستكثرون من أسباب دخول النار من الكفر والشرك والمعاصي، فلن يصبروا على النار ساعة فكيف يستكثرون من أسبابها، وإنما استحق أهل الكتاب النار لأن الله أنزل على نبيه محمدًا ﷺ الكتاب ليكون للعالمين نذيراً فاتخذوا آيات الله هزوا فكنتهم تأمرهم بالبيان وإظهار العلم فخالفوها فكنتموا وكذبوا وجحدوا والنبي محمد ﷺ يأمرهم بالحق ويدعوهم إليه وهم يكذبون ويخالفون ويكتمون.

فهم في محادة لله ولرسوله ﷺ فكثر شقاقهم ومجادلتهم بالباطل.

والعبد المؤمن مأمور بالتزام الحق وعدم رده لمخالفته ما عليه الآباء والأجداد، بل ما عليه الآباء والأجداد يرد إذا خالف الكتاب والسنة.

ويحرص المسلم على كسب الحلال والبعد عن المكاسب الخبيثة، ويعلم أن فيما أحل الله غنية عن الحرام، وإنما حرم الحرام لمصلحة العباد، ويحذر من كتمان الحق بل يكون سبباً من أسباب نشر الحق والدعوة إليه.



﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ
 الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
 وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
 الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
 وَالصَّادِقِينَ فِي الْبُيُوتِ وَالضَّرَّاءِ وَالْأَسَاءِ وَالْبُؤْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ
 عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْخُرِّ بِالْخُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ
 بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَابْتَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاهُ
 إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ
 بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ
 يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ
 إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
 وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ
 بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

البر اسم جامع لكل خصال الخير، وليس البر عند المسلم هو التوجه لأي جهة وإنما البر الامتثال لأمر الله، وتلك الآيات تشير إلى ما حصل عند تحويل القبلة فشق على بعض المسلمين معرفة الحكمة فبينت هذه الآيات أن الحكمة هي في طاعة الله وسرعة الاستجابة لأمر الله، واتباع ما شرع الله فهو البر والتقوى والإيمان، فالبر له أنواع كثيرة منها الإيمان بالله تعالى، ويتضمن الإيمان بالله الإيمان بربوبيته وأنه الخالق الرازق المحيي المميت والإيمان بألوهيته وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، والإيمان بأساء الله وصفاته وأنه له سبحانه الأسماء الحسنى والصفات العلى، والإيمان بوجود الله ﷻ، ومن الإيمان بالإيمان باليوم الآخر الذي ليس بعده يوم، وهو يوم القيامة يوم تلبى السرائر وتجازى الخلائق، وما يكون فيه من البعث بعد الموت والنفخ في الصور والحشر - والشفاعة والحوض والميزان والصراف ودخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار، وما يسبق ذلك من الموت وعذاب القبر ونعيمه وعلامات الساعة الكبرى والصغرى وغيرها، والإيمان بالملائكة وأنهم من مخلوقات الله خلقهم من النور، خلّقوا للعبادة وأوكلت لهم أعمال ما نعلمها كالموكل بالوحي والقطر بالجنة والنار وبالنفخ ويحفظ الأعمال ويحفظ بني آدم، ومنهم من نعلم اسمه كجبريل وميكائيل ورضوان ومالك وغيرهم، وليس لهم من خصائص الألوهية شيء، ومن البر إنفاق المال مع المحبة له والرغبة فيه، فأفضل الصدقة والإنسان صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر وأعظم الصدقة ما كانت على الأقارب فالصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة، فهم أولى الناس بالإنسان وبره وإعطائه، ومن الصدقة التصديق على اليتامى وهم الذين مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ وليس لهم قدرة على التكسب، ومن الصدقة التصديق على المساكين وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناتهم، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم، ومن الصدقة التصديق على ابن السبيل وهو المسافر المنقطع فيعطى ما يوصله إلى بلده، ومن الصدقة التصديق على الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، ومن الصدقة التصديق على المكاتبين من الأرقاء الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم، ومن البر إتمام أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها، وسجودها، وطمأنينتها، وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ومن البر إخراج الزكاة المفروضة لمستحقها، ومن البر تزكية النفس، وتخليصها من الأخلاق الدنيئة، ومن البر الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق ومن البر الصبر حال الفقر، وفي حال المرض والأسقام، وفي حال القتال والتقاء الأعداء، فمن اتصف بهذه الصفات فهو من الذين صدقوا في إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، وهم الذين فعلوا الطاعات واجتنبوا المحرمات فاتقوا عذاب الله، وقد فرض الله العدل في القصاص بين عباده، الحر بالحر والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، ولا يتجاوزون ويعتدون كما اعتدى من قبلهم، وغيروا حكم الله فيهم، فالأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونسأؤهم في النفس، وفيما دون النفس، والعبيد مستوون فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونسأؤهم، فإن عفا ولي الدم وقبل الدية في العمد، فعلى المطلوب أداء الدية، وعلى المطالب بالدية أن يسلك طريق المعروف في أخذها، ومشروعية أخذ الدية في العمد تخفيف من الله على عباده ورحمة بهم، مما كان محتوماً على الأسم قبلهم من القتل أو العفو، فرحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم نحل لأحد قبلهم، فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد، وفي القصاص حكمة عظيمة، وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للمؤمنين، ولا يفهم ذلك إلا أولو العقول السليمة، ومن البر الوصية للوالدين والأقربين وذلك قبل الموارث أما بعد الموارث فلا وصية لوارث فمن ترك مالا فليأخذ بالوصية لنفسه ولمن لا يرث من أقربائه في حدود الثلث، وعلى من شهد هذه الوصية حفظها وعدم تبديلها وتحريفها فإن الله ﷻ سميع لمن بدل وحرّف، عليم به ومطلع عليه فليتق الله ولا يحرف ولا يبدل.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ
لَّهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ
رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا
هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

الإصلاح والعدل وتصحيح الخطأ عمل صالح يقدم للميت بعد موته، فمن رأى خطأ وجورًا وظلمًا في وصية فعليه نصح الموصي إن كان في حياته أو يصلح بين الموصي لهم والورثة بها فيه براءة الذمة للموصي حفاظًا على الحق وسيرًا على العدل، فإن فعل ذلك ليس من التبديل المحرم بل هو من الإصلاح والتصحيح فإن الله قد نفى الإثم في ذلك الفعل وغفر الله للمخطئ خطأ لم يقصده، وغفر الله للمصلح ما يقع منه من الخطأ من غير قصد والله رحيم بعباده جميعًا، ومن البر وفرائض الدين الصيام الذي فرضه الله على عباده تطهيرًا لهم وزكاة ففيه التقوى وهي ترك للمحرمات وفعل للطاعات، وهو أيام معدودة يسهل صيامها والمحافظة عليها، ودفعًا للشقة وتيسيرًا على الأمة خفف عن المريض والمسافر فمن كان مريضًا يفطر ويقضي ومن كان مسافرًا يفطر ويقضي، وكان أول الإسلام أن جاء الصوم على التخيير من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا والصوم أفضل من الإطعام، ثم نسخ بفرضية صيام شهر رمضان فمن حضر الشهر وهو غير مريض ولا مسافر ويقوى على الصيام وجب عليه الصيام، أما الذي لا يطيق الصيام لكبر أو مرض لا يرجى برؤه فيقطع عن كل يوم مسكينًا، وأما المسافر والمريض والحامل والمرضع فلهم الفطر ويجب عليهم القضاء، كل ذلك من يسر الشريعة وسماحتها الله ﷻ يسر على عباده، وكل ذلك خلال شهر كامل من أوله إلى آخره بإتمام رمضان ثلاثين أو برؤية الهلال فإذا تم الشهر أو رؤي الهلال يشرع التكبير ليلة العيد إلى صلاة العيد، شكرًا لله على إتمام النعمة ومن شكر الله إخراج زكاة الفطر.

وشهر رمضان شهر الخير والرحمات والبركات والدعوات الصادقات والاستغفار والتوبة والصدقة، فالله ﷻ أمر عباده بسؤاله ودعائه فللصائم دعوة لا ترد، والمسلم يدعو ربه دعاء عبادة ودعاء مسألة، والله قريب لعباده بعلمه وإحاطته وقريب بإجابة دعوة عباده فليستجيبوا وينقادوا لأوامر الله وليوقنوا أن الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه فإنه تعالى يجيب دعوتهم ويهديهم ويصلح بالهم ويوفقهم للخير.

فالدعاء عبادة يتقرب العبد بها إلى الله تبارك وتعالى، يأخذ المسلم بأسباب إجابة الدعاء من التوسل المشروع بأسماء الله وصفاته أو بالأعمال الصالحة أو بدعاء حي قادر صالح، وليحذر من التوسل المحرم أو من أسباب رد الدعاء من أكل الحرام، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الدعاء بالإثم وقطيعة الرحم، أو الاعتداء في الدعاء، والمسلم يتحين أوقات الإجابة كثلث الليل الآخر وآخر ساعة من يوم الجمعة وفي السجود وبين الأذان والإقامة وعند نزول المطر وفي يوم عرفة، والصائم والوالد والمظلوم لا ترد دعوتهم، وليحذر المسلم من الاستعجال في الدعاء واستبطاء الإجابة وليأخذ بآداب الدعاء من الوضوء واستقبال القبلة ورفع اليدين والصلاة على النبي ﷺ في أوله وآخره.

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ فَلَمْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾



كانوا في أول فرض الصيام يتحالبون في مباشرة النساء في ليالي رمضان فأباح الله ذلك تيسيرًا على هذه الأمة وتكثيرًا لنسلها وعددها، فالمرأة لباس للرجل والرجل لباس للمرأة لأن الزواج حفظ للنفس من الوقوع في المحرمات، وكان يحرم على المسلم إذا نام من الليل أن يأكل شيئًا إلا بعد غروب الشمس من اليوم الثاني فأباح الله الأكل والشرب سائر الليل حتى طلوع الفجر الثاني ثم يمسك من طلوع الفجر إلى غروب الشمس تعبداً لله تعالى، وهذا فرق ما بين صيامنا وصيام الأمم قبلنا.

وشرع للمسلم في رمضان الاعتكاف وهو لزوم المسجد تفرغاً للعبادة، وكان النبي ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان تحريماً ليلية القدر، ومن أحكام الاعتكاف تحريم مباشرة النساء فيه لأن المباشرة تخالف ما شرع له الاعتكاف من قطع العلاقة عن الخلائق والتفرغ لعبادة الخالق، وعلى الصائم التزام أحكام الصيام والقيام بهذه العبادة على أكمل وجه، فقد حد الله لعباده حدوداً من المحرمات فلا يقربوها حتى لا يقعوا فيها، فإن أحكام الشرع واضحة بيّنة فالحلال بيّن والحرام بيّن.

فالتقوى اجتناب ما حرم الله وفعل ما أمر الله به، ومن المحرمات أكل أموال الناس بالباطل وادعاء أموال الناس وأخذها منهم من دون طيبة من نفوسهم، والتوصل إلى أخذها عن طريق المخاصمة بالباطل أو بالرشوة أو غيرها، والمسلم يتعلم أحكام الشرع ليعمل بعلمه ويسأل عما يهيمه من أمور دينه، ولما سأل السائل عن الهلال ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يمتلئ نوراً ثم يعود دقيقاً كما بدأ ولا يكون على حالة واحدة، فجاء الجواب في كتاب الله عما هو أهم، وهو أن هذه الأهلة مواقيت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم ومواقيت لحجهم، وما شرع في الإسلام من العبادات إنما هو لتقوى الله ﷻ وتحقيق العبودية وقد كانت العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها تقرباً لله وبراً، والحقيقة أن البر ليس بتعذيب النفس وفعل ما يشق على النفوس فعله، ولكن البر هو فعل ما يزيد التقوى ويقرب العبد إلى ربه، فالله ﷻ لم يكلف عباده ما لا يطيقون بل شرع لهم ما فيه اليسر والتيسير عليهم، فالفلاح هو بما شرع الله لا بما ابتدعه الناس من الأعمال واستحسنوها، ومن البر والعمل الصالح قتال المشركين الذين يصدون عن سبيل الله ويقاتلون أولياء الله، فيجب إقامة فريضة الجهاد في سبيل الله دون اعتداء وظلم وتسلط وغدر وخيانة، فإن هذه الفريضة جاءت بالعدل والإحسان، وما شرعت إلا لتبليغ دين الله، فإذا سلك طريق الدعوة قبل القتال فأسلموا أو دفعوا الجزية كفف المسلمون عن قتالهم فإن أبوا قاتلهم المسلمون ولم يقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ ولم يعتدوا في القتل والتمثيل وإفساد الممتلكات وإحراق الديار، إلا إذا كان في الإحراق والتقطيع تنكيلاً بالعدو فيجوز، فيها يأذن به الإمام، والجهاد يكون بإمام وراية يقود إمارة الجهاد ويرجع إليه الناس في قتالهم للعدو، وتحفظ به بيضة الإسلام وراية الجهاد.

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفِنَنَةُ
 أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ
 فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُوَا
 فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
 الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ
 بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
 عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
 الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ
 وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَاتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ
 فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ
 الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ
 مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ
 فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ
 إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

الجهاد والقتال لأعداء الله ذروة سنام الإسلام، وشرع القتال لإعلاء كلمة الله ونشر الإسلام، فإن ذلك من أعظم مقاصد الجهاد، وأمر المؤمنون بقتال الكفار المحاربين في أي مكان وفي أي زمان إذا لم يكن عهد ولا ميثاق، وأمر المسلمون بقتال مشركي العرب الذين أخرجوهم من مكة، وقتنهم عن دينهم، فما عليه الكفار من الكفر والشرك والصد عن سبيل الله أشد وأعظم من القتل.

ومن تعظيم المسجد الحرام تحريم القتال فيه، وأذن الله للنبي ﷺ بالقتال إذا قاتله الكفار، وأحل الله له بيته في يوم الفتح، وفتح الله بيته الحرام وجعله منار الإسلام، فما جزاء الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله إلا القتل فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله يغفر لهم ما سبق من العداوة للإسلام؛ لأن المقصود من القتال هو إظهار الدين وإعزازه فإن حصل بدون قتال كان المقصود، فالإسلام لا يتشوف لسفك الدماء وإزهاق الأرواح وإنما ليكون الدين لله وبدفع الشرك وهو الفتنة، فإذا كف المشركون عن القتال وأسلموا فإن الظالم هو المعتدي والظالم هو الذي كفر وأبى الدخول في الإسلام فله العذاب الاليم يوم القيامة، ومما كان في أول الإسلام تحريم القتال في الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب فنسخ هذا التحريم، ولما صد المشركون النبي ﷺ يوم الحديبية وأشيع أن عثمان قد قتل بايع الصحابة بيعة الرضوان على القتال، وهم في شهر حرام، وهم قد بدعوا بالصد عن البيت فيكونون هم الذين قاتلوا في أول الأمر، فمن اعتدى على الحرمات والمحرمات اقتص منه بمثل فعله، فلئن كانت قريش صدت عن البيت فالنبي ﷺ أراد الاقتصاد منها، وعلى من اعتدي عليه أن يقتص دون زيادة فأمر الله تعالى بالعدل حتى مع المشركين، والله ﷻ مع من اتقى يؤيده وينصره ويثبته.

ومن التقوى الإنفاق في سبيل الله فلا يخل المسلم عن الإنفاق في سبيل الله ولا يترك ما أمر الله ﷻ به من الواجبات البدنية والمالية، فمن رضي بالدنيا وأنس بها وترك أوامر الله وأقام على معصية الله فقد ألقى نفسه للهلاك، فإهلاك النفس لا يقتصر على فعل ما يضر البدن ويزهق النفس بل إن إهلاكها فيها حرم الله أعظم وأشد وهو الهلاك الحقيقي، وضد إهلاك النفس الإحسان إليها بلزوم صراط الله المستقيم ولزوم الإحسان بجميع صوره في الإحسان في العبادة، والإحسان للخلق بالإنفاق في سبيل الله، وفي طرق الخيرات، والإحسان إلى الحيوانات، ولما صد النبي ﷺ في عمرته عن البيت ذكرت أحكام الحج والعمرة والإحصار، فأمر الله تعالى بالحج والعمرة وقد فرضهما الله في العمر مرة واحدة ولا بد من الإخلاص فيهما لله تعالى. ويلزم إتمامهما بالشروع فيهما ولا بد من الإتيان بهما على جهة التمام بالأركان والواجبات والشروط إلا من مُنع عن المسجد الحرام وهو المحصر، فعليه إذا لم يكن قد اشترط عند إحرامه أن يذبح هدياً لإحلاله، ويحلق أو يقصر كما فعل النبي ﷺ في الحديبية فمن لم يجد هدياً فعليه الصيام عشرة أيام ومن كان يحتاج لإزالة شعر رأسه أو تقليم أظفاره أو لبس مخيط، وهو محرم، فإن عليه فدية وهو مخير بين ذبح شاة أو إطعام ستة مساكين أو صيام ثلاثة أيام، وشرع للمسلمين في حجهم ثلاثة أنواع من النسك المتمتع والقران والإفراد، وأفضلها المتمتع فمن أتى بعمره في أشهر الحج وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة وحج من تلك السنة ولم يرجع لأهله بعد العمرة فهو متمتع أو من أهل بعمره ثم حلَّ منها ثم أحرم يوم الثامن من ذي الحجة فهو متمتع فعليه هدي شكر لله تعالى أن يسر له عمرة وحجة في سفر واحد، ومثله القارن فمن لم يجد فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله، أما من كان من أهل مكة أو قريب منها فلا هدي عليه، وكل تلك الشرائع والأنسك طريق التقوى وسبيل إليها، وعلى المسلم أن يحفظ حجه ولا يفرط فيه فإن الله تعالى شديد العقاب لمن ضيع وفرط وتهاون عن فعل المأمور أو في ارتكاب المحظور.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
 وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
 يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا
 يَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
 تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
 عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
 وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
 لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
 النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
 فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
 آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ
 يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
 خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا
 حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾
 أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

أشهر الحج إلى بيت الله الحرام ثلاثة شوال وذو القعدة وذو الحجة فمن أحرم بالحج فيها فإنه ألزم نفسه بإتمامها وإن كان نفلاً، والحج هو قصد البيت الحرام في وقت مخصوص وفعل أعمال مخصوصة، والحاج يجتنب الجماع ومقدماته والكلام فيه، ويجتنب المعاصي والذنوب والسيئات وما يثير الخصومات والنزاع في الباطل وفيما يخالف مقصود الحج، وذلك تأكيد لتعظيم هذه الشعيرة وتأديتها بكل تمام وكمال فلا يكون الحج مبروراً حتى يفعل ما أمر به من المناسك والفرائض ويجتنب ما نهى عنه من المحرمات والمعاصي والمحظورات. وما يفعل المسلم من خير في كل وقت وفي أي مكان فإن الله به عليم يجزي به خيراً فاللدينا دار للتزود بالأعمال الصالحة، ومن التزود التزود لرحلة الحج لئلا يكون الإنسان عالة على الآخرين، ويتزود بالعلم والفقه ويتزود بالمال، وخير الزاد فعل الأوامر واجتناب النواهي فمن كان صاحب عقل ولب فهو يدرك حقيقة التزود في هذه الحياة الدنيا للدار الآخرة، وليس على الإنسان إثم أن يتكسب ويعمل ويطلب الرزق فذلك أمر يحتاجه الإنسان ولا يخالف التزود للآخرة، حتى في رحلة الحج، لو باع واشترى وتاجر فإن الله تعالى نفى الحرج والإثم في ذلك، فدين الإسلام راعى جوانب الحياة كلها، ولكن المسلم لا ينسى ذكر الله تعالى ودعائه وعبادته فإذا رجع من عرفة في اليوم التاسع من ذي الحجة بعدما وقف على أرضها ورجع إلى مزدلفة فليذكر الله بعد صلاة الفجر من اليوم العاشر حتى يسفر جداً ثم يدفع إلى منى، ويكثر المسلم من شكر الله على الهداية لهذا الدين والتوفيق لهذه الرحلة العظيمة، فكل العباد ضال إلا من هداه الله تعالى فليطلب الهداية منه ﷺ ثم يفيض كما هي سنة النبي ﷺ إلى منى، ويحيي منى برمي جمرة العقبة ويكثر من الاستغفار، والاستغفار يشرع في نهاية الأعمال فإذا رمى الحاج جمرة العقبة قطع التلبية وشرع في التحلل، فإذا رمى العقبة حلّ من إحرامه، وإن فعل اثنين من ثلاثة الرمي أو الحلق أو الطواف ومعه السعي فقد حلّ التحلل الأول فيجوز له كل شيء حرم عليه إلا النساء، وإذا فعل الثلاثة كلها حلّ الحلّ كله، وأمر الحاج بكثرة ذكر الله والتكبير في أيام منى وقد كان أهل الجاهلية يكثرون من ذكر مناقبهم ومناقب آبائهم فأمر الله المؤمنين بالإكثار من ذكره والناس في ذلك على أقسام فمنهم من يسأل الله خيري الدنيا والآخرة، ومنهم من يسأل الله الدنيا وليس له في الآخرة نصيب.

فهؤلاء عباد الدنيا وعباد الدرهم والدينار، وللجميع نصيب من دعواتهم، فمن سأل الله من خيري الدنيا والآخرة فله الإجابة من الله تعالى ويعطيه من الخير في الدنيا والآخرة، ومن سأل الدنيا فسيوفى له منها ما كتب له، والمسلم الذي يقصد البيت الحرام لأداء هذه الفريضة العظيمة عليه أن يلتزم بما ورد عن النبي ﷺ من مناسك الحج، وليترك البدع فلا يعظم ما لم يعظمه الشرع ولا يتدع زيارة مكان لم يشرع زيارته ولا يعتقد في مكان لم يرد فضله، وليتعلم من هذه الشعيرة الإخلاص والتوحيد وحفظ اللسان عما حرّم الله ﷻ والكف عما حرّمه الله من المعاصي والسيئات، وليعظم بيت الله تعالى وليعلم أن السيئة فيه عظيمة عند الله كما أن الحسنات مضاعفة والصلاة فيه عن مائة ألف صلاة فيما سواه من البقاع وليكن حجه بداية عمل صالح إلى الممات.

﴿٢٠٣﴾ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي
 يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَمَنْ
 النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ
 عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
 فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ
 لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
 بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٧﴾ وَمِنْ
 النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ
 رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا
 فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ
 إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٩﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
 ﴿٢١٠﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ
 وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١١﴾

أيام التشريق الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة هي الأيام المعدودات فيها التكبير والتهليل، وهي عيد المسلمين أيام أكل وشرب وذكر لله، وهي أيام رمي الجمار وأيام الذبح والتكبير المطلق والمقيد، والحجاج يقضون فيها مناسكهم فمن أراد من الحجاج التعجل والاكتفاء برمي يومين والمبيت ليلتين فلا حرج عليه، فمن خرج من منى قبل غروب الشمس من اليوم الثاني عشر- سقط عنه المبيت ليلة الثالث عشر والرمي يوم الثالث عشر، والتأخر أفضل وأكمل لأن فيه زيادة عبادة الله ﷻ والمسلم يحرص على أسباب التقوى والأخذ بها، تلك فضائل يحرص المسلم على اغتنامها واستغلالها وحفظ لسانه إلا ما فيه ذكر وعلم وتلاوة واستغفار ودعاء وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وليحذر المسلم ممن يتكلم بلسانه ويخالف بأفعاله، ويبيد ما لا يبطن ويدعي النصح والإشفاق وطلب الإصلاح وهو يغر الناس بكلامه الذي ظاهره النصح والإشفاق وباطنه الغش والخداع، وهو كثير الخصام والجدال يخاصم في إبطال الحق وإحقاق الباطل، وهو يسعى في الفساد في الأرض فيفسد الزروع والثمار والحيوانات ويدمر الممتلكات والبيوت والله ﷻ نهى عن الفساد في الأرض، والمفسد سيئ المقال والفعال ولا يقبل النصيحة والتذكير بل يتكبر ويتجبر ويرد الحق فمآله النار فبئس العذاب والمآل، وفي المقابل من عباد الله من باع نفسه طلباً لمرضاة الله تعالى فالله رحيم رؤوف بهم يعمهم برحمته التي طلبوها وقصدوها، فبدلوا النفوس رخيصة ابتغاء ما يحبه الله تعالى، وقد أخذوا بالإسلام كله فعملوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ما استطاعوا، وهذا هو الواجب على كل مسلم أن يأخذ الإسلام بقوة ولا يختار ما تريد نفسه وتهواه، وليحذر المسلم من دعوات الشيطان وخطاه التي يغوي بها الناس فهو يريد للناس الشر ويأمرهم بالمعاصي والسيئات ويتدرج بها حتى يوقعهم في الكفر والشرك فهو عدو للمؤمنين، فإن زلت بالمسلم القدم ووقع بجبال الشيطان فليعد وليتب ولينب إلى ربه فإن أصر على اتباع الشيطان عن علم فقد توعده الله ﷻ بالعذاب الأليم، فالله ﷻ عزيز حكيم؛ عزيز في نعمته حكيم في أمره ونهيه فلا يعجزه أحد ولا يغلبه أحد حكيم في شرعه، والله ﷻ جعل لهذه الخليقة يوماً تجازى فيه فيجازى كل عامل بما عمل فهل كل من خالف أمر الله قد استعد ليوم تشخص فيه الأبصار، يوم يأتي الله لفصل القضاء بين عباده وتأتي الملائكة في ظلل من الغمام، ويقضى بين الخلائق فيصير الناس إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، والله ﷻ يرجع إليه الأمر كله، وإليه ترجع الخلائق وكلهم آتية يوم القيامة فرداً، وهذا يدعو المسلم للاستعداد لهذا اليوم والخوف من سوء العاقبة فهو في هذه الدنيا في دار الامتحان والاختبار وقد ابتلي بالشيطان فليكن على حذر وتخوف أن يستحوذ عليه الشيطان فينسيه ذكر الله، والمسلم مصلح في أقواله وأفعاله لا يخالف فعلة قوله، ولا قوله فعلة يقتدي بأشرف خلق الله نبي الله محمد ﷺ، يلتزم الإسلام في جميع أموره يعمل بجميع شرائعه الظاهرة والباطنة حتى يأتية اليقين وهو على ذلك.

سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَمَن يُدِلْ نِعْمَةً
اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ
وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ
أَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ
مَا أَنفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

لقد رأى بنو إسرائيل من الآيات والمعجزات على يد نبي الله موسى ﷺ من فلق البحر وضربه الحجر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى فبدلوا نعمة الله كفرًا واستبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها، فمن كانت تلك حالته فإن مآله إلى العذاب الشديد يوم القيامة، فهم آثروا الحياة الدنيا وأحبوها واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال، وسخروا واستهزؤا بالمؤمنين الذين اشتروا الآخرة بالدنيا ولم تكن في قلوبهم وإنما كانت بأيديهم ينفقون ابتغاء وجه الله، ولسان حالهم إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا، إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورًا، فهم يوم القيامة في الدرجات العلا من الجنة، ويبقى المستهزئون الساخرون في الحسرة والندامة فهم يرون الذين سخروا منهم في الدنيا بالمقام الرفيع والحظ السعيد، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون، وقد كان الناس مجتمعين على الإسلام والتوحيد عشرة قرون بعد آدم إلى نوح ﷺ فاختلفوا فكان الشرك في قوم نوح فبعث الله نوحًا داعيًا إلى التوحيد ونبذ الشرك والوثنية، وتبعه الأنبياء فما من نبي إلا دعا قومه للتوحيد ونبذ الشرك، يبشرهم برحمة الله ورضوانه والجنة، ويحذرهم وينذرهم سخط الله وغضبه والنار، وأنزل الله الكتاب السماوي هداية للبشرية وحفظًا لها من الغواية ولتكون مرجعًا لهم عند الاختلاف يحتكمون إليها وبها فيها من الهدى والنور، وما اختلف الذين من قبلنا إلا بسبب البغي والعدوان فيما بينهم فكانت الهداية للمؤمنين إلى الحق والهدى، هدى الله هذه الأمة لما ضل غيرها عن الحق، فالمسلم يسأل ربه الهداية للحق ويسأل ربه أن يرزقه اتباع الحق والتزامه وكان من دعائه ﷺ (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)، فأهل الإيمان عند الاختلاف يلتجئون إلى الله بالدعاء وطلب الهداية فيما اختلف فيه، فلا هداية للعباد إلا بتوفيق الله وهدايته جل وعلا والمسلم في هذه الحياة يُبتلى ويُمتحن وتمسه البلوى من الفقر والسقم والآلام والمصائب والنوائب والخوف من الأعداء وتضييق الأعداء، وقد نزلت هذه الآيات تسليّة للمؤمنين الذين اجتمع الأحزاب عليهم من كل مكان حتى دعا المؤمنون بالنصر والتمكين فكان نصر الله قريب، فكما امتحن الرعيل الأول من هذه الأمة وأفضلها فإن المحن على آخرها أكثر وأشد فيتسلح المؤمن بسلاح الصبر والإيمان والمصابرة واحتساب الأجر والثواب لتكون العاقبة له وتكون له الدنيا والآخرة، فمتى حصلت الشدة والمحنة حصل الفرج والنصر، والمؤمنون الصادقون الذين يرجون تجارة لن تبور يتسابقون للإنفاق في سبيل الله ويسألون نبيهم عن مجالات الإنفاق المستحبة، فيأتي الجواب بأن النفقة على الوالدين والأقربين أفضل فهي تجمع بين الصدقة والصلة والبر، والإحسان إلى الأيتام والمساكين والمنقطعين عن بلدانهم كلها نفقة في مجال الخير والبر وما يفعل المسلمون من خير وطاعة وإحسان فإن الله يجازيهم ويثيبهم عليها.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
 شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
 الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
 عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَالُونَ لَكُمْ
 حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
 مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
 هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
 اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ
 وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
 أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾



فرض الله القتال لإعلاء كلمته وإعزاز دينه وإظهار الحق ومحو الباطل، والنفوس تكره مشاق الجهاد والتعرض للمهالك، ولكن قد يكون فيها يكره الإنسان خير له في دينه ودنياء، وقد يكون ما يحبه الإنسان من القعود والإخلاد للدنيا شرًا له في عاجل أمره وآخره، فليس كل ما يكرهه الإنسان من أمور الحياة شرًا بل قد يكون سببًا في حصول خير للإنسان وأجر وثواب، وما يحبه الإنسان وما يتشوق إليه ويرجوه قد يكون شرًا عليه، فالله ﷻ هو الذي يعلم ما سيكون وعواقب الأمور، والعبد لا يعلم ما الخير له إلا ما علّمه الله ﷻ ولذلك شرع للإنسان الاستشارة فيرد العلم لله ﷻ، وكان في أول الإسلام تحريم القتال في الأشهر الحرم ثم نسخ بآية السيف وقد قاتل بعض الصحابة سرية لقريش فقتلوا رجالًا منهم في الشهر الحرام فعابت قريش على النبي ﷺ وأصحابه كيف يقاتلون في الشهر الحرام فجاء الرد عليهم أن ما هم عليه من الصد عن سبيل الله وإخراج المسلمين من مكة أكبر من القتال في الشهر الحرام، وما يكون على أيديهم من فتنه المسلمين عن دينهم وإقامتهم على الشرك بالله أكبر وأعظم وأشد من القتل في الشهر الحرام، ولن يقفوا عند هذا الحد بل سيكون من قتال للمسلمين ومحاربة لهم، وقد وقع ذلك في مشاهد كثيرة منها بدر وأحد والخندق وهدفهم من القتال الصد عن سبيل الله فهم يحاولون أن يطفئوا نور الله بحريم للإسلام، وجاء الوعيد لمن كفر بعد إيمانه فقد حبط عمله إن مات على الكفر، فمن مات على الكفر فقد ذهب عمله هباءً منثورًا وهو من أهل النار المخلدين فيها لأنه مات على الشرك، وأما المؤمنون الصادقون الذين آمنوا برسول الله ﷺ وهاجروا معه وتركوا أموالهم وبيوتهم ونساءهم لله ولرسوله وقاتلوا في سبيل الله وهم بذلك يحتسبون الأجر والثواب من الله فإن الله تعالى يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم ويرفع درجاتهم حتى ما حصل منهم من القتال في الشهر الحرام فإن الله قد غفر لهم، والمؤمن الصادق الذي هاجر وجاهد واتبع الرسول النبي الأمي عليه الصلاة والسلام وكان على صفات قبل الإسلام قد اعتاد عليها فإن الإسلام تدرج بالمؤمنين في تحريمها، ومن ذلك تحريم الخمر فكان المسلمون يتحرّجون من شرب الخمر فسألوا رسول الله ﷺ عن حكمها ومنافعها الدنيوية فكان البيان أن الخمر والميسر خبيثان وفيهما الإثم الكبير العظيم من ذهاب العقل وإيقاع العداوة والبغضاء وترك ذكر الله والصلاة، وفيها منافع دنيوية في البيع والشراء والاتجار ولكن ما يقع فيها من المفسد يغلب على منافعها الدنيوية وفي ذلك إشارة إلى خبيثتها وفسادها ثم تُهي عن شرب الخمر أوقات الصلوات ثم نزل تحريمها وأمر المسلمون باجتنابها والانتها عنها، ويتكرر السؤال عن الإنفاق فيسر الله عليهم بالإنفاق مما تيسر من الأموال دون تحديد لهم، فكل ينفق حسب طاقته وجهده، فلم يكلفوا ما لا يطيقون، وكل هذا البيان في القرآن إيضاح للمؤمنين بما يقودهم إلى العمل والتفكير بآيات الله الكونية والشرعية، والإعداد للأخرة باستعمال ما يقرب الإنسان إلى خالقه ورازقه.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي مَلَئَتْ قُلُوبَهُمْ
 خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ
 الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾
 وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
 مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى
 يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ
 يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
 وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ
 عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
 وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
 أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾
 نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شُعْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ
 وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا
 وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

اليتيم من مات أحد والديه وبالأخص الأب، واليتامى جزء من المجتمع يحتاج إلى الرعاية والنصح والشفقة ولذلك رَغِبَ النبي ﷺ في كفالة اليتيم ورعايته فقال ﷺ (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى)

وكان الصحابة رضوان الله تعالى عنهم من أحرص الناس على الخير فكانوا يكفلون اليتامى فكأنهم تخرجوا في الوعيد الوارد في أكل أموال اليتامى، فجاءت الآية مبينة أن المقصود إصلاح أموال اليتامى في صيانتها والاتجار بها والمحافظة عليها أما مخالطة اليتيم في الأكل والشرب فلا حرج فيه، والله ﷻ يعلم من الذي قصده الإصلاح ومن الذي قصده الإفساد وأكل مال اليتيم، وهذا تيسير من الله ورحمة ولو شاء الله لشق علينا فلم يعف عن المخالطة في مال اليتيم فوقع الحرج والإثم ولكنها رحمة الله بعباده فهو ﷻ عزيز حكيم في شرعه وأمره، ومن حكمته أن حرم نكاح المشركات حتى يؤمنَ لأن نكاح المشركات وإن كن أولات جمال ومال فإن إقامتهن على الشرك ودعوتهن إليه أقبح صفة تنفر المؤمن منهن لأنهن يَدْعُون إلى النار وإن المملوكة من المؤمنات خير من الحرّة المشركة وإن كانت ذميمة ودميمة في خلقتها.

وُحِيَ عن تزويج المشركين لأن شركهم شر صفة اتصفوا بها، والعبد الأسود من المؤمنين خير منه لما يحمل من الإيمان وحب الله وحب رسوله ﷺ، ويكفي أن المشرِك والمشرِكة يَدْعُون إلى جهنم بأعمالهم وصفاتهم والله يدعو عباده للجنة والمغفرة ويرغب عباده بتحصيل أسبابها، وكل هذا البيان في آيات الله لمن أراد أن يَدَّكُر أو أراد شكورًا، ومن حكمته ﷻ ما خص به المرأة في طبيعتها من خروج دم الحيض الذي جبل الله النساء عليه وكتب عليهن ذلك لأن هذا الدم غذاء للجنين فالحامل في الغالب لا تحيض وكذلك المرضع لأن الدم ينقلب حليبًا بعد الولادة، فإن لم تكن المرأة حاملاً أو مرضعاً خرج الدم في أوقات معلومة من الشهر، وكانت اليهود تعتزل الحائض فلا تؤاكلها ولا تجالسها فستل النبي ﷺ عن الحيض فجاء الجواب أن الحيض أذى فهو دم نجس فلا يجوز جماع الحائض وإنما يجوز مباشرتها دون الفرج والاستمتاع بها دون الفرج، وحرم إتيان الحائض حتى ينقطع حيضها وترى الطهر وهو القصة البيضاء وهو ماء أبيض يدفعه الرحم بعد انقطاع الحيض، فإذا اغتسلت الحائض حَلَّتْ لزوجها في محل الجماع وهو في القبل لا في الدبر فقد أمر الله تعالى بذلك، ونهى عن ضد ذلك، فمن الطهارة التنزه عما حرم الله تعالى فالله ﷻ يحب المتطهرين من أرجاس المعاصي والسيئات، والمتطهرين حسبًا من النجاسات والأقذار، ويجب الذين يتوبون إليه ويُحْدِثُونَ عند كل ذنب توبة، والزواج له أهدافه العظمى من تحقيق السكن والطمأنينة وتكثير نسل الأمة وحفظ الأعراض وقضاء الشهوة فيما أباح الله تعالى، فالمرأة سكن للرجل وهي مزرعة للولد، وللزوج الاستمتاع وجماع المرأة فيما أباح الله وله بذلك أجر وثواب، وفي تكثير الولد والنسل تقديم للنفس فالولد الصالح امتداد لحياة الإنسان، وإذا لازم المسلم التقوى في جميع أموره وبالأخص في التعامل الأسري وفي العشرة الزوجية كانت له السعادة في الدنيا والآخرة.

وليُعلم المسلم أنه ملاقٍ ربه ومحاسبه عن كل شيء فمن كان من أهل التقوى فليبشر بالخير وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولُهُنَّ أَحَقُّ بِرِدْهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

اليمين تأكيد وتأكيد وهي لا تكون إلا بالله ولا يجوز الحلف بغير الله، والأيمان على ثلاثة أقسام يمين اللغو وهي التي يقولها الإنسان من غير قصد ولا نية فتجري على لسانه فهي يمين لاغية كقول الرجل لا والله وبلى والله وتكون على أمر ماضي، وهذه لا تجب فيها كفارة.

واليمين المنعقدة وهي التي تكون على أمر مستقبل ويقصد الحالف عقدها وهي التي يؤاخذ الإنسان عليها إذا خالفها فيجب فيها كفارة اليمين، عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم فمن لم يستطع صام ثلاثة أيام، واليمين الثالثة اليمين الغموس والتي يقصد بها الحالف اقتطاع حق لأحد وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار وهي أكبر من أن تكفر وتجب فيها التوبة، ورد المظالم لأهلها.

ومن الأيمان أن يحلف الرجل ألا يجامع امرأته على مدة تزيد على أربعة أشهر ويسمى الإيلاء، فيحدد للزوج مدة أربعة أشهر فإن لم يجامع فيها كان للزوجة الحق في طلب الطلاق فتنسخ منه، فإن وطئ خلال المدة المحددة وجب عليه كفارة يمين، والذي يرجع عن هذه اليمين ويتوب منها فإن الله يغفر له ذنبه، أما من استوفى يمينه ولم يرجع فهذا يدل على عدم رغبته في الزوجة فيكون الفراق خير وسيلة لإنقاذ المرأة من إضرار الزوج فالله ﷻ سميع عليم بأفعال هذا الزوج وأقواله فليتنق الله في هذه المرأة.

وعدة المطلقة ثلاث حيضات إن كانت تحيض أما إذا كانت صغيرة أو أيسة من المحيض فعدتها ثلاثة أشهر، ولا يحل للمرأة أن تكتم ما في رحمها من حيض أو حمل لأن ذلك يؤدي إلى اختلاط الأنساب وإدعاء ما ليس لها من النفقة أو استعجال انتهاء العدة.

فالمرأة التي تؤمن بالله واليوم الآخر لا يحل لها أن تكذب بل تصدق في خبرها، والمطلقة الرجعية ما دامت في العدة فإنها تعتبر زوجة لمن طلقها طلاقاً رجعيّاً، فهي أحق بمراجعتها إن كانت في العدة، وهو أحق بمراجعتها إن رغب في عودة الحياة الزوجية، لكن إذا خرجت من العدة فلا بد من عقد جديد ومهر جديد ورضاً جديد، وقد أمر الله ﷻ بمعاشرة المرأة بالمعروف ولها من الحقوق ما للزوج من الحقوق فيجب على الأزواج أن يؤدوا حقوق زوجاتهم والله تعالى جعل القوامة للرجل ورفع درجته الرجل على المرأة بها أنفق عليها وبها هو مختص به من حقه في الطلاق، وما يختص بالرجال من حق الولاية والإمارة دون النساء، وذلك من حكمة أحكم الحاكمين والله عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

والطلاق الرجعي مرتان فبعد ذلك إمساك بالمعروف والعشرة الحسنة والمعاملة الطيبة، أو مفارقة بدون إضرار أو ظلم للمرأة أو بأخذ شيء من حقها، ولا يحق للزوج أن يطلب من مهره شيئاً أو يعلق طلاقه بذلك، فلا يضيق عليها لتفتدي نفسها منه، إلا إذا كرهت المرأة الرجل وأرادت الخلع وخشيت ألا تقوم بحق الزوجية فيجوز أخذ الزوج للمال ويسمى الخلع فتفتدي المرأة نفسها بالمال، ولا يحل للزوج أن يتعدى حدود الله تعالى في ذلك بل يجب عليه العدل والإنصاف للمرأة ولو كرهته وأبغضته فيتقي الله في ذلك ولا يظلمها.

فإذا حصل الفراق بالخلع فليس له رجعة في العدة.

فإن كان الطلاق بائناً وهي المطلقة الثالثة فلا تجوز الرجعة حتى تنكح المرأة زوجاً آخر برضاها وبحصل بينهما جماع، فإن طلقها الثاني عن اختيار ولم كان مقصوده التحليل للزوج الأول فيجوز للأول أن يرجع إليها عن رضا من المرأة إن كانا يعلمان قدرتهما على أداء كل منهما حق الآخر عليه ولا يجوز التحايل على حرمان الله تعالى أو قصد التحليل للزوج الأول.

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
 سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّنَعْدُوٍّ وَمَنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
 يَعِظُكُمْ بِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٣١﴾

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ
 أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ
 مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمُ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
 حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
 وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ
 وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ
 فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ
 أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا
 ءَانَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣٣﴾



أمر الله ﷻ مَنْ طلق طلاقاً رجعيّاً فقارب مطلقته الانتهاء من العدة أن يمسك ويراجع بالمعروف والعشرة الطيبة، أو يتركها بدون رجعة ولا يراجعها ليضارّها وليعتدي على حقوقها فإن ذلك ظلم للمرأة وظلم للنفس بارتكابها ما حرم الله تعالى، وليحذر المسلم من التلاعب في الطلاق والرجعة فإن عقد الزواج ميثاق عظيم وغلظ يجب احترامه وعدم امتهانه فالجد والهزل والمزاح بالطلاق أو النكاح والرجعة يؤاخذ به الإنسان.

فمن أعظم النعم تلك الأحكام الشرعية والدين القويم الذي أرسل به نبينا محمد ﷺ وذلك الكتاب الكريم وسنة النبي ﷺ ففيها صلاح البلاد والعباد وفيها العظة والاعتبار وفيها الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، وإذا التزم المسلم ما فيها فقد اتقى الله ﷻ والله عليم بمن اتقاه وأطاعه وأناب إليه. ويوجه الخطاب لأولياء النساء المطلقات طلاقاً رجعيّاً وقد خرجن من عدتهن وأراد الأزواج إرجاعهن فلا يمنعن ذلك إذا حصل الرضا من المرأة والرغبة في عودة الحياة الزوجية، فلا يدفع الغضب والحمية الأولياء في الانتقام والتشفي بل عليهم الصفح والعفو، فمن يرغب فيما عند الله من الأجر والثواب ويخشى الله ويخاف وعيده وعذابه فعليه المسارعة إلى إتمام الزواج والرضا به، فإنه أظهر للقلوب وأبعد عن الحقد والكراهية، ففي اتباع الشرع خير وبركة والله ﷻ يعلم ما هو أصلح للزوجين وليس الولي، وهو دليل على اشتراط الولي في النكاح، والرضاعة تكون في الحولين فبعد الحولين لا تعتبر الرضاعة ولا تحرّم، والأب عليه النفقة على المرأة وكسوتها سواء كانت في عصمته أو مطلقة حسب ما تعارف عليه الناس، فلا يكفل الفقير ما لا يطيق من النفقة بل حسب الاستطاعة، ولا تضار المرأة بولدها لتضر بأبيه فتدفعه إليه بدون إرضاع، ولا يضار الأب بالمرأة فينزع الولد منها إضراراً بها، ويحرم على القريب أن يضار بقريبه وعليه الإنفاق على قريبه إذا لم يكن له أب يتفق عليه.

فإن أراد الأبوان فطام الرضيع عن رضا ومراعاة لمصلحة الطفل فلا إثم في فطامه قبل الحولين، فإن طلبوا مرضعة غير أمه فلا إثم عليها إذا أعطيت الأم أجرة رضاعها وأعطيت المرضعة أجرة رضاعها، وتكون الأجرة بما تعارف عليه الناس، والله تعالى بصير بما يكون في القلوب من نية المضارّة وكل هذه الأحكام في الرضاعة والحضانة هي حفظ لحقوق الطفل في شريعة الإسلام وحفظ لحقوق أمه، فإذا حصل الفراق بين الزوجين فقد حفظ الإسلام حق الطفل في الحضانة والرضاعة والتربية لينشأ نشأة صالحة وفي أحكام الطلاق والرجعة حفظ لحقوق المرأة في الإسلام وتحريم ظلمها أو عضلها سواء من الزوج أو وليها، وقد سبق الإسلام إلى إكرام المرأة وإعزازها والأنظمة كلها مؤكّداً على احترام شخصية المرأة وعدم امتهانها أو احتقارها، فلا تزوّج إلا برضاها، ولا تراجع بعد الخروج من العدة إلا برضاها، وكفل حقها في حضانة ابنها ورضاعته ولو طلبت أجرة على ذلك، وحقها في النفقة عليها وكسوتها، ومن حقوق المرأة تحرير التلاعب بالطلاق والرجعة والنكاح أو الهزل فيه، ومن أعظم النعم على المرأة انتماؤها للإسلام الذي حفظ كرامتها وكفل لها حقوقها.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ
 أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
 ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ
 أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
 وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا
 وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ
 مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ
 قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
 ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
 لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا
 الَّذِي بَيْنَهُمَا عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
 وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

للزواج حق عظيم على الزوجة ولذلك شُرِع في الإسلام عدة الوفاة للمرأة إذا مات زوجها وتحد في تلك العدة، والإحداث ترك الزينة والطيب والحلي، وقد كانت المرأة في الجاهلية تمكث سنة محادة على زوجها فكانت عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام سواء كانت المرأة قد دخل بها زوجها أو لم يدخل بها تبدأ من حين وفاته، وهذه العدة من غير الحامل أما الحامل فعدتها بوضع الحمل، فإذا انقضت عدتها فلا حرج عليها بالزينة والطيب والزواج وغير ذلك على وجه مشروع غير محرم.

والمرأة المعتدة من الوفاة لا يجوز التصريح لها بالخطبة ولكن يجوز التعريض لها، وإضمار خطبتها في النفس بعد الانتهاء من عدتها، ولا يجوز أن يواعدها سرًا أو يُعلمها سرًا لأنه يفضي إلى محرم إلا أن يقول قولاً معروفاً لوليها، ولا يجوز العقد عليها قبل انتهاء العدة المحددة شرعاً، والعقد باطل لو كان قبل انقضاء العدة، والله ﷻ يعلم ما في النفوس والنيات، فلا يقع في النفوس إلا الخير فمن أضمر سرًا وسوءاً فإن الله به عليم، والله ﷻ غفور لمن أخطأ حليم به فلم يعاجله بالعقوبة فيرجع إلى ربه وليتب من فعلته.

وأباح الله ﷻ طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها وقبل تسمية المهر لها ولما كان في ذلك انكسار قلبها وحزنها فشرع تطيب خاطرها بالمتعة التي تدخل عليها السرور، كل بحسبه فالموسر يعطي ما يناسبه والمعسر بما يناسبه، فهي من أخلاق المحسنين، أما إن طلقها قبل الدخول وقد سمى لها المهر وحده فيجب لها نصف مهرها المحدد إلا أن تتنازل عنه أو يتنازل عنه وليها، وإذا حصل أن يتنازل الزوج عن النصف الآخر كان أقرب للتقوى وأحسن فمن كان للنفوس أقرب كان للتقوى أقرب، ولا ينس كل واحد منها الفضل بينها وبخاصة إذا حصل الفراق فقد تتشاحن القلوب ويحمرش الشيطان بينهما فلا يُنسى الفضل والإحسان في هذه الحال.

والله عليم بعباده بصير خبير يعلم ما في النفوس وسواس الصدور. وفي تنظيم العلاقة الزوجية أكمل هدي وأعظم نظام للحياة الزوجية، وفي مشروعية عدة الوفاة إظهار للأسف على فراق الزوج وتعظيم قدره وحقه عليها، وحفاظ على الأنساب أن تختلط، وفي تنظيم خطبة المعتدة حفاظ على العدة وحق الزوج المتوفى فما أعظمه من نظام حفظ حقوق الأحياء والأموات، وفي مشروعية المتعة للمطلقة غير المدخول بها والتي لم يسم لها مهر تطيب للنفوس وإحسان إلى المرأة وإظهار لكرامتها وحققها، وفي وجوب نصف المهر للمطلقة غير المدخول بها وقد سمى لها المهر حفظ لحقها، ومشروعية التسامح فيما بينها، لما يمتاز به دين الإسلام من إظهار العدل والإنصاف وتشريع العفو والإحسان سواء في محيط الأسرة الواحدة أو الأمة الواحدة، ولذلك رغب في العفو والصفح في مجالات الحياة كلها، لأن في هذا الخلق تقارب القلوب وتحابها وتألفها وتصافيتها، والاعتراف بالجميل وحسن العهد من الإيمان، وعدم نسيان أهل المعروف والإحسان والاعتراف بمعروفهم من الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة التي رغب الإسلام بها وحث عليها، وقد كان النبي ﷺ يذكر خديجة في المدينة ويذكر فضائلها ويهدي إلى صديقاتها، ويكثر من ذكرها ويقول (إن حسن العهد من الإيمان)، وهذا هو الاعتراف بالفضل لأهل الفضل أما الذين ينكرون الفضائل ويحذون الإحسان والمعرف ففهم شَبَّهَ بالمنافقين.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ
 قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
 فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ
 ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً
 لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ
 مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْعُ
 بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
 اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ * أَلَمْ تَرَ
 إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ
 فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
 النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
 وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾
 مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا
 كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾



الصلاة في الإسلام عمود الدين من حفظها فقد حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع وتركها جحودًا أو تهاونًا وكسلًا كفر مخرج من الملة، وأمر الله ﷻ بإقامة الصلاة والمحافظة عليها في أوقاتها المحددة شرعًا والإتيان بشروطها وأركانها وواجباتها وبالأخص الصلاة الوسطى صلاة العصر فمن تركها فقد حبط عمله ومن حافظ عليها مع الفجر دخل الجنة، فإن من صلى البردين دخل الجنة، والصلاة تؤدي كما شرع الله فلا يصلح فيها كلام المخلوقين إنها هي للتسبيح والتلهيل وقراءة القرآن فيحرم الكلام فيها ففي الصلاة شغلًا، وهي تؤدي في وقتها سواء كان في حال الخوف أو الأمن فتصلى على حسب الحال سواء كان الإنسان ماشيًا أو راكبًا، فإذا ذهب الخوف ووجد الأمن فيأتي المصلي بالصلاة كما أمر في إتمام الركوع والسجود والقيام والخشوع.

فمن شكر الله على نعمة الأمن المحافظة على الصلوات وذكر الله تعالى والاستكثار من الطاعات فإن الأمن من أعظم النعم ففي الأمن تؤدي الصلاة وتقام الجُمُعات والجماعات. وتأتي الرخصة للمرأة المتوفى عنها زوجها والتي يوصي زوجها أهله بعدم إخراجها من بيتهم ويحسنوا إليها فإن أحببت البقاء معهم أو الخروج بعد انتهاء عدتها فلا إثم عليها في ذلك لأنها فعلت الواجب بالعدة المحددة شرعًا.

ويتكرر التأكيد على متعة المرأة المطلقة ولم يسم لها مهرٌ ولم يُدخل بها فهو حق مؤكد على المتقين. والموت حق له ساعة محددة وقد ذكر الله في القرآن قصة بني إسرائيل الذين هربوا من الوباء خوفًا من الموت فأماتهم الله جميعًا ثم أحياهم بدعوة نبيهم وفي ذلك عبرة وعظة، فلن يغني حذر من قدر ولا ملجأ من الله إلا إليه فهم هربوا طلبًا للحياة فجاءهم الموت سريعًا في آن واحد. ولذلك أمر الله بالجهاد في سبيل الله وأن القتال لا يقرب أجلًا ولا يبعده بل الأجل والرزق مقدر لا يزد فيه ولا ينقص، وأعظم ما يزد المال إنفاقه في سبيل الله فمن أنفق فآله ﷻ يضاعف ماله وأجره وثوابه، وسيجد صدقته يوم القيامة عظمة عند الله تعالى، والله سبحانه هو الذي يعطي ويمنع ويوسع على مَنْ يشاء ويضيّق في الرزق على مَنْ يشاء، فمن ينفق ويعطي فهو يعطي من عطاء الله ومن يقرض الله فهو يقرض من أعطاه المال واستخلفه عليه، والجميع راجعون إلى ﷻ فيوفيه أجورهم يوم القيامة، والمسلم الحق الذي وهبه الله ﷻ المال يتفقه في ابتغاء مرضاة الله على الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل، فالمال مال الله والعبد مبتلى بهذا المال، فمن أراد السعادة والنجاة وحسن المال فليحسن إنفاقه، فنعم المال الصالح للرجل الصالح، وحين يعلم المسلم أن حياته في هذه الدنيا حياة ممر وأن الحياة نهايتها قريبة يدرك أن التزود بالعمل الصالح خير زاد للأخرة فالحياة في هذه الدنيا محددة لا تزيد ولا تنقص وإنما لكل أجل كتاب فلن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، وإذا أنعم الله على العبد الهداية لهذا الدين والالتزام بأوامره والقيام بالحقوق الواجبة كانت له حسن العاقبة في الدارين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا
 لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ
 هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا
 قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
 مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا
 إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ
 لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا
 قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ
 مِنْهُ وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ
 عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ
 يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
 وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
 التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
 تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

القصص في القرآن تسلية وتثبيت للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعبرة وعظة للمؤمنين الصادقين، ومن قصص بني إسرائيل التي فيها العبرة والعظة ما قصه الله عن بني إسرائيل. فقد طلب بنو إسرائيل من نبيهم شمعون أن يعينهم قائلًا ليجاهدوا في سبيل الله وليسترجعوا بلادهم وأبناءهم، وعلى المسلم ألا يتمنى لقاء العدو، ويسأل الله العافية، فإذا لقي العدو صبر وثبت، فبنو إسرائيل طلبوا القتال ثم تراجعوا عنه، فعين لهم طالوت ملكًا عليهم فاحتقروه لأنه ليس من بيوت ملوكهم وليس من أصحاب الجاه والمال فأخبرهم نبيهم أن اختياره لتمييزه بالعلم والقوة، والله ﷻ له الحكمة البالغة يؤتي الملك من يشاء وينزع من يشاء، والله يؤتي فضله من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وكان من آية ملكه أن يرد الله عليهم التابوت الذي قد أخذ من بني إسرائيل وفي هذا التابوت آيات يعرفونها وفيها ما ترك آل موسى وآل هارون من التوراة وعصا موسى وعصا هارون وثياب موسى وثياب هارون ورضاض الألواح، فجاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعت بين يدي طالوت في بيت طالوت والناس ينظرون فآمنوا بنبو شمعون وصدقوا وأطاعوا طالوت، وفي ذلك آية على صدق نبيهم وحسن اختياره لملكهم.

والمسلم لا يغتر بالمظاهر والشكليات وإنما يهتم بما جعله الشرع المطهر شرفًا وعزًّا فالكرامة بالتقوى، والعز والشرف والرفعة بالعلم، فالعلم يرفع في الدنيا والآخرة، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، فرفع الله ﷻ طالوت على بني إسرائيل بالعلم الذي هو من مقومات القائد الناجح، وكذلك القوة والشجاعة والبسالة والإقدام فاصطفاه الله تعالى واختياره لطالوت لما كان فيه من زيادة العلم والقوة عليهم، ولهذا يحسن اختيار الأعلم الأقوى في الحق للقيادة، ومن مقاصد الجهاد والقتال استرجاع الديار والبلاد التي اغتصبها الأعداء، والإعداد لذلك بالقوة المعنوية والحسنية التي أمر الله تعالى بإعدادها، فالأمة اليوم وهي مسلوبة الحقوق والأرض، يجدر بها أن تُعد العدة لاسترجاع ما سلب من حقوقها وأهين من كرامتها.

ويدل على أن الجهاد لا بد له من قيادة وراية تقوم بأمر الجهاد ويرجع إليها الناس ولا يكون الجهاد باجتهادات فردية تخطئ وتصيب فلا يكون له شوكة ولا أثر.

فالقيادة للجهاد من أسس هذه الفريضة، وهذه القيادة يكون اختيارها وانتقاؤها على أساس العلم والقوة؛ لأن مسائل الجهاد في سبيل الله تحتاج إلى علم وفقه وإدراك حتى يتلافى القائد كثير من الأخطاء، وتحتاج إلى علم بسياسيات الحروب ومهارات القيادة الناجحة.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
 بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
 مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
 مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا
 لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
 يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةً
 غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾
 وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ
 عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ
 دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
 وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ
 بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو
 فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
 نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

لما خرج طالوت بالجيش الذي أطاعه وكانوا ثمانين ألفاً أخبرهم أن الله سيختبرهم بنهر بين الأردن وفلسطين وكانوا عطشى، مَنْ شرب مِنْ هذا النهر فلا يتبعه ولا يصحبه ومن لم يشرب منه شيئاً إلا غرفة قليلة واحدة فلا بأس عليه لأنه صادق الصبر والعزيمة، كل ذلك امتحان للعزائم والهمم فكانت النتيجة أن شربوا منه إلا قليل منهم وعدتهم ثلاثمائة وبضعة عشر كعدد أهل بدر فلما تراءى الجمعان والتقى الصفان اتفلقوا ورأوا أنهم أقل عدداً وأن لا طاقة لهم في مقابلة جيش جالوت فشجعهم العلماء العالمون وأخبروهم أن وعد الله حق وصدق وأن النصر من عند الله لا بكثرة العدة والعدد، وأن النصر لمن صبر وثبت فإن الله معه ومثبتة وناصره ومؤيده، فلما تواجه الفريقان دعا الله ﷻ واستنصروه فسألوا الله أن يصبرهم ويثبت أقدامهم في لقائهم مع عدوهم وأن ينصرهم على الكفار والمعتدين فكانت النصره لهم والغلبة فغلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم، وقتل داود جالوت وكان مع جيش طالوت فكان له الملك الذي بيد طالوت والنبوة بعد نبيهم واختصه الله ﷻ بالحكمة وفصل الخطاب، ودفع الله ﷻ بهذا الجيش عن بني إسرائيل تسلط الكفار عليهم، وتلك فضائل الجهاد أن يحفظ الله ﷻ به الدين ويرد به كيد الكافرين ويحفظ به بلاد المسلمين فيحصل فيها الأمن والأمان وتقام فيها الصلوات والجمع والجماعات.

والله ﷻ ذو فضل على المؤمنين بتشريعه الجهاد الذي تحفظ به حقوقهم وديارهم وتلك الآيات والقصص هي حق وواقع فيها العبرة والعظة، فالصبر مفتاح النصر والعزة والكرامة، والله ﷻ يتبلي عباده بالضراء والشدة فيواجهها المؤمن بالصبر والمصابرة والعزيمة الصادقة والهمة العالية، ويعد من سلاح الإيمان والتقوى زاداً له في مقابلة الأعداء والمسلمون لا يقابلون عدوهم بعدد ولا بعة وإنما بعزيمة الإيمان وصدق اليقين، والمؤمنون يستنصرون ربهم ويدعون ويستغيثون به لينصرهم ويؤيدهم ويثبتهم، فهم لا طاقة لهم إلا به سبحانه ولا حول لهم ولا قوة لهم إلا بالله تعالى، فهو سبحانه الذي يربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم وينصرهم على القوم الكافرين.

وإن القوة في الحق والثبات عليه من أسباب العزة والرفعة في الدنيا والآخرة، والشدائد تولد العزائم الصلبة والقوة العظيمة التي تلين أمامها كل المضاعف، والباطل مهما استأسد وتكبر وتجبر فإن مصيره إلى الزوال والنهاية المؤلمة، فما طغى من طاغ وتجبر من متجبر إلا كانت له ساعة، وعلى المسلم أن لا يتشاءم بل يتفائل بنصرة الإسلام، وبظهور الحق، ويُعدُّ نفسه بالصبر، والمصابرة، لينصر الحق بنفسه وأهله وماله وجهده، فإن المسلمين ذمتهم واحدة، وكل واحد منهم على ثغر من ثغور الإسلام، وأمور بأن يكون من أنصار الله، بنصرة دين الله في كل مكان.

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ^ط
 وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ^{٢٥٢} وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
 وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ^ط وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ
 مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا
 فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا
 مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
 شَفْعَةٌ^ط وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ^{٢٥٥} لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
 فِي الْأَرْضِ^ط مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ^{٢٥٦} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
 أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا
 شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
 وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ
 مِنَ الْغَيِّ^{٢٥٦} فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ
 اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

الرسول هم أكرم الخلق وأفضلهم وقد فضل الله بعضهم على بعض فأفضلهم أولوا العزم من الرسل، وأفضل أولوا العزم محمد ﷺ، منهم من كلم الله وهم آدم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ورفع الله بعضهم على بعض درجات، وقد رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج على تفاوت في منازلهم، ولا يفاضل بين الأنبياء على جهة احتقار لأحدهم أو التفضيل بدون دليل، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ (لا تفضلوا بين الأنبياء)، ومن هؤلاء الرسل عيسى ابن مريم ﷺ فقد جاء بالحجج والدلائل القاطعات وأيده الله بجبريل ﷺ، ووقع الاختلاف فيه وفي دعوته، واختلفت الأمم فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وكل ذلك بقضاء الله وقدره، ولا يحدث في الكون إلا ما قدره الله وقضاه فهو سبحانه يقضي ما يشاء بحكمه وإرادته.

ويأمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق مما رزقهم الله من الأموال تقرباً إليه وابتغاء الأجر ما داموا في ساعة المهلة قبل أن ينتقلوا من هذه الدار ويصيروا إلى دار الجزاء ومن قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يباع أحد من نفسه ولا يفادى بالمال، ولا تنفعه صداقة ولا نسب ولا شفاعة، والكافرون هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، فالشرك ظلم عظيم، وآية الكرسي هي أعظم آية في كتاب الله لما فيها من التوحيد وتعظيم الله تعالى وذكر أسماء الله الحسنى وصفات الله تبارك وتعالى فهو سبحانه الحي الذي له الحياة الكاملة وهو القيوم الذي قام بنفسه واستغنى عن خلقه فهو سبحانه لا يأخذه نعاس ولا نوم، وهما من صفات النقص نزه الله نفسه عنها، وسبحانه مالك ما في السماوات والأرض من المخلوقات والجميع عبيد لله تعالى فلا يشفع أحد إلا من بعد أن يأذن الله ويرضى، وهو ﷻ العليم بجميع المخلوقات، وسع كل شيء علماً، يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، يعلم ما الخلق عاملون وما عملوه في السابق وما سيعملون في المستقبل، والعباد لا يحيطون به علماً ولا يحيطون بشيء من علم الله إلا ما أعلمهم الله إياه وأطلعهم عليه مما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل، ولذلك أمرنا الله تعالى أن نستزيده من العلم، ومن عظمة الله أن كرسية وسع السماوات والأرض، والكرسي هو موضع القدمين للرب جلّ وعلا، والعرش لا يقدر قدره أحد، والله سبحانه لا يثقله حفظ السماوات والأرض ومن فيها وما بينها، بل ذلك يسير عليه وهو سبحانه القائم على كل نفس بما كسبت، وهو القاهر فوق عباده وهو العليم العظيم، فله علو الذات والقهر والقدرة، ويأتي التذكير بعظمة هذا الدين وموافقته للفترة التي فطر الله الناس عليها فهو دين واضح جلي لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداة الله وشرح صدره بالإيمان دخل فيه، ومن أعمى الله بصيرته فلا يفيد دخوله في الإسلام قسراً وكرهاً، والناس على فريقين منهم من استمسك بلا إله إلا الله التي هي قوة لمن تمسك بها ونجاة لمن التزم بها فلا انقطاع بمن كان من أهلها، وقسم كفر بالله وآمن بالطاغوت فهو من أهل النار، وهذه الآية هي معنى لا إله إلا الله فمن الكفر بالطاغوت وهو معنى (لا إله) ويؤمن بالله وهو معنى (إلا الله) ومن شروط لا إله إلا الله الكفر بالطاغوت والطاغوت هو الشيطان وكل من عبد من دون الله وهو راض.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
 النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
 أَنِ اتَّخَذَ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
 وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
 بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
 كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ
 عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ
 بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ
 قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
 فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى
 حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى
 الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا
 تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

من اتبع رضوان الله تعالى وآمن به وبرسله فإله ﷻ وليه يحفظه ويؤيده وينصره، وقد أخرجه الله ﷻ من ظلمات الكفر والشرك والوثنية إلى نور الإسلام الحق، وأما الذين كفروا ووجدوا فإن أولياءهم الشياطين التي تؤزهم على الكفر والشرك فقد أخرجتهم شياطينهم من نور الفطرة وأبعدتهم عن نور الإسلام إلى ظلمة الكفر وظلمات الشرك فهم بشرهم وكفرهم من أهل النار الذين لا يخرجون منها بل هم مخلدين فيها أبد الآباد، والموحدون ثابتون على توحيدهم ولو كثرت عليهم الشبه في طريقهم، فإمام الموحدين والخلفاء إبراهيم ﷺ يحاور النمرود بن كنعان البابلي الذي ادعى الربوبية والألوهية واغتر بملكه الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأنكر وجود الله، فقال إبراهيم له إن الله يحيي ويميت، فقال أنا أحيي وأميت فدعا باثنين قد استحقا القتل فقتل أحدهما وأطلق الآخر تمويهاً ودجلاً ومكابرة فقال له إبراهيم إن كنت تدعي الإحياء والإماتة فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فأخرس الطاغية وظهر عجزه فلم يتكلم وقامت عليه الحجة، والله ﷻ لا يوفق ولا يهدي من كفر وظلم نفسه بالشرك والكفر.

وهذه المناظرة دليل على انفراد الله تعالى بالإحياء والإماتة والتدبير ومن دلائل الخلق والإيجاد ما وقع لأحد الساكنين في قدرة الله على البعث لما مرَّ على بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها وقد خلت من أهلها فلما رأى خرابها وتدميرها، استبعد أن يحيي الله هذه البلدة بعد موتها وخرابها، فأماته الله مائة عام وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة وتكامل ساكنوها ورجع إليها أهلها.

فبعثه الله بعد موته فأحيا الله عينيه لينظر كيف يحيي الله جسده فقال الملك كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم، فظن أنه مات أول النهار وبعث آخره وهو ينظر إلى الشمس فظن أنها شمس ذلك اليوم الذي مات فيه، فأخبره الملك أنه مات مائة عام وهذا طعامه وشرابه لم يتغير وأمر أن ينظر إلى حماره الذي كان يركبه، كيف يحييه الله وبعثه، وكانت عظام حماره حوله مترامية فأمرها الله أن تجتمع ثم ركب العظام كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً على عظام، ثم كساه الله لحماً وعصاً وعروفاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ بمنخري الحمار الروح فنهق الحمار فلما رأى ذلك المنظر أمامه قال أعلم أن الله ﷻ قادر على أن يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، فكان آية وعبرة لقومه فهو آية من آيات الله في قدرته على البعث بعد الموت.

تلك الوقائع التي ذكرها الله ﷻ في كتابه العزيز لتدل على قدرة الله ولتقرب لمشركي العرب الذين كانوا ينكرون البعث والنشور، ولكن وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون فهم لو نظروا إليها لم يؤمنوا ولم يقبلوا هدى الله الذي جاء به رسول الله ﷺ، والمسلم الموحد الموقن بالبعث بعد الموت يزداد يقيناً وثباتاً وإيماناً بقدرة الله ﷻ، لأن هذه الدلائل تزيد الإيحاء وترسخه في القلوب.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ
تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾
مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ
لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا
أَذًى وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا
صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ
تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾



أحب نبي الله وخليله أن يزداد إيمانه ويصل إلى اليقين فسأل ربه ﷻ أن يريه كيف يحيي الموتى، ولم يكن ذلك شكاً من إبراهيم عليه السلام بقدرته الله وقد قال النبي ﷺ نحن أحق بالشك من إبراهيم، فلو كان هناك شك لكننا أولى بالشك منه، فأمره الله ﷻ أن يأخذ أربعة من الطير ويوثقهن ويذبحهن ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً فأخذ أربعة من الطير فذبحهن وقطعهن وتنف ريشهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاءً وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله أن يدعوهم فدعاهن كما أمره الله فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعيًا وجعل كل طائر يحيي ليأخذ رأسه الذي بيد إبراهيم فإذا قدم له رأس غيره يأباه فإذا قدم إليه رأسه تركب في بقية جسده بحول الله وقوته، فسبحانه يحيي الموتى، العزيز الذي لا يغلب ولا يمتنع عليه شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وضرب الله مثلاً في تضعيف الثواب للمنفقين في سبيل الله والمبتغين مرضاته وأن الحسنه بعشر أمثالها بالجنة التي تنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة وفي ذلك إشارة أن الأعمال الصالحة ينميها الله ويزيدها لأصحابها كما ينمي صاحب الزرع زرع، فكل عمل ابن آدم يضاعف الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فله أضعاف لا يعلم قدرها إلا الله.

والله ﷻ يزيد لمن يشاء أكثر من ذلك بحسب الإخلاص في العمل والنية الصالحة واحتساب الأجر والثواب وفضل الله ﷻ كثير فهو يعطي من يستحق ومن لا يستحق.

والذي ينفق ابتغاء وجه الله ولا يمين على أحد لا بقول ولا بفعل بل يرجو الله تعالى والدار الآخرة فأجره وثوابه عند الله تبارك وتعالى، وهو عند الموت لا خوف عليه فيما يستقبله من أهوال القيامة ولا يحزن على ما خلف من الأولاد ولا على ما ترك من زهرة الحياة الدنيا.

والقول الطيب والكلمة الطيبة والكلام الحسن والعفو عمن ظلم وتعدى هو خير وأفضل عند الله من الصدقة التي يتبعها الأذى، والله ﷻ غني عن خلقه يحلم على من أخطأ ويغفر له ويتجاوز عنه، ومن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم المنان بما أعطى، والمن بالصدقة وإيذاء الفقير يبطل الصدقة، فثواب الصدقة لا يقابل خطيئة المن والأذى، فمن من بصدقته فهو كالذي يراني الناس بالصدقة ويطلب ثناءهم فالجميع أعماهم باطلة، وضرب الله مثلاً للمرائي والمنان كمثّل تراب على حجارة من الصفا وهو الصخر الأملس أصابه المطر فتركه أملس يابساً قد ذهب التراب وبقي الصخر، فكذلك المرائين تذهب أعماهم هباءً منثوراً لا يجدونها يوم القيامة فهم لا يجدون الثواب لها والجزاء يوم القيامة، بل يقال للمرائين يوم القيامة اذهبوا لمن رآيتم له، والله ﷻ لا يوفق من أشرك مع الله غيره، قال الله تعالى في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه).

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَعَانَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ^ط
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِتَّخَذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

المؤمنون الصادقون هم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وهم يحتسبون الأجر والثواب من الله، ويوقنون أن الله سيثيبهم على ما قدموه، فهم ينفقون الأموال رجاء ما عند الله من الأجر والمثوبة وقد ضرب الله مثلاً للمؤمنين في إنفاقهم كمثل الجنة التي في مكان مرتفع يصيبها المطر الشديد فتخرج ثمرتها مضاعفة فإن لم يكن مطر شديد فهو رذاذ لين، وفي كلا الحالتين تكون كفايتها فذلك مثل عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبله الله وينميه كل عامل بحسب نيته وجهده، وهو سبحانه لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء، وضرب الله مثلاً بالذي يعمل الصالحات ثم تبدل سيرته فيعمل المعاصي فيفسد ما قدّم من الصالحات كمثل من كانت له جنة من نخيل وأعناب وله فيها من كل الثمرات وقد أمضى عمره في إصلاحها وله ذرية صغار فأصابها ريح شديدة فاحترقت ثارها وتقطعت أشجارها فذلك من بدل حالاً إلى حال وضل بعد الهداية، وختم له بخاتمة الشقاوة، وهذا المثل بابٌ للتفكير في حال الإنسان فهو يسأل ربه دائماً الثبات وقد كان ﷺ يكثر من قوله في سجوده (اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك)، والمتصدق يرجو ما عند الله من الأجر فلا يتصدق إلا بالطيب، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، فلا يتصدق من كسب حرام بل من المكاسب الطيبة، ولا يختار رديء المال فيتصدق منه بل يختار الطيب الذي يقبله لو أعطي إياه، والصدقة والزكاة تخرج من أوسط المال، والصدقة بما يحب الإنسان سبب من أسباب نيل البر والإحسان

وأنهى المسلم عن التصديق برديء المال فإن الله غني حميد عن التصديق بالرديء من المال. ولا يستجيب المسلم للشيطان الذي يخوِّفه بالفقر ويأمره بعدم إخراج الصدقة ويوسوس في قلبه إن تصدق أن يخرج الخبيث من المال، ويأمر الإنسان بالمعاصي والسيئات والله يعِدُّ عباده المغفرة والخلف والفضل العظيم، والرزق الواسع الهنيء، ويثيب على ذلك الأجر والثواب الجزيل فهو سبحانه واسع العطاء لعباده يعطيهم الرزق في الدنيا، والمغفرة والثواب في الآخرة.

وأعظم كنز يحصله المسلم في الدنيا العلم النافع الذي يثمر العمل الصالح فمن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ومن يؤت العلم فقد حاز المكارم والفضائل وكان من ورثة الأنبياء ومن أخذ العلم فقد أخذ بحظ وافر، وما يعقل ذلك إلا أصحاب العقول السليمة الذين يدركون فضائل العلم والعلماء ويدركون أهمية العلم، ومن أوتي علماً وفقهاً فعليه بتعليم الناس وبثه والحرص على نشره؛ فثلث كان المنفقون للأموال لهم الأجر العظيم فإن معلم الناس الخير تصلي عليه الملائكة والحيتان في البحر، فالخير كل الخير في الإنفاق من العلم فإنه من أسباب حفظ العلم، وزيادته، فإن العلم بالإنفاق يزيد، ولئن جاء القرآن بإنفاق المال والعلم، فإن بذل العلم أعظم؛ لأن فيه حياة القلوب، وبالمال حياة الأجساد.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُهَا. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا
الْصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ
فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوقِفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ
﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ
لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَأِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
بِالْئِيلِ وَالْثَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾



كل ما يعمل العباد فهو مكتوب في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، والله يعلم ما العباد عاملون وهو سبحانه خلقهم وأعمالهم، فما يعمل العباد من النفقات والنفقات فإن الله به عليم يثيبهم ويجازيهم بها ومن ظلم نفسه بأي أنواع الظلم فما له من نصير ينجيهِ من عذاب الله.

والصدقة إن أظهرت من باب الاقتداء وحث الناس عليها فذلك من المقاصد الحسنة، ومن سن سنة في الإسلام حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وإن أخفيت وأعطيت الفقير فذلك خير للإنسان حتى يسلم من الرياء وثناء الناس وإطرائهم، وهذه الصدقات سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات وهو سبحانه يعلم نيات العباد ومقاصدهم، وهداية التوفيق والإلهام من الله ﷻ، وأما هداية الدلالة والإرشاد فيستطيع عليها البشر، فهو ﷻ هو الذي يوفق للهداية ولذلك أمر المسلمون أن يسألوا الله الهداية في كل ركعة من ركعات الصلاة، ومن ينفق فإنما ينفق على نفسه فهو عمل يقدمه أمامه فمن يعمل صالحاً لنفسه، والمسلم لا ينفق إلا ابتغاء وجه الله لا يريد السمعة ولا الثناء وإذا أنفق المسلم لوجه الله واجتهد في اختيار المحتاج فلا عليه إذا أخطأ في الاختيار، وما ينفق الإنسان من خير فإنه سيجد ثوابه وأجره يوم القيامة كاملاً فلا يظلم ربك أحداً، فلا يُنقص من عمل الإنسان شيء، بل يزداد، والعبد إذا تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً تقبلها الله بيمينه فيريها له حتى تكون مثل الجبل العظيم، والمتصدق يلتبس أهل الحاجات من الفقراء والمساكين كمثل المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم وسكنوا المدينة وليس لهم ما يكفيهم ولا يستطيعون السفر لطلب الرزق فهم من تعففهم يحسبهم الجاهل بأحوالهم أغنياء في لباسهم وحالهم ومقاتلهم، يُعرفون بعلامات أنهم يتعففون ولا يسألون، ويعرفهم أهل الفراسة والخبرة، ومثلهم في كل زمان ومكان فليس المسكين الذي تردُّه التمرة والتمرثان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُقطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً، ومن ينفق على مثل هؤلاء فلا يخفى على الله فسيجد ثوابه وأجره أحوج ما كان إليه يوم القيامة، فالذين آمنوا ينفقون أموالهم التي رزقهم الله واستخلفهم عليها في جميع الأوقات من ليل أو نهار، وفي جميع الأحوال في السر والعلن، وفي جميع أنواع النفقة على الأولاد والزوجة والوالدين والأقارب والمساكين وغيرهم، وسيجدون الأجر والجزاء الأوفى عند الله ولا خوف عليهم في الآخرة فالمرء في ظل صدقته يوم القيامة، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، والمؤمنون لا يحزنون عند فراقهم الدنيا على ما فاتهم منها، فإن ما أمامهم من النعيم المقيم في الآخرة ينسيهم الدنيا، وفي هذا ترغيب للمؤمنين الصادقين أن يبذلوا في سبيل الله ويكنزوا لأنفسهم في الآخرة أعمالاً صالحة تسرهم يوم القيامة.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
 يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
 مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
 مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
 فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ
 اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
 إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
 وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
 فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
 أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ
 ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
 اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

بعد ذكر الأبرار أهل الصدقات والزكوات وأهل البر والإحسان ذكر الله أحوال أكلة الربا وأموال الناس بالباطل، فذكر من حالهم يوم البعث والنشور أنهم يقومون من قبورهم كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له، فهم جوزوا لأنفسهم أكل الربا واستحلوه واعترضوا على حكم الله في تحريمه، والله ﷻ أحل البيع لما فيه من المصالح للعباد، وحرم الربا لما فيه من المضار والمفاسد، فمن بلغه تحريم الربا فأنتهى وكف عن التعامل به، فله ما سلف من المعاملة ويغفر له ما تعامل به من الربا قبل علمه بالتحريم، أما من كان عالماً بالتحريم وتعامل به فليس له إلا رأس ماله والأموال الربوية يردها لأصحابها إن كان يعلمهم وإلا أخرجها بنية التخلص من المال الحرام، ومن عاد إلى الربا بعد علمه بالتحريم فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة وهو متوعد بالنار، وقد لعن الله أكل الربا وموكله وشاهديه وكتبه كما نطق به النبي ﷺ.

والربا محقوق البركة فلا يتنفع به صاحبه وإنما يذهب ويبقى إثمه ووزره، ويزيد الله الأموال بالصدقة فتكثر وتزيد بالإنفاق منها، والصدقة لا تنقص المال بل تزيده، والله ﷻ لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، فالمرابي يجحد نعمة الله عليه ويترك المكاسب الطيبة ويعتاض بالمكاسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلم أثم يأكل أموال الناس بالباطل، وامتدح الله المؤمنين الذين عملوا الصالحات وأقاموا الصلوات المفروضة وأخرجوا الزكاة فأجرهم عند الله يوم القيامة ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ويأمر الله عباده المؤمنين بتقواه ويحذرهم من الوقوع في الربا، ويأمر الله تعالى عباده الذين يتعاملون بالربا أن يتركوا ما أخذوه من الربا من أموال الناس، فمن كان مؤمناً صادقاً منهم فليدع التعامل بالربا، فمن أصر على التعامل بالربا فليعلم أنه يحارب الله ورسوله، ومن حارب الله ورسوله فهو الخاسر المفلس، فمن تاب من الربا فله رأس ماله لا يظلم الناس بأخذ الزيادة منهم ولا يظلم بأخذ رأس ماله، والإسلام حرّم الربا لما فيه من أكل أموال الناس وظلمهم ولما فيه من الجشع والطمع وغياب الأخلاق الإسلامية من الرحمة والتعاون، والإسلام يدعو المسلم أن يُنظر المعسر ويصبر عليه حتى يجد وفاءً بخلاف ما عليه أهل الجاهلية من زيادة الربا، والصدقة بالدين على المعسر هو الخير في الدنيا والآخرة أو إسقاط بعض الدين، فالجميع يرجون ما عند الله ﷻ من الأجر والثواب، والجميع راجعون إلى ربهم ويوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون، فكل نفس بما كسبت رهينة فمن كان ييسر على المعسر ويتجاوز عنهم تجاوز الله عنه يوم القيامة، فهذه الدنيا وأموالها وزهرتها لها نهاية ويوم القيامة يوم توفي فيه النفوس ما كانت تعمل في هذه الدنيا، والعبد المسلم يُعد لهذا اليوم ويتزود للآخرة التي هي دار القرار، وكانت هذه الآية ﴿وَأَقْضُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ وتوفي بعدها ﷺ بتسع ليال.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُمْلََّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَّمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

آية الدين هي أطول آية في كتاب الله فيها أحكام المداينات وإرشاد العباد في معاملاتهم المالية، فيرشد الله عباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون أحفظ لها، ولمقدارها وميقاتها وأصطب للشاهد فيها، ومن صفات الكاتب أن يكتب بالعدل فلا يكتب ما فيه ضرر على الدائن أو المدين ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب لأن ذلك فيه أجر عظيم ونفع للمسلمين، ويملي المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين وليتق الله في ذلك ولا يكتب من الدين شيئاً، فإن كان المدين محجوراً عليه بتبذيره أو صغيراً أو مجنوناً أو لا يتكلم، فيملي عليه بالعدل، ويسن الإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق، ويكون الشهود رجلاً أو رجل وامرأتان، فالمرأة قد تنسى وتجهل فالاثنتان تقومان مقام الرجل الواحد ويشترط في الشهود العدالة، وإذا دُعي أحد من المسلمين للشهادة فعليه تحمل الشهادة ولا يجوز له ألا يشهد وإذا دعوا إلى النطق بالشهادة أن ينطقوا بها ولا يكتبوها وليكتب الدين كله سواء كان صغيراً أو كبيراً ويكتب الأجل ليكون أعدل وأثبت للشهادة وأقرب إلى عدم الريبة، أما إذا كان البيع حاضراً يداً بيد فلا بأس بعدم الكتابة، ويسن الإشهاد على البيع، ولا يضار الكاتب فيكتب خلاف ما يملي عليه، ولا يضار الشاهد فيشهد بخلاف ما سمع أو يكتب الشهادة فمن خالف ذلك وضار في كتابته أو شهادته فهو خلاف أمر الله وفسق وخروج عن الطاعة، وليراقب الجميع الله ﷻ ويخافوه، والله ﷻ يعلم عبادهم أحكام الشرع ومن أسباب تحصيل العلم تقوى الله ﷻ، وهو ﷻ عالم بحقائق الأمور وعواقبها فلا يخفى عليه شيء بل علمه محيط بجميع الكائنات.

وقد تضمنت الآية من الأحكام الشرعية جواز المداينات من السلم أو البيع المؤجل، ووجوب ذكر الأجل فإن لم يوجد أجل فهو محرم لأنه نوع من الغرر، وتأكيد كتابة المعاملات المالية لحفظ الحقوق واستحباب الإشهاد على المداينات، واستحباب أن يكون الشهود رجلاً أو رجل وامرأتان، وقبول شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل في المعاملات المالية، واعتبار الولاية على السفية والمجنون ووجوب أداء الشهادة عند طلبها، وجواز ترك كتابة المبيعات الحاضرة وكتابتها أفضل وأولى، وتحريم مضارة الكاتب والشاهد، وشمول هذه الشريعة فمن مقاصدها حفظ أموال الناس.

والتقوى سبب للعلم والفقه في دين الله، وهي سبب للتفريق بين الحق والباطل، وسبب للفهم وسعة العلم، فإن العلم نور، ونور الله لا يؤتى لعاص، فالخوف من الله وخشيته صفة من صفات العلماء الراسخين؛ لأنه من كان بالله أعرف كان منه أخوف، فلا يجترئ على محارم الله إلا الجهال الذين لم يقدرُوا الله حق قدره.

﴿٢٨٣﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً
 فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ
 اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
 عِاثٌ لِلْقَلْبِ وَأَلِلُّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِ ﴿٢٨٤﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ
 يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٥﴾ ءَامِنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ
 إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
 وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
 وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٦﴾ لَا يُكَلِّفُ
 اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
 رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
 عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا
 تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
 أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

من أساليب توثقة الدين إذا لم توجد الكتابة الرهن، والرهن في الشرع توثقة دين بعين، ومن تمام الرهن أن يكون مقبوضاً عند المرتهن، فإذا اتتمن الدائن المدين فليقت الله المدين وليؤد الذي عليه ولا يكتن ولا يخون بل عليه أن يؤدي ويفي، ويحرم كتمان الشهادة فإن من كتمها فهو فاجر قلبه، لأن كتمان الشهادة ضياع لحقوق المسلمين، وأموالهم.

والله بما يعمل العباد عليم ومطلع على سرائرهم وأحوالهم، فهو سبحانه له ملك السماوات والأرض، يعلم الظواهر والسرائر والضمائر وهو محاسب عباده على كل ما فعلوه وأخفوه في صدورهم، ثم رخص الله لعباده ورحمهم فعفا عن أحاديث النفوس ما لم تعمل أو تتكلم، ومن أركان الإيمان الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل فيجب الإيمان بجميع الرسل، والكفر برسول واحد كفرٌ بجميع الرسل، فالمؤمنون لا يفرقون بين أحد من الرسل، بل يسمعون ويطيعون ويسألون الله المغفرة والرحمة فهو سبحانه لا يكلف أحداً من عباده فوق طاقته وهذا من لطفه سبحانه بعباده ورحمته، ومن يسر الشريعة وسماحتها، فلكل نفس ما كسبت من الخير وما اكتسبت من الشر، ويرشد الله عباده بدعائه وقد تكفل بإجابتهم، فالعبد يسأل ربه ألا يؤاخذ بالنسيان أو الخطأ أو الجهل وقد ثبت في الحديث أن الله تعالى قال: (قد فعلت)، فلم يؤاخذ عباده بالخطأ والنسيان وما استكروها عليه، فقد عفا الله عن أمة محمد ﷺ الخطأ والنسيان وما استكروها عليه، ويسأل العبد ربه ألا يحمله ما لا يطيق من الأعمال الشاقة وما لا يستطيع أن يتحملة من التكليف والمصائب والبلاء.

ويسأل ربه العفو والعافية فما سئل الله بأحب أن يسأله عبده العافية والدعاء بالمغفرة وستر الذنوب ومحوها، وهذه من أعظم الأمنيات في الدنيا أن يغفر الله لعبده ويرحمه، وسؤال الله الرحمة اعتراف من العبد بالفقر والحاجة لربه جل في علاه، فهو ﷻ وليّ العباد المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم وعليه التكلان ولا حول ولا قوة للعبد إلا بالله العلي العظيم وسؤال الله النصر والتأييد على الكفرة الذين كفروا وكذبوا وجحدوا، فالنصر على الأعداء وظهور المسلمين عز للأمة وتمكين، فانصرنا ربنا عليهم واجعل العقاب للمتقين.

وقد ختمت سورة البقرة بهاتين الآيتين العظيمتين قال ﷻ (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)، وهي من كنز تحت العرش فاللهم اغفر لي ولوالدي ولوالديهم ومشايخي وجميع المسلمين.

سُورَةُ الْغَمْرِ

آيَاتُهَا
٢٠رُكُوعُهَا
٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلَمْ (١) اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتٰبَ
 بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَاَنزَلَ التَّوْرَةَ وَاِلَّا نَجِيعَ (٣) مِنْ
 قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَاَنزَلَ الْفُرْقَانَ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيٰتِ اللّٰهِ لَهُمْ
 عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَّاللّٰهُ عَزِيْزٌ ذُوْا نِقَامٍ (٤) اِنَّ اللّٰهَ لَا يَخْفٰى عَلَيْهِ
 شَيْءٌ فِى الْاَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ (٥) هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ
 فِى الْاَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ (٦) هُوَ
 الَّذِى اَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتٰبَ مِنْهُ آيٰتٌ مُّحْكَمٰتٌ هُنَّ اُمُّ الْكِتٰبِ
 وَاُخْرٰى مُتَشٰبِهٰتٌ فَاَمَّا الَّذِيْنَ فِى قُلُوْبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُوْنَ مَا تَشٰبَهَ
 مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَاْوِيْلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَاْوِيْلَهُ ۚ اِلَّا اللّٰهُ
 وَالرَّاسِخُوْنَ فِى الْعِلْمِ يَقُوْلُوْنَ ؕ اٰمَنَّا بِهِ ۗ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ
 اِلَّا اَوْلٰٓؤُا۟ اِلَّا لَبِى (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوْبَنَا بَعْدَ اِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ
 لَنَا مِنْ لَّدُنْكَ رَحْمَةً ۚ اِنَّكَ اَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا اِنَّكَ جَامِعُ
 النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيْهِ ۗ اِنَّكَ اِلٰهٌ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

سورة آل عمران

هي سورة مدنية وسميت بذلك لذكر آل عمران فيها وتفضيل الله لهم

سورة آل عمران لها فضائل منها ما رواه أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال (اقرأوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلها يوم القيامة) رواه أحمد ومسلم

وقد أنزل الله ﷻ كتابه معجزاً للعرب أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا مع فصاحتهم وبلاغتهم وهو مكون من الحروف التي يتكلمون بها، والله ﷻ الأسماء الحسنى ومن أسماء الله الحسنى الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى: (الحي القيوم) جل وعلا، فهو سبحانه لا إله إلا هو فلا معبود بحق إلا الله ﷻ لا شريك له ولا مثيل ولم يكن له كفواً أحد، نزل على نبيه محمداً ﷺ الكتاب حقاً لا شك فيه ولا ريب، والكتب السماوية السابقة تصدقه، وبشرت به وهو يصدقها، فالتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ والإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ كلها قد ذكر فيها النبي محمد ﷺ ورسالته، فأُنزل الله عليه الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال، وهو هداية للبشرية جميعاً من كفر به وجحد ما فيه فله العذاب الشديد يوم القيامة، والله ﷻ ينتقم ممن يكذب به ويكفر برسله، فهو ﷻ يعلم غيب السماوات والأرض ولا يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، فلا تخفى عليه خافية ﷻ، صَوَّرَ عباده في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبح، وشقي وسعيد، فهو ﷻ له الحكم والأمر والخلق وهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، نزل القرآن فمنه الآيات المحكمات البينات الواضحات ومنه الآيات المتشابهة التي يخفى على بعض الناس فهمها، فأصحاب الضلالة يأخذون المعاني الباطلة من الآيات المتشابهة للإضلال والتحريف ويستدلون بها على مذاهبهم الفاسدة الباطلة، وأما العلماء الراسخون الذين يعلمون ويفهمون ويردُّون المتشابه إلى المحكم فيؤمنون بالكتاب كله ويعملون به، والتأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم التفسير والبيان، أما التأويل بمعنى حقائق الأمور وكنهها فلا يعلمه إلا الله، ولا يعقل ولا يتدبر المعاني على حقيقتها إلا أصحاب العقول السليمة والفهوم المستقيمة، والعبد يسأل ربه أن يثبت قلبه على الدين الصحيح وعلى الهدى ولا يجعله ممن في قلبه زيغ فيتبع المتشابه، ويسأل العبد ربه رحمة تجمع شمله ويزيد بها إيمانه وبقينه، فهو ﷻ يهب عباده المؤمنين الرحمة والغفران والثبات والرضوان، وكان من دعائه ﷻ (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، ومن دعاء المؤمن أن يسأل ربه الأمن يوم الخوف والنعيم المقيم يوم يجمع الله الخلائق ويفصل بينهم ويجزي كلا بعمله من خير وشر، وهو سبحانه لا يخلف وعده، فللعباد يومٌ للجزاء والحساب نسأل الله أن يؤمِّنَ فزعنا يوم البعث والنشور.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
 مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابٍ ءَالٍ
 فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ
 وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ
 وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ
 لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأًى الْعَيْنِ وَاللَّهُ
 يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي
 الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ
 وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
 وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ
 أَوْبِئْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
 وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

الكفار مهما نالوا من أموال وجاه وسُلطان وأولاد وقوة فلن تغنيهم يوم القيامة، فلا ينفعهم ما كانوا عليه في الدنيا، ولا ينجيهم من عذاب الله وأليم عقابه فهم حطب النار تسجر بهم، فلا يغتر المسلم بما أوتي الكفار من زهرة الحياة الدنيا فهو نعيم زائل لا ينجيهم من عذاب الله.

فهذا فرعون ومن قبله من الأمم المكذبة للرسل جحدوا وكفروا فأتاهم العذاب، وأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون، أخذهم أخذ عزيز مقتدر فهو سبحانه شديد الأخذ أليم العذاب، وأخذوا بعقاب الدنيا مع ما ينتظروهم من العذاب في الآخرة.

والكفار مهما أجليبوا بقوتهم على المسلمين فإن مآلهم إلى الهزيمة وسيهزمهم المسلمون وتكون النصره لأهل الإيمان وهذه بشاره للنبي ﷺ وأمته من بعده في كل زمان ومكان أن الكفار سيهزمون في الدنيا وفي الآخرة يحشرون إلى النار فبئس فراشهم النار ومهادهم، وأعظم آية وعلامه على صدق النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه نصره الله له في بدر على كفار قريش، فقد التقت فئة الإيمان والحق تجاهد في سبيل الله والتقت فئة الشيطان وأمة الكفر والشرك، وجعل الله الرعب في قلوب المشركين فرأوا المسلمين مثليهم في العدد، مع أن الكفار مثليهم في العدد وأمد الله المؤمنين بألف من الملائكة، فأيد الله المؤمنين ونصرهم على الكافرين فكانت آية وعبرة للمعتبرين، والمؤمن في زمن تكالب الأعداء على أمته المسلمة يتذكر تلك الآية فيستلهم منها القوة والثبات ويستنصر ربه على الكافرين فلا ترهبه قوة الكفار ولا عتادهم، بل يتسلح بسلاح الإيمان ويستضيء بنور القرآن، ومن رحمته ﷺ بعباده أن أباح لهم ما فُطروا عليه من محبة النساء والأولاد والأموال من الذهب والفضة والخيول الجميلة وسائر الأنعام والزراعة وما تشتهي الأنفس مما أباح الله، ورغَّبهم بالآخرة وأن عنده سبحانه حسن المرجع والثواب فلا يغتر المسلم بزهرة الحياة الدنيا وزينتها فهي متاع زائل فليستعملها فيما يقربه إلى الله تعالى، فما عند الله تعالى خير للمؤمنين الصادقين المتقين الذين عملوا بمرضاة الله واجتنبوا ما نهى الله عنه فلهم في الآخرة جنات تجري بين جوانبها وأرجائها الأنهار من العسل واللبن والخمر والماء مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يخلدون فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولاً، ولهم فيها من الخور العين التي طهرت من الأذى والخبث والحيض والنفاس ويحل الله عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ومن أعظم ذلك رؤية الله ، وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربه ناظرة، وهو ﷻ يعطي عباده من النعيم برحمته وفضله وهو عالم بأعمالهم، وذلك يدفع المؤمن للعمل الصالح والتسابق في ميدان الآخرة وألا يغتر بزهرة الحياة الدنيا ونعيمها فهو في دار الممر فليعدّ لدار المآب، فما يوجد في الدنيا من النعيم لا يساوي عند نعيم الآخرة شيئاً فهذه الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فالدنيا بنعيمها وزهرتها وشهوتها هي للمؤمنين سجن لما ينتظروهم من النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
 عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ
 وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
 اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ
 اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ
 اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ
 وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
 أَسَلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
 عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
 الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
 بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

المتقون الأبرار أهل الجنة والنعيم من صفاتهم كثرة دعائهم لربهم فيتوسلون له بالإيمان وهو من التوسل المشروع فيتوسل العبد بالإيمان والعمل الصالح وبأسماء الله وصفاته أو بدعاء حي قادر، فيدعو المسلم ربه بطلب المغفرة والرضوان فإن الذنوب والمعاصي والسيئات إذا اجتمعت على المرء أهلكتها ولذا كان النبي ﷺ يتوب ويستغفر في المجلس الواحد أكثر من مائة مرة، ودعاء الله ﷻ بالوقاية من النار والنجاة منها، وما استجار عبد من النار إلا قالت النار رب أجره مني، فتلك من صفات المتقين، ومن صفاتهم الصبر على البلوى والصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله، ومن صفاتهم الصدق في القول والفعل فالؤمن لا يكذب، فالصدق منجاة ويهدي إلى الجنة، ومن صفات المتقين كثرة الطاعة ودوامها بخشوع وخضوع، ومن صفات المتقين كثرة الإنفاق في سبيل الله ومواساة أهل الحاجات وصللة الرحم والسعي على الأرملة والمسكين واليتيم، ومن صفات المتقين كثرة استغفارهم وتوبتهم وبالأخص في وقت السحر حين ينزل الله إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر فيقول: (هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه)، ولزوم الاستغفار سبب للبركات وتنزل الرحمت وكثرة الأموال والبنين وسعة الرزق وتفريج الهم والكرب، ومن صفات المتقين توحيدهم الخالص لله تبارك وتعالى فقد شهد الله وأشهد الله نفسه الكريمة، والملائكة وأهل العلم على تفرد سبحانه بالعبادة فهو الله الذي لا إله غيره ولا معبود بحق سواه، وأنه سبحانه قائم بالعدل فلا يظلم ريبك أحدًا، فشرف عباده العلماء بالشهادة على وحدانيته تنبيهًا على فضل العلم وأهله، ومن العدل التوحيد، وأعظم الظلم الشرك بالله تعالى، هذه العقيدة الصحيحة هي ملة الإسلام التي لا يرضى الله سبحانه دينًا سواها، فالدين الصحيح هو ما جاء به محمد ﷺ وشريعته ناسخة لجميع الشرائع فمن كفر بما جاء به رسول الله فهو من أهل النار، ومن يتبع غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى اختلّفوا في النبي ﷺ فمنهم من آمن ومنهم من كفر وجحد، حسدًا وظلمًا وعدوانًا ومن جحد ما أنزل الله من الحق فإن الله سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته رسالة النبي ﷺ، فمن يحتاج ويخاصم ويجادل في التوحيد فإن مآله إلى الخسران الدنيوي والأخروي، والمسلم يعلن إسلامه وإيمانه وتوحيده، ويعتز بذلك، وهذا أمر للنبي ﷺ ولأمته من بعده أن يدعوا أهل الكتاب وغيرهم ممن ليس لهم كتاب من العرب وغيرهم للإسلام والإيمان، فإن أسلموا وأطاعوا وآمنوا فقد كتبت لهم الهداية والفلاح وإن اعترضوا وكفروا فإننا على الرسول البلاغ، وعلى كل داعية إلى الله البلاغ والبيان وحسابهم على الله تعالى، فالله أعلم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الضلالة، فمن كفر وجحد وعاند وكابر وقتل الأنبياء والعلماء والدعاة والمصلحين والأميرين بالمعروف والنهي عن المنكر فله العذاب الأليم يوم القيامة، وإن كان المقصود في هذه الآية اليهود فإن من شابههم بأفعالهم فله من العذاب الأليم والعقاب الشديد مثلهم، وحبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصر ولا معين يوم القيامة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ
 اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ
 فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ
 لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
 لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ
 مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ
 مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُوَلِّجُ اللَّيْلَ
 فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
 وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾
 لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن
 يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ
 تُقَاتَةَ وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلِ
 إِن تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُيُودِهِ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

اليهود والنصارى يدعون اتباع كتبهم والإيمان بها جاء فيها وإذا دُعوا إلى التحاكم بها فيها من طاعة الله فيها أمرهم به فيها من اتباع الرسول ﷺ تولوا وأعرضوا، ويدعون لأنفسهم النجاة من النار فهم يدعون أنهم لن يعذبوا في النار إلا سبعة أيام فاغثروا بذلك الزعم وحلهم على الثبات على باطلهم وخدعوا أنفسهم بهذا الزعم الباطل فتمسكوا بدينهم الباطل وكفروا بها جاء به الرسول محمد ﷺ فكيف سيكون حالهم يوم القيامة الذي لا شك فيه وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، والله سبحانه سيألمهم عن كل ما عملوا ويمجازيهم به وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وما ظلمهم لأنفسهم بجحد نبوة النبي ﷺ إلا حسداً ألا تكون النبوة فيهم فالله ﷻ هو المتصرف في خلقه يفعل ما يشاء ويختار، نزع النبوة من بني إسرائيل وجعلها للنبي العربي القرشي خاتم الأنبياء وأفضل الرسل، فهو سبحانه المتفرد بتصرف الأمور وتدبير العالم يعطي من يشاء ويحرم من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فما أَراده وقدره سيكون ليس لأحد اعتراض أو تدبير، بيده سبحانه الخير كله، فلا يأتي بالخير إلا الله وهو الذي قضى الشر وقدره ولكن ما قضاه الله من الشر وقدره يؤول إلى خير ونفع للإنسان في عاجل أمره وآجله، وهو سبحانه على كل شيء قدير فلا يعجزه شيء ولا يتعاضمه.

هو المتصرف بالزمان يدخل الليل على النهار ويدخل النهار على الليل ويزيد الليل وينقص النهار ويتقص الليل ويزيد النهار.

يخرج الزرع من الحب والحب من الزرع والنخلة من النواة والنواة من النخلة والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، ويعطي من يشاء من المال ما لا يعد ولا يحصى ويمنع آخرين بحكمته ومشيئته سبحانه، فهو سبحانه بيده مقاليد السماوات والأرض، فلا يتعلق قلب المؤمن بغير الله ولا يوالي أعداء الله لطمع في الدنيا أو هوى في النفس، فأعداء الله ورسوله والمؤمنين لا يُحِبُّون ولا يوادون بل يَبْغِضُونَ لكفرهم بالله ﷻ، فقد نهى الله عباده المؤمنين عن موالاة الكافرين ونهاهم عن اتخاذهم أولياء من دون المؤمنين يسرون إليهم بالمودة والمحبة فمن فعل ذلك فقد برئ من الله إلا من خاف شرهم وأظهر ما يتقي به شرهم، وقلبه على كرههم وبغضهم فيسلمهم ويهادنهم، ويحذر الله عباده نقمته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أوليائه والله إليه المرجع والمنقلب فيجازي كل عامل بعمله والله يعلم ما في السرائر والضمائر ولا يخفى عليه خافية، فمن أَسْرَّ محبة الكفار وموادتهم فإن الله به عليم، ويعلم سبحانه ما يكون في السماوات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال وهو ﷻ القادر على عباده فلا يعجزه شيء فعلى العبد أن يخشى الله ويتقيه فيجتنب المحرمات ويفعل الطاعات والواجبات، ويعيش في هذه الدنيا وهو يراقب ربه في أعماله في كل صغير وكبير، يوالي المؤمنين ويعادي الكافرين.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
 مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ
 اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
 فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ
 وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
 مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
 وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ
 وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ
 وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
 حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
 زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لِلِّ هَذَا
 قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾



العبد المؤمن في هذه الحياة يُعدُّ العدة للآخرة، فما عمل في هذه الدنيا من خير سيجده يوم القيامة بين يديه فمن رأى حسنة سره رؤيتها ومن رأى سيئة تمنى أن يتبرأ منها وأن يكون بينه وبينها مسافة بعيدة، فها هو الإنسان يستطيع اليوم أن يتبرأ من السيئات ويتوب منها ويقطع عنها في دار الدنيا، ويستطيع أن يكتسب الحسنات فلماذا لا يعد لذلك اليوم، فربنا يحدّثنا من عقوبة السيئات ويرغب عباده برحمته فالله رحيم بعباده سهل لهم طرق الطاعات ونيل الحسنات وفتح لهم باب التوبة والاستغفار، فمن أراد أن ينظر إلى استقامته فليَنظر هل هو صادق في محبة الله، والصدق في محبة الله يكون باتباع النبي ﷺ، فمتابعة النبي الكريم ﷺ طريق لمحبة الله فلا ينال العبد محبة الله إلا بتصديق النبي ﷺ وامتنال أمره واجتناب نهيه، وطريق غفران الذنوب وتكفير السيئات هي باتباع نهج محمد ﷺ فقد أمر الله بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ومن كفر وتولى فإنه من الكافرين، ومن عباد الله الذين اختارهم وفضلهم وخصهم بالتكريم آدم أبو البشر كرمه الله وخلقته بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، واصطفى نوحًا فجعله أول الرسل ومن أولي العزم منهم، ودعا إلى الله سرًّا وجهراً وليلاً ونهاراً فلم يؤمن بدعوته إلا القليل فدعا على قومه فاستجاب الله دعوته، فأغرق من في الأرض جميعاً إلا من ركب معه السفينة، واصطفى الله آل إبراهيم فمنهم الأنبياء والمرسلين وخيرهم وسيدهم محمد ﷺ، واصطفى آل عمران وعمران، والد مريم أم عيسى ﷺ، وسألت أم مريم الله ﷻ الولد فاستجاب الله لها وهي حنة بنت فاقوذ، فلما تبين حملها نذرت لله أن تجعل الحمل الذي في بطنها خادماً لبيت العباد وهو المسجد الأقصى، ودعت الله بالقبول فالله السميع لدعائها والعالم بنيتها، ولم تكن تعلم ما في بطنها ذكراً أم أنثى، فلما وضعها كانت أنثى وكانت تمنى الذكر لقوته في العباد والخدمة فسمتها مريم وأعازتها وذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله دعائها، فما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها، وتقبلها الله من أمها وأنبتها نباتاً حسناً فكانت من أجهل النساء ويسر لها أسباب القبول وجعلها من الصالحين، ويسر الله لها تعلم الخير والعلم والدين وجعل كفالتها لزوج أختها زكريا ﷺ فتعلمت منه العلم والعمل، وكان إذا دخل عليها مكان عبادتها وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها زكريا من أين لها هذا فتقول من الله تعالى الذي رزقها وحفظها فهو يرزق عباده بدون حد ولا عد ﷻ، وإذا أراد الله حفظ عبد من عباده أو أمة من إمائه حفظه ورزقه وهياً له أسباب الرزق والحياة، ويسر له أسباب الثبات على الدين وفي ذلك آية وعبرة، فتلك المرأة التي نذرت أمها أن تجعلها خادمة لبيت المقدس، يسر لها أسباب السعادة والسيادة وخلق منها ابنها المسيح ابن مريم آية وعبرة وكرامة لها، والله يخلق ما يشاء ويختار جلّ وعلا، وهذا يدعو المسلم للتسليم بما يختار الله ويقضيه فتلك الأنثى كانت خيراً لأمتها ولعائلتها فالت الشرف بها.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنادته الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ
يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنْ
اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ
أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ
كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً
قَالَ ءَايَتُكَ أَلا تَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا ۖ وَادَّكُرَ
رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
الْمَلَكَةُ يَمْرِيُمْ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ
عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيُمْ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي
وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
الْمَلَكَةُ يَمْرِيُمْ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

لما رأى زكريا ﷺ رزق الله لمريم دعا ربه أن يهبه ولدًا يرثه وكان شيخًا كبيرًا وامرأته عجوز لا تلد، دعا ربه بالذرية الصالحة نداء خفيًا فسمع الله دعاءه فخاطبته الملائكة وهو قائم يصلي في محراب عبادته ومحل خلوته بالبشارة بالولد واسمه يحيى مصدقًا بعيسى ابن مريم، فهو أول من آمن بعيسى ابن مريم وسيدًا في الحلم والتقوى والعلم محفوظًا عن السيئات والذنوب، ونبيًا من أنبياء الله فتعجب زكريا من وجود الولد مع كبره وكبر زوجته وكونها عاقرا لا تلد، فكانت مشيئة الله فهو سبحانه إذا قضى أمرا كان، فسأل زكريا ربه آية وجود الولد معه فكانت علامة ذلك ألا يستطيع الكلام ثلاثة أيام إلا بإشارة مع كونه سويا صحيحًا وأمره بكثرة الاستغفار والذكر والتكبير والتسبيح، وتلك الوصية من الله لنبيه زكريا ﷺ، هي الوصية للأولين والآخرين من عواده، فإن التسبيح والذكر والتكبير سلاح المسلم في كل وقت، وهو أنسه وسعادته، يجد فيه الأُنس والراحة والطمأنينة، ولا تقابل النعم إلا بالشكر والطاعة، فأعظم ابتهاج للنفوس في الفرح ذكر الله وتمجيده وتعظيمه.

فكانت مريم سببًا في سؤال زكريا ربه الولد، تلك المرأة التي شرفها الله وطهرها واختارها لكثرة عبادتها وزهدها، فهي خير نساء الجنة، وأمرها الله بكثرة العبادة والطاعة بخشوع وتذلل وإكثار السجود والركوع فكانت قصة مريم مما قصه الله على نبيه وكانت تحت كفالة زكريا، فقد اختصموا في كفالتها واقتروا فألقوا أقلامهم أيهم إثبت قلمه فهو كافلها فثبت قلم زكريا في الماء واحتمل الماء أقلامهم فكانت تلك علامة كفالتها.

وبشرتها الملائكة بولد عظيم له شأن كبير يولد بكلمة من الله يقول له كن فيكون اسمه المسيح عيسى ابن مريم، له وجاهة ومكانة عند الله ﷻ في الدنيا فهو نبي من أنبياء الله ومن أولي العزم من الرسل، اصطفاه الله واختاره وجعل له المكانة في الدنيا بالنبوة والرسالة، ومكانته في الآخرة في شفاعته فيمن أذن الله له، فيقبل الله شفاعته وله المكانة في الآخرة في الجنة ..

وتلك كرامة الله لمريم كانت سببًا في دعاء زكريا فوهب الله له يحيى نبيًا ومن الصالحين وخلق الله عيسى ﷺ فقال له كن فيكون، فصبرت على ذلك وآمنت بكلمات ربها

فأكرمها الله بالثبات والإيمان ودوام الطاعة والعبادة فكانت أمًا لرسول من رسل الله عيسى ابن مريم وكان برًا بها، وبر الأم سبب للرفعة في الدنيا والآخرة، ولذلك كانت المكانة العليا للمسيح ﷺ عند الله تعالى أيده الله بالمعجزات فهو المسيح الذي إذا مسح على ذوي العاهات شفاهم الله بذلك، فهو عبد من عباد الله خلقه الله بكلمة منه، فمثل عيسى كمثل آدم قال الله له كن فكان.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
 وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾
 وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
 وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
 وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
 هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
 الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ
 أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

من المعجزات التي أيد الله بها نبيه عيسى عليه والسلام كلامه في المهد وهو تأييد لأمه وبراءة لها فقد كلف الناس وهو طفل في المهد وتلك معجزة وآية، وفي حال كهولته يدعو إلى الله وحده لا شريك له ومن الصالحين في قوله وفعله، فكان استغرابها أن يكون لها ولد ولم يمسه بشر فلم تتزوج ولم تمارس الزنا، فكان الجواب أن الله ﷻ يخلق ما يشاء إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وكانت البشارة لمريم تحفيظاً عليها بأن ابنها يعلمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وسيكون رسولاً إلى بني إسرائيل يقول لهم قد جئكم بآية من الله، فيصوّر من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه الروح بإذن الله ﷻ معجزة تدل على رسالته، ويشفي الله على يديه من ولد أعمى ويشفي على يديه الأبرص، فهذه معجزات باهرة في زمن الأطباء وعلماء الطبيعة بها لا سبيل لأحد إليها مؤيداً من الله، بإحيائه الموتى وإخباره لهم بما في بيوتهم من دلالة على صدقه فيها جاء به من الشريعة التي توافق ما في التوراة وتحل ما حرم عليهم في التوراة، كل ذلك حجة ودلالة على صدق نبوته ورسالته التي يجب عليهم قبولها بطاعته، وعبادة الله وحده لا شريك له فالصراط المستقيم باتباع الرسل والإيمان بهم وبما جاءوا به من عند ربهم.

ولما استشعر عيسى من بني إسرائيل التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال من يناصرني على دعوتي؟ قال الخواريون نحن أنصار الله، والحواري هو الناصر، فآمنوا به وناصروه وأيدوه وسألوا نبيهم أن يشهد على إسلامهم وإيمانهم به، فالإسلام الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، والإسلام لا يكفي أن يكون بالقلب بل لابد من ظهوره على الجوارح وأن تطبق شعائره.

وتلك قصة عيسى منذ أن كان في المهد وحفظ الله له وتشريفه بالنبوة والرسالة وتأيدته بالمعجزات الباهرات التي تشهد على صدق دعوته ورسالته، وتأيد الله له بالأنصار الذين أيدوه وآمنوا به وصدقوا، وكيف انقسم بنو إسرائيل بين مصدق ومؤمن به، وبين كافر جاحد معاند.

وكانت دعوة عيسى ﷺ التوحيد وإفراد الله بالعبادة وحده لا شريك له وهي دعوة جميع الرسل من نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم، فالصراط المستقيم هو تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له، ولكن النصارى غلوا في عيسى واتخذوه إلهًا وقالوا المسيح ابن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وهذه الأمة تؤمن بالمسيح وأنه كلمة الله إلى مريم، وروح منه، ونبي من الصالحين، رفعه الله إليه، وسينزل آخر الزمان، ويدين بدين الإسلام، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يرضى إلا الإسلام.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا
لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾
ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾
فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

دعوة المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بعيسى عليه السلام وناصروه وأيدوه واتبعوه في دعوته سؤلهم ربهم أن يجعلهم مع أمة محمد صلى الله عليه وآله التي تشهد للأنباء بالبلاغ وهم من الشاهدين بالوحدانية وللأنبياء بالرسالة والتبليغ لأمتهم.

ولكن الذين كفروا بعيسى تمالؤوا عليه وهموا بقتله وصلبه، ودلهم عليه رجل منهم فألقى الله شبهه على ذلك الرجل فقتلوه وصلبوه وظنوا أنهم قتلوا عيسى وصلبوه.

ورفع الله عيسى عليه السلام إلى السماء ونجاه الله من مكربهم، وسينزل آخر الزمان حكماً عدلاً ويقتل المسيح الدجال ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويدين بدين الإسلام ويتوفاه الله ويدفن في آخر الزمان، وقد جعل الله كرامة من آمن به وصدقه الرفعة والمكانة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وبعد بعثة محمد صلى الله عليه وآله كانت هذه الأمة هي أولى الناس به وهي المؤمنة به فأعزها الله وأكرمها أما من كان على النصرانية فلم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وآله فليس من أتباع عيسى عليه السلام لأن عيسى هو المبشر بمحمد صلى الله عليه وآله يجب على من أراد النجاة أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله ليكون مؤمناً بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ويوم القيامة هو يوم الحكم العدل يحكم الله بين الخلائق ويجازيهم فمن كفر بالرسول وجحد رسالاتهم فلهم العذاب الشديد يوم القيامة وما لهم من ينجيهم من عذاب الله أر ينصرهم. وأما الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد من رسله وعملوا الأعمال الصالحات ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى واتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله فهم الأجور في الدنيا بالنصر والتمكين والظفر بالأعداء وهم في الآخرة الجنات والنعيم المقيم، وهو صلى الله عليه وآله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون وتلك الآيات في كتاب الله التي فيها ذكر الأنبياء وأخبارهم حق وصدق، قصها الله على نبيه تأييداً وتثبيتاً له، فما ذكر في القرآن من قصة عيسى عليه السلام هو الحق الذي لا مرية فيه ولا اختلاف.

فخلق عيسى كخلق آدم خلقه بقوله كن فكان، فكما خلق الله آدم من غير أب ولا أم وإنما من تراب خلق عيسى بكلمة منه، فمن أراد المجادلة فليجادل في خلق آدم الذي خلق من غير أب ولا أم، ومن ادعى أنه ابن الله تعالى الله عن ذلك فإن آدم لم يقل أحد أنه ابن الله، وهذا يدل على تناقض النصارى في ذلك، فمن جادل بعد هذا الحق وبيان القرآن فليدعى إلى المباهلة وهي الملاعة فتجعل لعنة الله على الكاذبين الذين كذبوا على الله وجعلوا له ولداً، وقد أراد النبي صلى الله عليه وآله مباهلة وفد نصارى نجران لما أصرروا على أن عيسى ابن الله، فلما دعاهم كما أمره الله امتنعوا وطلبوا المصالحة فأجابهم الرسول صلى الله عليه وآله بظهور الحق فامتنعهم دليل على كذبهم وعدم صدقهم وظهور باطلهم.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾
 قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
 بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
 إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّورَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَتَأْتُمْ هَتُّوْلَاءَ حَبَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
 عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
 حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ
 بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
 وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَتَاهِلَ
 الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

ما ذكره الله تعالى في القرآن من أخبار الأنبياء وقصصهم هو الحق والهدى والصدق الذي لا شك فيه، وما ذكر عن عيسى ابن مريم وأنه عبد الله ورسوله هو الحقيقة التي يجب الإيمان بها، فدعوة عيسى عليه السلام عبادة الله وحده لا شريك له، وما من إله غير الله وتلك دعوة التوحيد التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين وهو ﷺ العزيز بقدرته وقوته الحكيم في أمره وقضائه ..

فمن تولى عن التوحيد إلى الشرك والوثنية فالله سبحانه عليم بمن يفسد في الأرض بالشرك، وهذا هو الحق والتوحيد الذي دعا إليه محمد ﷺ وأمر بالدعوة إليه ودعا إليه أهل الكتاب بأن يجتمعوا على كلمة العدل والإنصاف، والحق وهو تحقيق العبودية لله تعالى ونبذ الشرك وأهله ولا يطيع البشر بعضهم بعضاً في تحليل الحرام وتحريم الحلال، ولا في الطاعة في معصية الله ..

فإن أعرضوا وتولوا عن تلك الدعوة فليشهدوا على ثبات هذه الأمة على توحيد الله ﷻ، وقد كتب النبي ﷺ بهذه الآية ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَآلَوْا إِلَىٰ كَلِمَتِ سَوَآمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْأَلْفَافُ ٱلَّتِي قَدْ تَلَّكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَشْرِكْ بِوَدِّهِ شَيْئًا﴾ إلى قيصر وكان يقرأ بها في الركعة الثانية من سنة الفجر لما فيها من الدعوة إلى التوحيد والثبات عليه، والدعوة إلى الاجتماع على التوحيد، وملة الإسلام هي الحق الذي يجب امتثاله فإن أراد العالم اجتماعاً فليجتمعوا على التوحيد الخالص وبذلك يظهر بطلان من ينادي بتقارب الأديان.

وإبراهيم إمام الخفاء وأبو الأنبياء داعية التوحيد، لم يكن من اليهود ولا من النصارى وإنما أنزلت التوراة والإنجيل من بعده، فليس لليهود ولا النصارى حجة أن إبراهيم منهم بل إن إبراهيم بريء منهم ومن شركهم وبريء من ولايتهم، والمحاجة بغير علم ولا هدى وإنما عن جهل وعناد واستكبار صفة ذميمة، والواجب على الإنسان ألا يخوض فيما لا علم له، بل عليه أن يعمل بما يعلم ويطبقه، فاليهود والنصارى لو أخذوا بما عندهم من العلم بنبوة النبي ﷺ وصدقوه وآمنوا لكان خيراً وأقوم، فهذا النبي الخاتم هو أولى الناس بإبراهيم ﷺ فإبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً بل كان حنيفاً مسلماً ماثلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولم يكن من المشركين بل تبرأ من المشركين وطريقتهم، فمن كان موحداً مخلصاً فهو من أتباعه، ومحمد ﷺ وأتباعه هم أحق الناس بشرف اتباع خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، وهو ﷺ ولي المؤمنين برسله وينصرهم ويؤيدهم ويحفظهم، وأهل الكتاب يعلمون صدق النبي ﷺ وصحة رسالته ولكنهم جحدوا ذلك استكباراً وعناداً وحسدًا من عند أنفسهم، ولذلك حرصوا على إضلال المؤمنين والتلبس عليهم، ومحاولة صدهم عن الهدى والحق، وما علموا أن ذلك ضلال لهم، فهم كفروا بآيات الله وهم يعلمون صدق الرسالة وصدق النبي عليه الصلاة والسلام وصدق القرآن.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا
بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوَمَّنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنَصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنْطَارٍ
يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا
خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾



من طرق إضلال أهل الكتاب للمؤمنين كتابهم الحق وتليس الحق بالباطل، وهم يعلمون ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ وصدق رسالته، ومن طرق إضلالهم أنهم آمنوا أول النهار وكفروا آخره، كيلاً منهم في الإضلال، وإذا سمع الناس برجعهم عن الإسلام كان سبباً في تراجعهم عن الإسلام، لأنهم أهل كتاب يعلمون الحق من الباطل، ولم يعلم هؤلاء أن الإيمان إذا خالط بشاشة القلب تمكّن، ويحذر بعضهم بعضاً بأن لا يظهروا ما عندهم من معرفة الحق للمسلمين فيحتجوا به عليهم.

وما علموا أن الهداية بيد الله ﷻ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وإن كتم اليهود ما بأيديهم من صفة النبي ﷺ، وهو ﷺ يؤتي عباده فضله وإحسانه فهو سبحانه المعطي المانع يمن على من يشاء بالهداية والإيمان والعلم ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته ويحتم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة فيختص برحمته من يشاء وهو يتفضل على عباده بالفضل الذي لا حد لحدوده ولا عدد.

وأهل الكتاب مع كفرهم وضلالهم يجوز التعامل معهم بالبيع والشراء فمنهم الأمراء الذين لو استأمنوا على الأموال الكثيرة لأدّوها لأصحابها، وفيهم الخونة الذين حذر الله عباده من الاطمئنان إليهم فهم يسوغون لأنفسهم خيانة العرب وأن الله قد أحل لهم أموالهم فجمعوا بين الخيانة والكذب على الله تعالى، وقد أمرهم الله بالوفاء بأداء الأمانة العظمى، والعهد والميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل من الإيمان بخاتم الأنبياء والمرسلين، وهو أعظم عند الله فهم خانوا الأمانة التي أمّنوا إياها في كتبهم من ذكر النبي ﷺ ورسالته وصدقه، وخانوا العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم فخيانتهم في الأموال والمعاملات أمر يسير.

فهم قد اشتروا الدنيا بالآخرة، واعتاضوا عما عاهدوا الله عليه من اتباع النبي ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره بالأثمان القليلة الزهيدة من عروض الدنيا باتخاذ الأيمان الكاذبة وسيلة لكسب المال.

فلا نصيب لهم في الآخرة ولا حظ لهم فيها ولا يكلمهم الله كلام لطف ولا ينظر إليهم نظرة رحمة ولا يطهرهم من الذنوب بل يأمر بهم إلى النار ولهم العذاب الشديد يوم القيامة.

والمسلم المتبع لأمر ربه يتبرأ من صفات أهل الكتاب ويرعى الأمانة والعهد والميثاق ولا يستحل أموال المسلمين بالأيمان الكاذبة واليمين الغموس، فلا يأخذ مال امرئ مسلم إلا عن طيب من نفسه، فالدنيا متاع زائل فلا يغتر المسلم بها بل يرجو ما عند الله من الأجر والثوبة ويخاف الله ويتقيه بالوفاء بالعهد والمواثيق وأداء الأمانات والديون ويعطي الناس حقوقهم فكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه.

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرْقًا يَلُودَنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ
 مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ
 مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
 وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ
 وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
 وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
 وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ
 وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
 بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
 قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾
 فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾
 أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

من صفات اليهود التحريف والتبديل في اللفظ والمعنى وتبديل كلام الله ليوهموا الجهلة أن ذلك من كتاب الله وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله وهم يعلمون كذبهم وافتراءهم على الله.

فحرفوا العقائد السليمة وبدلوا في كتبهم فخانوا الأمانة التي اتتمنوها، ومن تحريفهم وعنادهم لما دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام قالوا أتريد يا محمد أن نعبدك، إنما نعبد الله فأنكر الله عليهم ذلك فنبه عليه الصلاة والسلام الذي شرفه الله بالوحي والرسالة يستحيل أن يدعو الناس لعبادته بل هو ﷺ حى جانب التوحيد وقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وقال لما قال له بعض الناس أنت سيدنا قال: (إنما السيد الله).

وإنما دعوته ﷺ تعليم الناس الدين من الكتاب والسنة فهو ﷺ يعلم الأمة ويفقهها ويبلغها البلاغ المبين فتخرج على يديه أصحابه البررة الأطهار الذين حملوا الدين والعلم عنه فعلموه الناس ونشروا دين الله في كل مكان.

فالإسلام جاء لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد فنهى عن الأنداد والأوثان وعن عبادة الملائكة والأنبياء والبشر فذلك الشرك والكفر بالله، فرسالة النبي ﷺ رسالة التوحيد وكذلك جميع الرسل، فدين الأنبياء واحد وهو التوحيد.

وأخذ الميثاق على الأنبياء بأن يؤمنوا ببعض وينصروا بعضًا يأخذوا على أتباعهم ذلك لأن الإيما ن بجميع الرسل واجب فمن كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، وقال ﷺ: (لو كان أخي موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي).

ولذا فإن نبي الله عيسى ﷺ حين ينزل آخر الزمان يؤمن بدين الإسلام ويدين به، وتلك دعوة لأهل الكتاب بالإيما ن بنبو ة محمد ﷺ والدخول في الإسلام.

فميثاق الله الشديد العظيم المؤكد على الأنبياء بالإيما ن بكل رسول أرسله الله يؤكد ذلك، فمن تولى عن هذا العهد والميثاق وكفر وجحد فهو من الفاسقين.

فدين الله الإسلام، أوجب سبحانه على عباده أن يدينوا به ويلتزموه، فكل ما في السماوات والأرض أسلم وجهه لله طوعًا وكرهاً، فالؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرها فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.

والجميع سيرجع إلى الله تعالى فمن كفر وجحد له العذاب الأليم ومن آمن وصدق واتبع كان له النعيم المقيم.

قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
 مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
 مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
 دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾
 كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا
 أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
 عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
 بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
 وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
 كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ
 افْتَدَىٰ بِهِ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾

من أركان الإيمان، الإيمان بالله تعالى والإيمان بالرسول جميعًا والإيمان بما أنزل الله عليهم من الكتب السماوية.

فالرسول يجب الإيمان بمن ذكر الله في القرآن وبمن لم يذكرهم، فمن الذين ذكرهم الله في القرآن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاد يعقوب وهم الأسباط وموسى وعيسى، فشرعة الإسلام تحرم التفريق بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل رسول أرسله الله وبكل كتاب أنزل.

ذلك دين الله الذي ارتضاه لعباده ولم يرض لأحد غيره فمن ابتغى دينًا غير دين الإسلام فلن يقبل منه في الآخرة وهو من الخاسرين الضالين المكذبين المعاندين، فقد سد الله جميع الطرق إليه إلا طريق الإسلام.

وهذا يوجب للمسلم الاعتزاز بهذا الدين والافتخار على غيره من الأمم والملل والنحل، ويدل على بقاء هذا الدين إلى يوم القيامة وظهوره على الأديان كلها، ومن كتب الله له الضلالة والغواية فلا هادي له فمن عرف الحق وشهد بصدق النبي ﷺ وقامت عليه الحجة والبراهين على صدق ما جاء به النبي ﷺ ثم كفر وجحد ونكص على عقبيه فقد ظلم نفسه بالكفر والشرك ودخل في ظلمة الكفر بعد نور الإسلام فأولئك هم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، طردهم الله من رحمته فهم خالدون في النار لا يخفف عنهم العذاب ولا يفترون عنهم إلا من تاب وآمن ورجع إلى الحق والهدى وهذا من لطف الله بعباده ورحمته بهم فهو سبحانه يتوب على من تاب وأناب، فالتوبة تهدم ما كان قبلها والإسلام يهدم ما كان قبله.

أما من كفر بعد إيمانه واستمر على كفره إلى الممات فلا توبة له عند الموت، فالتوبة مقبولة حتى ينزل الموت بالإنسان، فمن لم يتب إلا عند نزول الموت به فلا توبة له، وهو من الضالين الذين تركوا الحق واتبعوا طريق الغي والضلال.

ولهم في الآخرة العذاب الشديد الأليم فلن يقبل منهم فدية من الأموال ولو أنفقوا ملء الأرض ذهبًا فداء لأنفسهم فلن ينجيهم ذلك من عذاب الله تعالى وما لهم من ينقذهم من العذاب الأليم يوم القيامة.

والمسلم الحق هو الذي يلتزم الإسلام ظاهرًا وباطنًا ويعتز به ويسأل الله الثبات عليه إلى الممات، وإن زلت به قدم سارع إلى التوبة والإنابة والندم على ما صدر منه، ولا يسوّف ولا يؤجل التوبة بل يبادر عند كل ذنب بتوبة صادقة ناصحة تمحو ما سلف من الذنوب والمعاصي والزلات.

لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي
إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ
إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ
مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ
بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا
فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

الإنفاق مما يحبه الإنسان من الأموال الظاهرة والباطنة في سبيل الله، طريق إلى الجنة وعلامة الإيمان، فالنفقة مما يُحِبُّ دليل على تقديم محبة الله على محبة المال، واكتساب المال من الحلال وإنفاقه في مرضاة الله تعالى طريق إلى محبة الله للعبد، وما ينفق الإنسان من نفقة صغيرة ولا كبيرة فإن الله يعلمها ويثيب عليها. ومن تناقض اليهود وعوتهم واستكبارهم ادعائهم أن الأنبياء لا يمكن أن يختلفوا في شرائعهم فينبى الله تعالى كذبهم أن التوراة فيها تحريم ما لم يكن محرماً على بني إسرائيل، وقد كانت الأطعمة حلالاً لهم قبل نزول التوراة إلا ما حرم يعقوب على نفسه لما مرض قبل نزول التوراة، وهذا يخالف ما ادعوه من عدم النسخ فالتوراة فيها نسخ كما أن في شريعة عيسى ما ينسخ ما في التوراة، وما جاء به محمد ﷺ ناسخ للتوراة والإنجيل، فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم التمسك بالتوراة دائماً وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله فهو من الظالمين، وما ذُكر في القرآن هو الصدق والهدى والبيان، ومن أصدق من الله حديثاً، وعلى عباد الله التزام ملة إبراهيم واتباعها فهي الحق الذي لا شك فيه ولا مرية وهي الطريقة الكاملة، وهي ملة التوحيد التي يجب على العباد الأخذ بها.

إبراهيم الذي بنى بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس للعبادة يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده، بيت الله الذي بمكة التي تَبُكُّ الجبابرة فما أرادها أحد بسوء إلا قصمه الله، فيه البركة والهداية لجميع العالمين، فيه الآيات البينات والدلائل الظاهرة على بناء إبراهيم له، وتعظيم الله له وتشريفه. فيه مقام إبراهيم حجرٌ يصعد عليه إبراهيم لبناء البيت فكانت آثار أقدامه عليه إلى اليوم شاهداً لإبراهيم ببناء البيت، آية في بقائه إلى اليوم، ومن آياته الصلاة خلفه كما أمر الله وكما فعل رسول الله ﷺ، ومن آيات هذا البيت الأمن والأمان للبشر وللشجر والحجر والطير والحيوان، ومن آياته وجوب إتيانه للحج والعمرة لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً، فريضة من الله في العمر مرة واحدة فما زاد فهو تطوع، ومن جحد تلك الفريضة فقد كفر والله غني عنه وعن عبادته.

ذلك البيت الذي بعث في جناته سيد الأنبياء والمرسلين، وقد بشرت به الكتب السماوية فكفر أهل الكتاب به عناداً واستكباراً وحسداً وهم يعلمون صدقه ونبوته، والله شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومعاملتهم رسول الله ﷺ بالكذب والجحود.

فهم قوم بُهِتَ يمحذون الحق ويصدون عن سبيل الله باطلهم وكذبهم وهم يعلمون حقيقة الأمر، فالله مطلع على خبثهم وكفرهم وسيجازيهم بما كانوا يعملون، فعلى المسلمين أن يأخذوا حذرهم من أهل الكتاب ولا يأمنوهم ولا يغفلوا عن دسائسهم وأساليبهم في حرب الإسلام فهم لا يحملون إلا الحقد لهذا الدين، فالمسلم لا يطيعهم ولا يصدقهم ولا يثق بهم، فهم يقصدون إخراج المسلم من دينه وإضلاله، فهل يعي المسلمون اليوم ما يخططه أعداء الإسلام لهم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ
 رَسُولُهُ. وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
 يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
 وَآذِكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
 فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ
 فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
 ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
 تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
 وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
 وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
 فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ
 وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ
 اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

المسلم يحذر من أساليب الكفار في إغرائهم للمسلمين فهم يريدون كفر المسلم وخروجه من دينه، وكيف يكفر المسلم بعد ما ذاق طعم الإيمان وتأثر بآيات القرآن وعلم كلام المصطفى المختار عليه الصلاة والسلام، كيف يكفر المسلم وعنده كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولكن من يعتصم بالله و يلتجئ به ويستعين بالله ويتوكل عليه فيهديه إلى صراط مستقيم فهو سبحانه الهادي إلى طريق الرشاد، والمسلم لا حول له ولا قوة إلا بالله فيستعين بربه لمقابلة سموم أهل الكتاب ووسائلهم في حربهم للإسلام فيعد العدة بتقوى الله ﷻ حتى تقاته بأن يُطاع فلا يعصى ويُذكر فلا ينسى ويُشكر ولا يكفر.

فيقوم بأمر الله حسب استطاعته وقدرته، ويعيش في حياته على طاعة الله وفي سبيل الله، في حال صحته ومرضه وفقره وغناه ويُسرّه وعسرّه ورخائه وشدته فيختم له بخير فيموت وآخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله. فمن عاش على شيء مات عليه وبعث عليه.

ومن تقوى الله ﷻ الاجتماع والاعتصام بعهد الله وعدم الفرقة والاختلاف والتنازع، فالجماعة رحمة والفرقة عذاب، فقد جمع الله بين قلوب المؤمنين في المدينة بالإسلام بعد ما كانوا متنازعين متحاربين فألّف الله بين قلوبهم وجمعهم على الهدى والإيمان فنعموا بنعمة الاجتماع وأخوة الدين والعقيدة والتعاون على البر والتقوى.

فقلّهم الله من النار إلى الجنة، ومن الكفر إلى الإيمان، ونعمة الإيمان والتقوى أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده.

ومن تقوى الله ومن أسباب الاجتماع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الدين، وهو سبب الفلاح والتمكين في الأرض، فقيام الأمة بهذا الركن العظيم يحفظ لها أمنها واستقرارها، ومن المعروف الاجتماع والاتلاف، ومن المنكر الفرقة والاختلاف فقد نهى الله عن الاختلاف والتفرق فهو طريق أهل الكتاب، تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واختلفوا وتفرقوا مع قيام الحجة عليهم، ويوم القيامة ينقسم الناس إلى فريقين فتيض وجوه أهل السنة والجماعة والاتلاف وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وتلك حال كل ضال كافر من المشركين والكافرين والمنافقين، فلهم العذاب الأليم الشديد بكفرهم وشركهم، وأما أهل الإيمان فلهم الجنة والرحمة والرضوان من الله خالدين أبد الآباد لا ييغون عنها حولا.

وتلك آيات الله توضح الحقيقة وما تكون عليه الخليفة في الدنيا والآخرة والله لا يظلم أحداً بل يجازي كلّا بعمله فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، والمسلم يحرص على التزام الجماعة والأخذ بأسباب الألفة والمحبة بين المؤمنين ويحذر من أسباب الفرقة والاختلاف والتنازع لأنها طريق الخسارة الدنيوية والأخروية.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١﴾ لَن يَضُرُّكُمْ إِلَّا آذَىٰ وَإِن يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ ﴿١٢﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَتَيْنَ مَا تُخْفُونَ إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُ وَبَغَضِبِ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٣﴾ * لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٤﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾



كل من في السماوات والأرض آتي الرحمن عبداً فالجميع ملك له وعبيد له وإلى الله ترجع الخلائق فيجازيهم بأعمالهم.

وقد ميز الله أهل الإسلام والقرآن بأنهم خير الأمم بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإيمانهم بالله تعالى.

فشرف الأمة بنبيها محمد ﷺ فهو أشرف الخلق وأكرم الرسل، وبكتاب ربها القرآن العظيم، وباتباع هذا الكتاب وهذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه تظهر خيريتها على الناس.

فمن أراد أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو أن أهل الكتاب آمنوا بما أنزل على محمد لكان خيراً لهم وأقوم، ولدخلوا في الخير والإيمان، ولكنهم عصوا وجحدوا فأكثرهم أهل الضلالة والكفر والفسق والعصيان.

فقد كتب الله الغلبة والنصرة والتأييد لهذه الأمة فلن يضرها هذه الأمة إلا بأذى القول والفعل وسيمكن الله لهذه الأمة وينصرها على أهل الكتاب ويورثهم أرضهم وديارهم.

فأهل الكتاب أشد الناس خوفاً من الذين آمنوا، فقد ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون إلا بذمة وعقد الهدنة والأمان والعهد والميثاق فلزمهم غضب الله، وألزموا المسكنة بكفرهم وبغيهم وحسدكم وقتلهم الأنبياء وعصيانهم وجحودهم وذل الدنيا متصل بذل الآخرة.

فكما أن الذل والصغار عليهم في الدنيا فلهم في الآخرة العذاب الأليم الشديد.

أما من آمن من أهل الكتاب وصدق بالرسول ﷺ وقام بأمر الله وأطاع نبي الله ﷺ فأولئك المستقيمون على شريعة الله يتلون آيات الله آناء الليل وأطراف النهار يتعبدون ويكثرون من الصلاة، فسيؤتيهم الله أجرهم مرتين، فما عملوا من عمل فسيجدون أجره عند ربهم لا يضيع عليهم بل يجزيهم الله به أعظم الجزاء.

فهو ﷻ عليم بالمؤمنين من عباده لا تخفى عليه خافية ولا يضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى، وفي ذلك ترغيب للمؤمنين في العمل الصالح والمنافسة فيه والمصارعة في الخيرات والأعمال الصالحات، وفيه توجيه لهم إلى دعوة أهل الكتاب لهذا الدين، وقد دعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وأمر بدعوتهم وعرض الإسلام عليهم، فالدعوة هي أول ما يبدوون به.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
 مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾
 مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
 صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا
 ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
 وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
 صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
 هَئَانَتْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ
 وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ
 مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
 إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا
 بِهَا وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
 إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
 تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

الكفار ينفقون أموالهم وجهودهم في الصد عن سبيل الله والتسلط على المسلمين وإذلالهم وقهرهم وتلك الأموال تذهب هباء منثوراً فلن تنفعهم تلك الأموال عند وقوع العذاب عليهم، ولن تصد عنهم بأس الله وأليم عقابه، ولن تنفعهم أولادهم ولا كثرتهم ولا عدتهم إذا أراد الله إهلاكهم فمصيبرهم إلى نار جهنم خالدين فيها وبش المصير، وستذهب أموالهم حسرة عليهم فتلك الأموال كمثل ريح شديدة باردة فيها نار أصابت زرعاً فأحرقتة فتلك أموالهم تحرقهم كما تحرق الريح الشديدة الباردة الزروع والثمار وتفسدها، وما عملوا من الحسنات والأعمال في الدنيا فتذهب هباء منثوراً فيجازيهم الله بها في الحياة الدنيا ولهم العذاب الأليم في الآخرة، والمسلم يحذر من اتخاذ هؤلاء الكفار بطانة خاصة يطلعهم على أسرار المسلمين ويستشيرهم في أمور المسلمين، فهم يسعون جهدهم في مخالفة المسلمين والكيد لهم والمكر والخديعة لهم ويودون في أنفسهم عنت المسلمين ومشقتهم وقد ظهر على صفحات وجوههم وفتلت ألسنتهم من العداوة وما يخفون من البغضاء والعداوة أكبر وأعظم، حتى لو أظهر لهم المسلم المحبة والصداقة والمودة فهم لا يحبون المؤمنين معها تنازلوا وقدموا لهم من الاحترام وذلك لما في قلوبهم من الحقد والكراهية للإسلام، وكذلك أولياؤهم من المنافقين فهم يحملون الكره للمسلمين مع محبة المسلمين لهم لإظهارهم الإيوان، فهم على دين أوليائهم من الكفار، فالواجب على المسلم أن يأخذ بمنهج الإسلام مع الكفار وهو بغضهم وعدم موالاتهم مع عدم ظلمهم والاعتداء عليهم، فهم لا يؤمنون بكتاب الله ولا برسالة محمد ﷺ، فالفارق بين المؤمنين والكافرين كبير فهم لا يؤمنون، والمؤمنون يؤمنون بالرسول جميعاً وبما أنزل إليهم من ربهم، وأما أهل النفاق فهم يظهرون الإسلام ويدعون الإيوان وإذا خلوا مع الكفار ومع أنفسهم أظهروا ما تكنه صدورهم من البغضاء والحقد والكراهية والحسد للمؤمنين فيعضوا أصابعهم من الغيظ والحقد كيف تكون العقوبة للمتقين، فهم يموتون بغيظهم لما يرون من إتمام الله لنوره ونعمته على عباده وأوليائه المتقين، فلههم الغيظ والذل في الدنيا والعذاب بالآخرة، جزاء وفاقاً، فما أمْلوه في الدنيا من هزيمة للإسلام والقضاء على المسلمين لم ينالوا منه شيئاً والله أعلم بما في صدورهم من الغل والحقد، فهم في الدنيا يعيشون بحقدهم وبغضهم، وفي الآخرة عذاب شديد لأهل الكفر والنفاق، فهم في الدنيا يسوؤهم ما يصيب المسلمين من العز والكرامة والنصر والتمكين ووفرة النعيم ورغد العيش، ويفرحهم ما يصيب المسلمين من الابتلاء والامتحان من القتل والتشريد وتسلط الأعداء.

والمسلمون في السراء يشكرون وفي الضراء يصبرون ويتقون الله في جميع أحوالهم ويتوكلون على الله فهو سبحانه المحيط بأعدائهم وهو سبحانه ناصرهم ومؤيدهم وهازم أعدائهم، فبالصبر والتقوى يردُّ الله كيد الكافرين ويجعل تدبيرهم تدميرهم كما هي الحال في أحدٍ فقد ابتلي المؤمنون بالقتل وتسلط العدو، فصبروا حتى كانت العقوبة لهم، وقد خرج النبي ﷺ إلى وقعة أحد، بعد ما استشار الناس، وأخذ برأيهم، وذلك بعد ما صلب الجمعة، وليس سلاحه، وسار ﷺ، في ألف من أصحابه، فلما كان بالطريق رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وتحمياً رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وبين منازل أصحابه فجعل الرماة فوق الجبل، وقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة، والله سميع بأقوالهم، عليهم بضائرهم، وذلك يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاث من الهجرة

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى
 اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ
 أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
 أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ
 هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ
 ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا
 النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
 مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ
 مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ
 ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ
 ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

بعد خروج النبي ﷺ وأصحابه إلى أحد واستعدادهم للقاء العدو، همت طائفتان من المؤمنين وهم بنو سلمة وبنو حارثة أن يرجعوا عن القتال بعد رجوع المنافقين، لما رأوا كثرة العدو ولكن الله ثبتهم وربط على قلوبهم وعصمهم من الوقوع في الفشل.

والله سبحانه يثبت أوليائه وينصرهم ويؤيدهم بنصره إذا فوض المؤمن أمره إلى الله وتوكل على الله حق التوكل بعد فعل الأسباب مثلما نصر الله المؤمنين يوم بدر لما توكلوا على الله وطلبوا النصر منه جاءهم النصر والتمكين وهم قلة مستضعفون، فأيدهم الله بالملائكة بقيادة جبريل ﷺ فكان نصر الله للمؤمنين وتأيدته لهم بخمسة آلاف من الملائكة لهم علامات يعرفون بها بشرى لهم وطمأنينة وتثبيتاً وتطيباً لقلوب المؤمنين، والنصر من عند الله لو شاء لانتصر من أعدائه بدون المسلمين وبدون الملائكة، ولكن شرع الجهاد لحكم عظيمة لتحصل التضحية والاستشهاد وليهلك الله الكفار على أيدي المؤمنين أو يجعلهم أذلة صاغرين فيعيشوا حياة الذل والصغار بسبب كفرهم..

والله الأمر من قبل ومن بعد فهو قادر على هداية هؤلاء الكفار إلى الإسلام بعد ظلمهم وعنادهم فالله سبحانه هو الذي يعلم من يستحق العقوبة والإهلاك والهزيمة ومن يموت على الكفر وليس لأحد من البشر القدرة على ذلك ولو كان نبي الله أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام فإنه لا يملك لأقرب الناس إليه شيئاً كما قال ﷺ: (يا فاطمة بنت محمد لا أملك لك من الله شيئاً).

وفي ذلك بشارة بإيمان قريش ودخولها في الإسلام مع ما كانوا عليه من الإباء والاستكبار والصد عن سبيل الله، وهم يستحقون عذاب الله لظلمهم وعدوانهم ولكن الله رحمهم فدخلوا في دين الله وهو ما كان النبي ﷺ يؤمله كما قال (لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده الله وحده لا شريك له).

والله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء من عباده ويهديه إلى الصراط المستقيم ويدل الله سيئاته حسنات، ويعذب من يشاء لظلمه وعدوانه وهو سبحانه غفور رحيم بعباده، فالمسلم يرجو رحمة ربه ويخاف عقابه فيجتنب ما حرم الله عليه ومما حرمه الله أكل الربا والتعامل بالمعاملات الربوية كما كان يفعل أهل الجاهلية يتعاطون الربا أضغافاً مضاعفة فإذا حل أجل الدين إما أن يقضي أو يزيد، ومن تقوى الله ﷻ اجتناب الربا بجميع أنواعه وصوره، واجتناب الربا سبب للفلاح والفوز والبركة في المال والحال والمآل، والله توعّد أكل الربا بالنار فإن كان مستحلاً له فهو كافر وإن كان مرتكباً له مقرّاً بحرمة فهو على خطر لأن الربا من الموبقات المهلكات، والمسلم يجتنب أسباب دخول النار التي أعدها الله للكافرين الجاحدين وتوعد بها العصاة من المؤمنين وهي موجودة الآن وقد هيئت، وسبب النجاة منها طاعة الله تبارك وتعالى والسعي في مرضاة الله، لأن طاعة الله سبب لرحمته التي تدخل الجنة.

﴿١٣٣﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٤﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
 فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْعَافِينَ
 عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
 فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
 لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى
 مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ
 مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٧﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
 فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ
 ﴿١٣٨﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٩﴾
 وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ
 ﴿١٤٠﴾ إِن يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
 وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

أمر الله عباده بالمسارعة والمسابقة إلى فعل الخيرات لينالوا أعلى الدرجات في الجنة التي عرضها كعرض الساعات والأرض قد أعدها الله للمؤمنين الصادقين والمسلم يسارع إلى الجنة بعمله الصالح لينال مرضاة الله تبارك وتعالى، وتقوى الله ﷻ من أسباب دخول الجنة والإنفاق في وقت الرخاء والشدة والمنشط والمكره والصحة والمرض وفي السر والعلانية من صفات المتقين الذين يرجون رحمة ربهم، ومن صفات المتقين الاتصاف بالأخلاق الفاضلة التي يتعاملون بها مع إخوانهم المسلمين يقابلون الإساءة بالإحسان يكتمون غيظهم وغضبهم فلا ينتقمون ممن أساء إليهم بل يعفون ويصفحون ويحبون أن يغفر الله لهم، ويحسنون إلى الناس وإن أساءوا إليهم، يحسنون بأقوالهم وأفعالهم لينالوا محبة الله للمحسنين، وإن قصروا وضعفت نفوسهم بطبيعتهم البشرية فأذنبوا تابوا إلى الله واستغفروا لذنوبهم لخوفهم من ربهم، فهم يستشعرون عظمة الله بقلوبهم فيطلبون المغفرة بالستهم وأفعالهم بإقلاعهم عن الذنوب وندمهم عليها والعزم على عدم العودة إليها، وهم يعلمون أن الله يقبل التوبة عن عباده ويغفر ذنوبهم ويتجاوز عن سيئاتهم فيلتجئون ويفرون إليه ﷻ، فهم في الدنيا على خوف ووجل من ذنوبهم يكثر من التوبة والاستغفار، ومآلهم في الآخرة جزاؤهم مغفرة من الله لذنوبهم التي كانوا يخافون من عقابها، ولهم الجنات التي فيها الأنهار من جميع أنواع المشروبات مخلدين فيها في النعيم المقيم، والجنة نعم دار المتقين العاملين في الدنيا بمرضاة الله تبارك وتعالى، والمؤمنون الصادقون يبتلون في هذه الحياة، فمنذ أن خلق الله الخليقة والصراع بين الحق والباطل قائم إلى قيام الساعة فقد جرى على الأمم قبلنا مثل الذي جرى لهذه الأمة من الصراع ولكن العاقبة للمتقين، وتلك آثار الأمم المكذبة تشهد على خزيهم في الدنيا والآخرة كيف نزلت بهم العقوبات وحلت بهم المثلات، ومن سار في الأرض للاعتبار والانعاط رأى تلك الآثار التي تؤكد بقاء الحق وزهوق الباطل، وفي هذا القرآن الكريم بيان لما جرى لتلك الأمم ففيه العظة البالغة لمن أراد أن يذكر ويعتبر، وفيه الهداية للقلوب المؤمنة والموعظة الحسنة التي تنفع المؤمنين الصادقين، فالمؤمنون الصادقون يجدون في القرآن أنفسهم وراحتهم وطمأنينة قلوبهم، فمهما أصابهم من الشدة والابتلاء يجدون في القرآن الفرح والتسلية والتقوية على تحمل الابتلاء، وتلك سنة الله في الحياة يبتلي عباده بعضهم ببعض والجميع معرض للابتلاءات، ولكن أهل الإيمان يمتازون بالصبر والاحتساب، فالجميع يُجرَح ويُدْمَى ويُقتل ولكن النتيجة تختلف فالمؤمنون صبر وتمكين وثواب وأجر وغنيمة وشهادة، والكفار توبخ وتبكي وعقوبة وضلال وإضلال، والله قد يسلط الأعداء على المؤمنين لحكم عظيمة ابتلاء وتمحيصاً وليظهر أهل الإيمان على حقيقتهم ويتخذ الله من المؤمنين شهداء فالشهادة أعلى ما يتمناه المسلم وهي الحياة الحقيقية وما يصيب المؤمنين إنما هو تكفير لذنوبهم ورفعة في درجاتهم، وخير لهم في الدنيا والآخرة، وأما الكفار وإن ظهروا على المؤمنين وانتصروا فمآلهم إلى الهزيمة والهلاك والدمار فإلى المسلم إلا الصبر والإعداد فإن الله ناصر دينه ومعل كلمته وهازم أعداءه الكافرين.

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ
اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُّوَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ
ثَوَابَ الدُّنْيَا فُتُوْهُ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فُتُوْهُ
مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ
رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا
وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ
إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْهُمْ اللَّهُ
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

البلاء والابتلاء تمحيص للمؤمنين ومحق وهلاك للكافرين، واللجنة طريقها مخوف بالمكارة والمصاعب والشدائد فليصبر المسلم وليحتمل الشدة والبلاء، فالبلاء تمحيص للمؤمنين ورفعة لهم وعلامة يظهر فيها صدق الإيمان، ويعلم الله به المؤمنين المجاهدين الصابرين، والمؤمنون الصادقون هم الذين يتمنون الشهادة بصدق ويقين فإذا قابلوا العدو صبروا وثبتوا، واللجنة تحت ظلال السيوف.

وهذه الآيات توجيه وتثبيت للمؤمنين في أحد لما انهزموا، ولغيرهم من المؤمنين، فالدفاع عن هذا الدين يقتضي البذل والثبات والصبر، فالنبي محمد ﷺ وهو خير البشر قاتل وأوذي وجرح فصبر وصابر وثبت، فعلى المسلم أن يسير على نهجه فهو ﷺ في حياته بلغ البلاغ المبين، وهو من جملة الرسل الذين بلغوا دين الله وماتوا وانقطعت حياتهم، ولكن دين الله باق فعلى المسلمين نصره هذا الدين، وقد أشيع في المؤمنين يوم أحد أن النبي ﷺ قد قتل فنزلت تلك الآية التي تؤكد أن النبي ﷺ مبلغ عن ربه فلتن مات أو قتل فقد بلغ وعليكم أيها المؤمنون بالثبات على الدين وعدم الرجوع عنه، وعليكم باتباعه حيًا وميتًا. وقد قرأ هذه الآية أبو بكر الصديق بعد وفاته ﷺ فكانت تثبيتًا للمؤمنين وتذكيرًا لهم بما يجب عليهم.

فالموت مكتوب على كل نفس ولن تموت نفس حتى تستكمل الأجل المحدد لها في كتاب لا يتقدم ولا يتأخر، فمن كان يريد الدنيا والعمل لها والسعي في جمع حطامها فسيأتيه ما كتب الله له منها ومن يرد الآخرة والعمل لها نال الآخرة وأتته الدنيا راغمة، وجعل الله غناه في قلبه وسيعطيه الله من فضله ورحمته في الدنيا والآخرة، ومن سنة الله في الحياة أن القتال قائم بين المؤمنين والكافرين فقد قاتل الأنبياء وأتباعهم والعلماء والعباد فثبتوا ولم يجبنوا عن لقاء العدو ولم يميزوا بها أصحابهم من الجراح والقتل ولم يضعفوا عن ملاقات الأعداء ولم يخضعوا لهم ويذلوا لهم، بل سألوا الله ﷻ النصر والتمكين والثبات واستغفروا لذنوبهم لأن الذنوب من أسباب الهزيمة وألحوا على الله بالدعاء لأنه سلاح المؤمنين الصادقين الصابرين فأخذوا بأسباب النصر والتمكين من قوة الإيمان والثبات والاستعداد وقوة العزيمة والعزة على الكافرين والصبر والمصابرة، والتسلح بالدعاء والتخلص من أسباب الهزيمة من الذنوب والمعاصي، فكانت النتيجة ثواب الدنيا من النصر والظفر والعاقبة الحسنة والغنيمة وحسن ثواب الآخرة من النعيم المقيم في جنات النعيم، والمؤمن حين يتأمل تلك الآيات العظيمة يدرك أن هذا الصراع القائم بين الحق والباطل سنة من سنن الله، فلتن كان الأنبياء والصالحون من أتباعهم أصحابهم ذلك فعلى المؤمن أن يستلهم الدروس والعبر ويأخذ بها أخذوا به من أسباب النصر والتمكين لتكون العاقبة للمؤمنين كما كانت للأوائل منهم والله ولي المتقين.

يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يُرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۖ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ
مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ ۚ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ
مَّا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ
مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَىٰ أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ
غَمًّا بَغَمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۖ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

المؤمن الصادق هو الذي يتميز بالولاية للمؤمنين والبراءة من المشركين فلا يطيع الكفار فيما يدعونه إليه من التنازل عن عقيدته أو شريعته أو آداب الإسلام وأخلاقه ولا يقلد الكفار في شعائهم ولا في حياتهم ولا في مظاهرهم، ولا يصدق بها يدعيه الكفار من المحبة والسلام والمسالمة، بل يعتقد بغض الكافرين وعداوتهم للمسلمين ومع ذلك فإنه لا يظلمهم ولا يعتدي عليهم، بل يسعى لدعوتهم ويحرص على هدايتهم كما كان ﷺ، والخاسر من المسلمين من استجاب لدعوات الكفار وصدق ما يدعونه إليه وكان عوناً لهم على المسلمين فذلك له الخسران المبين، والمؤمنون وليهم الله تعالى هو ناصرهم ومؤيدهم وهازم أعدائهم فالنصر منه ﷺ هو الذي ينصر أولياءه وعباده الصالحين مهما اجتمعت عليهم قوى الكفر والطغيان فإن النصر من الله، ومن نصر الله إلقاء الرعب في قلوب الكفار، وخوفهم من المسلمين بسبب كفرهم وشركهم بالله، وقد اختص الله هذه الأمة بأن نصرها بالرعب مسيرة شهر، وما كيد الكافرين وعدوانهم على المسلمين إلا مما في قلوبهم من الخوف من الإسلام أن يحكم الأرض، فالرعب الذي يعيشونه في قلوبهم جعلهم يتدثرون المسلمين بالعدوان ويتدون كل دعوة للحق خوفاً من انتشارها فيسعون لإطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون، ولهم في الآخرة العذاب الأليم والكال الشديد بشرهم وعدوانهم والنار مستقرهم ومسكنهم يوم القيامة، ومن نصر الله للمؤمنين ما وعدهم من النصر في يوم أُحُدٍ فقد سلط الله المؤمنين على الكافرين فقتلوا منهم حتى قرَّ الكفار وانهزموا ولكن لما وقع النزاع والفرقة والاختلاف بينهم حصل الفشل ووقعت المعصية بمخالفة أمر الرسول ﷺ كما حصل من الرماة ووقعت الهزيمة بعد ما رأوا النصر والظفر على الكفار وجمع الغنائم، لما كان في قلوب البعض من محبة الأموال والغنائم فوقع عليهم الابتلاء والامتحان وإن كان منهم من يريد الآخرة وإعلاء كلمة الله، ولكن كان الابتلاء عامّاً لجميع المسلمين فسلط الله عليهم الكفار فقتل من قتل من الصحابة وجُرح النبي ﷺ وفرَّ من فرَّ من المسلمين وقد عفا الله عنهم وغفر لهم ما وقع منهم من الخطأ والزلل، والله يوالي فضله ونعمه ومغفرته ورحمته للمؤمنين، مع ما وقع منهم من الفرار من العدو والهروب من ملاقات الأعداء لا يلتفت بعضهم على بعض من الخوف والذعر، والرسول ﷺ يدعوهم ويناديهم هلموا إلى عباد الله فثبت مع النبي ﷺ ثلة قليلة من المؤمنين وناضلوا عن رسول الله ﷺ حتى أجلوا الكفار الذين على الجبل، فوقع في قلوب المنهزمين الغم والكرب الشديد لما وقع من الهزيمة وفوات النصر، وكان الدرس والعبرة من هذه الموقعة في هذا الابتلاء فلا حزن على ما فات من النصر والغنائم ولا حزن على ما أصيبوا به من القتل والجراح والهزيمة، والله ﷻ يعلم ما في نفوسهم وما تكنه صدورهم، وفي ذلك درس للأمة بأن النزاع والفرقة والاختلاف وإرادة الدنيا والمعاصي سبب من أسباب الهزيمة.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً
 مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ
 الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ
 قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ
 يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ
 فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
 وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ
 يَوْمَ أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا
 كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَّيِبُهَا
 لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا
 ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَّوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا
 قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ
 وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

بعد وقوع الهزيمة والغم والكرب أنزل الله على عباده المؤمنين الأمن والأمان والطمأنينة فكان النعاس دليلاً على الأمن الذي استقر في قلوبهم، وأما المنافقون فقد أهتمهم أنفسهم فقد ملئت قلوبهم جبناً وخوفاً وقلقاً، ويظنون أن الله لن ينصر نبيه وأصحابه وأن المشركين سيبيدون المسلمين ويقولون هل لنا من الغنيمة شيء إذا انتصرنا وظهرنا على العدو، وما علموا أن النصر بيد الله، والله سبحانه له الأمر من قبل ومن بعد وهو الذي قضى وقدر على عباده ولكنهم يخفون النفاق والكفر والتكذيب، ويظهرون السؤال الذي ظاهره الاسترشاد وباطنه الاستهزاء والتهمك والسخرية بالمؤمنين والاعتراض على أمر الله، فيقولون لو كان لنا رأي واختيار ما حصل القتل والجراح هاهنا وما علم المنافقون أن الله قضى وقدر الموت، فمن كتب عليه الموت فسيموت في البقعة التي قُدر أن يموت فيها فمن كُتب عليه الموت في أحد سيخرج ويقتل في مكانه الذي قضى الله وقدر أن يقتل فيه..

ولكنه الابتلاء من الله تعالى في هذه الغزوة ليخرج الله ما في صدور المنافقين من النفاق والاعتراض على أمر الله والتكذيب، وليظهر ما في قلوب المؤمنين من الصبر والتسليم والرضا والاعتناء والاعتبار والله ﷻ يعلم السرائر والضمائر.

وما حصل من المؤمنين من الفرار والانزهاض إنما سببه تسليط الشيطان عليهم ببعض ذنوبهم السالفة وقد حصل لهم العفو والمغفرة من الله الغفور الرحيم والخليع بمن عصاه وتعدى أمره. والموت والحياة بيد الله تعالى فلا يظن المسلم أن قتال الأعداء ومواجهة العدو هي سبب للموت، كما يظن أهل الجاهلية والكفر والنفاق، وأن الخروج من الأوطان وملاقاة العدو هي سبب الموت، وأن البقاء في الديار والجن من أسباب السلامة وطول الحياة، فذلك اعتقاد يخالف ما أمر به المسلم من الإيمان بالقضاء والقدر فمن ظن ظن الجاهلية فإن ذلك حسرة في قلبه على من فقدهم، ولكن الإيمان يقود المسلم إلى الصبر والتسليم والرضا بالقضاء والقدر، فالموت لا يتقدم ولا يتأخر والشهادة في سبيل الله من أسباب الرحمة والغفران وهي حياة لا موت، والموت للمؤمن انتقال إلى رحمة الله ورضوانه وهو خير من البقاء في الدنيا وجع حطامها الفاني، فما عند الله لعباده المؤمنين من الرضوان والرحمة والغفران والجنان خيرٌ لهم من شدة الدنيا وكرهها، ويبقى المؤمن مؤمناً بقضاء الله وقدره فما يكون من شدة وبلاء إلا بعده نصر وتمكين ورخاء فبعد الغم أمن وطمأنينة وتسليم ورضا، وبعد العسر يسر، فلا يسلك المسلم مسالك أهل النفاق والكفر في التسخط على أقدار الله والاعتراض على أمره، بل يكون سلاحه الصبر واليقين والثبات وحسن الظن بربه جلّ وعلا يفعل ما أمر به ويحتجب ما نهي عنه، صبر في الضراء وشكر في السراء، فاللهم اجعلنا عند البلاء من الصابرين وعند السراء من الشاكرين ولا تجعلنا ممن استهوته الشياطين.

وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ إِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ
اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ
بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ
يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ
نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ
اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا أَوْلَتْهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾
لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾
أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا
قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

وَمَا أَصْبَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ
 (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعُنَا هُمْ لِلْكَفْرِ
 يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ
 فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ
 الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ
 بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
 بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)
 * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)
 الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
 فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

ما يكون في هذا الكون من خير أو شر أو نصر أو هزيمة إنما هو في كتاب وهو من قضاء الله وقدره على عباده وما وقع للمؤمنين يوم أحد حين التقى جمع الإيوان وجمع الكفر هو قضاء الله وقدره قضى وقدر القتال والجراح والهزيمة، وله ﷺ الحكمة البالغة ليحصل الابتلاء والامتحان لأهل الإيوان وليظهر أهل الإيوان الحق وأهل النفاق والكفر والشك، فقد كشف الله أمر المنافقين الذين خذلوا المؤمنين ورجعوا عن القتال مع دعوة المؤمنين لهم بمشاركتهم وتكثير سواد المسلمين لكنهم رفضوا الدعوة لأنهم أقرب إلى الكفر وأهل الكفر، فهم يتمنون انتصار المشركين على المسلمين وإنما يظهرون الإسلام بألستهم وقلوبهم على الكفر والشك، والله سبحانه وحده الذي يعلم سرائرهم ويعلم ما يخفون في قلوبهم من البغض لأهل الإيوان ومحبة الكفار ومن كفرهم وشكهم وتكذيبهم قولهم لمن قُتل من المنافقين لو كانوا معنا ولم يخرجوا للقتال لم يصبهم القتل، وهذا دليل على عدم إيمانهم بالقضاء والقدر فإن كانوا صادقين فليردوا عن أنفسهم الموت إذا حضر أجلهم، ولتعلم المنافقون وغيرهم أن من قتل في سبيل الله فهو حي لا يموت فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، يفرحون بنعيم الله لهم ويتمنون أن يقتلوا مرات كثيرة في سبيل الله لما رأوا من فضائل الشهادة في سبيل الله، ويتمنون لمن خلفوهم ممن تركوا من إخوانهم وأبنائهم أن يقتلوا في سبيل الله ليصيبوا ما أصابوا من الأجر والثواب والنعيم، فهم في نعيم مقيم فرحين بما آتاهم الله من الحياة الباقية في الجنة فلم يضع الله أجرهم، والمستجيبيون لله وللرسول لهم أجرهم عند ربهم ومنهم الذين استجابوا لأمر الرسول ﷺ بعد أحد للخروج لخمراء الأسد لتعقب الكفار ومطاردتهم مع ما هم فيه من الآلام والجراحات والشدة فقد وعد الله الذين أحسنوا منهم واتقوا أجرًا عظيمًا لا حد له، فهم المتوكلون على الله ﷺ لم يخفهم توعد الكفار لهم ولا عدتهم ولا سلاحهم ولا كثرتهم بل توكلوا على الله وحده، فقد أرسل أبو سفيان رسالة إلى النبي ﷺ أنهم أجمعوا على الرجوع إليهم واستصالحهم تخويفًا للمؤمنين فما كان من النبي ﷺ وأصحابه إلا أن قالوا: (حسبنا الله ونعم الوكيل) وهكذا المؤمن الصادق لا تخيفه جموع الكفار ولا دول الكفر ولا أسلحتهم فالله حسبه وكافيه وناصره ومؤيده ومن توكل على الله كفاه ونصره وأيده.

ووعيد الكفار لا يزيد المسلم إلا اعتزازًا بدينه وبعقيدته ولا يزيده إلا إيمانًا بالله وتمسكًا بدينه فهو ﷺ ولي المؤمنين فيثق بوعد الله بنصرة المؤمنين ومحق الكافرين، والمؤمن يزيد إيمانه بالطاعة وينقص بالمعصية، فيزيد إيمانه بالثبات على الحق ويحسن الظن بربه وباعتزازه بإسلامه.

فما أوحى المسلمين في وقت تكالبت عليهم الأعداء أن يعدُّو حسبنا الله ونعم الوكيل سلاحًا يتسلحون به ضد أعدائهم الذين لا يربقون فيهم إلا ولا ذمة...

فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبِعُوا
 رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
 يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾
 وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ
 شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا
 اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَنَّمَا نُمْلِ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا
 وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا
 أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ
 عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ
 وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا
 يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ
 لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

من توكل على الله ﷻ حق التوكل فإن الله يجعل عاقبته إلى خير، وقد رجع المسلمون من حمراء الأسد بنعمة الله وفضل وثواب وتأيد من الله فخذل عدوهم وانصرف المشركون هارين إلى مكة، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، فكفى الله المؤمنين القتال وسلموا من أذى المشركين وكان عاقبة استجابتهم لله وللرسول رضوان الله تعالى عليهم، والله سبحانه يؤتي فضله من يشاء من عباده المؤمنين فقد وفق عباده المؤمنين للاستجابة ونصرهم على عدوهم ولم يلتفتوا إلى تحذيرات المشركين وتوعدهم لهم قتل كلهم من الشيطان، يخوف المؤمنين من أوليائه المشركين، والمؤمنون لا يخافون إلا الله ولا يخشون أحداً إلا الله، ولا يجزئهم مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق فهم لا نصيب لهم في الآخرة، وإن كان لهم نصيب من الدنيا من القوة والسلطة والحضارة فهم في الآخرة من الخاسرين ولهم العقاب الأليم الشديد، وهم بكفرهم وعنادهم لن يضرروا الله شيئاً وإنما يضررون أنفسهم لأنهم استبدلوا الكفر بالإيمان فحظ الآخرة للمؤمنين الصادقين الذين استجابوا لدعوة نبيهم ﷺ وسعوا إلى مرضاة ربهم ﷻ.

وأما الكافرون الجاحدون المكذبون وإن طالبت أعمارهم وتمتعوا بمتاع الحياة الدنيا وكان لهم جاه وسلطان وقوة وطغيان فإنما هو استدراج لهم ليزدادوا إثماً وظلماً، فهم في الحياة الدنيا في غرور قد خدعهم إمهال الله لهم وإنعامه عليهم وتأخير العقوبة لهم ليأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وكذلك كل ظالم فإله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته وأما المؤمنون فيحصل لهم في الدنيا من الابتلاء والتحصين لتمييز المؤمن من المنافق ويظهر الصادق من الكاذب، ويعرف المؤمن الصابر من المؤمن الفاجر وتلك سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل في الابتلاء والامتحان، فلا طريق لمعرفة المنافقين إلا بتلك الابتلاءات فمعرفتهم غيب لا يعلمه إلا الله، وقد يطلع الله من يشاء من رسله على الغيب كرامة لهم، فالمؤمنون يؤمنون بأن الابتلاء رحمة لهم وتكفيرٌ لسيئاتهم ورفعة لدرجاتهم فيزداد إيمانهم ويقينهم وثباتهم ويتسلحون في وقت البلاء بالإيمان والتقوى لينالوا الأجر والثواب من الله تعالى ويستعملون كل ما وهبهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة فيما أمرهم الله به فينفقون المال في ابتغاء مرضاة الله لعلمهم أن المال مال الله وقد استخلفهم عليه وابتلاهم به، فيؤدون الزكاة المفروضة ويتصدقون لينالوا بركة المال وزيادته، وأما من شحَّ بالمال وبخل به وطمع بجمعه من حل أو من حرام ومنع زكاة ماله فسيكون هذا المال مضرة عليه في دينه وعقَاباً له في الآخرة، فيكوى به يوم القيامة وإن كان المال من البهائم وطأته بأقدامها وأظلافها ويصور له ماله بصورة ثعبان عظيم يأخذ بشدقيه ويقول أنا مالك أنا كنزك، فالمؤمن يحذر من فتنه المال ويهلك هذا المال بالإنفاق والتقرب إلى الله، ومال الإنسان ما قدمه ومال وارثه ما أبقيته.

والله هو المنعم على عباده فهو سبحانه له ملك السماوات والأرض وهو عليم خبير بما يعمل العباد من خير أو شر.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ
عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾ * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾



لما أمر الله عباده بالإنفاق وحثهم على الصدقة والبذل والإحسان ليثيبهم وينعم عليهم ولما رغب عباده بالأجر والثواب الجزيل فطلب منهم القرض ليزيدهم في الأجر، قال اليهود افتقر ربك يا محمد فسأل عباده القرض..

وهذا من سوء أدهمهم مع الله ومن كفرهم وجحودهم فالله هو الغني الحميد والعباد جميعاً فقراء إلى الله.

ولكن اليهود هم أهل الكفر والغدر فقد قتلوا الأنبياء وقالوا إن يد الله مغلولة ولكن مآلهم إلى عذاب النار التي تحرقهم ويذوقوا العذاب الأليم، جزاء وفاقاً لأعمالهم التي قضوا بها حياتهم من الكفر والشرك والتكذيب والظلم والطغيان والعناد، والله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

ومن كذب اليهود وافتراءهم على الله ادعائهم أن الله أوصاهم في التوراة ألا يصدقوا برسول الله حتى يأتيهم بمعجزة وهي أن يأتي بصدقة تنزل النار فتحرقها، كل ذلك من التعجيز والتشكيك فهم لم يؤمنوا بالأنبياء الذين جاءوا بمثل هذه المعجزة فقتلوا الأنبياء وكذبوهم وهؤلاء هم اليهود، كذبوا الرسل وجحدوا رسالتهم مع ما جاءوا به من الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات والكتب الساوية التي فيها الهداية والنور المبين الذي ينير طريق الهدى والحق، فعلى كل داعية إلى الحق أن يتصف بالصبر والحلم والثبات فهؤلاء رسل الله كُذِّبوا وأوذوا وقُتلوا فلم يزدتهم ذلك إلا ثباتاً واستمروا في الدعوة والبلاغ، فهذه الدنيا هي دار العمل والمسارة إلى الخير فكل من عليها فان، وكل نفس فيها استدوق الموت وتنتهي من الوجود، والسعيد من عمل في الدنيا في مرضاة الله لينال رحمة الله ورضوانه، والعباد كلهم مجزيون يوم القيامة بأعمالهم جليلها وحقيرها وكثيرها وقليلها وكبيرها وصغيرها، ولكن السعادة الحقيقية والفوز العظيم فيمن جُنَّب النار وأبعد عنها ونجا من عذابها وأدخل الجنة فتلك الكرامة وذلك هو الشرف، أما الدنيا فهي دنية حقيرة وضيفة فانية زائلة فهي تغر أهلها المحيين لها فيظنون أنهم سيخلدون فيها فيسعون لجمع عظامها والتنافس على ملذاتها، والمؤمن لا يغتر بصفائها ولا بزهرتها ولا بملذاتها، فإن أصابه من نعيمها شكر وإن أصابه من بلائها صبر، فتلك الحياة فيها من المصائب والابتلاءات في المال والنفس والولد وتسلط الكفار وإيذائهم للمؤمنين بالقول والفعل، فيتسلح المؤمن بسلاح الصبر والتقوى فهو مما يعزم المسلم على التمسك به فالصبر مفتاح الفرج والأجر والثواب، والتقوى سبب لتفريج الكربات وزوال الغموم والهموم.

فإذا اشتدت المحن وتسلط الأعداء تمسك المسلم بالصبر والتقوى فلا يضره كيد الكائدين ولا مكر المنافقين، ونَصَرَه الله على القوم الكافرين، ولا يؤتى المسلمون من قبل أعدائهم إلا بتفويت أحد الأمرين إما الصبر أو التقوى، فيتسلط عليهم العدو، فالتقوى وحدها لا تكفي ولا الصبر وحده، وعزيمة الأمر وطريق الرشد والرشاد التمسك بهما جميعاً لتكون العاقبة للصابرين المتقين.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مَثْنًا
قَلِيلًا فِئْتَسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنْ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا
وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا
عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

أخذ الله الميثاق على اليهود والنصارى بالإيمان برسالة النبي ﷺ، فالإخبار به وبرسالته في كتبهم ولكنهم كتموا وكذبوا وكفروا وجحدوا إثارةً للعاجلة وحسدًا من عند أنفسهم فبئس ما اشتروا به وبئست البيعة بيعتهم، وكل من كتم ما علم فيه شبه بهم فمن كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة ومن فرح بكتفائه الحق وظن أنه استطاع أن يخفي الحقيقة فله العذاب الأليم يوم القيامة، وتلك صفات اليهود يفرحون بمكرهم وخداعهم وتضليلهم ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوه، فهم يراءون الناس ويخدعونهم، ومن سلك طريقهم بادعاء ما ليس له وإظهار ما لا يطن فيه شبه بهم، فالجميع لن ينجوا من عذاب يوم القيامة فאלله مالك الملك وهو على كل شيء قدير ولا يعجزه أحد في السماوات ولا في الأرض.

والمؤمن الحق هو الذي يظهر عجزه وضعفه وتواضعه لربه، فيقوده ذلك إلى الانقياد والطاعة، والتفكر في مخلوقات الله تعالى يزيد الإيمان واليقين، ففي خلق السماوات وارتفاعها واتساعها وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة وما في خلق الأرض وما فيها من الجبال والأشجار والبحار والحيوان والمعادن والمنافع واختلاف الليل والنهار وتعاقبها واختلافهما في الطول والقصر في ذلك كله آيات باهرات لأصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة، ومع التفكير كثرة الذكر والاستغفار في جميع الأحوال والأوقات، فيجمعون بين الذكر والفكر، فطوبى لمن كان صمته فكرًا ونطقه ذكرًا ونظره عبرًا ومع التفكير والذكر يعلمون ما خلقت له تلك المخلوقات من الحكم العظيمة وما من أجله خلقت الخليقة.

ويبقى رجاء المؤمن ودعاؤه النجاة من النار فيسأل ربه بصدق النجاة من النار اللهم أجرننا من النار برحمتك يا أرحم الراحمين.

فمن أدخله الله النار له الخزي والهوان والذل وما له من مجر منها ولا محيد عنها، فيتوسل المؤمن بإيمانه بالله تعالى واتباع نبيه محمد ﷺ فيسأل ربه مغفرة الذنوب والسيئات وحسن الخاتمة ويسأل ربه أن يجعله من أولياء الله الصالحين في الآخرة..

ويسأل المسلم ربه ما وعد به عباده من النصر والتمكين للمؤمنين والتوفيق والهداية للمتمقين.

وما وعد الله به الموحدين من النجاة من النار ودخول الجنة ويستعيز المسلم من خزي وهوان يوم القيامة فإن خزي يوم القيامة هو أعظم الخزي والهوان، وأعظمه دخول النار عيادًا بالله من ذلك.

تلك آيات كان النبي المصطفى ﷺ يقرأها إذا قام لتعجده آخر الليل فيفتح المسلم يومه بالتفكير والذكر والدعاء والاستغفار والابتهاال وإظهار الفقر والاحتياج، فويل لمن قرأ بتلك الآيات فلم يتفكر بها ولم تؤثر في نفسه معانيها العظيمة التي تلبس القلوب القاسية وتفتح النفوس المستعصية فاللهم نور القرآن قلوبنا وأشر به صدورنا وارفع به درجاتنا واجعله لنا قائدًا وعن النار مخلصًا برحمتك يا أرحم الراحمين.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ
ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلْزَمَ الْكَيْدَ الْهَاجِرُونَ وَأَخْرَجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتَلُوا لَا كُفْرَانَ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُلُّنَهُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَلَّعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا
وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

المؤمن يدعو ربه وهو موقن بالإجابة، وهو ﷺ قريب من عباده يجيب دعوة الداع إذا دعاه، وما يضيع عند الله عمل فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وكل موفى بعمله من ذكر أو أنثى والجميع في الثواب سواء فالمهاجرون الذين تركوا بلاد الكفار ورحلوا عنها إلى بلاد الإسلام وتحملوا من الأذى والمشقة في سبيل الله وجاهدوا في سبيل الله وقتل منهم من قتل فلهم الجزاء الأوفى من تكفير السيئات والرفعة من الدرجات، ولهم الجنات العلاء التي تجري من تحتها الأنهار مختلفة المشارب من اللبن والعسل والخمر والماء عطاء من الله وفضلاً، والله عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً، وأما ما يتنعم به الكفار من ملذات الدنيا وشهواتها وما يعيشونه من البطر والأشر والاستعلاء فإنها هو متاع قصير زائل يعقبه عذاب جهنم هم فيها خالدون فبئس المهاد لهم جهنم وساءت مصيراً.

أما أهل التقوى والإيمان فمآثمهم إلى الجنان وإن قُتلوا وعُذِّبوا وأوذوا في الحياة الدنيا واضطهدوا فإن لهم حسن العاقبة في الآخرة كرامة من الله وما عند الله من النعيم والجزاء العظيم خير للأبرار المتقين الذين عملوا البر وبروا بالديهم وأحسنوا بعمل الصالحات والتقرب إلى الله بأنواع الطاعات.

ومن هؤلاء المؤمنين من آمن من أهل الكتاب وصدق برسالة محمد ﷺ مصديقين ما جاء في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ فآمنوا واختبوا وتذللوا لله، فلم يدفعهم حب المال أن يجحدوا ولا ينكروا فأولئك لهم أجرهم مرتين يوم القيامة.

وهذا يؤكد على المسلمين الحرص على دعوة غير المسلمين من أهل الكتاب وإظهار صورة الإسلام التي شوهدت لهم والاستعانة بالصبر في طريق الدعوة، والصبر والمصابرة في طريق الحق خلق عظيم يتصف به الدعاة المخلصون والمؤمنون الصادقون فيصبرون على ما يلقون من الأذى في طريق دعوتهم.

والمسلم يصبر استجابة لأمر الله تعالى فيصبر عن المعاصي ويصبر على فعل الطاعة ويصبر على أقدار الله المؤلمة..

ويرابط في الثغور إقامة للجهاد ومحاربة لأعداء الملة وإعلاء لكلمة الله وحفظاً لبلاد المسلمين فرباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ومن المراقبة الرباط في طلب العلم وتحصيله، وتقوى الله خير شعار ودثار للمؤمنين وهي وصية الله للأولين والآخرين من عباده، وهي سبب الفلاح والفوز في الدارين، والفلاح مطلب لكل مؤمن فيسأل المسلم ربه أن يجعله من المفلحين في الدنيا والآخرة، ويأخذ بأسباب الفلاح الأخروي من الأعمال الصالحة التي تقربه إلى ربه ﷻ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
 زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
 بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ۚ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ
 وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ ۚ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ
 كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا
 مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
 فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ أَذْنَىٰ ۚ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴿٣﴾ ۚ وَءَاتُوا
 النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
 هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ۚ وَلَا تَوَثُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
 قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ۚ وَابْنِلُوا
 الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
 إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۚ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ
 غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۚ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا
 دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

سورة النساء

وهي سورة مدنية، سميت بذلك لذكر أحكام النساء فيها

افتتحت السورة بالأمر بتقوى الله ﷻ وهي عبادة الله وحده لا شريك له، فأعظم التقوى توحيد الله الذي هو سبب دخول الجنة والنجاة من النار وتحقيق التوحيد يكفر السيئات ويرفع الدرجات، فقد خلق الله ﷻ العباد لعبادته، خلقهم من أبيهم آدم ﷺ وخلق منه زوجته حواء خلقها من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرأها فأنس إليها وأنست إليه، وكان من نسلهما الرجال والنساء باختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ونشرهم في أنحاء العالم، وجعل بينهم رَحِمًا ونسبًا، وأمرهم الله ﷻ بصلة تلك الأرحام وحذرهم من قطعها، فعلى المسلم أن يتقي الله الذي يعاقده به ويعاهد، ويتق الرحم أن يقطعها، ويرها ويصلها والله مطلع على جميع أعمال عباده، ومن تقوى الله ﷻ الإحسان إلى اليتيم وحفظ ماله فإذا بلغ الرشد دُفِعَ إليه ماله ولا يُؤخذ منه شيء، فأموال اليتامى، حرام لا يجوز أن يستبدل المسلم ما أباح الله له من الحلال بما حرم عليه من الحرام من أموال اليتامى ولا يخلط أموالهم مع ماله ليأكل منه فإن ذلك من أسباب الإثم العظيم، وإن خاف المسلم ألا يعدل في مال اليتيم فلا يكفله ولا يرعى ماله، وكذلك اليتيمة إن خاف ألا يعدل في دفع مهرها المستحق لها إذا رغب في نكاحها فليزوج بغيرها؛ لأن الزواج بها بمهر أقل من الظلم، ومن الظلم عدم العدل بين الزوجات، فالشريعة أباحت التعدد بشرط العدل والإنصاف وحرمت الشريعة الزيادة على أربع نساء فإن خاف عدم العدل فليقتصر على الواحدة منعًا للجور والظلم. والإسلام أوجب العدل والقسم في المبيت والسكن والنفقة وذلك بين الزوجات الحرائر، وأما ما ملكت اليمين من الإمام فليس لهن قسم، ويجب إعطاء الزوجة مهرها كاملاً عن طيب نفس ولا يأخذ منه شيئاً إلا إن أعطته منه عن طيب نفس منها فهو من الحلال الطيب، ولا يجوز للولي أن يأخذ من مهر ابنته أو موليته إلا إذا طابت نفسها بشيء منه.

ولا يجوز ترك السفية الذي لا يحسن التصرف يتلاعب بهاله بل يحجر عليه ويحفظ له ماله لأن المال فيه قوام حياته ويعطى منه قدر حاجته من الطعام والكسوة والنفقة والسكن مع الكلام الطيب والوعد الحسن بدفع المال له عند رشده، واليتيم إذا بلغ سن الرشد وأحسن التصرف في ماله وذلك بامتحانه في طريقة البيع والشراء وحفظ المال فإذا تبين حسن تصرفه في ماله أعطي ماله من غير تأخير، ولا يجوز الإسراف في مال اليتيم حال صغره وإتلاف ماله بالتبذير قبل أن يكبر ويدرك، فإن كان ولي اليتيم غنياً فلا يأخذ منه شيئاً ومن كان فقيراً فليأخذ بالمقدار الذي يتعارف عليه الناس، ويسن الإشهاد على دفع مال اليتيم إليه حفظاً للحقوق وسلامة من الإنكار والله ﷻ هو العليم الخبير المطلع على السرائر وكفى بالله محاسباً وشاهداً ورقيباً.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
 مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا
 مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا
 ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا
 خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
 بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ
 فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً
 فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۚ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
 النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ۚ إِنْ
 كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ
 فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي
 بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
 نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

حفظ الله حقوق الورثة وأعطى كل ذي حق حقه، وقسم الله ﷻ الموارث بعد ما كان أهل الجاهلية لا يورثون المرأة ولا الصغار، فكان الورثة وهم أقارب الميت على قسمين منهم من يرث بالفرض وهو النصيب المقدر شرعاً ومنهم من يرث بالتعصيب، فإذا انفرد ولم يكن معه غيره أخذ جميع المال وإذا كان معه أصحاب فرض أخذ الباقي وإذا استغرقت الفروض التركة لم يكن له شيء، ومنهم من يرث بالفرض تارة وبالتعصيب تارة أخرى.

فللذكر نصيب مما ترك الأموات وللنساء نصيب مما ترك الأموات سواء كانوا صغاراً أو كباراً حتى الحمل في بطن أمه فلجميع نصيب مقدر ومحدد كثيراً كان أو قليلاً.

وإذا حضر قسمه الميراث من الصغار أو اليتامى أو المساكين فيعطونهم الكبار ما يطيب نفوسهم من الكلام الطيب صدقة وإحساناً ورجاء بركة المال، مع المحافظة على أموال الصغار من اليتامى فيتولى الوصي الولي حفظ أموالهم وليراقبوا الله في حفظها وليعاملوهم بالرحمة والعطف والإحسان كما يحبون أن يعامل به أبناؤهم فكما يحبون أن يُرحموا ويحسن إليهم بعد موتهم وتحفظ أموالهم فليحسنوا على من تولوا أمره من اليتامى.

وليتق الله الولي ولا يأكل مال اليتيم ويتنفع به بأي أنواع الانتفاع فإن من أكل مال اليتيم فقد أتى كبيرة من الكبائر وإنما يأكل النار تتأجج في بطنه وله العذاب الأليم في الآخرة، ومن أكل مال اليتيم عدم القسمة الشرعية له من الميراث باعتبار صغره وعدم معرفته فقد كتب الله وأوجب الموارث فللذكر ضعف ما للأنثى من المال ولو كان صغيراً، فأمر الله بالتسوية بين الذكر والأنثى في أصل الميراث وفاوت بينهما في المقدار وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤونة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق بخلاف المرأة فإنه لا يجب في مالها غير الزكاة، فإن لم يكن من أولاد الميت ذكر وإنما الجميع إناث فإن كن اثنتين أو أكثر فهن يشتركن في الثلثين وإن كانت واحدة فلها النصف وللأب السدس فقط مع وجود الابن والسدس مع الباقي مع وجود البنت أو البنات، والأم لها السدس مع وجود الذكر أو الأنثى، فإن لم يكن للميت أولاد فلأمه الثلث إن لم يكن له إخوة والأب له الباقي تعصيباً، فإن كان اثنان من الإخوة فأكثر فإن الأم يكون لها السدس، كل ذلك بعد تقديم الحقوق المتعلقة بالتركة من تجهيز الميت وقضاء الديون وإنفاذ الوصية.

والعلم عند الله ﷻ فلا يدري أحد من هو الذي سينفع الميت بالدعاء والاستغفار والصدقة، ولكن تلك الأنصباء مقدرة من الله، والله ﷻ عليم بما ينفع عباده حكيم في شرعه وتقديره.

ونظام الإرث في الإسلام نظام رباني لم تستطع النظم الأرضية الإتيان بمثله ففيه العدل والإنصاف وإعطاء الحقوق، وكل شريعة الله حق وعدل لو أخذ المسلمون بها والتزموا بها لفازوا في الدنيا والآخرة.

﴿١٢﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ
 لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا
 تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
 وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ
 فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ
 مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ
 رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
 فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا
 أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ
 ﴿١٣﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
 وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ
 نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

علاقة الزوج بزوجته وعلاقتها بزوجها لا تنقطع بالموت فقد جعل الله من أسباب الإرث النكاح فيرث الزوج وزوجته وترث الزوجة زوجها، فإذا ماتت الزوجة ولم يكن لها ولد من زوجها أو من زوج قبله فللزوجة نصف مالها، فإن كان لها ولد سواء كان منه أو من غيره فله الربع من بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصية التي أوصت بها.

وللزوجة نصيب من الإرث إذا توفي زوجها فإن كان له أولاد منها أو من غيرها فلها الثمن وإن لم يكن له ولد فلها الربع مما ترك من الأموال، وإن كن أكثر من زوجة فيشتركن في الثمن أو الربع بعد قضاء ديون الميت وتنفيذ وصيته.

وإن كان الميت لا والد له ولا ولد وكان له أخ أو أخت لأمه فلكل من الأخ والأخت السدس. وإن كانوا أكثر من واحد فهم شركاء في الثلث بالتساوي لا فرق بين الذكر والأنثى منهم من بعد إنفاذ الوصية وقضاء الديون، ويحرم مضاربة الورثة بوصية أكثر من الثلث أو الإقرار بدين ليس عليه. ويجب أن تكون الوصية على العدل لا على الإضرار والجور بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه أو يزيده على ما فرض الله فمن فعل ذلك فقد ضاد الله في حكمه وشرعه.

وتحرم الوصية لأحد من الورثة فإن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث. وهذه الفرائض والمقادير التي فرضها الله للورثة على حسب مراتبهم وقراباتهم من الميت هي حدود الله يحرم تعديها واستبدالها بأقل أو بأكثر أو بأنظمة بشرية.

ومن يلتزم بما قسمه الله من الموارث ويلتزم طاعة الله ﷻ في أوامره ونواهيه ويطع الرسول ﷺ في أمره ونهيه فله الأجر والثواب في الدار الآخرة من دخول الجنان التي تجري تحتها الأنهار خالدين فيها. وهذا الفوز العظيم الذي لا يعادله أي فوز.

ومن خالف أمر الله وأمر رسوله ﷺ وارتكب ما نهاه الله عنه ونهى عنه رسوله ﷺ وارتكب ما حرم تعالى من المحرمات والموبقات وضاد الله في حكمه وغيّر أحكام الله فإن مآله إلى النار وبئس المصير... وهذا وعيد شديد لمن اجترأ على معاصي الله ﷻ ومن ارتكب المعاصي من الموحدين فهو تحت المشيئة إن شاء الله عذبه على قدر معاصيه وإن شاء غفر له وأدخله الجنة.

أما الكفار والمشركون فهم مخلدون في النار أبد الآباد، وأما الموحدين فإن توحيدهم يخرجهم من النار إن دخلها، وما ورد من الخلود في النار لمن عمل المعاصي إنها هو خلود إلى أمد لا إلى الأبد.

وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي
الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا
﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَاهُمَا فَإِنْ تَابَا
وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا
﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ
أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ اتِّئِمُّوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ
مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

حفظ الإسلام الأعراض وحرم الفواحش ورتب على ارتكابها العقوبات الرادعة التي تمنع من الوقوع فيها، وكانت عقوبة الزنا للمرأة في أول الإسلام إذا ثبت زناها حبسها في البيت حتى الموت، وثبوت الزنا يكون بأربعة شهود يصفون الزنا حقيقة، ثم نسخ هذا الحكم بالرجم للمحصنة وهي التي سبق لها نكاح صحيح، والجلد مائة لغير المحصنة وتغريب عام فكان سبيلاً لها وعقوبة رادعة، وكان الأمر بالنسبة للرجال ممن ثبت عليه الزنا تكون بالشتم والضرب بالنعال والتعيير، فنسخ بالرجم للمحصن والجلد والتغريب لغير المحصن، والتوبة تجب ما قبلها وتمحو ما سبقها من الذنوب إلا في حقوق العباد، والتوبة الصادقة هي التي يصحبها الندم على ما فات والعزم ألا يعود إلى الذنب، فالخطأ من طبيعة البشر فيقع منهم الطيش والسفاهة فيكون سبباً في وقوعهم فيما حرم الله، ولكن السعيد من وفق للتوبة قبل نزول الموت والغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها فالتوبة الحقيقية التي تكون في زمن الصحة والقوة وفي وقت الإمهال، ومن مات على الكفر فهو في النار لا ينفعه الندم ولا التوبة ولا يقبل منه فدية، وأعظم النعم بعد الإسلام الموت عليه وأن يموت المسلم مؤمناً موحداً، والمؤمن يكون على وجل من سوء الخاتمة فمن كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة ومن عاش على شيء ختم له به فاللهم أمتنا على الإسلام واجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله.

وهذا الإسلام العظيم بالعدل والإنصاف ورفع عادات الجاهلية وتقاليدها، ومن ذلك ما كانت المرأة تعيشه في الجاهلية من الظلم والاضطهاد فكانت تورث وتوآد وتظلم وتعد من سقط المتاع، فكرم المرأة وأعلى شأنها وجعل النساء شقائق الرجال، وأنصف المرأة، ومما أبطله الإسلام من عادات الجاهلية أنهم كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجها وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها، فيمنعونها من الزواج حتى تموت أو ترد إليهم صداقهم، ومما كان في الجاهلية أن الرجل تكون له المرأة وهو كاره لها فيضيق عليها حتى تفندي منه فتد إليه مهره، وهذا نهى عام لجميع المسلمين أن يفعلوا ذلك ويتصفوا بصفات أهل الجاهلية، وأباح الإسلام أن يسترجع الرجل مهره بالخلع إذا وقعت المرأة في الزنا أو عصت زوجها ونشزت عنه.

وأمر الله ﷻ الأزواج بحسن عشرة النساء بالقول والفعل وحسن الكلام والهيئة وأخذ الزينة كما كان النبي ﷺ جميل العشرة دائم البشر يداعب أهله ويتلطف بهم ويوسع عليهم بالنفقة ويكون في خدمة أهله. ومن كريم العشرة الصبر على ما يقع من المرأة من أخطاء فإن كره منها خلقاً رضي بآخر وقد يكره الزوج البقاء مع زوجته فيجعل الله الخير باستمرار الزواج فيكتب له الذرية الصالحة والحال الحسنة. فالمرء لا يعلم أين يكون الخير فقد يكون فيها يكرهه ويبغضه.

وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبِدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ
 إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ
 بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى
 بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا
 غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ
 النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا
 وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ
 وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ
 الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
 وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
 وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ
 اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ
 مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
 إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾

من تكريم الله ﷻ للمرأة أن جعل المهر حقًا خالصًا لها لا يشاركها فيه أحد، وحرم الإسلام أن يأخذ الزوج مهره إذا طلق زوجته ولو كان المهر كثيرًا، ويحرم التحايل لأخذ المهر بالكذب والبهتان والافتراء على المرأة فإن ذلك من أعظم الإثم والوزر.

فهي قد استحقت المهر بما استحل من فرجها وبما حصل بينهما من جماع ومعاشرة، فهي لم تحل لزوجها إلا بهذا المهر وقد كان بينهما الميثاق الغليظ وهو عقد النكاح.

والواجب الإمساك بالمعروف أو التيسير بإحسان فقد أخذ المرأة بأمانة الله واستحل فرجها بكلمة الله وهي الشاهد بالخطبة عند العقد، والمرأة المطلقة طلاقًا رجعيًا يحل مراجعتها في العدة والمطلقة طلاقًا بائنًا لا تحل إلا بعد زوج آخر.

ومن المحرمات بسبب المصاهرة إلى الأبد زوجة الأب، وتحريم زوجة الأب تكرامة للأباء واحترامًا لهم وحتى لا يمقت الابن أباه.

ومن المحرمات من أجل المصاهرة بنت الزوجة وهي الربيبة إذا دخل بأمرها وأم الزوجة وزوجة الابن.

والزواج من المحارم من عادات الجاهلية ومن أعظم الفواحش وسبب لمقت الله وعذابه.

ومن المحرمات بالنسب الأم وإن علت من الجدات، والبنات وإن نزلن، والأخوات الشقيقات ولأب ولأم، والعمت وعمات الآباء والأمهات والخالات وخالات الآباء والأمهات.

وبنات الإخوة الأشقاء أو لأب أو لأم وبنات الأخوات الشقيقات أو لأب أو لأم، ومن المحرمات بسبب الرضاعة ما يحرم بسبب النسب فالرضاعة تحرم ما تحرم الولادة، والرضاع المحرم ما كان خمس رضعات فأكثر في الحولين، والمحرمية تنتشر في أصحاب اللبن لا أهل المرتضع، فتحرم الأم من الرضاعة والأخوات من الرضاعة وغيرهن من المحرمات في النسب كالعمات من الرضاعة والخالات من الرضاعة وبنات الأخ من الرضاعة وبنات الأخوات من الرضاعة، ومن المحرمات بسبب الجمع أخت الزوجة وعمتها وخالتها وبنت أخت الزوجة، أو بنت أخيها لأن ذلك سبب من أسباب القطيعة والبغضاء فيما بينهم.

وهذا التشريع من أسباب حفظ الأعراض وتنظيم الزواج والمحافظة على الترابط الأسري والاجتماعي..

وهو حفظ للنسل وبقاء للتواصل الاجتماعي، وتعظيم للرحم وتوكيد للأوامر فقد جاءت هذه الشريعة كاملة في تشريعاتها تليق فطرة الإنسان وتهذب الأخلاق، وتبعد بالمسلم عن صفات الجاهلية من الظلم والاعتداء والقيود على المرأة وسلبها حريتها وكرامتها ولم يأت نظام أرضي بشري يكفل للمرأة حقوقها ويحفظ لها كيانها مثل ما جاء به الإسلام من العدل والإنصاف للمرأة، وإن نطق الأعداء فاتهموا الإسلام زورًا وهتائنًا بظلم المرأة وتقييدها.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
 كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا
 بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۖ فَمَا أُسْتَمْتَعُمْ بِهِ
 مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
 حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ
 الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ
 فَنِيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ
 بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
 بِالْمَعْرُوفِ ۚ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ
 أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
 مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
 الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
 ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

من يحرم نكاحهن من الأجنبيةات المتزوجات، فلا تنكح المرأة وهي تحت عصمة رجل، أو في عدتها من طلاق أو وفاة، إلا ما ملكت اليمين فهي تملك بالسبي، أو الشراء ويستبرأ رحمها بحيضة.

وهذا التحريم كتاب كتبه الله على عباده، يلزم المسلم التزامه ولا يخرج عن حدود الله، ففي ذلك السعادة الأبدية، وما عدا مَنْ ذُكرن من المحارم هن حلال، يجوز الزوج بهن إذا دفع إليهن المهر، وقصد من الزواج تحصيل الفرج وابتغاء النسل، والابتعاد عن الوقوع في الفاحشة، فالمهر يجب لها مقابل ما يستمتع به الزوج من زوجته إلا إذا طابت نفسها بشيء منه للزوج جاز له أخذه والانتفاع به.

والله ﷻ عليم بما يشرعه وله الحكمة البالغة في تشريعات الزواج وغيرها من الأحكام. والأصل في الزواج نكاح الحرائر فمن لم يستطع على مهر الحرة، وخشي على نفسه الوقوع في المحرم ولم يستطع الصبر جاز أن ينكح الأمة المملوكة ويشترط إيمانها، وإذن سيدها ويتولى عقدها سيدها.

فإن كان المالك امرأة، زوجها ولي السيدة من الرجال مع دفع مهرها، واشترط عفتها عن الحرام، فلا يجوز نكاح الزانية التي لا تمتنع ممن أرادها بالفاحشة، ولا يجوز نكاح الزانية المعلنة بالزنا، ولا من تتخذ الأصدقاء من الرجال كل ذلك حفاظاً على الأعراض والأنساب، فإذا تزوجت الأمة فوقعت في الفاحشة فإن عقوبتها نصف عقوبة الحرة وهي جلد خمسين جلدة، وليس على الأمة رجم، وإباحة نكاح الأمة دفعاً للضرورة وهي خشية الوقوع في الزنا.

والصبر عن الزواج بالأمة أولى، لما في نكاحها من مفسدة رق الأولاد، لأن الولد يتبع أمه في الحرية والرق إلا أن يشترط الزوج على السيد حرية أولاده، ولما في ذلك من الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن، فإن اكتساب الصفات الوارثية من الأم يؤثر على الأولاد، فالعرق دساس، وإن من حق الولد على أبيه أن يحسن اختيار أمه، فالبیت الطيب يثمر الطيب ومعالي الأخلاق.

والله يُريدُ أن يبين للمؤمنين ما أحل لهم وحرم عليهم، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ويهديهم الطرق الحميدة والمناهج المستقيمة للمؤمنين الذين سبقوهم بالإيمان.

ويريد الله أن يتوبَ على المؤمنين من الإثم والمحارم، التي ارتكبوها ثم تابوا منها. فهو سبحانه يحب التوابين الذين يحدثون عند كل ذنب توبة، ويفرح سبحانه بتوبة عبده، ورغب سبحانه عباده بالتوبة النصوح ووعدهم بقبولها إذا توفرت شروطها. وهو سبحانه عليهم حكيمٌ في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ
عَنكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا
وِظْلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ
وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَعَاثُوهُمْ
نَصِيبُهُمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

الله سبحانه يحب من عباده التوبة، ويفرح بتوبة عبده ورجوعه إليه، فمن طبيعة الإنسان الوقوع في الخطأ وخير الخطائين التوابون، ولكن أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة وأهل الفساد يتفنون في إغواء البشر وصدهم عن الحق إلى الباطل، يريد الله من عباده العفة والزواج وحفظ الأعراس ويريد الذين يتبعون الشهوات الزنا والفواحش والاختلاط ونزع الحجاب والتبرج والسفور، يريد الله من عباده البعد عن مواطن الحرام وطهارة الأعراس وصيانتها ويريد أهل الشهوات تدينس الأعراس وحياة الحيوان وتأجيج الفتن، فالله سبحانه في تشريعاته رحيم بعباده لم يأمرهم بما يشق عليهم وإنما خَفَفَ عَنْهُمْ في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لهم، ولهذا شرع النكاح لأن الإنسان خُلِقَ ضَعِيفًا فمن فطرته الشهوة فشرع له ما يصرفها من الحلال، والإنسان ضعيف فكانت الشريعة سمحة ميسرة في أحكامها.

ومن ضعف الإنسان حبه للمال ولكن لا يكون حبه للمال طريقًا لأكل أموال الناس بالباطل، فيأكلها بأنواع المكاسب المحرمة، كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الخيل، وإن كان في ظاهر المعاملة أنها موافقة للحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الخيلة على الربا، لكن المتاجرة المشروعة التي تكون عن تراضي من البائع والمشتري فهي مما أباح الله في تحصيل الأموال، فإذا حصل الرضا بين المتبايعين، وكان البيع والشراء بصدق وأمانة كان من أطيب المكاسب، والتاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء.

ومن المكاسب المحرمة بيع المسكرات والمخدرات التي تقتل الإنسان وتذهب عقله، فقتل النفس من أعظم الكبائر، فمن رحمته سبحانه بعباده أن حرم عليهم تعاطي ما يضرهم ويهلكهم، وحرم عليهم إهلاك أنفسهم

ومن قتل نفسه متعمدًا فهو متوعد بالنار، فقتل النفس من أكبر الكبائر، والكبائر هي ما تُوعَدُ عليها بالنار أو بلعن أو غضب أو حد في الدنيا، فمن اجتنبها وتركها خوفًا من الله كفر الله عنه صغائر الذنوب بما يفعله من الأعمال الصالحة التي تكفر الذنوب وبما يصيبه من البلاء، فإذا اجتنب كبائر الآثام كفر الله عنه صغائر الذنوب وأدخله الجنة.

والله سبحانه قضى وقدر وحكم فعدل فجعل لكل من الرجال والنساء خصائص وأحكام فلا يتمنى الرجال ما للنساء ولا النساء ما للرجال، ولا يتمنى الفقير ما عند الأغنياء فالكل بتقدير الله تعالى، وليسأل المسلم ما يفيدُه وينفعه فيسأل الله من فضله فهو سبحانه بيده مفاتيح الرزق وهو العليم بعباده يعلم ما ينفعهم وما يضرهم، فقد يكون الإنسان فقيرًا لأن الغنى يطغيه.

وقد جعل الله لكل الناس قرابات وأرحام يتوارثون فيها بينهم، فلا توارث إلا بأسباب الإرث وهي النسب والنكاح والولاء، وما كان في أول الإسلام من توارث المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة التي آخى بينهم رسول الله ﷺ فقد نسخ، فيعطون حقهم من النصر والرفادة والنصيحة.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ
 قَنِينَتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ
 نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ
 وَأُضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ
 بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ
 يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا
 ﴿٣٥﴾ * وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
 إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ
 ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
 وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
 كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
 النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾



جعل الله لكل من الرجل والمرأة خصائص تخصه، فالنساء شقائق الرجال، ولكن الله جعل المسؤولية على الرجال، وجعل الرجل قيماً على المرأة مسؤولاً عن رعايتها وصيانتها، وهذا من تكريم الله للمرأة، فالرجال ينفقون الأموال ويدفعون للنساء المهور، والمرأة الصالحة طائفة لزوجها حافظة لعرضها، وأما المرأة الناشز وهي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المُعْرِضَة عنه، المُبْعِضَة له، متى ظهر منها الشوز فليعظها زوجها وليخوفها عقاب الله في عصيانه فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل، وقد قال رسول الله ﷺ: (لو كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا)، من عَظَّمَ حَقَّهُ عليها، وبعد الوعظ بالكلمة الطيبة والرفق واللين يأتي الهجر في المضجع، ولا يكون هجره لها يعلم به الجميع بل في حدود فراش الزوجية، والمرأة التي يهجرها زوجها ولا تستجيب قد عصت الله فاستحققت الضرب غير المبرح وهو شعار على عظم فعلها وليس إهانة لها أو تعذيب فالكثير من الأزواج يبدأ بالضرب وينتهي بالطلاق فلا يكون الضرب بسوط ولا يكون بقوة ولا يجرح ولا يكسر ولا يكون في الوجه، ويكون بعد الوعظ والهجران واستنفاد كل الحلول وفي حدود ضيقة وليس في كل وقت وعند أدنى سبب، فقوامة الرجل ليست بالتسلط والإيذاء، فإذا حصلت الطاعة فليس للزوج عليها سبيلا لا لهجران ولا بالضرب وعليه أن يؤدي إليها حقوقها، فمن ظلم وبغى بعد ذلك فانه عليه عليم بظلمه وجوره وسيحاسبه عليه، فإن الله العلي الكبير وَلَيَهِنَّ وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن، فإن حصل النزاع والشقاق من الطرفين فعلى أقارب الزوجين أن يصلحا بينها يصلحا والصالح خير، فيكون حَكَمًا من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة فينظرا أسباب الخلاف ويقربا بينهما ويسعيان في تقارب القلوب وإيجاد الحلول ومن كانت نيته الصلح يجعل الله التوفيق حليفه، والله عليم بالنيات وخفايا الأمور وذلك توجيه للأمة للحرص على استقرار الأسر وعدم تفرقها واختلافها، ومن أعظم ما تستقر به الأسر والمجتمعات أداء الحقوق وأعظم الحقوق حق الله تبارك وتعالى فقد أمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه، فهو المستحق منهم أن يوحده، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، ثم بعد حق الله حق الوالدين فقد أوصى الله بالإحسان إلى الوالدين، فقد جعلها سببا لخروج الإنسان من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عباده والإحسان إلى الوالدين، ثم بعد حق الوالدين حق القرابة والرحم، فالقرابات من الرجال والنساء، لهم حق الصلة والإحسان، ومن الحقوق بعد ذلك حق الأيتام، وهم من فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم، ومن صور الإحسان الإحسان إلى المحاييج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم، فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم، ومن الحقوق حق الجار فالجار الذي تربط الإنسان به قرابة وهو مسلم له ثلاث حقوق، والجار المسلم له حقان، والجار غير المسلم له حق الجوار، ومن صور الإحسان الإحسان إلى الزوجة والرفيق في السفر والضييف، ومن انقطع به السبيل يحسن إليه حتى يصل إلى بلده، وما تحت يد الإنسان من المملوكين، فمن تكبر عن أداء الحقوق وتعالى على الناس فهو ممن يبغضه الله. ومن يبغض الله الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به، ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون نعم الله فلا تظهر عليهم ولا تبين، لا في أكلمهم ولا في ملبسهم، ولا في إعطائهم وبذلهم، والبخل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويحجدها، فهو كافر لنعم الله عليه.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
 قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا
 مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
 أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
 وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
 اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
 وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
 سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
 أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَايِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
 فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ
 اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ
 الْكَنْبِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

البخل مذموم والإنفاق رياء وسمعة مذموم، فمن طلب مدح الناس وثناءهم ولم يقصد وجه الله تعالى في إنفاقه فهو من الخاسرين، وهذا طريق من أغواهم الشيطان وسول لهم، وحسن لهم طلب الثناء من الناس، ومن كان الشيطان جليسه وقربنه فلا يقلح أبداً، لأن شياطين الإنس والجن لا يقودون إلا إلى الضلال والغواية، ولو أن الإنسان سلك طريق الحق بالإيمان وقصد وجه الله والدار الآخرة، وأنفق بإخلاص فإن الله عليم بما ينفق، ويعطيه سبحانه على القليل كثيراً في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه لا يضع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى، والحسنات يضاعفها أضعافاً مضاعفة، ويعطي عباده الفضل العظيم والجزاء الجزيل يوم القيامة، يوم تشهد الرسل على أهمهم وتشهد الجوارح وتنطق، وبأي رسول الله ﷺ شهيداً على أمته فحيثئذ يود الذين كفروا أن يكونوا تراباً يسوى بهم الأرض، فهم لا يستطيعون كتمان أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وكيف يحيدون والرسول ﷺ عليهم شهيد، وجوارحهم تشهد عليهم فالأذن تشهد والرّجل تشهد واليد تشهد والفرج يشهد والجلد يشهد.

فالمسلم يبقى خائفاً ووجلاً من ربه لا يرتكب نهياً وهو يعلم أن جوارحه أول من يشهد عليه، فيعظم أوامر الله ونواهيه، ومما نهى الله عنه شرب الخمر وإزالة العقل بالمسكرات.

وقد جاء تحريم الخمر متدرجاً، فأول آية ذكر فيها أن الإثم في الخمر أعظم من منافع الدنيا التي يحصل عليها الناس من المتاجرة بالخمور، ثم نهوا عن شرب الخمر في أوقات الصلوات ليضيق وقت شربها، ثم نزلت آية التحريم والأمر بالانتهاء عن شرب الخمر، فالخمر يزيل العقل فلا يدري ما يتكلم الإنسان به وقد ينطق بالكفر، أو يتصرف بما لا يليق فنزهت المساجد عن ذلك في وقت التدرج في التحريم، ومما تنزه المساجد عنه دخول الجنب للمسجد والمكوث فيه والحائض إلا إذا كان يريد المرور فيه وليس اللبث فيه، ورخص للجنب إذا توضأ أن يمكث في المسجد لأن الوضوء يخفف الجنابة ولفعل الصحابة رضي الله عنهم، فإذا اغتسل الجنب وطهرت الحائض واغتسلت جاز لهما دخول المسجد والبقاء فيه، ومن يسر الشريعة وسماحتها مشروعية التيمم إذا فقد الماء أو لم يقدر الإنسان على استعماله لمرض أو برد فيتيمم للصلاة من الحدث الأصغر والكبير بالتراب الطيب الذي له غبار إن استطاع أو بأي تراب، يضرب الأرض ضربة واحدة ثم يمسح وجهه وظاهر كفيه، وهذا من عفو الله ورحمته بعباده، وهو سبحانه الغفور لعباده مما يقع منه من تقصير في أداء ما أوجب عليهم، فإن لم يجد الماء ولا التراب أو لم يستطع استعمالهما جميعاً نوى رفع الحدث بقلبه، وهذا ما تميزت به الشريعة من اليسر، أما الأمم السابقة فقد شدد عليهم لما اتصفوا به من المكر والكذب والتحايل على أوامر الله ونواهيه، فهؤلاء اليهود يشترطون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ﷺ ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا يودون لو يكفر المسلمون بما أنزل عليهم ويتركون ما هم عليه من الهدى والعلم النافع.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
 مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِالسِّنِّهِمْ
 وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا
 لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا
 مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
 عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
 اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
 ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا
 ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ
 وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
 مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

الله ﷻ أعلم بأعداء المسلمين من أنفسهم ولذلك جاء القرآن محذراً من أعداء الأمة من اليهود والنصارى والمشركين، فهم أعداء ولو تسموا بالأصدقاء، يكيدون للإسلام وأهله، والله ولي المؤمنين ينصرهم ويؤيدهم ويدافع عنهم ويرد عنهم كيد الأعداء، أما اليهود المكذبون المعاندون الذين يحرفون كلام الله ويبدلونه ويستهزئون بالنبي ﷺ يسمعون كلامه ويعصونه بالكذب والجحود، ويقولون للنبي ﷺ اسمع منا ولا نسمع منك ولا نقبل، ويظهرون كلاماً يقصدون به معنى غير ما يفهمه السامع، فيقولون راعنا يقصدون به الرعونة، والسامع يظن أن ذلك من المراعاة كل ذلك استهزاء وطعنًا في النبي ﷺ وفي دينه، ولو أنهم سمعوا وأطاعوا الرسول ﷺ، وتكلموا بالحق ولم يبطنوا الكفر والجحود والاستهزاء لكان ذلك خيرًا لهم في الدنيا والآخرة، ولكن طرودا عن رحمة الله بسبب كفرهم فلا يؤمن منهم إلا القليل، وقد أمروا بالإيمان برسالة النبي ﷺ كما جاء في كتبهم، وبشرت به رسالهم ولكنه الجحود والعصيان فقد صرفت قلوبهم عن الحق وطمست عيونهم عن رؤية الحق، وهذا من أعظم العقوبات في الدنيا، وتوعد الله من فعل مثل فعلهم بأن يطمس عينيه ويجعل عينيه من خلفه فيمشي على جهة قفاه ليكون عبرة لغيره، مع طردهم عن رحمة الله كما طرد من قبلهم من الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد، فقد حرم عليهم الصيد يوم السبت فوضعوا الشباك يوم الجمعة وأخذوها يوم الأحد تحيلاً على النهي فمسخوا قردة وخنازير، وأمر الله إذا وقع لا يرده أحد.

فالكفر والشرك لا يرضاه الله ولا يغفره لأنه أعظم الذنوب وسبب للخلود في النار ويغفر الله ما دون الشرك من الذنوب، أما الشرك فلا يغفره الله لأنه افتراء على الله وظلم عظيم.

والواجب على المسلم الحذر من الشرك ووسائله وطرقه، والخوف من الوقوع فيه فقد خاف سادة الأولياء من الوقوع فيه فلا يزكي المسلم نفسه أو يدعي العصمة من الوقوع في الشرك وقد ذم الله اليهود الذين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، فلا يزكي المسلم نفسه ولا غيره فالله هو الذي يزكي من يشاء لأنه العليم بعباده، وإن كان لا بد أن يزكي أحداً فليقل أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحداً، والله لا يظلم عباده مقدار الفتيل بل مثقال ذرة، فمن زكى نفسه كاليهود فقد افترى على الله كذباً، فاليهود افتروا على الله لما قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وقولهم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وكل ذلك كذب وبهتان واضح بين، ومن كذبهم وافترائهم إيمانهم بالشيطان وتوليتهم له وفعلهم السحر وارتكابهم الشرك وكذبهم بأن طريقة المشركين خير من دعوة سيد المرسلين ﷺ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
 أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا
 ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
 فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا
 ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ
 جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ * إِنَّ
 اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَقْرَبِينَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
 النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
 بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾



اليهود شر عباد الله فهم إخوان القردة والخنازير وعبد الطاغوت يفضلون عبدة الأوثان على عباد الرحمن، طردهم الله من رحمته ومن يطرد من رحمة الله فلا نصير له ولا معين في الدنيا ولا في الآخرة، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين على المسلمين، ولو كان لهم التصرف في الملك والعطاء لما أعطوا المسلمين شيئاً ولو كان قطميراً لا يساوي شيئاً وهو قشرة النواة، فهم يحسدون المسلمين على ما أعطاهم الله من الإيمان والنصر والغلبة، ويحسدون النبي ﷺ لما خصه الله من النبوة فهو من ذرية إبراهيم الذين وهبهم الله النبوة، وأُنزل عليهم الكتب، وحكموا بالسنن وهي الحكمة، وجعل فيهم الملوك، ومع هذا فمن الناس من صدق بهذا الإتياء وهذا الإنعام ومنهم من كفر به وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسوله.

تلك النار يعاقب الله بها من كفر بآياته وصد عن رسله، يدخلهم الله النار دخولا يحيط بجميع أجزائهم، وأجزائهم، إذا أحرقت جلودهم بدلوا جلوداً بيضاً أمثال القراطيس، يجعل للكافر مائة جلد، بين كل جلدتين لون من العذاب تنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة، وفي المقابل الذين آمنوا وعملوا الصالحات مأواهم الجنات التي تجري من تحتها الأنهار من العسل والخمر واللبن يتنعمون فيها أبد الآباد لا يحولون ولا يزولون ولا ييغون عنها حولا ولهم فيها الخور العين المطهرات من الخيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة ومن كل سوء ومن كل أذى في ظلال الجنان الكثيرة الكثيفة، ومن صفات أهل الجنة أداء الأمانة في الدنيا، ويشمل ذلك جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله ﷻ على عباده من الصلوات والزكوات، والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يؤتمنون عليه، يؤدي المسلم الأمانة تقرباً إلى الله وتعبداً له فهو ﷻ أمر عباده بأداء الأمانة، وبالعدل في الحكم بين الناس بأنواعه في الدماء والأموال والأعراض، وفي القليل والكثير، وعلى القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو؛ والعدل أساس الحكم، والله لا يأمر عباده إلا ما فيه صلاحهم في الدارين، فكل ما شرعه الله هو الحق، لأنه السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم من مصالح عباده ما لا يعلمه العباد.

ومن مصالح العباد طاعة الله ورسوله ﷺ وطاعة ولادة الأمر من الحكام والعلماء فلا تستقيم حياة الناس إلا بطاعتهم، ولا تتم طاعة الله ورسوله إلا بطاعة ولادة الأمر، وما يحصل فيه الاختلاف فيجب الرجوع فيه إلى الكتاب والسنة ففيهما المخرج والنجاة، والتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والرجوع في فصل النزاع إليهما خير وأحسن عاقبة ومآلاً وأحسن جزاء وهداية.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
 وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
 وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
 ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ وَإِلَى الرُّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ
 صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
 قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
 إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
 فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
 أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا
 لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
 جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
 لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
 حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
 فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

التحاكم للكتاب والسنة من صفات المؤمنين، والتحاكم إلى الطاغوت من صفات المنافقين وقد كان المنافقون على عهد النبي ﷺ يتركون التحاكم عند رسول الله ويطلبون حكمًا غير حكم الله، وهذا من إضلال الشيطان لهم فيبعدهم عن هداية الوحي وعن الحق، والواجب عليهم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، وإذا دعاهم المؤمنون إلى حكم الله ورسوله يعرضون إعراض المستكبرين عن الحق وهم إذا وقعت عليهم المقادير والمصائب بسبب ذنوبهم وإعراضهم عن حكم الله جاءوا إلى النبي ﷺ يعتذرون إليه ويخلفون له ما أردنا بذهابنا إلى غيرك وتحاكمنا إلى من سواك إلا المداراة والمصانعة والتوفيق بين المتخاصمين لا اعتقادًا منا بصحة حكمه، والتحاكم لغير الكتاب والسنة إن كان عن هوى ومحابة فلا يكون كفرًا، والله يعلم ما في قلوب المنافقين من الكفر والضلال، فلا يعنفون عما في قلوبهم، فليس لأحد إلا الظاهر، فالمشروع الإعراض عنهم ودعوتهم بالموعظة والتذكير والرفق، ويكون الإنكار سرًا، ولا يظهر النزاع بين أوساط المسلمين حتى لا يتكلم غير المسلمين بما يقع بين المسلمين من الاقتتال والتنازع والاختلاف وقد ترك النبي ﷺ قتل المنافقين حتى لا يتكلم الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، والواجب طاعة الرسول ﷺ، والتحاكم إلى شريعته، والمذنب يفرغ إلى التوبة والاستغفار والرجوع إلى العلي الغفار، وفي حياته ﷺ كانوا يأتون إليه ليستغفر لهم ويدعو الله لهم، وأما بعد وفاته ﷺ فليس لأحد ذلك ولا يؤتى لقبره، وإنما يفرغ المسلم بالاستقامة بعد التوبة على سنته وهديه ﷺ، وهكذا كان أصحابه رضوان الله تعالى، والتوبة ليس دونها حجب وإنما الله ﷻ كثير قبول التوبة من عباده، رحيم بهم يفرح بتوبتهم ورجوعهم إليه.

والواجب على كل مسلم اتباع النبي ﷺ والتحاكم إلى شريعته في كل صغير وكبير وعليه الرضا بحكم الله والتسليم له دون اعتراض أو تحايل أو ممانعة أو مدافعة أو منازعة، فلا يجد المسلم في نفسه حرجًا بها حكمت به الشريعة، وينقاد له في الظاهر والباطن، فالتحاكم إلى الكتاب والسنة واجب، ومن صفات المسلمين والرضا بحكم الله من صفات المؤمنين والتسليم من صفات المحسنين، فلا صلاح للبشرية إلا بحكم الكتاب والسنة وعلى من ولاه الله أمر القضاء أن يجتهد ويتحرى الصواب وينظر في النصوص الشرعية ولا يجمد على الأقوال ويقرب الشريعة للأمة، ويكون في حكمه مجتهدًا متحررًا من التقليد والتبعية حتى لا ترمى الشريعة بالرجعية بسببه.

وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ
 دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ
 بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِّنْ
 لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْتُهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾
 وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
 أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى
 بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ
 فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَانْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبِطَنَّ
 فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ
 شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن
 لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِغْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
 فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
 يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

أكثر الناس لو أمروا بما هم مرتكبوه من المناهي لما فعلوه ؛ لأن طبعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن لو كان كيف يكون، ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما ينهون عنه كان خيرا لهم من مخالفة الأمر وارتكاب النهي، ولا يصبر على أوامر الله تعالى إلا المؤمنون الصادقون، ولو كان في ذلك سفك دمائهم وإخراجهم من ديارهم، وقد خرج أصحاب النبي ﷺ من مكة إلى الحبشة وإلى المدينة فرارًا بدينهم وقدموا أنفسهم رخيصة في سبيل الله، وقد قرن الله بين القتل والإخراج من الديار في المشقة، وهو يدل على أن حب البلاد كحب النفس مما فطر عليه الإنسان.

والاستجابة لأوامر الله من ثمراتها تثبيت الله للعبد وهدايته للصراط المستقيم في الدنيا والآخرة وحصوله على الأجر والفضل العظيم والفوز بالجنة ومرافقة الأنبياء الذين فضّلهم الله على البشر بوحيه، واختصهم بإرسالهم إلى عبادته، والصادقون وهم الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الأنبياء، فعلموا الحق وآمنوا به وصدقوه بيقينهم، وقاموا به قولاً وعملاً، والشهداء الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فبذلوا أنفسهم في سبيل الله والصالحون الذين صلحت ظواهرهم وبواطنهم فصلحت أعمالهم وأقوالهم ونفوسهم فهم خير الرفقاء في الجنة يجتمعون في النعيم والقرب من رب العالمين

وهذا من فضل الله على عباده فهو الذي وفقهم لعمل الصالحات، وأعانهم عليها، وأعطاهم من الثواب والجزاء ما لم يبلغوه بأعمالهم، وهو العليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

ويأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم بالتأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد وتكثير العدد بالنفير في سبيله، فيخرجوا إليهم، جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، أو يخرجوا إليهم جميعاً، وإقامة الجهاد يكون بأمر ولادة المسلمين وقيادتهم فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يخرجون إلا مع الرسول أو بأمر الرسول ﷺ، وحين يأتي الأمر بالخروج ومقابلة العدو لا يحل لأحد أن يتأخر عن الجهاد إذا كان واجباً، فإن المشطين عن ملاقات الأعداء يظنون أنهم إذا لم يُقتلوا أو يُجرحوا أنهم غنموا الحياة والبقاء، وما علموا أن ما فاتهم من الأجر والثواب هو الخير لمن قُتل أو جُرح أو حصلت له المشقة، وفي المقابل إذا حصل النصر والغلبة والغنيمة تمنوا أنهم مع المؤمنين ليحصلوا على المال، فكان هؤلاء ليسوا من المؤمنين الذين تكون بينهم المودة الحقيقية فيأمنون لما أصاب إخوانهم من المصائب ويفرحون بما حصل لهم من النصر والغلبة، ولكنهم يفرحون لما يصيب المؤمنين من المصائب ويحزنون لما يحصل لهم من النصر والغنيمة، والمؤمنون الصادقون هم الذين يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله طمعاً في ثواب الآخرة ونعيمها وابتغاء مرضاة الله، فإن قُتلوا فازوا، وإن غلبوا فازوا بما عجل الله لهم من ثواب الدنيا، وثواب الآخرة أعظم وأفضل.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ
حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِن عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا
هَٰذَا مِن عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ
سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

الجهاد شرع لإعلاء كلمة الله ودفع الظلم عن المستضعفين والمضطهدين، ولذا حث الله على الجهاد في سبيله وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان الذين اضطهدوا في دينهم وضيق عليهم، المؤمنون أولياء بعض ينصرونهم ويناصرونهم، المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان، وهو وليهم ومهما ظهر منهم من قوة فإن قوتهم إلى ضعف وكيدهم إلى هزيمة.

وكان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة لمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر على أذاهم، وكانوا يودون لو أمروا بالقتال ليكيدوا أعداءهم، فلم يؤمروا بالجهاد لقلّة عددهم وكثرة عدوهم، فلما صاروا إلى المدينة، وصارت لهم دار ومنعة وأنصار، أمروا بها كانوا يودونه من الجهاد، فجزع بعضهم من القتال وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً، وتضجروا من فرض القتال وودوا لو أن الله أخر فرضه، وخافوا من الموت، وقالوا لو أخرنا الله إلى أن نموت بأجالنا، وما علموا أن الجهاد لا يقدم الموت ولا يؤخره، وأن الدنيا متاع والآخرة هي دار القرار فهي الخير للمؤمنين المتقين، ويوم القيامة توفي كل نفس بما كسبت ولا تظلم شيئاً، والموت واقع على كل نفس ولو امتنعت عنه بالقصور الشاهقة والبروج المنوعة المزينة، والمؤمن بالقدر يتوكل على الله فالمت قد كتبه الله وقدره، والرزق وسائر النعم من الله والمصائب والابتلاء من الله، فهو سبحانه كتب مقادير الخلق كلها، فقضاء الله نافذ في البر والفاجر والمسلم والكافر، فما يصيب الإنسان من مصائب فبها كسبت يدها ويعفو الله عن كثير، فبسبب ذنوب العباد تقع عليهم المصائب، وقد تكون ابتلاءً وامتحاناً، فالمؤمن الذي يفهم حقيقة الإيثار بالقضاء والقدر يعلم أن جميع الأمور من الله ﷻ فلا يتطير بأن البلاء إنما أصابه لما اتبع الحق والتزم به، فتلك من وساوس الشيطان ومداخله على الإنسان، بل هو مطمئن بما قضاه الله وقدره فكله له خير، فيؤمن بالقدر حلوه ومره، وذلك ركن من أركان الإيمان الستة من عقيدة الإسلام التي بعث بها محمد ﷺ المرسل للجن والإنس بشيراً ونذيراً، يبلغهم شرائع الله، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه. والله شهيد بين نبيه ﷺ وبين عباده، وعالم بما يبلغهم النبي ﷺ به من الحق، وشهيد على ما يردّون من الحق كفرًا وعنادًا.

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ
 عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ۝ (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ
 عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ
 مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا
 ۝ (٨١) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُتْرَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا
 فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ
 أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي
 الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (٨٣)
 فَقَنِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ
 عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا
 وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ۝ (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ
 نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا
 وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا ۝ (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَّةٍ فَحَيُّوا
 بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝ (٨٦)

طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، ولا تتحقق طاعة الله إلا بطاعة رسوله ﷺ، فهو المبلغ عن رب العالمين وما ينطق عن الهوى، فمن أعرض عن طاعة الرسول ﷺ فهو الخاسر في الدارين، وما على الرسول إلا البلاغ، فمن تبعه سَعِدَ ونجا، وكان للرسول ﷺ من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عن طاعة الرسول ﷺ خاب وخسر، وليس على الرسول ﷺ من أمره شيء، وأهل الإيمان يطيعون الرسول ﷺ في كل وقت، بخلاف المنافقين الذين يظهرون طاعته ويخالفونها إذا استتروا عن أعين الناس، وكان المنافقون يظهرون الموافقة والطاعة عند النبي ﷺ فإذا خرجوا من عنده وتواروا عنه واستتروا بالليل أظهروا المخالفة والله يعلم ما يفعلون وما يقولون وبما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزئهم على ذلك، ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبتين، الذين هم موكلون بالعباد يعلمون ما يفعلون.

والواجب الإعراض عن المنافقين وعن أقوالهم والاشتغال بما ينفع الأمة من الدعوة ونشر الخير والتوكل على الله تعالى فهو سبحانه الذي يحفظ عباده وهو وليهم في الدنيا والآخرة، والاهتمام بكتاب الله وتدبره والعمل به فهو الضياء والمخرج من كل فتنه وبلية، فهو كتاب من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فيه النور والهدى، ولو كان من عند غير الله لوجد فيه التناقض والاختلاف، ومن هداية القرآن الحفاظ على اجتماع الأمة وذلك بالكف عن الشائعات واستعجال الأمور قبل الثبوت منها، والتعامل مع الأحداث بالرجوع لأهل العلم الذين يفهمون النصوص الشرعية ويحافظون على استقرار المجتمعات ويصدرون عن علم وبصيرة، واتباع هذا الطريق والتمسك به حفظاً للمجتمعات من الاختلاف والتنازع والتفرق، وحفظ من سلوك طريق الشيطان وهو اتباع الأهواء واتباع الشائعات والإرجاف بالناس، وذلك من رحمة الله بعباده وفضله عليهم بسلوك طريق الصواب والبعد عما يضرهم.

وقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بالقتال والحرص على الدعوة، وما على الإنسان إلا نفسه ويشجع المؤمنين على نشر الإسلام وقتال أعداء الله، فإذا بذل المسلم وسعه في طريق الحق فإن الله يجعل على يديه نصرة الحق ودحر الباطل، وهو سبحانه يرد كيد الأعداء وهو ذو القوة المتين العزيز القوي الذي لا يعجزه شيء سبحانه، والمسلم مع إخوانه المسلمين يبذل لهم المعونة والشفاعة التي ليس فيها أخذ لحقوق الناس، وفيها جلب النفع لهم، وهذا من أفضل الأعمال، وفي المقابل من كان تعاون على الإثم والعدوان، وأخذ حقوق الناس فإن عليه من الوزر والإثم مثل شفاعته، والله لا يضع عنده عمل عامل، يحفظ أعمال العباد جميعاً، ومن أسباب تألف المسلمين بذل السلام وهو من أسباب المحبة ودخول الجنة وهو من حقوق المسلم على أخيه المسلم، ويجب رده بمثله أو أحسن منه، والله يجزي عباده على السلام الأجر العظيم.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
 وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ
 فِتْنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ
 أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ
 تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
 حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ
 حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴿٨٩﴾
 إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ أَوْ جَاءَكُمْ
 حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَتِّلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
 اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتْلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَتِّلُوكُمْ
 وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴿٩٠﴾
 سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ
 مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أَرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ
 السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُواهُمْ حَيْثُ
 تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾ ﴿٩١﴾

جعل الله للخليقة يوماً يجمعها فيه وهو يوم القيامة، يوم الجزاء والحساب لا شك فيه، ولا ارتياب، ووعد الله حقاً وصدق، لا يخلف الله وعده.

والاختلاف في الأشخاص والمواقف يتكرر في كل زمانٍ، ففي يوم أحد اختلف أصحاب الرسول ﷺ في المنافقين الذين رجعوا عن الجيش فقال بعضهم نَقُتْلُهُمْ، وقال بعضهم هم أظهروا الإسلام، واختلفوا في من أظهر الإسلام بمكة منافقاً ولم يهاجر فجاء القرآن ببيان حالهم وأنهم غير مهتدين ضالين أضلهم الله على علمٍ ولن يهتدوا أبداً، فمن يضل الله فلن تجد له هادياً وليس له طريق للهداية، وأهل النفاق والكفر يودون للمسلمين الضلالة ليستوا هم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم للمسلمين، فنهى المسلمون عن مودتهم ومحبتهم حتى يهاجروا، وهجرة المنافقين بالخروج للجهاد إيماناً واحتساباً، وهجرة من كان بمكة إلى دار الإسلام، فإن تركوا الهجرة، وأظهروا الكفر فحكمهم حكم الكفار، يقتلون في كل مكان وليس لهم في قلوب المسلمين محبة ولا مودة، واستثنى من القتال من كان بين المسلمين وبين قومهم ميثاق وعهد.

وكذلك يستثنى من تخرج من قتل المسلمين وقتال قومه واعتزل القتال، وأما من يريد أن يأمن على نفسه فترك القتال ليس تخرجاً من قتل المسلمين بل خوفاً على نفسه، فقد ترك قتال قومه لأنه يريد الأمان من قومه، وهو مقيم على كفره وضلاله، ومقيم في الفتنة والاختلاف فازداد كفرًا ونفاقًا، وهو مع ذلك لو وجد فرصة لقاتل المسلمين فهذا وأمثاله حكمه إن لم يتضح أمرهم أن يقاتلوا، وقتلهم بأمر الله لاتضح عداوتهم للمؤمنين.

وبهذا نعلم أن منهج الإسلام في التعامل مع من كف نفسه عن المسلمين أنه يكف عنه. ومن طلب المسالمة يجاب إليها، حتى لا تكثر جبهات العداوات ضد المسلمين، وإن الحماس المتدفق من بعض الغيورين لا يدفعهم لاستعجال المواجهة مع العدو المتربص، لأن ذلك يفت في عضد المسلمين ويوهن قوتهم والإسلام لا يستعجل المواجهة مع الأعداء، فكل طريق يدعو لحقن الدماء وتعظيم حرمان الله يجاب إليها الأعداء كما فعل المعصوم ﷺ يوم الحديبية، مع احترام العهود والمواثيق مع غير المسلمين، والوفاء بالعهد.

وإن الواجب عند الاختلاف في الأشخاص والجماعات الرجوع للكتاب والسنة ليكون المرجع للأمة عند التنازع لتستبين الحجة وتقوم المحجة.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ
 مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى
 أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ
 مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
 إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
 فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ
 اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
 مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَتَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَسَّرُوا لَكُمْ لَنْقُولُوا
 لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
 عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
 كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
 فَتَيَسَّرُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

جاءت الشريعة بحفظ النفس وحقن الدماء المعصومة، فليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن إلا خطأ، فمن أخطأ في قتل أخيه المسلم بأن أزهق روحه بدون عمد فعليه الكفارة توبةً من الله وهي تحرير رقبة مؤمنة فإن لم يجد صام شهرين متتابعين، ودية تسلم لأوليائه عوضاً لهم عما فاتهم من قريتهم، إلا إذا عفووا عن الدية، أما إذا كان القاتل مؤمناً، ولكن أوليائه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، حتى لا يستعينون بالمال على المسلمين، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة فإن لم يجد صام شهرين متتابعين.

فإن كان للقاتل أولياء أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وإن كان كافراً فنصف دية المسلم، ويجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين لا يفطر بينهما إلا بعذر يعذر به في رمضان، وهذه الكفارة توبةً من الذنب غير المقصود، والله سبحانه يعلم أعمال العباد وقصدهم وهو سبحانه الحكيم في شرعه وتشريعه.

وأما قتل العمد فذنبٌ عظيمٌ وجرمٌ كبيرٌ، توعد الله من فعله بالعذاب العظيم والجزاء الأليم لما فيه من الوحشية وسفك الدماء المعصومة، فجزاء من فعل ذلك الخلود في النار إلى أمدٍ حتى يمحص فيها ثم يخرج منها إن كان موحدًا، وغضب الله على كل من سفك دم أخيه، وهو مطرودٌ من رحمة الله، ما لم يتب ويستغفر، والقصاص سببٌ للغفران.

ولا فرق في قتل المؤمن حتى ولو نطق بالشهادة في ساحة المعركة، فمن قال لا إله إلا الله وجب الكف عنه، وقد قُتل أسامة رضي الله عنه الرجل بعد أن قال لا إله إلا الله فقال الرسول ﷺ أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله، كيف إذا جاءك لا إله إلا الله تحاجك يوم القيامة، فلا يطمع المسلم بالغنيمة فيقتل من نطق بالشهادة، فما عند الله خير مما رغب فيه الإنسان من عرض الحياة الدنيا الذي حمله على قتل من نطق بالشهادة وأظهر الإيمان.

وليتذكر الإنسان أنه كان على مثل هذه الحال من الضلال فمنَّ الله عليه بالهداية، فعليه التبين والتثبت في جميع الأمور حتى لا يتهم الأبرياء ويقدم على أمر يندم عليه، وهي وصية للتثبت والتبين في جميع الأمور وترك العجلة والاندفاع، فالعجلة من الشيطان والتأني من الرحمن، وبالأخص بما يتعلق بالآخرين وما يتعلق في أمر الدماء أشد وأعظم، أو إطلاق الكفر أو حكم الردة على أحد من المسلمين.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ
 الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
 وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ
 ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
 قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ
 جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
 وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
 فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا ﴿٩٩﴾
 وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسِعَةً
 وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ
 فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَيْتُمْ
 فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ
 أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

الجهاد أنواعٌ متعددةٌ فمن لم يأخذ بأحد أنواعه فهو من القاعدين، الذين لم يبذلوا جهداً ولم يجاهدوا بأستهم وأقلامهم وأموالهم وأنفسهم، ولم يجاهدوا أنفسهم على عمل الخير، فلا يستوي عند الله المجاهد والقاعد غير أصحاب الأعدار الذين عذرهم الله، فقد حاز الفضل والأجر الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في ساحات الجهاد الحسية والمعنوية فمنهم المجاهد بالسيف ومنهم المجاهد باللسان والقلم والبيان، ولكل من المجاهدين والقاعدين الأجر والثواب مع التفاوت وكلهم وعدهم الله الجنة ويدل هذا على أن الجهاد ليس فرض عين وإنما فرض كفاية وقد يكون مستحباً حسب الأحوال.

وتفضيل الله للمجاهدين بالدرجات، في غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وحلول الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً، ورحمة منه ورضواناً.

وقد يظلم المسلم نفسه بترك ما أمر به من الطاعة وأعظم الظلم أن يشرك بالله، ثم يكون على حسب المعصية، ومن ذلك ترك الهجرة وإظهار الدين والعمل بشرائع الإسلام وإقامتها، ولذلك أوجب الله الهجرة على القادرين وعفا عن المستضعفين، الذين حبسهم العدو، أو الأطفال والنساء الذين لا يقدرّون على الهجرة وحدهم، فالله يغفر لهم ويعفو عنهم

ومن يخرج مهاجراً إلى الله ورسوله فسيجد الأرض التي يتحصن بها من عدوه ويجد فيها المنعة والعز والتمكين، وسيجد الرزق والسعة والطمأنينة، ويثبت أجره بخروجه وإن لم يصل لأرض مهاجرة، فمن مات في الطريق فهو من المهاجرين.

والخروج من الأوطان للسفر له أحكام تخصه في الشريعة من قصر الصلاة والجمع والإفطار والمسح ثلاثة أيام بلياليها، فالقصر يشمل كيفية الصلاة في قصر القراءة والتسبيح والأذكار وقصر الكمية في الرباعية، ويترخص بهذه الرخصة من صح أن يطلق عليه اسم المسافر، وهو من فارق بلده قاصداً مكاناً يطلق عليه بالعرف سفرًا، ولم يكن ينوي إقامة أكثر من أربعة أيام غير يوم الذهاب والمجيء، ومن جاز له القصر جاز له الجمع والإفطار والمسح ثلاثة أيام بلياليها، وكان الغالب في أسفارهم الخوف ثم لما أمنوا لم يزل الرسول ﷺ يقصر وقال: (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته)، ولذلك كان القصر في السفر أفضل من الإتمام، وعلى المسلم أن لا يدفعه الهوى والعجز أن يعد كل نزهة سفرًا يترخص بقصر الصلاة فيه، ويرخص السفر الأخرى، وليحتاط لدينه وأعظم الدين الصلاة.

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً
مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا
مِّنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا
فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ
وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قُضِيَّتُمُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ
كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا
فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ
النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

الصلاة عمود الدين لا تسقط بأي حال من الأحوال ما دام العقل باقياً، وصلاة الجماعة واجبة حتى في حال الخوف، فشرعت صلاة الخوف مع النقص في العدد والأركان للمحافظة على صلاة الجماعة، وتختلف صفة صلاة الخوف بحسب موقع العدو، ودرجة الخوف، ونوع الصلاة، وقد لا يقدرّون على الصلاة فيأخرونها عن وقتها كما صلى النبي ﷺ العصر يوم الخندق بعد غروب الشمس، وكما صلى الصبحابة الفجر بعد شروق الشمس في فتح تُسْتَر، ومن صفاتها انقسام الجيش إلى فرقتين فرقة تصلي مع القائد، وفرقة تحرس فيصلّي بهم ركعة واحدة ثم يثبت لتتقضي الفرقة الأولى ركعة ثم تنصرف فتأتي الفرقة الثانية فيصلّي بهم ركعة ثم ينصرف وتقضي ركعة، وهم مع ذلك يحملون أسلحتهم في الصلاة أخذاً للحيلة من هجوم الكفار عليهم، فإن كان يشق عليهم حمل السلاح لطر أو مرض فلا جناح عليهم في تركهم لسلاحهم مع أخذ الحيلة من الكفار، وبعد صلاتهم يكثرون من ذكر الله في جميع أحوالهم لأن من أسباب النصر والقوة كثرة ذكر الله، فإذا ذهب الخوف وحصلت الطمأنينة فالمشروع إقامة الصلاة كما أمر الله بحدودها، وخشوعها، وسجودها وركوعها، وجميع شئونها، فالصلاة يلزم الاتيان بشروطها وواجباتها ومن شروطها دخول الوقت، فلا يجوز الصلاة قبل وقتها ولا بعد وقتها إلا لمن نوى الجمع، والوقت أهم شروط الصلاة، فعلى المسلم المحافظة عليه فلا يتساهل في الجمع ولا بالتأخير والنوم عن الصلاة حتى يخرج وقتها.

والواجب الصبر على الطاعات، ومن ذلك الصبر في قتال الأعداء، فلا يضعف المسلم في طلب العدو فإن ما يحصل له من المشقة والألم، يصاب به الأعداء، ولكنهم لا يرجون من الله ما يرجوه المسلم من الأجر والثواب، والنصر والتأييد، فالمسلمون أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلانها، والله يعلم بالنيات، حكيم بما يقدره ويقضيه من حصول المشقة للمؤمنين ليضعاف لهم الأجور.

وقد أنزل الله كتابه العزيز ليكون دستوراً للمسلمين، يتحاكمون إليه في جميع شئونهم وأحوالهم، ويتحاكمون إلى سنة النبي ﷺ، ومن كان خائناً لدينه وأمته، ولأمانته فلا يدافع عنه بل له العذاب والجزاء في الدنيا لخيانته وغدره.

وقد نهى النبي ﷺ عن الدفاع عن الخائنين والأمر لأمته من بعده، لأن الخيانة بثست البطانة، والخائن مرتكب لذنوب عظيم قد تشبه بالمنافقين.

وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَجِدَلْ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ
سُوءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ
شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

الاستغفار عبادة عظيمة تمحو الذنوب والآثام، وتفرج الكربات، وتزيد في الرزق والولد وتزيل الهم والغم، فليكثر المسلم من الاستغفار فإن الله يغفر الذنوب جميعاً، يرحم عباده ويدخلهم في رحمته، ورحمته سبحانه بالمؤمنين الصادقين، ولا يرحم الله إلا من كان رحيماً، ولا يرحم إلا من يستحق الرحمة، أما الخائن الظالم فلا يدافع عنه ولا يرحم بل يلقى عقوبته التي حددت شرعاً، فليس لأحد أن يدافع عن الخائنين الظالمين، فيبرر أعمالهم أو يدفع عنهم العقوبات، ومن صفات الخائنين أنهم يعظمون نظر المخلوق ومراقبته أعظم من الله، فيعملون أعمالاً بعيداً عن عين الخلق في ظلمة الليل ظناً منهم أنه لا يراهم أحد وما علموا أن الله معهم بعلمه واطلاعه عليهم، فهو سبحانه محيط بعلمه بجميع المخلوقات لا تخفى عليه خافية، ولئن دافع عنهم أحد في الدنيا وبرأهم من الذنب ودفع عنهم الفضيحة والعقوبة، فمن سيدافع عنهم في الآخرة حين تشهد عليهم جوارحهم، ومن الذي سيكون وكيلاً عنهم، والله سبحانه يقبل توبة التائب النادم على الذنب العازم على ألا يعود، فيغفر ذنبه ويمحو عنه إثمه، وإذا صدقت توبته بدل الله سيئاته حسنات، فالله يفرح بتوبة عبده، وكل صاحب ذنب إنما إثمه على نفسه إلا إذا كان قدوة للآخرين في معاصيه فعليه أوزار من تبعه، وإذا أعلن معاصيه ولم ينكر عليه نزلت العقوبة على الجميع، ومن عمل ذنباً فاتهم غيره به فقد تحمل الكذب والبهتان والإثم العظيم

والواجب عدم التسرع في اتهام الآخرين والانسحاق وراء الإشاعات المضللة، فعلى كل مسلم التأني وعدم العجلة حتى لا يضل الآخرين في اتهام بريء وتبرئة خائن كاذب، وهذا توجيه للنبي ﷺ ولأئمة من بعده لما طلب منه قوم أن يبرئ صاحبهم من السرقة وقد أخذوا المال المسروق ووضعوه في بيت رجل بريء، فنزلت الآيات مبينة حقيقة الأمر.

فإذا كان هذا هو النبي الذي أنزل الله عليه القرآن وتكلم بالسنة وعلمه الله ما لم يعلمه غيره وفضله بالمكانة والنبوة والرسالة، فكيف بغيره من آحاد الناس فالواجب الحذر وعدم التعجل في الاتهامات ولا التزكيات، وفي هذا درس للأئمة من التسرع في إطلاق الأحكام والألقاب، دون تثبت ولا دليل، ودرس آخر أن يفكر المسلم بعقله لا بعقل غيره وعليه بالنظر والتفكير بالعواقب ولا يكن إمعة ينساق وراء كل دعاية، وعلى كل مسلم أن يخاف الله ولا يتهم المسلمين بلا دليل وعليه بإحسان الظن والبحث عن المعاذير فهو بذلك يسلم من الإضرار بنفسه لأن من اتهم الآخرين يضر نفسه قبل أن يضر غيره

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
 أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ
 ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝۱۱۴ وَمَن
 يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
 سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
 مَصِيرًا ۝۱۱۵ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
 ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا
 ۝۱۱۶ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ
 إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ۝۱۱۷ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ
 مِّنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝۱۱۸ وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا أُمْنِيَّتَهُمْ
 وَلَا مَرَاتَهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَئَهُمْ
 فَلْيُغَيِّرُوا خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا
 مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝۱۱۹
 يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝۱۲۰
 أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝۱۲۱

مجالس الناس ومنتدياتهم في الغالب لا تخلو من تعاون على الإثم والعدوان، فيتحدثون بها لا فائدة فيه من فضول الكلام، والبعض منهم قد يشتمل حديثهم على محرم من غيبة أو نميمة أو سخرية إلا من رحم الله ممن يحث على الصدقة والإحسان وتعليم العلم والذكر والتسبيح والتلهيل وقراءة القرآن أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو إصلاح بين متخاصمين، وتقريب القلوب وإزالة ما في النفوس من الشحنا والبغضاء، فلا يتكلمون إلا في حق، فهؤلاء إذا صحت نيتهم وقصدوا بهذا العمل وجه الله والدار الآخرة فلهم الأجر والثواب الكثير العظيم في الآخرة، ومن الناس صنف آخر لا يريد الاجتماع والتألف ولا يريد سلوك طريق المؤمنين ولا اتباع الرسول ﷺ، ولا سلوك طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فهو في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح، ويخالف ما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضُمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشریفاً لهم وتعظيماً لنبيهم ﷺ، فإن جزأؤه في الدنيا أن يحسن له باطله استدراجاً له، فيزين له سوء عمله فيراه حسناً عقوبة معجلة له، وهو في الآخرة من الخاسرين فالنار مصيره؛ لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، ومن كانت النار مصيره فساء مصيره، ومن مخالفة منهج الرسول والشذوذ عن طريق المؤمنين الشرك بالله، فإن الشرك محبط للأعمال موجب للخلود في النار، وقد حرم الله الجنة على المشركين، والشرك أعظم الذنوب لا يغفره الله أبداً، ويغفر ما سواه من الذنوب رحمة منه وفضلاً، وأعظم الضلال الإشراف بالله فكيف تجعل الله ندّاً وهو خالقك وأوجدك ورباك بنعمه سبحانه فهو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له، فالمشركون يدعون الأوثان التي سميت بأسماء الإناث، وهم يعبدون الشيطان بأفعالهم، فهو الذي ترمد على طاعة الله فطرده الله عن رحمته، فحمل على نفسه إغواء بني آدم ففي كل ألف تسعائة وتسعة وتسعون نصيباً له يغيوهم، ويضلهم بالأمانى والوعود الكاذبة، ويأمرهم بتغيير دين الله وتغيير ماخلقه في الحيوانات والإنسان فيعملون ما حرمه الله من النمص والوصل وحلق اللحى وتوفير الشوارب.

ومن كان الشيطان وليه وإمامه فهو الخاسر في الدنيا والآخرة لأنه يقود إلى النار والعباد بالله، فهو يبعده ويمنيه مما يوقع في قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا، وقد يكون بالتخويف بالفقر فيمنعه من الإنفاق وصلة الرحم، وما وعدّ الشيطان إلا كذب يغربه أوليائه ويتبرأ يوم القيامة منه فيقول وعدتكم فأخلفتكم، ويوم القيامة يشتركون معه في العذاب الشديد لا يجدون منه مفرّاً ولا مهرباً.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ
الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضَعَفِينَ مِنَ الْوُلَدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

وعد الله عباده المؤمنين بالجزاء والثواب الجزيل، وعدهم بدخول الجنة التي تجري من تحتها الأنهار، يخلدون فيها أبداً الآباد، ولا يتحولون عنها وعداً من الله حقاً ولا أصدق من وعد الله، فلا أصدق منه قولاً وخبراً، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

ولا ينال هذا الجزاء والثواب إلا بالإيمان والعمل الصالح وليس بالأمانى، ومن يعمل سيئة يجازى بها، والمؤمن يعرض له البلاء فيكفر عنه السيئات، وليس للعصاة ولي، ولا نصير يدفع عنهم العقوبة، إلا أن يتوبوا، أما المؤمن الذي يعمل الصالحات فله الجزاء الأوفى، وله النعيم المقيم في الجنة ولا ينقص من أعمالهم مثقال ذرة، وهي أقل من النقيير وهي النقرة التي في ظهر نواة التمرة، فلا يوجد أحسن منهجاً من أخلص العمل لربه ﷻ، فعمل إيماناً واحتساباً واتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، بأن يكون العمل خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متبعاً للشرعية فيصح ظاهره بالمطابقة، وباطنه بالإخلاص، فمن فقد العمل بأحد هذين الشرطين فسد عمله، فمن فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المطابقة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعها فهو عمل المؤمنين، وهو متبع للتوحيد في كل شيء أخذ بملة إبراهيم وهي الخنيفية، وهي الميل عن الشرك إلى التوحيد، فإبراهيم إمام الخنفاء اتخذ الله خليلاً، واتخذ الله محمداً ﷺ خليلاً،

وجميع المخلوقات ملك لله وعبده، وهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته، وعلمه نافذ في جميع ذلك، لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

ومن رحمته سبحانه وصيته لعباده في النساء في أداء حقوقهن والمحافظة على شعورهن، وبالأخص اليتيمة التي يكفلها الرجل ويرغب في نكاحها، فأباح نكاحها مع إعطائها كامل حقوقها من المهر وسائر الحقوق.

ولا يجوز حبسها عن الزواج بالآخرين حتى يرثها إذا ماتت، ويجب الإحسان إلى سائر الأيتام من الأطفال وغيرهم ويقام على كفالتهم بالعدل، ولا يجوز حرمانهم من الإرث، بل يحافظ على أموالهم، وأكل مال اليتيم من الموبات، والله ﷻ عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه.

وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

الإسلام أوجب على الزوج حقوقاً لزوجته، وأوجب له حقوقاً على زوجته وعلى كلا الزوجين القيام بهذه الحقوق، وقد يحصل الخلاف بينهما، فعليهما أن يحرضا على بقاء الحياة الزوجية ولو كان في ذلك تنازل عن بعض الحقوق الواجبة لتستمر العشرة وتدوم الألفة والمحبة، وعلى المرأة إذا رأت من زوجها علامات الإعراض عنها، أن تقابل ذلك بالصلح وتقديم ما يزيل ذلك الإعراض، وعليها ألا تشح في استكمال حقوقها على زوجها رغبة في استمرار الحياة الزوجية، ومن تمام التقوى وكمال الإحسان أن يصبر الزوج في أداء حقوق زوجته ولو كره منها أمراً أو خلقاً حفاظاً للعقد وحسناً للعهد، وعلى الزوج إذا تزوج بامرأة أخرى العدل، ويحرم عليه الحيف والميل في القسم في المبيت والنفقة والسكنى، وعليه أن يراقب الله فلا يدفعه ميل قلبه أن يميل بفعله وقوله، وعليه أن يحسن لزوجته وأن يصبر على غيرها، وأن يراعي طبائع النساء كما كان سيد الخلق ﷺ يفعل، ويحرم عليه أن يسلبها حقوقها فيدعها معلقة ليست مطلقة ولا ذات زوج، ومن حرص على العدل واجتهد وبذل وسعه واتقى الله في نسائه وعمل بما فيه صلاح معيشتهم وحالهم فإن الله يغفر له ما يقع من النقص والتقصير غير المتعمد، وإن حصل الفراق بين الزوج والزوجة فإن الله يكتب للمرأة الغنى والسعة ويبدلها حالاً خيراً من الحالة الأولى، وكذا الزوج يفتح الله له من الحياة خيراً، وعلى المرأة المطلقة أن تحسن الظن برها وأن الله سيجعل لها بعد العسر يسراً، فلا تبتسببها وقع لها وعسى أن تكره ذلك الأمر ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، والله واسع العطاء يهب الحياة الطيبة لعباده وهو الحكيم بشرعه، شرع الطلاق لحكم عديدة قد تحفى على عباده وهو سبحانه الحكيم الخبير، وهو سبحانه مالك الملك له ما في السماوات والأرض فالعباد جميعاً تحت حكمه وملكه، فعليهم التزام وصيته وهي تقوى الله في السر والعلن وهي وصيته للأولين والآخرين من عباده، ومن أعرض وجحد واستكبر فلن يخرج من ملك الله ولا قضائه وقدره والله غني عن جميع خلقه، محمود في جميع ما يقدره ويشرعه، فأين يذهب العباد والسماوات والأرض ملك لله، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء، وهو قادر على إذهاب الناس وتبديلهم بغيرهم إذا عصوه، فما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره، وهو القادر على ذلك جل وعلا، وما ذلك على الله بمتع.

فيا أيها الذي ليس له همٌّ إلا الدنيا، عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألت من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأثارتك، فلا يقتصر قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همتهم سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو، قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس، وعدل بينهم فيما علمه فيهم، ممن يستحق هذا، وممن يستحق هذا، فهو السميع البصير، على ما يليق بجلال الله وعظمته.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ
 وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا
 أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ
 تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَأَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَلْكِتَبِ الَّذِي نَزَّلَ
 عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَلْكِتَبِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ
 بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
 ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا
 ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
 سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ
 يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتَ
 عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
 الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
 تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ
 إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

العدل قامت عليه السماوات والأرض، فبالعدل تستقيم أحوال الناس، فالمؤمنون قائمون بالعدل، فلا يعدلون عنه يمينًا ولا شمالًا ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، يتعاونون ويتعاضدون ويتناصرون في إقامة العدل، ومن العدل القيام بالشهادة وأداؤها ابتغاء وجه الله، ولو عاد ضررها على الإنسان، والمؤمن يقول الحق ولو كان مضرًا عليه، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه، وإن كانت الشهادة على الوالدين أو القرابة، فلا تراعيهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد، ولا يراعى في الشهادة غنى لغناه، ولا يشفق على فقير لفقره، فالله يتولاها، وهو أولى بها، وأعلم بما فيه صلاحها، فلا يحمل الإنسان الهوى والعصبية وبغض الناس، على ترك العدل، بل يلزم العدل على أي حال كان، ولا يحرف الشهادة ويغيرها، ويتعمد الكذب فيها أو يكتم الشهادة ويتركها، فمن فعل ذلك فإن الله عليم بما في قلبه وسيجزيه على سوء عمله، ومن العدل أن يسعى المسلم إلى استكمال جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وهو من تكميل الكامل وتقريره وتثبيتته والاستمرار عليه.

ومن العدل الإيمان بالله ورسوله وهي الشهادتين، الإيمان بانفراد الله بالألوهية، فلا معبود بحق إلا الله، والإيمان بالرسول ﷺ وأنه رسول الله حقًا بعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، والإيمان بالقرآن والكتب التي أنزلت من قبل كالتوراة، والإنجيل، والزبور، ومن يحدد هذه الأركان فهو في ضلال وخرج عن طريق الحق

ومن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله، وازداد حتى مات، فإنه لا توبة له، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا، ولا طريقًا إلى الهدى؛ والمنافقون من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطبع على قلوبهم، ويتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم إننا نحن معكم، إننا نحن مستهزون، ينتغون العزة والمكانة من الكافرين وما علموا أن العزة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له.

والواجب على المسلم أن يطلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

فعل المسلم اجتناب المجالس التي يعلن فيها الكفر والاستهزاء بالإسلام وأهله والبعد عن مواطن الشبه التي تثار ضد الإسلام، وعدم سماع شبه المبطلين وعقائدهم لأنها تورث في القلب الفتنة والشبه، فإن المنافقين والكفار مأوهم النار، فكما شاركهم في الكفر، شارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبدًا، وجمع بينهم في دار العقوبة والنكال، والقيود والأغلال.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ
نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى
الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ
أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

المنافقون يترصبون بالمؤمنين دوائر السوء، وينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفر عليهم، وذهاب ملتهم فإذا كان للمسلمين نصر وتأييد وظفر وغنيمة قالوا نحن معكم، يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة، وإذا انتصر الكفار على المؤمنين في بعض الأحيان، كما وقع يوم أحد، قالوا نحن ساعدناكم في الباطن، وخذلنا المسلمين حتى انتصرتم عليهم، فهم يصنعون هؤلاء وهؤلاء؛ ليحفظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، وقلة يقينهم، ويوم القيامة لا تنفعهم ظواهرهم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويُحصّل ما في الصدور.

ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، فلا يُسلطون عليهم بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، فلا يغتر المنافقون فيها أملوه وتربصوه وانتظروه، من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، وفي ذلك بشارة لأهل الإيثار بأن الله ناصرهم مهما استأسد الكفر وطغى، فإن الغلبة للمؤمنين.

والمنافقون يظنون أنهم لما خدعوا الناس أنهم يخادعون الله لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم، يعتقدون أنهم كما خدعوا الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك يكون حكمهم يوم القيامة عند الله، وأن أمرهم سيخفى على الله، والله تعالى لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، وما علموا أن الله يستدرجهم في طغيانهم وصلاحهم، ويخذهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك في يوم القيامة. وهم يؤدون صلاتهم بكسل وتناقل، فإذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيماناً لهم بها، ولا خشية، ولا يعقلون معناها، ولا يخلصون في أدائها، إنما يشهدون الصلاة مع الناس تقية من الناس ومصانعة لهم، وهم في صلاتهم لا يحشعون، ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون.

وهم حاثرون بين الإيثار والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى المسلمين، وتارة يميل إلى اليهود والمشركين قد أضلهم الله عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، والمؤمن لا يتصف بصفات المنافقين من مودة الكافرين واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين، فيصاحبهم ويصادقهم ويسر بالمودة إليهم، ويفشي -أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، فمن فعل ذلك حلت عليه العقوبة من الله، فالمنافقون في أسفل النار جزاء على كفرهم وعنادهم، ليس لهم من ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب إلا من تاب وبَدَّلَ الرياء بالإخلاص، فينفعه العمل الصالح وإن قل، فهم مع المؤمنين في الثواب والنعيم، والله لا يعذب عباده إلا بسبب ذنوبهم فإذا آمنوا وأخلصوا ورجعوا إلى ربهم شكر الله لهم أعمالهم، فمن شكر شكر الله له، ومن آمن قلبه بالله علمه الله، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء.

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ
 اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ
 سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
 بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
 وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
 أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ
 حَقًّا وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
 بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ
 يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ
 أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمُ كِتَابٌ مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا
 مُوسَىٰ أَكْبَرَهُمْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
 الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
 الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
 وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
 وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

الجهر بالسوء والكلام الرديء محرم، والكلام في أعراض الناس من سيء القول والعمل، لا يحبه الله ولا يرضاه، فلا يدعو أحد على أحد، ولا يظلم أحد أحدًا، إلا من ظلم فإن الله أباح له الكلام بقدر مظلمته، والله يسمع كلام عباده على ما يليق بجلال الله وعظمته، ويعلم ما تكنه صدورهم فلا تخفى عليه خافية، فمن أظهر خيرًا، أو أخفاه، أو عفا عن أساء إليه، فإن ذلك مما يقرب إلى الله ويجزل الثواب لديه، فإن من صفاته تعالى أنه يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم.

والإيمان بالرسل من أركان الإيمان، فمن كفر بنبي من الأنبياء، فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًا، إنما هو عن هوى وعصبية، فاليهود آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمدًا عليها الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له: زرادشت، ثم كفروا بشرعه، فرفع من بين أظهرهم، فهؤلاء كفار ولو ادعوا الإيمان برسول من الرسل، فكفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به؛ لأنه ليس إيمانًا شرعيًا، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلًا وأقوى برهانًا منه، فلهم العذاب المهين لاستهانتهم بأنبياء الله وخاتمهم صلى الله عليهم وسلم، فقد كفروا به بعد علمهم بنبوته، كما كان فعله كثير من أبحار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة، وخالفوه وكذبوه وعادوه وقتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدينيي الموصول بالذل الأخروي، أما المؤمنون من أمة محمد ﷺ فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزل الله وبكل نبي بعثه الله، فكان جزاؤهم أن أعد الله لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، على ما آمنوا بالله ورسله ويغفر للمذنبين منهم ويرحمهم، أما أهل الكتاب المتعنتين فقد سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة، سألوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سألوا موسى ﷺ أعظم من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة نراه بعيوننا فأهلكهم الله بالصواعق التي تحرقهم بسبب طغيانهم وعتوهم، وعبدوا العجل بعد ذلك وكفروا بربهم من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى ﷺ في بلاد مصر، وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليم، وعفا الله عنهم بعد ذلك وأعطى موسى ﷺ حجة بينة من المعجزات، وهي الآيات التسع، وامتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء وعناد عما جاءهم به موسى ﷺ، فرفع الله على رؤوسهم جبالًا ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم، وأمر أن يدخلوا باب بيت القدس سجدًا، وهم يقولون اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون حنطة في شعيرة، فخالقوا ما أمروا به من القول والفعل، ووصاهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم، ما دام مشروغًا لهم وأخذ منهم عهدًا شديداً، فخالقوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب مناهي الله ﷻ.

فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بِثَايَتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ
 بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
 فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥ وَيَكُفِّرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ
 بُهْتَنَّا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
 رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
 اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ
 وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
 ۝١٥٨ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
 الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩ فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا
 حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيتِ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 كَثِيرًا ۝١٦٠ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ
 بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١ لَكِنْ
 الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
 أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
 وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٦٢

اليهود هم من أكذب الأمم فقد سبقت منهم الجرائم العظيمة، قبل تكذيبهم رسول الله ﷺ، من نقض العهود والمواثيق وكفرهم بالأنبياء وبآيات المنزلة واعتدائهم على الأنبياء بالقتل والإيذاء، وردهم الحق لأن قلوبهم لا تفقه ما يدعون إليه من الحق، واتهامهم مريم بالزنا، وادعائهم صلب المسيح عيسى بن مريم، كل ذلك لأن الله طبع على قلوبهم وختم عليها فلا تعرف الحق ولا تقبله.

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وما علموا أنهم لم يقتلوا المسيح ولم يصلبوه بل رفعه الله إلى السماء، وألقي شبهه بالذي دهم عليه، وسينزل آخر الزمان ويدين بدين الإسلام، وسيؤمن به بعض أهل الكتاب وسيكون شهيداً يوم القيامة على من كفر وجحد، وبالأعمال التي شاهدتها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض.

وقد حرم الله الطيبات عليهم بسبب ظلمهم بها ارتكبوها من الذنوب العظيمة، وبصد الناس وصد أنفسهم عن اتباع الحق، وبتعاملهم بالربا وقد نهاهم الله عنه فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، فحرمت عليهم الطيبات في الدنيا، وهم في الآخرة العذاب الأليم، لكن العلماء منهم الثابتون في الدين الذين رسخت أقدامهم في العلم النافع، والمؤمنون يؤمنون برسالة النبي ﷺ وقيمون الصلاة ويزكون أموالهم، وأنفسهم ويصدقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، فلهم الجزاء العظيم والأجر الكثير، والجنة.

ويتوجب على المسلم اجتناب صفات اليهود من الظلم والبغي وإيذاء الصالحين أتباع الأنبياء، وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل، وعلى المسلم الحذر من مشابهة أهل الكتاب في أعمالهم وأقوالهم وعقائدهم، وظواهرهم وبواطنهم، وعلى المسلم الاستعداد ليوم المعاد والإيمان بما يكون فيه من الأحوال والأهوال، وما يسبق يوم القيامة من علامات الساعة الكبرى ومنها: نزول المسيح عيسى بن مريم حكماً عدلاً يقتل الدجال ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

والاهتمام بإقامة فريضة الصلاة والمحافظة عليها جماعة مع المسلمين، وهي الفارقة بين الإسلام والكفر، وتزكية النفوس بالطاعة والعبادة، وأداء حق الله في المال، وهو الزكاة طيبة بها النفس من غير منٍّ، ولا بخل.



﴿١٦٣﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ
 وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
 وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٤﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ
 مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
 تَكْلِيمًا ﴿١٦٥﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
 لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
 ﴿١٦٦﴾ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
 وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا
 ﴿١٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
 لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٩﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧٠﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ
 الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَغَامُؤْا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا
 فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

لقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، مبشرين بالتوحيد ومنذرين من الشرك، وأول الأنبياء آدم، وأول الرسل نوح عليه السلام، والنبي: هو الذي أوحى إليه ولم يعث بشريعة، والرسول: من أوحى إليه بشريعة مستقلة.

والرسل الذين ذكروا في القرآن، هم: آدم وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، وإليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد اختصوا بمكارم وفضائل، منهم موسى عليه السلام اختص بتكليم الله له، واختصاص موسى بذلك لأنها هي المنقبة العظيمة له، وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد كلمه الله، ولكن فضائله لا حصر لها ولم تختص بالكلام، وكلام الله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تكيف ولا تعطيل ولا تمثيل.

وهؤلاء الرسل أرسلهم الله بالشارة بالتوحيد وتحقيق العبودية لله تبارك وتعالى، والندارة من الشرك والتحذير منه، ليقم الله بهم الحجة على عباده، فليس أحد أحب إليه العذر من الله ولذلك أرسل الرسل، ومن لم تبلغه دعوة نبي ولا رسول، يكون حكمهم كحكم أهل الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم يمتحنون يوم القيامة.

ومن كفر بنبو محمد صلى الله عليه وسلم فالله يشهد بأن محمداً رسوله الذي أنزل عليه القرآن العظيم الذي أنزل فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، إلا أن يُعلمه الله به، والملائكة يشهدون بصدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وبوحي الله إليه، مع شهادة الله تعالى له بذلك.

والذين كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والاقتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبعُدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً، فلا يغفر لهم ولا يهديهم سبيل الخير، وإنما مصيرهم النار خالدين فيها أبد الآباد، فعلى الناس أن يؤمنوا بما جاء به محمد صلوات الله وسلامه عليه من الهدى ودين الحق، والبيان الشافي من الله تعالى فيؤمنون بما جاءهم به ويتبعونه فذلك خيرٌ لهم، وإن كفروا فإن الله غني عنهم وعن إيمانهم، ولا يتضرر بكفرهم، فله ملك السماوات والأرض وهو العليم بعباده الحكيم بقضائه وقدره وحكمه.

يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
 عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
 اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
 وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ^ع أَنْتَهُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ
 وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ
 الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
 وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ
 إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ
 اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
 يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ
 قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾
 فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ
 فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

حرم الله الغلو في الدين ونهى عباده عن الغلو، ونهى أهل الكتاب من النصارى عن الغلو والإطراء، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشباعه ممن زعم أنه على دينه، فادَّعَوْا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقًّا أو باطلًا أو ضلالًا أو رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا. والمسيح عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له: كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، فقد خلَّقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل ﷺ إلى مريم، فنفع فيها من روحه بإذن ربه ﷻ، فكان عيسى بإذن الله ﷻ وصارت تلك النفخة التي نفخها في جَيْبِ درعها، والجميع مخلوق لله ﷻ، وليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله، فالواجب الإيذان بأن الله واحد أحد، لا صاحبة له ولا ولد، وأن عيسى عبد الله ورسوله والواجب إفراد الله بالعبادة، وأن لا يجعلوا عيسى وأمّه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

فالخير لهم الانتهاء عن التثليث والإيمان بالتوحيد تقدس الله عما يقولون، فالجميع ملكه وخلقته، وجميع ما في الأرض عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ ولن يستكبر المسيح عن عبوديته لله، ولا الملائكة ولا جميع الخلق، فالجميع سيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، الذي لا يجر فيه ولا يحيف، فالمؤمنون يعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه، ويدخلهم الجنة. وأما الذين امتنعوا عن طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك فلهم العذاب الأليم يوم القيامة يذلون ويخزون في العذاب المهين لاستكبارهم على عبادة ربهم جل وعلا.

والخير والفضل بما أنزله على محمد ﷺ من البرهان العظيم، دليل قاطع للعُدْر، وحجة مزيلة للشبهة، وضياء واضح على الحق، وهو القرآن العظيم.

فالذين جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، واعتصموا بالقرآن، فسيرهم الله فدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابًا ومضاعفة ورفعة في درجاتهم، من فضله عليهم وإحسانه إليهم، ويدلهم ويوفقهم طريقًا واضحًا قَصْدًا قَوَامًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والأعمال، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَكًا
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ
وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ
الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ
وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ
الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضُلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

قسم الله الموارث وأعطى كل ذي حق حقه، وسئل رسول الله صلى عليه وسلم عن الرجل يموت وليس له ولد ولا والد، وهي (الكلالة) وهي مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه؛ فجاء الجواب بأن من مات وليس له ولد ولا والد وله أخت شقيقة أو لأب فإنها ترث النصف إلا أن تشاركها أخت أخرى، أو يوجد معصب لها وهو الأخ الشقيق أو لأب، والأخ يرث جميع ما لها إذا ماتت كلاله، وليس لها ولد ولا والد، فإن كانتا اثنتين ففرضهما الثلثان، وكذا ما زاد على اثنتين في حكمهما، وإن وجد لمن معصب أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين، يفرض الله لعباده فرائضه، ويحد لهم حدوده، ويوضح لهم شرائعه، لئلا يضلوا عن الحق بعد البيان، وهو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من التوفى.

سورة المائدة

وهي سورة مدنية، سميت بذلك لذكر المائدة التي أنزلها الله على بني إسرائيل

أمر الله بالوفاء بالعهود بجميع أنواعها، عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين، والوفاء من أوجب الواجبات لما في ذلك من الأمانة والحياة الطيبة المطمئنة، فقد أحل الطيبات لعباده رحمة بهم وإحساناً إليهم ومن ذلك بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم، واستثنى ما حرمه الله من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما لم يذكر اسم الله عليه، وحرم على المحرم وهو ناول الحج أو العمرة الصيد للحيوانات المتوحشة، فإن الله قد حكم بهذا وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه، وعلى العباد تعظيم شعائر الله، وشعائر الله محارمه فلا يحلون محارم الله التي حرمها تعالى، ومن المحارم تحريم الشهر الحرام والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه، من الابتداء بالقتال وتأكيده اجتناب المحارم، ومن تعظيم شعائر الله الإهداء إلى البيت الحرام من بهيمة الأنعام، فإنها من تعظيم الحرم، والسنة تقليدها في أعناقها لتمييز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، ومن تعظيم شعائر الله عدم استحلال قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذي من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالبا فضل الله وراغباً في رضوانه، فلا يصد ولا يمنع، ومن تعظيم شعائر الله تحريم صيد الحرم وتحريم الصيد حال الإحرام، وإذا فرغ المحرم من الإحرام وحل منه، فقد أبيع له ما كان محرماً عليه في حال الإحرام من الصيد، وعلى المسلم العدل فلا يحمله بغض قوم أن يعتدي عليهم بغير حق ومن ذلك: لما صد المشركون المسلمين عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، نهوا عن أن يعتدوا في حكم الله فيقتصون منهم ظُلماً وعدواناً، بل أمروا بالحكم بما أمرهم الله به من العدل في كل أحد، والواجب على المؤمنين التعاون على البر وهو فعل الخيرات والتعاون على التقوى وهي ترك المنكرات، ويتناهون عن التناصر على الباطل، والتعاون على المأثم والمحارم.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ
 بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
 السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْقَسُوا
 بِلَا أَرْزَامٍ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ
 فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ
 عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي
 مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾
 يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم
 مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ
 عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
 ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ
 لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ
 مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
 مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ
 بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

حرم الله المحرمات على العباد لحكم عظيمة، فمن هذه المحرمات الميتة وهي: ما مات من الحيوان حَتَفَ أنفه، من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين وللبدن فلهذا حرمها الله ﷻ، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، وحرم الدَّمُ المسفوح؛ لما فيه من الجراثيم ولنجاسته، وحرم لحم الخنزير إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، لأنه مستقذر تعافه الفطرة، وتضرر به الأجسام، وما ذبح فذكر عليه اسم غير الله، فهو حرام؛ لأن الله أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عُذِلَ بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع، والمُتَخَيِّقَةُ: وهي التي تموت بالخنق إما قصداً أو اتفاقاً، فهي حرام، والمُؤَفَّوْدَةُ: وهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، والمُتَرَدِّدَةُ: وهي التي تقع من شاطئ أو موضع عال فتسقط بذلك، فلا تحل، والنطيخة: وهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ: وهي التي عدا عليها أسد، أو فهد، أو نمر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فأت بذلك، فهي حرام وإن كان قد سالت منها الدماء ولو من مذبحتها، فلا تحل بالإجماع، إلا ما أدركت ذكاته، وفيه حياة مستقرة، فيحل أكله، وأما مَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وهي (الأصنام) وكانت النصب حجارة حول الكعبة، وهي ثلاثمائة وستون نصبا، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب، فهي الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله لأن الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، ومن المحرمات الاستقسام بالأزلام، واحدها زُلْمٌ، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك، وهي عبارة عن قِداح ثلاثة، على أحدها مكتوب أفضل وعلى الآخر لا تفعل، والثالث ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع السهم الأمر فَعَلَهُ، أو الناهي تَرَكَه، وإن طلع الفارغ أعاد الاستقسام، والاستقسام مأخوذ من طلب القَسَم من هذه الأزلام، وتعاطيه فسق وغي وضلال وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخبروه بأن يعبدوه، ثم يسألوه الحِجْرَةَ في الأمر الذي يريدونه بصلاة الاستخارة، والمشركون وقع في قلوبهم اليأس من مشابة المسلمين، بما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله، فعلى المؤمنين أن يصبروا ويتشاوروا في مخالفة الكفار، ولا يخافون أحداً إلا الله فلا يخافون منهم في مخالفتهم وعليهم بخشية الله الذي نصرهم عليهم وأظفرهم بهم، وشفى صدورهم منهم، وجعلهم فوقهم في الدنيا والآخرة، وأتم عليهم دينهم وارتضاه لهم، وهي من أكبر نعم الله ﷻ على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه، فليرض المسلمون دينهم، فإنه الدين الذي رضي الله وأحبه، ومن كمال هذا الدين أن من احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات لضرورة الجأته إلى ذلك، فله تناول ذلك، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر، واقتضاه إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له، وقد أحل الله الذبائح الحلال الطيبة لعباده، التي ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق، وأحل لهم ما اصطادوه بالجوارح المعلمة، وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشياء ذلك، فمتى صاد الجارح المعلم وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله حل الصيد، وإن قتله بالإجماع، ومن الطيبات ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزعه عن قولهم، تعالى وتقدس، ويحل للمؤمنين إطعامهم من طعامهم وذبائحهم، وبما أباح الله وشرعه نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وكذلك يجوز نكاح نساء أهل الكتاب العفيفات مع إتيان المهر والقصد من الزواج العفة عن الحرام لا اتخاذ طريق العصاة من الزناة الذين يتخذون العشيقات ويرغبون بطريق الحرام عن الحلال، وليس تزوج المسلمين هن بالذي يخرجهن من الكفر أو يغني عنهن شيئاً، لأن أهل الكفر حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا
وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ
أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُثَبِّتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾
وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ
بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى
أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

الوضوء عبادة شرعية واجبة عند أداء الصلاة، والطواف ومس المصحف، وتستحب في أحوال أخرى، والوضوء يكفر الذنوب، ويحط الخطايا ويرفع الدرجات، وهو غسل الأعضاء الأربعة، وقد أمر الله بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، وهو في حق المحدث على سبيل الإيجاب، وفي حق المتطهر على سبيل الندب والاستحباب

وتجب النية في الوضوء، ويستحب أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه، والتسمية واجبة مع الذكر. ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ويجب عند القيام من نوم الليل، ويجب أن يتمضمض ويستنشق ويستنثر، ثم يغسل وجهه، وحُدَّ الوجه ما بين منابت شعر الرأس إلى منتهى اللحية والذقن طولاً ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثة، ثم يغسل يديه مع المرافق، ثم يمسح رأسه يبدأ بمقدم رأسه ثم يذهب بهما إلى قفاه، ثم يردهما حتى يرجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم يغسل قدميه مع الكعبين، ويجب الترتيب والموااة في الوضوء، وأما من كان حدثه حدثاً أكبر، فيجب عليه الغسل، ويكفيه عن الوضوء، وجوب الوضوء والغسل رحمة بالامة وتطهير لها، وليس تضييقاً وتشديداً، فمن لم يقدر على استعمال الماء لمرض أو لفقد الماء في السفر أو الحضر، وهو محدث حدثاً أكبر أو أصغر فإنه يتيمم فيضرب التراب بيديه مرة واحدة ويمسح وجهه وظاهر كفيه، تيسيراً ورحمة، فإن لم يستطع استعمال التراب فإنه ينوي رفع الحدث، ويكفيه، وهذا مما امتازت الشريعة به من اليسر والساحة في التشريع فعلى العباد شكر الله على تيسيره على عباده وإتمامه نعمته بتكفير السيئات بالوضوء

وليذكروا نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرتة ومؤازرتة، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، وعليهم ملازمة التقوى في كل حال.

فهو سبحانه يعلم ما يكون في الضمائر والسرائر والأسرار والخواطر، وعلى المسلم القيام بالحق لله ﷻ، لا لأجل الناس والسمعة، شاهداً بالعدل لا بالجور.

لا يحمله بُغْض قوم على ترك العدل فيهم، بل يستعمل العدل مع كل أحد، صديقاً كان أو عدواً، فالعدل هو التقوى التي أمر الله بها، وهو سبحانه سيجزي العباد على أفعالهم التي عملوها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّاً، ويغفر لهم ذنوبهم ولهم الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
 فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي
 إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ
 إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ
 وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا
 حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
 ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا
 نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً
 يَحْرِفُونَ ۚ أَلَكَلِمَةٍ عَنِ مَوَاضِعِهِ ۚ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
 ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
 فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾



من عدل الله تعالى وحكمته وحُكْمه الذي لا يجور فيه، بل هو الحَكْمُ العدل الحكيم القدير، أن كتب النار للكفار الأشقياء فهم مخلدون فيها أبد الأباد، فقد كفروا بالله وحاربوا رسول الله ﷺ، فقد همَّ اليهود بقتل النبي ﷺ فأخبر الله نبيه ﷺ بغدرهم فغدا إليهم فحاصروهم، حتى أنزلهم فأجلاهم، متوكلاً على ربه جل وعلا، ومن توكل على الله كفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه، ومن كفر اليهود أن الله ﷻ وعد موسى ﷻ أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهي الشام، وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون، فلما استقرت لبني إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله تعالى بالسير إلى أريحاء من أرض الشام وهي الأرض المقدسة، وكانت لها ألف قرية في كل قرية ألف بستان، وقال الله (يا موسى إني كتبته لكم داراً وقراراً فاخرج إليها واجاهد من فيها من العدو فإني ناصرٌك عليهم، وخذ من قومك اثني عشر نقيباً، من كل سبط نقيب يكون كفيلاً على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به)، فاختر موسى النقباء وسار موسى ببني إسرائيل حتى قربوا من أريحاء فبعث هؤلاء النقباء يتجسسون له الأخبار ويعلمون علمها فأروا من قوتهم وجبروتهم ما أخافهم، فرجع النقباء وجعلوا يتعرفون أحوالهم، وقال بعضهم لبعض يا قوم: إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل خبر القوم ارتدوا عن نبي الله ولكن اكنموا، وأخبروا موسى وهارون فيريان رأيهما، وأخذ بعضهم على بعضهم الميثاق بذلك، ثم إنهم نكثوا العهد وجعل كل واحد منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى حتى تراجعوا عن دخول بيت المقدس وقد وعدهم الله أنه معهم بحفظه ونصره ما أقاموا الصلاة، وأدوا الزكاة المفروضة لمستحقها، وصدقوا برسول الله فيما يخبرونهم به ونصروهم، وأنفقوا في سبيل الله، ولحصل لهم تكفير السيئات، ودخول الجنات التي تجري من تحت قصورها الأنهار، أما من جحد الميثاق منهم فقد عدل عن طريق الحق إلى طريق الضلال.

وهذا من ضلالهم فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم فلعنهم الله، وأبعدهم عن الحق وطردهم عن الهدى، وجعل قلوبهم صلبة فلا يتعظون بموعظة، يحرفون كلام الله لفساد فهمهم، فتأولوا كتاب الله على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك، وتركوا العمل به رغبة عنه، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمه، ولا يزالون في طريق الطغيان يطلع الله نبيه ﷺ على مكروهم وغدرهم له ولأصحابه.

ويقابل النبي ﷺ المكر بالصنح والعفو، وهو عين النصر والظفر، وهذا هو الإحسان الذي يحبه الله

ويحب أهله

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ
فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ
قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا
كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ
كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ
ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ
أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

أخذ الله الميثاق على النصارى بالتحديد والنبوة، فأمرهم بمتابعة الرسول ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود؛ فألقى الله بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة.

فقد كذبوا على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب ﷻ وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. وقد أرسل الله رسوله محمداً بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وبعثه بالبينات والفرقان بين الحق والباطل، ويبين ما بدله النصارى وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه.

فقد أنزل الله على نبيه الكريم القرآن الذي فيه الهدى والنور، يخرج الله به من الكفر إلى الإيمان، وفيه طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ينجيهم الله به من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة. ومن ضلال النصارى وكفرهم ادعائهم في المسيح ابن مريم - وهو عبدٌ من عباد الله وخلق من خلقه - أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وما علموا أن جميع الأشياء تحت قهره وسلطانه فلو أراد الله أن يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً، فمن ذا الذي يمنعه؟ أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟ فله سبحانه ملك جميع الموجودات، وهو القادر على ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل، لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى.

والله تعالى متفرد بصفات الربوبية والألوهية، فلا يشاركه أحد من خلقه، وما يوقع الناس في الشرك والضلال إلا الغلو في الأنبياء والصالحين، كما غلا النصارى في المسيح.

وأول سبب للشرك في الأرض هو الغلو في الصالحين كما حصل من قوم نوح ﷺ، فأرسله الله إليهم يدعوهم للتوحيد.

فالكون كله لله سبحانه، والخلق جميعاً بيده وحده، يخلق سبحانه ما يشاء، ويفعل ما يريد.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

من كذب اليهود والنصارى ادعواهم أنهم أحباب الله وأن الله يحبهم وهم ينتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، ولم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوا في عيسى ﷺ، وإنما أرادوا بذلك مكانتهم عند الله، فقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه.

ولكن هذا الادعاء باطل إذ لو كانوا كما يقولون، ما عذبهم الله في نار جهنم على كفرهم وكذبهم وافترائهم، بل هم كسائر البشر تجري عليهم أحكام العصاة والمعاندين والمكذبين، وهو تعالى الحاكم في جميع عبادته، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، فعال لما يريد، لا مُعَقَّب لحكمه وهو سريع الحساب، والجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، وإليه المرجع والمآب، فيحكم في عبادته بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور، ويمتن الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم، فقد كان بينهما ستمائة سنة، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عَمَم، فإن الفساد قد عم جميع البلاد، والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء، حتى بعث الله محمداً ﷺ، فهدى الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشرعة الغراء، فلا يحتاج البشر ويقولوا ما جئنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءهم البشير النذير، والرحمة المهداة ﷺ، والله قادر على عقاب من عصاه، وثواب من أطاعه.

ويذكر الله منته على بني إسرائيل على لسان نبيه موسى بن عمران ﷺ فقد ذكرهم نعم الله عليهم وآلاء لديهم، في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة، كلما هلك نبي قام فيهم نبي، من لدن أبيهم إبراهيم وإلى من بعده، ولا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته، حتى ختموا بعيسى ﷺ، ثم أوحى الله إلى خاتم الرسل والأنبياء محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، ومن نعم الله على بني إسرائيل أن أنعم عليهم في الدنيا، فحازوا ما يحوزه الملوك من المرأة والخادم والدار، فقد كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار، سمي ملكاً، وفضلهم، فكانوا أشرف الناس في زمانهم، ولكن عنادهم وإصرارهم على العصيان مستمر، ومن ذلك عصيانهم أمر موسى ﷺ بالجهاد والدخول إلى بيت المقدس، وبقتال أعدائهم مع أنه بشرهم بالنصرة والظفر عليهم، فاعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قوماً ذوي خلقه هائلة، وقوى شديدة، وإننا لا نقدر على مقاومتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها وإلا فلا طاقة لنا بهم، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتادي في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفریطهم في أمر الله، فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ حرضهم رجالان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف الله ويخشى عقابه، وقالوا متى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وأظركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم. فلم ينفع ذاك فيهم شيئاً.

قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ
 أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
 إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
 يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
 ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
 فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
 قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ
 لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
 رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
 مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ
 لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾
 فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي
 سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوَيَّلَتِي ۖ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
 الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

رفض بنو إسرائيل الدخول لبيت المقدس، ونكلوا عن الجهاد وقعدوا، ولكن ما أحسن ما قال الصحابة يوم بدر لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى، ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكم مقاتلون، فلما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى ﷺ، وقال داعياً عليهم رب ليس أحد يطيعني منهم فيمثل أمر الله، ويحيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون، فاقض بيني وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وافصل بيننا وبينهم؛ فاستجاب الله لنبيه ﷺ، فحكم الله عليهم بتحريم دخولها قدرًا مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسرون دائماً لا يبتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالعمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء.

وجاءت التسليية لموسى ﷺ عنهم، بأن لا يحزن عليهم ولا يتأسف فما حكم الله عليهم به فإنهم يستحقون ذلك، وبعد أن ذكر الله بني إسرائيل -البغاة الخسدة، إخوان الخنازير والقردة وأمشاهم وأشباههم- ذكر خبر ابني آدم، وهما هابيل وقابيل على الحقيقة والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، موضعاً عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه كيف عدا أحدهما على الآخر، فقتله بغيًا عليه وحسدًا له، فيا وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه الله ﷻ، ففاض المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنان، وكان خبرهما، أن الله تعالى قد شرع لآدم ﷺ أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يؤكده في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل ذميمةً، وأخت قابيل وضيمته، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانًا، فمن تقبل منه فهي له، فقربا فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما أن حسد قابيل أخاه في قبول قربانه وقال لأقتلنك.

فرد عليه أخوه إنما يتقبل الله ممن اتقى الله في فعله، لئن مددت يدك لتقتلني فلا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، بل أخاف وعيد الله في جزاء من يقتل مؤمنًا بغير حق، فأمتنع من قتلك فتتحمل إثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك. فيكون عليك خطيئتي ودمي، فتبوء بهما جميعًا.

وخوفه النار فلم ينته ولم ينزجر، فحسنت وسوّلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله بحديدة في يده بعد هذه الموعظة وهذا الزجر.

فلما مات تركه بالعرء، ولا يعلم كيف يدفنه، فسقط في يديه، وذلك أنه كان أول قتيل في بني آدم وأول ميت، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه، فلما رآه ندم وظهر له عجزه وضعفه وقلة حيلته، فكان الغراب أعلم منه وأبصر في كيفية الدفن، فدفن جثة أخيه وأصبح من النادمين على فعلته.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ
 نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
 النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
 جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
 مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا
 جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
 فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
 وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ
 لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
 ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ
 لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ
 عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

لما قُتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً، شرع الله لبني إسرائيل والأمم بعدهم أن من قتل نفساً بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنها قتل الناس جميعاً؛ لأنه لا فرق عند الله بين نفس ونفس، ومن حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار، فمن لم يقتل نفساً حرّمها الله، فهو كالذي أحيا الناس جميعاً، ومن استحل دم مُسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً.

وقد جاءت بني إسرائيل الحجاج والبراهين والدلائل الواضحة على أيدي الرسل فلم يلتزموا بما أمروا ولم يقفوا عند حدود الله، وإنما أسرفوا في القتل فيما بينهم، والإفساد في الأرض.

وجزاء من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض الفساد حد الحرابة، فمن قتل وأخذ المال فجزاؤه القتل والصلب، حتى يشتهر ويرتدع غيرهم، وإن قتل ولم يأخذ المال فجزاؤه القتل فقط، وإن أخذ المال ولم يقتل فجزاؤه أن تقطع يديه وأرجله من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى، وإن أخاف الناس ولم يقتل، ولم يأخذ المال نفي من الأرض، فلا يترك يأوي في بلد حتى تظهر توبته، وهذه العقوبة عار عليهم في الدنيا، والآخرة فيها العذاب الشديد، ومن تاب قبل القبض عليه، امتنع من إقامة حد الحرابة عليه.

وعلى المسلم التزام التقوى والتمسك بالطاعة والكف عن المحارم وترك المنهيات، والتوسل إلى الله بطاعته، وابتغاء مرضاته فيتقرب العبد إلى الله بالإخلاص والمتابعة والعمل الصالح.

ومن طاعته قتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، فقد أعد الله للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبديد ولا تحوّل ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها يتنعم ولا يئأس، ويحيى ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

قد أعد الله لأعدائه الكفار العذاب والنكال يوم القيامة، ولو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملاء الأرض ذهباً، وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به وتيقن وصوله إليه ما تُقبل ذلك منه بل لا مندوحة عنه ولا يحصى له ولا مناص.

بل طلب منه في الدنيا أقل من ذلك فكذب وأبى، وبهذا نعلم أن الكفار لا نصيب لهم في الآخرة إلا العذاب الأليم.

يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا^ط
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا
أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ^ط
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ * يَأْتِيهَا الرِّسُولُ
لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ
قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ
هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ
آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ^ط
يَقُولُونَ إِن أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا
وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْعًا
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي
الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾



الكفار مخلدون أبد الآباد في النار التي لا تفتنى ولا تبديد، يريدون الخروج مما هم فيه من شدة العذاب وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعالي جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع من الحديد، فيردونهم إلى أسفلها، وعذابهم دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها. وقد حفظت شريعة الإسلام أموال الناس، فشرع حد السرقة حفاظاً على أموال الناس فتقطع يد السارق من المفصل وتكون الكف اليمنى إذا سرق من حرز يحفظ المال بمثله وبلغ نصاب السرقة وهو ربع دينار.

وهذا الحد مجازاة على صنيع السارق والسارقة السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعاناه في ذلك؛ تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك والله عزيز في انتقامه حكيم في أمره ونهيه وشرعه وقدره، ومن تاب بعد سرقة وأناب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم، والله هو المالك لجميع خلقه، الحاكم فيهم، لا مُعَقَّبٌ لحكمه، وهو الفعال لما يريد، يغفر للتائبين والمستغفرين، ويعذب الكافرين المعاندين وهو قادر عليهم جميعاً.

وأما المنافقون المسارعون في الكفر، الخارجون عن طاعة الله ورسوله، المقدمون آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ، الذين أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وحلفاؤهم من أعداء الإسلام وأهله، هؤلاء كلهم لن يضرُوا الإسلام شيئاً، ولا نبي الإسلام ﷺ، فلا يستحقون حزن النبي ﷺ عليهم لأنهم يستجيبون للكذب، ويفتعلونه وينقلون كلام الرسول ﷺ، لآخرين من أعداء الإسلام، ويتأولون الكلام على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

وغيرون أحكام الله التي نزلت في الكتب السابقة، ومن ذلك تغير حكم الرجم في التوراة ويقولون اثنوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم، وهو (تسويد الوجه) والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. ومن أراد الله كفره وضلالته، وهلاكه، وعذابه، فلن يقدر أحد على دفع أمر الله فيه، لأن الله لم يرد قدراً لهم الإيمان، وعقوبتهم في الدنيا الخزي، فخزي المنافقين الفضيحة وهتك السر بإظهار نفاقهم، وخزي اليهود الجزية والقتل والسبي والنفي، ورؤيتهم من النبي ﷺ وأصحابه فيهم ما يكرهون، وفي الآخرة الخلود في النار.

سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلْحَسَنَةِ فَإِنْ جَاءُوكَ
 فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ
 يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
 إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ
 التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
 هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
 هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ
 اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ
 وَآخِشُونِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِيَ ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
 بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ
 فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
 بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
 قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ
 لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

اليهود من أخبث الخلق وهم في حكمهم يسمعون الكذب ويأكلون الرشوة، وقد خيّر الله تعالى رسوله ﷺ في الحكم بينهم إن شاء حكم وإن شاء ترك؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إلى النبي ﷺ اتباع الحق، بل ما وافق هواهم، وإذا حكم بينهم، فليحكم بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل.

ومن جهلهم وإعراضهم تركهم حكم التوراة، وهي التي يعتقدون صحتها ويزعمون أنهم مأمورون بالتمسك بها أبداً، ثم خرجوا عن حكمها وعدلوا إلى غيرها، مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم، فهذه التوراة فيها حكم الله تعالى من الرجم وغيره، وقد حكم بها النبيون الذين بعثوا من بعد موسى ﷺ، وقد أسلموا لحكم التوراة وحكموا بها، والعلماء من بعدهم، الذين وكل الله لهم حفظ التوراة، ولكن بعضهم غير وبدل، فالعلماء شهداء على الحق وعليهم خوف الله وخشيته، ولا يخافون الناس ويخشونهم، فلا تأخذهم في الله لومة لائم، فلا يحكمون بغير ما أنزل الله رغبة في الدنيا ومحابة لأحد، فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال الكفار، وقد يكون كفراً يخرج من الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه وفضله على حكم الله، أو اعتقد أنه مساوٍ لحكم الله، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، إذا دفعه الهوى أو الرغبة في الدنيا أو محابة أحد، وهو يعتقد حرمة.

ومما نزل من التوراة وجاءت شريعة الإسلام به، أن النفس بالنفس، فمن قتل عمداً قُتل قصاصاً، ومن فقأ عين أحد عمداً فقتل عينه، ومن قطع أنف أحد قطع أنفه، ومن قطع أذن أحد قطعت أذنه، ومن كسر سن أحد كسرت سنه، وما كان دون ذلك في الجراحات فيقتص من الجاني إذا أمن التعدي في القصاص، ومن لم يحكم بهذا الحكم وعدل عنه فهو ظالم لم ينصف المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه.

والله ﷻ أنزل القرآن الكريم ليعمل به ويتحاكم إليه، ففيه تنظيم حياة الناس، وفيه مصدر عزهم ومكانتهم وسر قوتهم وانتصارهم على أعدائهم، ومتى تعلم الأمة أن التقدم والرفي هو بالكتاب العزيز، ويشرع الله المطهر، ويتحكم الشريعة الغراء، ولم تتخلف الأمة وتهون، ويتسلط عليها أعداؤها إلا لما نبذت كتاب الله واستغنت بالقوانين الوضعية، وسعت تلهث وراء بريق الحضارات الزائفة، فلم تحن نصراً، ولا رقياً ولا تقدماً، وإنما جنت الولايات والحروب الطاحنة والتفرق والتناحر والتباغض، أين الأمة من كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ؟ ففيها المخرج من كل الفتن والمحن والمصائب، وفيها الحياة الطيبة والسعيدة في ظل الشريعة السمحة، فيا ليت قومي يعلمون!.

وَقَفَيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
 التَّوْرَةِ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ
 أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ
 اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
 بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا
 عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
 عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمَنَاجِيَ
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
 ءَاتَكُم ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
 فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا
 أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ
 بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَم أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
 بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ
 الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

جاء نبي الله عيسى عليه السلام بعد أنبياء بني إسرائيل، مؤمناً بالتوراة، وحاكماً بها فيها، وأنزل الله عليه الإنجيل هدى إلى الحق، ونوراً يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات، متبعاً للتوراة غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، وأحل الله لهم في الإنجيل ما حرم عليهم في التوراة.

وكان الإنجيل هُدىً يهتدى به، وزاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه، والواجب الحكم بالإنجيل والإيمان بجميع ما فيه، والقيام بما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وآله والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، ومن ترك حكم الله الذي أنزل على عباده فهو الخارج عن طاعة ربه، المائل إلى الباطل، التارك للحق، وكتاب الله القرآن هو خير الكتب وأشرفها، فقد أنزله الله بالصدق الذي لا ريب فيه وهو من عند الله، فالكتب المتقدمة تضمنت ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، فهو كتاب الله، أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، أنزله آخر الكتب وخاتمتها، فكان أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ ولهذا جعله شاهداً أميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، وأمر النبي صلى الله عليه وآله بالحكم بين الناس عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليه في هذا الكتاب العظيم، ولا يتبع آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله، ولا ينصرف عن الحق الذي أمره الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء، ولكل أمة سبيلاً وسنة، سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسنة طريقاً ومسلماً واضحاً بيناً، ولو شاء الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشرعة واحدة، لا ينسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وآله الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم، وشرع الله الشرائع المختلفة، ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثبهم على طاعته، أو يعاقبهم على معصيته بما فعلوه أو عزموا عليه، وعلى العباد المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فيلى الله المرجع والمعاد إليه يوم القيامة فيخبرهم بما اختلفوا فيه من الحق، فيجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة، والأدلة الدامغة، وحذر الله نبيه صلى الله عليه وآله والتحذير لأمته من بعده أن يدلّسوا عليه الحق فيما يُنّهونه إليه من الأمور، فلا يغتر بهم، فإنهم كذبة كفرة خونة فإن تولوا عما يحكم به بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله فإن الله يصرفهم عن الهدى لما هم عليه من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم، وما أكثر الناس الخارجين عن طاعة ربهم، المخالفين للحق، ولكنهم يريدون حكم الجاهلية، وعن حكم الله يعدلون، ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وأمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
 أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ
 يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ
 مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ ﴿٥٢﴾
 وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
 إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
 وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّآئِمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ
 يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ

الولاء للمؤمنين والبراءة من المشركين عقيدة ثابتة راسخة، لا تغيرها الأيام ولا الأعوام، وقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، وأخبر أن بعضهم أولياء بعض، والموالاة وهي المحبة والمودة من كباير الذنوب، وأما التولي فهو مناصرة الكفار ضد المسلمين وهو كفر مخرج من الملة، فالمسلمون يوأؤون المؤمنين ويتبرؤون من المشركين، أما المنافقون الذين في قلوبهم شك وريب ونفاق يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ويتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أباد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك، فإذا جاء أمر الله فهزم المشركون وضربت الجزية على أهل الكتاب، حينئذ يندم الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين فلم يُجد عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فُضحوا، وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين.

فيقول الذين آمنوا حين يظهر نفاق المنافقين، أهؤلاء الذين حلفوا بالله أغلظ الأيمان إنهم مؤمنون؟ فقد بطل كل خير عملوه، وخسروا الدنيا بافتضاحهم، والآخرة بالعذاب وفوات الثواب، والله غني عن عباده فمن تولى عن نصرته وإقامة شريعته، ورجع عن الحق إلى الباطل، فإن الله يستبدل به من هو خير للإسلام منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً.

ومن صفات المؤمنين أنهم أرقاء رحماء، على المؤمنين، يتواضعون لإخوانهم وهم مع الكفار أشداء غلاظ يعادونهم ويغالونهم، يُجاهدون في سبيل الله لا يخافون في الله لوم الناس، فلا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وقتال أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصددهم عنه صاد، لا يؤثر فيهم لوم لائم ولا عدل عاذل.

وأما المنافقون فإنهم يراقبون الكفار ويخافون لومهم، وذلك من فضل الله على المؤمنين وتوفيقه لهم، والله واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يجرمه إياه.

والمؤمنون وليهم الله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة- التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحده لا شريك له- ويؤتون الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين، وهم متذللون لله تعالى خاضعون له، ومن كان الله وليه والمؤمنون فهو مفلح في الدنيا والآخرة ومنصور في الدنيا والآخرة.

فلا يتخذ أهل الإيوان الذين يتخذون دين الله هزواً ولعباً، ويستهزؤون بشعائر الإسلام، من اليهود والنصارى والمشركين أولياء، فمن التقوى اجتناب الكفار والبعد عن طرقهم.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّا أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ الشُّحْتُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشُّحْتُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا ۖ وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

الكفار من ضعف عقولهم، وجهلهم، يتسهئون بدين الله، ومن ذلك فريضة الصلاة، وما علموا أن ذلك الدين هو صلاح قلوبهم وصلاح دنياهم، وما ينقم هؤلاء الجهال الخارجون عن الطريق المستقيم من اتخاذ الدين هزواً ولعباً، أيسهئون بالدين الحق من الإيمان بالله والرسول؟ فهم أحق أن يستهزأ بهم فهم الضالون المصفون بالإبعاد من رحمة الله واستحقاق غضب الله غضباً لا يرضى بعده أبداً، ومسئولهم قردة وخنازير، ويصرفون العبادة للطواغيت، فهم في شر حالة في الدنيا والآخرة وأضل عن الصراط المستقيم، ويظهرون الإيمان نفاقاً ومكرًا، وهم لم يخرجوا من الكفر.

والله عالم بسر أئمه وما تنطوي عليهم ضائرتهم وإن أظهرها خلقه خلاف ذلك، وتزينوا بها ليس فيهم، فإن عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

وهم يبادرون إلى تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس، وأكلهم أموالهم بالباطل، فبئس العمل عملهم وبئس الاعتداء اعتداؤهم، ولو قام أهل العلم منهم بدورهم ونهواهم عن أفعالهم المحرمة، وأقواهم الكفرية.

فقد وصفوا الله تعالى عن قولهم علواً كبيراً، بأنه بخيل، ووصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عن البخل بأن يد الله موثقة، وقد رد الله ﷻ عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه، بأن أيديهم هي المغلوله، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة، وستغل يوم القيامة. وطردهم من رحمة الله وعذبوا، فمسخوا قردة وخنازير، وضربت عليهم الذلة والمسكنة في الدنيا وفي الآخرة بالنار.

ويد الله صفة من صفاته كالسمع، والبصر والوجه، على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تكيف ولا تعطيل ولا تمثيل.

والله واسع الفضل، جزيل العطاء، كل شيء عنده خزائنه، وما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لهم كل شيء مما يحتاج إليه العباد، في ليلهم ونهارهم، وحضرهم وسفرهم، وفي جميع أحوالهم، يرزق عباده، في جميع الأحوال والأزمان.

وأما الذين أضلهم الله كلما نزلت آية كفروا بها وازدادوا طغياناً وكفراً، ومن عقاب الله لهم أن جعلهم متباغضين متنازعين، كلما أجمعوا أمرهم ليفسدوا أمر الإسلام وأوقدوا نار المحاربة أطفأها الله، فردهم وقهرهم ونصر نبيه ودينه.

ومن صفاتهم السعي في الأرض الفساد، وإشاعة الفاحشة، وإفساد الخلق، وتلك مخططات اليهود

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآدْخُلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
 التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ
 فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
 سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٦﴾ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
 مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ
 مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَتَاهَلْ
 الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
 وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ
 إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
 ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى
 مِنْ ءَمَرٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي
 إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا
 لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾



أهل الكتاب لو آمنوا برسالة الإسلام وصدقوا النبي ﷺ، وعملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه، من غير تحريف ولا تغيير ولا تبديل، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدًا ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتمًا لا محالة. ولوجدوا بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض، من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء، فطاعة الله تستجلب بها النعم وتدفع بها النقم.

وأهل الكتاب منهم المتبعون لمنهج الأنبياء ومنهم من ضل عن منهج الأنبياء، ويأمر الله عبده ورسوله محمدًا ﷺ بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام، وإلا لم يفعل ما أمر به، لم يبلغ رسالة ربه، والأمر للنبي ﷺ ولمن بعده من ورثته من العلماء الذين يبلغون شريعة الله، والله حافظ نبيه وناصره ومؤيده على أعدائه، فلن يصل أحد منهم إليه بسوء يؤذيه.

ومن عصمة الله ﷻ لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومُعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة، ثم قبض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام، ولما صار إليهم حَمَوهُ من الأحمر والأسود، فكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه، وبعد نزول هذه الآية لم يتخذ الرسول ﷺ الحرس.

وأما أهل الكتاب فإنهم ليسوا على شيء من الدين، حتى يؤمنوا بجميع ما بأيديهم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، ويعملوا بما فيها، ومما فيها الأمر باتباع بمحمد ﷺ والإيمان بمبعثه، والاعتداء بشريعته، والإيمان بالقرآن العظيم، ولكنهم لم يزدادوا إلا كفرًا وعنادًا بآيات القرآن، فلا حزن عليهم لأن الله كتب لهم الضلالة

و كل فرقة من المسلمين أو اليهود أو النصارى أو المجوس آمنت بالله، و المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملا صالحًا، لا يكون ذلك نافعًا لها حتى يكون موافقًا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقليين فمن آمن بذلك فلا خوف عليه يستقبله، ولا حزن على ما يتركه وراء ظهره.

واليهود أخذ الله عليهم العهود والمواثيق، بالسمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه، فيقتلون فريقًا ويكذبون فريقًا من الرسل حسب أهوائهم.

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا
 يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا
 اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾
 لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ
 إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ
 إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾
 مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
 الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ
 انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى
 يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
 يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

من العقوبات العاجلة لليهود على أفعالهم في تكذيب الأنبياء وقتلهم أنهم عموا عن الحق وصَمُّوا، فلا يسمعون حقًا، ولا يهتدون إليه، وتاب الله عليهم ولكنهم لم يتركوا ما كانوا عليه من الإعراض فعوقبوا بالعمى والصمم من سماع الحق وقبوله، والله مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وأما النصارى فقد ادعوا بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوًا كبيرًا.

والمسيح أخبرهم بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أنه عبد الله، ودعاهم في حال نبوته، آمراء لهم عبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له، وترك الشرك الذي يحرم دخول الجنة ويوجب الخلود في النار.

ومن كفر النصارى وضلّاهم عقيدة التثليث في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة، بل الله إله واحد لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات.

فإن لم ينته النصارى عن هذا، فلهم العقوبة يوم القيامة، فالواجب التوبة من قولهم ومن غيره، وتوحيد الله وإفراده بالعبادة، والاعتراف برسالة محمد ﷺ كما أمرهم المسيح ﷺ، والتوبة من الشرك من أكد الواجبات، لأن التوبة من الشرك تنقل الإنسان من النار إلى الجنة، والمسيح عيسى بن مريم ﷺ سينزل آخر الزمان ويدين بالإسلام، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يرضى إلا الإسلام، والمسيح مثل سائر الرسل المتقدمين عليه، وهو عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، وأمه صدّقت بآيات الله، مؤمنة بالمسيح مصدّقة له، وهذا أعلى مقاماتها فدل على أنها ليست بنبيّة، وليس لها من خصائص الألوهية شيء، بل لهم خصائص البشر يحتاجان إلى الغذاء، وإلى خروجه منها، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى.

والله سبحانه أوضح البراهين على بشرية المسيح وأمه، ومع ذلك لم يرجعوا عن قولهم بعد هذا البيان والوضوح والجلاء فهم يُصرّفون عن الحق إلى الباطل، فهم يعبدون بشرًا لا يستطيعون نفع أنفسهم، فكيف ينفعون غيرهم؟ ويدعون أحسن الخالقين الذي انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، وهو الذي لا تحفى عليه خافية بجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
 وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ
 كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ
 كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى
 ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْاْ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
 كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ
 مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
 يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ
 أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾
 وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ
 مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ
 ﴿٨١﴾ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ
 وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ
 ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصْرِيْكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
 قِسِيْسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

الغلو وتجاوز الحد سبب للشرك، فالمبالغة في التعظيم، يخرج عن حيز البشرية إلى مقام الإلهية، كما صنع النصارى في المسيح، وهو نبي من الأنبياء، فجعلوه إلهًا من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائهم بمن سلفهم ممن ضل قديماً، وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال، واتباع الأهواء سبب للضلال، وقد نهى النبي ﷺ عن إطرائه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وقال: إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصول الدين، ولا تستقيم الحياة إلا بهذا الأصل وقد طرد الله من رحمته الكافرين من بني إسرائيل، فيما أنزل على داود نبيه ﷺ، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه، كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، فبئس العمل عملهم في عمل المعاصي والسيئات وتركهم النهي عن المنكر، فإن المنكر إذا ظهر ولم ينكر عمت العقوبة ورُدَّ الدعاء ومن اليهود من يتولى المشركين، والمنافقون يتولون اليهود والذين أشركوا فبئس ما قدموا لآخرتهم موالاتهم للكافرين، وتركهم موالات المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وجعلتهم في النار معهم يوم القيامة وأسخط الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم؛ وسخط الله صفة من صفات الله الفعلية على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تكيف ولا تعطيل ولا تمثيل.

ولو أن اليهود والمنافقين آمنوا حق الإيمان بالله وبالرسول والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالات الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي، وما أنزل إليه، ولكنهم خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لآيات وحْيِهِ وتنزيله.

وكفر اليهود عناد وجحود ورد للحق، وغمط للناس وتقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هوى بقتل رسول الله ﷺ غير مرة وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين، فهم أشد الناس عداوة لأهل الإسلام، فهم وأهل الشرك سواء في العداوة والبغضاء والكيد للإسلام وأهله.

وأما أتباع المسيح ومن على منهج إنجيله، ففيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، فالغالب إسلامهم وإيمانهم، لكن الذين يدعون أنهم نصارى اليوم ليسوا أتباع المسيح لتحريفهم وتضليلهم، والنصارى فيهم الخطباء والعلماء والعباد، وفيهم العلم والعبادة والتواضع، والانقياد للحق واتباعه والإنصاف.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنْبِئْهُمْ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِعَايِنَتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ
بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ
فَكَفَرْتُمْ ۖ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا
أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

النصارى في زمن النبوة إذا سمعوا القرآن دمعت عيونهم لما فيه مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ فآمنوا بالقرآن وشهدوا بصحته، وسألوا ربهم أن يجعلهم مع محمد ﷺ، وأمتة، فهم الشاهدون، يشهدون لنبيهم أنه قد بلغ، ولرسل أنهم قد بلغوا، وبذلك نعلم ضلال النصارى اليوم وبعدهم عن دين المسيح الذي يأمر بالتوحيد، ويوجب الإتيان بخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسبب إسلام النصارى، أنهم عرفوا صدق خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفضله، فطمعوا أن يكونوا من أمتة، فجازاهم الله على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق جنات ساكنين فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون، وآتاهم أجورهم مرتين وهذا ثواب الذين يتبعون الحق وينقادون له حيث كان، وأين كان، ومع من كان.

أما الأشقياء الذين كذبوا وجحدوا بآيات الله وخالفوها فجزاؤهم النار هم أهلها والداخلون فيها، ودين الإسلام دين الفطرة، أحل الحلال وحرم الحرام، فيحرم على المسلم أن يتعدى فيحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله، وليس من الإسلام ترك الطيبات تقرباً وعبادة، بل أن سنته ﷺ الوسطية في كل الأمور فلا اعتداء ولا غلو ولا تشدد ولا إفراط ولا تفريط، فإن التنطع سبب للهلاك، والتشدد في دين الله انحراف عن الوسطية، والتمتع بالمباح يعين على التقوى، ويقوي على الطاعة.

والواجب على المسلم لزوم التقوى في جميع أموره، وإتباع طاعة الله ورضوانه، وترك مخالفته وعصيانته، ومن تقوى الله حفظ اليمين، وقد عفا الله عن اليمين من غير قصد؛ كقول الرجل في الكلام من غير قصد، لا والله، بلى والله، فيمين اللغو لا كفارة فيها ولا إثم، والواجب حفظ اليمين المقصودة وهي التي أراد الحالف انعقادها على أمر مستقبل، فكفارتها إذا حنث الحالف إطعام عشرة مساكين، كل مسكين نصف صاع مما يأكله الناس من قوت البلد، أو كسوة عشرة مساكين مما يسترهم في الصلاة، أو عتق رقبة مؤمنة فإن لم يستطع على إحدى هذه الثلاث انتقل إلى صيام ثلاثة أيام، والواجب حفظ اليمين وتعظيمها والوفاء بها، إلا إذا كان غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير ويكفر عن يمينه، ولا يجوز الحلف بغير الله فمن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك، ولا يجوز الحلف كاذباً ليقطع مال امرئ مسلم، وتسمى الغموس لأنها تغمس صاحبها بالإثم ثم تغمس في النار، وليس لها كفارة، ويجب فيها التوبة، وإرجاع المظالم لأهلها، فتكون الأتيان على أنواع ثلاثة، اليمين اللغو وهذه لا كفارة فيها، واليمين المنعقدة وهذه تجب فيها الكفارة إذا خالف الحالف ما حلف عليه، واليمين الغموس وتجب فيها التوبة والاستغفار.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ
 مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
 الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحُمْرِ وَالْمَيْسِرِ
 وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا
 اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى
 رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ
 ﴿٩٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَنَكُمْ اللَّهُ شَيْءً مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ
 أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ
 ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْنَلُوا الصَّيْدَ
 وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۖ وَمَن قَتَلَهُ مِّنْكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ
 يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ
 مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لِّذَوِّقِ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا
 سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

من تقوى الله اجتناب ما حرم الله من الخمر وهو ما خامر العقل وغطاه وهي أم الخبائث، ومما حرم الله الميسر وهو المغالبة والمخاطرة تذهب الأموال والأوقات والعقول، ومن تقوى الله اجتناب أعمال الجاهلية من تعظيم الأصنام والاستقسام بالأزلام وطلب الحظ منها والقسم، والمسلم مأمور بالاستخارة، وهي سنة نبوية ثابتة فيها الفلاح والنجاح، والفوز في ترك ما حرم الله واجتنابه، فإن الله لا يحرم على عباده إلا ما فيه ضرر عليهم في العاجل والآجل، فالمحرمات لها أضرارها الدنيوية والأخروية، والتي لم يزل العلم الحديث يظهر ما سبقهم إليه الإسلام من قرون، ولم تزل الحضارات الحديثة تتسابق في استخدامها وتتنافس في اقترافها، بل تشرع استعمالها، ولا يزال الشيطان يوقع العدواة والبغضاء بين المسلم وأخيه بأنواع الشرور، ومن أسباب وقوع العدوات شرب الخمر التي فيها زوال العقول، وفي الميسر ذهاب الأموال والعقول، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة التي هي عماد الدين، فيجب الانتهاء عن شرب الخمر واللعب بالميسر لما فيها من الأضرار الدنيوية والأخروية، فإن من طاعة الله ترك ما حرم الله والوقوف عند حدوده، وارتكابها تولي عن حكم الله ورسوله ﷺ، وشرب الخمر والمسكر كبيرة من كبائر الذنوب، وقد شرع الحد لمن شربها، ولكن من شربها قبل تحريمها فلا إثم عليه، ومن مات قبل تحريم الخمر فلا حرج عليه لأنه شرب ما هو مباح له، وعمل بطاعة مولاه وأحسن في عمله، ومات مؤمناً بالله فهو من المحسنين، ومن الإحسان وتقوى الله مراقبة الله في السر والعلن، ومن ذلك ما حرم على المحرم من الصيد فقد يتل به الإنسان يمر بين يديه ويدخل عليه في رحله، ويستطيع صيده بيده أو برمح، فيرده امتناعه عما حرم الله عليه فإن المحرم يحرم عليه صيد حيوانات البر ما دام حال الإحرام، ليظهر من يراقب الله في الغيب والشهادة، وكذا المسلم في جميع أحواله يراقب الله ﷻ، ويسئى من ذلك خمس قوايسق يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَمِ الغُراب والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور وغيرهن مما هو مؤذٍ، ومن قتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فإن عليه الجزاء، والجزاء ما كان له ما يماثل من بهيمة الأنعام فيخرج جزاء له، وما كان ليس له مثل فإن كان قضى به الصحابة فيما قضى به الصحابة ﷺ، وإن لم يقض به الصحابة فيحكم به أهل الخبرة، فإن لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال فيقوم ويخرج بقيمته طعاماً للفقراء، فإن كان لا يستطيع الإطعام صام عن كل صاع يوماً، وجزاء الصيد، والإطعام يكون لفقراء الحرم، والجزاء عقوبة دنيوية، فقد أوجبت عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة، ويعفو الله على من تاب من قتل الصيد، ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه فينتقم الله منه، ومن تعمد مرة أخرى فإن عقوبته أشد، أما الناسي والجاهل فيعفو الله عنه، لأن الله عفا عن عباده الخطأ والنسيان وما استكروها عليه، والله سبحانه منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه أحد من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة ﷻ.



أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ
 عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ
 تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ
 قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبِدَ ذَلِكُمْ لِتَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
 تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ
 وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَسِ
 لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا
 عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
 الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ
 سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾
 مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

صيد البحر مما أباحه الله للمحرم، وكذلك ميتة البحر مباحة للمحرم وغيره، وأما صيد البر فيحرم على المحرم اصطیاده، ومثله صيد الحرم، فلا يصاد داخل الحرم ولو كان الصائد حلالاً. وقد جعل الله البيت الحرام قواماً للناس في أمر دينهم ودنياهم، أما الدين لأن به يقوم الحج والمناسك، وأما الدنيا فيما يجبي إليه من الثمرات، وكانوا يأمنون فيه من الثأر والغارة، فلا يتعرض لهم أحد في الحرم، وكذلك الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، يأمن فيها الناس القتال، والهدى وهو ما يهدى للحرم من بهيمة الأنعام فإذا قلدت بالقلائد من النعال والجلود يأمن الناس فلا يتعرض لهم أحد، فذلك القوام فيه.

والله يعلم صلاح العباد كما يعلم ما في السموات وما في الأرض، والله سبحانه شديد العقاب لمن عصاه، وغفور رحيم لمن تاب وأناب، ومهمة الرسل البلاغ وهداية الدلالة والتبليغ، وهداية التوفيق بيد الله، والله يعلم ما يسرُّ العباد وما يعلنون

والحلال والحرام لا يستويان، فالحلال طيب والحرام خبيث والله لا يحرم على عباده إلا الخبيث الذي يضرهم ولا ينفعهم، والقليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، والعبرة بما ينفع في الدنيا والآخرة وليس بالكثرة، والفلاح بالأخذ بالحلال وترك الحرام والقناعة بالحلال والاكتفاء به، ونهي الصحابة رضي الله عنهم عن السؤال تعتاً وتعجيراً، ونهوا عن السؤال عند نزول القرآن لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها.

فقد سأل هذه المسائل المنهي عنها قومٌ ممن سبق، فأجابوا عنها ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين، فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، وإنما سألوا على وجه التعنت والعناد.

ومن تعنت أهل الجاهلية وابتداعهم، ما ابتدعوه في بهيمة الأنعام، فابتدعوا البحيرة وهي التي يُمنع درّها بل تكون للطواغيت، فلا تجلبها أحد من الناس، والسائبة وهي التي كانوا يسيبونها لأهتهم، لا تحمل عليها شيء، والوصيلة وهي الناقة البكر، تُبكر في أول نتاج الإبل، ثم تُنثى بعد أنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام وهو فحل الإبل يضرب الضراب العدود، فإذا قضى ضرايه تركوه للطواغيت، وأعفوه عن الحمل، فلم يُحمل عليه شيء، وسَمَوْه الحامي، وكل ذلك ابتداع من عند أنفسهم، فافتروا على الله الكذب، وجعلوا ذلك ديناً وشرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه. وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا^{١٠٤} أُولَئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ^{١٠٤} يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ^{١٠٤}
لَا يَصُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ^{١٠٤} إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^{١٠٥} يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ
بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَشْنَانٌ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ^{١٠٦}
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لِّمِنَ الْآثِمِينَ^{١٠٦} فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ
أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ
اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقُّ
مِنَ شَهَادَتِهِمَا وَمَا عَتَدْنَا إِنَّا إِذًا لِّمِنَ الظَّالِمِينَ^{١٠٧} ذَلِكَ
أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَهَا أَوْ يَخْفُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ
أَيْمَنِهم^{١٠٨} وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا^{١٠٨} وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ^{١٠٨}

المشركون إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه، وترك ما حرمه، قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، ولو كان الآباء لا يفهمون حقًا، ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم فمن يتبعهم هو أجهل منهم، وأضل سبيلًا.

وعلى المسلم أن يصلح نفسه ويفعل الخير جهده وطاقته، ومن أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريبًا منه أو بعيدًا، إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه صلاح المجتمعات وحفظ لسفينة المجتمع من الغرق، وأمان من نزول العقوبات العاجلة

ومما شرعه الإسلام للمسلم الوصية، والاستعداد بها قبل نزول الموت ويشهد على الوصية اثنان من ذوي العدالة، وإذا حضر الإنسان مقدمات الموت، فيتأكد له أن يوصي بوصيته، ويشهد عليها اثنان ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما، فإن لم يوجد أحد من المسلمين في حال كونه في سفر فيشهد من غير المسلمين، ويؤخذان ليؤكد عليهما الشهادة والقيام بها، ومن تعظيم الشهادة حبسهما بعد الصلوات التي يعظمونها ويقسمان بالصدق وأداء الشهادة بأمانة

ولا يكذبان فيها، لأجل عرض من الدنيا، ولا يراعيان قريبًا لأجل قرابته، ويؤديان الشهادة كما سمعها وإن كتبها فيها من الأثمين، فإن وجد أولياء الميت من القرائن ما يدل على كذبها وأنها خانا، فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه، فيؤديان القسم أن الشاهدين كذبا، وغيرا وخانا، ويؤكد ذلك بأنهما لم يظلما ولم يعتديا، ولم يشهدا بغير الحق، ويستحقان بعد ذلك ما يدعيانه.

والحكمة من تأكيد الشهادة، وردها إلى أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة حتى يقيما الشهادة بصدق وعدل، فإذا علما أنها لا تقبل أيمانها، ثم ترد إلى أولياء الميت، قاما بالشهادة بصدق وأمانة. والمشروع للمسلم الاستعداد بالوصية ولا يؤخرها إلى قرب الموت بل لا ينام ليلة إلا ووصيته تحت رأسه، كما أمر بذلك النبي المعصوم ﷺ، والوصية تشتمل على تذكير الورثة بتقوى الله والأمر بطاعته، وذكر ما للإنسان من الحقوق عند الآخرين، وما للآخرين عليه من حقوق، حتى تبرأ ذمته،

وعلى المسلم أن يتقي الله في جميع أموره ويطيع الله في صغير وكبير، فمن عصى وخرج عن طاعة ربه فإن الله كتب عليه الضلال، وعليه العقاب يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالَوَا لَا عِلْمَ
 لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
 اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ
 الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ
 مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
 بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ
 الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ
 جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
 مُّبِينٌ﴾ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي
 وَبِرُسُولِي قَالَوَا ءَامِنَا وَآشَهِدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١١١) إِذْ قَالَ
 الْخَوَارِجُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ
 يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢) قَالَوَا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا
 وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١١٣)

يوم القيامة، يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين من عباده، ويخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أجيئوا به من أعمهم الذين أرسلهم إليهم، فيقولون للرب ﷻ لا علم لنا، إلا ما علمتنا، فأنت أعلم بهم منا. تأدبا مع الرب ﷻ فهم وإن كانوا يعرفون من أجابهم، لكن إنما يطلعون على الظواهر، ولا علم لهم ببواطنهم، وهو سبحانه العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء.

وقد امتن الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ مما أجزاه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، في خلقه من أم بلا ذكر، وجعله آية ودلالة قاطعة على كمال قدرة الله على الأشياء، وجعله برهاناً على براءة أمه مما نسبته الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة، وأيده بجبريل ﷺ، وجعله نبياً داعياً إلى الله في صغره وكبره، فأنطقه في المهد صغيراً، فشهد ببراءة أمه من كل عيب، واعترف لله بالعبودية، وأخبر عن رسالة الله له ودعوته إلى عبادة الله، وعلمه الله الخط والفهم والتوراة المنزلة على موسى بن عمران الكليم، ومن المعجزات التي أيد الله بها عيسى ﷺ تصويره وتشكيله للطين على هيئة الطائر بإذن الله فيكون طائراً بإذن الله، بأن ينفخ في تلك الصورة التي شكلها بإذن الله، فتكون طيراً ذا روح بإذن الله، ويمسح على الأعمى فيعود بصره، ويمسح على الأبرص فيعود جلده الحسن، ويدعوا الموتى فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته، وإرادته ومشيتته، ومن نعمة الله على عيسى ﷺ أن كف الله عنه أذى اليهود إذ جاءهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوته ورسالته من الله إليهم، فكذبوه واتهموه بأنه ساحر، وسعوا في قتله وصلبه، فنجاه الله منهم، ورفع الله إليه، وطهره من دنسهم، وكفاه شرهم، وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسوله محمداً ﷺ، ومن منن الله على عيسى ﷺ إلهامه الخواريين بالإيمان به ونصرته وتأنيده، ومما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى ﷺ إجابة دعائه بنزول المائدة، فأنزله الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة، فقد طلب أتباع عيسى ﷺ من عيسى فقالوا هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة، والمائدة هي الخوان عليه طعام، وسألوا ذلك لحاجتهم وفقيرهم فسألوها في كل يوم يقتاتون منها، ويتقون بها على العبادة، فأجابهم المسيح ﷺ، قائلاً لهم اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين. فقالوا إنا محتاجون إلى الأكل منها، ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك، ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
 تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ
 خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ
 مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾
 وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ لِلنَّاسِ أُتْحَدُونِ
 وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
 أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمُ مَا فِي
 نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
 قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۚ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
 عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ
 عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ
 وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ
 يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
 لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

دعا عيسى ﷺ ربه بأن ينزل عليهم المائدة ويتخذوا يوم نزولها عيدًا يعظمونه ويعظمه من بعدهم، ويكون نزولها دليلًا على قدرته سبحانه على الأشياء، وعلى إجابته لدعوة نبيه عيسى ﷺ، وهي رزق من الله هنيئًا بلا كلفة ولا تعب، فاستجاب الله دعوة نبيه عيسى ﷺ لتكون آية لنبيه ومن كذب بها من أمة عيسى وعاندها فله العذاب الأليم الذي لا يعذبه الله أحدًا من عالمي زمانهم.

ويوم القيامة يوبخ الله النصارى الغلاة الذين اتخذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله، فيخاطب الله تعالى عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ، قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله، فيقول المسيح ﷺ مسبحًا الله ومنزهه عن تلك المقولة العظيمة ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، فالربوبية حق لله تبارك وتعالى، وهذا الجواب في غاية التأدب مع الله.

وأظهر علم الله بكل شيء فقال إن كان صَدَرَ مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته؛ ولم آمرهم إلا بتوحيد الله وتحقيق العبودية له وقد أعلم بأعمالهم لما كنت بين أظهرهم، ولما رفعت إلى الله كان المطلع عليهم الله تبارك وتعالى، والحفيظ عليهم.

وفي آخر الزمان إذا نزل المسيح ﷺ يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

وفوض المسيح ﷺ الأمر إلى ربه، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز في الملك، الحكيم في القضاء لا ينقص من عزك شيء، ولا يخرج من حكمك شيء.

ويوم القيامة يوم ينفع المؤمنين أعمالهم الصالحة لهم الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ماكتبن فيها لا يَحُولُونَ ولا يزولون، ﷻ ورضوا عنه.

وهذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، والله ملك السماوات والأرض وهو سبحانه الخالق للأشياء كلها، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملُكُه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عدل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

آياتها
١٦٥ترتيبها
٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمُوتُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخِرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾

سورة الأنعام

وهي سورة مكية، وسميت بالأنعام لذكر أنواع الأنعام فيها

نزلت سورة الأنعام جملة واحدة، وشيئها سبعون ألفاً من الملائكة، لهم رَجُلٌ بالتسبيح والتحميد، وقد بدئت السورة بالحمد والثناء على الله تعالى، فهو الذي خلق السموات والأرض وجعل الأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكاً وعدلاً واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

خلق الله أباهم آدم من طين الذي هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا في المشارق والمغارب. وجعل لهم أجالاً من بين أن يخلقهم إلى أن يموتوا، وأجلاً عند الله لا يعلمه إلا الله من بين أن يموتوا إلى أن يبعثوا، وهم مع ذلك يشكون في أمر الساعة.

وهو سبحانه إله السموات والأرض، وهو المعبود الحق في السموات والأرض، وهو العلي يعلم سر العباد وجههم في الأرض، لا تخفى عليه خافية، ويعلم ما يعملون من الخير والشر.

والكفار مهما أتهم الآيات الدالة على وحدانية الرب، ﷻ، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها، ويكذبون بالقرآن والنبى محمد ﷺ فسيعلمون أخبار استهزائهم وجزاءه إذا عذبوا يوم القيامة، أفلا يخافون أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واستغلالاً للأرض وعمارة لها، وهم من الأموال والأولاد والأعمار، وإلجاء العريض، والسعة والجنود.

وأكثر الله عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، استدراجاً وإملاء لهم فأهلكهم الله بخطاياهم وسيناتهم التي ارتكبوها، وخلق بعدهم جيلاً آخر ليختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فهلكوا كهلاكهم، فليحذر كل مكذب أن يصيبه مثل ما أصابهم، فما هو بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبه أكرم على الله من رسولهم، فهم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

ومن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومنازعتهم فيه، أنهم لو أنزل عليهم القرآن في قرطاس وعانيوه، ورأوا نزوله، وباشروا ذلك لادعوا أن ذلك سحر وليس بحق

ومن مكابرتهم أن طلبوا أن تكون الرسل من الملائكة فرد الله عليهم لو نزلت الملائكة على ما هم

عليه من الكذب والجحود والعناد لجاءهم من الله العذاب.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْهَزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
 بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ
 كُنْزٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
 لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾
 ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ
 وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
 رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُّصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
 رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ
 فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾



لو بعث الله إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة رجل لثَقُمَ مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق، رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال.

ومع رد القرآن على مطالب المشركين المعاندين، تأتي التسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، وما وعده الله والمؤمنين به من النصر والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، وليفكر المكذبون ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم، من العذاب والنكال، والعقوبة في الدنيا، مع ما ادَّخَر الله لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نَجَّى الله رسله وعباده المؤمنين، وهو سبحانه مالك السموات والأرض ومن فيهن، وقد كتب على نفسه الرحمة، يرحم عباده المؤمنين، ويجمع الخلائق أجمعين يوم القيامة. والكفار الذين خسروا الدنيا والآخرة يوم القيامة، لا يزالون لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم، فلم يعدوا لهذا اليوم عدته.

ولله سبحانه كل ما في السموات والأرض، وما يمر عليه الليل والنهار، فكل دابة في السموات والأرض عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتديره، ولا إله إلا هو، وهو السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمايرهم وسرائرهم.

وهو سبحانه المستحق للعبادة دون سواه وهو خالق الخلق وموجدهم وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، فهل يتخذ أحد إلهًا سواه سبحانه وتقدس فهو الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له يرزق عباده ولا يرزقونه.

فيعلن المسلم التوحيد اقتداء بأول المسلمين من هذه الأمة، نبيه محمد ﷺ، ويتبرأ من الشرك ووسائله وطرقه الموصلة إليه، وأهله، فإن من عصى الله له العذاب الأليم يوم القيامة، ومن يصرف عنه عذاب الآخرة فهو من المرحومين وكان من الفائزين، فسبحان الله مالك الضر والنفع، والمتصرف في خلقه بما يشاء، لا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا رَادَّ لقضائه خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره، وهو حكيم في جميع ما يفعله، خبير بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا الحكمة ولا يمنع إلا الحكمة.

قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا
 الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ
 إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِمَّا
 تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
 أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
 مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
 ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ
 الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ
 رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى
 قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ
 لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
 إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ
 يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ
 فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

الله ﷻ أكبر شهيد على صدق دعوة محمد ﷺ، وهو العالم بما جاء به، والقرآن الكريم نذير لكل من بلغه، والمشركون يشهدون بالشرك زورًا، ودعوة سيد المرسلين تشهد بالتوحيد الذي أرسلت به الرسل، فأَيُّ الشهادتين حق، إنها شهادة التوحيد، وأهل الكتاب الجاحدون المكذبون يعرفون التوحيد، ورسالة نبي التوحيد ودعوته بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشرُّوا ببعثة محمد ﷺ وصفته، وبلده ومُهاجره، وصفة أمته؛ والمشركون من أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يخفون الحقيقة حسدًا ومكابرة، فخسروا بذلك الدنيا والآخرة لأنهم لم يؤمنوا بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه.

وأعظم الناس ظلمًا من تَقُول على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كَذَّب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، فلا يفوز عند الله المفترى ولا المكذب.

ويوم القيامة يحشر المشركون فيسألون عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دون الله فتكون حجتهم، ومعدرتهم، إنكار الشرك، فإنهم إذا رأوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى وتجاوزة عن أهل التوحيد قال بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجا مع أهل التوحيد، فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالكفر فكذبوا على أنفسهم، وعلى ربهم وما علموا أنه سيكون عليهم شهيدًا من أنفسهم.

وزال وذهب عنهم ما افتروه في الأصنام، بأنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها، فبطل صنيعهم كله في ذلك اليوم، وحين يحرم الإنسان من الانتفاع من الحق، لا يقبل ما يسمعه من الحق، وقد كان مشركو العرب يجيئون ليسمعوا قراءة النبي ﷺ، ولا تجزي عنهم شيئًا؛ لأن الله جعل على قلوبهم أغطيةً لئلا يفقهوا القرآن وفي آذانهم صمًا عن السماع النافع، ومهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات، لا يؤمنوا بها، فلا فهم عندهم ولا إنصاف، ويحاجون النبي ﷺ ويجادلون الحق بالباطل ويقولون هذا الذي جئت به، مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم.

وينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والانقياد للقرآن، ويتعدون عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا يتفنعون ولا يتركون أحدًا يتفنع، وهم بذلك أهلكوا أنفسهم بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

وهم يوم القيامة إذا وقفوا على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، تمنوا أن يُردُّوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملًا صالحًا، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين.

بَلْ بَدَأْتُمْ مَآكَانًا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
 وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
 بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا
 بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ
 ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ
 بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
 عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
 لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
 ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْرُنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
 وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ
 رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا
 وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَايِ الْمُرْسَلِينَ
 ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَارُكَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِطِعْتَ أَنْ تَبْغِيَ
 نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ
 اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

يوم القيامة يظهر للكفار ما يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها، في الدنيا أو في الآخرة، ويظهر ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرين لأتباعهم خلافه.

وحين يرون العذاب يتمنون الرجوع للدنيا، وهم يطلبون ذلك ليس رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا عما شاهدوا من النار؛ فهم كاذبون في تمنيتهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان.

فهم لو ردّوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة، ولقالوا ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا معاد بعدها؛ حين يوقفون بين يدي الله فيقال لهم أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون، فيقرون أنه حق فيقال لهم ذقوا العذاب الذي كنتم تكذبون به، ذوقوا اليوم مسّه، فالخاسر من كذب بيوم القيامة، فيا خبيته إذا جاءت الساعة بغتة، ويا ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعال، وهم يحملون أثقالهم وذنوبهم وسيئاتهم وآثامهم فبئس الحمل الذي يحملونه، وبئس العمل الذي يقابلون به ربهم، وهذه الحياة لعب وهو وزينة لأهل الدنيا، وأما الدار الآخرة فهي لأهل التقوى الذين اتقوا ربهم وعملوا بمرضاته في الحياة الدنيا فلهم حسن العاقبة في الدار الآخرة، فالعقلاء هم الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا ويعملون من أجلها، والداعية إلى الله الذي يعمل لنشر الخير والصالح ويدعو للخير لا يضره ولا يلجزه ولا يفتر في عضده كثرة المخالفين والمحاربين للخير، وأصحاب الأقلام المأجورة، ودعاة السوء، فقد أوصى الله نبيه محمداً بعدم الالتفات إلى ما يقابله به الكفار من التكذيب، وعدم الحزن على مواقفهم فهم يكذبون الله ويكفرون بآيات الله، وهذا طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتأتي التسليّة للنبي ﷺ والتعزية له فيمن كذبه من قومه، والأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد الله بالنصر كما نصره وبالظفر، حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البالغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ وهذه سنة الله التي كتبها، النصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، وقد قص الله خبر الأنبياء كيف نُصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فللنبي ﷺ والدعاة من بعده فيهم أسوة بهم قدوة، وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص، وكانوا إذ سألوا آية أحب أن يرهم الله تعالى ذلك طمعاً في إيمانهم، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة، حتى لو اتخذ طريقاً تحت الأرض أو درجاً ومصعداً يرقى به إلى السماء ليأتيهم بالآيات، فلن يؤمنوا لأن الله كتب عليهم الشقاوة، ولو شاء الله لأمتوا ولكن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت أن يبقوا على الضلال.

﴿٣٦﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
 يُرْجَعُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
 قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا
 مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ
 مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٩﴾
 وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ
 يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٠﴾ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ
 تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا
 تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
 يَضُرَّعُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
 وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ فَلَمَّا
 نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ
 حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٥﴾

الذين يستجيبون لنداء الحق هم أصحاب القلوب الحية، الذين يستمعون إلى الحق، استماع استجابة وإيمان، وأما موتى القلوب، فهم كموتى الأجساد لا يؤمنون، والجميع سيبعثهم الله يوم القيامة ليجازيهم بأعمالهم.

ويبقى المعاندون يسألون الرسول ﷺ الخوارق والمعجزات تعنتًا واستكبارًا والله قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأن إنزالها وفق ما طلبوا، سيعاجلهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا كما فعل بالأمم السالفة.

وكل دابة تدب على الأرض وكل طائر يطير في السماء أمم أمثال بني آدم يفقه بعضهم عن بعض، وأمثالهم في الخلق والموت والبعث، وأمم أمثالهم في التوحيد والمعرفة، وأمم أمثالهم في الغذاء وابتغاء الرزق وتوقّي المهلك، فقد قدر الله المقادير وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، والجميع يحشرهم الله يوم القيامة، البهائم والدواب والطير، وكل شيء فيؤخذ للجاء من القرناء، ثم يقول الله كوني ترابًا فحينئذ يتمنى الكافر ويقول يا ليتني كنت ترابًا.

فالذين كفروا لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به، فمثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل الأصم الذي لا يسمع، والأبكم الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلام لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، فهم في ضلالات الكفر، فقد شاء الله ضلالهم، ومن شاء الله هدايته ثبته على الإسلام فهو الهادي سبحانه إلى صراط مستقيم

فهو سبحانه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، لا مُعَقَّب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل أجاب، يجيب من يشاء؛ فهو لاء المشركون إذا نزلت بهم المحن لا يدعون غيره لعلمهم أنه لا يقدر أحد على دفعها سواه؛ فلو كانوا صادقين في اتخاذ الآلهة مع الله، فلماذا لا يدعونها في الشدائد، بل لا يدعون في وقت الضرورة أحدًا سوى الله وتذهب عنهم أصنامهم وأندادهم، والله سبحانه يبتلي عباده بالفقر والضييق في العيش والأمراض والأسقام والآلام ليرجعوا إلى ربهم، يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون له.

فلو أن العباد إذا ابتلاهم الله بذلك تضرعوا إليه واستكانوا إليه لأجابهم ورحمهم، ولكن القلوب غافلة لم تخشع ولم تلن، وزين لهم الشيطان الشرك والمعاصي، وأغراهم بالتفادي والإعراض، فلما أعرضوا عن الله وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم، فتح الله عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عيادًا بالله من مكروه؛ فلما فرحوا بالدنيا من الأموال والأولاد والأرزاق جاءهم العذاب على غفلة فإذا هم آيسون من كل خير.

فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ
 مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرَفُ الْأَيِّدِ
 ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ
 بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
 نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
 فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ
 عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ
 إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ
 أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا
 إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
 ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

إذا جاء العذاب بعد استدراج استأصل الله بالعذاب الأمة المكذبة فلم يبق منهم باقية، فيهلكهم عن آخرهم، وإهلاك المكذبين المعاندين نعمة تحتاج إلى شكر وثناء على الله، فأمر الله بحمده على كفايته شر الظالمين، وأهلاك المكذبين، وبين الله آياته الدالة على التوحيد والنبوة للمعاندين المكذبين؛ فإذا أخذ الله سمعهم حتى لا يسمعون شيئاً أصلاً، وأخذ أبصارهم فلم يبصروا شيئاً، وغلف قلوبهم وغطاها فلا يفقهون شيئاً ولا يعرفون مما يعرفون من أمور الدنيا، فمن الذي يستطيع أن يرد عليهم ما أخذ الله منهم؟ فهل بعد هذا البيان يعرضون ويكذبون، وإذا جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون به فيبغتهم ويفاجئهم، أو يأتيتهم ظاهراً عياناً فلن يحيط إلا بظالمي أنفسهم بالشرك، وينجي الله الموحدين الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فإنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فالرسل مهمتهم البشارة والندارة، مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله بالعقوبات، فمن آمن قلبه بها جاءت به الرسل وأصلح عمله باتباعه إياهم، فلا يخاف ما يستقبله، ولا يحزن على ما فاتته وتركه وراء ظهره من أمر الدنيا، فالله وليه فيها خلفه، وحافظه فيها تركه، والذين كفروا بها جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرماته يصيبهم العذاب بسبب كفرهم وإعراضهم، والرسل بشر ليس لهم من خصائص الإلهوية ولا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً إلا ما كتبه الله على أيديهم وليس بأيديهم خزائن السموات والأرض بل هي بيد الله، ولا يعلمون الغيب بل هو من علم الله ﷻ، لا يطلع إلا ما يطلع الله عليه أحدًا من رسله، والرسل ليسوا من الملائكة بل هم أفضل منهم، وهم بشر شرفهم الله بالنبوة وأفضلهم نبينا محمد ﷺ، وهم متبعون لما أوحى إليهم من الوحي لا يخرجون عنه، وإنما هم مبلغون عن رب العالمين، ولا يستوي عند الله من اتبع الحق وهدى إليه، ومن ضل عنه ولم ينقذ له، فالمتبعون للرسل المهتدون بهدي القرآن لهم العاقبة الحميدة عند ربهم، أنذرهم القرآن بمواعظه وزواجره فكانوا من أخشى الناس لله، مشفقون خائفون من عذاب الله، يعدون ليوم الحشر والنشور الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا قريب، التقوى شعارهم ودثارهم يعملون في الدنيا عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه، يدعون ربهم بالليل والنهار، ويقىمون الصلوات المفروضات، ويخلصون بذلك الله تعالى، ويبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات.

وقد أمر الله النبي ﷺ بمجالسة أمثالهم، وإن لم يكن لهم من حطام الدنيا شيئاً، ولو كانوا فقراء وأرقاع لمكانتهم عند الله، فنهى النبي ﷺ عن طردهم وإبعادهم لإرضاء لسادة قريش، ويوجه الله نبيه بأنه لا يكلف أمرهم ولا يتكلفون أمره، وليس رزقهم عليه فيمْلَهُم، بل الله مولاهم نعم المولى ونعم النصير

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَاحِقٌ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٩﴾

يبتلى الله عباده بعضهم ببعض، فابتلى الغني بالفقير والشریف بالوضيع، وذلك أن الشریف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له، كبيراً ويطراً واحتقاراً أن كان هؤلاء خير منهم والله أعلم بمن شكر الإسلام إذ هداه الله ﷻ إليه، وعرف نعمة الله عليه، وأحسن بمنة الله عليه أن هداه للإسلام، ومن هؤلاء الذين نهى الله ﷻ نبيه عن طردهم، وكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلاام، ومن رحمة الله لعباده أن قضى على نفسه الرحمة، ومن ذلك قبول توبة التائب فمن عمل معصية وآثرها على الطاعة ثم رجع عن ذنبه، وأخلص توبته، وندم على ذنبه فإله غفور للذنوب رحيم بالتائب، وما بينه القرآن من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، وذم المجادلة والعناد، إيضاح لطريق المجرمين المخالفين للرسول، حتى يجتنبها المؤمنون، ودعوة الأنبياء لبيان الحق والبلاغ، ودعوة سيد المرسلين ﷺ على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليه، فلا يتبع أهواء المشركين وعاداتهم، فهي طريق الضلال، والنبي ﷺ يهتدي بنور الوحي، يبلغ دين الله، ولا يضره تكذيب المكذبين وعذاب الله الذي يستعجلونه إنها هو بيد الله إن شاء عجل لهم، وإن شاء أنظرهم وأجلهم؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، فالحكم لله فهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده.

ولو كان مرجع العذاب الذي يستعجلون به إلى النبي ﷺ، لأوقع بهم ما يستحقونه من ذلك لطلبهم ذلك، مع أنه لم يستعجل عليهم، بل قال لملك الجبال: (أستأين بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده الله وحده لا شريك له)، ولكن أمر العذاب إلى الله تعالى، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، فعنده سبحانه مفاتيح الغيب الخمسة، عنده علم وقوع الساعة وقيام القيامة، ولا يعلم وقت نزول الغيث ومكانه إلا الله، وما يخلق في الأرحام لا يعلمه إلا الله، وليس العلم بذلك مقصوراً على تحديد النوع بل الأمر أعظم من ذلك لا تحيط به العقول البشرية، وكسب الأرزاق لا يعلم تحديده إلا الله، ولا تعلم نفس أين ستموت، فهو سبحانه العليم الخبير، والعباد قاصرون في معرفة تلك المغيبات، وكل هذه المفاتيح تتعلق بالحياة، فالساعة نهاية الحياة الدنيا، والغيث تحمي به الأرض والبلاد والعباد، وحياة الأجنة واستقرارها وخلقها بيد الله، والأرزاق فيها قوام حياة الناس، والموت نهاية كل حي، فمنذ أن خلق الله الجنين في بطن أمه وكتابة رزقه وإنزال ما فيه حياته من الغيث إلى نهاية حياته في الدنيا، إلى نهاية العالم الدنيوي بأسره، فعلمه إلى الله، وهو سبحانه محيط بكل شيء في المفاوز والقفار، والقرى والأمصار، لا يحدث فيها شيء إلا يعلمه، وفي لجج البحار، وما تسقط من أوراق وما ينبت وما لا ينبت، ولا حي ولا ميت، فالكل مكتوب في اللوح المحفوظ.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ
 يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
 ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ
 وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ
 رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ
 أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ
 ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ
 لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ
 ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا
 مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم
 بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾
 وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ
 نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي
 ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
 الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾

النوم وفاة صغرى، وهو نعمة عظمى، والعباد تحت قدرة الله، فهو القادر على إحيائهم وإماتتهم، ويعلم ما يكسبون من الأعمال بالنهار فعلمه تعالى محيط بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكوتهم وفي حال حركتهم، وبعد النوم حياة إلى أجل الإنسان المحدد، نسأل الله أن يتوفانا مسلمين، ويوم القيامة نجبر الله عباده بأعمالهم ويميزهم على ذلك إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا، وهو سبحانه الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبرياته كل شيء، ويرسل من الملائكة من يحفظون الإنسان، وحفظة يحفظون عمله ويحسونه عليه

فإذا حضر الأجل واحتضر أخذت روحه الملائكة مع ملك الموت، يخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الخلقوم، وهم لا يفرطون في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ﷻ، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عبادًا بالله من ذلك، وجميع الخلائق كلهم يردون إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، وهو سبحانه الذي ينجي عباده إذا استغاثوا به ودعوه جهرًا وسرًا وهم في لجج البحار، ويسألون ربهم لئن أنقذهم من هذه الشدائد آمنوا وأخلصوا، ولكنهم يرجعون إلى غيهم وباطلهم، وهو سبحانه القادر أن يرسل عذابًا من السماء أو من تحت الأرض، فيرجمون بحجارة من السماء أو يخسف الله بهم الأرض، أو يجعلهم مختلفين متفرقين متنازعين يقتل بعضهم بعضًا، وهذا ما وقع لأمة محمد ﷺ فجعل بأسهم بينهم، وسلط بعضهم على بعض، فلو فقهت الأمة هذا الداء وحاولت بالعلاج والاجتماع، وأخذت بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ فإن ذلك طريق النجاة. والرسول ﷺ ليس عليه إلا البلاغ، وليس موكل بهداية الناس، وقد كذبت قريش بالقرآن وهو الحق فما استطاع هدايتها، وما عليه إلا البلاغ، وعليهم السمع والطاعة، فمن اتبعه، سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفه، فقد شقي في الدنيا والآخرة، وسيعلمون حقيقة تكذيبهم يوم القيامة حين يرون العذاب.

ومن أسباب الضلالة مجالسة الضالين المكذبين، وقد نهي النبي ﷺ عن مجالسة الذين يخوضون بآيات الله ويستهزئون، والأمر له ولأمرته ولكل فرد من آحاد الأمة، ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسيًا فلا يجلس بعد التذكر مع الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم.

وكذلك مجالسة أهل البدع والضلال، أو سماع شبههم وأباطيلهم، فقد تورث فتنة في قلوب بعض

المسلمين

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءًا وَلَهُوًّا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلَّ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِّلنَّاسِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنَّ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

إذا أمر المسلم بالمعروف ونهى عن المنكر، وتجنب مجالس أهل الباطل، فلم يجلس معهم في باطلهم، فقد بريء من عهدهم، وتخلص من إثمهم، والأمر بالإعراض عنهم تذكيرًا لهم عما هم فيه من الخطأ؛ لعلهم يتقون ذلك، ولا يعودون إليه.

فالذي اتخذ دينه لعبًا وهزواً واغتر بطول الحياة الدنيا وزهرتها فإنه صائر إلى عذاب عظيم؛ وهذا مصير المكذبين المستهزين، الذين ضلوا عن الصراط المستقيم، وتفرقت بهم السبل، والقرآن الكريم ذكرى، تذكر به النفوس المؤمنة، ويذكر به الناس، ويجذرون به نعمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة، من قبل أن تحبس النفس بما عملت يوم القيامة، فلا ينفعها قريب ولا حبيب، ولو بذل كل مبدول ما قبل منه، فلو أنفق ما في الأرض جميعاً لم يستطع أن يفتدي نفسه من العذاب، فهو من المالكين الذين أيسوا من الخير، واحتسبوا بأعمالهم، وذلك بما عملوه في الدنيا من الكفر والإعراض، فلهم في النار شراب من ماء حار قد اشتد حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، وذلك مصير مَنْ عبد غير الله، وصرف العبادة إلى ما لا ينفعه ولا يضره، والمسلم يعتز بالانتفاء لهذا الدين، ويحمد الله أن هداه للإسلام، ويأخذ بأسباب الثبات، ويدعو ربه ألا يضلّه بعد الهداية، فعمدة الهداية للصراط المستقيم من أعظم النعم، والمسلم يخاف من الضلالة بعد الهداية، فإن مثل من ضل بعد الهداية كمثّل رجل كان مع قوم على الطريق فضّل الطريق، فحيرته الشياطين، وأضلته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونهم إليهم يقولون: ائتنا فإننا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبع المشركين بعد المعرفة بدين الإسلام وإتباع سيد الأنام ﷺ فهو الداعي إلى الطريق، والطريق هو الإسلام، ومن أسباب الثبات إقامة الصلاة المفروضة والتقرب إلى الله بنوافل الصلوات، وملازمة تقوى الله في جميع الأحوال، في السر والعلن والغيب والشهادة، وفي العسر واليسر، ويستعد المسلم بالعمل ليوم القيامة يوم يحشر الله الخلائق كلها، فله سبحانه وحده الحكم، خلق السموات والأرض بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، والمدير لهما ولمن فيهما، وأمره كن فيكون، يكون أمره كلمح البصر أو هو أقرب.

وقوله الحق الذي لا مرية فيه، له ملك يوم القيامة، فلا ملك إلا للواحد القهار، يوم ينفخ إسرافيل في الصور، والنفخ في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث.

وهو سبحانه يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه، لا يغيب عن علمه شيء، والحكيم في أمره وحكمه، الخير بعباده فلا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء



﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي
 أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٧٥﴾
 فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ
 لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا
 رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
 الضَّالِّينَ ۝٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا
 أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾
 إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ
 أَتُحِبُّونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ
 إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
 تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا
 تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
 سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١﴾

إبراهيم ﷺ إمام الخنفاء وقدوة الأصفياء يدعو أباه أزر لعبادة الله وحده لا شريك له وقال له أنتأله لصنم تعبده من دون الله، فإن ذلك طريق الضالين التائهين الذين لا يبتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل، وناظر إبراهيم ﷺ أباه وقومه في الكواكب التي يصرفون لها العبادة، فأري إبراهيم ﷺ ملكوت السموات والأرض وما فيها مما يزيد الإيـمان من آيات الله العظيمة التي تدل على وحدانيته ﷻ، واستحقاقه للعبادة

فلما أظلم عليه الليل رأى كوكبًا مضيئًا، قال هذا ربي مناظرًا لهم، فهل يستحق هذا الربوبية، فلما غاب الكوكب قال هل يستحق العبادة من غيب ويختفي، فإن الإله المعبود يكون قائمًا بمصالح العباد، فمن أين يستحق العبادة، وإن اتخذه إلهًا من أسفه السفه.

فلما رأى القمر طالعًا، قال هذا ربي مناظرًا لهم، فهل يستحق هذا الربوبية، فلما غاب القمر قال هل يستحق العبادة من غيب ويختفي، فإن الإله المعبود يكون قائمًا بمصالح العباد، فمن أين يستحق العبادة، ودعا ربه سائلًا الهداية، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له.

فلما رأى الشمس مشرقة وهي أكبر من الكوكب ومن القمر، قال هذا ربي مناظرًا لهم، فهل يستحق هذا الربوبية؟ فلما غابت الشمس قال هل يستحق العبادة من غيب ويختفي؟ فإن الإله المعبود يكون قائمًا بمصالح العباد، فقرر باليقين أن المستحق للعبادة هو الله وحده لا شريك له، وتبرأ من كل ما يعبد من دون الله.

وأعلن التوحيد وتوجه بقلبه لله وحده، مقبلًا عليه، معرضًا عن من سواه، وتبرأ من الشرك، وأقر بالتوحيد، ولما قرر شرك قومه وحاجهم، حاجَّوه على توحيده، فكيف يحاجون من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات التوحيد، وقد بصره ربه وهداه إلى الحق، فكيف يلتفت إلى أقوالهم الفاسدة وشبههم الباطلة، وهذه الآلهة التي يعبدونها لا تؤثر شيئًا، ولا تنفع ولا تضر، ولا يخاف منها، إلا إن شاء الله، فالنفع والضرر بيد الله، وقد أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا تخفى عليه خافية، فهل يعتبرون أن هذه الآلهة باطلة، فيتركوا عبادتها.

ويقرر إبراهيم ﷺ التوحيد بقوله كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله، وأنتم تشركون بالله ما ليس لكم به حجة ولا برهان، وهو القاهر القادر على كل شيء، فأني منّا أحق بالأمن، الذي عبَد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيها أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة.

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ
 وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى
 قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
 هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
 وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
 وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلًّا مِّن الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
 الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
 وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
 بِهِ مَن يَشَاءُ مِّن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
 فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ
 ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدِهِ قُل لَّا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، وانقادوا إلى الله بالتوحيد ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة؛ لأنهم تبرؤا من أعظم الظلم وهو الشرك بالله، وقد أعطى الله نبيه وخليفه إبراهيم ﷺ الحجة والبرهان، حتى خصم قومه وغلبهم بالحجة، والله يرفع درجات من يشاء بالعلم والفهم والفضيلة والعقل، كما رفع درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاج قومه في التوحيد، والله حكيم في أفعاله وأقواله، عليم بمن يهديه ومن يضلّه، وإن قامت عليه الحجة والبراهين.

ومن إكرام الله لخليفه أن وهب له إسحاق، بعد أن طعن في السن، ومن بعد إسحاق يعقوب ووفقههم الله وأرشدهم وكرمهم بالنبوة، ومن قبل إبراهيم نوح ﷺ أول رسول أرسله الله بالتوحيد والتحذير من الشرك، ومن ذرية نوح ﷺ، داود بن أيشاء، وسليمان بن داود، وأيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، ويوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ، وموسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب، وهارون أخو موسى أكبر منه بسنة، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم.

والله يجزي المحسن على إحسانه كما جازى إبراهيم على توحيده بأن رفع درجته ووهب له أولاداً أنبياء أتقياء، ومن الأنبياء زكريا بن إذن، ويحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم بنت عمران، وإلياس ياسين ابن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران كلهم من الأنبياء الصالحين الذين بلغوا رسالات ربهم وإسماعيل بن إبراهيم، واليسع بن أخطوب بن العجوز، ويونس بن متى، ولوط بن هاران بن أخي إبراهيم، كلهم من الأنبياء المفضلين الذين فضلهم الله بالنبوة.

وقد اختار الله من المفضلين بعض آبائهم، وبعض ذرياتهم، وإخوانهم اصطفاهم الله وأرشدهم إلى الصراط المستقيم، وهو هدى الله الذي يهدي به من يشاء

ولو أشرك أحد من الناس لحبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين، وأما أنبياء الله الذين أنزل الله عليهم الكتب وشرفهم بالرسالة والنبوة والعلم والفقّه، ومن أوجب الله الإيمان بهم ومن كفر بنبوتهم فإن الله غني عنه وإن من عباد الله، فإن المؤمنين بالله يؤمنون برسول الله وأنبيائه، وهم الذين هداهم الله، فبستهم وسيرتهم يقتدي المؤمنون، والرسول تدعوا إلى الله ابتغاء الأجر والثواب وتبليغ رسالة الله، وأفضلهم نبينا محمد ﷺ لا يطلب على إيلاغ القرآن أجره، وإنما ذكرى يتذكرون به فيرشدون من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۚ
قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ
تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا
أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾
وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ
أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ
وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ
مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى
كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ
لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾

المكذبون من مشركي العرب ما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسوله الذي أرسله إليهم، وقالوا كيف يبعث الله بشرًا رسولًا، فرد الله عليهم بما يؤمنون به من إرسال موسى إلى اليهود فقد أنزل الله على موسى بن عمران التوراة نورًا وهدى للناس، يستضاء بها في كشف المشكلات، ويتبدى بها من ظلم الشبهات.

تلك التوراة التي يجعلونها قِطْعًا يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون، ويفترون على الله بما يحرفونه منها. وأنزل الله القرآن الذي علّم الله فيه العباد خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي مما لم يكونوا يعلمون ذلك هم ولا آباؤهم.

فإنه أنزل التوراة والقرآن، وهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون أهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين. فالقرآن أنزله الله بركة للمؤمنين، تُصَدِّق به الكتب السابقة، ليكون نذيرًا لأهل مكة ومن حولهم من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، فالمؤمنون يؤمنون بالقرآن وبالיום الآخر، ويقومون بما افترض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها، ويتخذون هذا القرآن دستور حياتهم، يتحاكمون إليه، ويعملون به، ويتدبرونه، ويستشفون به.

ومن أعظم الظلم وأكذب الكذب من اتخذ مع الله شريكًا أو ولدًا، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله؛ ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتره من القول، فلهم العذاب الأليم يوم القيامة، وعند الموت من سكراته وغمراته وكُرْبَاتِهِ، والملائكة يضربونهم وينزعون أرواحهم أشد النزع، فإن الكافر إذا احتضر بَشَّرَتْهُ الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسوله.

جاءوا وحدهم كما خلقوا أول مرة، وتركوا الدنيا وما جمعه فيها من النعم والأموال وتركوا الأنداد والأصنام والأوثان، التي كانوا يعتقدون أنها تنفعهم، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، لقد انقطع ما بينهم من الصلات والأسباب والوسائل، وذهب عنهم رجاؤهم بالأصنام.

﴿٩٥﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ذَلِكَمُ اللَّهُ فَاَنَّى تُوَفَّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

مما يدل على ربوبية الله ووحدانيته أنه سبحانه يشق الحب والنوى في الثرى فتنبت الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها، فيخرج النبات الحي من الحب والنوى، الذي هو كالجماد الميت، ويخرج الميت من الحي يخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، ويخرج الولد الصالح من الكافر، والكافر من الصالح، وهو الله وحده لا شريك له، فكيف يُصَرَّف الناس عن الحق يعدلون عنه إلى الباطل فيعبدون مع الله غيره، الذي خلق الضياء والظلام، يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل وظلماته، ويحيي النهار بضياؤه وإشراقه، فهو سبحانه القادر على كل شيء خلق الأشياء المتضادة المختلفة التي تدل على كمال عظمتة وعظيم سلطانه، جعل الليل ساجيًا مظلمًا تسكن فيه الأشياء، والشمس والقمر يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا، والجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يانع ولا يخالف، العليم بكل شيء، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، والنجوم جعلها الله زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، كل تلك الآيات بينها الله لقوم يعقلون ويعرفون الحق ويجتنبون الباطل.

وهو سبحانه خلق الخلق من آدم ﷺ، وخلق من آدم زوجته حواء، وجعل النسل يتكون من ماء الرجل وماء المرأة فيستقر في الأرحام بعد أن كان مستودعًا في الأصلاب، وهم في هذه الحياة في دار الممر والمستودع، وفي الآخرة المستقر كل ذلك آيات لقوم يفهمون ويعنون كلام الله ومعناه، ومن آياته إنزال الماء من السماء بقدر مباركا، رزقًا للعباد وغياثًا للخلائق، رحمة من الله لخلقه فأخرج به نبات الأرض، من الزرع والشجر الأخضر، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والثمر؛ ويركب بعضه بعضًا، ومن النخل يخرج عُدُوق الرطب، قريبة من المتناول، ويخرج من الماء جنات من أعناب، وجنات من الزيتون والرمان يتشابه في الورق، قريب الشكل بعضه من بعض، ويتخلف في الثمار شكلاً وطعمًا وطبعًا.

فليتفكر العباد في قُدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حَطْبًا صار عِنَبًا ورطبًا وغير ذلك، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعم والروائح، فهل يعتبر بذلك الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا في عبادة الله أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم، فإنهم إنما عبدوا الأصنام طاعة للجن فقد أمرهم بذلك، واختلقوا وكذبوا، بأن وصفوا الله تعالى بأن له ولدًا، كما يزعم اليهود في عزيز، والنصارى في المسيح والمشركون من العرب في الملائكة، أنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وتقدس الله وتنزه وتعظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء، فهو مبدع السموات والأرض وخالقهما ومنشئهما، وهو بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذي لا نظير له فأنى يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
 فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ
 الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾
 قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ
 فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ
 الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾
 اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
 حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا
 لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
 لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
 جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ
 يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

الله الذي خلق كل شيء أمر عباده بعبادته وحده لا شريك له، والإقرار له بالوحدانية، وأنه لا إله هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عدیل وهو على كل شيء حفيظ وراقب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلوهم بالليل والنهار، لا تدركه الأبصار في الدنيا، وهو يرى في الآخرة، وهو لا يخفى عليه شيء ولا يفوته، وهو اللطيف بأوليائه الخبير بهم، وقد أنزل الله في كتابه العزيز البينات والحجج، وما جاء به الرسول ﷺ فمن اهتدى فلنفسه، ومن لم ينتفع بهذه البينات، فإنما يعود وبال ذلك عليه، والرسول ﷺ ليس بحافظ ولا رقيب، بل هو مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، والله يوضح الآيات ويفسرها ويبينها في كل موطن لجهالة الجاهلين، والمشركون والكافرون المكذبون يتهمون النبي ﷺ أنه دارس أهل الكتاب وتعلم منهم، وتوضيح الآيات في القرآن لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه.

ولله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء، ويأمر الله رسوله ﷺ ومن أتبع طريقته باتباع الوحي، واقتفاء أثره، والعمل به؛ فإن ما أوحى إلى الرسول من ربه هو الحق الذي لا مزية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو، وأمر الرسول ﷺ بالعفو عن المشركين والصفح عنهم، واحتمال أذاهم، حتى يفتح الله لنبيه وينصره عليهم، والله الحكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، ولو شاء ما أشركوا، فله المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وما الرسول ﷺ بحافظ يحفظ أفعالهم وأقوالهم، وليس موكل على أرزاقهم وأمورهم، فما عليه إلا البلاغ، ونهي النبي ﷺ والمؤمنون عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا إنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو، فقد زين الله لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار لها، والله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره، ثم إلى الله معادهم ومصيرهم، فيجازيهم بأفعالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ويقسم الكفار بالله أيماناً مؤكدة، لئن جاءتهم معجزة ليصدقن، وما علموا أن مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء أجابهم، وإن شاء تركهم، وما يدرى المؤمنين بصدقهم في هذه الأيمان التي يقسمون بها، فالغالب في أمرهم أنهم لا يؤمنون، ولما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء ورُدَّت عن كل أمر، وحيل بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنون، كما حال الله بينهم وبين الإيمان أول مرة، ويوم القيامة لو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حيل بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا، ويتركون في كفرهم وضلالهم يترددون.

﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا
 عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ
 أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
 شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ
 الْأَقْوَالِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ
 ﴿١١٢﴾ وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ
 أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا
 وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
 فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
 وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ
 تُطِيعِ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ
 يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾
 فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

الذين كتب الله عليهم الشقاء والكفر، لو نزلت عليهم الملائكة، تخبرهم بالرسالة من الله بتصدق الرسل، وبعث لهم الموتى فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل، وعرضت عليهم الأمم كل أمة بعد أمة تخبرهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به، لم يؤمنوا لأن الهداية إلى الله، لا إليهم، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته. والكفار مع كفرهم وجحودهم أعداء للرسل يخالفونهم، ويعادونهم، وهم من الجن والإنس، مردوا عن طاعة الله وخرجوا عن عبادته، يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزوق الذي يغتر به سامعه، فالشياطين أعداء للرسل وأتباعهم، وقد يغلب شياطين الإنس شياطين الجن في الإغواء والإغراء، ولو شاء الله ما سلطوا، ولم يكونوا أعداء للرسل وأتباعهم، ولكن لحكم عظيمة، أَرادها الله، وكل شيء بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيتته

والمسلم يستعين بالله ولا تضره عداوتهم ويتوكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيه وناصره عليهم، وقد يوجد من يميل قلبه وعقله وسمعه إلى شياطين الإنس والجن. ويحبون ويريدون ما يلقونه من أساليب الغواية، ولا يستجيب لذلك إلا من لا يؤمن بالآخرة، فليكتسبوا من الذنوب ما هم عاملون.

والمسلم لا يرتضي بحكم الله وحكم رسوله محمد ﷺ بديلاً؛ لأنه خير الأحكام، أنزله الله واضحاً مبيناً في كتابه العزيز، وأوضحه نبيه ﷺ في سنته، واليهود والنصارى يعلمون صدق القرآن ورسالة سيد الأنام ﷺ بما عندهم من البشارات به من الأنبياء المتقدمين، ولا يوجد لدى المسلم شك ولا ريب أن الكفار يعلمون صدق رسالة الإسلام.

فكل ما أخبر به النبي ﷺ حق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، لأنه وحي يوحى، فليس لأحد أن يُعقَّب على حكم الله تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.

والحق لا يعرف بكثرة الأتباع، فأكثر حال أهل الأرض من بني آدم ضلال، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل، والله أعلم بمن يضلّه فيسيره للضلالة، وهو أعلم بمن يهديه فيسيره للهداية، وكل ميسر لما خلق له.

ومن هداية الله لعباده إباحة الطيبات، وتحريم الخبائث ومن الطيبات ما ذكر عليه اسمه من الذبائح، أما من لم يذكر اسم الله عليه فيحرم أكله لأنه من الخبائث.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ
بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾
وَذَرُوا ظَهْرَ الْأَثَرِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَثَمَ
سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى
أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾
أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ
زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا
فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ
آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

أباح الله تعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح التي ذكر عليها اسمه، ولم يبح التي لم يذكر اسم الله عليها، كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها، وقد بين الله لعباده ما حرم عليهم ووضحه، حتى في حال الاضطرار، يباح لهم ما وجدوا، وهذا من يسر الشريعة وسماحتها، وإذا تركت التسمية عمدًا فلا تحمل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها، ولو كان الذابح مسلمًا. وأما المشركون فإن من آرائهم الفاسدة استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى، والله أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم، وإن كثيرًا من المضللين، إنما يضلون غيرهم بالأهواء والشهوات، ويعتدون على شرع الله بالتحليل لما حرم الله، فيضلون غيرهم بلا علم ولا هدى.

والمسلم يترك معصية الله في السر والعلانية قليلها وكثيرها، فمن اكتسب السيئات فسيجازى بها، وهو تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

والشياطين من الجن والإنس، يوصي بعضهم بعضًا، بالمجادلة بالباطل، وإعمال العقل أمام الشرع، فيقولون نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله، وهذا من استخدام العقل أمام النقل، فمن عدل عما أمره الله به وشرعه له إلى قول غيره فقدم عليه غيره فذلك من الشر، والشياطين من الجن والإنس يوحون إلى أوليائهم بعض الحجج الشيطانية ليردوا بها شرع الله تعالى، وليلبسوا بها الحق، وأما المؤمن الذي أحياه الله بنور الوحي والرسالة بعدما كان هالكًا حائرًا، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وهداية له ووقفه لاتباع رسله، وجعل له نورًا يهتدي به، فهو على نور من ربه وهداية فلا تضره أساليب الشياطين، وأما الكافر فهو في الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، لا يهتدي إلى منفذ، ولا يخلص مما هو فيه، وقد عجل الله له العقوبة في الدنيا فزين له سوء عمله فرآه حسنًا، وتلك من العقوبات المعجلة.

ومكر الكفار وكيدهم لجميع الأنبياء وأتباعهم لا ينقطع، فرؤساء الشر ودعاة الكفر والصد عن سبيل الله، يدعون إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، وما يعود وبال مكرهم وإضلالهم إلا على أنفسهم، وإذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا لن نؤمن حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، والله أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، ومن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله الذلة الدائمة، لأنهم لما استكبروا أعقبهم ذلك ذلًا، ولهم العذاب الشديد يوم القيامة جزاءً وفاً.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ أَسْتَكَثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾



الهداية من الله يهبها من يشاء من عباده فمن أراد الله له الهداية، يسرها له ونشطه إليها وسهلها عليه فبوسع قلبه للتوحيد والإيمان به، فيشرح له صدره وينفح فينب إلى دار الخلود، ويتجافى عن دار الغرور، ويستعد للموت قبل لقاء الموت، ومن أراد الله له الضلالة يجعل قلبه ضيقاً لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه، فليس للخير فيه منفذ، فيضيق بلا إله إلا الله، حتى لا تستطيع أن تدخله، كأنها يصعد في السماء من شدة ذلك عليه. فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه.

وحاله حال من ضاق تنفسه كما ارتفع إلى السماء، وقد أثبت العلم التجريبي أن الإنسان كلما ارتفع ضاق تنفسه، ويسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصده عن سبيل الله، وهذا الدين الذي شرعه الله لأمة محمد ﷺ بها أوحى إليه هذا القرآن، وهو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، قد وضع الله فيه الآيات وبينها، لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله. فلهم الجنة يوم القيامة. وهي دار السلام لسلامتهم فيما سلوكه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أقضوا إلى دار السلام. والله وليهم، وحافظهم وناصرهم ومؤيدهم، وهو السلام ﷺ جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهاهم الله وأثابهم الجنة، بمنه وكرمه.

وأما الذين كفروا وكذبوا فسيحشرون يوم القيامة إلى ربهم، من الجن وأوليائهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، فقد استكثر الجن من إضلال الإنس وإغوائهم، واستمتع الإنس بالجن فيما يتعوذون بهم في الدنيا، وكان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: "أعوذ بكبير هذا الوادي"، وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون: قد سُدْنَا الإنس والجن، وقد بلغ الجميع أجلهم في الحياة الدنيا بالموت، وفي الآخرة مأواهم ومنزهم النار هم وأوليائهم، ماكنين مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله، وكما ولي الله هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك يفعل الله بالظالمين، يسلط بعضهم على بعض، ويهلك بعضهم ببعض، وينتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم، والله ﷻ أرسل للجن والإنس رسلاً يبلغونهم، وسيأسأهم يوم القيامة عن ذلك فيجيبون، أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأئذروننا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة، ولكنهم فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، وأقروا يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا كافرين بما جاءهم به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب لتكون حجة على الخلق، لئلا يعاقب أحدٌ وهو لم تبلغه دعوة، وما عذب الله أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، لينهوههم على حجج الله عليهم، وينذروهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة.

وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ
 يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا
 أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا
 تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَتَقَوْمِ
 أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
 مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
 ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
 نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْزَعِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
 فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ
 وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ
 سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ
 لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ
 شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

لكل عامل من طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا، والله عالم بأعمال العباد، يحصيها ويثيبها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقاءهم إياه ومعادهم إليه، والله الغني عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهو رحيم بهم وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، وهو القادر على عقوبتهم إذا خالفوا أمره، ويأتي بقوم آخرين، يعملون بطاعته فهو القادر على إهلاك الكفار والمخالفين، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعدها، وهو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، وما يوعد به العباد من أمر المعاد كائن لا محالة، ولا يعجز الله شيء، بل هو قادر على إعادة عباد، وإن صاروا ترابًا رفاتًا وعظامًا.

وليعمل كل عامل على طريقته إن كان يظن أنه على هدى، والمؤمن باق على عمله لا يضره من خالفه ولا من عاده، وفي يوم القيامة يتبين من له العاقبة الحميدة، وقد أرى الله نبيه ﷺ حسن العاقبة في الدنيا، فقد أنجز له وعده، صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكن له في البلاد، وحكمه في نواحي مخالفته من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته.

ونصر الله نبيه ﷺ على المشركين الذين ابتدعوا بدعًا وكفرًا وشرًا، وجعلوا لله جزءًا من خلقه، وهو خالق كل شيء ﷻ عما يشركون، فإذا حرثوا حرثًا، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءًا وللوثن جزءًا، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمي لله ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وكانوا يحرمون من أمواهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله، فما جعلوه لله من ذبح يذبحونه، لا يأكلونه أبدًا حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، فساء ما يقسمون، فإنهم أخطؤوا أولًا في القسمة، فإن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك، وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته، لا إله غيره، ولا رب سواه. ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة التي هي فاسدة، بل جاروا فيها.

ومن ضلالهم ما زينت الشياطين لهم من قتل أولادهم خشية الإملاق، ووَاد البنات خشية العار، وما يفعل هؤلاء من الضلال واقع بمشيئة الله تعالى وإرادته واختياره لذلك كوثًا، وله الحكمة التامة في ذلك، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، والله محاسبهم على ضلالهم وافترائهم.

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ
 نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ
 أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ
 خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ
 مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ
 حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
 سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ
 قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي
 أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
 مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ
 مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَعَاشُوا حَقَّهُ يَوْمَ
 حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
 وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
 اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾



من ضلال المشركين تقسيمهم الأنعام، وتحريمها على أنفسهم أو على بعضهم، فقد أوحى إليهم الشياطين بهذا التحريم، فحرموها على من يشاؤون

فحرموا ركوب البحيرة والسائبة والحام، ومن إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، كذباً منهم على الله في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه، فإن الله لم يأذن لهم في ذلك ولا رضىه منهم، وسيجزئهم الله على كذبهم، ومن ضلالهم وكذبهم على الله أنهم كانوا يجرِّمون اللبن على إناثهم، ويشربه ذكراهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك، وسيجزئهم وصفهم الكذب بتحريمهم الحلال وتحليلهم الحرام لأن الله حكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وعليم بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

فقد خسروا في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا خسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم، وكل ذلك بجهلهم وضعف عقولهم وتلك حالة من ابتدع وغلا في دين الله فهو في الضلال المبين، لأن التحليل والتحريم إلى الله، وهو سبحانه الخالق لكل شيء، من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزَّؤوها، فجعلوها حراماً وحلالاً فهو الذي أخرج الجنان من الزروع المعروشات مما عرش الناس، مثل العنب، وغيره مما خرج في البر والجبال من الثمرات، ومما خرج من النخيل من التمور ومما خرج من الأشجار من الزيتون والرمان، مما هو متشابه في المنظر، وغير متشابه في الطعم.

يأكل المسلم من رطبه وعنبه، بلا سرف ولا تبذير، ويؤدي حق الله فيه من الزكاة المفروضة بلا إسراف في الإعطاء، فيعطي المعروف.

ومن نعم الله على عباده ما خلق لهم من الأنعام مما يحمل عليه كالإبل، ومما هو أصغر منه من الفرش من صغار الإبل ومن الغنم

يأكل المسلم مما أنعم الله عليه من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لعباده، ولا يتبع طرائق الشيطان وأوامره، كما يتبعها المشركون الذين حرَّموا ما رزقهم الله، من الثمار والزروع افتراء على الله، فالشيطان عدو للإنسان ظاهر العداوة على المسلم أن يحذر من طريقه.

ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ
 قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
 أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾
 وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ
 حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ
 أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن
 أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ
 فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ
 مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ
 فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَن اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
 رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
 كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
 شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا
 اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

بين الله سبحانه أصناف الأنعام فمنها الغنم ومنها ما هو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز ذكره وأنثاه، ومن الأنعام الإبل ذكورها وإنثاه، والبقر كذلك، لم يحرم الله شيئاً منها ولا من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم، أكلاً وركوباً، وحولة، وحلباً، وغير ذلك من وجوه المنافع.

فهل عند المشركين علم بما زعموا تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي؟ كانوا حضوراً عند تحريم الله لها؟ فلما لم يمكنهم ذلك فقد كذبوا على الله، وأعظم الكذب، الكذب على الله لأنه إضلال لعباد الله عن سبيل الله، بغير برهان، والله لا يهدي من سلك طريق الظلم والكذب والبهتان.

وطريق التحريم إنما يكون بالوحي وقد أوحى الله إلى نبيه ﷺ بالمحرمات ومنها: الميتة والدم المسفوح الذي يخرج من عنق البهيمة إذا ذكيت، ولحم الخنزير لنجاسته، أو ما ذكر عليه اسم غير الله. أما من اضطر إلى أكل شيء من المحرمات فيباح له أكلها عند الاضطرار بلا اعتداء ولا مجاوزة للحد، لأن الله رحيم بعباده فلم يحرم عليهم إلا ما فيه ضرر عليهم ولكن في وقت الاضطرار تدفع أدنى المفسدتين بارتكاب أخفهما، والله غفور لمن أكل المحرم عند الاضطرار.

ولما بغى اليهود فقتلوا الأنبياء وصدوا عن سبيل الله وأكلوا الربا واستحلوا أموال الناس بالباطل، حرم الله عليهم كل ذي ظفر وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والوز والبط.

وحرم عليهم من البقر والغنم شحوم الجوف: وهو الشحم الذي يكون على الكرش، وشحم الكلوتين، إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونها، والشحم الذي يحوي الأمعاء، وما اختلط بالعظم كشحم الإلية.

وما كان هذا التحريم على اليهود إلا بسبب ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، والله صادق في حكمه وتشريع، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون، والمسلم الحق هو الذي يمثل أوامر الله فلا يحل إلا ما أحله الله ولا يحرم إلا ما حرمه الله، ولا يبتدع في دين الله ما ليس فيه بل يكون متبعاً لمحمد ﷺ في كل شيء، فإن دين الإسلام دين الوسطية والاعتدال ودين اليسر والساحة.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا
قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ
فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهِدَ كُمْ الَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ
تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ
إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

رحمة الله تعالى بعبادة واسعة ولو خالفوا أمره وارتكبوا المحرمات وقد رغب عباده في ابتغاء رحمته الواسعة، وأتباع رسوله، ومع رحمته فعقابه أليم لمن خالف أمره وعاند رسله وكذبهم وتعدى حدود الله وارتكب الجرائم، وله العقوبة في الدنيا والآخرة.

ومن أراد الله خذلانه احتج على الله بما لا يعلمه من مشيئة الله، فيحتج بالقدر على شركه ومعصيته وتحريمه ما أحل الله ظناً منه أن ذلك ينجي من العقوبة وتلك طريقة الأمم المكذبة يمتحنون بفعلهم وقدر الله عليهم بأن الله راض عما يعملونه من عمل، فرد الله عليهم بأنهم لا علم عندهم بأن الله راض عنهم إنما هو الوهم والخيال، والاعتقاد الفاسد، والكذب على الله تعالى، والله سبحانه له الحجة البالغة على الناس، التي تنقطع عندها معاذيرهم، وتبطل شبههم، وظنونهم وتوهماتهم، بإنزاله الكتب، وإرساله الرسل، وما جاؤوا به من المعجزات، وله سبحانه الحكمة التامة، والحجة البالغة في هداية من هدى، وإضلال من أضل، وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويُبغض الكافرين، فلا حجة لأحد عصي الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده.

ولا حجة لأحد في تحريم ما أحل الله ولو أتى بشهود على ذلك فهو من الكاذبين الذين يفترون على الله الكذب ويشركون بالله في عبادته اتباعاً لأهوائهم وطاعة لشياطينهم.

والمسلم ممثّل أمر ربه في الحلال والحرام والقرآن بين الحلال والحرام فأعظم المحرمات الشرك بالله تعالى لا يغفره الله أبداً، وقد حرم الله الجنة على المشركين، فيحذر المسلم من الشرك ووسائله وطرقه الموصلة إليه، وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

وبعد حق الله حق الوالدين، والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، والبر بالإحسان والمعاملة الطيبة والطاعة والرحمة وخفض الجناح والتذلل والتواضع ولين الجانب والكلمة الطيبة والدعاء والاستغفار، ردّاً للجميل واعترافاً بالتقصير وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، فقد فطر الله الأبوين على رحمة الولد، ولذلك نهى الله عما يخالف هذه الفطرة من القتل خشية الفقر كما يفعل أهل الجاهلية فكانوا يثدّون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار فالثبت سبحانه الرازق لعباده يرزق الآباء والأولاد، فعلى المسلم أن يجتنب كل ما حرم الله من قتل الأبناء وسائر المحرمات فإنه لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فلا يقرب الطرق الموصلة للفاحشة من الزنا وغيره، فإن الله إذا حرم شيئاً حرم الطرق الموصلة إليه فلاختلاط والخلوة بالأجنبية والسفور والنظرة المحرمة بريد إلى الحرام سواء كان ذلك سراً أو علانية، ومن الفواحش قتل النفس المعصومة وهي نفس المؤمن والمعاهد والمستأمن والذمي فيحرم قتلها إلا بالحق، بما يبيح قتله من ردة أو قصاص أو زنا من محصن، وما أمر الله به ونهى عنه وصية لعباده لعلهم يعقلون أمر الله ونهيه.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكِلِفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ مُّبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ
وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ
عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ
﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنَّا آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

أمر الإسلام بالإحسان لجميع الناس وبالأخص من يحتاج إلى رعاية، ومنهم اليتيم الذي فقد أحد أبويه، فقد اهتم الإسلام بالإحسان إلى اليتيم حتى كان كافل اليتيم مع النبي ﷺ في الجنة، وتوعد الله في كتابه من اعتدى على اليتيم وعلى ماله إلا من كان محسناً مجتهداً في إصلاح مال اليتيم وحفظه وتنميته، فيشمل كل وجه من الوجوه التي فيها نفع لليتيم وزيادة في ماله من التجارة وغيرها إلى أن يبلغ اليتيم أشدّه، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالكاً مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه والتبذير.

فإذا بلغ ذلك فيدفع إليه ماله، واليتيم أمانة في عنق وليه فعليه أن يربيه على الإسلام وأخلاقه ويغرس في قلبه مكارم الأخلاق والأدب الحسن، فالمحافظة على دينه أعظم الأمانة

ومال اليتيم أمانة في يد وليه فليثق الله وليؤد الأمانة عند رشد اليتيم، حفظاً لأموال المسلمين وصيانة لها، ومن حفظ المال الصدق في البيع والشراء بجميع أنواعه في المكايل والموازين، فالصدق سبب البركة والنماء والزيادة والكذب سبب للمحق والخسارة، فالصدق في المعاملات التجارية هو العدل الذي أمر الله به، فيجتنب المسلم التعاملات التجارية المحرمة من بيع الغرر والربا لأنها قائمة على أكل أموال الناس بالباطل وعلى الظلم، والبائع يستفرغ طاقته في تحري العدل والصدق في المعاملة، فإن أخطأ بعد ذلك فلا حرج عليه، والعدل يكون بالفعل والقول على القريب والبعيد، والشريف والوضيع والقوي والضعيف والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، وفي كل حال.

فيعدل المسلم، ويتحرى الصواب، ولا يتعصب في ذلك لقريب ولا على بعيد، ولا يميل إلى صديق، ولا على عدو، ومن العدل الوفاء بالعهد وهو ما أخذه الله على عباده من عبادة الله وحده لا شريك له، ومن العهد ما يقع التعاقد به بين الناس، فيجب الوفاء به، ويحرم نقضه وقطعه، سواء كان بين المسلمين فيما بينهم أو كان بينهم وبين الكفار

وقد جاءت تلك الوصايا ذكرى للعباد بالمحافظة عليها والاهتمام بها وهي الصراط المستقيم الذي أمر الله باتباعه، فيجب التزام الإسلام في العقائد والعبادات والمعاملات في الأحكام والأخلاق والآداب، والأخذ بكتاب الله والتزام الجماعة، ويجب الحذر من اتباع غيره من سائر الملل والنحل وسبل الغواية، والاختلاف والفرقة.

ففي ما أنزل الله في كتابه الهداية للبشرية، والبركة في الدنيا والآخرة وهو سبب للرحمة في الدارين، والقرآن خير الكتب وأحسنها، وما أنزله الله التوراة على موسى ﷺ هداية لبني إسرائيل، فيها تفاصيل الأحكام فجاء القرآن ناسخاً لها وللإنجيل وهداية للثقلين، وهو حجة على جميع الناس جاء بلغة العرب لئلا يحتجوا بعدم معرفتهم بالكتب السابقة، فقطع تعالى العذر بإنزال كتابه العزيز هداية للبشرية ورحمة لها فيه الآيات البينات والحجج الواضحات، وفيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه، أما من ظلم نفسه بالشرك وتكذيب رسل الله والكفر بآيات الله وصرف الناس وصددهم عن الإسلام فله العذاب الأليم يوم القيامة.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ
 بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا
 لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا
 إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ
 مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
 ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
 فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلِ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلِ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ
 ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
 نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
 فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
 خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ
 فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

الحياة الدنيا هي دار التكليف والعمل فإذا جاء يوم القيامة انقطع التكليف، وإذا نزلت الملائكة لقبض روح عبد فقد قامت قيامته، وحينئذ وتنقطع التوبة وينقطع العمل، وكذلك إذا طلعت الشمس من مغربها ففي ذلك الوقت لا ينفع الإيمان ولا يقبل إيمان الكافر ولا توبة الفاسق.

والمسلم مأمور بالتزام الإسلام في حياته كلها، يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم ولا يؤخر التوبة، ومن مقاصد هذا الدين التزام الجماعة ونبد التفرق والاختلاف، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق.

وهو الصراط المستقيم مما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له والتمسك بشريعة الرسول الخاتم، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل براء منها، والجميع مجزيون يوم القيامة فمن جاء بالحسنة فله أجرها مضاعفة، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا بها وهذا من عدل الله تعالى وإحسانه، فهو لا يظلم مثقال ذرة، فالله رحيم بعباده، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا إلى سبعائة، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يحموها الله ﷻ، وهذا دين الإسلام، الدين الخالد الثابت القائم إلى قيام الساعة وهو الصراط المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهو الدين المائل عن كل دين غير مستقيم، فمن هداه الله إليه كان من الفائزين.

فالمسلم الذي يدين بالإسلام يعيش حياته كلها على الإسلام ويثبت الله حتى يموت مسلمًا موحدًا، فصلاته ودعاؤه وذبحه وجميع عبادته القولية والفعلية والقلبية لله وحده لا شريك له يحقق التوحيد، فلا يصرف شيئًا من العبادات لغير الله، وهذا طريق التوحيد الذي أمر المسلم باتباعه والسير عليه حتى يكون آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله نسال الله أن يمتينا عليها ويختم لنا بها والدنيا وجميع المسلمين.

فالمسلم لا يطلب ربًا سوى الله، هو رب كل شيء، يربيه ويحفظه ويكلؤه ويدبر أمره، فلا يتوكل إلا عليه، ولا ينيب إلا إليه، لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر.

فمن جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد، وهذا من عدله تعالى، إلا من دعا إلى ضلالة فيتحمل أوزار من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم فلا يظلم أحد فيحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم أحد بأن ينقص من حسناته. فكل نفس مرتنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذرارهم.

والجميع سيعرضون على ربهم، وينبئهم بأعمالهم، وهم في الدنيا يعمرنون الأرض جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخَلَفًا بعد سَلَفٍ وقد فاوت الله بينهم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، ليخبرهم في الذي أنعم به عليهم وامتحنهم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.

وهو سبحانه سريع العقاب ممن عصاه وخالف رسله وغفور رحيم لمن والاه واتبع رسله فيها جاؤوا

به من خير.

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ① كَتَبْ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
 لِنَذِيرٍ بِهِ ۚ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم
 مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③
 وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
 ④ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
 ظَالِمِينَ ⑤ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ
 الْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ⑦
 وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۖ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ⑨ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ
 فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ⑩
 وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
 لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ⑪

سورة الاعراف

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر أصحاب الأعراف فيها

افتتحت هذه السورة بالحروف المقطعة إشارة إلى أن القرآن يتألف من مثل هذه الحروف وقد عجز العرب عن الإتيان بمثله فظهر بذلك أنه كلام الله المعجز، أنزله الله على قلب رسوله محمد ﷺ ليبلغه للعالمين فلا يتحرج في إبلاغه والإنذار به فهو نذارة للمشركين، ورحمة وتذكير للمؤمنين الذين يتبعون ما أنزل فيه من الآيات والأحكام ويعملون به، ويتبعون آثار النبي الأمي الذي جاءهم بكتاب أنزل إليهم من رب كل شيء ومليكه، ولا يخرجون عما جاءهم به الرسول إلى غيره، ولا يعدلون عن حكم الله إلى حكم غيره.

وهؤلاء هم القلة القليلة الذين يتحاكمون إلى القرآن ويعملون به ويتدبرونه، وأكثر الناس به كافرون جاءتهم الرسل فخالفوا الرسل وكذبوهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، جاءهم العذاب في ليلهم وهم نائمون أو في قائلتهم وهم غافلون، فاعترفوا بذنوبهم ولكن لم ينفعهم الاعتراف، وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية حين لا ينفع الاعتراف.

ويوم القيامة يسألهم ربهم عما عملوا فيما بلغتهم الرسل، وبما أجابوا المرسلين ويسأل الرسل عن الإبلاغ، وليأتينهم بالذي ينطق عليهم بأعمالهم وهو كتاب الأعمال، والله مطلع على عبادته لا تخفى عليه خافية وهو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور يعلم عن الرسل فيما بلغوا، وعن الأمم فيما أجابوا.

ويوم القيامة الوزن العدل للأعمال وللأشخاص ولصحف الأعمال، فالفوز والفلاح لمن ثقلت موازينه بالחסنات والخسارة لمن خفت موازينه بالسيئات، وقد أنعم الله على عباده في الحياة الدنيا فجعل الأرض قراراً، وجعل فيها الجبال الرواسي والأنهار، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها مكاسب وأسباباً يتجرون فيها، ويتسبون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، مع ما شرفهم الله به على خلقه بتكريم أبيهم آدم وأمر الملائكة بالسجود له تكريماً له فسجدوا له إلا إبليس فليحذر بنو آدم من عدوهم إبليس، وما هو مُنْطَوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ﷺ.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ
 وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
 فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
 ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ
 صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
 وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
 أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَادَمُّ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
 شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ
 لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ
 مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
 مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِمَنِ النَّصِيحِينَ ﴿٢١﴾
 فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا
 يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا
 عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

الكبر خلق ذميم يقود صاحبه إلى النار، وإبليس أبى السجود وعصى رب العالمين افتخارًا بأصل خلقته متعاليًا على آدم بأنه خير منه، فكان مآله الطرد والإبعاد عن رحمة الله وإنزاله إلى الأرض وهو من الصاغرين، وجعله عدوًا لبني آدم في الحياة الدنيا وأنظره الله إلى يوم الدين، وجعل له من السلطان على بني آدم فهو يجري من آدم مجرى الدم، وحمل إبليس على عاتقه إغواء بني آدم بكل أسلوب، من بين أيديهم من قبل الدنيا يزينها لهم، ومن خلفهم من قبل الآخرة يشبطهم عنها، وعن أبيانهم من قبل الحق يصددهم عنه، وعن شيائيلهم من قبل الباطل يزينه لهم، حتى يخرجهم عن دينهم ويحرفهم عن عقيدتهم، فكان مصيره الإبعاد والطرد، وجعل له من المداخل على بني آدم ما يكون سببًا في إغوائهم فيكون مصيره ومن أطاعه النار.

فبدأ الشيطان إغواءه لآدم ﷺ فقد أباح الله لآدم ﷺ، ولزوجته حواء الجنة يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، فسعى إبليس في المكر والخديعة والوسوسة ليُسلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال لها كذبًا وافتراء نهاكما ربكما عن أكل هذه الشجرة لئلا تكونا ملكين، أو خالدين في الجنة ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك، وأقسم لهما بالنصح وأغراهما بزخارف القول، حتى أكلتا الشجرة فلما أكلتا منها أخذتهما العقوبة، والعقوبة أن تهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه، وكانا لا يريان ذلك فاستحيا، وأقبلا وجعلا يرقعان ويصلان عليهما من ورق الجنة وهو ورق التين حتى صار كهية الثوب.

ونادى رب العالمين موبخًا ومعاتبًا لم اقترفتما ما نهاكما الله عنه وأطعتما عدوكم؟ وفي قصة آدم عبرة وعظة للمؤمنين بأن يجذروا من كيد الشيطان ويحترزوا من خطواته المضلة، وأن يستعينوا بالله ويتحصنوا من الشيطان بما شرع لهم من التحصينات والتعويذات، التي تحفظ المسلم من كيد الشيطان، وليحذر من شياطين الجن والإنس الذين يزينون لأوليائهم فعل المنكرات وترك الطاعات وارتكاب الموبقات واتباع الشهوات

ويحذر المسلم من الصفات الإليسية من الكبر والحسد، فالكبر قاد إبليس إلى الكفر والخروج من ملكوت السماء، فلا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، والغرور بالنفس والاعتزاز بالأصل والتعالي على الخلق صفات شيطانية نهى عنها الإسلام وحرمها.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
 تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنِيَّ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا
 يُورِي سَوَاءَ تِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ
 ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيَّ ءَادَمَ لَا يَفْنِنَكَ كُ
 الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
 لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهِمَا إِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُونَهُ
 إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا
 فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ
 أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ
 وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا
 هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطِينَ
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

التوبة والاستغفار طريق المؤمنين، وتوبة آدم كلمات اعتراف وإخبات وتذلل وانكسار بين يدي الله تعالى، ربنا فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلاف أمرك، وبطاعتنا عدونا وعدوك، فيما لم يكن لنا أن نطيعه فيه، من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها وإن أنت لم تستر علينا ذنبا فتغطيه علينا، وترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه وترحمنا، بتعطفك علينا، وتركك أخذنا به لنكون من الهالكين، فقبل الله توبة آدم وحواء وقضى بإنزال آدم وزوجته وإبليس إلى الأرض لتكون حياتهم عليها إلى أن يقضي الله بانتهااء الدنيا.

فعلى ظهرها يعيشون، وبعد الممات يدفنون فيها، ويوم القيامة يبعثون من قبورهم، وأنعم الله على عباده في هذه الحياة بما يسترون به عوراتهم ويتزينون ويتجملون به أمام الآخرين من أنواع الزينة واللباس. وتقوى الله هي خير لباس للمسلم يتجمل بها ويستتر بها من عذاب الله. فالعفاف وخشية الله ومراقبة الله في السر والعلن هي الجمال الذي يتزين به المسلم.

والمسلم يحذر دائماً من كيد الشيطان، ويتذكر عداوته القديمة لأبي البشر آدم ﷺ، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وقد أوتي من السلطان على بن آدم، فهو يرى بني آدم، هو وجنوده وولده، والجن والشياطين، والإنسان لا يراه وإنَّ عدواً يراك ولا تراه لشديد الخصومة والمؤونة إلا من عصم الله، والشياطين قرناء وأعوان للكافرين يزبنون لهم الفواحش وهي اسم لكل فعل قبيح بلغ النهاية في القبح، وينسبون فعل الفواحش بأمر الله لهم ويتعبدون الله بفعلها وذلك بإظهار عوراتهم، وهذا أقبح من فعل الفاحشة لأنه افتراء على الله، وقول على الله بغير علم، وإنما يأمر الله بالعدل وهو التوحيد وإقام الصلاة وإخلاص العمل لله تعالى والاستقامة على الدين، وسيكون الناس فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، وكما خلقهم من العدم سيعيدهم يوم البعث والنشور وسيجازيهم بأعمالهم وكل ميسر لما خلق له فأهل السعادة ييسرون لعمل أهل السعادة وأهل الشقاوة ييسرون لعمل أهل الشقاوة.

ومن اتخذ الشياطين أولياء وأطاعهم فهم من الذين حقت عليهم الضلالة، لهم النار وإن كانوا في الدنيا يظنون أنهم على الحق، فليس كل من ادعى أنه على الحق كان من أهله

فكثير ممن كتب عليهم الضلالة يظنون أنهم يحسنون صنعاً قد زينت لهم أعمالهم السيئة فظنوها حسنة

نسأل الله الهداية والثبات عليها إلى الممات



﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
 وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
 الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
 بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
 سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
 فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
 يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ
 اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ
 كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
 فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
 بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ
 رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

أخذ الزينة والتجمل من صفات المؤمن، وكمال الزينة في أداء العبادة من تعظيم شعائر الله، فلما كان أهل الجاهلية يتعبدون الله بكشف عوراتهم في الطواف، أمر المسلمون بأخذ الزينة وستر العورة، فيستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب البياض، والتزين والتجمل يكون باعتدال، بلا سرف ولا مخيلة، وفي المأكّل والمشارب كذلك يحرم الإسراف والخيلاء والبطر، فالله لا يحب المتعدين حدّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحلّ أو حرّم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يجب أن يحلل ما أحل الله، ويحرم ما حرم الله وذلك العدل الذي أمر به.

فمن حرّم شيئاً من المأكّل أو المشارب أو الملابس، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله فقد افترى على الله وتشبه بالمشركين الذين يحرّمون ما يحرّمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم، فالله خلق لعباده الطيبات وأباحها لهم، فهي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شاركهم فيها الكفار حسّاً في الدنيا، فهي للمؤمنين خاصة يوم القيامة، لا يشرّكهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرّمة على الكافرين، تلك آيات الله يبينها للمؤمنين الذين ينتفعون بما فصله الله، فيعقلون معناها ويفهمون مرادها فيمتثلون ويستسلمون، فلا يحرّمون ما حرم الله ولا يحلون ما حرم الله لأن الحلال والحرام من الله فقد حرم الله الذنوب الصغائر والكبائر ما ظهر منها وما خفي، وجميع أنواع الاعتداء على الآخرين في أموالهم وأعراضهم ودمائهم، وحرم الله الشرك بالله، وحرم القول على الله بغير علم والكذب والافتراء على الله، والكلام في شريعة الله بغير علم من القول على الله بغير علم، والمسلم يعيش حياته وفق منهج الإسلام فكل إنسان له عمره المحدد الذي يقضيه في هذه الحياة، وكل جيل له ميقاته المقدر له، لا يتقدم ولا يتأخر، تأتبه الآيات والنذر والشرائع فمن أطاع الله وترك المحرمات فله الفوز والرضا فلا خوف عليه في الدنيا والآخرة، ولا يحزن على ما خلف في الدنيا من الأهل، أما الذين كذّبت قلوبهم بآيات الله، واستكبروا عن العمل بها فهم في النار ماكثون فيها مكثاً مخلداً.

فهم من أظلم الناس لافترائهم على الله وتكذيب الرسل والتكذيب بآيات الله، وسينالهم ما كتب عليهم، وقد كتب على من افترى على الله أن وجوههم مسودة يوم القيامة وهم يعيشون في الحياة الدنيا ينالون فيها ما كتب لهم من الأرزاق.

إذا جاء الأجل فإن الملائكة تفرغهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ يقولون لهم ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه، فيقولون ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم، ولا خيرهم فأقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ
 فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْهَا حَتَّى إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا
 جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبُهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ
 عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
 وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ
 فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بَيِّنَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
 الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ الْجَمَلَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ
 وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
 وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ
 وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

أصحاب النار من المشركين والكافرين يقال لهم يوم القيامة ادخلوا النار مع من هم مثلكم في العصيان والكفر، ومن هم على صفاتكم من الأمم السالفة الكافرة من الجن والإنس، فكلما دخلت جماعة لعنت أختها في الدين لا في النسب، فتلعن اليهود اليهود والنصارى النصارى، وكل فرقة تلعن أختها ويلعن الأتباع القادة حتى إذا تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار دعا آخرهم دخول النار وهم الأتباع، بأن يضاعف على الذين أضلّوهم العذاب، وهم في الحقيقة أعظم عذاباً وأشدّ لأنهم يحملون أوزار الذين اتبعوهم، فلكل صنف منهم ضعف من العذاب بحسب من تبعه، ولكن لا يعلم الأتباع ما للقادة ولا القادة ما للأتباع من العذاب، فحينئذ يقول المتبوعون للذين اتبعوهم أنتم مثلنا في الكفر والعذاب، لأنكم كفرتم كما كفرنا فنحن وأنتم في الكفر سواء وفي العذاب سواء.

والكفار لا تفتح لهم أبواب السماء لأدعيتهم ولا لأعمالهم، ولا لأرواحهم لأنها خبيثة لا يصعد بها بل يهوى بها إلى سجين، إنها تفتح أبواب السماء لأرواح المؤمنين وأدعيتهم وأعمالهم، ولا يدخلون الجنة لأنها محرمة عليهم حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، فهم لا يدخلون الجنة أبداً لأن الشيء إذا علق بها يستحيل كونه يدل على تأكيد المنع، وهذا جزاء المجرمين، إنها لهم من النار فرش ولحاف يفرشونها ويلتحفونها وظلال يستظلون بها وهذا يدل على إحاطة النار بهم من كل جانب.

أما أهل الإيمان والعمل الصالح، الذين آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها، فلا تكليف عليهم في دينهم، فالإيمان والعمل به سهل، فلهم في القيامة الجنة لا يتحولون عنها ليس في قلوبهم حقد ولا غش ولا حسد، إخواناً على سرر متقابلين، نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، يحمدون الله على هدايته لهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل -أسأل الله ألا يحرمنا رحمته ووآلهي وذريتي والمسلمين- وفي ذلك استشارة للنفوس أن تشتاق للجنة وتعمل الصالحات وتسارع وتسبق وتنافس في ميدان التنافس، ويحمل ذلك المسلم في هذه الحياة على أن يتخلق بأخلاق أهل الجنة، فإن حسن الخلق من أكثر ما يدخل الناس الجنة مع تقوى الله، يتخلق بسلامة الصدر وحب الخير للمسلمين، والرحمة والشفقة والرفق، وينظر المسلم للحياة أنها مزرعة للأخرة فيعده نفسه غريباً، أو عابر سبيل فإذا أصبح لا ينتظر المساء، وإذا أمسى لا ينتظر الصباح، ويأخذ من صحته لمرضه ومن حياته لموته، ومن دنياه لأخرته.

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِعَايِنِنَا يُجْحَدُونَ ﴿٥١﴾



إذا استقر أهل الجنة وأهل النار في منازلهم، ينادي أهل الجنة أهل النار وذلك على وجه التقرير والتوبيخ أن قد وجدنا ما وعدنا الله من النعيم فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العذاب فنأى مناد أسمع الفريقين أن لعنة الله وغضبه على الكافرين، الذين كانوا يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويغنون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد، وهم بقاء الله في الدار الآخرة جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يبالغون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه، ولا عقاباً، فهم شر الناس أجمعاً وأقوالاً.

وبين الجنة والنار حجاب يسمى الأعراف، وهو حاجز يمنع من وصول أهل النار إلى الجنة وعليه قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يُدخلهم الجنة بفضلهم ورحمته، وهم آخر من يدخل الجنة، يقفون على الأعراف، فيعرفون أهل الجنة بعلاماتهم وأهل النار بصفاتهم، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم، وهم يطعمون أن يدخلوا معهم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا إلى أصحاب النار وتعوذوا بالله من منازلهم، فيرى أهل الأعراف رجالاً من صناديد المشركين وقادتهم، في النار فيعرفونهم بعلاماتهم ويقولون لهم: لم تغن عنكم كثرتمكم، ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال، ألم تكونوا في النعيم والمظاهر العالية في الحياة الدنيا؟

فلما قال أصحاب الأعراف لهم الذي قضى الله أن يقولوا لهم، قال الله لأهل التكبر عن الإقرار بوحدانية الله، والإذعان لطاعته وطاعة رسله، الجامعين في الدنيا الأموال مكاثرة ورياء، أيها الجبابرة أهؤلاء الضعفاء الذين كنتم في الدنيا أقسمتم لا يتألمهم الله برحمة؟ قد غفرت لهم ورحمتهم، فبفضلي ورحمتي، ادخلوا يا أصحاب الأعراف الجنة لا خوف عليكم بعدها من عقوبة تعاقبون بها على ما سلف منكم في الدنيا من الآثام والإجرام، ولا أنتم تحزنون على شيء فانكم في دنياكم، وينادي أهل النار أهل الجنة أن أطعمونا وأسقونا من الجنة، فيجيبونهم أن الله حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين، الذين اتخذوا الدين لهواً ولعباً، واغتروا بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة، فالיום يعاملهم الله معاملة من نسيتهم؛ يقول الله للعبد يوم القيامة: "ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل؟ وأذكرك رأساً وتربعاً، فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله: فالיום أنساك كما نسيتني"

وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ
الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا
مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ اذْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ
اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا
ثَقُلَا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ۖ مِنْ كُلِّ
الشَّعْبَرَةِ كَذَلِكُ ۚ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

لما أخبر الله عما صار إليه المشركون من الخسارة في الدار الآخرة، ذكر الله أنه قد أراح عيولهم في الدار الدنيا، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فقد أرسل الله الرسول إليهم بالكتاب المفصل المبين، فكذبوا وجحدوا، وما أنزل هذا الكتاب إلا رحمة للبشرية وهداية للإنسانية، ولا يصيب من رحمته إلا من آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، ولكن الكفار لا ينتظرون بعد كفرهم إلا ما وعدوا به من العذاب والنكال، ويأتي يوم الحساب، فيدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتحقق تأويل الكتاب فيبحثون حيثئذ عن الشفعاء أو يتمنوا الرجوع للدنيا ليعملوا، ولكنهم لن يعملوا وخسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، وذهب عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعون لهم ولا ينقذونهم مما هم فيه. والله سبحانه هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، خلق هذا العالم وسأواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، ثم استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، يصرف هذا الكون بمشيئته وإرادته، يذهب ظلام الليل بضياء النهار، وضياء النهار بظلام الليل، وكل منها يطلب الآخر طلباً سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وجميع الكواكب تحت قهره وتسخيره ومشيتته، له الملك والتصرف، له الملك كله، وله الحمد كله، وإليه يرجع الأمر كله، هو المستحق للعبادة وإليه يفرع العباد بالدعاء والاستغاثة والاستعانة يدعونه لما فيه صلاحهم في دنياهم وأخراهم، يدعونه تذللًا واستكانة، بخشوع القلوب وصحة اليقين بوحديته وربوبيته فيما بينهم وبينه، لا جهازاً ومراءاة، يدعون الله وهم متأدبون بأداب الدعاء فلا يسألون ما ليس لهم ولا يدعون بإثم وقطيعة رحم، يعمرّون الأرض بالتوحيد والعبادة ولا يفسدونها بالشرك والمعصية مع دعائهم لله والتضرع إليه والتذلل لديه خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب، لعلمهم أن رحمته مُرَصَّدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، وهو سبحانه الرزاق، فيرسل الرياح بمشرات بالخير تبشر العباد بالأمطار وتحمل السحاب الثقيل بما فيها من الماء الكثير، فيسوقه رب العالمين إلى أرض ممتدة، مجدبة لا نبات فيها، فيخرج به النبات، فكما أحيا الله هذه الأرض بعد موتها، كذلك يحيي الأجساد بعد صيرورتها رَمِيماً يوم القيامة، ينزل الله ﷻ ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبث منه الأجساد في قبورها كما ينبث الحب في الأرض.

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، وَيَادِّنُ رَبِّهٖ ۖ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ
 إِلَّا نَجِدًا ۚ كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
 لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ
 مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
 قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
 يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿٦١﴾ أَبَلِغْتُمْ رَسُولِي ۖ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ
 رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
 فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ۖ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ
 هُودًا ۖ قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
 ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي
 سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِيِّينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ
 لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

أنزل الله الهداية إلى عباده فكانوا فريقين منهم من انتفع، ومنهم من لم يقبل هدى الله الذي جاء به رسوله ﷺ، فمثل المؤمن مثل البلد الطيب، يصيب المطر الأرض الطيبة فيخرج نباتها سريعاً حسناً، ومثل الكافر كالأرض السبخة التي لا يخرج نباتها إلا بعسر وعناء ومشقة، فالمؤمن إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به، والكافر يسمع القرآن فلا يؤثر فيه، كالبلد الخبيث الذي لا يتبين أثر المطر فيه.

فالله سبحانه يرسل الرسل مبشرين ومنذرين ليكونوا حجة على عباده وأول الرسل نوح ﷺ، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم ﷺ، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح ﷺ عشرة قرون كلهم على الإسلام، وكان أول ما عبدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدًا وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حاكمهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا، فلما تئامى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين "وَدًّا وَسَوَاعًا وَيَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا"، فلما تفاقم الأمر بعث الله ﷻ رسوله نوحًا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، لأن التوحيد سبب للنجاة من النار ولكنهم كذبوه وقال السادة والقادة والكبراء منهم إنك في ضلال في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا، فيرد عليهم نوح ﷺ ما أنا ضال، ولكني رسول من رب كل شيء ومليكه، أبلغكم برسالة ربي، أبشركم بالتوحيد وأنذركم الشرك، بكل نصيح وأمانة، ولا تعجبوا من هذا، أن كان الرسول بشرًا، فإن هذا ليس بعجب وإنما هو رحمة بالناس ولطف وإحسان إليهم، لينذرهم من الشرك، وليتقوا نعمة الله، ولا يشركون به شيئًا، ولتكون دعوته لهم رحمة، ولكنهم تهادوا في تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، فأنجاه الله وأصحاب السفينة، وأغرق البقية لأنهم عموا عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له، فانتقم الله لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم، وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العقابة للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح ﷺ بالغرق ونجى نوحًا وأصحابه المؤمنين.

وتعطي قوافل المكذبين وبيعث الله في عاد نبيه هودًا ﷺ، وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل وكانوا من أشد الناس خلقًا وقوة فشدّد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبًا للحق؛ دعاهم هود ﷺ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه، فقال السادة والقادة منهم: إنك في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده لا شريك له فنفى هود ﷺ عن نفسه السفاهة وقال: بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه وأنصح لكم وأؤدي رسالة ربي بكل أمانة.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ
 أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
 وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
 فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
 ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ
 يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنبِئْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ
 أَتَجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ
 مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ
 الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ
 ﴿٧٢﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ
 مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
 فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾

مهمة الرسل البلاغ والنصح وأداء الرسالة، وهم بشر ليس لهم من خصائص الألوهية شيء، أرسلهم الله إلى العباد رحمة وهداية، ونفى الله تعجب الأمم بإرسال الرسل من البشر كما في قصة قوم عاد، فقد بعث الله إليهم رسولاً من أنفسهم لينذرهم أيام الله ولقاءه، فليحمدوا الله على ذلك، وليذكروا نعمة الله عليهم إذ جعلهم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه، وزاد في طولهم على الناس بسطة، فقد جعلهم الله أطول من أبناء جنسهم، فليذكروا نعم الله ومنته عليهم، ولكنهم كذبوا نبي الله هوداً ﷺ وتمردوا وظغوا وعاندوا وأنكروا دعوة التوحيد وقد كانوا يعبدون الأصنام، فقال هود ﷺ قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس وغضب، أتحتاجوني في هذه الأصنام التي سميتوها أنتم وآبائكم آلهة؟ وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً؛ وهددهم بانتظار العذاب، فأرسل الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وأنجى الله هوداً ﷺ ومن آمن معه.

وتمضي دعوة الرسل إلى التوحيد فيرسل الله إلى قبيلة ثمود نبيه صالحاً ﷺ وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع من الهجرة، وأمرهم بالإسراع في ديارهم وعدم الاستسقاء منها. فدعاهم صالح ﷺ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهكذا دعوة الرسل يدعون إلى التوحيد والنذارة من الشرك، وجاءهم صالح ﷺ بحجة من الله على صدق ما أرسل به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة صماء عَيْنُوهَا بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عُشْرَاءَ تَمَخَّضُ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤلهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعن، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح ﷺ، إلى صلاته ودعا الله ﷻ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنيها بين جنبيها كما سألوا، وأمرهم أن يتركوها تَأْكُلُ وتشرب ولا يمسوها بعقر ولا أذى، لأن مسها سبب لعذابهم وهلاكهم.

وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
 فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
 الْجِبَالَ يَبُوتًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَعَمُونَ
 أَنْ صَلَحَ مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ
 مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ
 أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
 رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ
 ﴿٧٩﴾ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
 بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
 شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

من نعمة الله على ثمود أن جعلهم خلفاء لقوم عاد وأسكنهم الأرض، فكانوا يتقربون في الجبال البيوت ففي الصيف يسكنون بيوت الطين، وفي الشتاء بيوت الجبال، فلم يشكروا نعمة الله عليهم فكذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام.

وقال الأشراف والقادة الذين تعاضموا عن الإيمان بصالح للأتباع المؤمنين: أتعلمون أن صالحاً من مرسل من ربه استهزاء وتهكمًا، وقالوا إنا جاحدون برسالة صالح.

فأنحروا الناقة وعصوا الله وتركوا أمره في الناقة، وكذبوا نبيهم، وتحذوا نبيهم بأن يأتيهم بالعذاب فأوعدهم صالح بثلاثة أيام يتمتعون بها، ويتنعمون ويتلذذون ثم يعقبهم العذاب.

فبعد الثلاثة أيام تزلزلت الأرض بهم وأهلكوا بالصيحة والرجفة، فأصبحوا خامدين ميتين، قد سقطوا على وجوههم موتى عن آخرهم، فأعرض صالح عليه السلام عنهم، وقال لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم وهذا تقرير من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريرًا وتوبيخًا وهم يسمعون ذلك.

وتتنوع المعاصي والسيئات فيرسل الله إلى أهل "سدوم" وما حولها من القرى لوطاً عليه السلام وهو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فنزل إبراهيم فلسطين ونزل لوط الأردن، وقوم لوط كانوا خليطاً من الكنعانيين ومن نزل حولهم، فبعثه الله فيهم، يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، ولم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل "سدوم"، عدلوا عن النساء، وما خلق الله لهم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منهم وجهل؛ وتجاوز عن الحلال إلى الحرام، وكل من ترك الحلال وارتكب الحرام فهو مسرف على نفسه بالعصيان، وقد وصفهم بالإسراف؛ لأنهم قوم تمكن منهم الإسراف في الشهوات فلذلك اشتهاوا شهوة غريبة لما سئما الشهوات المعتادة، وهذه عادة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء.

وأقبح الفواحش اللواط فهو انتكاس في الفطرة وشذوذ، وجريمة عاقب عليها الشرع بالموت بأبشع الصور؛ لأنها جريمة خطيرة تنشر الأمراض، وتقطع النسل وتورث الذل، وهو نجاسة ومهانة وقبح، وحيوانية بهيمية.

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ ۚ كَانَتْ مِنَ الْغَايِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَأَنْظَرُوا ۚ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَبْنَؤُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا ۚ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُمْسِكُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ ءَامَنَ بِهِ ۚ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمُ ۖ وَأَنْظَرُوا ۚ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ۚ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

حين تنتكس الفطر يُزَيِّن للإنسان عمله فيراه حسناً، فقوم لوط لما نهاهم نبيهم عن هذه الجريمة هُمُّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من المؤمنين من بين أظهرهم؛ لأنهم يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء، وهذا اعتراف منهم بخبث عملهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين، وأنجى الله لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يُقدِّم عليه من الضيوف بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أُمر لوط ﷺ أن يَسْري بأهله، أُمِر ألا يُعلم امرأته ولا يخرجها من البلد، فرفع جبريل ﷺ قرى اللوطية حتى سمع الملائكة نباح كلابهم ثم قلبها عليهم وأمطروا بحجارة من النار، وتلك عاقبة من ارتكب معاصي الله وكذَّب رسله، فقرر بعض العلماء أن اللوطي يلقى من شاهر، ويُتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط، وذهب بعض العلماء إلى أنه يرحم سواء كان محصناً أو غير محصن، وقال بعضهم هو كالزاني، فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، وأرسل الله نبيه شعيباً ﷺ إلى أهل مدين، وهو مدين بن إبراهيم خليل الرحمن ﷺ وهم أصحاب الأيكة، وكانوا أهل كفر وبخس للمكيال والميزان، ومواطنهم بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر، وتنتهي أرضهم من الشمال إلى حدود مَعان من بلاد الشام، وإلى نحو تبوك من الحجاز، وتسمى بلادهم الأيكة. دعاهم شعيب ﷺ إلى التوحيد عبادة الله وحده لا شريك له، وجاءهم بالحجج والبيانات على صدق ما جاءهم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، فلا يخونون الناس في أموالهم ويأخذونها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، ونهاهم عن إفساد الأرض بالشرك بعد إصلاحها بالتوحيد، ونهاهم شعيب ﷺ عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، فلا يتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوهم أموالهم، ولا يتوعدون المؤمنين الذين آمنوا بشعيب فيصدوا عن سبيل الله ويؤذون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة، بعدما أُنعم الله عليهم بالكثرة بعدما كانوا مستضعفين لقتلتهم فصاروا أعزة لكثرة عددهم، ولينظروا إلى الأمم الخالية والقرون الماضية، ماذا حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله، فإن اختلفوا على نبيهم فصاروا فرقتين مكذِّبين ومصدقين فلينتظروا حتى يفصل الله بينهم وبينه، وهو سبحانه خير الحاكمين، سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿٨٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ
 كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٩﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
 بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
 اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ
 بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٩٠﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ
 ﴿٩١﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٩٢﴾
 الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا
 كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٣﴾ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ
 أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى
 عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا
 أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٥﴾ ثُمَّ
 بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ
 ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٦﴾

الرسول عليهم الصلاة والسلام حين يدعون إلى التوحيد يقابلون بالأذى والتكذيب والإخراج من بلادهم، فهذا نبي الله شعيب ومن معه من المؤمنين يتوعدهم المستكبرون بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه من الشرك، فقال لهم نبيهم: أَوَأَنتُمْ فاعلون ذلك؟ ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمتنا القرية على الله في جعل الشركاء معه أندادًا، ولكننا ملتزمون بعبادة الله وحده لا شريك له إلا أن يشاء الله، فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علمًا، توكلنا على الله في جميع أمورنا ما نأتي منها وما نذر، ودعا الله أن يفصل بينه وبين قومه، وأن ينصره عليهم، فهو سبحانه خير الحاكمين، فاشتد كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، واعتقدوا أن الخسارة في اتباع شعيب، فأخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعبيًا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار وكُتِبَ ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخذت الأجساد، كأنهم لما أصابتهم النقرة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها، فهم الذين خسروا الدنيا والآخرة، فتولى عنهم "شعيب" ﷺ بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقرة والنكال، وقال مقرعًا لهم وموبخًا قد أديت إليكم ما أُرْسِلْتُ به، فلا أسفة عليكم وقد كفرتم بما جئتمكم به.

وهذه حال الأمم الماضية، التي أُرْسِلَ إليها الأنبياء، اختبروا بالبأساء والضراء بما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، وما يصيبهم من فقر وحاجة لعلهم يدعون ويخشعون ويتهللون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم فما فعلوا شيئًا من الذي أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ فتحول الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا حتى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، فما نَجَحَ فيهم لا البأساء ولا الرخاء، ولا انتهوا بالضراء ولا بالنعمة بل قالوا قد مسنا البأساء والضراء، ثم بعده الرخاء مثل ما أصاب آبائنا في قديم الدهر، وإنها هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، فأخذهم الله بالعقوبة بغتة وفجأة وعدم شعور منهم، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
 مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا
 وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا
 ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
 مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
 يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ
 بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
 تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ
 كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا وَجَدْنَا
 لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ
 ﴿٢٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٣﴾
 وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾

أرسل الله الرسل حجة على عباده، أرسلهم هداية للناس، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، فيأتي النبي ومعه الرهط والرهيط والرجل والرجلان ويأتي النبي وليس معه أحد، وماذا على الناس لو آمنوا وصدقوا المرسلين، واتقوا الله بفعل الطاعات وترك المحرمات، إذًا لأنزل الله عليهم قطر السماء وفجر لهم بركات الأرض، ولكنهم كذبوا رسلهم، فعاقبهم الله بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

أفأمنوا مكر الله أن ينزل عليهم العذاب والنكال ليلاً وهم نائمون أو غافلون أو يأتيهم العذاب في النهار وهم في شغلهم وغفلتهم؟ أفأمنوا بأس الله ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم؟ فلا يأمن إلا الخاسرون في الدنيا والآخرة، وهذه حال الفجار يعملون بالمعاصي وهو آمنون، أما المؤمنون يعملون بالطاعات وهم مُشْفِقُونَ وَجِلُونَ خائفون.

وقد بين الله لعباده كيف نزلت العقوبة بالأمم المكذبة؟ فليأخذ العبد العظة والعبرة أن يؤاخذ مثلهم، ومن لم ينته ويعتبر وهو يعلم ما حل بالمكذبين فقد خُتِمَ على قلبه، فلا ينتفع بموعظة ولا تذكير.

فقد أرسل الله الرسل ﷺ بالحق على صدقهم فيما أخبروا أهمهم به، وأيدهم بالمعجزات والآيات الباهرات، فكذب أقوالهم بالحق وجحدوا واستكبروا، فأهلكهم الله وأنجى المؤمنين، فهم لم يراعوا عهداً ولا ميثاقاً، فقد أخذ الله العهد عليهم بما جبلهم عليه وفطّرهم عليه من التوحيد، وأخذ عليهم الميثاق وهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، ثم خالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، فكان أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال.

ومن تلك الأمم: فرعون وقومه، فقد أرسل الله موسى ﷺ بالآيات والمعجزات، والدلائل البينة إلى فرعون ملك مصر في زمن موسى، فجحدوا الآيات والمعجزات وكذبوا بها، وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا، وظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، جحدوا ربوبية الله وألوهيته بألستهم واستيقنوا بقلوبهم أن ذلك هو الحق، ولكنه التكبر على الحق والصد عن سبيل الله، فقد جاءهم موسى ﷺ بالرسالة من رب العالمين وبالحق المبين الواضح.

حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ
جِئْتَ بِثَابِتَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
لِّلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرُ
عَلِيمٍ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَن
تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا
أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
✽ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغُلِبُوا
هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْدِينَ ﴿١٢٠﴾

الرسول أمناء الله على وحيه، لا يخبرون عن الله إلا الحق، وقد جاء موسى ﷺ إلى فرعون بالحق واهدى يدعوه إلى التوحيد، وقد أيده الله بالحجج القاطعة دليل على صدقه بما جاء به من الرسالة، وطلب منه إطلاق بني إسرائيل من أسرهم وقهره، وتركهم يعبدون ربه وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم، وهو إسرائيل، (يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم الصلاة والسلام)، فقال فرعون له: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت، فألقى عصاه فتحوّلت إلى حية عظيمة فاتحة فاهها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه سقط عن سريره، وخاف منها واستغاث بموسى أن يكفها عنه، فأخذها موسى ﷺ فعادت عصاً في يده، ثم أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، ثم أعادها إلى كفه، فعادت إلى لونها الأول، فقال السادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه: إن هذا لساحر، فتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في الصد عن دعوته، وتخوفوا من أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم فاتفق رأيهم على حبسه، ويبعث فرعون في الأقاليم ويحشر له السحرة من سائر البلاد ويجمعون، وكان السحر في زمانهم قد ظهر وانتشر فظنوا أن ما جاء به موسى ﷺ، من السحر؛ فجمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من الينات، فجاء السحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى ﷺ فاشتربوا: إن غلبوا موسى ليشينهم وليعطيتهم عطاء جزيلاً، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقرين عنده.

فقالوا لموسى بعدما اجتمع الناس: إما أن تبدأ، وإما أن نبدأ، فقال لهم موسى ﷺ: ألقوا أنتم أولاً قبلي، ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فألقوا حباً لا غلاظاً وخشياً طوالاً، فأقبلت تسعى يُجِلُّ إليه من سحرهم، فخيّلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال.

فأوحى الله إلى عبده ورسوله موسى ﷺ في ذلك الموقف العظيم الذي فرّق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه، فإذا هي تأكل ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل، فجعلت لا تترك بشيء من حباهم ولا من حُشْبِهِم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس

هذا بسحر، فخروا سجداً لله تعالى معلنين الإيذان بدعوة نبي الله موسى ﷺ

قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٦٢﴾ قَالَ
 فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ
 فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ
 أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٤﴾
 قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٦٥﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا
 بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُ رَبِّنَا أَفَرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ
 ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا
 فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَدِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي
 نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
 اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ
 أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ
 بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٧٠﴾

السحر كفر وشرك ووثنية وطاعة للشيطان ولما رأى سحرة فرعون آيات الله البيّنات علموا أنه الحق من ربهم فأمنوا بالله الذي خلقهم ورزقهم، آمنوا برب موسى وهارون، فقال فرعون حين آمنوا أصدّقتم موسى من غير أمري إياكم؟ إن هذا صنيع صنعتموه أنتم وموسى لتستولوا على مصر، وستعلمون عاقبة صنعكم هذا، وسوء مغبته، لأقطعن الرجل اليمنى واليد اليسرى، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى ثم أصليكم على جذوع النخل، وأترككم عليها مصلوبين.

ولكنه الإيثار بالله فلم يخيفهم تهديد ولا وعيد فهم بإيمانهم تحقق لهم أنهم إلى الله راجعون، وعذابه أشد من عذاب فرعون ونكاله، وسألوا الله الصبر على الأذى، والثبات على الدين إلى الممات.

وقال الوجهاء من قوم فرعون: أتدع موسى وأتباعه ليفسدوا في الأرض بالدعوة إلى عبادة ربهم دونك، فلا يعبدك أحد؟ فأمر فرعون بقتل الأبناء وإبقاء النساء قهراً لبني إسرائيل وإذلاً لهم، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى ﷺ، حذراً من وجوده، فجاء الأمر على خلاف ما أراد.

نصرهم الله عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

فشكا بنو إسرائيل إعادة القتل على أبنائهم، فأمرهم موسى ﷺ بالاستعانة بالله والصبر على ما يفعل بهم فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وهو وعد من موسى أن يعطيهم الله أرض فرعون وقومه بعد إهلاكهم، والعاقبة في الدنيا النصر والظفر، وفي الآخرة الجنة لعباد الله المتقين.

فقال بنو إسرائيل: قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى، ومن بعد ذلك، فقال لهم بروج المتفائل والواثق بما عند الله من النصر سيهلك الله عدوكم وستكونون خلفاء في الأرض فماذا أنتم صانعون؟ فحثهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

وقد اختبر الله قوم فرعون وامتنعهم وابتلاهم بالجدب والقحط وسبي الجوع بسبب قلة الزروع والآفات والعاهات في الثمار لعلهم يتعظون؛ وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغبها فيما عند الله ﷻ، ولكنه العصيان والطغيان، ومن يضل الله فما له من هاد.

فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ
لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۚ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اأَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنْزِلَ
كَشْفَتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ
هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ
الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

حين يكون القلب غافلاً معرضاً عن الآيات والنذر لا يتعظ، وهذا الذي حصل من قوم فرعون، فإنهم لما جاءهم الخصب والسعة والعافية، قالوا: نحن أهلها ومستحقوها على العادة التي جرت لنا في سعة أرزاقنا ولم يروها تفضلاً من الله ﷻ فيشكروا الله عليها، ولما أصابهم الجذب والبلاء ورأوا ما يكرهون، تشاءموا بنبي الله موسى ﷺ ومن معه من المؤمنين وقالوا: ما أصابنا البلاء حتى رأيناكم، ولم يعلموا أن الخير والشر كله من الله، ولكن إننا جاءهم الشؤم بكفرهم بالله، ولا يعلمون أن الذي أصابهم من الله، والمسلم الموحد لا يتشاءم لا بأيام ولا طيور ولا بأبراج ولا طوابع وإنما يتوكل على الله الذي قدر المقادير وقضاها، ويعلن قوم فرعون العصيان والكفر والعناد والتمرد والإصرار على الباطل، فقالوا: مهيا تأتينا بآية ودلالة وحجة فلن نقبلها منك، ولا تؤمن بك، فبعث الله عليهم الطوفان، (وهو الماء) فامتألت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة، وركد الماء على أرضهم لا يقدر أن يجري ولا يعملوا شيئاً، ودام ذلك عليهم سبعة أيام، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان، فأنبت الله لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبت لهم قبل ذلك من الكلى والزرع والشر، فقالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصباً، فلم يؤمنوا؛ فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك فعمجوا وضجوا، وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا العذاب لنؤمنن لك، وأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى ﷺ فكشف الله عنهم الجراد بعدما أقام عليهم سبعة أيام، وكانت قد بقيت من زروعهم وغلاتهم بقية، فقالوا: قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا، فلم يفوا بما عاهدوا، وعادوا لأعمالهم السيئة، ثم بعث الله عليهم القمل فتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم فأكله، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده، وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلئ قملاً، ومنعهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا إلى موسى إننا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا البلاء، فدعا موسى ﷺ الله فرفع الله القمل عنهم بعدما أقام عليهم سبعة أيام، فنكتوا وعادوا إلى أخبت أعمالهم، وقالوا: ما كنا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم، فأرسل الله عليهم الضفادع فامتألت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وأنيتهم، فلا يكشف أحد إناء ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى ذقنه، ويهم أن يتكلم فينب الضفدع في فيه، وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفئ نيرانهم، وكان أحدهم يضطجع فتركه الضفادع فتكون عليه ركاماً حتى ما يستطيع أن ينصرف إلى شقه الآخر، ويفتح فاه لأكلته فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا ذلك إلى موسى، وقالوا: نتوب ولا نعود، فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام سبعاً ثم نقضوا العهد وعادوا لكفرهم، فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل عليهم دمًا وصارت مياههم دمًا وما يستقون من الآبار والأنهار إلا وجوده دمًا عبيطاً أحمر، فشكوا إلى فرعون وقالوا: ليس لنا شراب، فقال: إنه سحركم، فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا دمًا عبيطاً؟ فمكتوا في ذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم، وشكوا ذلك إلى موسى، فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربه فكشف عنهم، فنقضوا العهد وعادوا لما هم عليه من الكفر والجحود؛ فأغرقهم الله في البحر بسبب كفرهم، وأورث الله القوم الذين كانوا يُقهرون ويُستذلون بذبح الأبناء واستخدام النساء - وهم بنو إسرائيل - أرضهم وديارهم في مصر والشام وأتم الله وعده لبني إسرائيل بالنصر والتمكين في الأرض، بسبب صبرهم على دينهم وعلى عذاب فرعون وأهلك فرعون وقومه وما كان يصنعون من العمارات، ويبنون من البيوت والقصور.

وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
 أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ
 قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطُلُ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا
 وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ
 مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ
 أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ * وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
 وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ
 مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
 سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ
 رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ
 إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَبَحَّلَى
 رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ
 قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾



لما أهلك الله فرعون وقومه بالغرق واجتاز موسى ﷺ وبنو إسرائيل البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه صامه موسى شكرًا لله ﷻ، فمروا على قوم يقيمون على أوثان يعبدونها من دون الله يجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الند والمثيل فقالت بنو إسرائيل لما رأوا ذلك: اجعل لنا شيئاً نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله ﷻ، وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة وكان ذلك لشدة جهلهم بعظمة الله، فلقد شاهدوا من آيات الله ما يزجر من له أدنى علم عن طلب عبادة غير الله، ولكن هؤلاء القوم أشد عنادًا وجهلاً وتلوًا.

فقال لهم موسى ﷺ: إن هؤلاء هالك ما هم فيه، فعبادة الأصنام باطلة وأعمالهم مع هذا الشرك لا تقبل؛ لأن الشرك محبط للأعمال، موجب للخلود في النار، وموسى ﷺ داعية التوحيد يدعو إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، الذي ينعم على عباده بنعمه الكثيرة، ومن نعمه على بني إسرائيل تفضيله لهم على الناس في وقتهم، وإنقاذهم من عذاب فرعون العظيم، فقد كان يذبح الأبناء ويستبقي الإناث للخدمة، والله تعالى له العبادة الخالصة

وقد كان موسى ﷺ وعد بني إسرائيل وهم بمصر أن الله إذا أهلك عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربه الكتاب، فأمره الله ﷻ أن يصوم ثلاثين يومًا، فلما تمت ثلاثون وهي شهر ذي القعدة، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة، فكانت فنتتهم في العشر التي زادها (وهي عبادة العجل) وكان موسى قبل ذهابه للطور لمناجاة ربه قال لأخيه هارون: كن خليفتي فيهم وأصلح أمر بني إسرائيل بحسن سياستهم، والرفق بهم، وتفقد أحوالهم ولا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عونًا للظالمين.

ولما جاء موسى ﷺ في الوقت الموعود وأسمعه الله كلامه من غير واسطة، قال موسى ﷺ لربه، أرني نفسك أنظر إليك، سألته النظر إليه اشتياقًا إلى رؤيته لما أسمعه كلامه ولكن الله قضى أنه لا يراه في هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه لأنه ما دام الرائي حيًا في دار الدنيا فلن يرى ربه، وأما رؤيته في الآخرة فهي ثابتة للمؤمنين؛ لأن النفوس لا تحتمل رؤية الله في الدنيا فإن الجبل وهو أقوى صلابة لا يثبت لرؤية الله فكيف بالبشر الضعيف؛ فلما ظهر نور الله للجبل، صار دكا وترابا، وكان الذي ظهر مثل سم الحياط، وحجاب الله تعالى النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فالجبل حين كشف الغطاء ورأى النور، صار مثل الهباء المنثور، وسقط موسى مغشيًا عليه لما رأى الجبل صار ترابًا، ولما أفاق موسى من صعقته ورجع إليه عقله عرف أنه قد سأل أمرًا لا ينبغي له، سأل ربه التوبة من سؤاله الرؤية وعلم أن الله لا يرى في الدنيا.

قَالَ يَمْوَسِي إِلَىٰ أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي
 فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
 لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
 شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ
 دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
 فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا
 بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
 سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
 الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُحْزَرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ
 عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارُ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
 سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ
 فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَّمْ يَرْحَمْنَا
 رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

كرم الله موسى ﷺ باصطفائه على عالمي زمانه برسالاته وبكلامه تعالى فهو كريم الرحمن، وأمره الله تعالى أن يأخذ من الكلام والوحي والمناجاة ما يعمل به، ولا يطلب ما لا طاقة له به من رؤية الله. فإن الله كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، فيها المواعظ والأحكام المفصلة المبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، فأمره الله بأخذها بجد واجتهاد، وبقوة القلب وصحة العزيمة، وأمر قومه بالعمل بها، فيحلوا حلالها، ويحرموا حرامها، ويتدبروا أمثالها، ويعملوا بمحكمها، ويقفوا عند متشابهها، فيأخذوا بأحسن الأمور في كل شيء كالعفو فهو أحسن من القصاص، والصبر أحسن من الانتصار، والأخذ بذلك يورث العز والتمكين، أما من خالف أمر الله، وخرج عن طاعته فإن مصيره إلى الهلاك والدمار؛ لأن الله منع عنهم فهم الحجاج والأدلة على عظمتهم وشرعته وأحكامه، فالتكبرون عن طاعة الله يذهب الله بالجهل، فينزعه الله عنهم فهم القرآن، ويصرفهم عن تدبر الآيات، وتلك من العقوبات المعجلة، فهم لا يؤمنون بآية ولا يتعظون بموعظة، صم بكم عني لا يسمعون الحق ولا يرونه ولا ينطقون به، ولو ظهر لهم طريق النجاة لا يسلكوه، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه طريقاً، فهم إذا وجدوا طريقاً من طرق الرشد تركوه وتجنّبوه، وإن رأوا طريقاً من طرق الغي سلكوه واختاروه لأنفسهم، لأنهم كذبوا بالآيات لما في قلوبهم من الكبر والإعراض والغفلة، وفي الآخرة مأواهم ومصيرهم النار، فشرّكهم وكفرهم أحبط أعمالهم، والجزاء من جنس العمل، فبسبب كفرهم وشرّكهم كان جزاؤهم العذاب الأليم.

ومن صور الضلال: ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذته لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل ﷺ، فصار عجلاً جسداً له خوار، وهو صوت البقر؛ لأنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة، فعبدوا العجل، وتركوا عبادة خالق السماوات والأرض ورب كل شيء ومليكه، فوقعوا في الشرك أو عبدوا مع الله عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال، ولما تبين لهم أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل، وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه، ندموا على ما فعلوا، وذلك بعد مرجع موسى ﷺ من ميقات ربه وإنكاره عليهم عبادة العجل، فدعوا الله واستغاثوا به ليرحمهم ويغفر ذنوبهم.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ يَلَسَمَا خَلَفْتُمُونِي
 مِنْ بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
 أَخِيهِ يُجْرَهُ ۖ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا
 يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي
 رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
 تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
 ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي
 نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ
 مُّوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
 قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
 السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي
 مَن تَشَاءُ ۖ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

رجع موسى ﷺ من مناجاة ربه فرأى قومه قد عبدوا العجل، فاشتد غضبه وحزن حزناً شديداً لما فعله قومه من الشرك وعبادة غير الله، فقال لهم: بئس ما عملتم بعد ذهابي، أسبقتم وعد ربكم الذي وعدكم؟ وألقى الألواح التي فيها التوراة من شدة الغضب وكان حاملاً لها، وأخذ برأس أخيه هارون، أخذ بذواته ولحيته خوفاً أن يكون قد قصّر في نبيهم، فقال له هارون ﷺ: لا تلمني، ولا تخلطني معهم في الذنب لأنهم هموا وقاربوا أن يقتلوني، فلا تفرحهم علي في مؤاخذتك لي، ولا تجعلني بغضبك علي في عداد القوم الظالمين، وهم الذين عبدوا العجل.

فلما تبين لموسى ﷺ موقف هارون ﷺ طلب المغفرة لنفسه أولاً، ولأخيه ثانياً ليزيل عن أخيه ما خافه من الشتمات، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيها يجب عليه من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم، ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه في رحمة الله التي وسعت كل شيء، وأما عبدة العجل فعليهم غضب الله تعالى فلم يقبل لهم توبة، حتى قُتل بعضهم بعضاً، وهم في الدنيا يعيشون ذل المعصية والسيئة، فقد كتب الله الذلة على أهل المعاصي إلى قيام الساعة، ولو عاشوا في نعيم وسلطان، فذل المعاصي على وجوههم، فعلى كل عاص الرجوع إلى ربه بالتوبة والإنابة فهو يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق فهو سبحانه الغفور الرحيم بعباده.

ولما سكن موسى ﷺ من غضبه على قومه أخذ الألواح التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرةً لله وغضباً له، ووجد فيها هدى ورحمة، والهدى ما يبتدون به من الأحكام، والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بها فيها من الرحمة الواسعة وهي للخائفين من ربهم المعظمين له.

وأمر الله ﷻ موسى ﷺ أن يختار من قومه سبعين رجلاً فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم ويعتذروا إليه من عبادة العجل فكان فيما دعوا أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، وقيل: إن القوم لما رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا، حتى كادت أن تبين مفاصلهم، فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت، فاشتد عليه فقدهم، وكانوا له وزراء على الخير، سامعين مطيعين، فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربه، فكشف الله عنهم تلك الرجفة، فاطمأنوا وسمعوا كلام ربهم. وكان من دعاء موسى ﷺ أنه لعلنا بما فعل السفهاء من عبادة العجل وهي اختبارك وابتلاؤك، أضللت بها قوماً فافتتنوا، وهديت قوماً فعمصتهم حتى ثبتوا على دينك، فأنت ناصرنا وحافظنا فاستر ذنوبنا برحمتك التي وسعت كل شيء وأنت غافر الذنب وقابل التوب.

﴿١٥٦﴾ وَكَتُبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا
 هُدًى نَاقِلُونَ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي
 وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
 الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
 الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ
 فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
 عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
 الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
 عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
 النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ
 يَتَّبِعُوا النَّاسَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي
 لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
 فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَكَلِمَتِهِ ۚ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾
 وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

من خير الدعاء: الدعاء بخيري الدنيا والآخرة، وكان ذلك من دعاء موسى ﷺ أن دعا بحسنة الدنيا (النعمة والعافية) وبحسنة الآخرة (المغفرة والجنة)، والاعتراف بالذنوب وإعلان التوبة والإنابة والرجوع إلى الله من أسباب الإجابة، والذنوب تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء رحمه وغفر له، فإن رحمة الله وسعت كل شيء، وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة، ورحمة الله عامة لجميع الخلق، وله رحمة خاصة بالمؤمنين الذين يجتنبون المعاصي والسيئات ويعملون بالطاعات ويخرجون الزكوات المفروضة يؤمنون بآيات الله ويعملون بها، وهي لجميع الأمم السابقة المصدقة بأنبيائها المؤمنة برسالاتهم، وأما بعد بعثة النبي الخاتم فلا رحمة إلا لأتباعه فمن لم يتبعه فلا رحمة له؛ لأن الله أخبر عنه في الكتب السابقة في التوراة والإنجيل بصفته أنه نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب، يأمر بالمعروف وهو ما تعرفه القلوب، ولا تنكره من الأشياء التي هي من مكارم الأخلاق، وينهى عن المنكر وهو ما تنكره القلوب ولا تعرفه مما كان من مساوئ الأخلاق والأفعال.

ويحل لهم ما حرم عليهم من الأشياء التي حرمت عليهم بسبب ذنوبهم، ويحل للعرب ما كانوا يحرمونه في الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ويحرم عليهم كل خبيث فكل ما حرم الله فهو خبيث لنجاسته ولخبثه ولمضرته، ويضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة التي كلفوا أنفسهم بها، وما كان عليهم من التكاليف مثل قتل الأنفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض النجاسة عن البدن بالمقراض، وتعين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في السبت.

فقد كتب الله الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة لمن آمن بالنبي محمد ﷺ وعظمه ووقره، وعمل بالقرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس، فرسالة النبي ﷺ عامة لجميع الثقلين الجن والإنس، جاءت للأحمر والأسود، والعربي والعجمي وهي ناسخة لجميع الشرائع السابقة فقد سد الله الطرق إلى الجنة إلا عن طريقه، فالهداية في الدنيا والفلاح في الآخرة باتباعه فقد جاء بها جاءت به الأنبياء قبله من التوحيد والإيمان بجميع الرسل، وهو يصدق ما جاءت به الرسل قبله بالإخبار عن بعثته، والبشارة برسالته ويصدق فعله قوله.

فالواجب على جميع الأمم اتباعه، ومن بني إسرائيل طائفة يتبعون الحق، ويهتدون به ويستقيمون عليه، وبالحق يحكمون وبالعادل يقومون.

وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ط
فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ
وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

جعل الله بني إسرائيل قطعاً متفرقة، وميز بعضهم عن بعض، حتى صاروا أسباطاً كل سبط معروف على انفراده، ولكل سبط نقيب، والأسباط ذرية الاثني عشر من أولاد يعقوب.

وقد كانوا في التيه في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد مُدَّة أربعين سنة عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله لما رفضوا دخول الأرض المقدسة.

فسألوا موسى الماء فجعل بين ظهرانيهم حجر مَرَّبَع فضربه موسى ﷺ بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأَعْلَم كل سبط عَيْنَهُم، يشربون منها لا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك معهم، وهو من نعم الله على بني إسرائيل.

وظللهم الله بالغمام يستريحهم من حر الشمس وأنزل عليهم من السماء الحلوى، ولحم طير السلوى، كل ذلك راحة لهم وطمأنينة، ولكنهم لم يشكروا الله، ولم يقوموا بها أوجب الله عليهم فقابلوا النعمة بالكفران والجحود، فظلموا أنفسهم بالكفر والجحود واستحقوا العقوبة، ومن ظلمهم لأنفسهم ما أمرهم الله به من دخول بيت المقدس وسؤال الله المغفرة لذنوبهم ودخولهم بيت المقدس سجداً لله قائلين حطة، وهو سؤال لأن يحط الله خطاياهم وقد وعدوا بالمغفرة والزيادة من الفضل ولكنهم دخلوا يزحفون على مقاعدهم، وبدلوا وقالوا: حبة في شعيرة.

وهذا غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته، ومن ظلم بني إسرائيل اعتداؤهم بالصيد يوم السبت وقد نهوا عن ذلك ابتلاء من الله لهم وكانوا في قرية من قرى الشام على ساحل البحر، وقد كانت الحيتان يوم السبت تكثر وتظهر وفي اليوم الذي بعده تخفي فابتلوا بتحريم صيد يوم السبت فاحتالوا فوضعوا الشباك يوم الجمعة وأخذوها يوم الأحد، والسبب في هذا الابتلاء مخالفتهم أمر الله وخروجهم عن طاعته.

وفي هذا توجيه للمسلم ألا يترك محارم الله بأدنى الحيل، فلا يحنال على الأوامر ولا النواهي، بل يكون معظماً لشرع الله، فتعظيم الشرع من تقوى القلوب.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِطُونَ قَوْمًا لَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ
﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْنَافًا مِّنْهُمْ
وَالصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّمَّا ثَمَرُوا
أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ الْأَخِرَةُ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

انقسم أهل القرية من بني إسرائيل إلى ثلاث فرق، فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطيد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك وأنكرت عليهم واعتزلتهم، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة لم تهون هؤلاء وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فقالت لهم المنكرة: لم نأمرهم إلا ليكون لنا عذر عند ربنا فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولعلمهم بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم، فهذا هو الواجب في الإنكار أن تبرأ ذمة المنكر وليكون عظة وسبباً لإقلاع الواقع فيما حرم الله، فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، أهلكهم الله بعذاب شديد وهو مسخهم قردة وخنازير ويقوا على ذلك ثلاثة أيام ثم ماتوا وأنجى الله الذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

وقد كتب الله على اليهود الذلة والصغار بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتياهم على المحارم.

وسلط عليهم من يذلهم ويقهرهم فكانوا في قهر الملوك ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام فكانوا تحت صغاره وذمته يؤدون الخراج والجزية، وآخر أمرهم أن يخرجوا أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام وذلك آخر الزمان، فهم وإن كان لهم صولة وجولة إلا أن مآلهم إلى الصغار والخذلان، والله سبحانه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وشرعه، وغفور رحيم لمن تاب إليه وأناب.

ولهذا قرن للرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

وفرق الله بني إسرائيل في الأرض أمماً، طوائف وفرقاً، فيهم الصالح وغير ذلك، واختبرهم بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء، فخلف من بعد ذلك الجيل خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة التوراة يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسرفون على أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه، لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة، وإن مجدوا عَرْضاً مثله يأخذوه، وقد أخذ عليهم العهد في التوراة أن لا يقولوا على الله الباطل، وهو تمنيتهم المغفرة مع الإصرار على الخطيئة، وقرأوا ما في التوراة وعلموه، ولو عقلوا لعلموا أن ثواب الله وما عنده من الخير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه، هو خير له من عرض الدنيا، والذين تمسكوا بكتاب ربهم واعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجه لهم أجرهم ونورهم عند الله فتمسكهم بقودهم إلى اتباع رسوله محمد عليه السلام كما هو مكتوب عندهم في التوراة.

﴿١٧١﴾ وَإِذْ نَنقَضْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ
 خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
 وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
 عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
 آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَنُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
 الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
 ﴿١٧٤﴾ وَآتِلْ عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا
 فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا
 لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
 كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ
 يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ
 الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ
 كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ مِّن يَّهْدِي اللَّهُ
 فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَن يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

لما سار موسى ﷺ ببني إسرائيل متوجّهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمره الله تعالى به أن يبلغهم من الواجبات، فثقلت عليهم، وأبوا أن يقربوها، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي ﷻ، لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل، فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجلٍ ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل، خوفاً من أن يسقط عليه، فأمرهم الله بأخذ ما في الكتاب بجهد واجتهاد والعمل به ليكون فيه نجاتهم وفوزهم؛ لأن تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له، هو الذي من أجله خلق الثقلين، والله قد أخذ الميثاق على بني آدم بالتوحيد، فإن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم: أأست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا فأخذ عليهم العهد والميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلب آدم، فلا عذر لأحد في إنكار التوحيد بعد دعوة الرسل، وقد خلق الله عباده حنفاء فاجتالهم الشياطين، فهم على الفطرة والملة والهداية إلى التوحيد والحق، وهي نعمة عظيمة من نعم الله على عباده، على المؤمن المحافظة عليها وسؤال الله الثبات، فعلى المؤمن أن يبقى وجلاً خائفاً على نفسه، وقد قص الله قصة بلعام بن باعوراء، وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة، وكان مجاب الدعوة، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى ﷺ، فاستحوذ عليه الشيطان وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه، فكان من الهالكين الخائرين، وكان الأولى أن يشكر نعمة الله عليه بالإيمان، ولو شاء الله لرفعه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتاه إياها، ولكنه مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى، فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان كالكلب في هثته في حالته، إن حملت عليه وإن تركته، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذه حالة من لم يتنفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه، وتلك القصة عبرة وعظة فما جرى لبلعام في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في غير طاعة ربه، وهذه سنة الله فيمن يخالف أمر ربه فمثلهم كالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، وبئس المثل مثله، وهؤلاء هم الذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى فلم يظلمهم الله ولكن أنفسمهم يظلمون، والهداية من الله تعالى، فمن هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَٰئِكَ كَأَلَنَعَمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ
هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ
أَيَّانَ مَرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْفِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ
عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

لما استخرج الله ذرية آدم من صلبه جعلهم فريقين، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال وقال: هؤلاء الجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، فخلق الجنة، وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم"، وكل مخلوق ميسر لما خلق له، فهو سبحانه علم ما هم عاملون قبل خلقهم.

فأهل النار لهم قلوب لا يعقلون بها الخير والهدى، وهم أعين لا يبصرون بها طريق الحق وسبيل الرشاد، وهم أذان لا يسمعون بها مواعظ القرآن فيتفكرون فيها ويعتبرون بها، فهم كالأنعام في همتهم في الأكل والشرب والتمتع بالشهوات، بل هم أضل لأن الأنعام تميز بين المضار والمنافع، فلا تقدم على المضار، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة مع العلم بالهلاك، وأما أهل الجنة فهم يعظمون ربهم وخالقهم فلا يصرفون العبادة إلا لله وحده، ويدعون رغباً ورهباً، فهو سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلى، له الأسماء البالغة في الحسن والكمال وتتضمن صفات الله تبارك وتعالى، وهذه الأسماء لا حصر لها منها ما أنزل في القرآن ومنها ما علمه النبي ﷺ أمته، ومنها ما استأثر الله به في علم الغيب، فهم يؤمنون بهذه الأسماء وما دلت عليه من الصفات والمعاني الصحيحة ولا يميلون للمعاني الباطلة أو ينفونها عن ربهم وخالقهم أو يجردونها من الصفات كما هي طريقة أهل النار، وأهل الجنة خلقهم ربهم قائمين بالحق، قولاً وعملاً، يقولونه ويدعون الناس إليه، وبه يعملون ويقضون، ومن أهل الجنة الأمة المحمدية الذين هم نصف أهل الجنة، وأما أهل النار ولو نعموا في الحياة الدنيا وفتحت لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، فإنها هو استدراج لهم، حتى يغتروا بها هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، ويوهبون الحياة الرغيدة ويتركون يسعون في الأرض الفساد، ليزدادوا إثماً وغبياً فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وقد جاء النبي ﷺ بدعوة الحق لقريش المكذبين فاتهموه بالجنون والسحر والشعر فكذبهم القرآن، وأثبت نبوته ورسالته فقد أرسله ربه الذي له ملك السماوات والأرض الذي خلقهما وخلق فيهما من كل شيء، فليتدبروا ذلك ويعتبروا به، وليعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له، والدين الخالص إلا له. فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصبروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

فقد جاءهم نبي الله ﷺ بالندرة من الشرك والتخويف من النار، فهل بعد تحذير رسول الله ﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في أي القرآن يصدقون؟ إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله ﷺ، فمتى يؤمنون ويصدقون؟ ولكنها الضلالة فمن كُتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، وهؤلاء المكذبون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها؛ فأمر الله تعالى نبيه ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة، أن يرّد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يعلم جلية أمراً، ومتى يكون على التحديد، ثقل علمها على أهل السماوات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب، ولا نبي مرسل، يسألونه كأنه عالم بها.



قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ
 أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴿١٨٩﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
 تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا
 اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٩٠﴾
 فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّى
 اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩١﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
 ﴿١٩٢﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٣﴾
 وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
 أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٤﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٥﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
 يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
 يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٦﴾

بعث الله رسوله ﷺ، وشرفه بالرسالة والنبوة، وهو لا يملك لنفسه الضر والنفع ولا لمن يحب وأخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا له اطلاع على شيء من ذلك إلا بما أطلع الله عليه.

فلو كان يعلم الخصب والجذب لاستكثر من المال لسنة القحط وما مسه الضر والفقر والجوع، إنما هو نذير وبشير، نذير بالعذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات.

والله خلق جميع الناس من آدم ﷺ، وخلق منه زوجه حواء، ثم انتشر الناس منها، خلق الله حواء من آدم لتكون زوجته يألفها ويسكن إليها، وهذا سر الزواج في ذريته.

وجعل الزواج سكنًا وأمنًا، وهو من نعم الله، لتعمر الأرض، ففي الزواج تعاقب الأجيال، وقضاء الشهوة بما أباح الله، وفيه بقاء الإنسان، وهذه النعمة تحتاج إلى شكر وحمد من العباد، فخلق الجنين في بطن أمه بعد اتصال الرجل بالمرأة، فيخلق من ماء الرجل والمرأة وهو في بدايته خفيًا، لا تجد المرأة له ألمًا، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، وتستمر في حمله، والزوجان مشفقان خائفان يدعوان الله بسلامته وصحته وصلاحه، فإذا ولدا بشرًا سويًا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أو يجعلانه وثنيًا مشركًا، كل ذلك كفر بالنعمة وجحود لنعمة الخالق جل وعلا.

فكيف يعبدون مع الله غيره؟ من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربية مصنوعة، لا تملك شيئًا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي حماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم فهذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها، ومن لم يدعها فهي عبيد مثل عابديها، مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطن، وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك.

فليعبدوا هذه الأصنام وينظروا، هل تشبههم أو تجازيهم؟ فالقدرة للمخلوقين تكون بهذه الجوارح والآلات، وليست للأصنام هذه الآلات، فالبشر مفضلون عليها بالأرجل المشية والأيدي الباطشة والأعين الباصرة والأذان السامعة، فكيف يعبد البشر من دونهم من الجاهلات؟ وهذا خطاب للعقول لتفكر أن الشرك ظلم عظيم.

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾
 وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا
 أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
 وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
 بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ
 الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا
 فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ
 لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا
 قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ
 فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُرْ رَبَّكَ
 فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
 وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
 لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

الله ولي المؤمنين وهو حسبه وكافهم، وناصرهم وعليه يتوكلون، وإليه يلتجئون، فهو وليهم في الدنيا والآخرة، نصر عبده ورسوله وأظهر أمره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، نزل عليه الكتاب وأيده بالحنة والبرهان، وذلك تأييد من الله لعبده ورسوله وللمؤمنين به، أما المشركون فهم يعبدون ما لا ينصرهم، ولا يحفظهم فهم لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف ينصرون من يدعوهم، فهم جمادات وأموات، لا يسمعون من دعاهم، ولو سمعوا ما استجابوا، ولو ظن أهل الشرك سماعهم وإبصارهم لهم فهم في الحقيقة لا يملكون ذلك.

وأمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، وذلك مثل قبول الاعتذار والعفو والمساهلة وترك البحث عن الأشياء، والأمر بالمعروف، وهو كل ما يعرفه الشرع، وأعلاه قول لا إله إلا الله، وأمر بالإعراض عن الجاهلين الذين يجهلون على الناس بظلمهم وبغيهم وعدوانهم وذلك بالحل والصفح وليس المقصود عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب، والأمر للنبي ﷺ وأمتة من بعده، والشيطان يعتري الإنسان بالوسوسة فيدفعه لترك المعروف وفعل المنكر فأمر المؤمن أن يستجير بالله من نزغه، فهو سبحانه يسمع كلام عباده ويعلم ما تكن صدورهم فالمؤمن يستعذ بربه من الشيطان في جميع أموره، والمؤمنون إذا اعتراهم ضعف ولم بهم وسواس من الشيطان فأغراهم بالمعاصي والذنوب تذكروا عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعدته ووعدته، فتأبوا وأتابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب، وأما الكفار فإن الشيطان يمدهم بالإغواء والإغراء حتى يستمروا عليه ليزدادوا في الضلالة، فالشياطين لا تكف عن الإغواء، ولا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، وشياطين قريش تطلب من النبي ﷺ المعجزات، والخوارق، والنبي يتبع ما أمره الله به، ويتبع ما يوحى إليه، وهو سبحانه هو الذي يرسل الآيات والمعجزات، والقرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبيانات، وهو الهدى والرحمة، والواجب الإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمده كفار قريش من اللغو عند سماع القرآن، وأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كما أمر بعبادته في هذين الوقتين، ويذكر الله في نفسه رهبة ورغبة، وبالقول، فيستحب أن يكون الذكر وسطاً، لا نداء ولا جهراً بليغاً.

فالملائكة لا يتكبرون عن عبادة ربهم وينزهونه ويذكرونه ويسجدون له، والمؤمنون يقتدون بهم، فيسجدون عند سماع آيات السجدة في القرآن، والسجود سنة مؤكدة، وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

آياتها
٧٥ترتيبها
٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ^ط فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ^ط وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

سورة الأنفال

وهي سورة مدنية ، سميت بذلك لورود أحكام الأنفال فيها وهي الغنائم

شرع الله الجهاد في سبيله لإعلاء كلمته، والمؤمنون يجاهدون في سبيل طلباً للأجر والثواب، وقد كانت الأمم قبل أمة محمد ﷺ يجرم عليهم أخذ الغنائم، وإنما تنزل نار من السماء فتحرقها فأباحها الله لهذه الأمة زيادة على أجرهم وثواب الله لهم، وقد اختلف الصحابة في غنائم بدر، فأُنزل الله في كتابه أن الغنائم لله ورسوله جواباً لسؤالهم عن حكم الغنيمة، وقد بين الله مصارفها في هذه السورة وأمر الله المسلمين بالتقوى والطاعة وإصلاح الحال بينهم بترك المنازعة والمخالفة، وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول ﷺ، وملازمة طاعة الرسول ﷺ.

المؤمنون الصادقون في إيمانهم هم الذين إذا تلوا آيات الله أو سمعوها خافت نفوسهم وفرقت قلوبهم، وإذا خوفوا بالله انقادوا خوفاً من عقابه، تزيدهم الآيات تصديقاً ويفعلون الأوامر، ويتركون الزواجر.

يفوضون إلى الله أمورهم ويثقون به ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه، يقيمون الصلاة فيحافظون على شروطها وأركانها وواجباتها، وينفقون النفقة الواجبة والمستحبة.

وتلك صفات المؤمنين الذين كمل إيمانهم، وعلت درجاتهم، فلهم المنازل العالية ولهم الخير والكرامة والشرف، غفر الله لهم ذنوبهم وأكرمهم الله بواسع فضله، وفائض جوده.

والله يدبر عباده على ما فيه صلاحهم، فهم في يوم بدر، كرهوا الخروج إلى الأعداء وقتال ذات الشوكة وهم النفير الذين خرجوا لنصرة دينهم، وإحراز عيرهم فكان عاقبة كراحتهم للقتال بأن الله قدره عليهم، وجَّع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد فكان نصراً وفتحاً، فأنجز الله الوعد بالنصر والظفر. فالله سبحانه الذي قضى وقدر إظهار الدين وإعرازه، وأراد استئصال الكفر وأهله حتى لا يبقى منهم أحد، وهو الذي أراد أن يجمع بين المسلمين وعدوهم، ليُظْفَرَهُم بهم ويظهرهم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي قضى وقدر، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، فكان ذلك إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل دحراً للكفر ولأهله.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِالْفِ
 مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى
 وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ
 عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ
 الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
 إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ
 الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
 عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ
 دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقُنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ
 بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

نظر النبي ﷺ إلى أصحابه يوم بدر وهم ثلاثمائة، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: "اللهم أين ما وعدتني؟ اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً"، فما زال يستغيث ربه ﷻ ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال يا رسول الله: كفّاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فاستجاب الله دعاءه فأمدّه الله بألف من الملائكة يرُدُّ بعضُهم بعضاً، متتابعين، نجدة للمؤمنين، وبُشرى، وتطمين لهم، وإلا فهو تعالى قادر على نصرهم على أعدائهم، فهو سبحانه الناصر لعباده، ومن ذلك ما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوّهم وقلة عددهم، وأنزل الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، ولَبَّدَ لهم الأرض، وربط على قلوب المؤمنين بالصبر والإقدام على مجادلة الأعداء، وثبت أقدامهم أمام عدوهم، ومن نصر الله وحيه إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصرة نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، أوحى إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا بتقوية أنفسهم على أعدائهم، ومن نصره إلقاء الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمره، وكذب رسوله، ومن نصره أمره الملائكة بضرب هام المشركين، وقطع الرقاب، وقطع الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم، وكان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا هم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به.

وذلك جزاء الذين خالفوا الله، وكذبوا الرسول ﷺ، وهذا عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة أشدّ

وأبقى.

والمؤمنون في قتالهم لأعدائهم ثابتون صامدون لا يفرون من لقائهم ولا مواجعتهم؛ لأن الفرار كبيرة من كبائر الذنوب فقد أمروا إذا لقوا أعداءهم ألا ينهزموا إلا من قصده طلب من العدد وهو يريد الكرة، أو منضئاً إلى جماعة من المؤمنين يريد العود إلى القتال، وعقوبة الانهزام الرجوع بالغضب من الله، ومصيره ومنقلبته يوم معاده النار.

وفي ذلك حث للمؤمنين على الثبات والصبر ورجاء الثواب، وليس الانهزام خاصاً في أرض المعركة بل يلحق به كل انهزام أمام العدو يوهن صف المسلمين ويقوي الكفار عليهم، فإن الانهزام الداخلي في النفوس أشدّ على الأمة من انهزام أمام عدوها في ساحة المعركة، وانهزام الفكر والشعور بالضعف أمام الأعداء من أعظم الأخطار التي تواجه الأمة.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْهِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ
وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَتَأَيَّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ
تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٦﴾



المسلمون في ساحات المعارك لا نصر لهم ولا تمكين إلا بالله تعالى هو الذي يسد رميهم ويربط على قلوبهم ويمدهم بالصبر والقوة، فلم يقتلوا عدوهم بحولهم وقوتهم، مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، بل الله هو الذي أظفرهم، وهو سبحانه الذي سد رمي النبي ﷺ يوم بدر لما رمى بالخصباء فدخلت في عين كل واحد منهم ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم، ومن ذلك إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم، وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته، وهو سبحانه سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلبة.

وهو سبحانه مُضْعَفُ كيد الكافرين فيما يستقبل، مُصَغَّرُ أمرهم، كل مألهم في تبار ودمار، والله الحمد والمنة.

وكان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفتتين، وخير القبيلتين، فنصر الله نبيه محمداً ﷺ عليهم، فكان الفتح والنصر لخير الجندين، والهزيمة والصغار للمشركين، وذلك مصير كل كافر معاند فإن تاب ورجع وآمن فالفلاح له وإن عاد للكفر والعداوة للمؤمنين سلط الله عليه أوليائه من المؤمنين، ونصرهم عليه، ولا تغني عن المشركين كثرتهم وعدتهم؛ لأن الله مع أوليائه ومن كان الله معه، فهو المنصور، ومن كان الله عليه، فهو المخذول، فالواجب على المؤمنين ملازمة طاعة الله، وطاعة رسوله، وليحذروا من مخالفة أوامر الله، والتشبه بالكافرين به المعاندين له.

وعلى المسلم الاستجابة لأمر الله ولا يعرض ولا يتولى، وهو يسمع القرآن ومواعظه، ولا يكون كالذين يقولون بألسنتهم: سمعنا بأذاننا وهم لا يتعظون ولا ينتفعون. وشر من وطئ الأرض ودرج عليها، من وهبهم الله عقولاً وأفهاماً وسمعاً وبصراً، فلم ينتفعوا بها، فهم كالأنعام لا يعقلون الحق ولا يسمعونه سماع انتفاع ولا يبصرون الحق، ولو كان فيهم خير لسمعوا وأبصروا الحق والهدى ولكن الله أعمى بصائرهم وأصم أسماعهم، ولو أسمعهم الله لم ينتفعوا؛ لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

وأما المؤمنون فهم المستجيبون لأمر الله وأمر رسوله ﷺ والحياة الحقيقية بالاستجابة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ فهي حياة القلوب التي يسأل المسلم ربه الثبات عليها؛ لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء سبحانه، فيبقى المؤمن على وجل من سوء الخاتمة لأن الله يحول بين المرء وقلبه، فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على طاعته، ويبقى المسلم قائماً بأمر ربه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، فالمنكر إذا شاع وظهر ولم ينكر نزل العذاب فعم الجميع، لأن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
 أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
 ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
 عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا
 اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
 لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
 اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ثُلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا
 قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
 أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ
 هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ
 أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

من نعم الله على عباده المؤمنين وإحسانه إليهم أنهم كانوا قليلين فكثرتهم، ومستضعفين خائفين فقوّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، وهذا كان حال المؤمنين بمكة قليلين مستضعفين مضطرين يخافون أن يخطفهم الناس من سائر بلاد الله؛ لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فأواهم إليها، وقبض لهم أهلها، فأواوا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم، وبذلوا مذهبهم في طاعة الله وطاعة رسوله، فمن شكر هذه النعمة القيام بأمر الله والمحافظة على الأمانة التي أؤتمن عليها الإنسان، وهي الأعمال التي اتّمن الله عليها العباد من الفرائض. ولا يخون المسلم الله ورسوله بترك أوامره، وارتكاب معصيته، والله سبحانه يبتلي عباده بالسراء والضراء والخير والشر ومن ذلك الابتلاء بالولد، فهم اختبار وامتحان من الله لعباده؛ إذ أعطاهم ليعلم أيشكرونه على هذه النعمة ويطيعونه فيها، أو يشتغلون بها عنه؟

وثواب الله وعطاؤه وجناته خير للمؤمنين من الأموال والأولاد، بل حب الله ورسوله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، ومن لازم التقوى بفعل أوامر الله وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل، وإمام المتقين محمد ﷺ، جعل الله له الفرج والمخرج لما تأمر عليه كفار قريش ليقتلوه أو يوثقوه أو يخرجوه ن فحفظ الله نبيه منهم وخرج من بينهم يوم الهجرة ولم يمسه بأذى وأعزه الله ونصره وأيده.

وقد هاجر النبي ﷺ إلى المدينة لما رأى عتو المشركين وعنادهم فكانوا إذا تليت آيات الله قالوا: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هي إلا أخبار الأمم الماضية وأسماؤهم وما سطر الأولون في كتبهم. وكان القائل النضر بن الحارث فقال له عثمان بن مظعون ؓ: اتق الله فإن محمداً يقول الحق، قال: فأنا أقول الحق، قال عثمان: فإن محمداً يقول لا إله إلا الله، قال وأنا أقول لا إله إلا الله، ولكن هذه بنات الله، يعني الأصنام، ثم قال: اللهم إن كان هذا الذي يقول محمد هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء كما أمطرتها على قوم لوط، أو عذبتنا ببعض ما عذبت به الأمم، فقتل يوم بدر صبراً. وقد جعل الله العصمة لهذه الأمة ألا ينزل عليها عذاب يعمها وفيها نبيها ﷺ، وما كان الله ليعذبها وهم يستغفرون من الذنوب والسيئات.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ
فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ
أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾

أهل الشرك والصد عن سبيل الله مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح، ولبغيمهم وعدوانهم على المسلمين من الصد عن سبيل الله والصد عن بيته الحرام، الذي يزعمون ولايته، وما أولياؤه إلا أهل الإيمان الذين يتقون الشرك، وهم الذين يعمرّون البيت الحرام بالتوحيد والعبادة الصحيحة الخالصة لوجه الله والموافقة لسنة رسول الله ﷺ.

أما أهل الشرك فإن عبادتهم التصفيق والصفير، فقد كانوا يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، وأما أموالهم فينفقونها بالصد عن سبيل الله وبمحاربة أولياء الله فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، وتكون عليهم ندامة، حيث لم تُجَد شيئا؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وناصر دينه، ومُعَلِّ كلمته، ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قُتِل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي.

ويوم القيامة يظهر أثر الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان من الإنفاق الطيب في سبيل الله، ويميز أهل السعادة من أهل الشقاء، ويظهر العمل الخبيث من العمل الصالح الطيب، فيثب على الأعمال الصالحة الجنة، وعلى الأعمال الخبيثة النار، فيجمع الخبيث وأهله في دركات النار عيادا بالله.

ومن رحمة الله لعباده قبول توبتهم، فالكفار إن تركوا ما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ودخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سَلَف من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم، فمن أَحَسَن في الإسلام، لم يُؤَاخَذ بها عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام، أخذ بالأول والآخر، وإن استمروا على ما هم فيه، من الكفر والعناد ومحاربة المؤمنين فإن سنة الله في الأولين أن يعاجلهم بالعذاب والعقوبة.

لأن الدين لله والأرض يورثها عباده الصالحين، فشرع الله الجهاد حتى يكون التوحيد خالصا لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد، فلا يتحكم أهل الكفر في مصائر الناس وحتى يأمن الناس على أنفسهم، فلا يصرفون عن دينهم الحق.

فإذا كف الكفار بقتال المؤمنين لهم، عما هم فيه من الكفر، وأسلموا، كف أهل الإيمان عنهم وإن لم يعلموا بوأطنهم، ويكلون سرائرهم إلى الله.

وإن استمروا على خلاف المؤمنين ومحاربتهم، فإن الله مولى المؤمنين وناصرهم على أعدائهم، فتعم المولى ونعم النصير، ومن تولاه الله فاز ومن نصره الله غلب.

﴿٤١﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن
 كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
 يَوْمَ الْنَقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ
 أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ
 أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ
 وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَن
 هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَىٰ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
 لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا
 وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَّفَشَلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ
 وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٤﴾ وَإِذْ
 يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ
 فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ
 تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٥﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
 فَأَبْتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾

خص الله الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة بحل المغانم، وهي المال المأخوذ من الكفار بالقتال والحرب، والغنيمة تقسم خمسة أخماس، أربعة أخماسها لمن قاتل عليها، والخمس لخمسة أصناف كما ذكر الله ﷻ، للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وذكر خمس الله هنا على سبيل التبرك وإضافة هذا المال إلى نفسه لشرفه، وليس المراد منه أن سهماً من الغنيمة لله منفرداً، فإن الدنيا والآخرة كلها لله ﷻ، وسهم الرسول الله ﷺ له في حياته، وبعده لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام، ولذي القربى وهم أقارب النبي ﷺ، ولليتامى، واليتيم له سهم في الخمس وهو الصغير المسلم الذي لا أب له إذا كان فقيراً، وللمساكين وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، ولابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن ماله، فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة، للفراس منهم ثلاثة أسهم، وللراجل سهم واحد، وقد أنزل الله أحكام الغنائم يوم بدر فيجب على المسلمين امتثال ما شرعه الله لعباده من الخمس في الغنائم، فقد كان يوم الفرقان يوم نصر الله لعباده وأوليائه وقد فرق الله به بين الحق والباطل وأعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه، لما التقى حزب الله وحزب الشيطان، وكان يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من رمضان، إذ نزل بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، والمشركون نزلوا بالعدوة البعيدة التي من ناحية مكة، والعر التي فيها أبو سفيان بها معه من التجارة مما يلي سيف البحر، ولو كان ذلك عن ميعاد بين المسلمين والمشركين، ثم بلغهم كثرة عدوهم وقلة عددهم ما لقيهم المسلمون، ولكن ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله عن غير موعد منهم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره لقيام الحجة عليه فيكون من الهالكين، ويؤمن من آمن عن حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، فكانت استجابة الله لدعاء عباده وتضرعهم واستغاثتهم به فهو السميع لدعاء من دعاه، العليم بمن يستحقون النصر على أعدائهم الكفرة المعاندين، ومن نصر الله لعباده يوم الفرقان أن أرى الله نبيه ﷺ في منامه المشركين قلة، فأخبر النبي ﷺ أصحابه فكان تبييناً، وأرى الله المؤمنين قلة المشركين، حتى قال القائل من المسلمين لآخر أترأهم سبعين: قال: هم نحو المائة، وقلل المسلمين في أعين المشركين حتى قال قائلهم: إنما هم أكلة جزور، وكان هذا قبل القتال، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين في أعين المشركين، ووجه تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين، ثم يرونها كثيراً فيفشلون، وتكون الدائرة عليهم، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه، ليلقي بينهم الحرب للثمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، فهم الثابتون عند اللقاء الصابرون عند القتال الذاكرون الله كثيراً، يلحون على ربهم بالدعاء فيكتب لهم النصر والفلاح في الدنيا والآخرة.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

من آداب لقاء العدو وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء وعوامل النصر الثبات عند القتال، والصبر، وطاعة الله ورسوله ﷺ، والحذر من البطر والرياء والبغي، وترك التنازع والشقاق والاختلاف فهو سبيل الفشل وذهاب القوة والجبن والضعف، وهو سبحانه مع الصابرين في مواجهة الأعداء، والذين يرجون أن تكون كلمة الله هي العليا لم يخرجوا رياءً وسمعةً وأثراً وبطراً كما خرجت قريش يوم بدر بخيلائها وفخرها وطغيانها تحاد الله وتكذب رسوله، وتصعد عن سبيل الله فكانت نهايتها أن سقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فانعكس ذلك عليهم أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الموت، ورؤموا في بئر بدر مهانين أذلة، صاغرين أشقياء، فالله عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم على ذلك شر الجزاء، كل ذلك من تزيين الشيطان لهم، أطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال أنا جار لكم، سار بهم إبليس برايته وجنوده، وألقى في قلوب المشركين، أنه لا غالب لهم، فلما اتقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، رجع مدبراً، وقال: إني أرى ما لا ترون، لأنه يرى الملائكة، وكان قوم من المستضعفين بمكة قد أسلموا، وحبسهم أقرباؤهم من الهجرة، فلما خرجت قريش إلى بدر، أخرجوهم كرهاً، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا، وقالوا غرّ هؤلاء دينهم، فقتلوا جميعاً، فكان اعتماد المؤمنين على ربهم طريق نصرهم فهو سبحانه العزيز الذي لا يُضام من التجأ إليه، وهو الحكيم في أفعاله، لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهلٌ لذلك، وكان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيف، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم، وعند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط النار، ويوم القيامة يضربون وجوههم إذا واجهوهم، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار.

كل ذلك بسبب ما كسبوا من المعاصي، واقترفوا من الذنوب وأشدّها الكفر والشرك، وأقام الله عليهم الحجة ببعثة الرسل وإنزال الكتب، وأوضح لهم السبيل، وهداهم التجدين فظلموا أنفسهم بالشرك. وتلك سنة الله في فرق الكافرين فقد عذب هؤلاء لسنة الله الماضية في تعذيب طوائف الكفر، كما فعل بفرعون وقومه لما كفروا بآيات الله، أخذهم الله سبحانه بالعذاب أخذ عزيز مقتدر، ولقد وهبهم الله من نعمه، ورزقهم من فضله، ومكن لهم في الأرض، ابتلاءً منه وامتحاناً، لينظر أيُشكرون أم يكفرون، ولكنهم كفروا بالرسول ولم يشكروا النعم؛ وطغوا وبغوا بما أُعطوا، فكانت النعمة والقوة نقمة عليهم فصاروا جبابرة وطواغيت كفروا بآيات الله، فحققت عليهم سنة الله في أخذ الكافرين بعد ما قامت عليهم الحجة.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا
 مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابِ آلِ
 فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
 بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾
 إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
 الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ
 وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ
 مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ
 قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ
 ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾
 وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
 تُرْهِبُونَ بِهِ ۚ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ
 لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا
 لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

من تمام عدل الله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، فلا يسلب الله نعمته التي وهبها عباده إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها.

كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين.

وشر ما دب على وجه الأرض الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالآيات نكثوه، ولا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام.

وهم يهود بني قريظة، نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبي ﷺ وأصحابه، فأمر الله نبيه ﷺ إن ظفر بهم في حرب أن ينكل بهم، وأن يغلظ عقوبتهم ويشخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة، والخيانة في الإسلام محرمة حتى ولو في حق الكافرين، فإذا كان بين المسلمين وأعدائهم موثيق وعهود، فخافوا من الأعداء الخيانة، فليعلموه بنقض العهد، حتى ييقوا على علم بأنه لا عهد بينهم وبين المسلمين.

والكفار والمشركون تحت قهر قدرة الله وفي قبضة مشيئته فلا يعجزون الله، فلتن أفلتوا من معركة ونجوا منها، فإنهم لا يعجزون الله، بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا أو في الآخرة، والواجب على أمة الإسلام إعداد القوة للأعداء، والقوة كل ما يتقوى به في الحرب، وذلك حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فالأمة تأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية، لتكون عزيزة أمام أعدائها، يخاف أعداؤها منها، وذلك بقيام شعيرة الجهاد بشروطها، بلا خيانة ولا نقض للعهد ولا قتل للمستأمنين والمعاهدين فإن ذلك ليس من الجهاد في شيء، والنفقة في سبيل الله يضاعف ثوابها إلى سبعمائة ضعف، ويوفى للمنفق أجره يوم القيامة، وإذا طالب الأعداء المسالمة والمصالحة والمهادنة، فتجوز مصالحتهم ومهادنتهم، وفي الصلح من المنافع من حقن الدماء ونشر الإسلام وسإع الكفار بالدين، وقد ورد أن من دخل في الإسلام زمن صلح الحديبية أكثر ممن دخل من أول الإسلام إلى الصلح.

وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ
بَنْصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ أَلْفَ بَيْنِهِمْ إِنَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ
اللَّهُ وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٍ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَفَ
اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ
لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ
اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا
غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

الصلح بين المسلمين والكفار جائز، ولو ظهر منهم تبييت الخيانة، إذا رئي أن مصلحة المسلمين في الصلح، فإن الله حافظ أوليائه المتوكلين عليه وهو حسبهم وكافهم ومؤيدهم، وقد أمر الله نبيه بقبول الصلح وقد ظهرت أمارات غدرهم، فحفظ الله نبيه من مكرمهم وغدرهم وأيده بالمهاجرين والأنصار، وجمع الله قلوبهم على الإيمان، وعلى طاعة الرسول ومناصرتة ومؤازرتة، وألف بين قلوب الأنصار، فقد كان بين الأوس والخزرج إحن وثار في الجاهلية، فصيرهم الله إخواناً بعد أن كانوا أعداء، فكانوا عدة ونصراً للإسلام، وأما أعداء الله فيشرع دعوتهم وتقديم الإسلام لهم والالتزام بما التزمه المسلمون معهم من عهود ومواثيق مع الإعداد للجهاد مع المحاربين منهم فإن الله تعالى حرض نبيه صلوات الله وسلامه عليه، والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء، وأخبرهم أنه حسبهم وكافهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين، وأمر الله نبيه صلوات الله وسلامه عليه بحث المؤمنين على قتال الأعداء، والصبر على ذلك، وأوجب على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين، فثقل ذلك على المؤمنين، فخفف الله عنهم، وأوجب على الرجل الواحد من المؤمنين قتال اثنين منهم، فإن كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم، فإذا صبر المسلمون واحتسبوا وثبتوا في قتالهم فإن الله ناصرهم، فإن المشركين يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، ولا يثبتون إذا صدقهم المسلمون في القتال، وكان في بداية الإسلام وفي أسارى بدر الأمر بالقتل والإكثار منه والمبالغة فيه، إظهاراً لعزة الإسلام هو أولى من الأسر والفداء.

وعاتب الله نبيه ﷺ على أخذ الفداء؛ لأن الله أراد للمؤمنين ثواب الآخرة بقرهم المشركين ونصر دين الله ﷻ، وهم أرادوا أخذ الفداء، ولكن الله قضى في أم الكتاب أن المغانم والأسرى حلال للمسلمين فعفا الله عنهم فيما أخذوا من الفداء، ولم ينزل عليهم العذاب من الساء، فلما كثر المسلمون واشتد سلطانهم، جعل الله ﷻ نبيه ﷺ والمؤمنين في أمر الأسرى بالخيار إن شاءوا قتلهم وإن شاءوا استعبدوهم، وإن شاءوا فادوهم، وإن شاءوا أطلقوهم.

وأباح الله للمؤمنين الغنائم وهي خاصة لهذه الأمة وهي من أطيب المكاسب؛ لأن الله جعلها لنبيه ﷺ فهي الحلال الطيب، وهي طعمة للمؤمنين رحمهم الله بها، وكانت غنائم الأمم قبلنا تنزل نار من الساء فتأكلها إذا كانت مقبولة، ولكن الإسلام لا يتشوف إلى الأموال ولا للقتل وإنما للهداية، فما شرع الجهاد إلا لإعلاء كلمة الله ونشر دين الله ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ولم يكن الإسلام سيفاً إلا على المعاندين المكابرين الذين يصدون عن سبيل الله من آمن، ويفتنون الناس عن دينهم.

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ
 فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا
 اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا
 وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ
 بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي
 الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا
 وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ
 الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن
 بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَٰئِكَ
 أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

الإسلام جاء بالهداية والرحمة فكان الخطاب لقلوب الأسرى يحیی فيها الرجاء، ويظهر فيها الأمل والنور، ويعلق القلوب بحياة أكرم مما كانوا فيه، حياة الإيثار وبمكاسب أربح بدخول دين الإسلام، مع الوعد بالمغفرة والرحمة من الله، وأما من عاند وكابر واستمر على كفره وعناده، فقد كفروا بالله من قبل فأمكن منهم المؤمنون حتى قتلوههم وأسروهم، وهذا تهديد لهم إن عادوا إلى قتال المؤمنين ومعاداتهم.

والمؤمنون على أقسام، مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاءوا لنصر الله ورسوله، وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وأنصار، وهم: المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم، فهو لاء بعضهم أولى ببعض، فكلّ منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ ولهذا أخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة، فكانت ولاية توارث وتكافل في الديار وولاية نصر وأخوة قامت مقام علاقات الدم والنسب والقرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، وصنف ثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بؤاديه وديارهم فما لهم من النصرة والإعانة، والمغانم والميراث، ولو كانوا من القرابة لعدم وقوع الهجرة منهم .

فإن طلبوا النصرة لهم على المشركين فيجب على المؤمنين النصر إلا أن يستنصرهم على قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، فلا ينصرهم المسلمون ولا ينقضوا العهد الذي بينهم وبين أولئك القوم حتى تنقضي مدته، وهذا من احترام الإسلام للعهود والمواثيق، فلا يجوز نقض عهد وهذه نصرة بعض المسلمين لأن ذلك خيانة يحرمها الإسلام، والكفار بعضهم أولياء بعض ينصر بعضهم بعضاً ويتولون بعضهم في أمورهم، ويرثونهم إذا ماتوا، وفي ذلك توجيه للمسلمين بأن لا ينصروا الكفار ولا يتولونهم، فإن لم تكن موالات المؤمنين ومناصرتهم والبراءة من الكافرين تقع الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فسادٌ منتشرٌ طويلٌ عريضٌ في الدين والدنيا.

والمهاجرون المجاهدون في سبيل الله والأنصار الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم، هم الكاملون في الإيثار، لهم المغفرة والصفح عن ذنوبهم، والرزق الكريم، الحسن الكثير الطيب الشريف، الدائم المستمر، ومن تبعهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيثار والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة. وأما القربان من المؤمنين فلهم الرحمة التي يتواصلون بها، ويتوارثون بينهم في حكم الله ﷻ، وهذا نسخ للتوارث بين المهاجرين والأنصار ورد الميراث إلى ذوي الأرحام، والله هو العليم بما يصلح عباده، فشرع لهم من الأحكام ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

آياتها
١٢٩رُتَّبها
٩

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
 فَمَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلَّمُوا أَتَكُمْ غَيْرُ مُعْجِزٍ
 اللَّهُ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذْنٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
 وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا
 أَتَكُمْ غَيْرُ مُعْجِزٍ اللَّهُ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
 ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
 شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
 مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ
 فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ
 وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
 وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
 كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

سورة التوبة

وهي سورة مدنية سميت بذلك لذكر توبة الله على المخلفين

هذه السورة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ومن أسائها براءة وسورة العذاب، وسورة البحوث، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين، والفاضحة، لأنها فضحت المنافقين، والمبعثرة، لأنها بعثت أخبار الناس، وكشفت عن سرائرهم، والمثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، والحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، وسبب ترك التسمية في أولها، لأن قصتها شبيهة بقصة الأنفال، وقُبِض رسول الله ﷺ ولم يُبَيَّن للصحابة أنها منها، فقرن الصحابة بينها، والشبه الذي بينهما أن في الأنفال ذكر العهود، وفي براءة نقضها، ولأنها نزلت بالسيف وإن «بسم الله الرحمن الرحيم» أمانٌ، والتسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين، والمشركون، والبراءة من المشركين من عرى الإيثار، وقد جاء الإسلام بجواز العهود والمواثيق بين المؤمنين والكافرين، ولا يعتبر ذلك مخالف للبراءة منهم، وقد تبرأ الله من عهود المشركين بعد غزوة تبوك لنقضهم العهود وخيانتهم للمؤمنين، وحد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسبحون في الأرض حيثما شاءوا، وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم، من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم، فهذه خمسون ليلة، فإذا انسلاخ الأشهر الحرم أمر الله نبيه ﷺ بأن يضع السيف فيمن لا عهد له، فكان النبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم، وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرًا على الموسم سنة تسع، وبعث عليًا بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من سورة براءة، فقرأها على الناس، يوم عرفة، وهي إعلام من الله ورسوله وإنذار إلى الناس يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك بالبراءة من المشركين، ثم دعاهم إلى التوبة إليه مما هم فيه من الشرك والضلال، ففي الإيثار الخير لهم، فإن استمروا على ما هم عليه فإن الله قادر عليهم، وهم في قبضته، وتحت قهره ومشيتته، وهم في الدنيا الخزي والنكال، وفي الآخرة العذاب والأغلال، واستثني من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، من له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولا يبالى على المسلمين أحدًا، فيوفي له بدمته وعهده إلى مدته؛ فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرم على المسلمين فيها قتالهم، وأجل المشركون فيها، فحيثما وجدوهم من الأرض فليقتلوهم؛ ويأسروهم، ويقصدوهم بالحصار في معاقبتهم وحصونهم، والرصد لهم في طرقهم ومسالكهم حتى يضيقوا عليهم الواسع، ويضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ فإن طلب أحد منهم الأمان لساع القرآن وللتعرف على الإسلام، فيعطى الأمان لعل الإسلام يدخل قلبه وإن لم يسلم فيرجع إلى بلاده وداره وأمته، وإنها شرع أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنشر دعوة الله في عبادته، ومن قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب فطلب من الإمام أو نائبه أمانًا، أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمته ووطنه، ولا يجوز الاعتداء عليه ولا على ماله وأهله.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
 رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
 اسْتَقِمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ
 ٧ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا
 وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
 فَسِقُونَ ٨ أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا
 عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩ لَا يَرْقُبُونَ
 فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ١٠
 فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ
 فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١١ وَإِنْ نَكَثُوا
 أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا
 أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ
 ١٢ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا
 بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣

الكفار المعاندون الذين يبرهم يعدلون لا عهد لهم ولا ميثاق فهم جحدوا وحدانية الله واستحقاقه للعبادة، وهم لا عهد لهم مع المسلمين لما هم عليه من الخيانة الكبرى والظلم العظيم، ولكن إذا عاهد المسلمون منهم أحدًا وجب الوفاء به ولو كانوا فجرةً كفرًا، وقد عاهد رسول الله ﷺ المشركين في الحديبية وأمر المسلمون بالتمسك والوفاء بالعهد، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد وما لأوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوه معهم في الحرم، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ.

وهؤلاء الكفار لو كان لهم ظهور على المسلمين فلن يراعوا فيهم قرابة، ولا رَجًا، ولا حِلْفًا، ولا عهدًا، لما في قلوبهم من الحقد على المسلمين، يظهر المودة بألستهم خلاف ما في قلوبهم، وتأبى قلوبهم الإيمان.

استبدلوا بآيات القرآن ما آثروه من حطام الدنيا، وأعرضوا عن سبيل الحق، وصرفوا غيرهم عنه، وجاوزوا الحلال إلى الحرام ونقضوا العهد والميثاق، وتمردوا على الحق، وحملوا في قلوبهم الحقد للمسلمين، ولكنهم إن تابوا عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام، فهم من المسلمين لهم أخوة الدين، فمن حقق التوحيد وأقام الصلاة وأدى الزكاة فهو من المسلمين له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين. ومن نكث العهد من المشركين وانتقص دين الله وعابه فيجب قتاله حتى ينتهوا من عييبهم للإسلام لأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق، وهذا دليل على قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام.

فالكفار الذين ينقضون العهود والمواثيق ويسعون في الأرض فسادًا ويقتلون الصالحين ويخرجونهم من ديارهم، وقد أخرجوا رسول الله عليه وسلم من مكة وبدؤوا المسلمين بالقتال هم الأحق بالقتل ولا يخاف المسلم من كثرة عددهم وسلاحهم، فالله هو الأحق بالخشية، فإنه الضار النافع في الحقيقة، ومن خشيته له أن يقاتلوا من أمرهم بقتاله.

فالؤمن لا يخشى أحدًا من الناس، لا يخشى إلا الله، لا يخشى الجيوش الجرارة ولا الأسلحة الفتاكة، وإنما في قلبه خشية الله التي تجعله يفكر في إعلاء كلمة الله وحده لا شريك له، وأن يأخذ المسلم بالأمور المعينة على النصر، ويأخذ بالأسباب فإنها من التوكل وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين يوم أحد أخذًا بالأسباب، فليس من الشجاعة التهور والمجازفة والإلقاء بالنفس في التهلكة، وليس التعقل والأخذ بالحزم والعزم من خشية الكفار بل هو من خشية الله الذي أمر بالإعداد والاستعداد.

قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ
 عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبْ
 غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
 ۝١٥ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
 مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
 وَلِجَهَةٍ ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٦ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
 أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ
 أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۝١٧
 إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ
 أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝١٨ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
 الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ ۝١٩ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠

أمر الله ﷻ عباده المؤمنين بقتال الكفار المحاربين الذين يصدون عن سبيل الله من آمن، فالله يقتل الكفار بأيدي المؤمنين، ويذهبهم بالأسر والقهر، وينصر المؤمنين على الكافرين فيكون في النصر راحة لقلوب أهل الإيمان الذين لاقوا الأذى من هؤلاء الكافرين، ويذهب بالنصر ما وقع في قلوب أهل الإيمان من الحرج والمشقة والظلم والاضطهاد، وأما مَنْ مَنَّْ الله عليه بالهداية من الكافرين فله ما للمؤمنين من الحقوق.

وقد شرع الله الجهاد لعباده وبين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فالتكاليف الشرعية امتحان واختبار ليظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب، ليظهر من يواد المسلمين وينصح لهم، ممن يميل إلى الكفار ويتخذ منهم جلساء وأصدقاء يخبرهم بأخبار المسلمين وهم الوليعة، وهي البطانة من غير المسلمين، وهو أن يتخذ الرجل من المسلمين دخیلاً من المشركين وخليطاً وواذاً، وأصله من الولوج، وكل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليعة، والرجل يكون في القوم وليس منهم فهو وليعة فيهم، وهو سبحانه العالم بخفايا الصدور والعليم بالخائنين.

والمؤمنون الصادقون هم القائمون بأمر الله تعالى ويقومون بشرائع الإسلام، ومنها عمارة بيوت الله الحسية والمعنوية، فيبنون المساجد ويرفعونها بالذكر والعبادة وإقامة الصلاة، وهم الأحق بها من غيرها، وأعلى المساجد شأنًا المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، وهي التي تشد لها الرحال، وتقصد للعبادة، أما المشركون فليسوا من عمار المساجد، لا حسًا ولا معنى، بل هم يعمرون المساجد بالشرك والأصنام، وهم يعلنون ذلك ويفتخرون بشركهم ويسجدون للأصنام، فقد نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد، وكانوا يطوفون بالبيت عراة، كلما طافوا شوطًا سجدوا لأصنامهم، ولم يزدادوا بذلك من الله تعالى إلا بُعدًا.

وكذلك كل من يدعي الإسلام ويعظم القبور ويبني عليها المساجد أو يجعل القبور في المساجد، فهو يهدم المساجد بالشرك، فإذا كان القبر قبل بناء المسجد هدم المسجد وأما إذا كان بناء المسجد قبل القبر نبش القبر وأخرج، ويحرم الصلاة في مسجد فيه قبر، وعمار المساجد هم أهل التوحيد الخالص الذين يقومون لله فيها، ولا يدعون مع الله أحدًا، هم أهل الإيمان الذين يحافظون على صلاة الجماعة ويؤدون الزكاة المفروضة، ولا يخافون الله تعالى فذلكم الذين كتب الله لهم الهداية في الدنيا والآخرة، والأعمال الصالحة إن لم تكن مع الإيمان فهي هباء منثور، فما يفتر به المشركون من صيانة المسجد الحرام وإطعام الحجاج وسقايتهم لا تساوي شيئًا أمام الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، فلا تساوي بين المؤمنين والكافرين، فالجامعون بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس أفضل عند الله وهم المختصون بالفوز بالنعيم المقيم.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

المؤمنون لهم البشارة برحمة الله في الدنيا وعند نزول الموت وفي الآخرة، فقد كتب الله لهم رضوانه الذي هو أعظم نعيم الجنة، فلهم النعيم الذي لا يحول ولا يزول لا يبعثون عنه حولا، يخلدون فيه أبداً الأبد، وذلك الأجر الكثير الذي وعدهم الله به، فقد آثروا مرضاته على كل أحد ولو كان أقرب قريب، قدموا مهج نفوسهم رخيصة في سبيل الله، وهكذا المسلم لا يحب ما يبغض الله، ولا يواد الكفار ولو كان الكافر أباه أو أمه أو أخاه أو قريبه؛ لأن العلاقة هي الإيثار فمن أحب الكفر فإنه لا يُحِب، فمن أحب الكفار فقد ظلم نفسه وتعرض لغضب الله، فالمؤمنون الصادقون هم الذين لا يجدون في قلوبهم محبة للكفار ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، وهم الذين يقدمون ما يحبه الله على ما يحبون من الآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والأموال والمساكن.

فمن رضي بالديار والأهل والعشيرة والتجارة والمساكن وترك ما أمره الله به من الهجرة والجهاد وشرائع الإسلام فهو متوعد بالعذاب الأليم الذي ينتظره، فلا يقدم على أمر الله أحداً، فكيف يرضى مسلم رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً أن يقدم الدنيا على الآخرة، والفاني على الباقي، وفضل الله وإحسانه على المؤمنين عظيم، ومنه نصره لهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ﷺ، وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعددهم ولا بعدتهم فالنصر من عند الله، سواء قل الجمع أو كثر، فيوم حين أعجبهم كثرتهم، وقالوا: لن نغلب اليوم عن قلة، فما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ، ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، أنزل الله الملائكة يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم، حتى رد الله كيد الكافرين، ومعركة حين تظهر نتيجة الانشغال عن الله، والاعتماد على قوة غير قوته، فكثرة العدد ليست بشيء، إنما هي قوة العقيدة، وإن الكثرة تكون أحياناً سبباً في الهزيمة، فلقد قامت دولة الإسلام بالصفوة المختارة من أصحاب النبي ﷺ، ولم تقم بالكثرة التي هي الزبد الذي يذهب جفاء، وهي الهشيم الذي تذروه الرياح، وكان من حكمة أحكم الحاكمين أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعدتهم وقوة شوكتهم، لتخضع الرؤوس لربها وخالفها وتتواضع لربها، فلما انكسرت قلوب المؤمنين أرسلت إليها خلج الجبر، مع بريد النصر، وقد اقتضت حكمته أن خلج النصر وجوازه إنما تفيض على أهل الانكسار.

ولقد كانت غزوة بدر نصراً للمؤمنين على قلتهم، وحين عبدة لمن اغتر بالكثرة، وقد افتتح غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين؛ ولهذا يقرن بين هاتين الغزوتين بالذكر، وإن كان بينهما سبع سنين والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزوتين، والنبي ﷺ رمى في وجوه المشركين بالخصباء فيهما، وهاتين الغزاتين طفئت جمة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين، فالأولى خوفهم وكسرت من حدتهم، والثانية استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلت جمعهم، حتى لم يجدوا بدا من الدخول في دين الله.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
 نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا
 وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
 شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَالُوا الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
 ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
 الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
 يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ
 اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
 وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
 مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

باب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها والله يفرح بتوبة العبد، وقد تاب الله على من فر يوم حنين لما صدقت توبتهم، وتاب على هوازن لما جاءوا رسول الله ﷺ تائبين، والمسلم إذا أذنب ذنباً رجع وتاب وأناب، فالتوبة تحب ما كان قبلها، فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله.

والمؤمن الطاهر النقي هو الذي يقاطع أهل الشرك والأوثان، فهم نجس في أفعالهم، وأقوالهم، ومعتقداتهم، وأخلاقهم

وقد نهى الله عن دخول المشركين إلى بلده الحرام، لما تلبسوا به من الشرك والوثنية، ولو كان في دخولهم نفع دنيوي من التجارة معهم، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وقد وعد الله المؤمنين بالعوض مما يصيبونه من الكفار من التجارة، وهذا يدل على جواز التعامل مع الكفار في التجارة في غير الحرم والله عليم بما يصلح عباده، وحكيم فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه سبحانه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بها جاءوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيها هم فيه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بها بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد، صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء كفروا به، فأمر الله بقتالهم لأنهم كفار، فهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر كإيمان المؤمنين، ولا يدينون الدين الحق الذي ارتضاه الله لنفسه، ولا يطيعون الله تعالى طاعة أهل الحق، وهم اليهود والنصارى، فيقاتلون حتى يسلموا، أو يدفعوا الجزية وهي الخراج المضروب على رقابهم، يدفعونها عن قهر وذل.

ومن شرك اليهود قولهم عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله، قالوا ذلك بلا دليل ولا برهان وإنما افتراء واختلاق، يشابهون قول من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء لعنهم الله، كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل، ومن ضلأهم طاعتهم للأجبار والرهبان في التحليل والتحرير، حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم ففعلوا العلماء أرباباً والمسيح رباً يعبدونه.

وقد أمروا بعبادة الله وحده لا شريك له، تنزه الله وتقديسه عن الإشراك في طاعته وعبادته، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والتعصب للأشخاص والتسليم في قبول قولهم ولو كان يخالف الكتاب والسنة مما حرمه الإسلام، فلا عصمة لأحد إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ لأنه المبلغ عن رب العالمين.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا
 أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي
 أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
 كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ * يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ
 أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى
 عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
 وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
 تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ
 شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
 أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
 يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

الكفار يسعون لإطفاء نور الله، فيحاربون الإسلام بجميع جهودهم، بالقول والفعل والقوة والخذاع والإغواء والإغراء، ولكن اقتضت حكمة الله إعزاز هذا الدين وأهله فأتم الله نوره، وأتم الحق الذي بعث به محمدًا ﷺ ولو لوكره الكافرون، فقد أرسل الله نبيه ﷺ بدين الحق وهداية البشرية ليكون ظاهرًا على الأديان كلها وليعبد الله وحده لا شريك له ولوكره أهل الشرك والوثنية، فإن دين الله باق إلى قيام الساعة ومن ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ولا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما بعز عزيز أو ذل ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهله، فيعتزون به، أو يذلهم فيدينون له.

ومن ضلال أهل الكتاب أن العلماء والقراء منهم يأخذون الرشوة في أحكامهم، ويجرفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتبًا يقولون، هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمنًا قليلًا من سفلتهم، ويصرفون الناس، عن دين الله ﷻ وعن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، وفي ذلك تحذير من علماء سوء وعباد الضلال، والتحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ لأنهم يأكلون الدنيا بالدين.

والمسلم الحق هو الذي يمتنع الكسب الحرام ويؤدي ما أوجب الله عليه في الأموال من الزكاة، فقد توعده الله الذين يكتزون الأموال ويمنعون الزكاة، فكل مال أدت زكاته فليس بكنز، وأيا مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه، فما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وخصّت الجباه والجنوب والظهور بالكي، لأن الغني صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض وجهه، وزوى ما بين عينيه، وولاه ظهره، وأعرض عنه بكشحه، وتجب الزكاة بمضي الحول وهو سنة كاملة، والسنة اثنا عشر شهرًا في حكم الله تعالى، وهي المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الثاني وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة، وهي الشهور الهلالية، وهي الشهور التي يعتد بها المسلمون في صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم، ومن هذه الشهور أربعة حرم وهي، رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، واحد فرد وثلاثة سرد، ذلك الحساب المستقيم، وهي عمر الإنسان فهو سنوات متتابعة فلا يظلم نفسه بالمعاصي والسيئات بل عليه أن يعمرها بعمل الصالحات وقتل المشركين المحاربين مشروع في كل وقت، وبالأخص إذا اعتدوا على المسلمين، والأشهر الحرم لا يحرم القتال فيها، وكان ذلك في بداية الإسلام ثم نسخ في هذه الآية وغيرها.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
 فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقِلْتُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
 فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
 إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ
 يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ
 اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا
 وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى
 وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

من ضلال المشركين تصرفهم في شرع الله بأرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فقد استطالوا مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء مرادهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويمرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة، وكان جنادة بن عوف الكناني، يوافي الموسم في كل عام، فينادي، ألا إن أبا ثمامة لا يحاب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول حلال فيحله للناس، فيحرم صفر عامًا، ويحرم المحرم عامًا، فيحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، وقد زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التي يعملونها، ومنها النسيء، وقد كتب الله عليهم الضلالة فلا يهديهم هداية توصلهم إليه، وأما المؤمنون فهم المستجيبون لله ولرسوله في جميع أوقاتهم في عسرهم ويسرهم ورخائهم وشدتهم، وقد عاتب الله من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر، فقد دعاهم الله إلى الجهاد في سبيل الله، فتكاسلوا ومالوا إلى المقام في الدعة وطيب الثمار، رضاءً بالدنيا بدلًا من الآخرة، فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل، فمن ترك الخروج مع رسول الله ﷺ توعده الله بعذاب شديد مؤلم، ويجعل غيرهم ممن يستجيب لله والرسول وينصره يقيم دينه بدلًا منهم، ولا يضرّون الله بترك امتثال أمره ولا بتوليهم عن الجهاد، وتثاقلهم عنه، ولا يضرّون رسول الله بترك نصرته والنفير معه شيئًا، فإن الله ناصرهم ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره في الهجرة، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج من مكة مهاجرًا مع صاحبه أبي بكر بن أبي قحافة ؓ، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيران نحو المدينة، فجعل أبو بكر، رضي الله عنه، يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى الرسول، عليه الصلاة والسلام منهم أذى، ويقول لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال الرسول، عليه الصلاة والسلام "يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما".

لقد حفظ الله نبيه ﷺ وصاحبه فلم يصل إليهما أحد وأيديهما بالسكينة، والملائكة والجند الذي لا يراها أحد، من نسج العنكبوت على وجه الغار، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب حاذق سريع الفهم، فيخرج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة، كبئت فيها، فلا يسمع أمرًا يكادان به إلا وعاه حتى يأتيها بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر منحةً من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان يشربان من لبن طري حتى ينادي بهما عامر بن فهيرة بعلّس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني الدليل، وهو من بني عبد بن عدي هاديًا ماهرًا، وهو على دين كفار قريش فأمنأه، فدفعا إليه راحلتيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق الساحل.

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
 لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ
 عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
 مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾
 عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ
 صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
 فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
 لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
 وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ
 مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
 الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾



أمر الله تعالى المؤمنين بالنفير مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتم على المؤمنين الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر، شبابًا وشيوخًا، وأغنياء ومساكين، نشاطًا وغير نشاط، ورغبهم في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فهو خير لهم في الدنيا والآخرة، ويخلف عليهم نفقتهم في الجهاد بما يغنمونه من أموال عدوهم في الدنيا، مع ما يدخره الله لهم من الكرامة في الآخرة، وعاتب الله الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعد ما استأذنوه في ذلك مظهرين أعذارًا ولم يكونوا كذلك، ولو كانوا يرجون غنيمة قريبة، وسفرًا قريبًا هيئًا لكانوا مع النبي ﷺ، ولكنهم بعدت عليهم المسافة إلى الشام، وسichelفون للنبي ﷺ إذا رجع إليهم لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم بالأيمان الكاذبة، والله يعلم كذبهم في أيمانهم وإيمانهم؛ لأنهم كانوا مستطيعين، وعفا الله عن نبيه ﷺ إذنه لهم بالعودة لأنهم كاذبون في أعذارهم، وسيقعدون عن الخروج ولو لم يأذن لهم رسول الله ﷺ بالعودة، أما المؤمنون بالله واليوم الآخر فلا يستأذنون في العودة عن الغزو؛ لأنهم يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم الله إليه بادروا وامتلأوا، إنما يستأذن في القعود من لا عذر له من الذين لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، وشكروا في صحة ما جاء به رسول الله ﷺ، فهم في شكهم متحIRON، ليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلًا.

ولو كان المنافقون صادقين في الجهاد مع رسول الله ﷺ لتأهبوا له، وأعدوا القوة من السلاح ولكن الله كره أن يخرجوا مع نبيه عليه الصلاة والسلام قدرًا وشرعًا، فأخرجهم ومنعهم وجسهم عن الخروج، وألهموا أسباب الخذلان ليقعدوا مع المرضى والنساء والصبيان وأصحاب الأعذار؛ لأنهم لو خرجوا لم يزيدوا المسلمين إلا الفساد والشر، بإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين وتهويل الأمر، وإيقاع الاختلاف والأراجيف وإظهار الشائعات؛ لأنهم جناء مخذولون، ولأسرعوا السير والمشي بين المؤمنين بالنميمة والبغضاء والفتنة، وفي المسلمين مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحوهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير، فالنفوس الضعيفة والقلوب الحائرة تبث الضعف في صفوف المؤمنين، والنفوس الخائنة خطر على الأمة؛ وأهل الفتن والفوضى والفساد شرهم على الأمة أعظم من شر العدو لاختفاء أمرهم وحالهم على الناس، فقد ينخدع الناس بكلامهم وإشاعاتهم وأراجيفهم، فيشق الصف وتضعف الأمة ويعظم الخطر، فالإسلام لا ينتظر إلى الكثرة الهالكة، وإنما للصفوة الثابتة.

لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
 جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾
 وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَتَذُن لِّي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
 سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ
 ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ
 مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا
 وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
 اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
 ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ
 نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ
 أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ
 أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ
 قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ
 إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
 إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٥٤﴾

أهل النفاق أشد خطراً على الأمة من عدوها الظاهر إذ هم عدوها الباطن فهم يخططون بأفكارهم وآراءهم في كيد الإسلام وكيد أهله وخذلانهم وإخماد نور الإسلام، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمت العرب عن قوس واحدة، وحاربت يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه، هذا أمر قد توجه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، وهم كلما رأوا عز الله للإسلام وأهله غاظهم وساءهم؛ فهم يسعون بالتخذيل عن دين الله ويتشتت أمر المسلمين وإضعاف قوتهم وذلك بالتخلي عن الجهاد معهم، فمنهم من يقول ائذن لي في القعود ولا تفتني بالخروج معك، بسبب الجواني من نساء الروم، وما علموا أنهم قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا لخلافهم أمر الله وأمر رسوله، فموعدهم النار التي تطبق عليهم ويجمعون بها.

فهم إن رأوا نصراً وغنيمة، وفتحاً، أحزنهم ذلك، وإن رأوا قتلاً وهزيمة، قالوا قد أخذنا بالجزم في القعود عن الغزو من قبل هذه المصيبة، وهم مسرورون بما نال المسلمين من المصيبة. وهم يأخذون بظواهر الأمور، ويظنون أن البلاء شر في كل حال، ويعتقدون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود عن القتال؛ لأن تلك القلوب خلت من التسليم لله، والرضا بقضاء الله وقدره، والمسلم الحق هو الذي يبذل جهده ولا يخشى إلا الله، معتقداً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه.

فالمنافقون ما علموا أن كل ما يصيب الإنسان إنما هو من القدر المحتوم الذي كتب في اللوح المحفوظ، والله سبحانه ولي المؤمنين وناصرهم وحافظهم، وهو أولى بهم من أنفسهم في الموت والحياة، وهم عليه يعتمدون، وماذا ينتظر المنافقون بالمؤمنين، إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة. فهي الحسنى على كل حال، النصر الذي تعلق به كلمة الله، فذلك جزاؤهم في الحياة الدنيا، أو الشهادة في سبيل الله تعلق بها الدرجات عند الله، ولكن أهل الإيثار ينتظرون وعد الله في المنافقين أن يصيبهم الله بقرعة من عنده أو بأيدي المؤمنين، بسبي أو بقتل، فلينتظر كلا الفريقين العاقبة. وقد كتب الله للمؤمنين النصر، ووعدهم به، فما يصيبهم من الشدة وما يلاقون من الابتلاء هو إعداد للنصر الموعود، لينال المؤمنون بعد تمحيص، وبسنة الله التي اقتضاها، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، نصراً يعز الله به الإسلام وأهله.

والمنافقون مهما أنفقوا بطواعيتهم أو كرهاً منهم ورياء فلن يقبل منهم لأنهم كفار، والأعمال إنما تصح بالإيمان، فالصلاة التي يصلونها ليس لهم فيها قصد صحيح، ولا همة في العمل، والنفقة التي يخرجونها إنما يخرجونها عن كره ورياء.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾
 وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ
 قَوْمٌ يَفْقَهُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا
 أَوْ مَدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ
 فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا
 هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ
 لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ
 وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ
 فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ
 الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
 لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ
 ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾



ينعم الله على المنافقين بالأموال والأولاد استدراجاً لهم في الحياة الدنيا، مع ما يصيبهم من التعذيب بالمصائب الواقعة في المال والولد، فيعذبهم في الأموال في الدنيا بأخذ الزكاة منها والنفقة في سبيل الله، وبالتعب في جمعه، والوجل في حفظه، والكراهة في إنفاقه، والحسرة على تخليفه عند من لا يحمدونه ويموتون على الكفر، ومن مكر المنافقين حلفهم بالأيمان المؤكدة أنهم على دين الإسلام وأنهم من المؤمنين، ويخافون أن يظهروا على حقيقتهم، والحقيقة أنهم ليسوا من أهل الإيمان، وليسوا من أهل الجهاد والقتال والشجاعة بل قوم يخافون، لو يجدون حصناً يتحصنون به، وحرزاً يحتززون به، أو مغارات في الجبال، أو نفقاً في الأرض لأسرعوا في ذهابهم عن المؤمنين؛ لأنهم إنما يخالطونهم كرهاً لا محبة، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم؛ لأنهم يرون أن الإسلام وأهله لا يزالون في عز ونصر ورفعة؛ فهم يعيبون الإسلام وشرائعه ونبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ومن ذلك عيبهم للنبي ﷺ في قسمة الصدقات لأنهم يرون أن العدل هو إعطاؤهم من الصدقات فإن لم يعطوا منها غضبوا ولمزوا النبي بالحيف والظلم، فإن أعطوا منها رضوا، يسعون لمصلحتهم، وحفظوا أنفسهم، ولو أنهم رضوا بما أعطوا وبما قُسم لهم، ورغبوا بما عند الله من الفضل لكان خيراً لهم، لكن جبلت نفوسهم على الجشع والطمع والأنانية والأثرة، وحب الذات، فوكلمهم الله إلى أطاعهم وملا قلوبهم هلعاً وجشعاً وطمعاً، وما علم المنافقون الجهلة أن الله هو الذي قسم الصدقات وبيّن حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمتها إلى أحد غيره، فجزأها هؤلاء الأصناف، وهم الفقراء والفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فقار ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت، والعاملون عليها وهم السعاة الذين يتولون قبض الصدقات من أهلها ووضعها في حقها، فيعطون من مال الصدقة، فقراء كانوا أو أغنياء، يعطون أجر المثل، والمؤلفة قلوبهم وهم قسبان، قسم مسلمون، وقسم كفار، فأما المسلمون ممن دخلوا في الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه، فكان النبي ﷺ يعطيهم تألفاً، أو أسلموا ونيتهم قوية في الإسلام، وهم شرفاء في قومهم، فكان يعطيهم تألفاً لقومهم، وترغيباً لأمتهم في الإسلام، وأما الكفار من المؤلفة، فهم من يخشى شرهم، أو يرجى إسلامهم، فبريد الإمام أن يعطي هؤلاء حذراً من شرهم، أو يعطيهم ترغيباً هم في الإسلام، والصنف الخامس هم الرقاب، وهم الأرقاء المكاتبون، والصنف السادس هم: الغارمون، وهم قسبان: قسم أدانوا لأنفسهم في غير معصية الله، فإنهم يعطون من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يعطون من مال الصدقة ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء والصنف السابع الغزاة، فلهم سهم من الصدقة، يعطون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو، وما يستعينون به على أمر الغزو من: النفقة، والكسوة، والسلاح، والحمولة، وإن كانوا أغنياء، والصنف الثامن: هم أبناء السبيل، وهم المسافرون الذين انقطعوا في سفرهم فيعطون ما يوصلهم إلى بلادهم وإن كانوا أغنياء.

ومن المنافقين قومٌ يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون من قال له شيئاً صدقة، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا، وما علموا أن رسول الله ﷺ أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب، ويصدق المؤمنين، ويكذب المنافقين ورحمة للمؤمنين، وحجة على الكافرين.

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ
 أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ
 مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا
 ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ
 أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوْا
 إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
 لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
 وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ
 بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً
 بِآثَمِهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
 بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ
 عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ
 إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ
 الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
 فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

اجتمع نفرٌ من المنافقين، فوقعوا في النبي ﷺ وقالوا إن كان ما يقول محمد حقًا فنحن شر من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فدعاهم وسألهم رسول الله ﷺ، فحلفوا أن عامرًا كاذب، وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبي ﷺ فجعل عامر يدعو ويقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، فأُنزل الله كذبهم فهم يحلفون على الكذب ليرضى عنهم الرسول ﷺ رياء، ألم يتحققوا ويعلموا أنه من شاق الله وحاربه وخالفه، فإن له نار جهنم مهائنًا معذبًا فيها وهو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

ويخشى المنافقون، أن تنزل على المؤمنين آيات من القرآن تخبر بها في قلوبهم من الحسد والعداوة للمؤمنين، وكانوا يقولون فيما بينهم ويسرون ويخافون الفضيحة بتزول القرآن في شأنهم، فهم يسرون العداوة والاستهزاء بالله وبرسوله وبالمؤمنين وقد قال رجل منهم في غزوة تبوك في مجلس ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: "وأنا رأيته متعلقًا بناق رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب"، فهم قد أظهروا الكفر بما وقع منهم من الاستهزاء بعد إظهارهم الإيمان، مع كونهم يبطنون الكفر، فمن تاب وأخلص الإيمان، وترك النفاق، تاب الله عليه، ومن أصرَّ على النفاق، ولم يتب فله العذاب الأليم، والمنافقون، ذكورهم وإنائهم متناهون في النفاق والبعد عن الإيمان، يأمرهم بكل قبيح عقلاً أو شرعاً وينهون عن كل حسن عقلاً أو شرعاً، فهم متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، ويشحون فيما ينبغي إخراجهم من المال في الصدقة والصلة والجهاد، فقد تركوا دين الله فتركهم الله عن علم وعمد، وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى ﷻ، وتركه سبحانه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته بالمنافقون يُتركون كما تركوا دين الله في الدنيا لأنهم خارجون عن طاعة الله إلى معاصيه، فهم الكاملون في الفسق، ومآلهم النار مخلدين فيها هي كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، وطردهم الله وأبعدهم من رحمته ولهم عذاب دائم لا ينفك عنهم.

وأهل النفاق في كل عصر وفي كل مصر متصفون بهذه الصفات، إدعاء الصدق والإصلاح، وإظهار الخير، وإبطان الشر والتواصي على المنكر والنهي عن المعروف والتعاون في سبيل المنكرات وإشاعتها وإظهارها، مع الاستهزاء بدين الله وبالمؤمنين، مع الخداع والتمويه عما في نفوسهم من الحقد على أمة الإسلام.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ
 أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ
 كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ
 كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةُ آَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ
 نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
 إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ
 رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ
 أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
 وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ
 وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

المخالفون المعاندون من أهل النفاق والكفر أصابهم عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فقد أخذوا نصيبهم الذي قدره الله لهم من ملاء الدنيا وتمتعوا في الحياة الدنيا وخاضوا في الكذب والباطل والكفر والجحود والعصيان فما كان لهم إلا حياتهم الدنيوية، أما في الآخرة فقد خسروها لكفرهم وعنادهم، فما عملوا في الدنيا من عمل فلا يقبل عند الله، فقد أهلك الله الأمم المكذبة، فقوم نوح أصابهم الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، وعاد أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، وثمود أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة، وقوم إبراهيم نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمرود بن كنعان وأصحاب مدين وهم قوم شعيب عليه السلام أصابتهم الرجة والصيحة وعذاب يوم الظلة، والمؤتفكات وهم قوم لوط أهلكهم الله عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوط عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، كذبوا الرسل الذين جاءوهم بالحجج والدلائل القاطعات، وما ظلمهم الله بإهلاكهم فقد أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، ولكنهم ظلموا أنفسهم بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار وأما المؤمنون المصدقون فإنهم يتناصرون ويتعاضدون في الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة، يأمرون بعضهم بالإيمان والطاعة والخير، وينهون عن الشرك ويطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ويحافظون على الصلاة المكتوبة ويؤدون الزكاة المفروضة، ويطيعون الله ورسوله فيما أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، فأولئك كتب الله لهم الرحمة والعزة والكرامة فهو سبحانه عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وعدهم الله بالخيرات والنعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً، ومسكن حسنة البناء، طيبة القرار، في جنة عدن وهي أعلى درجة في الجنة، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها، محدقة بها، وهي مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ومن شاء الله، وفيها قصور الدر والياقوت والذهب، فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأذفر الأبيض، ورضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، فإن الله تعالى يقول لأهل الجنة: "يا أهل الجنة، فيقولون لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يدك، فيقول هل رضيتم، فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً"، وفيه دليل على أنه لا شيء من النعم وإن جلت وعظمت بمئات رضوان الله سبحانه، وإن أدنى رضوان منه لا يساويه شيء من اللذات الجسائية، وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية، اللهم ارض عنا وعن والدنيا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين، رضا لا يشوبه سخط، ولا يكدره نكد، يا من بيده الخير كله دقه وجله.

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا أُوْنَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ
مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ
وَهُمْ أَوَّيَمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ
ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ
﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا
اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾



أمر الله تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم، وأمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة، وبعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين، وسيف للكفار أهل الكتاب، وسيف للمنافقين، وسيف للبغاة، والمنافقون يؤذون الله ورسوله والمؤمنين بالاستهزاء بهم وبدين الإسلام فإذا انكشف أمرهم جاءوا يحلفون أنهم ما قالوا شيئاً وهم قد قالوا كلمة الكفر التي تظهر كفرهم، وإن كانوا كفاراً في الباطن، وهما بقتل رسول الله ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك، وقد جاءوا إلى النبي وهو في العقبة ومعه حذيفة وعمار، فاعترضوا النبي الله ﷺ فيها، فصرخ بهم النبي ﷺ فولوا مدبرين، فقال رسول الله ﷺ: هل عرفتم القوم، قالوا لا يا رسول الله، قد كانوا مثلثين، ولكننا قد عرفنا الركاب، قال هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا، أرادوا أن يزحوا رسول الله في العقبة، فيلقوه منها، وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، وكانوا قبل قدوم النبي ﷺ في ضنك من العيش، فلما قدم عليهم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم، فآخروا لهم أن يتوبوا من نفاقهم وكفرهم، فإنهم إن بقوا على نفاقهم لهم العذاب الأليم في الدنيا بالخرزي، وفي الآخرة بالنار، ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناهم الله من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين، فما وفي بها قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله ﷻ يوم القيامة، والله يعلم السر وأخفى، وهو عالم بضائير المنافقين وإن أظهرها أنه إن كانت لهم أموال تصدقوا منها وشكروا الله عليها، فإله أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن، والنفس البشرية ضعيفة شحيحة إلا من عصم الله، ولا يطهرها من الشح إلا الإيمان، فتترفع عن شهوات النفس والهوى، وتؤمل بها عند الله من الخير والفضل، فلا تحشى الفقر بسبب الإنفاق، فما عند البشر ينفد، وما عند الله باق، وأما حين يخلو القلب من الإيمان فإن الشيطان يعيده الفقر فيبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا استقرار.

ومن صفات المنافقين أنه لا يسلم أحد من عيهم ولزهم في جميع الأحوال، حتى المتصدقون لا يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بهال جزيل قالوا هذا مرء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، سخرية بالمؤمنين، فجازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين، أن سخر الله منهم يوم القيامة، مقابلة لهم على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد لهم في الآخرة عذاباً أليماً.

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
 فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ
 بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
 أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا
 جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ
 مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْ نُوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ
 تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا
 مَعَ الْخَلِيفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
 عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ
 ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ
 بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا
 أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعِذْكَ
 أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرَّنَا كُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

لقد جُبل النبي ﷺ على الرحمة فكان يستغفر للمنافقين، ووقف على قبر رأس المنافقين ابن أبي وأخرجه من قبره وألبسه قميصه واستغفر له، والمنافقون ليسوا أهلاً للمغفرة لكفرهم ونفاقهم فإنهم لو استغفر لهم النبي ﷺ سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم، وسبب عدم المغفرة هو كفرهم بالله وبالرسول ﷺ، والمغفرة محرمة على الكافرين الخارجين عن طاعة الله الذين يفرحون بترك الطاعة ويسرون بمخالفة الرسول ﷺ، ومن ذلك فرحهم بالتخلف عن غزوة تبوك وكراهيتهم الجهاد مع رسول الله ﷺ، وتقدمهم شهواتهم بالجلوس في الظلال وعند الثمار، وفرارهم عن الحر السير إلى العذاب الشديد في السعير فلو كانوا يفهمون لقدموا الصبر على حر الدنيا توقياً لحر الآخرة، فسيضحكون قليلاً بما يظنونه هروباً من المشقة في الدنيا، ويكون كثيراً في الآخرة، فإنهم وإن فرحوا قليلاً في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ وهُؤم عن طاعة ربهم، فإنهم سيكون طويلاً في جهنم مكان ضحكهم القليل في الدنيا بسبب ما كانوا يكسبون من المعاصي، وأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بعد رجوعه من غزوة تبوك ألا يأذن للمتخلفين عن الجهاد بالخروج للجهاد معه؛ لأنهم رضوا بالتخلف عن تبوك فكان أن حرمهم الله من الخروج مع النبي عليه الصلاة والسلام تعزيراً لهم وعقوبة، وأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ وذلك بعدما صلى على رأس المنافقين ابن أبي، والسبب في النهي عن الصلاة عليهم لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عُرِف نفاقه، فهم وإن أعطوا الأموال والأولاد في الدنيا، فليس ذلك لكرامتهم على الله، وإنما ذلك إهانة منه لهم؛ لأنهم يتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ويعانون الشدائد والمشاق في سبيل تحصيلها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا وهم كافرون.

فهم إذا جاءهم الأمر في القرآن بالإيمان والجهاد استأذنوا الرسول في القعود، مع غناهم وسعة رزقهم كل ذلك خوفاً على أنفسهم أن يقتلوا أو يصيبهم ضرر في الخروج مع رسول الله ﷺ.

وإن تلك النفوس الضعيفة تختار الذل والمهانة هرباً من التكاليف الصعبة، وتحرص على الحياة

فتعيش ذليلة حقيرة، لتتعم بشهواتها وملذاتها فتعيش عيشة البهائم.

رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٤﴾

المنافقون من أحرص الناس على الحياة يرضون لأنفسهم بالعار والقعود في البلاد مع النساء، ولا يخرجون لملاقاة العدو فقد ختم الله على قلوبهم لتخلفهم عن الجهاد والخروج مع الرسول عليه الصلاة والسلام في سبيل الله، فلو كانوا يفهمون لأدركوا ما في الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم وعز وتمكين، وما في التخلف من ضعف ومهانة وفناء وذلة وقلة، ولكن الله أعز دينه بجند الإيثار الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم وباعوا نفوسهم رخيصة في سبيل الله فلهم خيرات الدنيا والآخرة، في الدنيا لهم العزة والكرامة والبقاء والشرف والمكانة والعلو والظهور، ولهم المغنم، وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفى، والنعيم المقيم، ولهم رضوان الله الكريم، ولهم الفلاح في الدنيا بالعيش الكريم القويم والفلاح في الآخرة بالأجر العظيم.

وأهل الأعداء في ترك الجهاد، على أقسام، منهم الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة، ومنهم الذين قعدوا عن المجيء للاعتذار، وهم المنافقون فأولئك لهم العذاب الأليم، وقسم عذرهم الله ونفى عنهم الإثم وهم الضعفاء من كبار السن والعجزة والصبيان والنساء والمرضى والفقراء، إذا أخلصوا الإيمان والعمل لله وبايعوا الرسول ﷺ، ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يشبطوهم، وهم محسنون في حالهم.

ومن عذر الله الذين حزنوا أن في جلوسهم عن الجهاد، ولا يجدوا نفقة ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أشركهم مع المجاهدين في الأجر والثواب. وإنها لصورة مؤثرة لرغبة هؤلاء الأبطال في الجهاد، وإنه الألم الصادق لفقد لذة الطاعة، وإنها لدموع المحبين لله والرسول ﷺ، كيف يحرمون من الخير وهم يريدونه ويطلبونه فلا نامت أعين الجبناء، كيف تدمع قلوب هؤلاء من الحرمان، وتفرح نفوس بالتخلف والقعود.

وطريق العقوبة والمواخظة في التخلف عن الجهاد لمن يجد المال والقدرة على الخروج ويرضى لنفسه أن يتخلف مع النساء والذرية فأولئك الذين ختم الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ما فيه من الربح لهم واختاروا التخلف على ما فيه الخسر.

وإن حب الدعة والكسل وإيثار السلامة يورث دنو الهمة، وذلة النفس، وضعف العزيمة، والرضا بالدون والهوان في الدنيا والآخرة.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ
تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلِبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا
حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنْ
الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ
عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنْ
الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنْفِقُ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَىٰ
لَهُمْ سَيَدْخُلُوهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

المنافقون على عاداتهم بالكذب واختلاق الأعذار وقد أخبر الله سبحانه عنهم بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين بالباطل والكذب والبهتان، فنهاهم الله عن الاعتذار بالباطل؛ لأن النبي ﷺ لن يصدقهم، فقد أعلمه ربه بكذبهم، وأعمالهم ستظهر خبث نفوسهم، فإن كانوا صادقين في الاعتذار فإذًا ستكون أعمالهم المستقبلية، هل يقلعون عما هم عليه من الشر أم يبقون عليه، والله مطلع على أعمالهم والرسول ﷺ يرى أعمالهم وأهل الإيمان، ويوم القيامة يردون إلى عالم الخفيات الذي لا تخفى عليه خافية، يظهر فيه كذبهم، ومن علامة كذبهم في الدنيا تأكيدهم ما جاءوا به من الأعذار الباطلة بالحلف حتى يعرض المؤمنون عنهم، فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف، ويظهرون الرضا عنهم، فأمر المؤمنون بالإعراض عنهم، لأنهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة، وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم، فإن الله لا يرضى عن القوم الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله ﷺ.

والأعراب فيهم الكفار والمنافقون والمؤمنون، وإن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وهم أخرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من الشرائع؛ لأنهم أقسى قلوبًا وأغلظ طباعًا وأجفى أقوالًا، وأبعد عن سماع كتب الله، وما جاءت به رسله، والأعراب هم من سكن البوادي.

فمنهم من يعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران، ولكنه ينفقه للرباء والتقية، ويتمنى على المسلمين الهزيمة والفشل، وينتظر بهم الحوادث والآفات ولكن الله سيجعل الهزيمة عليهم، فعليلهم تدور الدوائر، فهو سبحانه سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

ومن الأعراب، من يتخذ ما ينفق في سبيل الله قربةً يتقرب بها عند الله، ويتغنى بذلك دعاء الرسول له، فهي قربة له وطاعة يكتبها الله له، وسيدخلهم الله في جنته، فهو سبحانه الغفور الرحيم، يقبل التوبة، ويتقبل النفقة، ويغفر ما كان من ذنب، ويرحم من يبتغون الرحمة.

والأعراب كالحاضرة، ذم الله بعضهم ومدح بعضهم فمن شابههم بصفاتهم المذمومة فهو مثلهم ولو كان من الحاضرة ومن ذلك الجهل بشريعة الله والبعد عن أنوار الوحي، والتشاغل في أداء الحقوق والقيام بالأوامر، وكره ما جاء به رسول الله ﷺ.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ
 اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
 لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ
 مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
 نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
 عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
 وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
 خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
 إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ
 اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
 وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُّرْجُونَ لَأَمْرِ
 اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

أصحاب رسول الله ﷺ خير الناس ﷺ فهم الذين سبقوا بالإيمان، من المهاجرين الذين هجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا أوطانهم، والأنصار الذين نصرُوا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل المدينة وآووا أصحابه، لهم شرف الصّحبة، والمكانة العالية اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، والذين جاءوا من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة، واتبعوههم بإحسان في الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأوّلين، وأهل السنة يترضون عن رضي الله عنه، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، فهم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون، والرضا من صفات الله الثابتة له بالكتاب، والسنة، وإجماع السلف، وأهل السنة يثبتون الرضا لله تعالى من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وهو رضا حقيقي يليق بالله تعالى، وإذا كتب الله للعبد رضوانه كان أعظم نعيم له في الدنيا والآخرة، والمنافقون في المدينة وفي غيرها متفرقون يجمعهم الحرب على الإسلام، ففي أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي المدينة منافقون تمرنوا على النفاق واستمروا عليه، وقد أطلع الله نبيه ﷺ على بعضهم، وأظهر صفاتهم يُعرفون بها، وقد أعد الله لهم عذاب الدنيا والآخرة، عذاب في الدنيا في الأموال والأولاد وما يدخل على قلوبهم من غيظ في ظهور الإسلام، وعذاب في القبر ثم العذاب العظيم الذي يُردون إليه، وعذاب الآخرة والخلد فيه في الدرك الأسفل من النار، وأما المؤمنون الذين تلبسوا بالمعاصي فهم تحت المشيئة؛ إن شاء الله غفر لهم وإن شاء عذبهم على قدر ذنوبهم ومحصول النار ثم يدخلون الجنة، فمن كانت له ذنوب أقر بها واعترف فيها بينه وبين ربه، وله أعمال آخر صالحة، خلط هذه بتلك، فهو تحت عفو الله وغفرانه، والصدقة سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات وتفريج الكربات، وأعظمها فريضة الله الزكاة وهي طهرة للإنسان وللهال، وأمر النبي ﷺ بالدعاء لمن دفع الزكاة، لأن دعاءه رحمة، والصدقة باب من أبواب الخير فمن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد، والصدقة تقع في يد الله ﷻ قبل أن تقع في يد السائل، والتوبة والصدقة تحطان الذنوب، فمن تاب إلى الله تاب عليه، والله يفرح بتوبة عبده، وهي الندم والإقلاع عن الذنب والعزم ألا يعود، وإن كانت في حقوق العباد يتحللهم ويرد المظالم إلى أهلها، والله مطلع على أعمال عباده، وستظهر الأعمال يوم القيامة يوم تظهر السرائر، وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا، ورؤية النبي ﷺ للأعمال المؤمنين بالوحي، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغضاء لأهل الفساد، والتوبة قد تُعجل، وقد تؤخر كما أخرت للثلاثة الذين خلفوا لحكم الله ﷻ فيهم، وقد تخلفوا عن غزوة تبوك، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، حتى شقهم القلق وضائق عليهم الأرض بما رحبت، وكانوا من أهل بدر فجعل أناس يقولون: هلكوا، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مؤخرين لأمر الله لا يدرون أيُعذبهم أم يرحمهم، حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ
 وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
 ﴿١٠٧﴾ لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
 يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
 عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
 عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
 فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾
 ﴿١١١﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
 بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
 وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبَشِّرُوا
 بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٢﴾



المتافقون في المدينة اتخذوا معقلاً لهم والباعث لذلك، الضرر لغيرهم، والكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام، فأرادوا بنائه تقوية أهل النفاق، والتفريق بين المؤمنين؛ لأنهم أرادوا أن لا يصلوا في مسجد قباء، فتقلّ جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة، والإعداد لمحاربة الله ورسوله، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليجتجوا بصلاته ﷺ فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: "إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله".

فلما رجع ﷺ إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يومٌ أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، وأمر رسول الله ﷺ بالصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله؛ والمصلون فيه تطهروا من الشرك والنفاق والمعاصي، وتطهروا لصلاتهم فأحسنوا الاستنجاء والوضوء للصلاة، وفي ذلك استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين، المحافظين على إسباغ الوضوء، وبالأخص مسجد قباء فإن صلاة ركعتان فيه تعدل عمرة، فكيف تستوي الصلاة في مسجد أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، وبين مسجد بُني ضاراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنه بنيان على شفير جهنم، والله لا يصلح عمل المفسدين، ولا يزال بنيانهم يزيدهم شكاً ونفاقاً، وأورثهم نفاقاً في قلوبهم، إلى موتهم، ولا يزال هدم بنائهم حزاة وغيطاً في قلوبهم، والله عليم بأعمال خلقه، حكيم في مجازاتهم عنها من خير وشر.

وأما المؤمنون الصادقون فهم الذين باعوا نفوسهم وأمواهم رخيصة في سبيل الله بأن هم الجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، سواء قُتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ وقد كتب الله على نفسه الكريمة هذا الوعد، وأنزله على رسله في كتبه، وهي التوراة المنزلة على موسى ﷺ، والإنجيل المنزل على عيسى ﷺ، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ولا أحد أعظم وفاء بما عاهد عليه من الله فإنه لا يخلف الميعاد، فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمَلِكُونَ
 الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَالنَّاهِيُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
 وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ
 يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ
 مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
 اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ
 فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
 ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى
 يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ
 لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى
 النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
 سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
 مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

وصف الله أهل الجنة بأنهم التائبون الذين تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق، والعابدون وهم المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله ﷻ، والحامدون الذين يحمدون الله على كل حال في السراء والضراء، والسائحون وهم الصائمون، وسمي الصائم سائحًا لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح، والراكون الساجدون وهم المصلون، والأمرون بالمعروف وأعظم المعروف الإيمان والتوحيد، والسنة، والناهون عن المنكر وأعظم المنكر الشرك بالله، والبدعة، فهم ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والحافظون لحدود الله وهم القائمون بأوامر الله، فليستبشر من اتصف بهذه الصفات

وأهل الإيمان يقطعون صلتهم بالكفار، ولو كانوا من أقرب الناس لهم، ولذلك جاء تحريم الاستغفار لهم، والدعاء؛ لأنهم ماتوا على الشرك.

وأما استغفار إبراهيم لأبيه، فكان لأجل وعد من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله، وأنه غير مستحق للاستغفار، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عمن ظلمه وأثاله مكروهاً؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه، ولذلك لم يستغفر النبي ﷺ لأمه وأبيه وعمه، وزار قبر أمه فاستأذن ربه بالدعاء لها فلم يؤذن له.

والله أقام الحجة على عباده بإنزال الكتب وإرسال الرسل فلا يفضل قومًا حتى تقوم عليهم الحجة بهداية الدلالة والإرشاد، والله سبحانه لا يؤاخذ العباد على فعل محرم جهلوه، أو لم يتبين لهم حرمة، فعذر الله عباده بالجهل.

والله سبحانه مالك الملك، له ملك السموات والأرض يحیی من يشاء ويميت من يشاء، هو ولي المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم، نصرهم في مواطن كثيرة، ومنها غزوة تبوك فقد كتب الله لهم النصر والمغفرة، فقد خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدية وحر شديد، وعسر من الزاد والماء، وفي هبان الحر، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل لينجر بغيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، أصابهم فيها جهد شديد، حتى إن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهما، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، حتى وقع في قلوب بعض المسلمين الزيف عن الحق والشك في دين رسول الله ﷺ، وارتاب بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم، ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه، فتاب الله عليهم وأرجعهم من غزوتهم بالنصر والأجر برحمة منه وفضل.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ
مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ
مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ
عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم
بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا في التوبة وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، الذين أوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة، ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، قال كعب بن مالك: (نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حرك شفتيه برد السلام علي أم لا، ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض، حتى كمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يشروننا، وذهب قبيل صاحبي مبشرون، وانطلقت أوم رسول الله ﷺ، يلقي الناس فوجا فوجا يهتفون بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)، فقلت: أؤمن عندك يا رسول الله أم من عند الله، قال: (لا بل من عند الله)، فأنجاهم الله بالصدق، فالمسلم يلزم الصدق ويكون مع أهله ففيه النجاة من المهالك ويجعل الله فيه الفرج والمخرج.

وعاتب الله المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم حرموا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم لا يصيبهم العطش والتعب والمجاعة ولا ينزلون منزلا يرهب عدوهم، ولا ينالون منه ظفرا وغلبة عليه إلا كتب الله لهم هذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرتهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم، أعمالا صالحة وثوابا جزيلا، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا في السير إلى الأعداء إلا كتب لهم الأجر والثواب من الله.

ومن الجهاد الخروج لطلب العلم، والتفقه في الدين، والفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية وبما يتوصل به إلى العلم بها، فيجب على الأمة أن يتخصص منها جماعة بالعلم بالشرع المطهر، والغرض تعلم العلم وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين، فهو طالب لغرض دنيوي لا لغرض ديني، فيجب على العالم بذل العلم فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

يَتَّيْمًا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبْلُ الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ
سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ
ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفُوا اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ
﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

أمر المسلمون بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته ﷺ، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه فاختره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر رضي الله عنه، فثبت الله الدين به، فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية من العباد، وأنفق كنوزها في سبيل الله، وكان تمام الأمر على يدي وصيه وولي عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدتين، وقمع الطغاة والمنافقين، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه وبلغت الأمة الحنيفية مشارق الأرض ومغاربها، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقا بأخيه المؤمن، غليظا على عدوه الكافر، والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائهم الكافرين، وأن يعلي كلمته في سائر البقاع.

والمؤمنون تزيدهم آيات القرآن إيمانا، يفرحون بها في القرآن من الوعد الصادق لهم بالأجر والثواب وأما المنافقون فلا يزدادون عند نزول القرآن إلا كفرا إلى كفرهم، فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها، ولا يزال الابتلاء فيهم فلا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم، وأما المؤمنون فإنهم يرون الابتلاء تذكيرا لهم فيرجعون وينيبون، بخلاف المنافق الضال فهو في غيه يتخبط وقد وصف الله حالهم عند نزول القرآن، أنهم ينظر بعضهم إلى بعض هل يراهم أحدا ثم يتولون عن الحق وينصرفون عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه، فقد أضل الله عقولهم وقلوبهم فهم لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شدة عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

ولقد أنعم الله على الأمة ببعثة سيد المرسلين منهم، يعرفون نسبه وحسبه ومن أشرفهم وأفضلهم، شديد عليه دخول المشقة والمضرة على أمته حريص على إيمانها وصلاتها، رءوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين، فهو رحمة مهداة، فمن أعرض عن الإيمان به فإن الله حسبه وكافيه وناصره، الله لا إله إلا هو عليه يتوكل المتوكلون، وهو رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيها وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
 أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا
 لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ
 إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ
 يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
 أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ
 ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ
 وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
 اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

سورة يونس

وهي سورة مكية ، وسميت بذلك لذكر قوم نبي الله يونس بن متى ﷺ فيها

افتتحت السورة بالحروف المقطعة التي ترمز إلى إعجاز القرآن، المعجز بآياته وسوره، فهو الكتاب الحكيم المحكم بالحلال والحرام، والحدود والأحكام، حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه، أنزله على رسوله ﷺ بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، بعثه الله من العرب لينذر الناس الشرك ويبيشروهم بالتوحيد، ويشر المؤمنين بالعاقبة الحسنة، والمقام الصدق الذي لا زوال له، ولا يؤس فيه، وأبى الظالمون الكافرون إلا جحودًا واستكبارًا، ورموه بالسحر والكذب والكهانة، وهو مؤيد من رب العالمين رب العالم جميعًا، الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى إلى العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها، يدبر أمر الخلائق، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهمه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والفقار، لا يشفع أحد إلا بإذنه وبرضاه عن المشفوع، ذلكم هو الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فكيف يعبد المشركون معه غيره، وهو المتفرد بالخلق والإيجاد، إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدًا حتى يعيده كما بدأه، فكما بدأ الخلق كذلك يعيده، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالعدل والجزاء الأوفى، والذين كفروا يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب بسبب كفرهم، في سموم وحميم وظل من يحموم.

والله سبحانه خلق الشمس والقمر وجعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً وشعاع القمر نورًا، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيرًا، ثم يتزايد نوره وجرمه، حتى يكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

ما خلق الله ذلك إلا بالحق، لم يخلق ذلك عبثًا بل له حكم عظيمة، وحجج بالغة، فتلك الآيات والأدلة، تدل على وحدانيته، ومن ذلك تعاقب الليل والنهار آيات من آيات الله، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئًا، ومن الآيات الدالة على عظمته تعالى ما خلق الله في السموات والأرض من الآيات وما يعقلها إلا أصحاب العقول السليمة التي تخاف عقاب الله، وسخطه، وعذابه، تلك القلوب التي تتفكر في مخلوقات الله ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقتنا عذاب النار.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا
 بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمُ
 النَّارُ يِمَّا كَانَوْا يُكْسَبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ
 الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ
 اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ * وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ
 اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ
 لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
 الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
 عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
 لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ
 مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا
 لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ
 خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾



الأشقياء هم الذين كفروا بقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها أنفسهم، هم الذين غفلوا عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأثمرون بها، فمأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر، وأما السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتلأوا ما أمروا به فعملوا الصالحات، هداهم ربهم بليانهم، فتمثل لهم أعمالهم في صورة حسنة وريح طيبة في قبورهم وإذا قاموا من قبورهم، تلازمهم وتبشرهم بكل خير، يقولون لهم نحن أعمالكم، فتجعل لهم نوراً، من بين أيديهم حتى تدخلهم الجنة، وقولهم وكلامهم ودعاؤهم في الجنة تنزيه الله من كل سوء، يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس، والتسبيح علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا أرادوا الطعام قالوا سبحانك اللهم فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، ويحيي بعضهم بعضاً بالسلام، وتحية الملائكة بالسلام، يفتتحون كلامهم بالتسبيح، ويختمونه بالتحميد، لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وهو سبحانه المحمود أبداً، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، المحمود في الأول وفي الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وفي جميع الأحوال.

ومن رحمة الله بعباده وحلمه ولطفه أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، لأنه يعلم منهم عدم القصد، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء، فلو استجاب الله لهم كل ما دعو به في ذلك، لأهلكهم، ولذلك نهي الإنسان أن يدعو على نفسه وولده وماله، والإنسان فطر على صفات وطبائع، منها أنه إذا أصابه الضر والشدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذبح كأنه ما كان به من ذاك شيء، وهذه حال المجاوزين الحد في الكفر والمعصية زينت لهم أعمالهم السيئة.

أما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، والمكذبون للرسول مآلهم إلى الخسران، كما أحل الله بالقرون الماضية من العقوبات، في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله من بعدهم آخرين، وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، وإتباعهم رسوله فكذبوا وعصوا فنزل بهم من العقوبة ما نزل بمن قبلهم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتَ بِفِرْعَوْنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

لقي رسول الله ﷺ الأذى والمشقة من تعنت الكفار من مشركي قريش، فكان إذا قرأ عليهم كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: رُدْ هذا وجئنا بغيره ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك، أو اجعل مكان آية العذاب آية الرحمة، أو مكان الحرام الحلال أو مكان الحلال الحرام، وما علموا أنها هو عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله، وإنما جاء به عن إذن الله له في ذلك ومشيتته وإرادته، وهم يعلمون صدقه وأمانته منذ نشأ بينهم إلى حين بعثه الله ﷺ، فهذا القرآن ليس من قول البشر لعجزهم عن معارضته، والإتيان بمثله، فهل لهم عقول يعرفون بها الحق من الباطل؟ ويفرقون بها الصدق من الكذب، وهم يعلمون صدق النبي ﷺ ولكنه الجحود والعصيان

فإنه لا أحد أظلم ولا أشد إجرأً ولا أعظم ظلمًا ممن تقوّل على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه فإن الشرك ظلم عظيم، فالمشركون الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، والواقع أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئاً، فهل هم يخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض، تنزه الله عن شركهم وكفرهم، وهذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وكان الناس كلهم على دين واحد، وهو الإسلام؛ كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيّناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة، ولولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين، وأعنت الكافرين.

ومن تعنت الكفار طلبهم آية كما أعطى الله ثمود الناقة، فأردوا أن يحوّل الله لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، ونحو ذلك مما يقدر الله عليه ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، فإن من سنة الله في خلقه أنه إذا آتاهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلهم بالعقوبة، ولهذا لما خيّر رسول الله عليه الصلاة والسلام بين أن يعطى ما سألوا فإن أجابوا وإلا عوجلوا وبين أن يتركهم وينظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله وسلامه عليه؛ فالأمر كله لله، وهو يعلم عواقب الأمور، فإن كانوا لا يؤمنون حتى يشاهدوا ما سألوا فلينتظروا حكم الله فيهم، ولو علم الله منهم أنهم إنما سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابه، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعتاً.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي
 ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ
 ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ
 وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
 وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
 اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾
 إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ
 نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
 زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا
 أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ
 يَا لَأَمْسٍ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ
 يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

شكر النعم من صفات المؤمنين وجحودها من صفات الكافرين، وأكثر الناس إذا جاءتهم الرحمة بعد الضراء، والرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط، لا يشكرون، بل يكفرون بنعمة الله، وينسبون النعمة إلى غير الله وما علموا أن ذلك استدراجاً وإمهالاً من الله، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والله أعجل عقوبةً وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء، والكاتبون الكرام يكتبون وعلى الإنسان جميع ما يفعله، ويحصى عليه، ثم يعرض على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الخفير والجليل والنقير والقطمير.

وهو سبحانه الذي يحفظ عباده في البر والبحر ويكلؤهم بحراسته، فهم إذا ركبوا في الفلك وجرت بهم بريح لينة وفرحوا بها جاءت بها ريح شديدة وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم هلكوا أخلصوا الدعاء لله ولم يدعوا معه صنماً ولا وثناً، بل يفرّدونه بالدعاء والابتهال، ودعوا ربهم بالنجاة والإخلاص بالعبادة فلما كشف ما بهم، إذا هم يشركون ويبيعون، والعبد إنما يذوق وبال هذا البغي ولا يضر الله شيئاً، وهو في هذه الحياة الدنيا الدنيئة الخفيرة يتمتع بشهواتها ثم مصيره ومآله إلى الله فيجد أعماله قد وفيت إليه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

فهذه الحياة الدنيا في زهرتها وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، كالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام، يخرج في جميع الأشكال والأنواع فيفتن بزيته ونضرتة وجهاله، وغلب على ظن أهل الأرض قدرتهم على جذائها، وحصادها فبينما هم كذلك إذ جاءت صاعقة، أو ريح بادرة، فأبيست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ فصارت يابسة بعد الخضرة والنضارة، كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك، فهل يعتبر أهل العقول بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، في غير ما آية من كتابه العزيز.

وحين ترتفع النفس عن الدنيا وتعلو عن الشهوات وتنظر إلى الدنيا بعين العاقل تجدها هباءً منثوراً سرعان ما تذروها الرياح فتمضي أيامها ولياليها وشهواتها وملذاتها فلا يبقى فيها إلا غصصها وندمها وويلاتها، والمسلم الحق هو الذي يعد للأخرة الباقية ولا يركن إلى الدار الفانية، يرغب في الجنة دار السلام فهي سالمة من الآفات، والنقاص والنكبات، ويسأل ربه الجنة ويعمل لها فهو سبحانه يدعو عباده إلى الجنة وهو الذي يهدي عباده إلى الصراط المستقيم وهو الإسلام، فنسأل الله الجنة ووالدينا والديهم والمسلمين، ونسأله الهداية إلى الصراط المستقيم وأن يتوفانا مسلمين وأن يلحقنا بالصالحين غير خزايا ولا ندامى ولا مفتونين.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
 وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ
 كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ
 اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا
 أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
 جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا
 بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ
 شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾
 هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ
 الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ
 مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ
 الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ
 فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ
 فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ
 حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

المحسنون لهم الجزاء الأوفى والنعيم المقيم، الذين أحسنوا الاعتقاد، وأحسنوا العمل، وأحسنوا إلى الخلق لهم الجنة وهي الحسنى، والزيادة أفضلها وأعلاها النظر إلى وجه الله الكريم، فإنها أعظم من جميع ما أعطوه من نعيم الجنة.

وهم ناجون من كربات يوم الحشر، ومن أهوال الموقف قبل أن يفصل في أمر الخلق فلا يغشى وجوههم ققام وسواد في عرصات المحشر، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من الفترة والغبرة والانكسار والمهانة، بل نضرة في وجوههم، وسرور في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضلهم ورحمته آمين، أما حال الأشقياء، فإن الله يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، وفي يوم القيامة تعذيبهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، ما لهم من الله من مانع ولا واق يقيهم العذاب، وجوههم مسودة كأنها ظلام الليل عليها الغبرة والمهانة فهم أهل النار مصيرهم إليها ومستقرهم فيها، وفي يوم القيامة حين تحشر الخلائق، من إنس وجن وبر وفاجر، يميز الله أهل الإيمان عن أهل الشرك وعبد الأوثان، فيقال لأهل الشرك الزموا مكاناً معيناً، وامتاظوا فيه عن مقام المؤمنين، ويفرق بين المشركين وشركائهم، ويقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وذلك حين يتبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده، ويقول الشركاء ما كنا نشعر بعبادتكم ولا نعلم بها، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبيكت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراد، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، ففي موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، فيعلم الإنسان بما قدم وأخر، ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه، وقد أمروا بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة ولكنهم اختاروا الشرك مع اعترافهم بربوبية الله فهم إن سلوا من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيتته، فيخرج منها الزروع والثار، ومن الذي وهبهم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ومن الذي يخرج الحي من النطفة والنطفة من الحي بقدرته العظيمة، ومن الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فيقولون الله، فهم يعلمون ذلك ويعترفون به، فلماذا يشركون معه غيره بآرائهم وجهلهم، فالذي اعترفوا أنه الخالق لذلك كله هو ربهم وإلههم الحق، الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، فكيف يصرفون العبادة إلى ما سواه، وهم يعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء، ولكن حقت كلمة الله أنهم أشقياء وأنهم من أهل النار.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَكْبَدُوا
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي
 إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ
 يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
 وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
 عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ
 فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ
 مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكُمْ مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾
 بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
 بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
 أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلْتُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ
 يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّهْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

الذين أشركوا بالله غيره، وعبدوا الأصنام والأنداد، يعلمون أن ما عبدوه من الأصنام والأنداد لا تخلق ولا تعيد الخلق ولا تهدي الضال، فكيف يتركون طريق الرشd إلى الباطل، ولكنها العقول الضالة، ألا يعبدون الذي خلق الخلق ثم يعيده وحده لا شريك له، وهو الذي يهدي الخيارات والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشd، الله الذي لا إله إلا هو، أفتيتع العبد الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي، لعماء وبكمه، أم الله الذي يهدي إلى الحق ويصّر بعد العمى، فكيف تذهب العقول، كيف يسوى بين الله وبين خلقه، ويعدلون به غيره، هلا أفردوا الرب ﷻ المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصوا إليه الدعوة والإجابة.

ولكنه اتباع الظن والتوهم والتخيل بلا دليل ولا برهان ولا حجة لهم، وسيجازيهم الله على ذلك أتم الجزاء.

ولو اتبعوا هدي القرآن لقادهم إلى الفلاح فهو كلام الله، فمثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، وتصدق الكتب المتقدمة، وهو المهيمن عليها، والمبين لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وفيه بيان الأحكام والحلال والحرام، بياناً شافياً كافياً حقاً لا مزية فيه من الله رب العالمين، ومن إعجاز القرآن أنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيزية النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ فإن ادعوا وافتروا وشكوا في هذا القرآن، فليأتوا بسورة من جنس القرآن، وليستعينوا على ذلك بكل من قدروا عليه من إنس وجان، فلن يستطيعوا مع أن الفصاحة كانت من سجايهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً، وانتفعوا برسالة النبي ﷺ، ومنهم من كذب بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ولم يحصلوا على ما فيه من الهدى ودين الحق، فكذبوه جهلاً وسفهاً فمثلهم كمثل الأمم السالفة كذبوا فأهلكهم الله بتكذيبهم الرسل، وسيموتون على الضلالة، والله أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضلّه، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كل ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

وهؤلاء المكذبون يُتبرأ منهم ومن عملهم، فهم يسمعون الحق ولا يستجيون له؛ لأن الله أراد إضلالهم فلا يستطيع أحد إسماعهم الحق فهم كالصم والبكم عن سماع الحق، ومن يضلّل الله فما له من هاد.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ اتَّكُمُ عَذَابُهُ بَيْنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ؕ ءَا لَكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

الكفار ينظرون إلى النبي ﷺ وإلى ما أعطاه الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوته ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم من أولي البصائر والنهي، فالؤمنين الذين ينظرون إليه بعين الوقار، والكفار ينظرون إليه بعين الاحتقار.

والله لا يظلم أحداً شيئاً، وقد هدى برسوله ﷺ من هدى من الغي وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً، وأذنأ صماً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ وهو سبحانه إليه المرجع والمآب يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم يحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة، كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار لقصر الحياة الدنيا في الدار الآخرة، في ذلك يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه، ففي ذلك اليوم يخسر من كذب بالآخرة، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

والله سبحانه هو الحكيم العليم هو الذي ينزل بأسه على القوم المجرمين ويتنقم منهم في حياة رسوله ﷺ لتقر عينه منهم، أو بعد وفاة رسوله ﷺ فإلى الله مصيرهم ومتقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعد النبي ﷺ.

وكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أفعالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضى لهم، والكفار يستعجلون العذاب ويسألون عن وقته، مما لا فائدة فيه لهم، فهو واقع بهم لا محالة، وإن لم يعلموا وقته، والرسول ﷺ لا يعلم متى الساعة، ولا يقول إلا ما علمه ربه، ولا يقدر على شيء مما استأثر الله به إلا أن يطلعه عليه، فهو عبد الله ورسوله، ولكل قرن مدة من العمر مقدرة فإذا انقضى أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وعذاب الله سيأتي المكذبين بغتة ليلاً أو نهاراً، والعذاب مكروه تنفر منه القلوب، وتآباه الطباع فما المتفتى لاستعجالهم له، أبعد ما يقع عذاب الله عليهم، ويحل بهم سخطه وانتقامه، يؤمنون حين لا ينفع الإيمان شيئاً، ولا يدفع عنهم ضرراً. ويوم القيامة تقول لهم الملائكة، تبيكاً وتقريعاً ذوقوا العذاب الدائم الذي لا ينقطع وذلك بما كسبت أيديهم في الحياة من الكفر والمعاصي، وهم في الحياة الدنيا يستخبرون النبي ﷺ على جهة الاستهزاء به والإنكار، أحق ما تعدنا به من العذاب في العاجل والآجل، فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة جواباً عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء، قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء أي وربي إنه لحق، أي نعم، وربي إن ما أعدكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظِلْمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا
 النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ. وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
 لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ
 وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ
 مِنْ رَبِّكَمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ. فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
 يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ
 فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ
 تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
 لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
 وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
 فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
 السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

إذا قامت القيامة يود الكفار لو يفتنون من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا، وأظهروا الندامة، ووجدوا ألم الحسرة في قلوبهم وبدى على وجوههم الانكسار، وقضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين، وبين الرؤساء والأتباع، وبين الظالمين من الكفار والمظلومين، وأنزلت العقوبة عليهم بالعدل، ولم يظلم أحدًا منهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فالله سبحانه الملك العدل فالعالم على اختلاف أنواعه، ملكه يتصرف به كيف يشاء، يهب الحياة لمن يشاء ويسلبها ممن يشاء، وإليه يرجع الجميع في الدار الآخرة، فيجازي كلًا بما يستحقه، ووعد الله ووعيده كائن لا محالة، ولكن الكفار لا يعلمون ما فيه صلاحهم، فيعملون به، وما فيه فسادهم فيجتنبونه، ولو آمنوا بالقرآن وما جاء فيه من الهداية لأفلحوا في الدنيا والآخرة فقد أنزل الله القرآن العظيم على رسوله الكريم زاجرًا عن الفواحش، وشفاء من الشبه والشكوك، وإزالة ما في النفوس من رجس وندس، فيه الهداية والرحمة من الله تعالى للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، فهذا القرآن يفرح المؤمنون وبهذا الدين وبهذه الهداية، والفرح بذلك أعظم وأولى من الفرح بما يجمع الإنسان من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

يفرح المسلم بانتمائه للإسلام الذي هو دين الفطرة، ويفرح بأن أنقذه الله من الكفر والشرك الذي هو دين التناقض فقد كان المشركون يحرمون ويحلون من الأنعام كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة والحامي، كل ذلك كذب على الله، فالتحليل والتحريم من الله ولم يأذن الله لهم في ذلك، فسيقابهم الله على كذبهم عليه ويؤاخذهم على تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها ولا دليل عليها، فإليه مرجعهم يوم القيامة.

وله سبحانه الفضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم، ولكن أكثرهم يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيّقون على أنفسهم، فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا.

والله سبحانه يعلم جميع أحوال عباده، في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقاترها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، فهو يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجادات وكذلك الدواب السارحة، فإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، مما يجعل العبد يستشعر مراقبة الله في جميع حركاته وسكناته، في غيبه وشهادته وسره وعلايته، والمؤمن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فالله سبحانه يراه ومطلع عليه لا تخفى عليه خافية.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 ٦٢ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ الْبُشْرَى
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتِهِ
 ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦٤ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
 الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦٥ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
 الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٦٦ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٦٧ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا
 لَا تَعْلَمُونَ ٦٨ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 لَا يُفْلِحُونَ ٦٩ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
 نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٧٠

أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، يفرح الناس ولا يفرحون، هم الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله من أثر العبادة والطاعة، لهم البشري في الحياة الدنيا وهي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له، وبشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، وفي الآخرة الجنة، وهذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يتغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة، والمؤمن يعمل بطاعة الله ملتصقاً برحمته لينال شرف الولاية، ولا يهيمه من يكيد له من المشركين وما يلقاه من آذاهم القولي والفعلي؛ لأن الله وليه يستعين به عليهم، ويتوكل عليه؛ وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم في كل شأن وفي كل عمل وفي كل حركة وسكون، معهم يعلمه وحفظه لهم، فإن العزة لله جميعاً، فجميع العزة له ولرسوله وللمؤمنين، وهو السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم.

له ملك السموات والأرض، والمشركون يعبدون أصناماً، لا تملك شيئاً، لا ضرراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنها يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرفهم وكذبهم وإفكهم.

وهو الذي جعل لعباده الليل يستريحون فيه من نصبهم وكلهم وحركاتهم، والنهار مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم، وفي ذلك آيات لمن يستمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

وهو سبحانه الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، تنزه عن الولد، وكل شيء مملوك له، عبد له، خلق ما في السموات وما في الأرض، ولكن المشركين يدعون الكذب والبهتان ويقولون على الله ما لا يعلمون فهم لا يفقهون في الدنيا ولا في الآخرة.

فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، وفي يوم القيامة العذاب المجمع المؤلم، بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيها ادعوه من الإفك والزور.

ومتاع الحياة الدنيا وشهواتها وملذاتها قليل بالنسبة للآخرة، فليمتنع الكفار في حياتهم الدنيا، فهي جنتهم لما ينتظرهم من عذاب الآخرة إن ماتوا على الكفر، وأما المؤمنون فهم في الدنيا معها أوتوا من النعيم بالنسبة لما ينتظرهم من نعيم الآخرة في سجن، نسأل الله أن يحسن ختامنا وأن يغمدنا برحمته.

﴿٧٠﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا لِقَوْمِهِ
 مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا
 أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا
 إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
 أَجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾
 فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ
 وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُذَرِّينَ
 ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ
 الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾
 فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾
 قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
 السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِنَا عِصْمًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
 وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

الأمم المكذبة حل بها من العقوبات ما فيه نذير لكل مكذب، وقد أمر الله تعالى نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يقص على كفار مكة الذين كذبوه وخالفوه، خبر نوح مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكتهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، فإن نوحاً عليه السلام قال لقومه إن كان عظم عليكم بقائي بين أظهركم ودعوتي لكم بالحجج والبراهين، فإني لا أكف عن دعوتكم، ولا أبالي بتهديدكم، فإني متوكل على الله تعالى وهو ولي المؤمنين ينصرهم ويؤيدهم، فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن، ولا تميلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلي ولا تؤخروني ساعة واحدة، فإني لا أبالي بكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، وإن كذبتهم وأدبرتم عن الطاعة، فإني لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً، فأنا ممثّل ما أمرت به.

فكذبوه فنجاه الله ومن آمن به في السفينة، وجعلهم الباقين في الأرض، يخلف بعضهم بعضاً، وأغرق المكذبين.

ثم بعث الله من بعد نوح رسلاً إلى قومهم، فجاءوهم بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوا به، فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم. فقد طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم، وختم على قلوبهم، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فهو سبحانه أهلك الأمم المكذبة للرسول، وأنجى من آمن بهم.

ثم بعث الله من بعد تلك الرسل موسى وهارون عليه السلام إلى فرعون وقومه، بالحجج والبراهين، فاستكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، واتهموه بالسحر فأنكر عليهم موسى عليه السلام، كيف يصفون الحق بالسحر، فالسحر لا يستهدف هداية الناس وإنما إغوائهم، والسحرة كفار وعملهم كفر وشرك فلا فلاح لهم في الدنيا والآخرة، فإن الساحر يصرف العبادة للشياطين لكي يطيعوه ويأتمروا بأمره، وذلك حكم الإسلام في الساحر ضربة بالسيف ولا تقبل له توبة إذا قُدر عليه.

وما كان الساحرون ليأتوا إلا بالافساد والتفريق بين المؤمنين والشرك والوثنية، وإيذاء الخلق وعبادة الشياطين.

وظن فرعون وقومه أن موسى جاء بهذه الدعوة لتكون له الرئاسة والعظمة، وكيف يستبدلون دين آبائهم بالتوحيد الذي جاء به موسى عليه السلام، وتلك حجة المكذبين التمسك بما عليه الآباء والأجداد والتعصب له ورد الحق من أجله، والكبر والتعالي على الخلق صفة تمنع من الإيمان وقبول الحق.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
 قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ
 مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ
 عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى
 خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
 فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ
 ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ
 تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
 بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ
 أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى
 رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
 وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

أراد فرعون أن يضلّل على الناس، ويعارض ما جاء به موسى ﷺ من الحق المبين بزخارف السحرة والمشعوذين، فانقلب الأمر عليه، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، فقد أمر بجمع السحرة من كل مكان ووعدهم بالتقريب والعطاء الجزيل، فأراد موسى أن تكون البداية منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ فأبطل الله سحرهم، فإنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى، فلما رأى السحرة الحق خروا لله ساجدين وقالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون، فظن فرعون أن يستنصر بالسحر على رسول رب العالمين، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار، فأظهر الله الحق وبينه بالحجج والبراهين ولوكره آل فرعون، أهل الإجماع والآثام.

ولم يؤمن بموسى ﷺ مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملته، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعنوة، وكانت له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً، وأما بنو إسرائيل فإنهم كلهم آمنوا بموسى ﷺ، واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون، فكل الذين آمنوا أذاهم فرعون أشد الأذى، وقالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، فأمرهم موسى ﷺ بالتوكل على الله فإن الله كاف من توكل عليه، وكثيراً ما يقرن الله بين العباد والتوكل، وامثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تظفرهم بنا، لا تسلطهم علينا فيظنوا أنهم إننا سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، ولا تسلطهم علينا فيفتنونا، وخلصنا برحمة منك وإحسان، من الذين كفروا بالحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك، فأمر الله موسى وهارون ﷺ أن يتخذوا من بيوت بني إسرائيل مساجد يصل فيها، فأمرهم بكثرة الصلاة؛ لأنها سبب للفرج وليبشروا بالثواب والنصر القريب، ودعا موسى ﷺ على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلموا وعلوا وتكبّروا وعتوا، قال ربنا إنك آتيت فرعون وملأه من أثاث الدنيا ومتاعها أموالاً جزيلة كثيرة في الحياة الدنيا ربنا ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا الحبل إياهم. ربنا أهلك أموالهم واجعل قلوبهم قاسية واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، وأمتهم على الكفر، فصارت أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم حجارة.

وهذه الدعوة كانت من موسى ﷺ غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير

فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح ﷺ على قومه.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ
 الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ * وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ
 فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ
 الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ
 وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
 خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾
 وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
 فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ
 فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
 مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ
 ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
 ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

استجاب الله تعالى لموسى ﷺ في بني إسرائيل هذه الدعوة، التي أثن عليها أخوه هارون، وأمرهما الله أنه كما أجيبت دعوتكما فاستقبيا على الرسالة والدعوة، وامضيا لأمر الله إلى أن يأتيهم العذاب، ومكث فرعون بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وتنفيذاً لإجابة هذه الدعوة أمر موسى ﷺ بالخروج ببني إسرائيل من مصر، وكان عددهم ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا بها معهم، فاشتد حق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة، وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس، فلما انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى ﷺ عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه، قال موسى ﷺ كلا إن معي ربي سيهدين، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، فكان كل فرق كالجلل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً، لكل سبط واحد، وأمر الله الريح فنشفت أرضه، وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبائيك، ليرى كل قوم الآخرين ثلثا يظنون أنهم هلكوا، وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع، وهيئات ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجيب الدعوة، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً، فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتمحوا كلهم عن آخرهم، فلما تكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكت الأمواج فوق فرعون، وغشيتة سكرات الموت، فقال وهو كذلك آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فأمن حيث لا ينفعه الإيمان، أفي هذا الوقت يؤمن؟ وقد عصى الله قبل هذا، وكان من المفسدين في الأرض الذين أضلوا الناس، وأظهر الله جسد فرعون ليراه بنو إسرائيل ويتحققوا من موته، ويكون آية وعبرة لمن بعده على قدرة الله، فهو الله القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولكن أكثر الناس لا يعظون، ولا يعتبرون، وقد كان إهلاك فرعون وملئه يوم عاشوراء، فصامه موسى ﷺ شكراً لله وصامه النبي ﷺ وحث على صيامه، وأنعم الله على بني إسرائيل بالنعم الدينية والدنيوية وورقهم من الرزق الطيب النافع المستطاب، واختلفوا بعد أن ظهرت فيهم الأهواء فاقتروا، والله يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، فمن كان في شك مما أنزل الله من الهدى، فليسأل الذين يقرؤون الكتاب من اليهود الذين يعلمون صدق رسالة النبي ﷺ فلقد جاء بالحق الواضح البين الذي لا يشك فيه إلا شاك ضال مرتاب، كتب الله عليه الضلالة وحق عليه قضاء الله وقدره أنه من أهل النار، فلا يؤمن ولو رأى المعجزات والآيات، فهو الخاسر في الدنيا والآخرة.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا
ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ
جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ
عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ
قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نَبِّئِ
رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُبِیْ الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٠٣﴾ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

الأمم السالفة التي بعثت إليها الرسل، كذبوا وكفروا، وبعضهم قتل نبيه وآذاه وطرده، وبعض الأنبياء لم يستجب له أحد، يأتي وحده يوم القيامة ومنهم من يأتي معه الرجل والرجلان، فلا يوجد قرية آمنت بكاملها بنبيهم عن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعدما عابوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا لديه واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به بنبيهم، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا. ولو شاء الله لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيثار، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعل تعالى، فلا إلزام للناس بدخول الإسلام، فالله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بقضاء الله وقدره ويجعل الله الضلال على الذين لا يعقلون حجج الله وأدلتها، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى، وإضلال من أضل.

والتفكر في آلاء الله وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبصار، مما في السموات من كواكب نيرات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافها، وإيلاج أحدهما في الآخر، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزهار، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، كل ذلك يدعو إلى توحيد الله وإفراد العبادة له، ولكن لا تجدي الآيات المساوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، فسينزل بهم من النعمة والعذاب مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم، وينجي الله الرسل والذين آمنوا، وهو وعد الله للمؤمنين بالنجاة والفوز والنصر، وهو وعد لا يتغير ولا يتبدل.

فمن كان في شك وريبة من الدين الخفيف، الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ، فلا يضر إلا نفسه، لأن الله اصطفى من عباده من يحقق التوحيد بالكفر بالطاغوت وهو كل ما يعبد من دون الله، ويخلص العبادة لله وحده لا شريك له الذي يتوفى عباده كما أحياهم، ثم إليه مرجعهم؛ وهو الذي بيده الضر والنفع وحده لا شريك له، والعبد يقيم وجهه، ويستقيم على الحنيفة ملة إبراهيم، وهي إخلاص العبادة لله وحده حنيفاً، فمن الشرك وهو الظلم العظيم أن يعبد العبد ما لا ينفعه ولا يضره، والتوحيد أن يعبد الله الذي بيده النفع والضر، فهو يستحق العبادة وحده، لا شريك له.

وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرُ
الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَنُ أَحْكَمْتُ آيَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
يَتَنَوَّنَ صُدُورُهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

الله ﷻ هو الذي قدر المقادير فلا راد لقضائه ولا مانع لعطائه، فإذا أصاب العبد شدة وبلاء، فلا دافع له، إلا الله وإن أعطاه الله الرخاء والنعمة والسعة، فلا مانع لرزقه، فهو سبحانه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

ومن نعم الله الهداية إلى الإسلام، فمن اهتدى به واتبعه إنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، والأنبياء والرسل إنما هم يحملون البشارة والندارة، وليس بأيديهم هداية الإلهام والتوفيق، ويتمسكون بما أنزل الله عليهم من الوحي ويصبرون على مخالفة من خالفهم من الناس، يفتح الله بينهم، وبين عدوهم وهو سبحانه خير الفاتحين بعدله وحكمته.

سورة هود

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر قصة هود مع قومه وهم عاد

كتاب الله المكون من الحروف المقطعة، أعجز العرب عن الإتيان بمثله، فقد أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ القرآن ليكون للعالمين نذيرًا، وهو محكم في آياته، وهي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل الصورة والمعنى، فهو من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور، وقد أنزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، وجاءت الرسل بالندارة من العذاب لمن خالف القرآن، والبشارة بالثواب لمن استجاب له، وطاعة الله وابتغاء مرضاته والتوبة إليه والإنابة سبب من أسباب الحياة السعيدة الطيبة، والحياة الطيبة هي ما يجده أهل الإيمان من برد الإيمان واليقين وحلاوة الإيمان في القلوب ما يجعلهم سعداء ولو عاشوا في شظف من العيش وقلة ذات اليد، والله يؤتي كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة، فمن كثرت طاعته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة في الجنة؛ لأن الدرجات تكون بالأعمال، ومن تولى وأعرض فإن له العذاب الأليم يوم القيامة، فإلى الله يرجع الجميع يوم القيامة، وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلاق يوم القيامة، وهو سبحانه عليم بما في الضائير، وعليم بالقلوب وأحوالها في الأسرار والإظهار، فلا يخفى عليه شيء من ذلك، فحين يغلق الإنسان بابه، ويأوي إلى فراشه ويتغطى بشيابه، يعلم الله حاله فالظاهر والباطن عنده سواء، والسر والجهر سبان، وهذا يدعو المسلم أن يستشعر المراقبة وأن يحفظ حدود الله في السر والعلن، ويكون في السر أشد خوفًا وتعظيمًا لله تعالى.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
 وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
 عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ
 إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرَنَاهُمْ الْعَذَابَ إِلَى
 أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْسِبُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
 مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾
 وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ
 لَيَكْفُرُ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ
 مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾
 إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
 وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ
 مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

تكفل الله بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها، وهو يعلم أين تنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها، وحيث تموت، كل مثبت في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقها، وهو سبحانه القوي القادر على كل شيء، خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء قبل ذلك، وهو سبحانه خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثاً، خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله، وصواباً على سنة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط.

والكفار ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، مع اعترافهم بأن الله خالق كل شيء، وهذا من عنادهم وطغيانهم، وحين يتوعدون بالعذاب إلى وقت معلوم يقولون تكديماً واستعجالاً: ما يؤخر هذا العذاب عنا، ولئن جاءهم العذاب في وقته المحدد فلن ينجو منه أحد أبداً.

وفي الإنسان من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً، ولم يرج بعد ذلك فرجاً، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة، قال: لا ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، فهو فرح بها في يده، بطر فخور على غيره، إلا الذين صبروا في الشدائد والمكاره، وعملوا الصالحات في الرخاء والعافية، فأولئك ما يصيبهم من الضراء تكفير للسيئات ورفعة في الدرجات، ولهم الأجر بما أسلفوه في زمن الرخاء. فما يصيب المؤمن من هم ولا غم، ولا نصب ولا وصب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها.

والصبر على المكاره من صفات الأنبياء والمرسلين فقد أمر الله تعالى رسوله، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وأرشده ألا يضيق صدره، ولا يثينه عن دعوتهم إلى الله ﷻ آتاء الليل وأطراف النهار تعنت المشركين فيما كانوا يقولونه عن الرسول، ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾، فقد أؤدي الرسل من قبله، وكذبوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله ﷻ، فإنما على الرسل البلاغ والله هو الحفيظ لأعمال العباد. وهذا منهج للدعاة بالصبر على الدعوة، وتبليغها، اقتداءً بسيد المرسلين ﷺ.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
 وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
 فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
 ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ
 مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ
 عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ
 مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
 مِنَ الْأَحْزَابِ فَإِنَّآ لَمُوعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ
 عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَّا شَهِدْتُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى
 رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

القرآن العظيم معجز بآياته، لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو ولا رب سواه، وقد عجز العرب الفصحاء أن يأتوا بمثل ذلك لأنه كلام الله المنزل، متضمن علمه وأمره ونهيه، ولم يبق للمنكرين إلا الإيذان به واعتقاد استحقاق الله بالعبودية وحده لا شريك له.

ومن كان يريد بعمله الحياة الدنيا، وزخارفها يعطون أجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق ودفع المكاره، لا ينقص حظهم، وأما في الآخرة فليس لهم إلا النار، وأعمالهم مردودة عليهم، فالكافر يُطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حصة يعطي بها خيراً، والمؤمنون على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو ﷻ.

وأيد الله هذه الفطرة، بما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، فالؤمن من عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، أما التفاصيل فتؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها؛ ومن قبل القرآن التوراة، أنزلها الله تعالى إلى بني اسرائيل إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيذان قاده ذلك إلى الإيذان بالقرآن؛ وأما من كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم وأهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، فالنار موعده.

فمن سمع من اليهود أو النصارى برسول الله ﷺ ثم لم يؤمن به إلا دخل النار.

أما المؤمنون فيعلمون أن القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، وإن كفر به أكثر الناس الذين يفترون على الله الكذب ويزعمون أن الله ولدًا أو شريكًا، فأولئك تكون فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، حين تشهد عليهم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم، فينادى بهم على رؤوس الخلائق، هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين، الذين يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ﷻ ويجنونهم الجنة، ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة، وهم بالآخرة جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها.

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى
وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ
﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا
مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا
الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنبَئَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانِنِي رَحْمَةً
مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلُكُمْ مَّوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾



المكذبون للرسول الجاحدون للحق تحت قهر الله وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار فالله يملئ للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤخرون ليضاعف لهم العذاب، وقد جعل الله لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، بل كانوا صمًا عن سماع الحق، عميًا عن اتباعه، فهم يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبهوا؛ وخسروا أنفسهم؛ لأنهم دخلوا نارًا حامية، فهم معذبون فيها لا يفترون عنهم من عذابها طرفة عين، وذهب عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجد عنهم شيئًا، بل صرّتهم كل الضرر، فهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختم بسموم وحميم، وظل من مجوم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا بد أنهم في الآخرة هم الأخسرون، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولًا وفعلًا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتعلة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمأكّل المشتهيات والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا يتغيطون، ولا يتبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون، فمثل الفريقين الذين وصفهم الله بالشقاء، كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به، وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟ فهل يعتبر الإنسان ويفرق بين هؤلاء وهؤلاء؟ وقد قص الله قصة نوح عليه السلام، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه إني نذير من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ فقال السادة والكبراء من الكافرين منهم: ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا، ثم ما نراك اتبعك إلا الباعة وأصغر الناس ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء، وهؤلاء الذين اتبعوك لم يكن أتباعهم عن ترو، ولا فكرة، ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك، وما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال، لما دخلتم في هذا الدين، بل أنتم كاذبون فيما تدعونه من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها، وهذا دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق ضعف من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الضعفاء، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالبًا أن من يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، فرد نوح عليه السلام عليهم: أرأيتم إن كنت على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، فخفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردّها، أنغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون.

وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا
 أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرْكُمُ
 قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طُرِدْتُهُمْ
 أَفَلَا نَذْكُرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
 أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي
 أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا
 لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
 جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
 إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ
 نُصْحِي إِنِ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ
 هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
 قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْحَرُمُونَ ﴿٣٥﴾
 وَأُوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ
 فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا
 وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

الأنبياء ﷺ دعاة رب العالمين يبلغون دين الله لا يبتغون أجراً على عملهم ودعوتهم من الناس وإنما يبتغون وجه الله والدار الآخرة، وهم في دعوتهم يستوي الشريف والوضيع والغني والفقير والرئيس والمرؤوس، فلا يطردون أهل الإيثار من الفقراء من أجل ضعفهم وفقرهم وإنما الميزان بالتقوى، فالأنبياء يأخذون الناس بظواهرهم ويكلمون الناس في إيمانهم وسرائرهم إلى الله، والأنبياء ليس عندهم خزائن الله فيعطون المتعنتين ما يطلبون، والتوفيق والأجر والثواب بيد الله يؤتيه من يشاء ولو كان في ظاهره محتقراً بل قد يكون المحقر في أعين الناس عظيماً عند الله لو أقسم على الله لأبره، فالله أعلم بها في النفوس من الخير والشر.

ولكن المكذبين زادوا في طغيانهم، فردوا دعوة نوح وطلبوا العذاب الذي يعدهم به إن كان صادقاً وذلك من السخرية والاستهزاء بنوح ﷺ ومن آمن معه، وما علموا أن العذاب من الله تعالى وما هم بمعجزتي الله أن يعذبهم، فلم ينفعهم نصيح نوح ودعوته ﷺ لأن الله كتب عليهم الضلالة فله الحكم والأمر، وإليه يرجعون فيجزئهم بأعمالهم، والأنبياء صادقون فيما يبلغونه من وحي الله، وإن رماهم المكذبون بالكذب والسحر، ولو كان ما أتوا به كذباً كما يزعمون فإنما عليهم الإثم والوبال، وعلى المكذبين إثمهم وبابهم فلن يتحمل أحد وزر الآخر، ما لم يكن داعياً إلى الإثم.

وأوحى الله إلى نوح ﷺ لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم، ودعا عليهم نوح بعد أن قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهملك أمرهم.

واصنع السفينة مريئاً بأعيننا وحسب وحيناً، يراه الله تعالى بعينه، فيسده ويصلح صنيعه، وقد جاء في الكتاب والسنة وإجماع السلف ثبوت العين لله - تعالى - حقيقة على الوجه اللائق به من غير تكليف ولا تمثيل.

وعلمه الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه ويبيسه، فكان ذلك في مائة سنة، ونجرها في مائة سنة أخرى، وأمره الله أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً. وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار، وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفل للذواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور. وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا
 مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
 مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُنَا احْمَلْ فِيهَا
 مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
 وَمَنْ أَمِنَ وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا
 فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرُدْهَا وَمُرْسَهَا إِنْ رِبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ
 تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ
 فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
 قَالَ سَتَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
 الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
 مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَارِضْ أَبْلَعِ مَاءَكَ وَيَسْمَأْ
 أَقْلِعِ وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
 بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
 ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾



أمر الله تعالى نوحًا ﷺ أن يصنع الفلك، فأقبل نوح ﷺ على عمل الفلك وانصرف عن قومه، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد، ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره، وجعل قومه يمرون به وهو في عمله ويسخرون منه، ويقولون يا نوح قد صرت نجارًا بعد النبوة، وكانوا يقولون له يا نوح ماذا تصنع، فيقول أصنع بيتًا يمشي على الماء، فيضحكون منه، ويرد عليهم إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم إذا عايستم عذاب الله، وسترون عاقبة سخريتكم، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب بيته، ويجب عليه عذاب دائم.

فلما جاء عذاب الله، ظهر الماء على وجه الأرض، وأوحى الله إلى نوح ﷺ إذا رأيت الماء ظهر على وجه الأرض فاركب السفينة، وأمر أن يحمل في السفينة من كل شيء زوجين اثنين، وحشر الله إليه السباع والطير، فجعل يضرب بيده في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأُنثى في يده اليسرى، فيحملها في السفينة، وأمر بحمل أهله، من ولده وعياله، إلا من سبق عليه الهلاك، وأمر بحمل من آمن ولم يؤمن به إلا قليل ولم يكن في السفينة إلا ثمانية نفر وقليل سبعة وقليل عشرة سوى نسائهم، وقليل ثمانون رجلًا.

وقال نوح ﷺ للمؤمنين اركبوا في السفينة بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رسوها، وهي تجري بهم في موج كالجبال في عظمتها وارتفاعه على الماء، ونادى نوح ﷺ ابنه يام، وكان كافرًا، يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فهلك، قال سأصير وألتجئ إلى جبل يمنعي من الغرق، فقال له نوح ﷺ لا مانع اليوم من عذاب الله إلا من رحمه الله، وحال بينهما الموج فصار من المغرقين، ثم أمر الله تعالى بعد غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، الأرض أن تبتلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تفلع عن المطر، وشرع الماء في النقصان، وفُرج من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم أحد، واستوت السفينة بمن فيها، على الجودي وهو جبل بالموصل، استوت عليه شهرًا حتى نزلوا منها، ودعوا على القوم الظالمين بالخسارة والهلاك.

ونادى نوح ﷺ ربه وسأله سؤال استعلام وكشف عن حال ولده الذي غرق، وأنه من أهله الذين قد وعده الله بنجاتهم، ووعدته سبحانه الحق الذي لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين، فأخبر أنه ليس من أهله لأن العلاقة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين علاقة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وليست علاقة القوم والعشيرة، وليست علاقة اللون واللغة، وليست علاقة الجنس والعنصر، وإنما يجمع المسلم مع أخيه المسلم العقيدة الصحيحة.

قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ
 مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَ رَبِّ إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
 تَغْفِرْ لِيْ وَتَرْحَمْنِيْ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْفُوحُ
 أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ
 وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
 مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ
 مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَى عَادٍ
 أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
 غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِيْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
 وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
 عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
 مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
 بِتَارِكِيْ آلِ الْهِنَاءِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

الرابطه الإيانية مقدمة على الروابط الأسرية، مقدمة على روابط النسب والمصاهرة والرضاع، ولما سأل نبي الله نوح ﷺ عن ابنه وأنه من أهله كان الجواب له أنه ليس من أهلك؛ لأنه عمل عملاً غير صالح، وهو الكفر، وأهله هم الذين آمنوا به وصدقوه ونصروه، أما زوجته وابنه فقد كفروا برسالته فأبعدوا من أهله.

وحين رست السفينة على الجودي، وكتب الله السلامة لأهلها من الغرق، جعل البركة فيهم، فمن ذريتهم كان أهل الأرض، وأمر نوح ﷺ بالنزول في هذه الأرض، والتمتع بما خلق الله في هذه الأرض وتحقيق العبودية لله تعالى، لتكون هذه الأرض موطنًا للأمم بعد نوح، ومنها المصدق بالرسول ومنها المكذب يتمتعون في حياتهم الدنيا ثم مآل الكافرين العذاب والعقاب.

وهذه القصة وأشباهاها من أخبار الغيب السالفة أوأحأها الله إلى نبيه محمد ﷺ على وجهها، كأنه يشاهدها، لم يكن عنده ولا عند أحد من قومه علم بها، حتى يقول من يكذبه إنه تعلمها منه، بل أخبره الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبله، وأمر النبي ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، وأذاهم له، فإن الله ناصره ومؤيده ويحوطه بعنايته، ويجعل العقاب له ولأتباعه في الدنيا والآخرة.

ولقد أرسل الله إلى عاد أخاهم هودًا نبيًا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما ينبغي ثوابه على ذلك وأجره من الله الذي فطره، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة من الأعمال السابقة، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره وحفظ عليه شأنه وقوته؛ ولهذا من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب، فالاستغفار سبب من أسباب القوة والرزق وفتح أبواب الخيرات، ومن أسباب الولد، وتفريج الهموم والغموم، ونزول الأمطار، وأعظم الاستغفار في أوقات الأسحار، وهو جلاء القلوب ودواؤها. فلما دعاهم هود إلى التوحيد والاستغفار، قالوا يا هود ما جئتنا ببرهان وحجة واضحة على ما نقول، وما نحن بتاركي ديننا من أجل قولك، وما نحن لك بمصدقين، وهذا حال المكذبين الجاحدين.

إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
 وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي
 جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا
 مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ
 رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ
 ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ
 رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ إِلَّا إِنْ ءَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
 بَعْدَ لَعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۖ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ
 يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
 وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ
 ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَنْ
 نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

يعتقد المشركون بألهتهم النفع والضرر، ولذلك قالوا لهود عليه السلام، ما تغيرك عن ديننا إلا بسبب ما أصابك من ألهتنا فقد أصابتك بخيل وجنون، وذلك أنك لما سببت ألهتنا انتقموا منك بالتخييل والجنون، فقال لهم هود إني أشهد الله على نفسي، واشهدوا يا قوم أي بريء من الشرك الذي أنتم عليه، فاحتالوا في مكرهم، وضري أنتم وأوثانكم، ولا تؤخرون ولا تمهلون، إني اعتمدت على الله ربي وربكم الذي العباد كلهم تحت قهره وقدرته يحييهم ويميتهم، وهو القادر عليهم، لا يظلمهم ولا يعاملهم إلا بالإحسان والعدل، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيان، فإن أعرضوا عن عبادة الله ربهم وحده لا شريك له، فقد قامت عليهم الحجة بالبلاغ وحق عليهم الهلاك، ويستبدل بهم قومًا غيرهم أطوع منهم، يوحدون الله ويعبدونه، ولا يضررون الله شيئًا بتوليهم وإعراضهم، إنما يضررون أنفسهم، فالله لكل شيء حافظ، وشاهد لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا، ويحفظ أنبيائه وأوليائه من سوء.

ولكن العناد والاستكبار صدهم عن الحق فأرسل الله عليهم الريح العقيم التي لا تدع شيء إلا جعلته كالرميم فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى من بينهم رسولهم هودًا وأتباعه المؤمنين من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه.

وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادي عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد فقد كفرت عاد بآيات الله ورسله، فإن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، فقد تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فأبعدوا عن رحمة الله تعالى وبقيت اللعنة عليهم إلى يوم القيامة.

و بعد عاد أرسل الله إلى ثمود الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، فبعث الله منهم أخاهم صالحًا، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له الخالق الرازق؛ وذكرهم في ابتداء خلقهم من الأرض التي خلق منها أباهم آدم، وجعلهم فيها عمارًا يعمرونها ويستغلونها، وأمرهم بالتوبة والاستغفار من ذنوبهم، وأمرهم بدعاء الله تعالى فهو سبحانه قريب لمن دعاه.

فقال له قومه: كنا نرجو أن تكون سيدًا فينا، ونرجو أن تعود إلى ديننا، فلما أظهر دعوتهم إلى الله عليه السلام وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه، كيف يدعوهم إلى التوحيد وترك الشرك الذي عليه آبائهم، وأظهروا الشك في دعوته.

قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي
 مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي
 غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَتَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
 فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
 عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ
 ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ
 أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
 وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّبِيحَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جِثْمِينَ
 لِّثْمُودَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا يَغْنَوْنَ فِيهَا إِلَّا إِنَّ شَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا
 لِّثْمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا
 سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
 رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
 قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ
 فَضْحَكْتَ فَبَشِّرْنَهَا بِاسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبُ ﴿٧١﴾

أرسل الله رسله بالبينات والحجج الواضحة، لتكون دلالة على صدقهم فيما أرسلوا به، فقد شرفهم الله بالنبوة والرسالة، وهم مكلفون بالبلاغ وأداء الرسالة، فأدوا الرسالة وبلغوا البلاغ المبين ولم يستجيبوا لدعوات المثبتين والمخذلين من أقوامهم لعلمهم أن التفريط في أداء الرسالة معصية لله ينالهم به العقاب من الله، ومنهم نبي الله صالح ﷺ قال لقومه من يمنعني من عذاب الله إن تركت تبليغ رسالته وأخذت بقولكم وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني غير الخسارة.

وطلبوا المعجزة من صالح ﷺ فطلبوا منه أن يخرج ناقة عشاء من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة، فدعا صالح ﷺ فخرجت منها ناقة وولدت في الحال ولدًا مثلها، فقال لهم: هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله من العشب والنبات، ولا تصيبوها بعقر، فيأخذكم العذاب إن قتلتموها، فقتلوها فقال صالح ﷺ عيشوا في دياركم ثلاثة أيام ثم تهلكون، ذلك وعد صادق غير كذب، وقال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مصفرة، وفي اليوم الثاني حمرة، وفي اليوم الثالث مسودة، فكان كما قال، وأتاهم العذاب في اليوم الرابع، ونجى الله صالحًا والذين آمنوا معه برحمة من الله من العذاب والهوان، وأخذت الذين كفروا الصيحة، وذلك أن جبريل ﷺ صاح عليهم صيحة واحدة فهلكوا جميعًا، وقيل أنهم صيحة من السماء فيها صَوْتٌ، وصَوَّت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم فأصبحوا في ديارهم صرعى هلكى، كأن لم يقيموا ويكونوا فيها ويعيشوا في هذه الحياة ويتمتعوا، فأبعدهم الله بكفرهم وعنادهم عن رحمته وأحل بهم غضبه وسخطه ونقمته.

وجاءت الملائكة إبراهيم ﷺ بالبشرى بإسحاق، فذهب سريعًا، فأتاهم بالضيافة، وهو عجل مشوي على الحجارة المحماة، فلما رآهم لا يأكلون استنكر حالهم وخاف منهم، وذلك أن الملائكة لا همه لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم، ضحكت وقالت: عجبًا لأضيافنا هؤلاء، نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا.

فقالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشارًا منها بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس، بإسحاق ومن ولده يعقوب، بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل.

قَالَتْ يَوْنِلَيْكَ ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا
 لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ
 وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
 عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَابَرَهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ
 قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
 جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا
 يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا
 يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ
 ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
 ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴿٨٠﴾ قَالُوا
 يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ
 مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا
 مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

لما جاءت إبراهيم عليه السلام وزوجته البشري بالولد تعجبت زوجته كيف تلد وهي عجوز قد بلغت سن الإياس من الحمل وزوجها قد بلغ الكبر والشيخوخة، فقالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزاً كبيرة عقيماً، وزوجك الخليل عليه السلام وإن كان شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير، فهي رحمة الله أدركت الخليل وبركته سبحانه في ذرية الخليل فهو سبحانه الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود مجد في صفاته وذاته؛ ولما ذهب عن إبراهيم عليه السلام الروح، وطابت نفسه جادل الملائكة في قوم لوط كيف ينزل عليهم العذاب وفيهم لوط يدفع الله به عنهم العذاب، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله، فسكت عنهم واطمأنت نفسه، وقد جبل الله خليله إبراهيم عليه السلام على الصفات الجميلة والخلال الحميدة فهو حلیم ليس بعجول في الأمور، ورحيم بعباد الله ورجاع إلى الله، فقالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام إنه جاء عذاب ربك، فليس بمرود عنهم؛ لأن الله قد قضى به فنفذ فيهم القضاء، وحقت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فلما قدمت رسل الله من الملائكة إلى لوط عليه السلام وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله واختباراً، وله الحكمة والحجة البالغة، فنزلوا عليه فساءه شأنهم وضاعت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه، فينالهم بسوء، وقال هذا يوم شديد بلاؤه، وقد علم أنه سيدافع قومه عنهم، ويشق عليه ذلك، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاءوا يسرعون ويهرولون في مشيتهم وكان قصدهم عمل المنكر، فردهم لوط عليه السلام وأرشدهم إلى ما أباح الله لهم من نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، وأمرهم بترك الحرام، والاقتصار على نسائهم، ولم يكن منهم رجل فيه خير، يقبل ما أمرهم به، ويترك ما نهاهم عنه، وتمنى نبي الله لوط عليه السلام لو أن له بهم قوة لنكل بهم وفعل بهم من العذاب والنقمة وإحلال البأس بهم، ورحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد وهو الله تعالى، فأخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وبشروه أنهم لا وصول إليهم، ولا خلوص، وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يكون في آخر أهله، ولا يلتفت منهم أحد، إذا سمعوا ما نزل بهم، ولا يهولهم أصواتهم المزعجة، حين ينزل بهم العذاب، واستثنت زوجته من أهله؛ لأنها كانت على دين قومها ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ فموعدهم الصبح، وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف، قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
 حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ
 وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
 شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ
 وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمُ
 أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
 بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
 بِحَفِيفٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ
 نَّتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
 إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَبْقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
 كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
 مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

أنزل الله العذاب على قوم لوط عند طلوع الشمس، أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل الساء نباح كلابهم، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبهم، فأرسلهم إلى الأرض منكوسين، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل، يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم، معلمة مخطومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه.

وأرسل الله إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد معان، في بلد يقال لها "مدين" أرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً، يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطيف في المكيال والميزان، فقال لهم: إن الله أنعم عليكم في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله، وأخاف عليكم عذاباً في الدار الآخرة، فنهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو قطع الطريق، فرزق الله خير لهم من المكاسب المحرمة من السرقة، وقطع الطريق وبخس المكايل، وما يفضل لهم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير من أخذ أموال الناس، ويراقبون الله في جميع أحوالهم.

فقالوا له على سبيل التهكم قبحهم الله: أقرأتك يأمرك أن نترك عبادة الأوثان والأصنام، وأن نترك التطيف، ونُدفع الزكاة فيها، وما هي إلا أموالنا نفعل فيها ما نريد، إنك أنت الحليم الرشيد على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله، فهم أرادوا السفه الغاوي، فقال لهم نبي الله شعيب عليه السلام: أرأيتم يا قوم إن كنت على بصيرة فيما أدعو إليه، ورزقني النبوة، والرزق الحلال، وما أريد أن أنهاكم عن شيء، وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، إن أريد إلا الإصلاح فيما أمركم وأنهاكم فما أصبت من الحق فمن الله عليه توكلت في جميع أموري، وإليه أرجع، فهو سبحانه إليه المرجع والمآب، وهكذا يكون الداعية إلى الله قدوة في طريق الخير، ولا يخالف فعله قوله، فلا يأمر بالأمر ثم لا يمثله، بل يكون مقدماً فيما يدعو إليه من الأعمال، وحين يقوم الداعية بعمله ويخلص في دعوته، قاصداً في دعوته نفع المسلمين فهو يدعو إلى الله، لا يدعو إلى نفسه، والموفق هو الله تعالى، هو القادر على إنجاح مسعى الداعية في الإصلاح بما يعلم من نيته، وبما يجزي على جهده، فعليه أن يتوكل على الله وحده لا شريك له ولا يعتمد على غيره، ولو سلك الدعاة هذا المسلك في التحرر مما يجير النفع لأنفسهم، فلا يكون لهم حظ من دعواتهم وإنما القصد أن ينتفع الناس بدعوتهم ولو لم ينسب إليهم شيء، لنفع الله بدعوتهم.

وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
 قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ
 بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
 رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ
 وَإِنَّا لَازِلُوكَ فِينَا ضِعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ
 عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ
 اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ
 سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
 كَذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ
 أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٩٤﴾
 كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ۖ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ
 وَمَلَائِيهِ فَاثْبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٦﴾

المكذبون للرسل مبغضون لهم وما جاؤا به من الحق، ورد الحق وبغضه سبب من أسباب نزول العذاب، ولذلك قال نبي الله شعيب ﷺ لقومه: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، والتمادي في الضلال والكفر، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح، أو قوم لوط من النعمة والعذاب.

وها هم قوم لوط هلكوا بين أيديكم بالأمس، فاستغفروا الله من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، إن الله رحيم بمن تاب وأناب، قالوا يا شعيب ما نفهم ولا نعقل كثيرًا من قولك، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، وما نراك إلا ذليلاً؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك، ولولا قومك وعشيرتك لرجمناك بالحجارة وما أنت علينا بكريم ولا أحد يمنعنا من قتلك، فقال لهم نبي الله شعيب: أتتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاماً لله أن تنالوا نبيه بأذى، ونبذتم أمر الله خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه، إن الله يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكُم بها، فلما يئس نبي الله شعيب ﷺ من استجابة قومه له قال يا قوم اعملوا على طريقتكم، وهذا تهديد ووعد شديد، إني عامل على طريقتي ومنهجي وسوف تعلمون من يأتيه العذاب في الدار الآخرة، ومن هو الكاذب وانتظروا العذاب، فإني أرتقب الثواب.

ولما جاء أمر الله ونزل عليهم العذاب نجى الله نبيه شعيباً ﷺ والذين آمنوا معه برحمة من الله، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فصاح بهم جبريل ﷺ صيحة فخرجت أرواحهم، فأصبحوا في ديارهم ميتين هامدين لا حراك لهم، وقد جمع الله عليهم من أنواع العذاب فأصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة، عقاباً على كفرهم وبغيهم.

ويستمر كفر المعاندين، فقد أرسل الله نبيه موسى ﷺ بآياته وبياناته، وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون، ملك ديار مصر على أمة القبط، فقد جاءهم بالتوراة، والمعجزات، فاتبعوا مسلك فرعون ومنهجه وطريقته في الغي والضلال، وتركوا دعوة نبيهم ﷺ وبقوا على الجهل والضلال، والكفر والعناد، وهذا مسلك الطغاة في رد الحق ومحاربة أهله من الأنبياء وأتباعهم من المصلحين.

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ
 الْمُرْوَدُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمِ الْقِيَمَةِ بِئْسَ
 الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ
 مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٠١﴾
 وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ
 أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
 نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ
 إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي
 النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ
 ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ ﴿١٠٨﴾

فرعون قائد الضلالة وإمام الغواية يقدم قومه يوم القيامة إلى نار جهنم، فيوردهم النار، وله فيها الحظ الأوفر من العذاب الأكبر، وبئس المورد أن يوردهم نارًا تلظى لا يصلاها إلا الأشقي، وزيادة على عذاب النار لعنة في هذه الحياة الدنيا، فبئس لعنة الدنيا والآخرة.

وتلك أخبار الأنبياء، وما جرى لهم مع أمهم، قصها الله على نبيه لتكون عبرة وعظة، كيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين فتلك البلاد منها العامر بالطاعة والعبادة، ومنها الهالك الخراب التي نزلت على أهلها العقوبات بكفرهم وعنادهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بتكذيبهم الرسل وكفرهم بهم، فما نفعتهم أصنامهم وأوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها، لما جاء أمر الله بإهلاكهم، وما زادهم إلا الخسارة في الدنيا والآخرة، وتلك سنة الله فيمن ظلم وكفر وتجبر، فكما أهلك تلك القرون الظالمة المكذبة للرسل كذلك ينزل العذاب بأمتائهم وأشباهم، لأن الله يملئ للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، فيأخذه أخذ عزيز مقتدر، ففي ذلك العبرة والعظة لكل مؤمن يخاف الله والدار الآخرة، يخاف اليوم الذي يجمع الله فيه الخلائق من أولهم إلى آخرهم، فلا يبقى منهم أحد، يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيهم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها، وقد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره، في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم، أقام الله الساعة، يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى، فينقسمون إلى فريقين شقي وسعيد، فريق في الجنة وفريق في السعير فالأشقياء في النار لهم فيها زفير وشهيق، فالزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، فتنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عبادًا بالله من ذلك، خالدين فيها أبد الآباد، ومن عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا قالت: "هذا دائم دوام السموات والأرض"، إلا من شاء الله نجاته من العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعته الشافعين، من الملائكة والنبين والمؤمنين، وأما السعداء أتباع الرسل، فمأواهم الجنة، ماكثين مقيمين فيها أبدًا، ودوامهم فيها هم فيه من النعيم، ليس أمرًا واجبًا بذاته على الله، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائمة، ولهذا يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس، وهذا النعيم عطاء من الله غير مقطوع، يقال لهم: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
 ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُقُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾
 وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ
 ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
 فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
 لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ
 اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ
 ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا
 كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُونَ عَنِ الْفُسَادِ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
 رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

ما كان عليه المشركون من عبادة الأوثان، دين باطل، فلا يتطرق إلى قلب مؤمن صحة ما هم عليه إنما هم على الباطل والجهل والضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحدًا من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة، وأنبياء الله تعالى اختلف الناس فيهم فمنهم المصدق ومنهم المكذب، ومن الأنبياء موسى ﷺ فقد آتاه الله الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به، ومن كافر به، ولولا ما تقدم من تأجيل العذاب إلى أجل معلوم، لقتضى الله بينهم، وقد جعل الله على نفسه، أن لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، والله سبحانه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا، وهو سبحانه العليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيقها، صغيرها وكبيرها.

وأمر الله نبيه ﷺ بالاستقامة على الدين، والعمل به، والدعوة إليه كما أمر، ومن آمن معه ولا يتجاوزون أمر الله ولا يعصونه، ولا يغفلون فيزيدوا على دين الله ما ليس منه، فهو سبحانه لا يخفى عليه من أعمال عباده شيئًا وهذه الآية هي أشد آية على رسول الله ﷺ فقد قال: "شيتني هود وأخواتها" وهن الواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت.

والثبات والدوام على الاستقامة، من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومداهنة الأعداء ومصانعتهم سبب للفشل والهزيمة ونزول العقاب، فالله ولي المؤمنين هو ناصرهم ومؤيدهم، الذين قاموا بشريعة الله وأدوا الفرائض، وتقربوا إلى الله بالنوافل، وأعظم الفرائض الصلاة المفروضة في أوقاتها المفروضة في الصباح، والظهر، والعصر، والمغرب والعشاء اللتين في ظلمة الليل، فالحسنات وفعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، فالمسلم يعمل الخير تقريبًا إلى الله وتكفيرًا لما يقع فيه من المعاصي، والصلوات الخمس يذهبن الخطايا، ويرفع الله بها الدرجات، وتلك عظة للمؤمنين الذاكرين، الذين يصبرون على الطاعة ويصبرون عن المعصية، فأولئك يوفيهم الله أجورهم ولا يضيع منها شيئًا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة من فرائض الله، ولو وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، لأناجهم الله عند حلول العذاب، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن كتب الله عليه الشقاء فإنه لا يستجيب لداعي الأمر بالمعروف، فيستمر على ما هو فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يرجع حتى يفجأه العذاب، والله لا يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
 إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
 لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَلَّا نَقْصُ
 عَلَيْكَ مِن أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ ۚ فَوَادِّكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
 الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ
 ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
 فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
 بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
 لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
 أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

كتب الله الاختلاف بين البشر ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة في الإيمان، ولا يزال الاختلاف بينهم في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم، ولا يزالون مختلفين في الرزق، يسخر بعضهم لبعض، إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذي جاءت به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي الأمي خاتم الرسل والأنبياء ﷺ، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة، وهم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وقد سبق في قضاء الله وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن من خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وكل أخبار الأمم السابقة مما قصها الله على نبيه ﷺ، وأنباء الرسل المتقدمين قبله مع أمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وحذل أعداء الكافرين مما يكون سبباً في تثبيت فؤاد الرسول ﷺ، وهي من الحق والهدى الذي أوحى إلى النبي ﷺ، فالذين كذبوه وكفروا بدعوته سيلقون العذاب الأليم ينتظرهم يوم القيامة فليعملوا على طريقتهم ومنهجهم في التكذيب والعناد والكفر، وليعمل أهل الإيمان على طريقتهم ومنهجهم، وسيعلمون من تكون له عاقبة الدار، إن الله لا يفلح الظالمين، وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم، وهو سبحانه عالم غيب السموات والأرض، وإليه المرجع والمآب، وسيوفي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فليتوكل العباد عليه؛ فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه، وهو سبحانه لا يخفى عليه ما عليه المكذوبون فهو العليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة.

سورة يوسف

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر قصة يوسف ﷺ فيها

قصة يوسف من أحسن القصص في القرآن، فيها من العبر والدروس، ذلك القرآن العظيم الواضح الجلي، الذي يفصح عن الأشياء المهمة ويفسرها ويبينها، الذي نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بواسطة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف الأزمان، قص الله فيه قصص الأنبياء لتكون عبرة وعظة، فقصة يوسف وأبيه نبي الله يعقوب ﷺ، ابتدأت برؤيا يوسف إذ قال لأبيه يعقوب ﷺ: إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين، رؤيا تدل على ظهور يوسف وعلوه وارتفاع مكانته على إخوته، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه.

قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا
 إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ
 رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ
 وَعَلَىٰ آلٍ يَعْقُوبَ كَمَا آتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَخَوَّ
 إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ
 ءَايَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا
 أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا
 يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ
 بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ
 وَالْقُوَّةَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ
 فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ
 لَنَصَحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ
 لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ
 أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ
 أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾



حين قص يوسف ﷺ على أبيه يعقوب ﷺ ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً، خشي يعقوب ﷺ أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك، فيبغوا له الغوائل، حسداً منهم له؛ فنهاه عن أن يقص رؤياه على إخوته فيحتالوا له حيلة يكون فيها هلاكه، ولهذا يشرع للمسلم إذا رأى ما يجب أن يحدث بها من يجب، وإذا رأى ما يكره يتحول إلى جنبه الآخر ويتفل عن يساره ثلاثاً، ويستعيذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً.

وقال نبي الله يعقوب ﷺ لولده يوسف إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، يخنارك ويصطفيك لنبوته، ويعلمك من تعبير الرؤيا، ويتم نعمته عليك بإرسالك والإبقاء إليك؛ كما أتيها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولقد كان في قصة يوسف وخره مع إخوته عبرة ومواعظ للمستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه، إذ قالوا: والله ليوسف وأخوه بنيامين وكان شقيقه لأمه أحب إلى أبنائنا منا ونحن جماعة، فكيف يجب الاثنين أكثر من الجماعة؟ فقد أخطأ أبونا في إثارة يوسف وأخاه علينا، ولم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، فكان رأيهم أن يزيلوا يوسف من وجه أبيهم، ليخلو لهم وحدهم، إما بأن يقتلوه، أو يلقوه في أرض من الأراضي فيستريحوا منه، ويكونون من بعد ذلك قومًا صالحين، فأضرموا التوبة قبل الذنب، فقال كبيرهم: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، فصرههم الله عنه بمقالة كبيرهم وإشارته عليهم بأن يلقوه في أسفل البئر، فيأخذه المارة من المسافرين، فيستريحون بهذا، إن كانوا عازمين على ما يقولون، فلما تواطئوا على أخذه وطرحه في البئر، جاءوا أباهم يعقوب ﷺ فقالوا يا أبانا ما لك لا تأمننا على يوسف، ونحن ناصحون في حفظه وحيطته حتى نردّه إليك، ابعته إلى الصحراء معنا، نتنعم ونأكل ونشرب ونلهو وننشط، ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

فقال يعقوب ﷺ إنه يشق علي مفارقتة مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه.

وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين عنها لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، ونحن جماعة، إنا إذا هالكون عاجزون.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَبَتِ الْخَبْءِ وَأَوْحَيْنَا
إِلَيْهِ لَتُنَتِّتَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا
أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبْءُ وَمَا أَنْتَ
بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ
بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ
دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ
أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ
أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشَدَّهُ عَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

لما ذهب إخوة يوسف به إلى الصحراء، اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهر أنه إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه، وقبله ودعا له، ولم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به بعد ذلك إلى البئر الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه، فقام فوقها، ومن لطف الله ورحمته بيوسف وإنزاله اليسر في حال العسر وحيه إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه، وتثبيتاً له، لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، ولم يشعر إخوته بإيحاء الله إليه، ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف عند أبيهم، بعدما ألقوا يوسف في الجب وقالوا معتردين عما وقع إنا ذهبنا نترامى، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأمتعتنا، فأكله الذئب، ونحن نعلم أنك لن تصدقنا، ولو كنا عندك صادقين، فكيف خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب؟ فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا، وجاءوا على قميصه بدم مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يصدق نبي الله يعقوب عليه السلام، بل قال لهم: بل زينت لكم أنفسكم المكر والخديعة والعدوان على أخيكم، ولكن سأصبر صبراً جميلاً لا شكوى فيه لأحد إلا الله، على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، وأستعين بالله على الصبر، على ما تكذبون، فمكث يوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته في البئر ثلاثة أيام فريداً وحيداً، فجاء قوم من المسافرين، فنزلوا قريباً من البئر، وأرسلوا الذي يتطلب لهم الماء فلما جاء البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف عليه السلام فيها، فأخرجه واستبشر به، وأسر إخوة يوسف شأنه، وكتبوا أن يكون أخاهم وكنم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فباعه إخوته على القوم بثمن قليل، وكانوا فيه من الزاهدين فلم يغالوا في ثمنه، ومن لطف الله بيوسف عليه السلام أن قبض له الذي اشتراه من مصر، وهو عزيز مصر وهو الوزير، حيث اعتنى به وأكرمه، وتوسم فيه الخير والفلاح، فقال لامراته: أكرمي منزله ومقامه، وأكرمي في المطعم والملبس، عسى أن ينفعنا بالريح إن أردنا البيع، أو يكفيننا إذا بلغ بعض أمورنا، أو تبتناه.

وكان ذلك سبباً في تمكين يوسف عليه السلام في بلاد مصر، وعلمه ربه تعبير الرؤيا، والله إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه، ولكن أكثر الناس لا يدرون حكمته في خلقه، وتلطفه لما يريد.

وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ
 وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
 إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا
 لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
 وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا
 الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ، مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ
 قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
 أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ، قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
 الْكَذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
 مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
 هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ
 ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا
 عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

ولما بلغ يوسف ﷺ أشده واستكمل عقله وتم خلقه، آتاه الله النبوة؛ لأنه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى، وذلك حين بلغ أربعين سنة، وأما امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه حاولت إغراءه فدعته إلى الفاحشة، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجمالها وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، وقال أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه إن بعلك ربي أحسن منزلي وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله، فإن فعلت هذا فختنته في أهله بعد ما أكرم منزلي فأنا ظالم، ولا يفلح الظالمون، ولقد همت به ودعته إلى نفسها، وأما يوسف ﷺ فإنه لم يقع منه هم بها ألبتة، لما في قلبه من البرهان، والبرهان علم ما أحل الله مما حرم الله، فرأى تحريم الزنا، فلو لم يكن في قلبه ذلك العلم لهم بها، ولكن الله عصمه بالعلم بما حرم الله، ووقاه الله بالعلم من السوء والفحشاء في جميع أمور، فكان من عباد الله المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه، وهرب يوسف ﷺ إلى الباب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه فقطعته وهي في إثره، فوجد زوجها، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنتصلة وقاذفة يوسف بدائها: ما جزاء من أراد بأهلك الفاحشة، إلا أن يحبس، أو يضرب ضرباً شديداً موجعاً، فعند ذلك انتصر يوسف ﷺ بالحق، وتبرأ مما رمت به من الخيانة، وقال بارأاً صادقاً، هي طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت، واتبعتني حتى قطعت قميصي، وشهد شاهد من أهلها وهو صبي صغير في بيتها أنطقه الله فقال إن كان قميصه قطع من قدامه فصدقت في قولها إنه أرادها على نفسها، وإن كان قميصه قطع من دبر فكذبت وهو من الصادقين، لأنه لما هرب منها، وطلبت أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقطعت قميصه من ورائه، فلما رأى العزيز صدق يوسف ﷺ، وكذبها فيها قذفته ورمته به، قال إن هذا البهت والكذب الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيد النساء، إن كيد النساء عظيم.

ثم أمر يوسف ﷺ بكتفان ما وقع، فلا يذكره لأحد، وأمر امرأته بالاستغفار، لأنها كانت من الخاطئين.

وشاع في مصر، خبر امرأة العزيز حتى تحدث الناس به، وقال نسوة الأمراء والكبراء: امرأة العزيز، تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها، قد وصل حبه إلى غلاف قلبها، فهي في ضلال الحب والشهوة تميم.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ
 كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
 وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ
 كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ
 نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونُنَّ وَلِيكُونَا
 مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
 إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ
 ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ
 حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا
 إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُورِثُ أَثَرًا
 رَّأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا
 بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ
 مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

لما سمعت امرأة العزيز بقول النساء، دعتهن إلى منزلها لتضيفهن، وأعدت لهن مجلساً فيه مفارش وخذ وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين وأعطت كل واحدة منهن سكيناً، وكان هذا مكيدة منها، وقالت ليوسف اخرج عليهن فلما خرج ورأينه أعظم من شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهم يقطعن الأترج بالسكاكين، فقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم، ثم قلن لها وما نرى عليك من لوم بعد الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبهه ولا قريباً منه، فإنه صلوات الله وسلامه عليه، قد أعطي شطر الحسن، فقالت: فذلكن الذي لمتني فيه، فهو حقيق بأن يحب لجماله وكماله، ولما رأين جماله الظاهر، أخبرتمن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعد: ولئن لم يفعل ما أمره من الفاحشة ليسجنن وليكونن من الصاغرين، فعند ذلك استعاذ يوسف ﷺ من شرهن وكيدهن، وقال: رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه من الفاحشة، وإن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي، وذلك أن يوسف ﷺ عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفاً من الله ورجاء ثوابه، ثم ظهر لهم من المصلحة فيها رأوه أنهم يسجنونه إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، فسجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه، ويرأى عرضه فيفضحها، ودخل السجن واشتهر في السجن بالجلود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمات وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعبادة مرضاهم والقيام بحقوقهم، ودخل معه السجن فتيان فأحياه حباً شديداً، وقد رأيا رؤيا توسل في يوسف ﷺ تفسيرها، فقال الأول: رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب، فنبتت، فخرج منها عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك، قال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمرًا، وقال الآخر: إني أراي أهل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، فقال يوسف ﷺ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، وهذا من تعليم الله لي؛ لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، الذين لا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، فهجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فمن كانت تلك حاله فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ
لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَجِي
السَّجْنَاءُ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَعِبَادُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
أَمْرٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَجِي السَّجْنَاءُ أَمَّا أَحَدُكُمَا
فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ
مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ
الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ
﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

هل نبي الله تعالى هم الدعوة إلى التوحيد وهو في السجن، ويُنَّ ما كان عليه من الاعتقاد الصحيح الذي عليه آباؤه من الأنبياء، ويُنَّ أن التوحيد وهو الإقرار بأنه الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وهذا مما أنعم الله به عليه وعلى آبائه، فهو فضل الله على جميع الناس، ولكن أكثر الناس لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيتين بالدعوة لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدونها قومها، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة، إنها هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولا حجة ولا برهان.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشئمة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، وهو الدين القيم الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، وهو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ولكن أكثر الناس مشركون، ولما فرغ من دعوتها، شرع في تعبير رؤيائهما، أما الأول: فسيسقي سيده خمرًا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت، وقال للناجي منها اذكر قصتي عند ربك وهو الملك، فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان، لئلا يخرج نبي الله من السجن، وبقي في السجن سبع سنين، وكان مما قدر الله تعالى الرؤيا التي رآها ملك مصر، فكانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معزًّا مكرمًا، وذلك أن الملك رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات، فهالته الرؤيا وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءه وقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، وحقيقة الرؤيا أنها أمثال مضروبة يضربها الملك الذي قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرائي بها ضرب له من المثل على نظيره، ويعبر منه إلى شبهه، والرؤيا من المبشرات للمؤمن، وتكاد رؤيا المؤمن آخر الزمان لا تكذب، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا، ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال والمحافظة على الأوامر والنواهي، ولينم على طهارة كاملة، مستقبل القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عينه، فإن رؤياه لا تكذب البتة، وما يراه النائم على ثلاثة أنواع: رؤى، وهي أصدق ما يراه النائم في نومه، وتمتاز بوضوح الرموز، وسهولة التعبير، وما يراه من الأحلام، وهي ما يراه من تلاعب الشيطان بالإنسان، وما يراه النائم من صور ومواقف غلبت على فكره حال اليقظة، كأميَّة يتمناها، وهي حديث النفس.

قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾
 وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ
 فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
 سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرِ
 وَأُخْرَى يُاسْتَبَسَّ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
 تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا
 قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ
 مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي
 بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ
 النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
 مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ
 مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۖ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْأَنْ كَانَ حَصْحَصَ
 الْحَقِّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ
 لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

لما طلب ملك مصر تأويل الرؤيا من الكهنة وكبراء دولته وأمرائه، اعتذروا إليه بأنها أضغاث أحلام وهي أخلاط أحلام مشتبهة، وأهاويل، ولو كانت رؤيا صحيحة ما كان لنا معرفة بتعبيرها، فعند ذلك تذكر الذي نجا من السجن والعقوبة يوسف عليه السلام، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف، من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر بعد مدة، فقال للملك والذين جمعهم لذلك أنا أنبئكم بتأويل هذا المنام، فابعثوني إلى يوسف الصديق في السجن، فجاء إلى يوسف عليه السلام فقال: يوسف أيها الصديق أفتنا وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبیرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيان ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزرع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال مهما زرعتم في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقي له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السنان؛ لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهم لا ينتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي بأنه يعقبهم الغيث، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه، فلما رجعوا إلى الملك بتعبير رؤياه، التي كان رآها، بما أعجبه، فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال: أخرجوه من السجن وأحضره، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظمًا وعدوانًا، فجمع الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبًا لهن كلهن: ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه فقالت النسوة جوابًا للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهمًا، والله ما علمنا عليه من سوء.

فعند ذلك قالت امرأة العزيز: الآن تبين الحق وظهر وبرز، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ليعلم زوجي أنني لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفت ليعلم أي بريئة، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين.

وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
 رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ أَسْتَخْلِصْهُ
 لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ
 اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۚ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ
 مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ
 بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرُ
 الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ
 يُوسُفَ فدخلوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
 جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَتَرَوْنَ
 أَنِّي أَوْفَىٰ الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ ۖ فَلَا
 كَيْلَ لَّكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا اسْرُدْ عَنْهُ أَبَاهُ
 وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
 ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ
 فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾

ظهرت براءة نبي الله يوسف ﷺ، وشهدت النساء ببراءته وقالت امرأة العزيز: ما أبرئ نفسي فإن النفس تتحدث وتتمنى، وتأمّر بالسوء، إلا من عصمه الله تعالى، والله غفور رحيم بمن تاب وأناب، ولما تحقق عند الملك براءة يوسف ﷺ، ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: اتتوني به أجعله من خاصتي وأهل مشورتى، فلما خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من حُلقٍ وخُلقٍ وكِمالٍ قال له الملك: إنك اليوم عندنا ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف ﷺ: اجعلني حفيظاً على خزائن الأرض فإني خازن أمين ذو علم وبصر بما أتولاه، ويجوز للرجل مدح نفسه، وذلك إذا جهل أمره للحاجة، وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما في ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يجعل على خزائن الأرض، وهي الأماكن التي تجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له؛ ويمكن الله له في أرض مصر يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والأسر وما أضاع الله صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز؛ فأعقبه الله ﷻ السلامة والنصر والتأييد، وما يدخره الله لنبيه يوسف ﷺ في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، فولاه مَلِك مصر الوزارة في بلاد مصر، وأسلم الملك على يدي يوسف ﷺ، ولما باشر الوزارة بمصر، ومضت سبع السنين المخصبة، ثم تلتها سنين الجذب، وعم القحط بلاد مصر بكاملها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب ﷺ، وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف ﷺ للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وخزائن متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم، يتزودون من القمح لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان ﷺ لا يشيع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفى الناس بما في أيديهم مدة سبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر، فقدم إخوة يوسف بلاد مصر لأخذ القمح، عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب ﷺ، عنده بنيامين شقيق يوسف ﷺ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس في أمته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، وهم لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث فباعوه للسيارة، ولم يدروا أين ذهبوا به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلماذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم، ولما وفاهم كيلهم، وحل لهم أمهاتهم قال: اتتوني بأخ لكم من أبيكم، ألا ترون أي أثم الكيل، ولا أبخس الناس شيئاً، وأزيدكم حمل بعير لأجل أحييكم، وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم، وأنا خير المضيفين، وكان قد أحسن ضيافتهم، فرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة، قالوا سنطلب من أبنينا ونسأله أن يرسله معنا، وسنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، وقال لغللانه: اجعلوا بضاعتهم التي قدموا بها ليأخذوا عوضاً عنها في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا منع منا الكيل بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل، ولا نخف عليه فإنه سيرجع إليك، نحفظه ونرعاه.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ
 قَبْلُ ۖ قَالَ اللَّهُ خَيْرُ حَافِظٍ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا
 مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِضِيعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَبْنَآ بَنَانَا
 مَا نَبْغِي هَٰذِهِ ۖ بِضِيعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
 أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
 أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ ۖ إِلَّا
 أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
 ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
 مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا
 لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّآ
 دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
 مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ
 لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
 ﴿٦٨﴾ وَلَمَّآ دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ
 إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

لما طلب إخوة يوسف من أبيهم أن يرسل معهم بنيامين، قال لهم هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل؟ تغيّبونه عني، وتحولون بيني وبينه، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين بي، سيرحم كبري وضعفي، وأرجو من الله أن يرده علي، ويجمع شملتي به، إنه أرحم الراحمين، ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتياته بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم، قالوا يا أبانا ماذا نريد؟ فهذا الإحسان والإكرام، أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن، وأرادوا تطيب نفس أبيهم، وإذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير، لأن لكل رجل حمل بعير، فما نحمله قليل لا يكفي لحاجتنا فنزداد بحمل أخينا، قال: لن أرسله معكم حتى تخلفون بالعهود والمواثيق لتأتني به إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه، فلما أكد العهد عليهم قال: والله على ما نقول شاهد وحافظ، فلما جهز يعقوب ﷺ بنيه مع أخيه بنيامين إلى مصر، أمرهم ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فقد خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، ثم فوض أمره إلى الله وأن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه؛ فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، وإن يعقوب ﷺ ذو علم لما علمه الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما يعلم يعقوب؛ لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم، فلما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإحسان، واختل بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معزراً مكرماً معظماً.

وكان نبي الله يعقوب ﷺ في حاله يتوكل على الله في كل أحيانه، فكان ذلك سبباً في تخفيف المصيبة عليه، ولطف الله به، وكان من كمال شفقته ورحمته ببنيه أن خاف عليهم العين، فأمرهم بالاحتراز منه بأخذ الأسباب، وهذا من المشروع للمسلم، ومن كمال خلق يوسف ﷺ استقباله لإخوته وإحسانه إليهم وقيامه بأمرهم مع ما قاموا به من الأذى له ومحاولة قتله، وكانت من حكمة أحكم الحاكمين أن لا يظهر أمره لهم في أول الأمر ليعظم البلاء على نبي الله يعقوب ﷺ بفقد ولديه، فتعظم رغبته بربه وتعلقه بالله تعالى.

ولتظهر مكانة يوسف ﷺ عند إخوته وما أثره الله به عليهم من العز والتمكين والظهور في الأرض، حتى قصده الناس من كل مكان، فالذي أخرجه من البئر وخلصه من السجن أعزه ومكنه على غيره، والابتلاء سنة قائمة، فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا
عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ
وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ
مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ
وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ
وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَتَّيَّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

لما جهز يوسف ﷺ إخوته، وحمل لهم إبلهم بالطعام، أمر بعض فتيانه أن يضع "السقاية"، وهي: إناء من فضة كان يشرب فيه، ويكيل للناس به، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم أيتها القافلة التي فيها الأحمال إنكم لسارقون. فالتفتوا إلى المنادي وقالوا ماذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صاع الملك الذي يكيل به، ولمن جاء بالصاع حمل بعير من القمح مضمون له ومكفول. فلما اتهمهم الفتيان بالسرقة، قال إخوة يوسف لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا- لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة- أنا ما جئنا للفساد في الأرض، وليست سجايانا السرقة، فقال لهم الفتيان فما جزاء السارق، إن كان فيكم وما عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ قالوا: جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه. وكانت شريعة إبراهيم أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف ﷺ؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، ففتشها قبله تورية، ثم استخرجها من وعاء أخيه، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزامًا لهم بما يعتقدونه، وهذا من الكيد المحبوب الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

ولم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، وكان حكم مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده، فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم. وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شرعيتهم؛ فرفعه الله بالعلم، فيرفع الله بالعلم عباده المؤمنين، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، والعلاء هم ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم، ومهما بلغ الإنسان من العلم فإنه لا يصل إلى نهايته.

وفوق كل ذي علم عليم فليس عالم إلا فوقة عالم، حتى ينتهي إلى الله ﷻ.

ولما رأى إخوة يوسف الصواع قد أخرج من متاع بنيامين قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل يقصدون يوسف ﷺ، كذبًا على يوسف وتبرئة لأنفسهم، فأسر يوسف الجواب عليهم بأنهم هم أشتر صنيعة من يوسف لما قدموا عليه من ظلم أخيه وعقوق أبيهم، لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية، وخيانتهم حقيقة، والله أعلم بما يقولون.

فلما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، فقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخًا كبيرًا يحبه حبًّا شديدًا ويتسلى به عن ولده الذي فقده، فنخذ أحدنا بدله، يكون عندك عوضًا عنه، إنا نراك من العادلين المنصفين القابلين للخير، وتلك شهادة من إخوة يوسف له بالعدل والإحسان والإنصاف.

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ إِنَّا
 إِذَا لَطَلِمُوا ٧٩ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا
 قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ
 مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ
 الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
 ٨٠ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ
 وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ
 ٨١ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
 وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا
 فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
 الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفَىٰ عَلَىٰ
 يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ٨٤
 قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا
 أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي
 وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨٦

لما طلب إخوة يوسف عليه السلام من يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه، قال: أعوذ بالله أن تأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، لو أخذناه أخذنا بريئاً بمجرم، فلما يسوا من تخليص أخيه بنيامين، الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك، انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم، قال كبيرهم: وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله، ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، فلن أفارق هذه البلدة، حتى يأذن لي أبي في الرجوع إليه راضياً عني، أو يحكم الله لي بأن يمكنني من أخذ أخي، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده ويتصلوا إليه، ويرؤوا مما وقع بقولهم، وأن يخبروا أباهم بسرقة بنيامين وليقولوا ما قلنا هذا إلا بما علمنا، فإننا رأينا إخراج الصاع من متاعه، وما كنا نعلم أن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا إليه، وإنما قلنا نحفظ أحمنا مما لنا إلى حفظه منه سبيل، واسأل القرية التي كنا فيها وهي مصر، والقافلة التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، وإننا لصادقون فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقة، فقال لهم: كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل، فلم يصدقهم لكذبهم في قصتهم مع يوسف، وظن أنهم دبوا له مكيدة لإخفائه عن وجه أبيه، ثم رجاى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين، وكبيرهم الذي أقام بديار مصر، فهو سبحانه العليم بحزنه ووجده على فقدهم، وهو الحكيم في تدبير خلقه، فتنام حزنه وبلغ جهده، وتبيح حزنه على يوسف فأعرض عنهم، وقال: يا حزنانه، على يوسف، وعمي بصره من الحزن وهو مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبيته. وكان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عاماً، لا تجف عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب عليه السلام، فقالوا له لا تفارق تذكر يوسف حتى تكون ضعيف الجسم، وضعيف القوة، فإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف. قال إنما أشكو همي وما أنا فيه إلى الله وحده، وأرجو منه كل خير، فكان يعقوب عليه السلام يرجو من الله ما لا يرجو الناس، ويعلم من لطف الله ورحمته بعباده ما لا يعلمه الناس، وكان يرجو لقاء يوسف، وتحقق رؤياه التي رآها، فكان ينتظر الفرج من الله، ولا يشتكي إلى أحد من الخلق بل كان يكتفم ما في نفسه من الحزن والهم والغم، حتى ظهر أثر ذلك على جسده الهزيل، وابتضت عيناه من الحزن فلم يبصر بهما، وهذه حالة الأنبياء في الابتلاء، فمع الابتلاء يتفاءلون بالفرج، ويعلمون أن الفرج مع الكرب، وأن بعد العسر يسراً، والفأل عند وقوع الابتلاء من أسباب الفرج وهون الابتلاء، وثبوت الأجر، وأما اليأس والقنوط والجزع فهو من أسباب زيادة البلاء ونزول العقوبة.

يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا
 مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ
 ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ
 وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا
 إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ٨٨ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
 بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ٨٩ قَالُوا أَإِِنَّكَ
 لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ
 عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ ٩٠ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
 وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
 الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٩٢
 أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا
 وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ
 الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
 تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُوا تَأَلَّه إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ٩٥

كان الفأل يحدو بيعقوب ﷺ في لقاء أبنائه فقال لبنيه اذهبوا واضربوا في الأرض واطلبوا الخبر عن يوسف وأخيه ولا تقنطوا من رحمة الله، ومن فرج الله، ولا تقطعوا رجاءكم وأملكم من الله فيما ترومونه وتقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون. فلما دخلوا على يوسف ﷺ قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر من الجذب والقحط وقلة الطعام، وجئنا ببضاعة قليلة رديئة كاسدة، لا تنفق في ثمن الطعام، فأعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وتصدق علينا برد أحنينا إلينا.

فلما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدرة البكاء، فتعرف إليهم، يقال إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ وإنا نعرف إليهم بنفسه، بإذن الله له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرج الله تعالى من ذلك الضيق، فقالوا: أنت يوسف، فتعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فقال: أنا يوسف وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد هذه المدة، إنه من يتق الله بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، ويصبر عما حرم الله ﷻ عليه، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، فقالوا: معتذرين، تالله لقد اختارك الله وفضلك علينا، وما كنا في صنعنا بك إلا خاطئين مذنبين.

فقال يوسف ﷺ وكان حليماً: لا تعير عليكم اليوم، ولا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

فلما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهب عيناه، فأعطاهم قميصه، وقال: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يرجع مبصرًا، وأتوني بجميع بني يعقوب.

ولما خرجت العير من عريش مصر متوجهة إلى كنعان، قال يعقوب ﷺ لمن بقي عنده من بنيه، إني لأجد ريح يوسف لولا أن تسفهوني، فأصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمانية أيام، وقيل أن ريح الصبا استأذنت ربه في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير فقال أولاد أولاده: تالله إنك لفي خطئك القديم من ذكر يوسف لا تنساه، والضلال هو الذهاب عن طريق الصواب، فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره، وكان يعقوب ﷺ هو أعرفهم بالله وأرجاهم له، فلم يكن طوال تلك السنين في ضلال، ولكن كان في يقين وصبر ومصابرة في البلاء.

فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ
 أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا
 يَتَّبِعَانَا مَسْتَغْفِرٌ لَّنَا ذُنُوبُنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
 أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
 دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ
 إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا
 لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَآ تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
 رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ
 مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ
 رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴿١٠١﴾ رَبِّ
 قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
 مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠٢﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
 نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
 ﴿١٠٣﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾



فجاء البشير ليعقوب ﷺ وهو ابنه يهوذا بن يعقوب؛ لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم الكذب، فأراد أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه، فرجع بصيرًا، فقال يعقوب ﷺ لبنيه عند ذلك ألم أقل لكم إني أعلم أن الله سيرده إلي، فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم لمن تاب إليه. فأخر يعقوب ﷺ بنيه إلى السَّحَر لأنه أُرْجى وقت للدعاء والاستغفار، فدعا لهم واستغفر، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف ﷺ، باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب ﷺ، وخرج الملك لتلقيه، فلما رأى يوسف أهله أوى إليه أبويه فتلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين، وأجلس أبويه معه على سريره، وسجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً، فقال: يا أبت هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربي صحيحة صدقًا، وقد كان هذا جائزًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، وذكر نعم الله عليه إذ أخرجه من السجن، ولم يقل من الحب مع كونه أشد بلاء من السجن، استعماً لا للكرم، لكيلا ينجل إخوته بعدما قال لهم: "لا تثريب عليكم اليوم"، ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم، لأنه بعد الخروج من الحب صار إلى العبودية، وجاء بكم من البدو، وكانوا أهل بادية ومواش، من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي بالחסد، إن ربي لطيف بمن يشاء. وأقام يعقوب بمصر عند يوسف أربعًا وعشرين سنة في أغبط حال وأهنا عيش، ثم مات بمصر، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك، ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر، ولما جمع الله تعالى ليوسف شمله وثمر النعمة عليه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك، على أن نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله تعالى حسن العاقبة، فكما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه حين يتوفاه مسلمًا، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. فمن دعائه رب قد آتيتني ملك مصر، وعلمتني تعبير الرؤيا. خالق السموات والأرض أنت معيني ومتولي أمري في الدنيا والآخرة اقضني إليك مسلمًا، وألحقني بأبائي النبيين، ولما قص الله على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم؟ وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام فتلك أخبار الغيوب السابقة، يعلمها نبيه محمدًا ﷺ لما فيها من العبرة له والاتعاظ لمن خالفه من أمته، وقد أوحى الله لنبيه من أمر إخوة يوسف وما أجمعوا عليه من إلقائه في الحب، وهم يمكرون به، فأطلع الله رسوله على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس. فأكثر الناس على الغواية وما آمن إلا قليل.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُوْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا
وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ
اللّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى
إِذَا أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَئِنْ تَصَدَّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

أنبياء الله ورسله يدعون إلى الله ويبلغون رسالة الله ولا يرجون أجراً من أحد، إنما يرجون الثواب والأجر من الله تعالى، فهم يذكرون بكتاب الله ليكون هداية للبشرية، ولكن أكثر الناس في غفلة عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطحات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات، وليس الإيمان بالإقرار بالربوبية وإنما التوحيد هو الإقرار بالإلهية فإقرار المشركين بأن الله هو الخالق الرازق لا ينفعهم حتى يفرّدوا العبادة لله، أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، فيأتيهم بأس الله بيّاتاً وهم نائمون أو يأتيهم بأسه ضحى وهم يلبعون، وسبيل الدعوة إلى الله الدعوة إلى التوحيد والعقيدة الصحيحة.

فطريقة محمد ﷺ ومسلكه وسنته، هي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي، والدعوة قائمة على تنزيه الله وإجلاله وتعظيمه وتقديسه عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عدل، أو ولد أو والد أو صاحبة، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً، وما أرسل الله رسله إلا من الرجال، ومن أهل المدن؛ لأن أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم، ولم يعنهم من أهل السوء وهؤلاء المشركون المكذبون، ألم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الأمم المكذبة فيعتبروا، والدار الآخرة خير للذين اتقوا وعملوا الصالحات، وفي الدنيا ينجيهم الله عند نزول العذاب، والله ينزل نصره على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوج الأوقات إلى ذلك، فأتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، يطول عليهم البلاء، ويستأخر عنهم النصر، وتظن الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، فيأتي نصر الله عند ذلك، فينجي الله الذين آمنوا، وبأس الله لا يرد عن القوم المجرمين، وفي خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين عبرة لأولي العقول، وهو خبر صدق وحق، وفي كتاب الله الحلال والحرام وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، وبالقرآن تهتدي القلوب من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويتغنون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

سُورَةُ الرَّعْدِ

إِنشَاء
٤٣تَرْجُمَا
١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّةَ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ۖ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ ۖ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُرَابًا ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ ۖ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

سورة الرعد

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر الرعد فيها

والرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب، في يده خرق من نار يزجر به السحاب والصوت الذي يسمع منه زجره السحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره كما في الحديث

وقد أنزل الله القرآن المعجز بآياته، وتحدى العرب بالإتيان بمثله، وهو تبيان لكل شيء، نزل على قلب محمد صل الله عليه وسلم بالحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بهذا القرآن مع هذا البيان والجلال والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما في قلوبهم من الشقاق والعناد والنفاق، ومن دلائل الربوبية، كمال قدرة الله وعظيم سلطانه فهو الذي بإذنه وأمره رفع السواوات بغير عمد، فالسواء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبُعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، فهي مرفوعة بلا عمد يراها الناس، فهو سبحانه خلق المخلوقات، وعظمتها تدل على عظمة خالقها، وأعظم المخلوقات العرش، والرحمن على العرش استوى، والاستواء معناه العلو والارتفاع وهو علو خاص بالعرش، واستوى على العرش معناه علا واستقر على وجه يليق بجلاله وعظمته، وليس كاستواء الإنسان، واستواء الله على العرش ليس استواء يحتاج إلى العرش، بل إن الله تبارك وتعالى غني عن كل شيء، وكل شيء مفتقر إلى الله، والله تبارك وتعالى غني عنه، ومن عظمة الله تسخير الشمس والقمر يجريان إلى انقطاعها بقيام الساعة، فهو سبحانه يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتداء خلقه، ومن الآيات الدالة على عظمة الله وقدرته أنه سبحانه مد الأرض فجعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرسلها بجبال راسيات شاخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل شكل صنفان، والليل والنهار جعل كلاً منها يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، ففي ذلك آيات لقوم يتفكرون في آلاء الله وحكمته ودلالته، وفي الأرض أراض تجاور بعضها بعضاً، فهذه طيبة تنبت ما ينفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، واختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصففتها، وهذه بصففتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الخالق، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، وما يدل على عظمة الباري ﷻ الجنات من الأغنان والزروع والنخيل فمنها الصنوان وهي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، وغير الصنوان وهو ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، يسقى بماء واحد وتتفاضل في الأكل فمنها الطيب والرديء، والخلو والخاص، فهذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الخالق الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد، فالعجب من تكذيب المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء، فكأنها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم أنذا كنا تراباً أننا لنفي خلق جديدي، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، ولكنه الكفر والجحود فسيعلمون حين تكون الأغلال في أعناقهم يسحبون بها في النار، ماكتون فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ
الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْخِجُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ ﴿١٣﴾

المكذبون المعاندون يستعجلون العقوبة وهذا من عنادهم وجهلهم، وما علموا كيف وقعت العقوبة والنقمة بالأمم الخالية وجعلها الله مثلة وعبرة وعظة، ولولا حلم الله وعفوه لعاجلهم بالعقوبة، فهو سبحانه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، وهو مع ذلك شديد العقاب للكافرين المكذبين، فقد طلبوا من رسول الله ﷺ كفراً وعناداً وتعتاً أن يأتيهم بآية من ربه بأن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيل عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، وما علموا أن الرسول عليه تبليغ رسالة الله التي أمره بها، ولكل قوم نبي يدعوهم إلى الحق.

ومن تمام علم الله الذي لا يخفى عليه شيء، أنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، فيعلم ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، ويعلم سبحانه نقصان الدم في الرحم وزيادته، وكل شيء عنده بأجل. حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً

يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء، وهو الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، وهو المستعلي على كل شيء بقدرته، قد أحاط بكل شيء علماً، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد، طوعاً وكرهاً.

ومن إحاطة علمه سبحانه علمه بجميع خلقه، سواء من أسر قوله منهم أو جهر به، فإن سمعه لا يخفى عليه شيء فسيحان الذي وسع سمعه الأصوات، ويعلم المختفي في قعر بيته في ظلام الليل، ومن هو ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، ومن لطف الله بعباده، أن للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من السوء والحوادث، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائتان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحداً من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، ونعم الله على عباده تتابع ولا يغير ما بالعباد من العافية والنعمة، حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحال الجميلة فيعصوا ربه. وإذا أراد الله بقوم عذاباً وهلاكاً، فلا راد له، وما لهم من دون الله ملجأ يلجؤون إليه ولا مانع يمنع العذاب عنهم، وهو سبحانه الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب، وهو خوف للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمع للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله، ويخلق الله السحاب الثقيل لكثرة مائها، ويسبح الرعد بحمده، فكل شيء يسبح بحمده، والرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب، في يده مخراق من نار يزجر به السحاب والصوت الذي يسمع منه زجره السحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره، وهو يسبح الله تعالى، فإذا سبح لا يبقى ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل القطر، وتسبح الملائكة من خيفة الله ﷻ وخشيته، ويرسل الله الصواعق وهي نار تنزل من البرق فتحرق من تصبيه، والكفار يشككون في عظمة الله، وما علموا أنه لا إله إلا هو، شديد العقوبة والانتقام والأخذ لمن عصاه وكفر به.



لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا
 كَبْسِطٍ كَفَّيَّةٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ
 إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
 وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
 نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
 الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ
 عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
 وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ
 يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا
 يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
 لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ
 لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهٗ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ
 أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

توحيد الله تعالى هو دعوة الرسل، فمن أجل التوحيد أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وقام سوق الجنة والنار، ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله، كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ فالذي ييسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، فكذلك المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، وما عبادة الكافرين إلا في ضلال، فمن عظمة الله وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من المشركين، وظلال الساجدين طوعاً وكرهاً تسجد لله ﷻ طوعاً، فإذا سجدوا في أول النهار وآخره تسجد معهم ظلالهم، فما من شيء إلا يسجد لرب العالمين ويخضع، فكيف يتجبر الإنسان ويطغى حين يؤمر بالتوحيد مع إقراره أن الله خلق السموات والأرض، وهو ربها ومديرها، واتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم، وتلك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعبادها منفعة، ولا تدفع مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، وهو على نور من ربه، فلا يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور، وهل هذه الآلهة تماثل الله في الخلق، فتشابهه الخلق عليهم، ولكن الحقيقة أن الله لا يشابه شيء ولا يائله، ولا ند له ولا عدل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما عبد هؤلاء المشركون مع الله آلهة يعترفون أنها مخلوقة له. فما يعبدون هو الباطل، والتوحيد هو الحق، وقد ضرب الله مثلين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فإله ينزل من السماء المطر على الأرض فيسلك الماء الأودية كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع الماء بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كبيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زيد عال عليه، هذا مثل، والمثل الثاني هو ما يسبك في النار من الذهب أو الفضة ليجعل حلية أو نحاساً أو حديدًا، فيصنع منه متاع، فإنه إذا وضع في النار يعلوه زيد منه، وذلك مثل الحق والباطل إذا اجتمعاً، فلا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزيد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب، بل يذهب ويضمحل لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسف الرياح، وكذلك خبت الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به. وهذه الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم والبصيرة، وأهل الحق هم الذين أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم الجزاء الحسن، لهم الجنة خالدين فيها، وأما أهل الباطل الذين لم يطيعوا الله لهم العذاب الأليم، ولو يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لا فتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، يناقشون على النقيير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، فلهم النار وبئس المهاد.

﴿١٨﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ
 أَوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ
 ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
 وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
 بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ
 ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
 أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
 وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا
 بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا يَضِلُّ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

أهل العلم والبصيرة والقبول والإيمان يعلمون أن ما جاء به رسول الله ﷺ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيئاً منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، فهو لاء أهل الحق الذين ميزهم الله عن غيرهم، فهل يستوي هو بمن كذب وجحد وكابر وعاند؟ فمثله كالأعمى والأصم، ولكن الذي يتعظ ويعتبر ويعقل هم أولو العقول السليمة الصحيحة، المتصفون بالصفات الجليلة يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، فليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، بل يصلون أرحامهم ويحسنون إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، ويبدلون المعروف، ويخشون ربهم فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. والذين يصبرون عن المحارم والمآثم ابتغاء مرضاة الله وجزيل ثوابه، ويسيرون الصلاة بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها، وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، وينفقون النفقة الواجبة على الزوجات والأولاد والقربات، وينفقون النفقة المستحقة على الفقراء والمحاويج والمساكين، في السر والجهر، لم يمنعه من ذلك حال من الأحوال، في أثناء الليل وأطراف النهار، ويدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قبلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، فلهم العاقبة والنصرة في الدنيا وفي الآخرة جنات عدن يقيمون فيها لا ييغون عنها ارتحالاً خالدين فيها أبداً، أسأل الله أن ألا يحرمننا فضله.

يجمعهم الله فيها مع من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحساناً. وتدخل عليهم الملائكة للتهنئة بدخول الجنة، بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام، أسأل الله أن يجعلنا منهم ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين

وأما أهل الباطل والكفر والعناد، فهم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون أرحامهم، ويفجرون في معاملاتهم، وإذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، فلهم الإبعاد عن الرحمة، ولهم سوء العاقبة والمآل، وماوأهم جهنم ويشس القرار، فالعبرة بالمآل وأما الدنيا فقد تبسط للكافر، فالله سبحانه يوسع الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. فأما الكفار فيفرون بها أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، وما الدنيا لأهل الإيمان إلا سجن بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، والكفار والمشركون يطلبون من الآيات تعجيراً وتعتناً، وهم يعلمون أن الله قادر على إجابة ما سألوا.

ولكنه الضلال الذي كتبه الله عليهم فلا يؤمنوا، والهداية بيد الله يهدي من أناب إليه، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه، وهم المؤمنون الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله، وتطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً. فذكر الله طمأنينة للقلوب وإنشراح للصدور وسعة في الرزق وقوة في البدن.

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ
 مَتَابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ
 لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ
 قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾
 وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ
 بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِشِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ
 وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلِ
 مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
 عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
 لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ
 بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ
 السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٣٤﴾

مصير أهل الإيمان الجنة، الذين آمنوا وعملوا الصالحات تقر أعينهم بها ويفرحون بنعيمها، وطوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها، وكل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة، وخرجت من أصلها ينباع أنهار الجنة، من عسل وخمر وماء ولبن، نسأل الله ألا يجرنا فضله ووالدينا والمسلمين

وقد أرسل الله نبيه محمداً ﷺ ليلبغ دين الله ورسالة الله، كما أرسل الله في الأمم الماضية الكافرة بالله رسلاً يبلغون الرسالة فكذبوا وأذوا فتل بأس الله عليهم، فليحذر هؤلاء المكذبون من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لمحمد صلى الله عليه ﷺ أشد من تكذيب الأمم السابقة للمرسلين، فهم يكفرون بالرحمن، لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، فهو الله لا إله إلا هو رب كل شيء ومليكه عليه يتوكل المؤمنون في جميع أمورهم، وإليه المرجع يوم القيامة وإليه ينيب العباد ويتوبون ولا يستحق ذلك أحد سواه.

وقد أنزل الله القرآن العظيم وفضله على الكتب المنزلة قبله، فلو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهو لألاء المشركون كافرون به جاحدون له، وإلى الله ترجع الأمور كلها، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضل فلا هادي له، ومن يهد الله فلا مضل له، فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، فلا يياس الذين آمنوا من إيمان جميع الخلق فإن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً.

ولا تزال القوارع تصيب الكفار في الدنيا، أو تصيب من حوهم ليتعظوا ويعتبروا، ولكن لا اعتبار ولا اتعاض بسبب تكذيبهم، حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة، وقيل يوم القيامة، فإن الله لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم

والكفار والمعادنون يكذبون الرسل ويعادونهم ويؤذونهم، وقد أودى الرسل جميعاً ومنهم من قُتل وعُذِب

ولكن الله أملى للمكذبين لهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر فإن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ولكنه الشرك الذي أعمى بصائرهم فكيف يعدل الله تعالى الحفيظ العليم الرقيب على كل نفس منقوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، بالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها وإنما عبدوها بظن منهم أنها تنفع وتضر، وسموها آلهة، فهي لا حقيقة لها، بل زين للذين كفروا ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه، فصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل.

ومن يرد الله فتنه وضلاله فلا يهديه أحد، لهم عذاب في الحياة الدنيا بأيدي المؤمنين من القتل والأسر، وعذاب الآخرة أشق وأعظم وأبقى.



* مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى
 الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ
 بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ
 أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾
 وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا
 جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ
 لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
 يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾
 وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
 الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا
 مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا
 يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾

أعد الله لعباده المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالجنة التي وعد المتقون من صفتها أنها تجري من تحتها الأنهار سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، فيها المطاعم والفواكه والمشارب لا انقطاع لها ولا فناء، يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، يخرج منهم جشاء ورشح كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس.

وظلها لا يزول ولا ينقص، فهي ظل ممدود، ففي الجنة شجرة يسير الراكب المجدُّ الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها، فهي مستقر المؤمنين المتقين، وأما الكفار فمأثمهم إلى النار. ومن الذين أوتوا الكتاب قاثمون بمقتضاه يفرحون بما أنزل من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إلى النبي ﷺ، وينكر ما جاء به رسول الله ﷺ من الحق.

وإنما بعث رسول الله ﷺ بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبله يدعو الناس إلى سبيل الله، وإليه مرجع الخلائق ومصيرهم، فقد أنزل الله عليه القرآن محكمًا معبرًا، شرفه به وفضله على من سواه بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ومن اتبع سبل أهل الضلالة بعدما صار إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، واختار الضلالة على من جاء به أفضل الصلاة والسلام فما له من ناصر ولا حافظ.

وقد اختار الله نبيه محمدًا من البشر كما بعث المرسلين قبله بشرًا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعل الله لهم أزواجًا وذرية، وما يأتي النبي بمعجزة إلا إذا أذن له فيها، ليس ذلك إليه، بل إلى الله ﷻ، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولكل شيء مدة مضروبة وكتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار في اللوح المحفوظ، فالملائكة في كل سنة ينسخون من اللوح المحفوظ وذلك في ليلة القدر، ويدبر أمر السنة فيها، فيمحو الله ما يشاء ويثبت، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت، والله سبحانه وعد الكافرين العذاب الأليم في الدنيا والآخرة سواء في حياة النبي ﷺ أو بعد مماته، فإنما على الرسول ﷺ البلاغ وعلى الله الحساب والجزاء وموت العلماء والصالحين نقصان الأرض وخرابها، وذهاب العلم فسادها، والله يحكم لا راد لقضائه، ولا ناقض لحكمه، وقد مكر الذين من قبل مشركي مكة برسولهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العقاب للمتقين، وعند الله جزاء مكرهم والله خالق مكرهم جميعًا، بيده الخير والشر، وإليه النفع والضرر، فلا يضر مكر أحد أحدًا إلا بإذنه، يعلم سبحانه ما تعمل كل نفس وسيعلم الكفار لمن عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

آيَاتُهَا
٥٢أَرْسُلَها
١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ
لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا
﴿٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

كذب المشركون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام وقالوا له: لست رسولاً، فأمره الله أن يقول حسبي الله، وهو الشاهد علي وعليكم، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، ويشهد بذلك علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به.

سورة إبراهيم

وهي سورة مكية، وسميت بذلك لذكر قصة إبراهيم الخليل فيها

أنزل الله كتابه العزيز هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم؛ ليخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، هو سبحانه الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم إلى صراط العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره، الذي له ما في السماوات وما في الأرض، فويل للكافرين الذين يكذبون برسالة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام من عذاب شديد أليم يوم القيامة، الذين قدّموا الحياة الدنيا على الآخرة وآثروها على الآخرة، وعملوا للدنيا ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، وصدوا عن اتباع الرسل، ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجي لهم صلاح.

ومن لطف الله تعالى بخلقه أن أرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم.

وبعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل الله تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، وهو العزيز الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو الحكيم في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك، واختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس.

وكما أرسل الله محمداً، وأنزل عليه الكتاب ليخرج الناس كلهم، يدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسل موسى ﷺ في بني إسرائيل بآيات الله، وأمره بدعوتهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

ويذكرهم بنعم الله عليهم، في إخراجهم إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائهم إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. وفي ذلك آيات لكل صبور على البلاء وشكور عند السراء.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
 إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
 وَيَدْبِجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
 ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
 رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ
 عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُ الَّذِينَ
 مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن
 بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
 فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
 بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ
 رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ
 لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُم بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
 عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

قام نبي الله موسى عليه السلام بأمر الله، فذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، وهم عاجزون عن القيام بشكرها. وقد أوجب الله على عباده شكر نعمه، وشكر النعم يزيدها، وكفرها وجعلها سبب لزوالها، فإن العباد إذا كفروا النعم وجحدوها أنزل الله عليهم العقوبة بسلبها عنهم، والله غني عن عباده وعن شكرهم وهو الحميد الم محمود، وإن كفره من كفره، والشكر عرفان الإحسان ونشره، والشكر: شكران الأول: شكر باللسان وهو الثناء على النعم، والآخر شكر بجميع الجوارح، والشكر أعلى منازل السالكين، وفوق منزلة الرضا، فإنه يتضمن الرضا وزيادة، والرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيثار، والشكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، وأما بالقلب فهو أن يقصد الخير ويضممه للخلق كافة، وأما اللسان فهو إظهار الشكر لله بالتحميد، وإظهار الرضا عن الله تعالى، وأما الجوارح فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته.

وقد قص الله في كتابه أخبار المكذبين قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة، فأشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله تعالى، وكذبوهم وردوا عليهم قوهم بأفواههم، وقالوا: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

فقال الرسول: أفي الله شك في إلهيته وتفرد بوجوب العبادة له، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالخالق، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها أنها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

ودعوة الرسل إلى التوحيد ليغفر الله لعباده ذنوبهم في الدار الآخرة، ويمتعهم في الحياة الدنيا، فإن التوحيد يكفر الذنوب، ويدخل الجنة بغير حساب، وسبب لعدم الخلود في النار، فإن عصاة الموحدين تحت المشيئة إن شاء الله عذبهم بقدر ذنوبهم، فهم ولو دخلوا النار فإنهم يخرجون منها بالتوحيد، وإن شاء الله غفر لهم بفضل توحيدهم.

والتوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب؛ لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت ملء الأرض، فما أسعد الموحدين بفضل الله ورحمته، وما أشقى المشركين المكذبين للرسل، الذين قالوا للرسل: ما أنتم إلا بشر مثلنا وما معكم معجزة تدل على صدقكم.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
 بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
 ۝ ۱۱ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا
 وَلَنْصَبِرَ عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
 ۝ ۱۲ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ
 أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
 الظَّالِمِينَ ۝ ۱۳ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ
 ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝ ۱۴ وَأَسْتَفْتَحُوا
 وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ ۱۵ مِّنْ وَرَآيِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
 مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ ۱۶ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ
 وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ
 وَرَآيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝ ۱۷ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
 أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
 مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ ۱۸

رسل الله عليهم الصلاة والسلام بشر، ولكن الله منّ عليهم بالرسالة والنبوة، ولا يأتون بالمعجزات إلا بإذن الله، وهم يتوكلون على الله في جميع أمورهم.

وما يمنعهم من التوكل على الله؟ وقد هداهم لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، وقد صبروا على الأذى الذي لقوه في طريق الدعوة، ومن الأذى الذي لقيه الرسل ما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، فكانت لهم العاقبة.

وقد أظهر الله رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندًا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقيّه الله تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، ومن سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان، وأهلك الله المكذبين، وأسكن الموحدين مساكن الظالمين، وجعل لهم النصر والتمكين، الذين خافوا مقام الله في الدار الآخرة، وخافوا وعيد الله، ونهوا أنفسهم عن الهوى.

وأما المكذبون المعاندون فاستفتحوا على أنفسهم العذاب، فخاب كل متجبر في نفسه معاند للحق، ومن ورائه جهنم له بالمرصاد، يسكنها مخلدًا يوم المعاد، ويعرض عليها غدوًا وعشيًا، ويستقى من ماء صديد، ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، يقرب إليه فينكره، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، يشربه لا مرة واحدة، بل جرعة جرعة، لمرارته وحرارته، و يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه، ويجد هم الموت وألمه من كل مكان من أعضائه، ويأتيه الموت من قدامه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله، وتعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة.

وأما أفعال الذين كفروا بربههم فذهب هباءً منثورًا، فهي كالرماد في اليوم شديد الريح، فهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ لأنهم أشركوا فيها غير الله فهي كالرماد الذي ذرته الريح لا ينتفع به.

فذهب سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه، وهكذا كل مشرك يجازى بأعماله الطيبة في الدنيا، وفي الآخرة عذاب شديد، ويقال للمرائين يوم القيامة: اذهبوا لمن رأيتموهم، فالشرك محبط للأعمال موجب للخلود في النار.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ
 يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ
 ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
 إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
 مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدَنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا
 أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ
 لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ
 فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
 فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
 بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا
 أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيُّهُمْ
 فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
 كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾

خلق الله السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثابتة والسيارات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ قادر على إعادة الأبدان يوم القيامة، وهو سبحانه قادر على أن يذهب بالمكذبين ويأتي بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ولا ممتنع، بل هو سهل عليه، وفي يوم القيامة تبرز الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، فيقول الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل: نحن لكم تبع فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: لو هدانا الله لهديناكم ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين، فليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

وأما الشيطان الذي وعدهم ومناههم وأغواهم يخطب بأوليائه بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فيقول: إن الله وعدكم وعد الحق على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، وما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ولكنكم استجيتم لي واتبعتم أهواءكم فلا تلوُموني اليوم، ولوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم، فما أنا بنافعكم ومتقدمكم ومخلصكم مما أنتم فيه، وما أنتم بنافعي بإتقادي مما أنا فيه من العذاب والنكال، إني جحدت أن أكون شريكاً لله ﷻ، فالعذاب الأليم للمكذبين لإعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل.

وأما السعداء أتباع الأنبياء فإنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ماكينين أبداً لا يحولون ولا يزولون، تحيتهم فيها سلام، وتحيةهم الملائكة من كل باب سلام عليكم، ودعواهم فيها سبحانه اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

وكلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، هي في قلب المؤمن كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. ومثل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء. فالمؤمن بإيمانه ثابت لا يتغير ولا يتبدل.

تُوتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
 لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
 كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ
 ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ
 اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
 وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ
 أَقْرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۖ قُلْ
 تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
 بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
 فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

المؤمن كالشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وعمل المؤمن مستمر، ولا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين، كاملاً حسناً كثيراً طيباً، ومثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، وهو شبه شجرة الخنظل، لا طعم ولا ربح، وكذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء، والمؤمن يثبت الله في الحياة الدنيا على الدين، ويثبتته عند السؤال في القبر حين يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك، فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك، فيقول ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك فيقول: قرأت كتاب الله، فأمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول له: من أنت، فوجهك الوجه يميء بالخير، فيقول: أنا عمك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي، وأما الكافر فيضله الله في الحياة الدنيا وعند السؤال، يأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك، فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك، فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء، أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، متن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه يميء بالشر. فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة.

وقد بعث الله محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس أجمعين، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار، ومشركو قريش، أنتهم نعمة الله الإيوان، فبدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار، فموعدهم جهنم يدخلونها وبئس المستقر؛ لأنهم جعلوا الله شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، وأما أهل الإيوان فقد أمرهم الله وأوجب عليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ورغبهم في الصدقة سرًا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا صداقة، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

فالشكر لله الذي أنعم على عباده، خلق لهم السماوات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقاً للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع، فيما يعود إلى مصالح العباد، وسخر لهم الشمس والقمر يجريان ولا يفتران، وسخر لهم الليل والنهار يتعاقبان في الضياء والظلمة، والنقصان والزيادة.

وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَصَكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عما يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾

أمر الله العباد بسؤاله ودعائه، ووعدهم بالإجابة، والمسلم يدعو ربه في الصغير والكبير، والله يحب الملحين بالدعاء، ونعم الله على عباده كثيرة، يعجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، ونعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن الإنسان ظلوم لنفسه بعدم الشكر، يكفر النعمة ويحصد نعمة الله عليه، ومن نعم الله على عباده البلد الحرم الأمن الذي تجبى إليه خيرات الأرض، وقد دعا إبراهيم الخليل ﷺ لهذا البلد، وقد أسس المسجد الحرام على عبادة الله وحده لا شريك له، ودعا إبراهيم بأن يبعده الله وبنوه عن عبادة الأصنام، وينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، بالابتعاد عن عبادة الأصنام؛ لأنهم فتنة لكثير من الناس، والأصنام ليست مقصورة على المنحوت من الحجارة والخشب فكل ما عبد من دون الله فهو وثن وصنم، ومن حقق التوحيد ونبذ عبادة الأصنام فإنه من أتباع الخليل، ومن عصاه ولم يسلك طريق التوحيد، فهو على خطر عظيم لأن الشرك يحبط للعمل، وموجب للخلود في النار.

وقد جاء إبراهيم ﷺ بزوجه هاجر وبابنها إسمايل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم رجع إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسمايل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا، قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه، فقال: ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع، فدعا لهم بإقامة الصلاة وهي أعظم الفرائض، ودعا لهم بأن تهوى القلوب هذا البيت وتحن إليه وتشتاق لرؤيته، وتبذل الغالي والنفيس في قصده وزيارته، ودعا لهم بالثمرات لتكون عوناً لهم على طاعة الله.

وقصد إبراهيم بالدعاء رضا الله والإخلاص له، فإنه سبحانه يعلم كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليه منها شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم حمد ربه ﷻ على ما رزقه من الولد بعد الكبر لما دعاه، فهو سبحانه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لإبراهيم لما سأله الولد، ثم دعا: رب اجعلني مقيم الصلاة، محافظاً عليها مقيماً لحدودها، وذريتي اجعلهم مقيمي الصلاة، وتقبل دعاءنا فيما سألتك.

ربنا اغفر لي ولوالدي وذلك قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله ﷻ وللمؤمنين كلهم يوم تحاسب عبادك فتجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والمشروع للمسلم أن يدعو لوالديه ولأولاده فيخصهم بدعوة صادقة، ويدعو لإخوانه المسلمين.

والله سبحانه إذا أنظر الظلمة وأجلهم فإنما هو استدراج لهم وإمهال، يحصي عليهم ظلمهم، ليوم تشخص فيه الأبصار، فلا تغمض من شدة الأهوال يوم القيامة.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾
وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾
فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو أَنْقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَعْشَى
وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا
بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

البعث بعد الموت حقيقة ثابتة وعقيدة راسخة، يوم يقوم الناس من قبورهم، في ذلك اليوم يحشر الكفار مسرعين، رافعي رؤوسهم، أبصارهم طائرة شاخصة، يديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عيادًا بالله العظيم من ذلك، وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الفزع والوجل والخوف؛ لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف، وقد أُنذرت الرسل هذا اليوم، ولكن الكفار لم يستجيبوا ولم يؤمنوا، فهم يوم القيامة حين يرون العذاب يطلبون التأجيل والتأخير، وقد كانوا من قبل يحلفون أنه لا زوال لهم عما هم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، وقد رأوا وبلغهم ما أحل الله بالأمم المكذبة قبلهم، ولم يكن لهم فهم معتبر، ومزدجر.

وقد مكروا بالنبي ﷺ وعند الله جزاء مكرمهم، وإن مكروا لا يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال، وإن كان شركهم لتزول منه الجبال.

وقد وعد الله رسله وأتباعهم من المؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، فهو سبحانه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحد.

ووعده حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، على غير الصفة المألوفة المعروفة، يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد، أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، حفاة عراة كما خلقوا قيامًا حتى يلجمهم العرق، وتصير السموات جناتًا، ويصير مكان البحر نازًا، وخرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله الواحد القهار الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الأبواب.

والذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، مقرنين بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء والأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران، وهو النحاس المذاب، وهو ألصق شيء بالنار.

تلفح وجوههم النار، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى والله سريع الحساب؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم.

وهذا القرآن بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، وليتعتوا به، ويستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، وليتذكر أولو العقول السليمة، نسأل الله أن يجعلنا من المتعطين المعتبرين بالقرآن.

سُورَةُ الْحَجَرِ

آياتها
١٨نزل بها
١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ① رُبَمَا يَوَدُّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا
 وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ وَمَا أَهْلَكْنَا
 مِنْ قَبْرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ④ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
 أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ⑤ وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ
 الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ⑦ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا
 إِذَا مُنْظَرِينَ ⑧ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ⑩ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
 رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ⑪ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي
 قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ⑫ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ
 ⑬ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ
 ⑭ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ⑮

الجزء ١٤
الجزء ٢٧

سورة الحجر

وهي سورة مكية ، وسميت بذلك لذكر أصحاب الحجر فيها وهم ثمود

أنزل الله القرآن العظيم لهداية الناس، وقد أعجز العرب الفصحاء أن يأتوا بمثله، فقد أنزل الله كتابه على نبيه محمد ﷺ ليدعو به إلى التوحيد ولينقل به الأمم من الكفر إلى الإسلام، فإن الكفار سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين في الدار الدنيا، حين يعرضون على النار.

ولم يهلك الله قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وهو سبحانه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإفلاخ عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك، فإنهم من كفرهم وعتوهم وعنادهم قولهم: يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا، فهلا تأتينا بالملائكة يشهدون لك بصحة ما جئت به.

وما يرسل الله الملائكة إلا بالرسالة والعذاب، فهو سبحانه الذي أنزل القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، وهو وعد من الله بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل، وقد أرسل الله من قبل محمد ﷺ في الأمم الماضية الرسل والأنبياء فما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به، وهو قضاء الله تعالى عليهم كما أدخل الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسول في قلوب الأولين، كذلك يدخله في قلوب مشركي مكة، فلا يؤمنوا بمحمد ﷺ ولا بالقرآن، وقد مضت وقائع الله تعالى بالإهلاك فيمن كذب الرسل من الأمم الخالية.

فمن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باب من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك، بل يقولون سدت أبصارنا، أو عمل فينا السحر فسحرنا محمد ﷺ، وقد نسبوا السحر إلى رسول ﷺ، ونسبوا إليه الشعر والكهانة، والجنون، عنادًا واستكبارًا، ومغالطة للحق، وهذا شأن المكذبين والمستكبرين في جميع العصور، لا يقبلون الحق ولو رأوا الحجج والبيئات والآيات؛ لأن الله طبع على قلوبهم فهم لا يؤمنون.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾
 وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ
 فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
 رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا
 مَعِيشٌ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
 خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ
 لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ
 بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
 وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾
 وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
 مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ
 السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِنْ
 صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ
 رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ
 أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

خلق الله السماء فمن تأملها في ارتفاعها وما زينها الله به من الكواكب الثواب، ومن كرر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات ما يحار نظره فيه.

وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين؛ لئلا يسمَّعوا إلى الملائكة الأعلى، فمن تورد منهم وتقدم لاستراق السمع، جاءه شهاب مبين فأتلفه، وقد يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه من الكهان فيكذب معها مائة كذبة.

ومن تأمل خلق الله للأرض، ومدّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتنوعة بقدر معلوم، وعيش الناس عليها والحيوان لعلم أن ذلك من أسباب الاعتراف بقدرة الله واستحقاقه العبودية دون ما سواه.

فإن الله يسر لعباده من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وسخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، مما يستحق الشكر وإخلاص العبادة لله وحده.

فهو سبحانه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، وينزله على عباده كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، ومن عطائه المطر لا ينزله إلا بقدر محدد معلوم، ومن عطائه الرياح تلقح السحاب فتدثر ماء، وتلقح الشجر فتفتتح عن أوراقها وأكمامها، يبعثها الله على السحاب، فتلقحه، فيمتلئ ماء، فينزله على عباده عذاباً ليشربوا منه، ولو شاء الله لجعله ملحاً، لا يستطيع أحد شربه، ولا يستطيع البشر حفظه، بل الله ينزله ويحفظه، ويعمله معينا وينابيع في الأرض، ولو شاء الله تعالى لذهب به، ولكن من رحمته إنزاله وجعله عذاباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وهو سبحانه الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وهو يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ومن تمام علم الله بعباده، علمه بأولهم وآخرهم، ومن تقدم وسبق في العبادة والطاعة ممن يتأخر عنها، ولقد خلق الله الإنسان من التراب اليابس الأملس، والجن خلقهم من النار قبل الإنسان وخلق الملائكة من النور، وأمر الله الملائكة بالسجود لآدم تنبيهاً لفضله، وتشريفاً له، وتحلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل.

قَالَ يَتَابِلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ
 لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ
 فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَچِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ
 الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
 مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا
 أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾
 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى
 مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ
 اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾
 لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ
 الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
 وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ
 ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾
 ﴿٤٩﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي
 هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾

افتخر إبليس بأصله الذي خلق منه، وتكبر عن أمر ربه، فلم يكن من الساجدين، وعصى أمر رب العالمين.

فطرد إبليس من ملكوت السماء، وأمر أمراً كونياً لا يخالف ولا يانع، بالخروج من المنزل التي كان فيها من الملائكة الأعلى، فهو طريد قد أتبعه الله لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وطلب إبليس من الله تأخير عهده وإمهاله إلى يوم القيامة، فطلب أن يبقى حياً إلى هذا اليوم، فاستجاب الله له لحكمة يعلمها الله ليبتلي به عباده، فأقسم إبليس بإغواء الله له أن يغوي ذرية آدم ﷺ ويضلهم، فيحبب إليهم المعاصي ويرغبهم فيها، ويؤزمهم إليها، واستثنى من الإغواء والإغراء عباد الله المخلصين الذين أخلصوا لله الطاعة والتوحيد.

والإخلاص طريق إلى الله مستقيم، لا يسلكه إلا من اختارهم الله واصطفاهم، وطريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي.

وعباد الله الذين قدر الله لهم الهداية، لا سبيل للشيطان عليهم، ولا وصول له إليهم، إلا المتبعون لإبليس من الغاوين عن طريق الحق الواقعين في الضلال، وجهنم موعد جميع من اتبع إبليس، لها سبعة أبواب كتب لكل باب منها جزءاً من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه، أجازنا الله منها والدينا.

وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر فعله، وأبوابها أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

أما أهل الجنة نسأل الله أن يجعلنا من أهلها والدينا والمسلمين، فهم في جنات وعيون، يقال لهم ادخلوها سالمين من الآفات، مسلماً عليكم، آمنين من كل خوف وفزع، ولا تحشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء.

طهر الله صدورهم من الشحناء والضغائن، ينزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غلٍ، إخواناً على سرر متقابلين.

لا ينظر بعضهم في قفا بعض، لا يمسهم فيها المشقة والأذى، يصحوا فلا يمرضوا أبداً، ويعيشوا فلا يموتوا أبداً، ويشبوا فلا يهرموا أبداً، خالدون فيها لا ييغون عنها حولاً.

والله سبحانه الغفور الرحيم وعذابه هو العذاب الأليم ولو علم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام، ولو يعلم قدر عقابه لأهلك نفسه.

فقد خلق الله مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم يئس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار.

وقد جاء الملائكة ضيوفاً على إبراهيم، أرسلهم الله تعالى ليبشروا إبراهيم ﷺ بالولد، ويهلكوا قوم

لوط.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
 لَا نَوْجَلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ
 مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ
 فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ
 رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
 ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ
 إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لِمَنِ
 الْغَيْبَاتُ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
 إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ
 يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
 بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ
 وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ
 دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
 يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَانْقُوا
 اللَّهُ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾

إكرام الضيف، من هدي الإسلام، ومن سنة الأنبياء ﷺ، ولما جاءت الملائكة إبراهيم، وحيّوه بتحية الإسلام السلام، ذبح لهم عجلاً سميناً، وشواه على الحجارة المحماة، وقدمه إليهم فلم يأكلوا، فخاف منهم، لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم من الضيافة، فقالوا: لا تخف، وبشروه بإسحاق ﷺ، فتعجب من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، فأجابهم بأنه ليس يقاظ من رحمة الله، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأيست امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

فلما ذهب عنه الروح وجاءته البشرى بالولد وهو إسحاق ﷺ، وبشروه بولد إسحاق يعقوب ﷺ، وقد فطر الله بني آدم بحب الولد، وأعظم من ذلك صلاحه واستقامته، فسأل إبراهيم ﷺ الملائكة عما جاؤوا له، فقالوا إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين.

فلما جاءت الملائكة لوطاً ﷺ في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: إنكم قوم لا نعرفهم، قالوا: جئناك بعذاب قومك وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، وأتيناك باليقين.

وهم صادقون فيما يقولون جاءوا بنجاته ومن آمن معه، وبهلاك قومه وأمره أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط ﷺ يمشي وراءهم، ليكون أحفظ لهم، وقد كان رسول الله ﷺ يمشي في آخر الجيش، يزجي الضعيف، ويحمل المنقطع، وتلك مسئولية القيادة، حمل هم الرعية والإحسان إليهم والرفق بهم.

وأمرهم الله أنهم إذا سمعوا الصبحه بالقوم فلا يلتفتوا إليهم، ويذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ويمضوا حيث أمرهم الله إلى أرض الشام، وقضى الله بهلاك القوم مع الصبح إن مواعدهم الصبح أليس الصبح ب قريب؟

ولما علم قوم لوط بأضيافه وحسن وجوههم، جاءوا مستبشرين بهم فرحين، يريدون الفاحشة والفجور، وقد استحوذ عليهم الشيطان فزین لهم العمل الخبيث، فقال لهم لوط ﷺ: إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون عندهم، واتقوا الله بابتعادكم عن هذه المعصية، فإن فعلكم سبب للذل والهوان والخسارة، فقالوا: أولم ننهك أن تضيف أحداً من الناس؟ كل ذلك استكبار وإصرار على فعل المعصية، وغرور بأنفسهم وقوتهم وجراتهم على الفاحشة، وتلك حالة كل مجرم، يتظاهر بفعل المعاصي والفواحش، ويفتخر بها، ويعلنها، نسأل الله السلامة والعافية.

قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
 يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا
 سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾
 فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
 الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
 ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
 الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾
 وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ
 السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ
 الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
 وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي
 أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

لما جاء قوم لوط إلى لوط ﷺ يريدون ضيوفه من الملائكة، أرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يصحبهم من العذاب المستقر؛ فهم في ضلالتهم يلعبون، وعند شروق الشمس أخذتهم الصيحة: وهي صوت قاصف، ورفع جبريل ﷺ بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها، وجعل عليها سافلها، وأرسل عليهم حجارة من سجيل، وأثار هذه السقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، فهي آية للمتفرسين المتأملين. وديارهم معلم في طريق واضح بين، لا تزال آثار العذاب فيها، وهي ما يسمى بالبحر الميت. وهذا الذي نزل بقوم لوط من الهلاك والدمار، ونجاة لوط ﷺ وأهله، دلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

وأما أصحاب الأيكة وهي الشجر الملتف، قوم شعيب ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم الكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم في الزمان، وموازين لهم في المكان، وطريقها واحد بين. وأما أصحاب الحجر فهم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين. آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها وعدهم صالح ﷺ العذاب بعد ثلاثة أيام، وكانوا ينتحون من الجبال بيوتاً من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنعهم في بيوتهم بوادي الحجر، الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقتنع رأسه وأسرع دابته، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح من اليوم الرابع فما أغنى عنهم ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي بخلوا بائها عن الناقة، حتى عقروها لثلاث تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر الله.

وما خلق الله السموات والأرض وما بينها إلا بالعدل؛ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، والساعة آتية وكائنة لا محالة، فيتحمل المؤمن ما يلقاه في طريق الدعوة إلى الله وطريق الطاعة كما تحمل الرسل عليهم الصلاة والسلام فقد تحمل نبينا محمد ﷺ وصفح وعفا عن آذاه كما أمره الله بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، والله هو الذي خلق عباده وهو القادر على بعثهم بعد الموت، فهو الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض، والقرآن يزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة وقد أنزل على نبينا محمد ﷺ فيه بأن لا ينظر إلى الدنيا وزينتها وما منع الله به أهلها من الزهرة الفانية فتنة هم. فلا يغبطون بما هم فيه، ولا تذهب نفس النبي ﷺ عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم ومخالفتهم، وقد أعطي النبي ﷺ السبع المثاني وهي الفاتحة أفضل وأعظم سورة في القرآن، وكان ﷺ لين الجانب للمؤمنين حريص عليهم بالمؤمنين رءوف رحيم وهو عليه الصلاة والسلام النذير الأمين، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام، كما أنزل على المتحالفين الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم.

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَّيْكَ لِنَسْعَلَنَّهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ
 عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ
 يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ
 أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
 مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

سُورَةُ النِّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ
 ﴿١﴾ يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ
 خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
 ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾



بعث الله نبيه ﷺ فافترق الناس فمنهم من آمن به وصدقوه، ومنهم من كذبه وجحد رسالته، وأمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، ومنهم من قال إن القرآن سحر وكهانة وشعر وأساطير الأولين وسيأولون عما عملوا في ما أمروا به من التوحيد والإيمان، وأمر النبي ﷺ بالجهر بالدعوة وإبلاغ ما بعثه الله به وإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، وتبليغ ما أنزل إليه من ربه، ولا يلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوه عن آيات الله، ولا يخافهم. فإن الله كافيه إياهم، وحافظه منهم، وسينزل الله بأسه بالمستهزين، وقد كفاه الله كل مستهزئ في حياته وبعد مماته إلى قيام الساعة، وقد توعد الله المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً غيره بالعذاب الأليم يوم القيامة، الذين يؤذون النبي ﷺ فيضيق صدره من استهزائهم، وأذاهم. فلا يثنيه ذلك عن إبلاغ رسالة الله، يتوكل على الله في أداء رسالة ربه، فهو كافيه وناصره عليهم، مع الاشتغال بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة؛ فهي أعظم زاد للداعية إلى الله، وعبادة الله تعالى لا نهاية لها إلا الموت، ولا انقطاع لعمل الإنسان إلا بالموت، ومن كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة، نسأل الله أن يمتتنا عليها ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

سورة النحل

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر النحل فيها

الساعة عقيدة يعتقدها المسلم، وهي واقعة لا محالة، ولكل إنسان ساعة، فإذا مات قامت ساعته، وأما الساعة فهي قرية من العباد، فعليهم الاستعداد بالعمل الصالح الذي يقربهم إلى الله، فهي تقوم والرجلان ينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليصلح حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً

تعالى الله وتنزه عن كفر المكذبين بالساعة وشرك المشركين. وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً. ينزل الملائكة بالوحي الذي هو حياة الأرواح على الأنبياء؛ لينذروا المشركين عن الشرك ويبشرونهم بالتوحيد وكلمته لا إله إلا الله لتكون لهم وقاية من عذاب الله.

وهو سبحانه خلق العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، خلقه بالحق

لا للعبث

تعالى الله وتنزه عن شرك من عبد معه غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً وهم يخلقون.

خلق جنس الإنسان من نطفة ضعيفة مهينة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه،

ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدًا.

وخلق الله لعباده من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، وجعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من

أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها

من الجمال والزينة وقت رجوعها عشياً من المرعى، وحين غدوها أول النهار حين تبتع إلى المرعى.

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بَشِقَ
 الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ
 وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
 وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ
 شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ
 بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾
 وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
 مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
 ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْلِيفًا إِلَّا وَنُهُ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
 سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا
 مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ
 وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

للعباد في الأنعام منافع كثيرة ومنها أنها تحمل الأحمال المثقلة التي يعجزون عن نقلها وحملها، في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، ويستعملونها في أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، وذلك من رأفة الله لعباده ورحمته بهم وما سخره الله لعباده وامتن به عليهم الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ويخلق ما لا يعلم في وقت نزول القرآن من المركوبات ووسائل النقل، ويخلق ما لا يعلمه البشر فيها أعد الله في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر.

وسلوك طريق الحق والاستقامة عليه من أعظم النعم على العباد، والله سبحانه بين طريق الهدى من الضلالة، وبين الحق بالآيات والبراهين، وأوضح الصراط المستقيم، والطرق والسبل كثيرة وهي مائلة عن الحق وعن سبيل الاستقامة، ولا طريق مستقيم إلا طريق السنة وهو الصراط المستقيم، وأما سائر السبل كسبيل اليهودية، والنصرانية، وسائر ملل الكفر، والأهواء والبدع، فهي توصل إلى النار. ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً، ولكن لحكمة يعلمها جعل الناس فرقاً وأحزاباً.

وهو سبحانه أنزل من السماء ماء للعباد منه يشربون ماء عذباً زلالاً يسوغ شربه، ولم يجعله ملحاً أجاباً، ومن ذلك الماء شرب أشجارهم، وحياة نباتهم، الذي يرعون مواشيهم منه.

ويخرج من الماء الزروع والأشجار، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ وفي ذلك دلالة وحجة على أن الله لا إله إلا هو، ومن شواهد التوحيد ودلائله، تسخير الله الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدره، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كل ذلك دلائل على قدرة الله الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

ومن البراهين القاطعة على التوحيد ما خلق الله في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص مما يدعو المؤمن للتفكير في آلاء الله ونعمه فيشكرها.

ومن الدلائل على التوحيد تسخير الله البحر المتلاطم بالأمواج، وجعله مذللاً لهم، وتيسيره للركوب فيه، وخلق السمك والحيتان فيه، وإحلالها لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام وما يخلق فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تشق الأمواج والرياح، والتجارة بالأسماك وطعام البحر فضلاً من الله ونعمة، تستحق الشكر وتحقيق التوحيد.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَزَ وَسْبَلًا
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتْ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا
سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

من نعم الله على عباده هذه الأرض، جعل فيها من الرواسي الشاخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تضطرب بها عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك.

وجعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقًا للعباد، ينعم في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرة في الأرض بمئة ويسرة، وجنوبًا شمالًا وشرقًا وغربًا، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيتًا وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر سبحانه، وسخر ويسر - فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وجعل فيها طرقًا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينها عمرًا ومسلًا.

وجعل فيها دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون براء وبحرًا إذا ضلوا الطريق في النهار، وفي ظلام الليل، يهتدون بالنجوم. وكل تلك المخلوقات تدل على الخالق البصير ﷻ المستحق للعبادة دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئًا بل هم يخلقون. ونعم الله على العباد كثيرة لا تحصى وإحسانه إليهم لا يعد وهو سبحانه يتجاوز عن عباده إذا قصرُوا في شكر نعمه؛ لأنه لو طال بهم بشكر جميع نعمه لعجزوا عن القيام بذلك. فهو غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير، وهو سبحانه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر. وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا.

وأما الأصنام التي يدعونها من دون الله لا تخلق شيئًا وهي مخلوقة. فهي جمادات لا أرواح فيها. فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء، إنما يرتجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

فهو سبحانه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، لا إله إلا هو، وإن أنكره الكافرون فهم مستكبرون عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، لا يؤثر فيها وعظ، ولا ينفع فيها تذكير، والله يعلم حقًا ما يسرون وما يعلنون وسيجزىهم على ذلك أتم الجزاء، والله لا يحب الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لآيائه. الذين إذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: لم ينزل شيئًا، إنما هذا أساطير الأولين، أخذها من كتب المتقدمين.

فسيحملون أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، فيحملون خطيئة ضلالتهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم.

والكافرون الظالمون الآثمون يمحرون للكيد للإسلام وأهله، ويبدلون في ذلك الأموال الطائلة للصد عن سبيل الله

ويبدلون الجهود المتابعة للمكر بأمة الإسلام حتى إذا ظنوا أنهم وصلوا إلى ما أرادوا وخططوا، هدم الله أعمالهم وجهودهم واجتثها من أصلها فأناهم الله من حيث لم يحتسبوا، ففرق ما كان مجتمعًا وانهدم ما كان قائمًا، وهم العذاب في الآخرة يذمهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد، فكل من كاد للمسلمين ومكر بأهل الإسلام فهذا مصيره بحمد الله ومثته.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ
 كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
 الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ
 ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى
 إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
 خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَشْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ
 لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
 هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ
 ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا
 مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ
 الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
 أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ
 اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ
 سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾



الذين يكيدون للإسلام وأهله يظهر الله أمرهم يوم القيامة، ويقول الله لهم: أين الذين كنتم تحاربون وتعادون في سبيلهم؟ أين هم عن نصركم وخلاصكم اليوم؟ أين من كنتم تعظمونهم في الدنيا من صنم أو قبر أو ولي أو نظام أو حزب أو فكر؟ فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكنوا عن الاعتذار حين لا فرار، قال المؤمنون الذين أتاهم الله العلم، وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، إن الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

فهؤلاء المشركون الظالموا أنفسهم بالشرك عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم يظهرن السمع والطاعة والانقياد وينفون عن أنفسهم عمل السيئات، وينكرون الشرك بالله، وما علموا أن الله تعالى عليم بأعمالهم، فيقال لهم، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبس القليل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله.

وهم يدخلون جهنم من يوم ماتهم بأرواحهم، ويأتي أجسادهم في قبورها من حرّها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، وأما أهل الإيمان من أهل السعادة إذا سئلوا عما أنزل الله في كتابه قالوا: أنزل رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وآمن به.

وفي القرآن وعد الله للمؤمنين للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وهي الحياة الطيبة، وفي الدار الآخرة خير من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، لهم الجنة التي يقيمون فيها ونعم دار المتقين.

تجري من تحتها الأنهار بين أشجارها وقصورها، فيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين فذلك جزاء من جعل بينه وبين عذاب الله وقاية

فهم عند نزول الموت بهم يقبضهم الله طيبين، طابت أعمالهم من الشرك والمعاصي، وطابت أجسادهم من الدنس والأذى ومن كل سوء، والملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، ويقال لنفّسه عند النزول: اخرجي أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيفتح لها فيقال: من هذا فيقولون: فلان فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء.

وأما المشركون المكذبون ما ينتظرون إلا ملائكة العذاب أن تأتيهم لقبض أرواحهم، أو يأتي أمر ربك يوم القيامة، فقد فعل الذين خلوا من قبلهم من طوائف الكفار، من الإصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء مثل فعل هؤلاء فأتاهم أمر الله فهلكوا، وذاقوا بأس الله، وحل عليهم العذاب والنكال، ولم يظلمهم الله؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل والتكذيب بها جاءوا به، فهذا أصابته عقوبة الله على ذلك، وأحاط بهم العذاب الأليم بما كانوا يسخرون من الرسل ويستهزئون إذا توعدوهم بعقاب الله.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْبِنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

الكفار المشركون المعاندون للرسول، يحتجون بالقدر على شركهم وكفرهم، ويحتجون بالقدر على تحريمهم ما أحل الله من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطاناً، وتلك حجة الذين من قبلهم، فإنهم أشركوا بالله وحرموا ما لم يحرمه، وجادلوا رسله بالباطل واستهزؤوا بهم، فاحتجوا بالقدر من باب الاستهزاء بالرسول ﷺ، والرسول ﷺ ليس إليه الهداية، إنما عليه البلاغ، وقد بعث الله الرسل بالدعوة إلى التوحيد وإنكار الشرك، فالله لا يرضى لعباده الكفر والشرك، وإن أرادهم كوثاً وقدرًا، وقد بعث الله في كل قرن من الناس وطائفة رسولاً وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم يقول أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. فمشيئة الله تعالى الشرعية متفتية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها؛ لأنهم لا يعلمون عنها، وسيعاقبون على ترك الأمر وارتكاب النهي لا على القدر، كما أن الثواب على فعل الأوامر وترك النواهي وليس على القدر، فالله يهدي من يشاء يكتب له الهداية والإيمان ويضل من يشاء، فيكتب له الضلالة والغواية، وكل ميسر لما خلق له، فلينظر العباد كيف كانت عاقبة المكذبين للرسول، وقد أخبر الله رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم.

فالذين حققت عليهم الضلالة لا يؤمنون، فمن أضله الله فمن الذي يهديه من بعد الله، وما لهم من ينقذهم من عذاب الله ووثاقه، ومن كفرهم وجحودهم إنكار البعث بعد الموت فقد اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أن الله لا يبعث من يموت استبعادًا لذلك، وتكذيبًا للرسول في إخبارهم لهم بذلك، فقال الله تعالى رادًا عليهم: بلى وعدًا عليه حقًا لا بد منه، ولكن لجهلهم خالفوا الرسل ووقعوا في الكفر، فالحكمة من المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، ليبين للناس الذي اختلفوا فيه، وأعظمه توحيد الله، وليجزى الذين أسأؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسن، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين في أيمانهم وأقسامهم أن الله لا يبعث من يموت، فالله قادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: "كن"، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء. فهو سبحانه لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف؛ لأنه هو الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

والمهاجرون الأولون الذين هاجروا في سبيل الله ابتغاء مرضاته، فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه، ووعدهم الله بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقد تركوا مساكنهم وأموالهم فموضعهم الله خيرًا منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بها هو خير له منه وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكماء، وكل منهم للمؤمنين إمامًا، وثواب الله للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقد صبروا على أذى قومهم، وتوكلوا على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَسَئَلُوْا اَهْلَ
الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَاَنْزَلْنَا اِلَيْكَ
الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ اِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ
﴿٤٤﴾ اَفَاَمِنَ الَّذِيْنَ مَكَرُوْا السَّيِّئَاتِ اَنْ يَّخْسِفَ اِلَهُهُمُ الْاَرْضَ
اَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُوْنَ ﴿٤٥﴾ اَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِي تَقْلِيْبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِيْنَ ﴿٤٦﴾ اَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلٰى تَخَوْفٍ فَاِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَّءُوْفٌ رَّحِيْمٌ ﴿٤٧﴾ اَوَلَمْ يَرَوْا اِلَى مَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ
يَنْفَتِحُوْا ظِلَلُهُ عَنِ الْيَمِيْنِ وَالشَّمَاٰلِ سُجَّدًا لِلّٰهِ وَهُمْ دَاخِرُوْنَ
﴿٤٨﴾ وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ
وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُوْنَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللّٰهُ لَا تَنْخَضُوا اِلَٰهِيْنَ
اَنْتٰنِ اِنَّمَا هُوَ اِلٰهُ وَّاحِدٌ فَاْتٰنِىْ فَاَرْهَبُوْنَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ
وَالْاَرْضِ وَلَهُ الدِّيْنُ وَاَصْبَا اَفْغَيْرَ اللّٰهُ تَتَّقُوْنَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّنْ
نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ ثُمَّ اِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَاِلَيْهِ تَجْتَرُّوْنَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ
اِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ اِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُوْنَ ﴿٥٤﴾

لما بعث الله محمدًا ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، وما علموا أن الرسل بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وهم من أهل المدن وليسوا من أهل السماء، والواجب عند الجهل والاختلاف سؤال أهل العلم الراسخين الذين يعلمون الدلائل البينات والحجج ويعلمون ما في كتب العلم من الفقه.

وقد أنزل الله القرآن بياناً للناس والرسول ﷺ يوضح ما في القرآن، فيبين المشكل، ويفسر المبهم ومن تأمل القرآن العظيم وتدبره وجد العلم النافع والهدى.

والله يمهّل العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يعلمون محيئه إليهم، أو يأخذهم على غرة وهم في تقلبهم في المعاش واشتغالهم بها، من أسفار ونحوها من الأشغال الملهمية. فهم لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ والله رءوف رحيم بعباده، فلم يعاجلهم بالعقوبة.

والله خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جهاذا وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، وكل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، كلها تسجد لله بكرة وعشياً وهم صاغرون، مما يدل على عظمة الله وجلاله وكبريائه.

كل من في السماوات وما في الأرض من دابة يسجد لله غير مستكبر عن عبادته، خائفين وجلين من الرب ﷻ، مستقيمين على طاعته، وامثال أوامره، وترك زواجه، وهو سبحانه الأحد الذي لا إله إلا هو، لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فهو مالك كل شيء وخالقه وربّه، وله الدين دائماً خالصاً، وله العبادة وحده من في السماوات والأرض.

وهو مالك النفع والضرر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله وإحسانه إليهم، فإن العباد عند الضرورات يلجؤون إليه، ويسألونه ويلحون في الرغبة مستغيثين به، فإذا كشف عنهم الكرب والضرر أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ^{٥٥} فَتَمَتَّعُوا^{٥٦} فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ^{٥٧} وَيَجْعَلُونَ
 لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ^{٥٨} تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنتُمْ
 تَقْتَرُونَ^{٥٩} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ
 وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ^{٦٠}
 يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ^{٦١} أَيُمْسِكُهُ^{٦٢} عَلَىٰ هُوبٍ
 أَم يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ^{٦٣} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ^{٦٤} وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ
 يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى^{٦٥} فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ
 سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ^{٦٦} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ
 وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ
 لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ^{٦٧} تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ
 قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ^{٦٨} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
 الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^{٦٩}

نعم الله على العباد لا تعد ولا تحصى، والكفار يحقدون نعم الله عليهم، ويقابلون النعمة بالكفر بالله تعالى فليعملوا ما شاءوا وليتمتعوا بما هم فيه قليلاً وسوف يعلمون عاقبة كفرهم وجحودهم.

ويجعلون للأصنام نصيباً من الأموال، ومن حروثهم وأنعامهم، فيقولون: هذا الله بزعمهم، وهذا لشركائنا. فليسلأن عن الإفك والافتراء، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم.

وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا ولد له، ثم أعطوه أقل القسمين من الأولاد في نظرهم وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، فسبحان الله عن قولهم وإفكهم ويختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوا إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه كئيماً من الهم، وهو ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، يكره أن يراه الناس من سوء ما بشر به أيمسكه على مهانة لا يورثها ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها، أو يدفنها في التراب حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله فبئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوا إليه.

للذين لا يؤمنون بالآخرة صفة السوء من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث، وخوف الفقر والعار، والله الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه.

ولو يؤاخذ العباد بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولأهلك جميع دواب الأرض تباً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب عليم يستر، ويُنظرهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

والكفار يجعلون لله ما يكرهون من البنات ومن الشركاء الذين هم من خلق الله، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

ويدعون كذباً وزوراً أن هم الحسنى في الدنيا، وإن كان فيه معاد فلهم الحسنى، والحق أن لهم النار يوم القيامة، وأنهم منسيون في العذاب.

وقد أرسل الله الرسل إلى الأمم الخالية فكذبوهم وكفروا برسالتهم، وقد كُذِّب سيد المرسلين محمد ﷺ، وإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، فهو وليهم يوم القيامة لا يملك لهم خلاصاً من العقوبة والنكال، وإنما أنزل الله على نبيه ﷺ الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، وهدى للقلوب، ورحمة لمن تمسك به، وهو حياة للقلوب الميتة.

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُسْقِيَهُمْ مِّمَّا
فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي
مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَنْفَكِرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُنَوِّفْكُمْ ثُمَّ يُنْفِكُكُمْ ثُمَّ يُرْدُّ إِلَى أَزْدَلِ
الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ
فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى
رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

القرآن حياة للقلوب الميتة، والأرض تحيي بعد موتها بما ينزله الله عليها من السماء من ماء، وفي حياتها بالمطر آية لقوم يفهمون الكلام، وفي الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم آية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، يسقي الله عباده مما في بطونها لبنًا خالصًا من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يهازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به، وهذا اللبن لا يغص به أحد.

وبعد اللبن السائغ للشاربين، ذكر الله ما يتخذُه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم، ففي ذلك آية لقوم يعقلون، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها.

ومن آيات الله الدالة على وحدانيته إلهامه للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون، فهي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون بينها خلل.

وأذن لها تعالى أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنتها، وتقيء العسل من فيها وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكليها منها، وفي العسل شفاء للناس من أدواء وأمراض تعرض لهم.

وفي إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى سلوك الاجتناء من سائر الشار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

ومن الدلائل على توحيد الله خلقه الخلق وإنشاؤهم من العدم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة حتى لا يدرك الأشياء، ولا يعلم ما كان يعلمه، ثم بعد ذلك يتوفاهم.

والله فضل عباده بعضهم على بعض في الرزق، بسط لواحد، وضيق على الآخر، وقلل وكثر، فلا الأسياد يعطون العبيد والماليك حتى يتساوون في الرزق، فهم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم الله سواء، وقد جعلوا عبيد الله شركاء له في ملكه وسلطانه، وتلك حجة على المشركين، فهل من جزاء النعمة وشكرها أن يشركوا بالله، ومن نعم الله على عباده، أن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل اتلاف ومودة ورحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورًا وإناثًا، وجعل الإناث أزواجًا للذكور. وجعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين.



وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ
مَا يُمَسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

الله سبحانه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، والمشركون يعبدون مَنْ دونه مِنَ الأصنام والأنداد والأوثان، لا تقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا ترزق ولا تخلق، ولا تقدر عليه ولو أرادوه، فكيف يتخذونهم أندادًا وأشباهاً وأمثالاً لله، والله لا إله إلا هو ولا مثيل له ولا نظير.

ولتقريب هذه الحقيقة، وأنه لا يجوز أن يسوا في العبادة بين الله وأحد من خلقه، يضرب الله لهم مثلين للسيد المالك الرازق والمملوك العاجز الذي لا يملك ولا يكسب، والله سبحانه يضرب الأمثال في القرآن عبرة وعظة ولتقريب الحقائق فمثل السيد مثل الرجل الذي أنعم الله عليه بسعة الرزق والعيش ووفرة المال فهو ينفق منه سرًا وجهراً، ومثل المملوك كمثل العبد المملوك الذي لا يملك نفسه فضلًا على أن يملك مالا.

وهذا المثل من واقعهم، فقد كان لهم مملوكون، لا يملكون شيئًا ولا يقدرّون على شيء، وهم لا يرضون أن يسوى بين المملوك والسيد المالك، فكيف هم يسوون بين الله وهو سيد العباد ومالكهم وبين أحد من خلقه؟

فالفرق بينهما بيّن واضح ظاهر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق.

وضرب الله مثلاً آخر للسيد، والمملوك فمثل السيد مثل الرجل القائم بأمر الله وبالعدل وأقواله وأفعاله مستقيمة وهو على صراط مستقيم، ومثل المملوك كمثل العبد الأبكى الذي لا يتكلم ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو عيلة وكلفة على مولاه، أينما يعثله لا ينجح في أمر، هل يستويان، لا يستويان بل الفرق واضح جلي، ولا يسوي عاقل بينهما، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر، وبين الله ﷻ وهو القادر العليم الأمر بالمعروف، الهادي إلى الصراط المستقيم.

فمن كمال قدرته على الأشياء، علمه غيب السماوات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا إطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه الله تعالى على ما يشاء، وفي قدرة الله التامة التي لا تحالف ولا تمناع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن، فيكون ما يريد كطرف العين.

ومن كمال قدرته إخراج عبادته من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المراتب، والعقول التي مركزها القلب التي يميزون بها بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرّج قليلاً قليلاً كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو، قوة على طاعة الله، ومن كمال قدرة الله تسيير الطير بين السماء والأرض، كيف جعله بطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جو السماء ما يمسه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ففي ذلك آيات لقوم يوحّدون الله ويفردونه بالعبادة.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ
الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ
﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ
مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرِيرًا تَقِيكُمْ
الْحَرَّ وَسَرِيرًا تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ
﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ
قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ
فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا
إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّامِعُونَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

من تمام نعم الله على عباده، ما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة.

والإسلام يريد أن يكون البيت مكاناً للسكينة النفسية والاطمئنان تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن، وباطمئنان من فيه بعضهم لبعض، وبسكن من فيه كل إلى الآخر، فليس البيت مكاناً للخلاف والتنازع والتخاصم، إنما هو هناء وسكن وأمن وأمان واطمئنان وحب وسلام.

وجعل الله لهم الخيام من جلود الأنعام من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والخضر، وجعل لهم من أصواف الغنم وأوبار الإبل، وأشعار المعز أثاثاً من المتاع والثياب والبسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة يستمتعون بها في حياتهم الدنيوية.

وجعل لهم من الجبال حصوناً ومعاقل، وجعل لهم سراويل تقيهم الحر وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، وسراويل تقيهم في الحروب وهي الدروع من الحديد.

كل ذلك نعمة من الله وفضل جعل لهم ما يستعينون به على أمرهم، وما يحتاجون إليه في حياتهم؛ ليكون عوناً لهم على طاعة الله وعبادته، فمن تولى عن عبادة ربه وإخلاص العبادة له بعد هذه النعم، ما على الرسول إلا البلاغ المبين.

فهم يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره.

ويوم القيامة يبعث الله من كل أمة شهيداً، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيها بلغها عن الله تعالى، ثم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، ولا يكلفون أن يرضوا ربه؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، وإذا رأى الذين أشركوا العذاب فلا يفتر عنهم ساعة واحدة، ولا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة، لا يبقى أحد إلا جثا على ركبته، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر.

وإذا رأى الذين أشركوا يوم القيامة أوثانهم، قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوهم أرباباً ونعبدهم، فتقول لهم الأصنام كذبتم، ما نحن أمركم بعبادتنا، واستسلم المشركون لله وانقادوا لحكمه فيهم، ولم تغن عنهم ألهتهم شيئاً، وزال عنهم ما كانوا يظنون من أنها تشفع لهم.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
 الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ
 أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى
 هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
 وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
 وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
 وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
 ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ
 بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
 اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ
 غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
 بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ
 اللَّهُ بِهِ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٩٢﴾
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ
 يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْلُكُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾



الكفار الذين منعوا الناس عن طريق الحق يضاعف لهم العذاب يوم القيامة بصددهم عن سبيل الله، وبإفسادهم في الأرض بالشرك والمعاصي.

وفي كل أمة يبعث الله نبيها شهيداً عليها، وهذه الأمة يبعث فيها محمداً ﷺ شاهداً عليها، وقد بين لأمته في هذا القرآن كل علم، وكل شيء وكل حلال وحرام.

فالقرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم، وهو هداية للقلوب، ورحمة للمؤمنين وبشرى للمسلمين.

والله أمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، وحثهم على الإحسان، ومن العدل شهادة أن لا إله إلا الله.

وأمر عباده بصلة الأرحام، ونهاهم عن الفحشاء وهي المحرمات والمنكر، ما ظهر من فاعلها، ونهاهم عن البغي وهو العدوان على الناس، وأمره سبحانه ونبيه تذكرة للمؤمنين.

وأمر الله عباده بالوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ والله عليم بمن ينقض الأيمان بعد توكيدها.

ونهى المسلم عن إبطال أعماله الصالحة وإفسادها وإحراقها بالمعاصي والسيئات، فالسيئات تحرق الحسنات، فمن علامة قبول الحسنة إتباعها بالحسنة، ومن علامة رد الحسنة إتباعها بالسيئة، فمن استطاع أن لا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سيء فليفعل، فإن الخير ينسخ الشر، والشر ينسخ الخير، والأعمال بالخواتيم، ولا يكن المسلم كالمرأة الحمقاء التي كانت بمكة، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه.

ونهى الله المسلم أن يتخذ يمينه سبيلاً إلى المكر والخداع وأكل أموال الناس بالباطل، فاليمين الغموس تغمس صاحبها في الإثم ثم تغمسه في النار، ومن حلف على يمين ليقتطع بها حق مسلم لقي الله وهو عليه غضبان، أو يحلف للناس إذا كانوا أكثر منه ليطمثوا إليه، فإذا أمكنه الغدر بهم غدر، فتلك صفة المنافق.

والوفاء بالعهد والميثاق ابتلاء من الله، فالمسلم يفي بالعهد والوعد ولو مع الضعيف والقليل، ومع البر والفاجر والكافر، وفي يوم القيامة يتبين الخائن من المخلص، فيجازى كل عامل بعمله، من خير وشر. ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، ولم يكن بين الناس خلاف ولا افتراق ولا اجتماعوا على كلمة سواء، ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فكتب أهل السعادة ويسر لهم أعمالهم، وكتب أهل الشقاوة وكتب أعمالهم وكل ميسر لما خلق له، ثم يسأل الجميع يوم القيامة عن جميع أعمالهم، فيجازيهم عليها على الفتيل والتقير والقطمير.

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ
عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا
سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ
﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

اتخاذ الأيمان خديعة ومكرًا، سبب من أسباب الصد عن سبيل الله، إذا كان المسلم لا يلتزم بالعهود والمواثيق، شوه صورة الإسلام أمام غير المسلمين، والوفاء بالعهود والمواثيق سبب من أسباب الدعوة إلى الإسلام.

والمسلمون إذا تساهلوا في نقض العهود سهّلوا طريق نقض العهد على الناس.

والمسلم لا يعتاض عن الإيثار بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاء موعوده. والله ﷻ خزائنه ملأى لا تنقصها نفقه، وما عند العباد ينقضي وينتهي فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه، وما عند الله من الرزق والثواب لعباده في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول، وسيجزي الله الصابرين بأحسن أعمالهم، ويتجاوز عن سيئها.

ومن عمل صالحًا وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه، خالصًا لوجه الله، من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، موقن أن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، فإن له الحياة الطيبة في الدنيا ويمجزيه الله بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، من الرزق الحلال الطيب، والقناعة، والسعادة والعمل بالطاعة والانشراح بها.

وأمر الله تعالى عباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، والاستعاذة عند ابتداء القراءة، لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكير، والشيطان ليس له سلطان على المؤمنين أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وإننا سلطانه على الذين يطيعونه، وصاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

ومن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وقد كتب الله عليهم الشقاوة، ذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: إنا أنت كذاب، وإننا هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، والنسخ في القرآن واقع، وما ينسخ الله من آية إلا يأت بأحسن منها أو مثلها.

فقد نزل به روح القدس جبريل ﷺ من الله بالصدق والعدل، ليثبت الذين آمنوا فيصدقوا بما أنزل الله وتثبت له قلوبهم، وهداية للمؤمنين وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله، يبشّرهم برحمة الله ومغفرته وجنته وثوابه وبالنعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، نسأل الله ألا يجرنا فضله وإحسانه.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ
الَّذِي يُذَكِّرُوكَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ
مُبِينٌ ﴿١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ
﴿١٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ
الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا
وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

من كذب المشركين وافترائهم أنهم كانوا يقولون إن محمدًا يعلمه القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعا يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه. و القرآن عربي في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، فكيف يتعلم هذا القرآن من رجل أعجمي، هذا القرآن الذي أعجزهم أن يأتوا بآية من مثله، فكيف يأتي به هذا الأعجمي.

ولكن الذين كفروا لا يهديهم الله للحق، ولا إلى الإيثار بآياته، وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة؛ لافتراءهم الكذب على الله، والكذب على رسوله محمد ﷺ، ومحادة الله ورسوله والتضييق على المؤمنين، حتى عذبوهم وأمروهم أن ينطقوا بكلمات الكفر، ولكن الله عفا عنهم لأن قلوبهم مطمئنة بالإيمان، فمن أكره على الكفر إكراهًا يفقد فيه حياته فله أن ينطق بالكفر بلسانه؛ لأن قلبه معتقد بالإيمان، لكن غضب الله على من كفر بعد إيمانه وشرح صدره بالكفر واطمأن به فله العذاب العظيم في الدار الآخرة؛ لأنه استحب الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدم على الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلبه ويثبت على الدين الحق، فطبع على قلبه فلا يعقل به شيئًا ينفعه وختم على سمعه ويصره فلا ينتفع به، ولا أغنت عنه شيئًا، فهو من الغافلين عما يراد به، ومن الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، بسبب شركهم وكفرهم وإعراضهم عن الحق.

وقد هاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة والمدينة فرائًا بدينهم، وبقي من بقي محبوسًا مضطهدًا في دينه مستضعفًا مهانًا في قومه قد فتنوه في دينه، ثم أمكنه الخلاص بالهجرة، فترك بلاده وأهليه وأمواله ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظم في سلك المؤمنين، وجاهد معهم الكافرين، وصبر، فكتب الله لهم المغفرة والرحمة، فالثبات على الدين في وقت الفتنة والمحنة يمن الله بها على من يشاء من عباده، والمسلم لا يقبل المساومة على دينه وعقيدته؛ لأن العقيدة أمرها عظيم، لا هوادة فيها ولا ترخص، وثمرن الاحتفاظ بها كبير، وهي أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياته وهانت الحياة وهان كل ما فيها من نعيم، أما من يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل فما له في الآخرة من نصيب.

* يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ
 نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
 قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
 مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ
 الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ
 جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ
 ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
 وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾
 إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا
 أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
 اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السِّنُّكُمْ
 الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ
 وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
 مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

يوم القيامة يوم عصيب يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وكل نفس تحتاج عن نفسها ليس أحد يحتاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة وتوفى كل نفس ما عملت من خير وشر، لا ينقص من ثواب الخير ولا يزداد على جزاء الشر ولا يظلمون فقيراً.

ومكة قرية كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، يجيى إليها ثمرات كل شيء رزقاً من الله، يأتيها هنيئاً سهلاً، فجحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، وبدلوا نعمة الله كفوفاً وأحلوا قومهم دار البوار، فألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجيى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافة، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابته سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحره.

وبدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجيوشه، وجعل الله كل ما لهم في سفال ودمار، حتى فتحها الله عليهم وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم ومنهم، وامتن به عليهم، وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم.

وأمر الله عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير، وما ذبح على غير اسم الله، ومع هذا إذا اضطّر الإنسان في غير بغي ولا عدوان، جاز له أكل الحرام إنقاذاً لنفسه، والله غفور لمن أكل الحرام حال الاضطرار رحيم بعباده أن أباح لهم المحرم عند الضرورة.

ونهى الله المؤمنين عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وغير ذلك مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه. فالذين يفترون على الله الكذب لا يقلحون في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم.

وقد حرم الله على اليهود كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرم عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الخوايا أو ما اختلط بعظم، وذلك بسبب بغيهم وظلمهم لأنفسهم بالشرك والمعاصي، وما كان ذلك تضييق من الله عليهم، ولكن أنفسمهم ظلموا.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آجِتَبَ لَهُ وَهْدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 ﴿١٢١﴾ وَعَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
 ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
 اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا
 كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
 وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِلَا تِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ
 هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
 وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ
 لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ
 وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ
 ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

دعا الله عباده إلى التوبة ورغبهم بها، ومن تاب منهم إليه تاب عليه، فمن عمل السوء بجهالة ثم أقبل عما كان فيه من المعاصي، وأقبل على فعل الطاعات، قبل الله توبته وغفر له.

وقد امتدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، الإمام الذي يقتدى به الخاشع المطيع، والمنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد، القائم بشكر نعم الله عليه، وقام بجميع ما أمره الله تعالى به، اختاره واصطفاه، وهاده إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وجمع له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، وهو في الآخرة من الصالحين، ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أن أوحى الله إلى خاتم الرسل وسيد الأنبياء بإتباعه.

وشرع الله يوم الجمعة لبني إسرائيل على لسان موسى ﷺ، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئًا من المخلوقات، فألزمهم الله به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه، وأخذهم مواعيدهم وعهودهم على ذلك.

وأمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة. ومجادلة من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال بالوجه الحسن بالرفق واللين وحسن الخطاب، وأمره تعالى بلين الجانب، لهم والرفق بهم، ليكون أدعى لقبولهم الحق.

والله أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين، وهذا سبيل الدعاة أن يقتدوا بنبيهم في طريقة الدعوة ومنهجها.

وأمر الله بالعدل في الاقتصاد والمائلة في استيفاء الحق، والصبر والعفو أحب إلى الله. والله يعين الصابرين على صبرهم، فالصبر إنما ينال بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته. وأمر النبي ﷺ بعدم الحزن على من خالفه، لا يكن في غم مما يجهدون به أنفسهم في عداوته وإيصال الشر إليه، فإن الله كافيه وناصره، ومؤيده، ومظهره.

والله مع الذين اتقوا بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، الذين اتقوا الله بترك المحرمات، والذين أحسنوا بفعل الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفينهم.

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

آيَاتُهَا ١١١

رُتَبُهَا ١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ وَمِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾
وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنَتْهُمُ أَنْفُسُهُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْئِلُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

الجزء ١٥

الجزء ٢٩

سورة الإسراء

وهي سورة مكية وسميت بذلك لذكر حادثة الإسراء فيها

من الدلائل على قدرة الله ﷻ الإسراء والمعراج فلا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره، تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فقد أسرى بعبد محمد صلوات الله وسلامه عليه ليلاً من مكة إلى بيت المقدس، وجمع له الأنبياء، فأتمهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وقد بارك الله في بيت المقدس فلسطين في الزروع والثمار، وجعل المسجد الأقصى مباركاً، فالصلاة فيه عن خمسمائة صلاة، وقد أرى نبيه محمداً ﷺ الآيات العظام، فقد أتى بالبراق وهو دابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبه فسار به حتى أتى بيت المقدس، فربط الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخل فصل فيه ركعتين، ثم خرج، فأثابه جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاختر اللب، فقال جبريل أصبت الفطرة، ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل ففتح له ورحب به الملائكة في كل سماء، حتى بلغ السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقبل من أنت قال جبريل، قيل ومن معك، قال محمد، فقبل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه، ففتح لهم، فإذا بإبراهيم، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب به إلى سدره المنتهى، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسناتها، فأوحى الله إليه ما أوحى، وفرض عليه في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فما زال يراجع ربه حتى صارت خمس صلوات، ثم رجع إلى مكة، فكذبتة قريش وصدقه المؤمنون والله هو السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، وقد بعث الله نبيه وكتابه موسى وآتاه التوراة هداية لبني إسرائيل؛ لئلا يتخذوا من دون الله ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دونه؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبد وحده لا شريك له، وبنو إسرائيل من ذرية من حمل الله مع نوح في السفينة، ونوح ﷺ كان عبداً شكوراً، وكان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمي عبداً شكوراً، وقد قضى الله إلى بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس.

فإذا جاءت أولى الإفسادتين سلط الله عليهم جنداً من خلق الله أولى قوة وعدة وسلطة شديدة، فتملكوا بلادهم وسلخوا خلال بيوتهم، واستباحوا بيضتهم، وأذلّوهم وقهروهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء، فإنهم لو أحسنوا لأحسن الله إليهم ونصرهم على أعدائهم، فكان إحسانهم راجع إليهم، ولكنهم أساءوا فكانت إساءتهم عليهم، وأما المرة الآخرة جاء أعداؤهم وأهانوهم وقهروهم ودخلوا المسجد الأقصى كما دخلوه في المرة الأولى فدمروا وخربوا ما ظهروا عليه تخريباً.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ اَنْ يَّرْحَمَكُمْ وَيَنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
 حَصِيرًا ﴿٨﴾ اِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ اَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ
 الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ اَنْ لَهُمْ اَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾
 وَاَنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ اَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا ﴿١٠﴾
 وَيَدْعُ الْاِنْسَانُ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْاِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾
 وَجَعَلْنَا اَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ حَٰوَنَا آيَةً اَلِيلَ وَجَعَلْنَا آيَةً
 النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
 السَّيِّئَاتِ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ
 اِنْسَانٍ اَلْرَّمْنَاهُ طَرِيقَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا
 يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اَقْرَأْ كُنْتُ بَكَ كَفِي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا
 ﴿١٤﴾ مِّنْ اِهْتَدَىٰ فَاِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَاِنَّمَا يَضِلُّ
 عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِّزْرُ اُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
 رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَاِذَا اُرْدْنَا اَنْ تُهْلِكَ قَرْيَةً اَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا
 فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ اَهْلَكْنَا مِنْ
 الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

وعد الله بني إسرائيل أنهم إن استقاموا على الطاعة رحمهم وصرف عنهم عدوهم، وإن عادوا للإفساد أعاد الله عليهم عدوهم مع ما يدخره لهم في الآخرة من العذاب والنكال، في جهنم مستقرًا ومحصرًا وسجنًا لا محيد لهم عنه، وقد أنزل الله كتابه العزيز على رسوله محمد ﷺ يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل ويشر المؤمنين به، الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا يوم القيامة، ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذابًا أليمًا يوم القيامة، وقد جبل الإنسان على العجلة، فيدعو بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب الله له هلك بدعائه.

ومن آيات الله العظام: الليل والنهار ومخالفته بينهما، ليسكنوا في الليل وينتشدوا في النهار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك؛ فلو كان الزمان كله نسقًا واحدًا وأسلوبًا متساويًا لما عرف شيء من ذلك، وقد جعل الله لليل علامة يعرف بها وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وظهور الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا، فمحي آية الليل وهو سواد القمر الذي فيه، وجعل آية النهار منيرة، خلق الشمس أنور من القمر وأعظم.

وكل إنسان ألزم بعمله ويجازى عليه، فكل عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهارًا، وصباحًا ومساءً، ويوم القيامة يجمع له عمله كله في كتاب يعطاه، إما يمينه إن كان سعيدًا، أو بشماله إن كان شقيًا مفتوحًا يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول تكليفه إلى آخر عمره، ويقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، لتعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئًا مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى، فمن اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ومن ضل عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ولا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه، إلا من دعا إلى الضلالة فإن عليه إثم ضلاله في نفسه، وإثم آخر بسبب من أضل من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، ومن عدله تعالى أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، فالله لا يدخل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه، وإذا أراد الله هلاك قرية فاسدة ظالمة سلط الله منعميها وأغنياءها وأشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، يأمرهم الله بالطاعات فيفعلوا الفواحش فيستحقوا العقوبة، ويهلكهم العذاب وتخرب ديارهم وأموالهم، فقد أهلك الله أممًا من المكذبين للرسل من بعد نوح، فعقوبة المكذبين لمحمد ﷺ أولى وأحرى، وكفى بالله عالمًا بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية.

مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
 جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَن أَرَادَ
 الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ
 سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِّنْ عَطَاءِ
 رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
 بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا
 ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾
 ﴿٢٣﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا
 يَبُلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
 أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٤﴾ وَأَخْفِضْ
 لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
 صَغِيرًا ﴿٢٥﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ
 فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٦﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ
 وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٧﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ
 كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٨﴾



من طلب الدنيا وما فيها من النعيم وسعى لتحصيلها قد يحصل له شيء منها، وقد لا يحصل عليها، فالله هو المعطي، ومن كانت الدنيا همه وغايته وأعرض عن عبادة ربه، فقد يجعل الله له طبياته في الحياة الدنيا ويوم القيامة في جهنم يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه مذموماً مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً على سوء تصرفه وصنيعه إذ اختار الفاني على الباقي، ومن طلب الآخرة وأرادها وما فيها من النعيم والسرور، و طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ، وقلبه مؤمن مصدق بالثواب والجزاء فأولئك كان سعيهم مقبولاً عند الله.

وكل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة يمدهم الله فيما هم فيه، فيعطي كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد، وقد فضل الله الناس بعضهم على بعض في الدنيا، فمنهم الغني والفقر وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وأما تفاوتهم في الدار الآخرة فهو أكبر، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلسلها وأغلأها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما يترأى الكوكب الغابر في أفق السماء، والواجب على المكلف إخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، ويحذر من الشرك فإنه ظلم عظيم للنفس، ومن أشرك مع الله غيره كان مذموماً بشره مخذولاً، لا ينصره أحد، وكما أمر الله عباده بالتوحيد وإفراد العبادة، أمرهم ببر الوالدين والإحسان إليهما، وبالأخص عند الكبر فهما بحاجة شديدة إلى البر والإحسان، فلا يسمعهما قولاً سيئاً حتى التأيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ولا يصدر منه إليهما فعل قبيح، وليقل لهما قولاً ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم، ويتواضع لهما بفعله ويدعو لهما بالرحمة في كبرهما وبعد وفاتهما، كما أحسنا إليه وهو صغير لا يملك حولاً ولا طولاً ولا قوة، ومن كان في قلبه وفي نيته الخير لوالديه، فإن الله عليهم بما في نفسه، فمن بر واتقى وأصلح بعد تقصيره في حق الوالدين فإن الله غفور رحيم بمن رجع وأناب وتاب، وذلك في كل الذنوب، والإحسان إلى الأقارب من الأرحام من شريعة الله، وهي استمرار للبر بالوالدين من وجوه الإنفاق المشروعة والإحسان للمساكين والمسافر المنقطع، أما إنفاق المال في المعاصي وفي طرقه غير المشروعة فهو تبذير محرم، والمبذرون إخوان الشياطين؛ لأنهم أولياء الشيطان، هو الذي يؤزهم على التبذير والإسراف، والشيطان جحود لنعم الله.

وَمَا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَّزْرُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ
خِطَاءً كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ
سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ
مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾
وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

القول الطيب والكلمة الحسنة تؤثر في النفوس، وتزيل الظنون، وقد كان بعض الصحابة رضي الله عنهم من الفقراء يسألون النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان ما يحتاجون إليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول انتظاراً لرزق الله، وقد أمر الله عباده بالاقتصاد في العيش، وذم البخل ونهى عن السرف، فلا يكن العبد بخيلاً منوعاً، لا يعطي أحداً شيئاً، ولا يسرف في الإنفاق فيعطي فوق طاقته، فيقعده ملوماً محسوراً.

ومتى بسط الإنسان يده فوق طاقته، قعد بلا شيء ينفعه، كان كالحسير وهو المنقطع، والله هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة، فهو خبير بصير بمن يستحق الغنى، ومن يستحق الفقر، وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة عياداً بالله من هذا وهذا، ومن ضلال المشركين أنهم كانوا يقتلون بناتهم خشية الفقر، فنهاهم الله عن قتل بناتهم، فهو سبحانه الذي يرزق البنات ومن يعولهن، وأوصى بهن خيراً وجعلهن سترًا من النار، وفرض لهن فريضة في الميراث وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، وجعل قتلهن ذنباً عظيماً من أكبر الذنوب، وقرنه بالشرك، ونهى الله عباده عن الزنا وعن مقاربتة، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه لأنه ذنب عظيم، وبئس الطريق والمسلك، ونهى الله عباده عن قتل النفس بغير حق شرعي، ومن قُتل مظلوماً فقد جعل الله لولي المقتول سلطاناً، سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، وإن اختار القتل فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل، فإن الولي منصوب على القاتل شرعاً، وغالبٌ قدرًا، ونهى الله عباده عن أكل مال اليتيم، واليتيم من مات أبوه وهو قبل البلوغ، فلا يتصرف ولي اليتيم إلا بما فيه المصلحة لمال اليتيم، وأمر الله عباده المؤمنين بالوفاء بالعهود والعقود التي يتعاملون بها مع الناس، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل عنه صاحبه، وأمر الله بالوفاء في الكيل والوزن بالميزان الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب؛ لأن في ذلك بركة الرزق، وحل المكسب، وهو سلامة وبراءة للذمة يوم القيامة، وثواب في الدنيا والآخرة، ونهى الله عباده أن يتبعوا الظن بإخوانهم، ويكذبوا في حديثهم فلا يقل رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت ولم يعلم فإن الإنسان، سيسأل عن سمعه وبصره وفؤاده يوم القيامة، ونهى الله عباده عن التجبر والتبختر في المشية؛ لأنها مشية الجبارين فإنه لن يقطع الأرض بمشيته، ولا يقدر أن يطاول الجبال ويساويها بكبره، فالإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئاً كمن يريد خرق الأرض ومطاوله الجبال لا يحصل على شيء، وكل ما نهى الله عنه من المحرمات والمكروهات، لا يحبه الله ولا يرضاه، فهو يضر ولا ينفع، ويوغر الصدور، ويحل العقوبة.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ
 بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾
 قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
 ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ
 السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن
 لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ
 الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
 مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
 وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا
 ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ
 إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انْظُرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾
 وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

ما أمر الله به من الأخلاق الجميلة ونهى عنه من الصفات الرذيلة وحي أوحاه إلى عبده ورسوله محمد ﷺ ليأمر به أمته، ورأس هذه الفرائض والواجبات أفراد الله بالعبادة، فإن الشرك سبب لدخول النار والخلود فيها، فالمشركون ملومون على شركهم ومطرودون من رحمة ربهم، ومن ضلال المشركين قولهم إن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطئوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، وارتكبوا جرماً كبيراً، فهل الله خصهم بالذكر واختار لنفسه بزمعهم البنات فهو قول عظيم تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر لهُ الجبال هدأً، وقد بين الله في القرآن الكريم من العبر والحكم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام والتشديد والتكثير والتكرير، لعل العباد يذكرون ما فيه من الحجج والبيّنات والمواعظ، فينزعروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، وما يزيد القرآن الظالمين إلا نفوراً عن الحق، وبعداً منه، ولو كان الأمر كما يقول المشركون، أن الله معه آلهة تُعبد لتقرب إليه وتشفع لديه لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أتمّ وحده كما يعبدونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يجب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى الله عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه، تنزه الله وتقدس عما يقول هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون أن زعمهم أن معه آلهة أخرى، تعالى الله علواً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته، وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله، ولكن الناس لا يفقهون تسميهم، والله حلیم على عباده لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذَه عزيز مقتدر، والقرآن لا ينتفع به المشركون، فإن الله جعل بينهم وبين القرآن حجاباً مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، وجعل على قلوبهم أغطيةً لئلا يفهموا القرآن، وفي آذانهم ثقلاً يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهدون به، وإذا جاء ذكر التوحيد في القرآن، وإفراد الله بالعبادة أدبروا راجعين نفرة من الحق والهدى، وقد كان المشركون يستمعون لتلاوة النبي صلوات الله وسلامه عليه فقد كانوا يتعجبون من فصاحة القرآن وبلاغته، وخشوا أن يراهم العبيد والموالي فيفتنون بالقرآن فتناجوا ماذا يقولوا عن هذا القرآن فاتفقوا على وصفه بالسحر، وأن النبي ﷺ مسحور، فقد ضربوا للنبي ﷺ الأشباه، فقالوا: شاعر وساحر وكاهن ومجنون، فحاروا وحادوا، فلا يستطيعون وصولاً إلى طريق الحق، ومن ضلالهم إنكار البعث بعد الموت فيقولون إذا كنا عظاماً بعد الموت، وتراباً وحطاماً نحن مبعوثون خلقاً جديداً، بعدما بلينا وصرنا عدماً لا يذكر.

﴿٥٠﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥١﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي
 صُدُورِكُمْ ۖ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ۖ قُلْ عَسَى أَنْ
 يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُ لِأَيْدِيكُمْ ۖ فَتُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
 وَتَنْتَنُونَ وَإِنْ لَسْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٣﴾ وَكُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
 أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
 عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ يَنْشَأَ
 يُعَذِّبَكُمُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٥﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
 بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
 وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٦﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا
 يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
 رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٨﴾
 وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٩﴾

من عقيدة الجاهلية إنكار البعث بعد الموت وكانوا يقولون إذا كنا تراباً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً، فجاء الرد عليهم في كتاب الله بأن استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو حديد في القوة، أو أي خلق كبير في نفوسكم وهو الموت فإنه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت، فلو كنتم الموت بعينه لأماتكم الله ثم بعثكم، فالله الذي خلقهم أول مرة قادر على الإعادة، ولكن المشركين لا يؤمنون وسيحركون رؤوسهم استهزاء بالرسول ﷺ، وسيسألون متى وقوعه استعباداً، وهذا يوم قريب منهم وسيأتي لا محالة ولكنهم لا يعقلون.

ذلك اليوم الذي يدعو الله فيه الخلائق، فيأمرهم بالخروج من قبورهم، فيخرجون كنفس واحدة استجابة لأمر الله، وتظن الخلائق يوم تقوم من قبورها أنهم لم يقيموا في الدار الدنيا إلا قليلاً، وقد أمر الله عباده المؤمنين، أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذا لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا بُيِّنَ أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، فربما أصابه بها، والله أعلم بمن يستحق الهداية ومن لا يستحق من عباده، إن يشأ يوفقههم لطاعته والإنابة إليه، أو إن يشأ يعذبهم، وما أرسل الله نبيه محمداً ﷺ إلا نذيراً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، والله أعلم بمن في السماوات والأرض من عباده بمراتبهم في الطاعة والمعصية، وقد فضل الله بعض النبيين على بعض فالرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأولوا العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام وأفضلهم محمد ﷺ، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ﷺ، وأتى الله دواود الزبور وهو كتاب علمه الله داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وتمجيد وثناء على الله ﷻ، وليس فيها حرام ولا حلال ولا فرائض ولا حدود، والمشركون الذين عبدوا غير الله من الأصنام والأنداد، حين يدعونها ويرغبون إليها فإنها لا تملك كشف الضر عنهم وتحويله إلى غيرهم، والذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر، وأهل الشرك الذين يعبدون الملائكة والمسيح وعزير، ما علموا أن هؤلاء يطلبون إلى ربهم القربة، ويتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا، وقد كان نفر من العرب، يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجن، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فالمعبدون يخافون الله ويرجون، وهؤلاء يعبدونهم ويصرفون لهم العبادة، وقد قضى الله وقدر بهلاك الكافرين، ونصر المؤمنين، فالكفار يهلكون بالعذاب لكفرهم وعصيانهم، والعصاة توعدهم الله بالهلاك، وفي آخر الزمان تقبض أرواح المؤمنين، وتقوم الساعة على شرار الخلق، وكل ذلك مما قدره الله وقضاه في اللوح المحفوظ.

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَعَائِنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخَوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا
جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَى لَيْنِ أَعْرَتِنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أُسْطَظَعَتْ
مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ
فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

لم يرسل الله لكفار قريش ما سألوا من الآيات؛ لأن من سنة الله في الأمم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها أن يهلكهم الله ولا يمهلهم، وكان النبي ﷺ ينتظر أن يخرج الله من أصلاهم من يعبد الله وحده لا شريك له.

فقد أعطيت ثمود الناقة آية مضيئة بينة فجحدها أنها من عند الله وظلموا أنفسهم بتكذيبها فعاجلهم الله بالعقوبة.

وما يرسل الله العبر والدلالات إلا تخويفاً للعباد ليؤمنوا، والعباد في قبضة الله لا يقدر على الخروج عن مشيئته وهو حافظ نبيه ﷺ ومانعه من المشركين.

وما رأى النبي ﷺ ليلة المعراج من العجائب والآيات أنكرها المشركون فكانت فتنة للناس. والشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة الزقوم فتنة للناس وذلك أن كفار قريش قالوا: كيف تنبت شجرة في النار، وبعضهم قال: الزقوم: التمر والزبد، فكانت استهزاء وتهكماً، وما يزيدهم التخويف إلا تمرداً وعتواً عظيماً.

وأمر الله الملائكة بالسجود لآدم تشريعاً له، فسجدوا إلا إبليس قال: أأسجد لمن خلقت طيناً، أخبرني عن هذا الذي فضلت علي لئن أمهلني إلى يوم القيامة لأستأصلن ذريته بالإضلال إلا من عصمهم الله، قال الله تعالى: اذهب فممن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤك وجزاء أتباعك، واستخفف واستجهد من استطعت من ذرية آدم بالغناء والمزامير واجمع عليهم مكائيدك وخيلك، وأمرهم بإفناق الأموال في معاصي الله، وأمرهم بالزنا والفواحش، وعدهم بالأمان الكاذبة وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، فهو سيتبرأ منهم فيقول لهم: إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم.

وأما عباد الله المؤمنين فإن الله يحفظهم من الشيطان وكفى بالله حافظاً ومؤيداً وناصرًا، فلا يؤزهم ولا يغويهم ولا يشاركهم لا في طعام ولا مبيت ولا أولاد، فإن المؤمن إذا دخل بيته سمى، وإذا أكل سمى، وإذا أتى أهله سمى، فلا يكن للشيطان منه نصيب، حتى إذا سقطت لقمته أخذها وأزال عنها الأذى ولم يتركها للشيطان فيكون الشيطان ضعيفاً هزئلاً.

ومن لطف الله بخلقه تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيلها لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ورحمة بهم وفضله منة عليهم.

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ
إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنْسُنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ
بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ
بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا ۖ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ قِتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ
أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْ لَا أَنْ ثَبَّنَاكَ لَقَدْ كَدَّتْ
تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ
الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

إذا مس الناس ضر، دعوا الله منيبين إليه، مخلصين له الدين ويذهب عن قلوبهم كل ما يعبدون غير الله، وإذا نجاهم من الضر ومن البحر إلى البر نسوا ما عرفوا من التوحيد في البحر، وأعرضوا عن دعاء الله وحده لا شريك له، والإنسان ينسى النعم ويحجدها، إلا من عصم الله، وما علموا أن الله قادر أن يخسف بهم الأرض، أو يرسل عليهم المطر الذي فيه الحجارة، ثم لا يجدون لهم ناصراً يرد عنهم ذلك وينقذهم منه، أم أمن المعرضون عن الله بعدما اعترفوا بتوحيد الله في البحر، وخرجوا إلى البر أن يعيدهم في البحر مرة ثانية فيرسل عليهم قاصفاً من الريح، يقصف الصواري ويغرق المراكب، بسبب كفرهم وإعراضهم عن الله تعالى، ولا يجدون نصيراً.

وقد شرف الله بني آدم، وكرمهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، وحملهم في البر على الدواب من الأنعام والخيول والبغال، وفي البحر على السفن الكبار والصغار.

ورزقهم من الطيبات من الزروع والثمار، واللحوم والألبان، ومن سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي، وفضلهم على سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وسيحاسب الله كل أمة بكتاب أعمالهم، والنبي شاهد عليها بأعمالها، ولا يظلم الله أحداً حتى الفتيل وهو الخيط المستطيل في شق النواة.

ومن كان في الحياة الدنيا أعمى عن حجج الله وآياته وبيناته، فهو في الآخرة أعمى وأضل منه كما كان في الدنيا عياداً بالله من ذلك.

وقد أيد الله رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وثبته وعصمه وسلمه من شر الأشرار وكيد الفجار، وتولى أمره ونصره، ولم يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

ومن عصمة الله له أن حفظه من إغراءات المشركين وأساليبهم بالكر والخداع التي من استجاب لها عذبه الله العذاب ضعفين، وما له من دون الله ولي ولا نصير.

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ
الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ
قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ
نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ
أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ
إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا
﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى
سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

لما هم كفار قريش بإخراج الرسول ﷺ من بين أظهرهم توعدهم الله بأنهم لو أخرجه لو يلبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وقد وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه بيدر على غير ميعة، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفروهم، فقتل أشرفهم وسبى سراتهم، وتلك سنة الله في الذين كفروا بالرسول وأذوهم، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب، ولولا أنه عليه الصلاة والسلام رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به، وأمر الله عباده المؤمنين بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها، فالظهر عند زوال الشمس، والعصر ما بعد وقت الظهر إلى غروب الشمس، والمغرب بعد غروب الشمس، والعشاء ما بعد وقت المغرب إلى نصف الليل، والفجر من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وصلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، وأمر الله العباد بقيام الليل بعد المكتوبة؛ لأن أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل، وهي سنة مؤكدة وهي في حق النبي ﷺ واجبة عند بعض أهل العلم، والتهاجد ما كان بعد نوم، وتشريف النبي ﷺ يوم القيامة؛ لقيامه بحق الله تعالى من البلاغ والدعوة والعبادة، وسيكون له المقام المحمود الذي يحمد عليه الخلاق كلهم، وهو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليربهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم، ولرسول الله ﷺ من التشريفات يوم القيامة؛ فهو أول من تشق عنه الأرض، ومعه لواء الحمد وهو اللواء الذي يكون تحته آدم فمن دونه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأتمته، وهو أول شفيع في الجنة، وهو أول داخل إليها وأتمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعيالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له، ولما ائتم كفار أهل مكة برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، أمر الله رسوله ﷺ أن يخرج إلى المدينة، وأمر أن يقول رب أدخلني مدخل صدق في المدينة وأخرجني مخرج صدق من مكة، ولما علم نبي الله ﷺ ألا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، سأل الله سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولقراض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم، وقد جاء أهل الشرك من الله الحق الذي لا مزية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعث الله به نبيه محمداً ﷺ من القرآن والإيمان والعلم النافع، فزهق باطلهم، واضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء.

وأنزل كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد على رسوله محمد ﷺ شفاء ورحمة للمؤمنين يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدق به واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً، ومن نقص الإنسان أنه إذا أنعم الله عليه بهال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته وبعد عن الله، إلا من عصم الله تعالى وإذا مسه الشر من المصائب والحوادث والنوائب قنط أن يحصل له بعد ذلك خير، وكل يعمل على سبيله الذي اختاره والله أعلم بأهل الهداية والاستقامة، ومن عجز الإنسان وضعفه وقلة علمه أنه لا يعرف حقيقة الروح التي تدل على حياته فإذا خرجت من الجسد فارق الحياة، وحقيقتها مما استأثر الله بعلمه، والعباد لا علم لهم إلا ما علمهم الله، وما علمهم إلا قليل بالنسبة إلى علم الله تعالى، ولو شاء الله لذهب بالقرآن، ولو ذهب القرآن لم يوجد من يرده، ولكنها رحمة الله بعباده.

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِن فَضَّلَهُ كَاتَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ
 لِّئِن أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
 لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَاتَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
 صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
 إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
 الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ
 فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا
 زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِلَهُ وَالْمَلَكِ كَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
 أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
 لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
 كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ
 الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَاتَ
 فِي الْأَرْضِ مَلَكٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم
 مِّن السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ
 شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

من فضل الله على عباده ورحمته بهم هذا القرآن الذي هو هداية للبشرية، وبقاء القرآن رحمة بالأمة، وسيرُفع في آخر الزمان من السطور والصدور، هذا القرآن المعجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب هو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق؛ لأنه غير مخلوق ولو كان مخلوقاً لربما أتوا بمثله ولو اجتمع الإنسان والجن على أن يأتوا بمثله ما استطاعوا ولو تعاونوا على ذلك.

وقد بين الله لعباده في هذا القرآن من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها، فلم يزد أكثر الناس إلا جحوداً، فقال المشركون لمحمد ﷺ: لن نصدقك حتى تفجر لنا أرض مكة عيوناً، أو يكون لك بستان من نخيل وعنب فتشق الأنهار خلالها تشقيفاً، أو تتخذ إلى السماء سلماً ترقى فيها ونحن ننظر حتى تأتيها، وتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول، أو تسقط السماء كما زعمت قطعاً، فأمر النبي ﷺ أن يجيبهم: سبحان الله وتقديس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابهم إلى ما سألوا، وإن شاء لم يجيبهم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتكم إلى الله ﷻ.

وحجة المشركين في شركهم أن الله بعث الرسل من البشر وما علموا أن ذلك من لطف الله ورحمته بعباده أن بعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه.

ولو كان في الأرض ملائكة مستوطنين مقيمين، يعيشون فيها لأنزل الله عليهم من السماء ملكاً من جنسهم لأن القلب إلى الجنس أميل منه إلى غير الجنس.

والله شاهد على النبي ﷺ في تبليغه ودعوته، وعلى المشركين في تكذيبهم وكفرهم، عالم بما جاء به النبي ﷺ، والله عليم بعباده بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ومن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة.

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَ وَبُكْمًا
 وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
 ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا
 وَرُفَاتًا أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
 وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
 قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
 الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ
 آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسُئِلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذَا جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
 إِنِّي لَا أَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ
 هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَا أَظُنُّكَ
 يَفِرْعَوْنَ مُثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ
 فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ
 اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

إذا كتب الله الهداية لأحد فلا مضل له، فهو سبحانه المتصرف في خلقه لا معقب لحكمه، ومن يضلل الله فما له من هاد؛ لأن الهداية بيد الله، ومن كتب الله عليه الضلالة يحشرون يوم القيامة على وجوههم، فالذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم عميًا لا يبصرون وبكمًا لا ينطقون وصمًا لا يسمعون، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمًا عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، ومنقلبهم ومصيرهم جهنم كلما سكنت زيدت لهبًا ووهجًا وجمًّا.

وذلك الجزاء؛ لأنهم كذبوا بالأدلة والحجج، واستبعدوا وقوع البعث، وقالوا أنذا كنا عظامًا بالية نخرة نعاد مرة ثانية، فجاء الرد عليهم، بأن الله خلق السماوات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، فيوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم.

وقد جعل الله لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلًا مضروريًا ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، ولكن الكفار بعد قيام الحجة عليهم أبو إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم.

ولو أن الناس يملكون التصرف في خزائن الله لأمسكوا خشية الفقر؛ لأن البخل والمنع من طبيعة وسجية الإنسان، ولو أن لهم نصيبًا في ملك الله لما أعطوا أحدًا شيئًا، ولا مقدار نقي، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو فالبخل والجزع والهلع صفة له إلا من وفقه الله وهده.

ولقد بعث الله موسى ﷺ بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به وهي العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلًا وعلوًا، وما أثرت فيهم، فكذلك لو أجاب طلب المشركين فسيكذبون ما جاءهم، ولذلك قال موسى لفرعون: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض حججًا وأدلة على صدق ما جئت به، وإنك يا فرعون لهالك ومغلوب.

فأراد أن يخليهم من الأرض ويزيلهم عنها، فأغرقه الله ومن معه جميعًا، وأسكن بني إسرائيل الأرض وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثأرهم وكنوزهم، فإذا جاء وعد الآخرة جاء بهم جميعهم هم وعدوهم.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
 وَفَرَّءْنَا مَا فَرَّقْتَهُ لِنَقَرَّهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾
 قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى
 عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ
 وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
 خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ
 الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ
 بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ
 لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾



سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

آياتها ١١

آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾
 قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
 يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِيثِينَ
 فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

أنزل الله القرآن المجيد، متضمنًا للحق، وبالحق وصل إلى نبيه محمد ﷺ محفوظًا محروسًا، لم يشب بغيره، ولا زيد فيه ولا نقص منه، نزل به شديد القوى، القوي الأمين المكين المطاع في المأل الأعلى، وما أرسل محمد ﷺ إلا مبشرًا لمن أطاعه من المؤمنين، ونذيرًا لمن عصاه من الكافرين، والقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفردًا منجمًا على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، شيئًا بعد شيء، على مهل، ليقرأ ويعمل به ويتدبر، والقرآن حق سواء آمن به المشركون أم لم يؤمنوا، أنزل الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ وصالح أهل الكتاب يتمسكون بكتابتهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولم يحرفوه، إذا تلى عليهم القرآن، يسجدون لله ﷻ شكرًا على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلًا أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ويقولون سبحان ربنا تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ويسجدون وهم يبكون خضوعًا لله ﷻ وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعًا وإيمانًا وتسليمًا، والله له الأسماء الحسنى والصفات العلى ومن أسمائه: الله والرحمن، وأسماء الله غاية في الحسن والكمال وكل اسم الله يتضمن صفة، وصفات الله يثبتها أهل السنة والجماعة على الوجه اللائق به سبحانه من غير تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل، وأمر النبي ﷺ بعدم الجهر بالقراءة حتى لا يسمعها المشركون فيسبوا القرآن، ونهى عن الإسرار حتى يسمع أصحابه منه القرآن فيأخذوه عنه، ولما أثبت الله تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نزه نفسه عن النقائص، فهو لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فهو ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومقدرها ومديرها بمشيئته وحده لا شريك له، والواجب تعظيم الله وإجلاله وتنزيهه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

سورة الكهف

وهي سورة مكية، وسميت بذلك لذكر أصحاب الكهف فيها

وفي الحديث الحسن (من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين) وفي مسلم (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال وفي رواية من آخر سورة الكهف) الله سبحانه هو المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة؛ ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتابًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، بينًا واضحًا جليًا نذيرًا للكافرين وبشيرًا للمؤمنين؛ لينذر من خالفه وكذبه ولم يؤمن به، عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوتق وثاقه أحد، ويبشر المؤمنين بهذا القرآن الذين صدقوا بإيمانهم بالعمل الصالح أن لهم مثوبة عند الله جميلة خالدين في ثواب الله الذي لا زوال له ولا انقضاء، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا وهم مشركو العرب في قولهم نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله.

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِخُغِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءِئِنَّا مِنْ لَدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرْبْنَا عَلَى ءَادَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

من افتراء المشركين على الله قولهم أن الله ولدًا، وأن الملائكة بنات الله، كله بدون علم ولا دليل، وإنما كلمات تخرج من أفواههم ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم؛ وكان الرسول ﷺ يحزن لعدم إيمانهم، فأرشد ألا يهلك نفسه بحزنه عليهم، ولا يهلك نفسه أسفًا عليهم، بل يبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فالدنيا دارٌ فانية مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها الله دار اختبار لا دار قرار، وأن مصيرها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فكل شيء عليها هالك لا يثبت ولا يتتفع به، وإن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لآلى الله فلا بأس على القوم الكافرين ولا يحزنه ما يسمع ويرى.

ومن الآيات والعجائب قصة أصحاب الكهف الذين أماتهم الله ثم أحياهم، وأصحاب الرقيم الذين انطبق عليهم الغار فنجاهم الله بدعائهم وتوسلهم بالأعمال الصالحة، وأعجب من هذا وأعظم خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء.

وقصة أصحاب الكهف أنهم فتية ألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم، فأمنوا بربههم، واعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو، ودعوا قومهم لعبادة الله وحده لا شريك له، ولما دعوا ملكهم إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتهدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا في أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة، وفروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوه عنه، فهربوا منهم، فصبرهم الله على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فليجئوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم، هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترتنا عن قومنا واجعل عاقبتنا رشدًا، فقد فارقوا قومهم من أجل التوحيد ونبذ الشرك فخلد الله ذكرهم، وأعلى أمرهم.

والمشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد خوفًا على دينه، إذا لم يكن لديه القدرة على الدعوة

والتصحيح.



وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ
يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا
❖ ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ
يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً
وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ
بَسِطٌ ذِرَاعَاهُ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

لما وقع عزم الفتية على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، خرجوا فرارًا إلى الكهف، فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، فألقى الله عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة، فكانت الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشية، وذلك من آيات الله حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم.

وهو سبحانه الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له، ولما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها؛ وكانوا يلبون في العام مرتين، ولو لم يلبوا لأكلتهم الأرض، والكلب يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يريض بابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ وشملت كليهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحة الأخبار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

وقد ألقى الله عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لاس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقتهم التي شاء الله تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحجة والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة، ثم بعثهم الله من رقتهم تلك صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئًا، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم كم مدة لبثهم؟ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولكن لإيمانهم أرجعوا العلم إلى الله، ثم عدلوا إلى الأمر في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فأرسلوا أحدهم بفضتهم التي معهم، وقد كان معهم دراهم أخذوها من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها، فأرسلوه إلى المدينة التي خرجوا منها، وأوصوه باختيار الطعام الطيب الحلال، وليترق في الطريق وفي المدينة وليكن في ستر وكتان في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، ولا يعلمن به أحد، فإنهم إن علموا بمكانهم، يشتمونهم ويؤذونهم بالقول ويقتلوه أو يعيدوهم إلى الكفر، ومن عاد إلى الكفر فلن يفلح أبدًا.

وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا
ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ
رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِي شَأْنِي
إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا
﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَبْصَرُ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ
رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

ذكر أنه لما أراد أحد الفتية الخروج ليذهب إلى المدينة، في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشي في غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها، لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنوناً أو مساً، أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة، ثم قال: إن تعجيل الخروج من هنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النقفة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً، فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النقفة، لعله وجدها من كنز، ومن أنت، فجعل يقول: أنا من أهل هذه المدينة وعهدي بها عشية أمس وذكر اسم الملك، فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وعن أمره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير في حاله، وما هو فيه، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال: دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي، فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبره وتوفاهم الله ﷻ، وكل ذلك دليل على البعث بعد الموت، وأن الله قادر على ذلك.

فسدوا عليهم باب كهفهم، وتركوهم على حالهم، وقال أصحاب الكلمة والنقوذ: لننتخذن عليهم مسجداً، والبناء على القبور لا يجوز وهو من وسائل الشرك، والمسجد الذي يبنى على القبور يهدم ولا تحل الصلاة فيه، أما إذا كان القبر بعد المسجد فإن القبر ينشئ، وقد اختلف الناس في عدة أصحاب الكهف، فذكر الله تعالى ثلاثة أقوال، وضعف القولين الأولين لأنها بدون علم ثم ذكر الثالث وسكت عنه فدل على صحته، وهو أنهم سبعة، والواجب رد العلم إلى الله، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، وأهل العلم الراسخين يعلمون ذلك من كتاب الله.

والجدال في مثل هذا لا فائدة منه لأن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، ولا تسأل عنه أحد لأنه لا علم لهم بذلك، ومن الأدب مع الله أن المسلم إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، والسنة لمن حلف أن يستتني بالمشيئة حتى لا يبحث في يمينه، وإذا نسي الإنسان ذكر الله تعالى، لأن الذكر يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله سبب للذكر، وإذا سئل الإنسان عن شيء لا يعلمه، فيسأل الله أن يوفقه للصواب والرشد في ذلك، فهو سبحانه الهادي لعباده، ومقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، لا يعلم ذلك إلا الله، أو من أطلع الله عليه من خلقه، فهو سبحانه البصير بهم السميع لهم، الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس، وأمر الله نبيه محمداً ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس، فإنه لا مغير لكلماته ولا محرف ولا مؤول، ولن يجد العبد من دون الله ملجأ ولا ولياً ولا مولى إن ترك القرآن والعمل به.

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ
شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۖ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ
لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَيِّنَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحُسْنَتُ مَرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ * وَأَضْرِبْ
لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أُكْلَاهَا وَلَمْ
تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾



الجلس الصالح، والصديق التقى سبب من أسباب الاستقامة والثبات، وقد أمر الله نبيه ﷺ بمجالسة الصالحين الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء، ولا يجاوزهم إلى غيرهم، يطلب بدلم أصحاب الشرف والثروة، ولا يطع من شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ولم يستجب إلا لهواه وكل أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع.

وما جاء به محمد ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فإن للكافرين بالله ورسوله وكتابه ناراً أحاط بهم سورها، وإن استغاثوا من شدة العطش يغاثوا بءاء كرديء الزيت الحار يشوي الوجوه من حرارته، إذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه، فساء الشراب وساء المجلس النار.

وأما السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروا به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن يقيمون فيها، تجري الأنهار من تحت غرفهم ومنازلهم، ويلبسون من الحلية فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق والسندس رقاق الديباج، والإستبرق غليظ الديباج وفيه بريق، مضطجعين ومتربعين في الجلوس، على السرر ونعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً.

وضرب الله المثل للمشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، والمفتخرين عليهم بأموالهم وأحسابهم برجلين كان لأحدهما بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل المحدث في جنباتهما، وفي خللهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود؛ ولم ينقص من ثمرها شيء، والأنهار تتخرقهما.

فقال صاحب الجنتين لصاحبه وهو يجادله ويخاصمه، ويفتخر عليه ويرأس أنا أكثر منك مالاً وأكثر خدماً وحشماً وولداً.

والمسلم حين يرزقه الله من واسع عطائه، يعترف بنعم الله عليه، ولا يفتخر على غيره بالدنيا، فإن الفخر والتعالي والكبر سبب من أسباب جحود النعمة، والاعتداد بالنفس، ونسيان الشكر، ونسبة النعمة لغير معطيها.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ
 أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي
 لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
 أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا
 ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ
 دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا
 أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ
 جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
 زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾
 وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
 عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْسَنِي لِمَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ
 فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ
 لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
 فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

دخل الظالم لنفسه جنته؛ فقد ظلم نفسه بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد، واغتر بها رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، وظن أنها لا تفتنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، وظن لئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله، ليكون له هناك أحسن من هذا؛ لأن له مقام عند ربه، ولولا كرامته عليه ما أعطاه هذه الجنان.

فأجابه صاحبه المؤمن، وأعطاه له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار من جحود ربه، الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ولكني أعترف لله بالربوبية والوحدانية فهو الله المعبود وحده لا شريك له.

فهلاً إذ أعجبتك بساتينك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ فإن من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله فإنه لا يرى فيه آفة دون الموت.

ودعا المؤمن ربه بأن يرزقه الجنة في الدار الآخرة، ويرسل على جنة الظالم في الدنيا عذاباً من السماء، التي ظن أنها لا تبيد ولا تفتنى، أو يقل ماؤها ويحفر نهرها.

فأرسل الله عليها مطراً عظيماً يقلع زرعها وأشجارها فأصبحت بلقاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. فأصبح يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ولم ينفعه عشيرة أو ولد، كما كان يفتخر بهم.

والله سبحانه يتولى أمر الخلائق، فينصر المؤمنين ويخذل الكافرين، ويوم القيامة يتولى الكفار ربهم، ويؤمنون به، ويتبرؤون مما كانوا يعبدون، لكن لا ينفعهم ذلك، والأعمال التي يقصد بها غير وجه الله تكون وبالا على صاحبها وأما الأعمال التي تكون لله يُحِبُّ ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، وكلها خير.

والحياة الدنيا في زوالها وفنائها وانقضائها كماء أنزله الله من السماء فاختلط بنبات الأرض بما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنصرة ثم بعد هذا كله أصبح يابساً تفرقه الرياح وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال والله هو القادر على هذه الحال، وهذه الحال.

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ
 خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى
 الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرِضُوا
 عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ
 أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلُنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ
 لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا
 حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا
 لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ
 أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ
 بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ * مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا
 ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
 فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ
 النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وهم عدة وذخر للإنسان إذا صلحوا، ومن أشغل نفسه بترتيبهم كانوا عملاً صالحاً بعد مماته وكانوا من الباقيات الصالحات، والإقبال على الله والتفرغ لعبادته خير للإنسان من الانشغال بالمال والولد لزينة الدنيا والتفاخر بها، ويوم القيامة حق يجب على المسلم الاستعداد له وما يكون فيه من الأمور العظام، يوم تذهب الجبال من أماكنها وتزول، وتساوى المهاد، وتبقى الأرض سطحاً مستوياً لا وادي ولا جبل؛ بادية ظاهرة، ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يوارى أحداً، ولا بناء ولا شجر، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية.

وجميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفواً واحداً، جاؤوا إلى ربهم كما خلقهم غرلاً، وقد زعم الكفار أن لا رجعة ولا بعث، ووضع كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطير، والصغير والكبير، فترى المجرمين مشفقين من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ويقولون يا حسرتنا ويا ويلنا على ما فرطنا في أعمالنا فهذا الكتاب لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر إلا ضبطه وحفظه.

فيحكم الله بين عبادهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرون، وهو الحاكم الذي لا يجوز ولا يظلم.

والله سبحانه أكرم آدم وأسجد له الملائكة، سجود تشريف وتكريم وتعظيم، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن فاعتز بأصله فإنه خلق من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فإبليس ليس من الملائكة طرفة عين، وهو أصل الجن، لكن دخل مع الملائكة في خطابهم، وعصى بالمخالفة فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج، فلا يتخذ المؤمنون الشيطان ولياً فهو ولي الظالمين.

والذين اتخذتهم البشر أولياء من دون الله عباد أمثالهم، لا يملكون شيئاً، ولا حضروا خلق السموات والأرض، ولا كانوا موجودين، والله سبحانه هو الذي خلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحده، ليس معه في ذلك شريك، وفي يوم القيامة يقول الله تعالى للمشركين نادوا شركائي الذين زعمتم في دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما أنتم فيه، فدعوه فلم يستجيبوا لهم، ولن يستجيبوا، وجعل الله بينهم وبين شركائهم وادياً في جهنم مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

ولما عين المشركون جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل لهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز، ولم يجدوا لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا
 إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ
 الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
 إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَبُجْدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ
 لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُولًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
 إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
 وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ
 الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ
 الْعَذَابَ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ ۚ مَوْبِلًا ﴿٥٨﴾
 وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ
 مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى
 أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
 مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

لقد بين الله لعباده في هذا القرآن، وأوضح لهم الأمور، وفصلها كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان، فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

وقد تمرد الكفار في قديم الزمان وحديثه، وكذبوا بالحق بين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات، وما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، فما ينتظرون إلا سنة الله في الأمم السابقة من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، أو يروا العذاب عياناً مواجهة ومقابلة، وهم مع ذلك لن يؤمنوا ويقبلوا الحق، فقد أرسل الله الرسل بالبيارة بالتوحيد والندارة عن الشرك ولكن الكفار يجادلون بالباطل ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، واتخذوا الحجج والبراهين والمعجزات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب سخريه وتكديباً.

فأظلم العباد من ذكر آيات الله فتناساها وأعرض عنها، ولم يصنع لها، ولا ألقى إليها بالاً، ونسي الأعمال السيئة والأفعال القبيحة؛ لأن الله جعل على قلوبهم أغطية غشاوة، لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان، وفي آذانهم صمم معنوي عن الرشاد، مهما دعوا إلى الحق فلن يستجيبوا لأن الله كتب عليهم الضلالة.

والله هو الغفور ذو الرحمة الواسعة، لو يؤاخذ العباد بأعمالهم لأهلكهم جميعاً، ولكنه سبحانه يحلم ويستتر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ لا يجدون لهم عنه محيداً ولا محيصاً ولا معدلاً، فالأمم السالفة والقرون الخالية أهلكهم الله بسبب كفرهم وعنادهم وجعل هلاكهم مدة معلومة ووقت معلوم معين، لا يزيد ولا ينقص.

والله سبحانه هو الذي يعلم عباده العلم، وقد قام موسى ﷺ خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم.

فقال موسى لفتاه لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، أو أسير مدة من الزمان، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر مسلکاً ومذهباً

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا
هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحُوتَ وَمَا أَنَسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ
عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبِعَكَ
عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا
لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ
قَالَ أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

انطلق موسى ﷺ وفتاه يوشع بن نون بقية يومهما وليلتها، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا تعبًا وشدة، ولم يجد موسى التعب حتى جاوز المكان الذي أمر به، وقال له فتاه: أرايت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبًا، فكان للحوت سربًا ولموسى ولفتاه عجبًا، وقال موسى: ذلك ما كنا نريد، فرجعًا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا مُسجى بثر موسى فقال الخضر ﷺ: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى قال: موسى نبي بني إسرائيل، قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت علمًا يرشدني، فقال له الخضر: كفى بالتوراة علمًا وبينى إسرائيل شغلًا، فقال له موسى: إن الله أمرني بهذا قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا يا موسى، إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله إياه لا أعلمه فقال موسى: ستجديني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا، فقال له الخضر: فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلوهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير أجر، فلما ركبا في السفينة وساروا في البحر أخذ الخضر فأسأ فخرق لوحًا من السفينة، فقال له موسى: قوم حملونا بغير أجر، وعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئًا منكراً، قال ألم أقل لك: إنك لن تستطيع معي صبرًا، قال: لا تؤاخذني بما نسيت، ولا تضيق علي أمري، وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر.

وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: أقتلت نفسًا زكية صغيرة لم تعمل الإثم أبدًا، ولم تحمل وزرًا بعد، فقتلته بغير نفس، لقد جئت شيئًا نكرًا، فظيغًا منكراً لا يعرف في الشرع، وهو أنك من الأمر الأوّل لكون القتل لا يمكن تداركه، بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه.

﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ
 سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا
 ﴿٧٦﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا
 أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ
 قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
 وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
 السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا
 وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ
 فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا
 ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
 ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ
 تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا
 أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ
 عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ
 عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

لما قتل الخضر الغلام وأنكر عليه موسى ﷺ، قال الخضر: إنك لن تقدر على الصبر معي فيما يخفى عليك علمه، فقال له موسى ﷺ: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تعجلني صاحباً لك، فنهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره؛ لأنه خالفه ثلاث مرّات، وهذا كلام نادم شديد الندامة، اضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية فطلباً من أهلها الطعام فأبوا أن يضيفوهما فوجدا في القرية جداراً ضعيف البنيان، مائلاً للسقوط، فمسح الخضر الجدار بيده فاستقام، فقال موسى: قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لأخذت أجره على إصلاحك للجدار، فقال: هذا وقت الفراق بيني وبينك، وسأخبرك بما رأيت، وفسر الخضر ما أشكل أمره على موسى ﷺ، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر، على باطنه فقال إن السفينة التي خرقتها إنما خرقتها لأعبيها؛ لأنهم كانوا يَمرون بها على ملك من الظلمة يأخذ كل سفينة صالحة جيدة غصباً، فأردت أن أردّه عنها لعبيها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وأما الغلام فقد فرح به أبواه حين ولد وكانا يحبانّه حباً شديداً وقد كُتِبَ عليه الكفر، فخشيت أن يتابعاه على الكفر لمحبتهم له، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض المرء بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيها يكره خير له من قضائه فيما يحب، وأبدى الله بغلام مسلم أبر بوالديه من الأول، وأما الجدار إنما أصلحته؛ لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وهو مال مدفون، وكان جدّهما السابغ صالحاً، فالرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشملهم بركة عبادته في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، فأراد الله تعالى أن يستخرج الكنز بعد بلوغهما الحلم.

وهذا الذي فعله الخضر في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، والوالدي الغلام، ووالدي الرجل الصالح، وما فعله الخضر إنما هو بأمر الله له، والخضر ولي من أولياء الله وقد مات، وليس له من العلم إلا ما علمه الله، وليس بأفضل من موسى بن عمران ﷺ.

وقد بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألونهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية لا يدري ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف، فذكر الله خبر ذي القرنين وهو رجل أحب الله وأحبه الله، ونصح لله، وعمل بأمر الله، وآتاه الله الملك فاشتهر بالعدل والإنصاف، وسمي بذلك لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وكان عمره ألفاً وستائة سنة.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَانَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا
 ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
 وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ
 فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ
 فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ
 الْحَسَنُ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ
 إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ
 دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
 سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا
 لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
 مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
 سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
 وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ
 قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا
 ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نُقْبًا ﴿٩٧﴾

لقد أعطى الله ذا القرنين الملك العظيم المتمكن، فقد أعطي جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب؛ فملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، وعلمه الله منازل الأرض وأعلامها، وعلمه الألسنة، وكان لا يغزو قومًا إلا كلمهم بلسانهم. فقد يسر الله له الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والبلاد والأراضي وكسر الأعداء، وكتب ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، وسخر له السحاب، وقدر له الأسباب، وبسط له اليد، وقد أوتي من كل شيء مما يحتاج إلى مثله سببًا، فسلك الطريق ما بين المشرق والمغرب، حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السواء فمتعذر، فرأى الشمس في منظرها تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، فكأنها تغرب في طين أسود حار، وهي لا تفارق الفلك إذ تطلع على غيرهم، ووجد عند مغيبها أمة عظيمة من بني آدم، ومكنه الله منهم وأظفره بهم فانصر عليهم، وخيرهم إن شاء قتل وسبي، وإن شاء مَنَّ أو فدى، فعرف عدله وإيانه فيما أبداه عدله وبيانه، فقال لهم: من استمر على كفره وشركه بريه فسوف نعذبه بالقتل، ثم يوم القيامة له العذاب الشديد البليغ الموجه الأليم، وأما من تابعا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، فله في الدار الآخرة عند الله ﷻ الجنة وفي الدنيا له المعاملة الطيبة والقول المعروف.

ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله ﷻ، فإن أطاعوه وإلا أذهم وأرغم أنوفهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم القريب منهم، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض، وجدها تطلع على أمة ليس لهم بناء يُكْنُهم، ولا أشجار تظلمهم وتستترهم من حر الشمس، وكانوا حمرًا قصارًا، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك، فهم في أرض لا تثبت لهم شيئًا، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معيشتهم، والله مطلع على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى عليه منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض، حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبالان متقابلان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم ﷺ ووجد من دون الجبلين قومًا لا يكادون يفهمون قولًا، لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس، ففهم ذو القرنين كلامهم، وطلبوا أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًا لا يصلون إليهم، وأرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سدًا، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، ولكن ساعدوني بعملكم وآلات البناء، فجمع له قطع الحديد والنحاس، فوضعها بين الجبلين حتى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولًا وعرضًا، ونسج بين طبقات الحديد الحطب والفحم، ووضع عليها المنافخ، ثم أمرهم بالنفخ حتى صار الحديد نازًا من شدة الغليان، ثم أذاب النحاس ثم صبَّه عليه، فاختلط والتصق ببعضه بعض حتى صار جبلًا صلدًا من حديد ونحاس، فهو كالبرد المخطط، طريقة سوداء وطريقة حمراء، فما قدر يأجوج ومأجوج على أن يصعدوا فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله.

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعِزَّنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

لما بنى ذو القرنين السد الذي جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد، قال هذا السد رحمة بالناس فإذا اقترب الوعد الحق كان مساوياً للأرض وصار طريقاً كما كان، وهو كائن لا محالة، وفي الحديث إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كاشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهينته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فبيعت الله عليهم نغماً في أقدانهم فيقتلهم بها، وإن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكرًا من لحومهم ودمائهم.

يوم يدك السد ويخرج هؤلاء يختلط بعضهم ببعض كموج البحر ويفسدون على الناس أموالهم، ويتلفون أشياءهم، وذلك قبل يوم القيامة وبعد الدجال، ونفخ في الصور، والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وهما نفختان إحداهما نفخة الفرع ينفخ فيه فيفزع الناس ويصعقون إلا من شاء الله، والثانية نفخة البعث ينفخ فيه فيبعثون ويقومون من قبورهم، وقيل ثلاث الفزع والصعق والبعث، والنفخ في الصور هنا نفخة البعث فيجمع الله الجميع للحساب، ويؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها فتبرز أمام الكفار، ليرى ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم، فقد كانوا في الحياة الدنيا يتعامون ويتغافلون عن قبول الهدى واتباع الحق، ولا يعقلون عن الله أمره ونهيه، أظن الذين كفروا أن يتخذوا عباد الله أرباباً مثل عيسى والملائكة وكل ما عبد من دون الله فهم عباد الله، فالمعبدون يكونون لهم أعداء ويتبرءون منهم، وليس للمشركين إلا جهنم يوم القيامة منزلاً، فهم الخاسرون في الدنيا والآخرة، فالخسران أن يعمل في الدنيا بأعمال باطلة تذهب هباءً منثوراً، وهم يظنون بأعمالهم أنها خير الأعمال زين لهم سوء أعمالهم، فهم يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون. ، وقد جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام عليها وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، فلا تثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير، وإنما كان جزاؤهم جهنم، لكفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً، استهزؤا بهم، وكذبوهم أشد التكذيب، وأما السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوه فيما جاءوا به فإن لهم جنات الفردوس، وهو ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها.

مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ولا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلاً، ومثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها.

ولو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، لفرغ البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك، ولو جيء بمثل البحر آخر، ثم آخر، بحور تمده ويكتب بها، لما نفذت كلمات الله، والرسول ﷺ رسول من البشر يوحى إليه من ربه ويبلغ ما أرسل به وقد جاء بالتوحيد وإفراء الله بالعبادة، فمن كان يرجو ثواب الله وجزاء الصالح، فليعمل عملاً صالحاً، موافقاً لشرع الله، ويراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركن العمل المقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ.

سُورَةُ مُرَيْسَمٍ

آياتها
٩٨نسخها
١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ②
 إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
 مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
 شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ
 امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
 مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ⑥ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑦ يَزَكَرِيَّا
 إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا
 ⑧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي
 عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑨ قَالَ كَذَلِكَ
 قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
 شَيْئًا ⑩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا
 تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑪ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
 مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑫

سورة مريم

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر قصة مريم وولادتها للمسيح عيسى بن مريم ؑ

ابتدأت السورة بالحروف المقطعة لبيان إعجاز القرآن المكون من هذه الحروف، وفي هذه السورة خبر رحمة الله بعبده زكريا، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وكان نجاراً، يأكل من عمل يديه في النجارة، رحمه ربه لما دعاه دعاء خفياً، ليكون أقرب للإجابة، وكان لا يولد له، وقد كبر سنه ورق عظمه وابيض شعره، وقد تعود إجابة الله لدعائه، وخاف ورثته من بعده أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً، يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، ولم يخش من ورثته على ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله، ولم يكن ذا مال والأنبياء لا يورثون .

فدعا الله أن يهبه ولياً يرثه على ميراث النبوة، ويرث آل يعقوب، فيكون نبياً كما كانت آبؤه أنبياء، لأن زكريا من ذرية يعقوب، وأن يجعله مرضياً عنده وعند خلقه، يحبه الله ويحببه إلى خلقه في دينه وخلقه، فبشره الله ببيحيى لم يكن له شبيه ولم يسم أحد باسمه من قبل، فتعجب زكريا ؑ حين أجيب إلى ما سأل، وبشر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر ويس عظمه ونحل، فأجابه الملك عما استعجب منه، إن إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، أنه خلق من قبل ولم يك شيئاً، فقال زكريا ؑ رب اجعل لي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بها وعدتني قال علامتك، أن يُحس لسنانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة، فكان يقرأ ويسبح، ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة، ثلاث ليال متتابعات، فخرج على قومه من مكان عبادته الذي بشر فيه بالولد، فأشار إليهم إشارة خفية سريعة، أن يسبحوا الله بكرة وعشيّاً موافقة له بما أمر به في هذه الأيام الثلاثة ليكون زيادة على أعماله، وشكراً لله على ما أولاه.

يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝
 وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝
 يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝
 وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝
 وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ
 مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝
 فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا
 فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝
 قَالَتْ إِنِّي
 أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝
 قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ
 رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝
 قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
 غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ۖ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝
 قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۖ وَلَنَجْعَلَنَّ عَآيَةَ لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً
 مِنَّا ۖ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝
 فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ
 بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝
 فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ
 قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ۝
 فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝
 وَهَرَيَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ سَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۝

ولد الغلام المبشر به وهو يحيى ﷺ وعلمه الله الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقد تعلم الكتاب بجد وحرص واجتهاد وآتاه الله الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث السن، وجعله الله ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل، والزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب والعمل الصالح الزكي، ورزقه الله طاعة والديه وبره بهما، ومجانبة عقوقها، قولاً وفعلًا وأمرًا ونهيًا؛ وكتب الله له السلامة في ثلاثة مواطن فأوحش ما يكون الإنسان يوم يولد، فيرى نفسه خارجًا بما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن يعاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، ولما ذكر الله تعالى قصة زكريا ﷺ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولدًا زكياً طاهراً مباركاً، ذكر قصة مريم في إجماده ولدها عيسى ﷺ منها من غير أب، فإن بين القستين مناسبة ومشابهة، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه، وأنه على كل شيء قدير، ومريم هي مريم بنت عمران، من سلالة داود ﷺ وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها، وأنها نذرته تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات المائلة ما بهره، فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى ﷺ، أهد الرسل أولي العزم، اعتزلت أهلها وتحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس، واستترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل ﷺ، فتمثل لها على صورة إنسان تام كامل، فلما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها، فقالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تخاف الله، فخوفته أولاً بالله ﷻ فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً ما حصل عندها من الخوف على نفسها: أنا رسول ربك، بعثني إليك ليهب لك ولدًا صالحًا طاهراً من الذنوب، فتعجبت مريم من هذا وقالت كيف يكون لي غلام، وعلى أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور، فقال لها الملك مجيباً: إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا توجد منك فاحشة، فإنه على كل شيء قدير، وليجعله دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، وليجعل الله هذا الغلام رحمة منه نبيًا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، وهذا قدر مقدر في علم الله تعالى، فاستسلمت لقضاء الله تعالى فنفخ جبريل ﷺ في جيب درعها، فنزلت النخلة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعًا به ولم تدر ماذا تقول للناس؟ فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا، وذلك أن زكريا ﷺ، كان قد سأل الله الولد، فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتقتها، وقالت أشعرت يا مريم أي حبل؟ فقالت لها مريم وهل علمت أيضا أي حبل؟ وذكرت لها شأنها وما كان من خيرها وكانوا بيت إيمان وتصديق، وحملت به كما تحمل النساء بأولادهن؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها، واستشعرت مريم من قومها اتهامها بالرية، ذهبت إلى مكان بعيد عنهم؛ لئلا تراهم ولا يروها، فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة فقالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بعل وكنت شيئاً لا يعرف ولا يذكر، ولا يدري من أنا، وكل شيء نسي وترك فهو نسي، فناداها جبريل ﷺ، قائلاً لا تحزني، قد جعل ربك تحتك نهراً تشربين منه، وخذي إليك بجنع النخلة، وكانت يابسة، يتساقط عليك الرطب الجني الطيب.

فَكُلِّي وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي
 إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾
 فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
 فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
 أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي
 الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
 نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
 وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
 جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
 وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
 الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ
 إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
 فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ
 بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
 وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾

أمر الله مريم بأمر الملك لها أن تأكل من الرطب، وتشرب من ماء النهر وتطيب نفسها بولدها عيسى عليه السلام، فإذا رأت أحدًا من البشر يسألها عن ولدها فتقول إني نذرت للرحمن صومًا عن الكلام فلا أكلم البشر في هذا اليوم واستسلمت لأمر الله ﷻ ولقضاءه، وأخذت ولدها فلما رآوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جدًا، وقالوا يا مريم لقد جئت أمرًا عظيمًا، يا شبيهة هارون في العبادة، أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك، وهارون الذي شبهت به مصلحًا محبًا في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر، ذكر أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفًا، كلهم يسمى هارون، من بني إسرائيل فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متحكمين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم كيف نكلم من هو في مهده في حال صغره، كيف يتكلم؟ فنطق المسيح وأول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه، وقضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى، وجعلني نبيا، وجعلني معلما للخير، وأمرني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا.

وأمرني ببر والدي، ولم يجعلني جبارا مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدي فأشقى بذلك، وكتب الله له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، وفي هذا إثبات منه لعبوديته ﷻ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، وما قصه الله في القرآن من خبر عيسى عليه السلام، هو الحق الذي فيه يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به، تعالى الله وتقدس أن يكون له ولد، وتنزه عما يقول الجاهلون الظالمون المعتدون علوا كبيرا، وإنما إذا أراد شيئا فإنما يأمر به فيصير، والصراط المستقيم هو عبادة الله وحده لا شريك له وهو الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب، وقد اختلف الناس في عيسى عليه السلام بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فقال جمهور اليهود، أنه ولد زانية، وقالت طائفة أخرى هو الله، وقال آخرون هو ابن الله، وقال آخرون ثالث ثلاثة، وقال آخرون بل هو عبد الله ورسوله وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين، فويل لمن كذب على الله واقتري، وزعم أن له ولدا، وموعدهم يوم القيامة، فهم في يوم القيامة يسمعون ويبصرون ويدركون الحق ولكن حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئا، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعا لهم ومنقذا من عذاب الله، لكن الظالمون في الدنيا لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَا سْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْزَلِكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾

يوم القيامة يوم يتحسّر فيه المسيء إذ لم يُحسّن، والمقصر إذ لم يزدّد من الخير، ذلك اليوم الذي أُنذر الله عباده وأمرهم بالاستعداد له، ولكن أهل الدنيا غافلون عما يراد بهم، فإذا ذبح الموت وقعت الحسرة، وإذا حكم عليهم بالعذاب وأطبقت عليهم النار.

وهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، والخلق كلهم يهلكون ويبقى الله ذو الجلال والإكرام، تعالى وتقدس ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء و خليل الرحمن هو القدوة في التوحيد، بره بأبيه لم يمنعه عن دعوته إلى التوحيد بأدب، فأخذ يخاطبه بالأبوة والحنان والرفق واللين، فنهاه عن عبادة الأصنام، وعن عبادة ما لا ينفعه ولا يدفع عنه الضرر، وبين له أن الله أعطاه العلم والنبوة، وجاء بدعوة التوحيد ونبذ الشرك فطلب من أبيه أن يتبعه إلى الطريق المستقيم الموصل إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب، ولا يطع الشيطان في عبادة الأصنام، فالشيطان مخالف لأمر ربه مستكبر عن طاعته، فطرده وأبعده، فإن من سلك طريق الشرك عذبه الله وأخزاه، فلا يكون له مولى ولا ناصر ولا مغيث إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء.

وبعد هذا الحوار والدعوة اللطيفة جاء الجواب العنيف من الأب يا إبراهيم إن كنت لا تريد عبادة الأصنام ولا ترضاها، فانت عن سبها وشتمها وعبئها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، واتركني وأنت سوي سالم، قبل أن تصيبك مني عقوبة، فقال إبراهيم لأبيه أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحمة الأبوة، ولكن سأسال الله تعالى أن يهديك ويغفر ذنبك، فإن الله لطيف بي، هداني لعبادته والإخلاص له، وأجتنبكم وأتبرأ منكم ومن أهنتكم التي تعبدونها من دون الله، وأعبد ربي وحده لا شريك له، فإن من دعا ربه استجاب له ولم يكن بالدعاء إلا سعيداً، ولما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ووهب لإسحاق يعقوب، وكلهم أنبياء، فجعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، فجعل الله الثناء الحسن لذريته إلى قيام الساعة، ومن ذرية إبراهيم موسى بن عمران عليه السلام الكليم عليه السلام، فقد كان مخلص العبادة لله وحده لا شريك له، والمخلص لله، الذي يعمل لله، لا يحب أن يحمده الناس، وكان رسولاً نبياً فهو من أولي العزم الخمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝٥٣ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝٥٥ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ۝٦١ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَا ۝٦٢ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤



شرف الله موسى ﷺ بتكليمه، فهو كلم الله الرحمن، فقد ناداه ربه عند جبل الطور لما كان في طريقه من مدين إلى مصر، فكلمه ربه، وأسمعه كلامه، وأجاب سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعله الله نبياً معه.

وإسماعيل بن إبراهيم الخليل ﷺ، وهو والد نبينا محمد ﷺ، كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً، لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، وما التزم قط عبادة بنذر إلا قام بها، ووفاهما حقها، فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن إخالف الوعد من الصفات الذميمة ومن صفات المنافقين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفي له به، وكان رسولاً نبياً وهذا يدل على شرف إسماعيل لوصفه بالرسالة والنبوة ومن الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلقة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه أمراً بها لأهله، يأمرهم بالصلاة والزكاة والأعمال الصالحات وكان عند الله رضيعاً زاكياً صالحاً، وإدريس ﷺ كان صديقاً نبياً، ورفع الله مكاناً علياً، وهو في السماء الرابعة، وكان خياطاً، فكان لا يغرز إبرة إلا قال سبحان الله، فكان يسمي حين يسمي وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه، وهؤلاء الأنبياء أنعم الله عليهم بالنبوة والرسالة وشرفهم بالعبودية، والذي من ذرية آدم إدريس، والذي من ذرية من حمل الله مع نوح إبراهيم، والذي من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي من ذرية إسرائيل موسى، وهارون، وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، وهم إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربه خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، ويكون من خشية ربه، فيشرع للمسلم الاقتداء بهم، وخلف بعد النبيين المذكورين خلف وهم قوم سوء من اليهود والنصارى وعصاة هذه الأمة أضاعوا الصلاة، وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد وأقبلوا على شهوات الدنيا وملأوها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون خسارة يوم القيامة، إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عقابته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ لأن التوبة تجب ما قبلها، والثابت من الذنب كمن لا ذنب له، يدخلون الجنات يقيمون فيها وهي وعد الرحمن عباده، وهي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيمانهم وقوة إيمانهم، ووعد الله كائن لا محالة؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، لا يسمعون فيها كلاماً ساقطاً تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا، وإنما يسمعون السلام والتحية، وليس في الجنة ليل يعرف به البكرة والعشي بل هم في نور أبداً ولكنهم يأتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار.

ويعرفون وقت النهار برفع الحجب ووقت الليل بإرخاء الحجب، وهو يدل على رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضيق، وتلك الجنة التي وصفت هذه الصفات العظيمة يعطيها الله عباده المتقين، المطيعون له في السراء والضراء، والملائكة عباد الله المكرمون لا ينزلون إلى الأرض إلا بأمر الله، يعلم ما بين أيديهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب، وما خلفهم مما مضى من الدنيا، وما يكون إلى قيام الساعة، وما كان الله لينسى عباده، ولا يجوز على الله النسيان، لا يضل ربي ولا ينسى.

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ
أُخْرِجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ
لَنَحْضُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ
هُمُ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ
كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا
وَأَضَعُفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى
وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

الله رب السماوات والأرض وما بينهما خالق ذلك ومديره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، فيجب إفراده بالعبادة وحده لا شريك له، فهل له شبيه ومثيل خالق قادر؟ ومن كفر المشركين تعجبهم من البعث واستبعاد إعادتهم بعد موتهم، أو لم يعلموا أن الله خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، وأقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ثم يجمعون في جهنم قعوداً ثم يؤخذ من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، فيؤخذ أعظمهم لله معصية، فيبدأ بتعذيب الأعتى فالأعتى، وبالأكابر جرماً، والرؤوس القادة في الشر، والله أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب.

ويرد الناس جميعاً الصراط، وقد نصب على النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مروراً رجل نوره على موضعي إبهامي قدميه، يمر يتكفأ به الصراط، والصراط دحض مزلة، عليه حسك كحسك القتاد، حافته ملائكة، معهم كلاب من نار، يختطفون بها الناس، فتناج مخدوش ومطروح في نار جهنم بعضهم فوق بعض، فينجي الله المؤمنين ويسقط الكفار والمشركين في النار.

والكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان يصدون عن ذلك، ويعرضون ويفتخرون على الذين آمنوا بأنهم ومجتمعاتهم أكثر رجالاً وأحسن حالاً، ويقولون كيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مخنفون مستترون على الحق، وما علموا أن الله أهلك المكذبين بكفرهم، وهم أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً، وأمر النبي ﷺ أن يقول هؤلاء المشركين برهم المدعين أنهم على الحق وأن المؤمنين على الباطل: إن من كان في الضلالة منا ومنكم، فأمهله الرحمن فيها هو فيه حتى يلقي ربه وينقضي أجله فإما العذاب بصييه، وإما الساعة بغتة تأتيه، ويوم القيامة يعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً، فهم في الدنيا افتخروا بخيرية المقام وحسن المجتمع والمجلس.

ولما ذكر الله تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، والأعمال الصالحات هي التي تبقى لصاحبها وهي خير عند الله جزاء، وخير عاقبة ومرداً على صاحبها.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا
 ﴿٧٧﴾ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا
 سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِيثُهُ
 مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
 لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
 عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ
 تَوْرِهِمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾
 يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ
 إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ
 الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ
 جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ
 وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا
 ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ
 وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

كان رجال من أصحاب رسول الله ﷺ يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: أليست تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً، ومن كل الثمرات، قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مائلاً وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به، فهل هو مطلع على الغيب؟ أو آمن وشهد شهادة الحق فنفعه إيمانه؟ وكل ذلك ليس إليه وليس من أهله، وإنما أعماله تحصى عليه وتكتب لتكون شاهدة عليه أنه من أهل النار، فيزداد عذاباً ضعفاً في النار، وأما ما له في الدنيا فيسلب منه ولا يأت ربه إلا فرداً ليس معه شيء، فهم اتخذوا من دون الله آلهة، لتكون تلك الآلهة عزاً يعتزون بها ويستصرونها، ويوم القيامة تكون تلك المعبودات أعداء لهم، وتكون ضدهم ويتبرؤن منهم ومن عبادتهم، فالشياطين تغويهم وتحرضهم على الشرك والكفر بالله، وتغريهم إغراء بالمعاصي، وتطفئهم طغياناً، وإنما يؤخر الله عذابهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله.

وأولياء الله المتقون، الذين خافوه في الدار الدنيا واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم يحشرون يوم القيامة وفداً إلى الله على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار، عطاشاً، ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها، وقال الذين كفروا من اليهود والنصارى: اتخذ الرحمن ولداً، ومن زعم من المشركين أن الملائكة بنات الله فقد جاءوا بقولهم شيئاً عظيماً من الكفر تكاد السماوات يتشققن خوفاً من عظمة الله، وتشق الأرض وتخر الجبال هداً عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفاء له، بل هو الأحد الصمد، فالشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الفرية على الله ولعظمة الشرك مع الله.

فإنه لا يصلح له الولد، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفاء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ وقد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم، وكلهم يوم القيامة يأتي ربه فرداً لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم بما خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم ربك أحداً.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

سُورَةُ طٰهٍ
آياتها ٣٥
نسخها ٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾
الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرِ بِالْقَوْلِ
فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ بِمُوسَى ﴿١١﴾
إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

يغرس الله لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات في قلوب عباده الصالحين مودة، فإن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال يا جبريل: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلانًا، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، فيحبه الناس في الدنيا، يحبهم الله ويحبهم إلى خلقه المؤمنين. وقد يسر الله القرآن فجعله بشرى للمؤمنين ونذيرًا للكافرين الذي حادوا عن الصراط المستقيم، وصموا عن سماع الهدى، وكم أهلك الله من أمة كفرت بآيات الله وكذبت رسله، فهم اليوم لا يرى منهم أحد، أو يُسمع لهم صوت.

سورة طه

هي سورة مكية سميت بذلك لافتتاحها بهذه الحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن

افتتحت هذه السورة هذه الحروف لتدل على إعجاز القرآن المكون من هذه الحروف التي يتكلم بها العرب وعجزوا عن الإتيان بمثله، والصحيح أن طه ليس من أسماء النبي ﷺ إنما هما حرفان الطاء والهاء، وأنزل الله هذا القرآن هداية للبرية ورحمة لها، ولم يجعله الله شقاء، ولكن جعله رحمة ونورًا، ودليلاً إلى الجنة، وقد لمزت قريش النبي ﷺ بالشقاء لما نزل عليه القرآن في دعوته وعبادته، ولم يعلموا أن القرآن يشقى به الذين لا يؤمنون، أما أهل الإيمان والخشية فهو تذكرة لهم وعبرة وهداية، وهو تنزيل من رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلا في ارتفاعها ولطافتها، وهو على العرش استوى استواء يليق بجلاله وعظمته، والجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره، يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وسع ملكه كل شيء، ووسع علمه كل شيء حتى ما تحت الأرض السابعة، يعلم ما أسر ابن آدم في نفسه، وما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علمه واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، هو الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى البالغة في الحسن التي لا يعلم عددها إلا الله، المتضمنة لصفات علًا، على ما يليق بجلال الله وعظمته، وقد أرسل الله رسله ﷺ لأمر العباد بالتوحيد وتحذيرهم من الشرك ومنهم موسى عليه السلام، فقد كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله قاصدًا بلاد مصر بعدما طال الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليوري نارًا، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئًا، ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك، ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبرهم إني آنست نارًا لعل آتيكم منها بشهاب لعلكم تصطلون أو أجد على النار من يهديني الطريق، فلما اقترب من النار نودي يا موسى إني أنا ربك يكلمك ويخاطبك، فاخلع نعليك، وأمره بخلع نعليه تعظيمًا للبقعة ليلاً الأرض المقدسة بقدميه حافيًا غير متمتع فهو في الوادي المقدس المطهر واسم الوادي طوى.

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ
عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا
وَأَهْشَىٰ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا
يَمْوَسَّىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ
مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ
رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِن
لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰزُونَ
أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَىٰ ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نَسِيحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَّىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾

اختار الله موسى ﷺ واصطفاه على جميع الناس من الموجودين في زمانه برسالته وبكلامه، وأوحى الله تعالى إليه وأمره بالاستماع إليه فقال إني أنا الله لا إله إلا أنا، وهذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فأمره بتوحيده والقيام بعبادته لا شريك له، وإقامة الصلاة وفيها ذكر الله، وإذا نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فالساعة قائمة لا محالة، وكائنه لا بد منها، ولا يطلع عليها أحدٌ غير الله، وقيام الساعة ليجزى العباد بها عملوا إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا، فلا يغر المسلم من صد عن الساعة وكذب بها، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولا، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر وهلك وأعطى الله موسى ﷺ معجزة عظيمة، لا يقدر عليها إلا الله ﷻ، ولا يأتي بها إلا نبي مرسل، وهي العصا التي كان موسى ﷺ يعتمد عليها في حال المشي ويهز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمه، وله فيها مصالح ومنافع وحاجات، فأمره الله بإلقائها فصارت في الحال حية عظيمة، ثعبانًا طويلًا يتحرك حركة سريعة، وإذا هي تهمز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، وهي في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، تمشي وتضطرب، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، فولى مدبرًا، فنودي أن يا موسى، خذها، فلم يأخذها، ثم نودي الثانية أن خذها ولا تخف، فقتل له في الثالثة إنك من الأمنين فوضع يده على فم الحية، حتى سمع حس الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدا، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبين؛ فأعادها الله إلى حالها التي تعرف قبل ذلك، وأمره الله أن يدخل يده في جيبه تخرج بيضاء من غير برص ولا أذى، ومن غير شين، بيضاء تتلألأ كأنها فلقة قمر، وأمره الله أن يذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرج فارًا منه وهاربا، فيدعوه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمره أن يحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبنى، وأثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى، فسأل موسى ﷺ ربه ﷻ أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأشدهم كفرًا وجبروتًا، وأكثرهم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلغهم غررًا، وقد مكث موسى في داره مدة وليدًا عندهم، في حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفسًا فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه ﷻ إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له، ودعا بأن ييسر الله أمره فإن لم يكن له من الله عون ونصير فلا طاقة له بذلك، وشكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه، وسأل موسى ﷺ مساعدة أخيه هارون له، فنبى هارون ساعته حين نبى موسى ﷺ سأل ربه نبوة هارون ليشد ظهره وليشاورة في أموره وليقوموا بتبليغ الدعوة، وعبادة الله بالذكر والتسبيح والشكر، وهو سبحانه البصير بهم العليم بأحوالهم فقد اصطفاهم، وأعطاهم النبوة، وبعثهم إلى عدوه فرعون، فله الحمد على إجابة دعوة موسى ﷺ، ومنن الله على موسى لا تنقطع منذ ولادته إلى وفاته.

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ
 فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ
 عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
 فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
 عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَّتِ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتِنَّا فُتُونًا
 فَلَمِثْتَ سِنَّينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ ﴿٤٠﴾
 وَأَصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُنْيَا
 فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا
 لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا
 أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
 ﴿٤٦﴾ فَأَنِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
 وَلَا تَعْذِِبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ
 الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
 وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوَسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

من كرامة الله لنبيه وكليمه موسى ﷺ أن موسى ولد في السنة التي يقتل فيها الغلمان، فألهم الله أم موسى أن تجعله في التابوت، وتقذفه في نهر النيل، حتى يلقيه النهر بالساحل فيأخذه فرعون، فاتخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً ووضعته فيه موسى، ثم ألقته في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ بتابوت يجيء به الماء، فأمر الغلمان والحواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتألك نفسه، فأخذه ليربى بمرأى من الله، فلما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع، فأبأها، فجاءت أخته وقالت هل أدلكم على من ترضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فانها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أغنم وأجزل، فرجعه الله إلى أمه كي تفر عينها ولا تحزن عليه، ولما كبر موسى ﷺ قتل القبطي، فنجاه الله من الغم بسبب عزم آل فرعون على قتله ففر منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح لا تخف نجوت من القوم الظالمين، وقد خلصه الله من الفتن تخليصاً، فمنها ما دخل عليه في بطن أمه، مما وقع في قلبها من الهم والحزن عليه والخوف على قتله، ثم إلقاءه في البحر، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم قتله القبطي، ثم خروجه إلى مدين خائفاً، ولبت في مدين وتزوج، وجاء بعد ذلك لقدّر الله له بالرسالة والنبوة واصطفاه واجتبه، فأمره الله وأخوه بالقيام بالنبوة والرسالة وما يدل عليها من الحجج والبراهين والمعجزات، وأمرهما ألا يفتران عن ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له، فيذهبا إلى فرعون لأنه تمرد على الله وعصاه، ويقول لا له قولاً ليناً رقيقاً رقيقاً، لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، وفي ذلك عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملطفة واللين، وهذا سبيل الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة، فقال موسى وهارون عليهما السلام: إنا نخاف أن يعجل بعقوبة، أو يعتدي علينا، فقال الله تعالى لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى علي من أمركم شيء، واعلم أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبسط إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأيدي، فجاء إليه وقالوا إنا رسول ربك، فخل عن بني إسرائيل وأطلقهم من أعبالك، لا تعيهم في العمل، وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة، قد جئناك بدلالة ومعجزة من ربك، قال فرعون وما هي؟ فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس، وقد كتب الله السلامة من عذابه لمن أسلم، وقد أخبرنا الله فيها أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، فقال فرعون من الذي بعثك وأرسلك فإني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيري، قال موسى ﷺ: ربنا الذي أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهياً كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح، وهو الذي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، قال فرعون فما بال القرون الأولى؟ لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره.

قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا
 وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا
 خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
 أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنا
 مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ
 فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا
 سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى
 ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
 مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ
 وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا
 النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِن هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم
 مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا
 كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾

الأمم السابقة المكذبة التي جحدت الرسالات وكذبت الرسل أعماهم عند الله مكتوبة عليهم، وسيجزئهم الله بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، فعلم الله تعالى محيط بكل شيء، لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتره عدم الإحاطة بالشيء، ونسيانه بعد علمه، فينزه الله عن ذلك، فهو سبحانه هو الذي جعل الأرض قراراً يستقر الناس عليها ويقومون وينامون عليها ويسافرون على ظهرها، وجعل لهم طرقاً يمشون في مناكبها، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من ألوان النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو، وسائر الأنواع، شيء لطعام الإنسان وفاقته، وشيء للحيوان لأقواتها خضراً وبأساً، ففي ذلك دلائل وحجج وبراهين لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه، ومن هذه الأرض مبدأ الإنسان، فإن آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، وإليها يصير الناس إذا ماتوا، ومنها يخرجهم الله تارة أخرى، وقد رأى فرعون الآيات فقامت عليه الحجج وعاین ذلك وأبصره، فكذب بها وأبأها كفرًا وعنادًا وبغيًا، وقال هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثرتنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحرًا مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه فاجعل بيننا وبينك يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بها عندك من السحر في مكان معين، عدل بيننا وبينك، ووقت معين فعند ذلك قال لهم موسى ﷺ موعدهم يوم النوروز يوم عيدهم يوم تفرغهم من أعمالهم واجتماعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر للمعجزات النبوية، ويجمع الناس ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجل وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح بين، ليس فيه خفاء ولا ترويح، وشرع فرعون في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً، ثم اجتمع الناس ليلقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمناً ويسرة وأقبل موسى ﷺ يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، وموسى ﷺ يقول لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتهم على الله، فيهلككم هلاكًا لا بقية له، وتشاجروا فيما بينهم فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنها هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر ثم تناجوا فيما بينهم، فقالوا إن هذا الرجل وأخاه ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباك وقومك ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فيتنصرا عليه ويخرجاك من أرضك، ويستبدا بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، فقالوا إذا غلب هذان أهلناكم وأخرجاك من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لها الرياسة بها دونكم، ويصرفا وجوه الناس إليهما، فاجتمعوا كلكم صفًا واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، وقد أفلح اليوم من كانت له الغلبة منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ۖ قَالَ
 بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى
 ٦٦ ۖ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۖ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
 أَنْتَ الْأَعْلَى ۖ ٦٨ ۖ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا
 كَيْدٌ سَحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ۖ ٦٩ ۖ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا
 قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۖ ٧٠ ۖ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ
 لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
 وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ
 أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۖ ٧١ ۖ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ
 الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ ٧٢ ۖ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا
 عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ ٧٣ ۖ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا
 فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۖ ٧٤ ۖ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
 عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۖ ٧٥ ۖ جَنَّاتُ عَدْنٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ۖ ٧٦

اتفق السحرة مع موسى ﷺ من تكون البداية له فقال ألقوا أنتم أولاً ليرى ماذا يصنعون من السحر، وليظهر للناس جليلة أمرهم، فإذا جبالهم وعصيمهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، بأن جعلوا فيها الزئبق تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناس أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًّا غفيرًا وجمًّا كبيرًا فألقى كل منهم عصًا وحبلًا حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضًا، فخاف موسى ﷺ على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ويغترون بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ألق عصاك، فإذا هي تنين عظيم هائل ذو عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلففته وابتلعت، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جهرًا، نهارًا ضحوة، فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والخيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجدًا لله وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، فكانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة، وحين رأى فرعون ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلبة شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهدهدهم وأوعدهم وقال صدقتموه وما أمرتكم بذلك، وقال إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي، لتظهوره، ثم أخذ يتهددهم لأجعلنكم مثلة ولأقتلنكم ولأشهرن بكم، وأنتم الذين تقولون إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله ﷻ، وقالوا لن نخترك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، ولا نخترك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، وإنا لك تسلط في هذه الدار، وهي دار الزوال ونحن قد رغينا في دار القرار، إنا آمنا برينا ليغفر لنا ما كان منا من الآثام، وما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه، والله خير لنا منك وأدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا به، فإن من يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، فله الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمات، والمساكن الطيبات، يقيمون فيها تجري من تحتها الأنهار ماكنين أبدًا، وذلك جزاء من طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جاءوا به.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا
 فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
 بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ
 وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ
 جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾ كُلُوا
 مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي
 وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ
 وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ
 قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَاجِلْتُ إِلَيْكَ
 رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
 السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ
 يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ
 الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ
 مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا
 أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾



أمر الله موسى ﷺ حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، فلما خرج موسى ﷺ ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا دافع ولا حبيب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل من يجمعون له الجند من بلدانه، ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم فأتبعوهم عند طلوع الشمس، فلما نظر كل من الفريقين إلى الآخر قال أصحاب موسى إنا لمدركون لأن البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فأوحى الله إلى موسى ﷺ أن اضرب لهم طريقاً في البحر يبساً فضرب البحر بعصاه، وقال: انفلق بإذن الله فانفلق، وأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض؛ فكان لهم طريقاً في البحر يبساً لا يخافون دركاً من فرعون، ولا يخشون من البحر أن يغرقهم، فتقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، وتلك نعمة الله على بني إسرائيل نجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، وقد واعد الله موسى ﷺ وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك، وفي أثناء ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، وأنعم عليهم بالمن والسلوى، والمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط عليهم، فيأخذون قدر الحاجة منه إلى الغد، لطفاً من الله ورحمة بهم، وإحساناً إليهم؛ وأمرهم الله بالأكل من الطيبات واجتناب الطغيان والعصيان فهو سبحانه يغفر الذنوب لكل تائب صدق في توبته واتبعها بعمل صالح، وسارع موسى ﷺ بمبادرًا إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون؛ ليطلب رضا ربه، واختار من قومه سبعين رجلاً ليذهبوا معه إلى الطور، ليأخذوا التوراة، فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم ليرضى الله عنه بمسارعته إلى امتثال أمره، وخلف السبعين، وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل، وأخبر الله تعالى نبيه موسى ﷺ بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم السامري، وكانوا ستائة ألف، فافتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفاً، فرجع موسى ﷺ إلى قومه وهو في غاية الغضب والحنق على قومه، والحزن على ما صنع قومه من بعده، فبش الخليفة هم لنبيهم الذي وعدهم بوعدهم الله لهم من كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة، فطال عليهم انتظار ما وعدهم الله به، أو نسوا ما سلف لهم من النعم، فعملوا عملاً يغضب الله تعالى فاعتذروا لموسى أنهم لم يخلفوا مواعده بقدرتهم واختيارهم، وقد كان بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً من القبط، وكان ذلك معهم حين خرجوا من مصر، وهم قد أخذوها على وجه العارية فلم يردوها، وأمرهم هارون ﷺ باللقاء الحلي الذي معهم في حفرة فيها نار، لكي يجمع الحلي كله في تلك الحفرة ويحجل حجراً واحداً، حتى إذا رجع موسى يرى فيه ما يشاء، فمر السامري فقال له هارون ﷺ: يا سامري: ألا تلقي ما في يدك، وهو قابض عليه، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد، وهو لا يعلم ما يريد فألقاها، ودعا له هارون، فقال أريد أن يكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف، ليس فيه روح، وله خوار، وكان ذلك، استدراجاً وإمهالاً ومحنة واختباراً لبني إسرائيل.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ
وَالِلَّهِ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ
يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ
﴿٩١﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَأْمَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَ
أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِذِخْرِي وَلَا يُرَاسِي
إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ
إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

أخرج السامري لبني إسرائيل العجل ودعاهم لعبادته وقال هذا آلهكم وآله موسى ولكن موسى نسي أن يعلمكم به، ولم يفكروا بعقولهم في حقيقة العجل وأنه لا يتكلم ولا يرد عليهم ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، فكان ذلك فتنة ابتلى الله بها بني إسرائيل، وقد حذرهم هارون عليه السلام من عبادة العجل قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم، وقال يا قوم إنما ابتليتم بالعجل، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني على ديني في عبادة الله، وأطيعوا أمري في ترك عبادة العجل، ولكنهم أصروا على عبادته وقالوا لا نزال مقيمين على عبادته حتى يرجع إلينا موسى، ولا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى عليه السلام، ورأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، امتلاً عند ذلك غيظاً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، ولام هارون وقال ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم، فتكون مفارقتك إياهم زجراً لهم عما أتوه، وقد أمرتك بالإصلاح فيهم والرفق بهم، فقال هارون عليه السلام لموسى عليه السلام معتذراً له ومتودداً له بذكر أمهم أرق وأبلغ في الخنو والعطف عليه؛ وأخبره أن سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم أنه خشي إذا فارقه أن يصيروا أحزاباً يتقاتلون، وفي ذلك تضييع لوصية موسى عليه السلام لهارون حيث قال له اخلفني في قومي، وأرفق بهم، ثم قال موسى عليه السلام للسامري ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ وكان السامري رجلاً من أهل قرية اسمها سامرا، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه موسى بن ظفر، فقال السامري لموسى عليه السلام رأيت جبريل حين جاء هلاك فرعون، فقبضت قبضة من أثر فرسه من تحت حافر فرس جبريل وكان السامري حين رأى جبريل ألقى في روعه أنه إن أخذ من أثر هذا الفرس قبضة ثم ألقاها في شيء، فقال له كن فإنه سيكون فقبض قبضة من أثر الرسول، فبيست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري إنما أصابكم من أجل هذا الخلي فاجمعوه فجمعوه، فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامري فألقى في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت كن فإنه سيكون، فألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فصار عجلاً جسداً له خوار لدخول الريح فيه، فقال لبني إسرائيل هذا إلهكم وإله موسى، وكل ذلك كان ابتلاء لبني إسرائيل وامتحاناً وتزييناً من الشيطان حيث زين للسامري هذا العمل وزين له نفسه الأمانة بالسوء، فقال له موسى عليه السلام: اذهب فإن لك في الحياة ألا تخالط أحداً، ولا يخاطبك أحد، وأمر موسى بني إسرائيل ألا يخاطبوه، ولا يقربوه، فصار السامري يهيم في البرية مع الوحوش والسباع، لا يمس أحداً ولا يمس أحد، عاقبه الله بذلك، وكان إذا لقي أحداً يقول لا مساس، لا تقربني ولا تمسني، وله في القيامة عذاب شديد، وأمر موسى عليه السلام بحرق العجل وإتلافه، وذر رماده في البحر، ليكون عبرة وعظة، وفي ذلك دليل على تحطيم الأصنام وإتلافها كما هدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصنام المشركين وأمر بهدمها وإحراقها؛ لأنها من مظاهر الشرك والوثنية، ثم أمر موسى عليه السلام قومه بالتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له والبعد عن وسائل الشرك ومظاهر الوثنية، وهو سبحانه الذي وسع كل شيء علماً.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا
 ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا
 ﴿١٠٠﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُفْعَلُ
 فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَفَتُونَ
 بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
 أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ
 فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
 لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلٌ وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ
 لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا
 ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ
 قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ
 عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ
 حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
 يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
 وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

قص الله تعالى في كتابه على نبيه محمد ﷺ خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده، وقص عليه الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، فكان هذا القرآن العظيم تذكيرًا للمؤمنين، وأما من كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى في غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم؛ فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة خالدًا فيها لا يحيد له عنها ولا انفكاك وبئس الحمل حملهم يوم القيامة، يحملون الكفر والتكذيب.

يوم ينفخ إسرافيل في الصور بأمر الله وهو قرن عظيم، ويحشر المجرمين زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال يتسارون بينهم، يقول بعضهم لبعضهم لقد كان لبكم في الدنيا عشرة أيام، والله أعلم بهم في حال تواجهم، إذ يقول العاقل الكامل فيهم، إن لبثتم إلا يومًا، لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليتها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وغرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم، لقصر المدة.

في هذا اليوم العظيم ينسف الله الجبال فتقتلع من أماكنها، فتكون هباء منثورًا وتكون الأرض مستوية لا ترى فيها واديًا ولا رابية، ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا، ويحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي منادي فيتبع الناس الصوت، فيستجيون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بادرُوا إليه، لا يميلون عنه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، وسكنت الأصوات فلا يسمع إلا وطء الأقدام في سعي الناس إلى المحشر، في سكون وخضوع. في هذا اليوم لا تنفع الشفاعة عند الله إلا من أذن له الرحمن ورضي عنه وهو سبحانه العالم بالخالق، فهو يعلم بمن يستحق أن يُشفع، وبمن يستحق أن يُشفع له، والعباد لا يحيطون به علمًا.

في ذلك اليوم تخضع الوجوه وتذل وتستسلم للحي الذي لا يموت، وللقيوم الذي لا ينام، هو قيم على كل شيء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به. وقد خسر من جاء مشركًا يوم القيامة، فالشرك أعظم الظلم، ومن جاء ظالمًا للخلق فإن الله يؤدي لكل ذي حق حقه، حتى يقتصر للشاة الجاهل من الشاة القرناء، وأما المتقون المؤمنون فهم لا يظلمون ولا يهضمون، فلا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، وقد أنزل الله القرآن بشيرًا ونذيرًا، بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه، فيه آيات الوعيد للعباد ليركوا المآثم والمحارم والفواحش، وفيه آيات الوعد التي تحث على فعل الطاعة وعمل القربات.

فَفَعَلَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا
إِلَىٰ عَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَكِ كَعِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ
﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَّعَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ
مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ
الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ عَادَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا
جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى
فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

أرسل الله رسله وأنزل كتبه لتكون حجة على الخلق، وتنزه الله وتقدس الملك الحق، ووعدته حق، ووعدته حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق، ومن عدله تعالى ألا يعذب أحدًا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، وقد حفظ الله كتابه العزيز وتكفل بحفظه، وكان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادر فيقرأ معه، قبل أن يفرغ جبريل مما يريد من التلاوة، مخافة الانفلات والنسيان، فنهاه الله عن ذلك، قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ، فإن الله تكفل بجمعه في صدر النبي ﷺ، وأن يقرأه على الناس من غير أن ينسى منه شيئًا، وأمر الله نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام بالازدياد من العلم، والعلم هو علم الشريعة، ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه الله ﷻ، وفي ذلك شرف علم الشريعة وعلوه على جميع العلوم، فبه تحفظ الحدود ويوفى بالعهود، فإن الجهل سبب لعصيان الله ونقض العهود، فإن من طبيعة الإنسان الاستجابة لوساوس الشيطان، كما استجاب ولان أبو البشر آدم ﷺ، فقد أمره الله ووصاه ألا يأكل من الشجرة، فترك وصية ربه وأطاع الشيطان بوساوسه ولم يجد له صبرًا عما نهي عنه، وقد شرف الله آدم وكرمه، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وأسجد له ملائكته إظهارًا لفضله، فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس امتنع واستكبر، فأمر الله آدم وزوجه حواء ﷺ بالتخاذ الشيطان عدوًا، وحذرهما أن يسعى في إخراجهما من الجنة، فيجدون بعد خروجهما التعب والمشقة في طلب الرزق، فإن في الجنة عيش رغيد وهنيء، لا كلفة ولا مشقة، لا جوع ولا عري، وقرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، ولا يجدون العطش ولا حر الشمس، فالظمأ حر الباطن، وهو العطش، والضحى حر الظاهر، فوسوس إليهما الشيطان وأغراهما بشجرة الخلد وأن من أكل منها خلد في الجنة، وأقسم لهما أنه من الناصحين، فأكل آدم وحواء ﷺ من الشجرة التي نهاهما ربهما عن أكلها، طمعًا في الخلود، فظهر لهما أثر المعصية، وقد ستر الله عوراتهما وكانا لا يريان عورة أنفسهما، ولا يراها أحدهما من الآخر، وكان عليهما نور يمنع من رؤيتهما وسمي الفرج سوءة، لأن ظهوره يسوء صاحبه، وأراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما كان مستورًا عنهما من عوراتهما، فجعلنا يلصقان عليهما من ورق التين، وعصى آدم ربه بالأكل من الشجرة وضلّ عن الصواب وعن مطلوبه، وهو الخلود بأكل تلك الشجرة، ثم اصطفاه الله وقرّبه وتاب عليه وجعله نبيًا، وكانت المعصية من آدم قبل النبوة، وقال الله تعالى لآدم وحواء وإبليس، انزلوا من الجنة كلكم إلى الأرض، فأدم وذريته، وإبليس وذريته، أعداء لبعض، وأرسل الله لهم الأنبياء والرسل وأنزل الكتب هدايتهم، فمن تبع تلك الهداية لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ومن خالف أمر الله، وما أنزله على رسله، فأعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداة فإن الله يجعل عيشته في الدنيا ضيقة، لا طمأنينة فيها، ولا انشراح صدر، بل صدره في ضيق لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحريرة وشك، ويوم القيامة يحشر ويبعث إلى النار أعمى البصر والبصيرة فيتساءل ذلك المعرض لم يبعث أعمى وقد كان يبصر في الدنيا، فيجواب أنه لما أعرض عن آيات الله، وتناسى وتغافل عنها، فهو اليوم ينسى، فإن الجزء من جنس العمل.

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتُنَا فَنَسِينَهَا ۖ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ۖ وَكَذَلِكَ
 نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
 وَأَبْقَى ۖ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
 فِي مَسْكِنِهِمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۖ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ
 مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
 وَمِنْ أَنَايِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۖ ﴿١٣٠﴾ وَلَا
 تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ ۖ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ
 وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ
 ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي
 الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۖ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ
 لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۖ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا ۚ
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۖ ﴿١٣٥﴾

من نسي حدود الله وأوامره، وأعرض عن هدى الله، فهو في القيامة ينسى فيجازى بمثل عمله، فكما تعامى وتغافل عن الهداية، يترك في العمى والعذاب في النار، وهذا الجزاء لكل من أشرك بالله وكذب بآيات الله وعذاب الآخرة أقطع من المعيشة الضنك في الدنيا، وهو أدم وأثبت لا ينقطع.

فكل من كذب الرسل ألم يتبين له خبر القرون الأولى من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا ليس لهم بقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها، يمشون فيها ويتقلبون في ديارهم ففي ذلك آيات لذوي العقول التي تنهى أربابها عن القبيح.

ولولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة.

ومن الزاد الإلهي للداعية إلى الله ما أمر به النبي ﷺ من الاستعانة بالصبر والصلاة المفروضة ونوافل الصلاة وقيام الليل، وذلك رصيد الآخرة وسبب لرضوان الله على العبد ورضا العبد بثواب الله الذي لا ينقطع، وهو ما يطلبه المؤمن في هذه الحياة، وأما ما يعيشه المترفون في هذه الحياة من النعم فإنها هو زهرة زائلة، والمؤمن الحق من يعيش للآخرة ويربي أهله على ذلك فيأمرهم بالصلاة ويصبر على ذلك، فحينئذ تأتبه الدنيا ويرزقه الله من حيث لا يحتسب، وله حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة لمن اتقى الله.

ومن كتب الله ضلاله فلا تنفعه آية ولا معجزة، فقد طلب الكفار من النبي ﷺ علامة تدل على صدقه في أنه رسول الله، وقد أنزل الله عليه القرآن العظيم وهو أُمِّي، لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ ولو أهلك الله هؤلاء المكذبون قبل أن يرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وينزل عليهم هذا الكتاب العظيم لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا قبل أن تهلكنا، حتى نؤمن به ونتبعه، فهم متعنون معاندون لا يؤمنون، فليتنظر الجميع الموعد يوم القيامة يعلم فيه الجميع من هم أصحاب الطريق المستقيم، ومن اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

آياتها
١١٢نسخها
٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
- مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
- يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَّاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النُّجُوى الَّذِينَ ظَلَمُوا
- هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ
- تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
- وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ
- أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِئْنَا بِنَايَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ
- ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ
- ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ
- الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
- لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْتَهُمْ
- الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَاهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
- لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

سورة الأنبياء

وهي سورة مكية ، وسميت بذلك لما فيها من قصص وأخبار الأنبياء والأمم

الغفلة والإعراض عن الساعة والاهتمام بالدنيا يورث نسيان الآخرة والاستعداد لها، مع قرب الساعة ودنو وقتها، وما يأتي العباد من الآيات والسنن والمواعظ لا يعتبرون ولا يتعظون بها، ساهية نفوسهم غافلة قلوبهم، قد أعرضوا عن ذكر الله، وشرع الله، يكيدون للإسلام سرًا وجهراً، ويكذبون رسالة النبي ﷺ، ويستبعدون كونه نبياً؛ لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم، فمثلهم كمثله من يعمل السحر وهو يعلم أنه سحر، وما علموا أن القرآن حق وأن رسالة النبي ﷺ حق، أرسله الذي يعلم ما في السموات والأرض، لا تخفى عليه خافية، وأنزل هذا القرآن المشتمل على خير الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض، وهو السميع لأقوال العباد، وهو العليم بأحوالهم.

ولكن تمت الكفار وإلحادهم، جعلهم يصفون القرآن بالسحر، وتارة بالشعر، وتارة يصفونه بالرؤى الكاذبة، وتارة يرمون النبي ﷺ بالكذب، واختلاق القرآن وطالبوا بمعجزات الأنبياء قبله كناية صالح، وآيات موسى وعيسى ﷺ، وكذلك حال الأمم في تكذيب الأنبياء والمرسلين، وقد أرسل الله الرسل من البشر، وأعلم الناس بذلك أهل العلم من المؤمنين المصدقين بالرسل فإنهم يعلمون أن الله لم يرسل رسولاً إلا من البشر، يأكلون الطعام ولا يخلدون في الدنيا، وذلك من تمام نعم الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ معهم والأخذ عنهم، وقد وعد الله رسله بإهلاك عدوهم من المشركين الذين أسرفوا على أنفسهم بالشرك، ونجاة المؤمنين الذين صدقوهم، وقد أنزل الله على رسوله القرآن شرفاً لأمة محمد ﷺ، وفيه ذكر ما يحتاجون إليه من أمر دينهم، ودنياهم، فهل يعقل الناس شرف هذا القرآن وفضله، ويأخذون به ويعملون بمقتضاه ويتحاكمون إليه.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
 آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
 لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
 تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
 دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
 السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا
 لَا تَخَذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ
 عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْأَوَّلُ مِمَّا نَصِفُونَ
 ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
 عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
 لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ
 ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ
 عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ
 اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَّعَى
 وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

ينزل الله عذابه ورجزه على الأمم المكذبة بالرسول المعاندة لشرع الله، فإذا تيقنوا أن العذاب واقع بهم كما وعدهم نبيهم يفرون منه هارين، فيقال لهم قدراً: لا تركضوا هارين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والمعيشة والمساكن الطيبة التي كانت سبب بطركم وكفركم، فلعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به؛ أو تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم استهزاء بهم، وهم بعد نزول العقوبة قد اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، وما زالوا يرددون الاعتراف بالظلم حتى حصدهم العذاب حصداً، وخذت حركاتهم وأصواتهم خوفاً.

فالله ﷻ خلق السموات والأرض بالعدل والقسط، لم يخلقهما عبثاً ولا لعباً، بل للتنبيه على أن لهما خالقاً قادراً يجب امتثال أمره، وهو الذي يجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالثواب الجزيل يوم القيامة، والله ﷻ منزه عن اللهو واللعب في ذاته وأسمائه وصفاته، وفي حكمه وشرعه، وخلقه، ولو أراد الله ذلك لكان، لكنه سبحانه لم يرد شرعاً، وإن كان أراد كونهً وقدرًا، فالله قضى بالحق والعدل وأمر به عباده، وهو سبحانه يطل الباطل وينصر الحق عليه ويؤيد أهل الحق، ويذهب أهل الباطل مهما طال باطلهم فهم إلى زوال، والعاقبة لأهل الحق، والويل والشبور لأهل الباطل الذين يفترون على الله الكذب، ويرمون شرعه، وحكمه بالرجعية والتخلف.

ولئن استكبر أهل الباطل عن عبودية ربهم فإن الله عباداً يطيعونه ليلاً ونهاراً، لا يستكبرون عن عبادته، ولا يتعبون ولا يملون، فهم دائموا العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، أما الذين اتخذوا من دون الله آله، من الأرض، ومن الحجر والخشب، لا يحيون الموتى ولا يبعثونهم من الأرض، فكيف يستحقون الإلهية، فلا يستحق الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النعم، ولو كان في الوجود آلهة غير الله لفسدت السموات الأرض، وهلك من فيها بوجود التنازع بين الآلهة لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجر على النظام، فسبحان الله رب العرش عما يصفه به المشركون من الشريك والولد سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وهو سبحانه الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، وهو سبحانه يسأل خلقه عما يعملون، عن أفعالهم وأقوالهم، وكما أنه لا يكون إله سواه من حيث العقل كذلك لا يكون من حيث الأمر فلا دليل مع المشركين باتخاذ الآلهة، فهذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت قبله، ليس فيها أن الله أمر باتخاذ إله سواه، بل كلها تدعو للتوحيد وإفراد الله بالعبادة، ولكن المشركين يجهلون الحق ولا يميزون بينه وبين الباطل، ويجهلون التوحيد فلا يفرقون بينه وبين الشرك، فهم معرضون عن قبول الحق مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول فلا يتأملون حجة، ولا يتدبرون في برهان، ولا يتفكرون في دليل.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أُرِضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَيْكَ بَخْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

بعث الله الرسل بالبشارة بالتوحيد والندارة من الشرك، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة على التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، وتنزه الله عن الولد تعالى الله وتقدس عما يقوله الكفار من أن الملائكة بنات الله، بل هم عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً، لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمر به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، يخافون ربهم ويخشونه، ولا يشفعون إلا لمن رضي الله عنه، فشرط الشفاعة رضا الله عن المشفوع، وإذنه للشافع بالشفاعة، وليس للملائكة ولا لغيرهم ادعاء الألوهية وليس لهم من خصائص الألوهية شيء، ومن ادعى ذلك فله العذاب الأليم يوم القيامة، فالله هو المستحق للإلوهية وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وقد كانتا متلاصقتين، بعضها فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأنبت الأرض، وفتق السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات، وجعل الله أصل كل الأحياء من الماء، وذلك دليل على قدرة الله سبحانه وبيد صنعته، وهو سبحانه الذي أرسى الأرض بالجبال وقررها وثقلها؛ لئلا تضطرب وتتحرك بالناس، فلا يحصل لهم عليها قرار وجعل في الجبال طرقاً يسلكون فيها من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ليسلك الناس فيها من ها هنا إلى ها هنا؛ وجعل الله السماء سقفاً على الأرض عالياً محروساً بالنجوم من الشياطين، ومحفوظاً أن يقع ويسقط على الأرض، فهو كالقبة عليها، فهي آية فيها من الآيات مما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وغيرها، ولكن الكفار لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، فالليل والنهار هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضياءه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر، والشمس والقمر هذه لها نور يخصصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور خاص آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر، وفي تعاقبها وانتظامها آية تحري في الفلك بسرعة كالسباح في الماء، وكل ذلك موجب لتحقيق العبودية لله وحده لا شريك له في هذه الحياة، فالإنسان في هذه الحياة يتزود للدار الآخرة وليس لأحد من البشر دوام البقاء في الدنيا، حتى النبي محمد ﷺ كتب الله عليه الموت، وذلك نهاية كل حي، فكل نفس ذائقة الموت، نسأل الله أن يمتينا على التوحيد ويحسن خاتمتنا، فالعباد خلقوا في هذه الحياة للاختبار، والله يختبرهم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، وفيما يحبون وفيما يكرهون، ابتلاء منه سبحانه لينظر كيف شكرهم فيما يحبون، وصبرهم فيما يكرهون، والجميع إليه راجعون ومجزيون بأعمالهم.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
 أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ
 هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ
 آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
 لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا
 هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
 يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ
 بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ
 الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
 لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
 أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعَنَا هَؤُلَاءُ
 وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي
 الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

بعث الله رسوله محمدًا ﷺ بالتوحيد فأذاه المشركون وقابلوه بأصناف من صور الإيذاء الجسدي والمعنوي، وانتقصوه، واستهزءوا به، وحاولوا قتله، وأخرجوه من مكة، واتهموه بالجنون والسحر وبالكهانة نصره لأهنتهم وكفراً بالله وعناداً لرسوله ﷺ، واستعجلوا عذاب ربهم الذي توعدهم به الرسول ﷺ، وتلك طبيعة النفس البشرية الاستعجال، فقد طبع الإنسان على العجلة، وجاءت الشريعة بأمر المسلم بالتؤدة وترك العجلة؛ لأن العجلة من الشيطان، والتأني من الله.

وكان استعجالهم للعذاب لكفرهم وعنادهم فجاءهم الرد أن العذاب واقع بهم لا محالة، ولو علموا شدة العذاب لما أقاموا على كفرهم، ولما استعجلوا، حين تغشاهم النار فلا يستطيعون ردها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم، فتأتيهم النار فجأة فتحيرهم وتخيفهم، فيستسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون، وليس لهم حيلة في رد العذاب عن أنفسهم، ولن يؤخر الله عنهم العذاب ساعة واحدة، وهذا طريق المستهزئين بالرسول ومصيرهم العذاب الأليم في الآخرة، ينزل بهم العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، فكل المعاندين لدعوة التوحيد، المصيرين على الكفر والعناد مآلهم إلى الخسران في الدنيا والآخرة بما كفروا واستكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له الذي يحفظ عباده المؤمنين ويحرسهم ويؤيدهم، فلا ناصر لهم ولا حافظ لهم غيره سبحانه، ولكن المكذبين بالرسول أعرضوا عما فيه سعادتهم وفلاحهم، فأعرضوا عن القرآن وعن الاعتراف بنعم الله، فلن يمنعهم من عذاب الله أحد، حتى أهنتهم التي يدعونها لا تنفعهم حين نزول العذاب بهم ولكن غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أن الله متعمهم في الحياة الدنيا، ونعمهم وأطال أعمارهم فيما هم فيه من الكفر والشرك، فاعتقدوا أنهم على شيء، ولم يعتبروا بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ فكانت الغلبة لأولياء الله.

وتلك سنة الله الباقية في نصره أهل الحق ودحر أهل الباطل، وعلو أهل الحق، وذلة أهل الباطل مهما طال صولة الباطل وأهله، فإن الله كتب النصر للمؤمنين، وهذا يقود المسلم إلى التفاؤل والأمل بنصرة الإسلام ودحر أعداء الله من اليهود والنصارى، فإن الله تعالى كتب العلو لدينه وأهله، ومهما أجلب أهل الباطل فإن مآلهم إلى الزوال.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا
 مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
 لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ
 الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
 مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ
 ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا
 لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنْ
 السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ
 مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
 بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي
 أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبْدِينَ ﴿٥٣﴾
 قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا
 أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ
 ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾



أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ القرآن ليكون هدى للبشرية، ينذر به من الشرك ويبشر بالتوحيد، ولكن قلوب المشركين لا تنتفع بالقرآن فقد أعمى الله بصيرتهم، وختم على سمعهم وقلوبهم.

ولن يعترفوا بذنوبهم إلا إذا مسهم العذاب يوم القيامة حين توضع الموازين لوزن أعمال العباد، ووزن أجسامهم ووزن سجلات أعمالهم، ذلك الميزان العدل الذي لا يظلم فيه أحد، لا ينقص من إحسان محسن، ولا يزداد في إساءة مسيء، حتى وإن كان مثقال حبة من خردل، وكفى بالله عليماً بذنوب عباده، أنزل عليهم الكتب السماوية التي تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغني والرشاد، والحلال والحرام، ويحصل بها النور في القلوب، والهداية والخوف والإنابة والخشية.

ومن ذلك ما أنزل الله على موسى وهارون ﷺ فقد أنزل التوراة، حلالها وحرامها، وما فرق الله فيها بين الحق والباطل، وقد نسخت بالقرآن الكريم الذي فيه التذكير والموعظة للمؤمنين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلا ينكره إلا من لا عقل له، ولا ينتفع به إلا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، وخشي الله في السر والعلن، ووحده الله وأخلص له العبادة.

ومن أنبياء الله ورسله خليل الرحمن إبراهيم ﷺ الذي ألهمه الحق والحجة على قومه وهو في صغره وحاج قومه في أصنامهم، فقال لهم ما هذه الصور التي أنتم صنعتموها ثم أقمتهم على عبادتها، فأجابوه إنا وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشياً على طريقتهم، فقال لهم إنكم وآباءكم في خسran واضح ظاهر لا يخفى على أحد، ولا يلتبس على ذي عقل، فقد عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوي هذا الخسران خسran، فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آهنتهم، قالوا أكلامك الذي تقوله لاعباً أو محققاً فيه، فأجابهم بالتوحيد، إن ربكم هو الله الذي لا إله غيره، الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات، وهو الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء شاهداً لله بذلك فهو لا إله غيره، ولا رب سواه.

وأقسم الخليل ﷺ قسماً أسمعه بعض قومه ليحرصن على أذاهم وتكسير أصنامهم بعد أن يولوا إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه، وتلك سنة الخليلين في تحطيم الأصنام والتهاويل.

فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَثِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
 ٥٨ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ٥٩
 قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ٦٠ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ
 عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ٦١ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ
 هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
 هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ٦٣ فَارْجِعُوا إِلَى
 أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى
 رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ٦٥ قَالَ
 أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
 يَضُرُّكُمْ ٦٦ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ٦٧ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 فَاعِلِينَ ٦٨ قُلْنَا يَنْدَرُكَوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ٦٩
 وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيْنَاهُ
 وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ٧١ وَوَهَبْنَا
 لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ٧٢ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ٧٣

كسر إبراهيم الخليل الأصنام وجعلها قطعاً صغيرة، ولم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس في عنقه ثم خرج، لعلمهم يعتقدون أنه هو الذي كسرها، فيسألونه عن ذلك، فلما رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها، سألوا من فعل ذلك فأخبروا أنهم سمعوا فتى يقال له إبراهيم يحلف بالكيد لها، فأتوا به على رءوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود لإبراهيم ﷺ أن يتبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك، فسألوه عن تكسير الأصنام فقال إنه كبيرهم فاسألوهم إن كانوا ينطقون، وإننا أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن النطق لا يصدر عن الصنم؛ لأنه جهاذ، فرجعوا إلى أنفسهم بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لأهنتهم، واتهموا أنفسهم بالإهمال وعدم رعاية الأصنام، واحتاروا في أمر الأصنام ووقع في نفوسهم أنهم يعبدون ما لا ينطق، فقالوا لإبراهيم ﷺ تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك، إذا كانت لا تنطق، وهي لا تضر ولا تنفع، فلم تعبدونها من دون الله، أليس لكم عقول تتفكرون بها، فتعلمون هذا الصنيع القبيح الذي صنعتموه، فأقام عليهم الحجة، وألزمهم بها، فلما بطلت حججهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فجمعوا حطباً كثيراً جداً ثم جعلوه في حفرة من الأرض، وأضرموها نارا، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار مثلها، وجعلوا إبراهيم ﷺ في كفة المنجنيق، فلما ألقوه قال حسبي الله ونعم الوكيل، فأمر الله النار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم ولم يبق نارا في الأرض إلا طفتت، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

و لولا أن الله ﷻ قال وسلاماً لأذى إبراهيم بردها، ولم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله، فأرادوا بنبي الله كيداً، فكأدهم الله ونجاه من النار، فغلبوا وخسروا فيما أنفقوه من الأموال لقتل إبراهيم ﷺ، ونجاه الله من النمرود وقومه، وخرج من أرض العراق، إلى أرض الشام التي بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار، وبعث أكثر الأنبياء فيها، ووهب الله له إسحاق ﷺ بدعائه وزاده يعقوب ابناً لإسحاق، وكلهم جعل فيهم النبوة والصلاح.

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ طَآءَنَّا عَنْهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ
نَفَثَتْ فِيهِ غَصَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ
فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ
إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾

بارك الله تعالى في ذرية إبراهيم ﷺ وجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير، ودعاة إلى الله بإذنه؛ فكانوا قدوة في فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، محققين لتوحيد رب العالمين، فكل الأنبياء والرسل بعد إبراهيم من ذريته، وكان ممن آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، لوط بن هاران بن آزر، فاتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله الله نبياً، وبعثه إلى سدوم، فخالقوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم في كتابه العزيز؛ وكان أهل سدوم يأتون الذكران في أدبارهم وغير ذلك من المنكرات، فأنجاه الله منهم ونصره عليهم، ومن رسل الله الذين من قبل إبراهيم: نوح ﷺ استجاب الله دعوته على قومه، لما كذبوه ونجاه من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ﷻ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون أذاه ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه، فخلصه الله منهم ونصره عليهم وأهلكهم بالغرق، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً، ومن أنبياء الله داود وابنه سليمان ﷺ، وكانت الخصوم تأتي داود ليحكم بينهما، وكان مما أتى داود أن رجلين دخلا عليه أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الزرع إن هذا انفلتت غنمه ليلاً ووقعت في حرثي فأفسدته فلم يبق منه شيء، فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث، فخرجا فمرا على سليمان فقال: كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا، فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضي، قال ادفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدها ونسلها وصوفها ومنافعها ويذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيتته يوم أكل دفع الزرع إلى أهله، وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك، وكان عمر سليمان ابن إحدى عشرة سنة، وأما حكم الإسلام أن ما أفسدت الماشية المرسلة بالنهار من مال الغير فلا ضمان على ربه، وما أفسدت بالليل ضمنه صاحبها لأن في عرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظون مزارعهم بالنهار، وأصحاب المواشي يحفظون مواشيهم بالليل، وقد آتاهما الله علماً وحكماً، وقد كان داود ﷺ حسن الصوت بالزبور، وكان لطيب صوته بتلاوة كتاب الله الزبور، إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تسييحاً، وعلمه الله صناعة الدروع وهي التي تمنع المقاتل ضربات السيوف وطعنات الرماح وسخر الله لسليمان الريح، وهي هواء متحرك، تحت أمره إن أراد أن تشتد اشتدت، وإن أراد أن تلين لانت، وكانت تجري لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم تعود إلى منزله بالشام، كل ذلك بعلم الله وقدرته وتسخيره لأنبيائه ليستعينوا بذلك على طاعته.

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ * وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ
وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ
مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَعْيُنًا ﴿٨٨﴾ وَذِكْرًا
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهَا
لَهُ زَوْجُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾

سخر الله لنبيه سليمان ﷺ الشياطين، يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر، ويعملون له ما يشاء من محارب وتماثيل، ويجرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، جميعهم في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو محكم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء.

ومن أنبياء الله أيوب ﷺ ابتلاه الله بالمرض فكان قدوة في الصبر والاحتساب، أصابه البلاء، في ماله وولده وجسده، فقد كان له الكثير من الأولاد والدواب والأنعام، والمنازل والدور، فبقي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده فأصيب بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكرهما الله ﷻ، حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره، حتى احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، فمكث في البلاء مدة طويلة، وكان لأيوب ﷺ أخوان فجاء يومًا، فلم يستطيعا أن يدنوا منه، من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر لو كان الله علم من أيوب خيرًا ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع من شيء قط، فخر ساجدًا، ثم قال اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدًا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه، فأوحى الله إليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاءك، وقرب عن صاحبك قريبًا، واستغفر لهم، فإنهم قد عصوني فيك، فجعله الله قدوة، لثلاث يظن أهل البلاء إنها فعل بهم لهوانهم على الله، وليتأسوا به في الصبر على أقدار الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك، ومن أنبياء الله إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، وإدريس، وذو الكفل صبروا على أمر الله وبما كلفهم الله به، فأدخلهم في الجنة، لكمال صلاحهم وصدق عبوديتهم، ومن أنبياء الله يونس بن متى ﷺ ويلقب بذي النون لابتلاع الحوت له، بعثه الله إلى أهل قرية "نينوى"، وهي قرية في أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، وظن أن الله لا يقدر عليه العقوبة ولن يضيق عليه، فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواسيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادهما، ثم تضرعوا إلى الله ﷻ، وجأروا إليه، فرفع الله عنهم العذاب، أما يونس ﷺ فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقيه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضًا، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضًا، فقام يونس ﷺ وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظمًا، فإن يونس ليس لك رزقًا، وإنما بطئك له يكون سجنًا، فدعا ربه في الظلمات ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الحوت، فنجاه الله، وكذلك ينجي الله كل مؤمن صادق، فدعاء يونس نجاة من الكرب والغم والشدة والبلاء، ومن أنبياء الله زكريا ﷺ طلب ربه أن يهبه ولدًا، يكون من بعده نبيًا، ودعا ربه خفية عن قومه رب لا تذرني لا ولدي ولا وارث يقوم بعدي في الناس، فاستجاب الله له ووهبه يحيى وأصلح له زوجته بعد أن كانت عقيمًا لا تلد، وتلك سنة الله في أوليائه الصالحين المتقين الذين يبادرون لعمل القربات وفعل الطاعات، ويعبدون الله بين الرجاء والخوف، فإن من ركائز العمل الخوف والرجاء والمحبة مع الذل، وتلك صفات جمعها أنبياء الله ورسله والصالحون من بعدهم فاستحقوا ولاية الله.

وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرَجَهَا فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعِيدٍ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾ وَحَرَّمٌ عَلَى قَرِيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يَتَوَلَّوْنَ قَد كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ
هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

ولادة المسيح عيسى بن مريم آية من آيات الله الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فالمسيح وأمه آية من آيات الله الباهرة، فأمة كانت عابدة قانتة يأتيها رزقها في مكان عبادتها، وخلق الله فيها المسيح بدون أب.

وهؤلاء الرسل دعوا إلى دين واحد وهو الإسلام عقيدة التوحيد عبادة الله وحده لا شريك له، بشرائع متنوعة لكل رسول شريعة مستقلة، فلكل أمة شرعة ومنهاج، فاختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم ومكذب؛ والجميع راجعون إلى ربهم يوم القيامة، فيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا؛ ولهذا فمن آمن وعمل عملًا صالحًا، فلا يضيع عمله، بل يشكر، فلا يظلم مثقال ذرة، فعمله مكتوب لا يضيع عليه منه شيء.

وكل قرية حكم الله وقدر بهلاكها فإن الله لا يوفقهم للتوبة والرجوع إلى الله، فلن تقبل أعمالهم وسيمضي فيهم قدر الله وقضاؤه، ومن أهلكهم الله لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد جعل الله للساعة علامات تسبقها منها الصغرى ومنها الكبرى وقد جاء القرآن ببعضها، وأخبر الرسول ﷺ ببعضها ومنها خروج يأجوج ومأجوج وهم من سلالة آدم ﷺ من نسل نوح ﷺ، يفتح لهم سد ذي القرنين آخر الزمان فيخرجون من مكان مرتفع ومنخفض يسرعون في المشي إلى الفساد، وخروجهم يدل على اقتراب الساعة يوم تشخص أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهوله لما يشاهدونه من الأمور العظام، يقولون يا ويلنا قد كنا في غفلة في الدنيا عن هذا اليوم العظيم، ويعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك، وهم بعد هذا اليوم حطب جهنم هم وما يعبدون من الأصنام التي لو كانت آلهة على الحقيقة، ما دخل عابدها النار، كلهم فيها خالدون، العابد والمعبودون.

لهم في النار أئین وتنفس شديد لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول، ولا يسمعون ما يسمعون، بل يسمعون ما يسوؤهم.

وأما السعداء الذين أحسنوا في العمل الصالح فلهم الجنة، وهم عن جهنم مبعدون لأنهم صاروا في الجنة، ونجاهم الله من النار نسأل الله الحسنى وزيادة لنا ووالدينا والديهم وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ
 خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ
 الْمَلَأَتِ كَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ
 ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
 بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ
 ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
 يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا
 لِقَوْمٍ عاكِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ
 ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ
 فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ
 عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
 إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
 ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ
 رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

أهل الإيمان والتقوى إذا نزلوا منازلهم في الجنة فهم في نعيم دائم، لا يسمعون حركة النار وصوتها وحركة أهلها، ولهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذّ به الأعين، وهم فيها دائمون أبد الآباد لا يبغون عنها تحويلاً، لا تخيفهم أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب، تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهتفونهم، ويقولون لهم هذا ما كنتم توعدون به في الدنيا وتبشرون به فيه.

في ذلك اليوم العظيم تطوى السماء كطي الكتاب، فالله سبحانه يقبض الأرضين، وتكون السموات بيمينه، ويحشر الناس كما أخرجهم الله من بطون أمهاتهم حفاةً عراةً غرلاً بهما كما خلقهم أول مرة. وقد قضى الله تعالى لعباده الصالحين، السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة، كتب ذلك في الكتب المنزلة وفي اللوح المحفوظ، وفي القرآن العظيم الذي أنزله على عبده محمد ﷺ الذي فيه المنفعة والهداية والكفاية للذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

وقد أرسل الله محمداً ﷺ رحمة للعالمين، رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجعلها خسر في الدنيا والآخرة، فهو عليه الصلاة والسلام رحمة مهداة للمؤمنين والكافرين، من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي بما كان يتبلى به سائر الأمم من الخسف والقذف، وأصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك، فقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة والنهي عن الشرك، فمن تولى عن التوحيد وأصر على الشرك، فليس له إلا العداوة والحرب في الدنيا، والعقوبة في الآخرة، وما وعد الله به أوليائه من ظهور الإسلام وعلوه فله يوم لا يعلمه إلا الله، ولكن المؤمن يوقن بنصر الله للمؤمنين قريباً أم بعيداً، والله يعلم ما يجاهر به الكفار من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما يكتُمونه من ذلك ويخفونه، وإمهال الله للعباد فتنة لهم واختباراً، ليرى كيف صنيعهم، وهذا المتاع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمة الله.

والله سبحانه هو الذي يفصل بين المؤمنين والمكذبين بالحق وهو المعين الذي يستعين به أهل الإيمان على أعدائهم وعلى ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

سورة الحج

وهي سورة مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة ، سميت بذلك لورود أحكام الحج فيها

هذه السورة من أعاجيب سور القرآن، لأن فيها مكياً، ومدنياً، وحضرياً، وسفرياً، وحريراً، وسلمياً،

وليلياً، ونهارياً، وناسخاً، ومنسوخاً.

أمر الله الناس أن يعدوا عتدهم لليوم الآخر، ويتزودوا بالأعمال الصالحة، فإن زلزلة الساعة عظيمة حين ينفخ في الصور، وحين يخرج الناس من قبورهم، فمن شدة هول هذا اليوم تغفل الأم عن ولدها، والتي هي أشفق الناس عليه في الدنيا، وتضع الحوامل، ويشيب الولدان، والناس في هذا اليوم طائشة عقولهم كأنهم لا يعقلون من الخوف والفزع، قد غابت أذهانهم، لأن قيام الساعة أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مفضل، وحادث هائل.

وهذا خبر صادق، ووعد قاطع، ولكن المكذبين بالبعث ينكرون ذلك، وينكرون قدرة الله على إحياء الموتى، قد أعرضوا عما أنزل الله على أنبيائه، ويتبعون كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، بغير علم صحيح، وقد كتب الله وقضى على أتباع الشيطان، الضلال في الدنيا، وعذاب السعير في الآخرة، فمن كان في شك في أمر البعث فليستظر وليعتبر في خلق الإنسان وتطور مراحل خلقه التي تدل على قدرة الخالق، فالذي خلقهم أول مرة قادر على إعادتهم مرة أخرى، فإن الله خلق أصل آدم ﷺ من التراب، ثم جعل نسل آدم من سلالة من ماء مهين، من ماء الرجل وماء المرأة، فإذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوماً، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وپطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، فإذا مضى عليها أربعين يوماً، وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكاً فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله ﷻ، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، ثم يخرجها الله طفلاً ضعيفاً في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ثم يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر.

فمن الناس من يتوفاه الله في حال شبابه وقواه، ومنهم من يزداد له في العمر، فيصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ومن الدلائل الباهرة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، إحياء الأرض الميتة الهامدة، التي لا نبت فيها ولا شيء فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت وحييت بعد موتها، وارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ في أحسن منظر، وأطيب ريح.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي
 الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
 وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي
 الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ
 بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ
 مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ
 فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
 الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ
 وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ
 ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾
 إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ
 يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
 السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

الله سبحانه هو الخالق المدبر الفعال لما يشاء، وهو الذي يحيى الموتى كما يحيى الأرض الميتة لا يعجزه شيء، وهو على كل شيء قدير، قضى بفناء الخلائق وبعثها ليوم النشور، فالساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية، والله بعيد من في القبور بعدما صاروا في قبورهم رَمًا، وترابًا.

وأما المنكرون للبعث فهم يتكلمون بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى، وتلك حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، والشهوات يستكبرون عن الحق إذا دعوا إليه، يغترون بثقافتهم وأموالهم وسلطانهم وأشكالهم، فهم كالذي يلوي رقبته ويعرض استكبارًا، ويغتر بما يلبسه من اللباس وتلك طريقة أهل الضلالة والإفساد في كل عصر ومصر، تجدهم لا يقبلون الحق استكبارًا وعنادًا وعلوًا وغرورًا، هدفهم إضلال الخلق والإفساد في الأرض، والصد عن طريق الإسلام فلهم في الدنيا الإهانة والذل، فكل من استكبر عن آيات الله جعل الله له المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر همه ومبلغ علمه، فهم من أجلها يعملون ويركضون، ويوم القيامة لهم العذاب الذي يحرقهم، ويقال لهم يوم القيامة تقريبًا وتوبيخًا: هذا بسبب إعراضكم، وبما قدمتموه في الدنيا.

ومن أصناف الناس من يدخل الإسلام على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا ارتد، وتلك حال المنافقين فهؤلاء خسروا الدنيا بفوات ما كانوا يؤملون، وخسروا الآخرة بذهاب الدين والخلود في النار، فهم فيها في غاية الشقاء والإهانة، وذلك هو الخسران الظاهر، حالتهم في الدنيا الإشرak بالله، يدعون من دون الله الأصنام والأنداد، ويستغيثون بها ويستنصرونها ويطلبون منها الرزق، وهي لا تنفعهم ولا تضرهم، ذلك هو الضلال البعيد عن الحق والرشد لأنهم دعوا من ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن، فهو بئس الولي والناصر، وبئس المخالط والمعاشر.

وأما حال الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات فأورثتهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، في روضات الجنات، وهو سبحانه يفعل ما يريد، أضل أولئك وهدى هؤلاء، وقد كتب الله النصر لأنبيائه وأتباعهم، فمن ظن أن الله ليس بناصر نبيه محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، لأن الله ناصره لا محالة، فمن يغظه اليوم نصره أهل الإسلام وعلوهم في الأرض فليبشر بالغيظ لأن الله ناصرهم ومؤيدهم وسيموت بغيظه لا محالة.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ
 (١٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى
 وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
 يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ
 وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ
 إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا
 فِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
 مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ
 وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا
 أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ
 (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
 أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)



أنزل الله القرآن هداية للبشرية، فيه آيات واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس، والله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، لحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، له الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

هدى أهل الإيمان فأدخلهم رحمته وأضل أهل الأديان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمشركين وهو ﷻ يحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تكن ضمائرهم، خضع له كل شي وما من شي إلا يسبح له ويسجد لعظمته طوعاً وكرهاً، يسجد له من في السماوات ومن في الأرض، من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، والشمس والقمر والنجوم، فما في السماء من نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمال، وأهل الإيمان يسجدون لله خضوعاً وعبادة، وأما أهل الكفر فلا يسجدون لعنادهم واستكبارهم، ومن يذله الله بالكفر فلا يكرمه أحد، والله يكرم من يشاء ويهين من يشاء، فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته.

فالؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، فاختلفوا وتنازعوا، والله ناصر أوليائه وخاذل أعدائه، ولهم العذاب الأليم في الآخرة، يفصل لهم مقطعات من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا همي، ويصب الماء الحار على رؤوسهم، فينفذ إلى الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه، حتى يبلغ قدميه، وتتساقط جلودهم، ويضربون بسياط من حديد فيقع كل عضو على حياله، فيدعون بالثور، وتقول لهم الملائكة ذوقوا العذاب المحرق الأليم.

وأما أهل الجنة من المؤمنين نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة ووالدينا والمسلمين، فلهم جنات تتخرق الأنهار في أكتافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا، ويلبسون فيها من الخلية أنواعاً وأصنافاً، ومن أساور الذهب واللؤلؤ، ويلبسون اللؤلؤ من الحرير، إستبرقه وسندسه، ومن أصناف اللباس ما يتنعمون به نسأل الله ألا يجرمنا من ذلك ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ
(٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادِ
وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥)
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي
شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا
مَنْفَعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ
عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا
الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا
نَذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ
يَعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ
لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)

هدى الله عباده المؤمنين إلى الحق والتوحيد، هداهم إلى الكلمة الطيبة كلمة التوحيد لا إله إلا الله، هداهم إلى الصراط المستقيم والمنهج القويم، الذي يكون فيه سعادتهم ونجاتهم من النار وفوزهم بالجنة التي يسمعون فيها الكلام الطيب، والتي يلقون فيها تحية وسلاماً، والتي يمدون فيها ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، يلهمون فيها التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس، والله سبحانه يفضل الأعمال بعضها على بعض والأشخاص بعضهم على بعض والأزمنة والأمكنة بعضها على بعض، ومن ذلك تشريف المسجد الحرام مكة عمرها الله بالإيمان، التي يستوي فيها من سكنها ومن جاء إليها من غير أهلها، فقد فضلها الله، بأن أوجب على المسلمين الحج إليها وزيارتها، وجعلها قبلة للمسلمين، وفضل الصلاة فيها والعمل الصالح فيها خير من العمل فيها سواها، والسيئة تعظم ولا تعدد، والهـم في السيئة لا يكتب إلا في مكة، فمن هم بسيئة في الحرم كتبت عليه، ومن أعظم السيئات الشرك بالله والكفر، والصد عن سبيل الله، فقد طهر الله بيته الحرام وأعلم خليله بحدوده، وأمره أن يبنيه على أساس التوحيد، وأن يظهره من الشرك ووسائله، وأن يجعله بيت عبادة لمن أراد الطواف به والصلاة، والاعتكاف، وأمر الله خليله إبراهيم عليه السلام بأن ينادي في الناس بالحج وقال له عليك النداء وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقال يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع الله من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله له أن يحج إلى يوم القيامة يقول لبيك اللهم لبيك، فأتاه الناس من كل مكان قريب أو بعيد ومن كل طريق على الإبل وعلى الأقدام وعلى البحار ومن الجو، يلبون نداء الله ويؤدون فريضة الله، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

فيشهدون منافع الدنيا والآخرة: أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والريح والتجارات، فيذكرون الله في عشر ذي الحجة فيكثرون من التسبيح والتلهيل والتحميد والتكبير، ويؤدون فريضة الحج من الطواف والسعي والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ومنى ورمي الجمار، وفي يوم النحر يذبحون الهدى، ويضحى أهل الأمصار من المسلمين، يضحون من الإبل والبقر والغنم، يسمون عند ذبحها ونحرها، ويأكلون منها ويتصدقون منها على الفقراء، ويهدون منها إلى الأغنياء، ويتحلل الحجاج من حجهم ويلقون ما أصابهم من مشقة السفر وما يلحق الإنسان من طول الشعر والظفر، ويتطهرون، ويتمون ما أوجبه الله عليهم من مناسك الحج، وما أوجبه على أنفسهم من الصالحات، ثم يطوفون بالبيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الحج، مع ما يقوم في قلب المسلم من تعظيم لمناسك الحج وتأديتها بكل إخلاص ومتابعة، وتعظيم لحدود الله باجتنابها والبعد عن ارتكابها، فإن ذلك هو الخير للمسلم في الدنيا والآخرة، وقد أحل الله الأنعام لعباده وهي الإبل والبقر والغنم، ولم يحرم عليهم إلا الميتة، فيجتنبها المسلم لأنها نجسة، ويجتنب عبادة الأوثان لأنها رجس، وسبب للرجس، وهو العذاب، ويجتنب المسلم الكذب والبهتان.

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ
 السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ
 ٣١ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ
 ٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ
 الْعَتِيقِ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ
 اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ ۖ أَلَّا تَعْلَمُوا ۖ فَالْهَكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ
 فَلَهُ ۖ أَسْلِمُوا ۖ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
 قُلُوبُهُمْ ۖ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ۖ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ۖ وَمِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣٥ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعِيرٍ
 اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ
 جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَنَاعِ وَالْمُعْتَرَّ ۖ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا
 لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا
 وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ النُّقُوى ۖ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا
 اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۖ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ٣٧ ۖ إِنَّ اللَّهَ
 يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ٣٨

أمر الله عباده بإخلاص العمل ونبد الشرك، والانحراف عن الباطل قصدًا إلى الحق؛ فإن المشرك في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، مثل من يسقط من السماء فتقطعه الطيور في الهواء، أو تميل به الريح وتذهب به في مكان بعيد مهلك؛ فبعد من أشرك من الحق كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير، أو هوت به الريح، فلا يوصل إليه بحال، والمشرك لا يملك لنفسه حيلة كمن يقع من السماء، وأعمال الكفار تذهب وتبطل فلا يقدر على شيء منها، كمن سقط من السماء فقطعته الطير أو وقع في مكان بعيد، وأما المؤمن الموحد المعظم لأوامر الله، فإنه يقف عند حدود الله، ويحتمل نواهي، ويقوم بالواجب كما أمر، ومن ذلك اختيار الهدايا والبدن، من أطيب أنواعها، وأكرم أصنافها، فلا يخرج ذات العيب، ينتفع من الأنعام من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها، يأكل ويضحي ويهدي، ومنتهى الهدى ومحله إلى الكعبة، وقد جعل الله لكل أهل دين من الأديان ذبحًا يذبحونه، ودمًا يريقونه، ومتعبداً، وطاعة، وعبداً، وحباً، ليذكروا اسم الله وحده، ويجعلوا نسكهم خاصاً به، فلا يذبح إلا لله وحده لا شريك، ولا يذكر إلا اسم الله تعالى، تحقيقاً للتوحيد، وإخلاصاً لله بالعبادة، واستسلاماً لله تعالى، خشوعاً وخضوعاً وتذلاً، وتواضعاً، ورضاً بقضاء الله، والمؤمن الموحد الخاشع المطمئن بذكر الله، الخائف من ربه، الصابر على ما أصابه من مصائب الدنيا، المقيم الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، والمنفق ابتغاء وجه الله تعالى، له الأجر العظيم والجزاء الجزيل، وقد جعل الله البدن -وهي الإبل سميت بذلك لعظمها وضخامتها- من أعلام دينه، وسميت شعائر لأنها تشعر، وهو أنها تطعن بحديدية في سنامها فيعلم أنها هدي وهي تهدي إلى بيت الله الحرام، وهي أفضل ما يهدي، فيها ثواب في الدار الآخرة، ومنافع في الدنيا، وأمر الله بذكره عند نحرها، وتكون قائمة على ثلاث قوائم قد صفت رجلها وإحدى يديها، ويدها اليسرى معقولة، فإذا سقطت جوانبها بعد سلخها، فيؤكل منها، ويطعم منها المتعفف والسائل، ومن نعم الله على عباده التي تستوجب الشكر، أن جعل البدن منقادة للناس، خاضعة لهم، إن شاءوا ركبوها، وإن شاءوا حلبوها، وإن شاءوا ذبحوها، ولن يرفع إلى الله لحومها ولا دماؤها، ولكن ترفع إليه من العباد الأعمال الصالحة والتقوى، والإخلاص، فالله سخرها لعباده، ليحققوا التوحيد ويحسنوا في العمل، ويشكروا ربهم على ما أرشدهم لمعالم دينه ومناسك حججه، والبشرى بالجنة في الآخرة للموحدين الصادقين، وأما في الدنيا فإن الله يدفع عن عباده الذين توكّلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلّوهم وينصرهم، والله لا يحب الخائن للعهد والمواثيق، ولا يحب الجاحد للنعم.

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ
يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾
وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبُيُوتُهَا مُتَعَاطِلَةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

كان المشركون في مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بألسنتهم وأيديهم، فيشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر، فأنزل الله سبحانه الإذن لهم بالقتال بالمدينة، بسبب ما ظلّموا واعتدي عليهم بالإيذاء، والله قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن أراد من عباده أن يبلّوا جهدهم في طاعته، فأمرهم بالجهاد؛ لأنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا أن الله يدفع عن قوم يقوم، ويكشف شر أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف، ولهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا، والله سبحانه ناصر أوليائه المؤمنين، الذين ينصرون الله بامثال طاعته واجتناب معصيته والله هو القوي العزيز، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، فنصر الله لا يتنزل إلا على من ينصر الإسلام في نفسه، فيقيم الصلاة ويخرج الزكاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فحينئذ تكون العاقبة لهم على أعدائهم، وثوابهم جزاؤهم عند الله تعالى في الدار الآخرة، والرفعة في الدنيا، وأما المكذبون للرسول فمألهم إلى الخسران، وإن أمهلهم الله فإن الله لا يهمل، وإن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وقد أهلك الله قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين بكفرهم وعنادهم وظلمهم، فتركوا مساكنهم وآبارهم وقصورهم، فلم يمنهم من العذاب القصور المشيدة ولا الحصون المنيعة.

والواجب الاتعاظ والاعتبار بما جرى لهذه الأمم من النكال وما وقع عليهم من العذاب، فينظر المسلم آثار تلك الأمم، وما حل بهم من النقم والنكال فيعتبر ويتعظ، فإن العمى، ليس عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر، فالبصر الظاهر بلغة وتمعن، وبصر القلب هو البصر النافع، فمصارع الغابرين، تتحدث بالعبر، وتنتطق بالعظات، وآثار الماضين من الدور المهدامة والآبار المعطلة والقصور الموحشة تحذر من نزول العقوبات ووقوع المثالات، فيدرك العقل الذي في القلب أن سنة الله باقية فيمن كذب وأبى.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ
قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ
مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

طريق المكذبين في كل حين، أنهم يرون هلاك الظالمين، يسمعون أخبارهم ويعلمون نهايتهم، فيسلكون طريقهم ويطغى بهم العناد والاستكبار والغرور حين يُملي لهم الله على سبيل الامتحان، فيستعجلون ما يوعدون، ولكن العذاب آت لا محالة في موعده الذي أَرَادَهُ اللهُ وقدره وفق حكمته، وهو ﷻ لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجل وأنظر وأمل، ولقد أَمَلَ اللهُ لكثير من تلك الأمم الهالكة، فلم يكن إِمْلَاءُ اللهِ منجياً لها من العقوبة، والرسل مبلغون عن رب العالمين أرسلهم الله إلى العباد ينذروهم بين يدي عذاب شديد، وليس إليهم حساب البشر، وإنما أمر البشر إلى الله، إن شاء عَجَّلَ لهم العذاب، وإن شاء أَخَّرَهُ عنهم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه منهم، وإن شاء أَضَلَّ من كتب عليه الشقاوة منهم، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، فالذين آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، لهم مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاتهم على القليل من حسناتهم بالكثير، ولهم الرزق الكريم وهو الجنة، وأما الذين يصدون عن سبيل الله ويشبّطون الناس عن متابعة النبي ﷺ، فلهم النار الحارة الموجهة الشديد عذابها وتكالها، أجازنا الله منها، والشيطان عدو الرسل والأنبياء والمؤمنين، وما أرسل الله من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ كتاب الله ألقى الشيطان في قراءته الوسوس والشبهات؛ ليصدَّ الناس عن اتباع ما يقرؤه ويتلونه من الحق، لكن الله يطل كيد الشيطان، ويزيل وسوسه، ويثبت آياته البينات، والله عليم بمن يتبع الشيطان، لا تخفى عليه خافية، حكيم في تقديره وأمره، فإنه ﷻ جعل وسوس الشيطان امتحاناً للذين في قلوبهم شك ونفاق، وللمشركين الذين لا يؤثّر فيهم واعظ ولا زاجر لقساوة قلوبهم وبعدها عن الحق، وهم أعداء الله ورسوله فهم في عناد ومكابرة وصد للحق، وأما الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، فيعلمون أن ما أنزل على الرسول ﷺ هو الحق من ربه، أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فيصدقوه وينقادوا له، فتخضع قلوبهم وتذل له، والله هو الذي هداهم لهذا، وما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم الله، أما في الدنيا فيرشدهم الله إلى الحق واتباعه، ويوقفهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات، والكفار لا يزالون في شك وريب من هذا القرآن، حتى تأتيهم الساعة فجأة، أو يأتيهم العذاب في يوم لا مثيل له، وما أخذ الله قومًا إلا عند سكرتهم وغرثهم.

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾
 وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا
 لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
 الرَّزَاقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ
 اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ
 مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
 لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي
 النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ
 ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ
 مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾



الملك يوم القيامة لله يحكم بين عباده، فالذين آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافقت قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم، لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد. والذين كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به، وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم فلهم العذاب الذي يهينهم ويذمهم مقابل استكبارهم وإعراضهم عن الحق، وأما من خرج مهاجرًا في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلبًا لما عنده، وترك الأوطان والأهل والأولاد، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله، ثم قتل في الجهاد، أو مات من غير قتال على فراشه، فقد حصل على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، وسيجري الله عليه من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به عينه، والله خير الرازيين، يرزق عباده الجنة، ويحل عليهم رضوانه، ويرضي أوليائه وهو سبحانه العليم بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك، وهو سبحانه يحلم عن عباده ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه، وأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حي عند ربه يرزق، فرح بأجره وبثواب الله له، والله يتنصر لأوليائه، وينصرهم على من ظلمهم واعتدى عليهم، والله عفو عن عباده المؤمنين، وغفور لذنوبهم.

والله تعالى هو الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما في الصيف. والله سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، وهو الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل من الأصنام والأنداد والأوثان؛ لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً.

وهو العلي الكبير فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ومن الدلائل على قدرته وعظيم سلطانه إرساله الرياح، فتثير سحباً فيمطر على الأرض التي لا نبات فيها، هامة يابسة سوداء فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأصبحت خضراء بعد يبسها ومحوها.

والله لطيف خبير عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا تخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه ما يحتاجه من الماء فينبته به، الجميع ملكه، وهو الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ
 بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ
 اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ
 ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
 لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ
 فِي الْأُمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
 وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يُحْكُمُ
 بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
 أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ
 فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
 مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي
 وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ
 بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ
 ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

سخر الله لعباده ما في الأرض من حيوان، وجهاد، وزروع وثمار، إحسانًا وفضلًا وامتنانًا، وسخر الفلك تحري في البحر بتسخيره وتسييره، تحري بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاءوا من تجارة وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر.

ومن تسخيره إمساكه السماء أن تقع على الأرض، ولو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض وهو الرؤوف الرحيم لعباده مع ظلمهم، فكيف يجعل العباد مع الله أندادًا ويعبدون معه غيره، وهو سبحانه المتفرد بالخلق والرزق والتصرف، فهو الذي خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا يذكر، فأوجدهم، ثم يميّتهم ثم يحييهم يوم القيامة، ولكن الإنسان جحود لنعم ربه، وقد جعل الله لكل قوم شريعة يعملون بها، يتبعون بذلك نبيهم، وهذه الأمة المحمدية تتبع في شريعتها سنة محمد ﷺ، فلا يلتفت المسلم لكل ما خالف هديه عليه الصلاة والسلام، ممن ينازع شرع الله ويحاد الله ورسوله، فإن الحق في اتباع شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، فإليها يدعو المسلم فهي الطريق الواضح المستقيم الموصل إلى المقصود، فمن جادل في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام بلا علم، فإن الله عليم بمكره وخبث طويته، وهو سبحانه الذي يحكم بين أوليائه وأعدائه فيما اختلفوا فيه في يوم القيامة حين تظهر الحقائق وتبلى السرائر، حين تفتى اللذات، وتذهب زهرة الدنيا من المال والجاه والسلطان، والله يعلم ما في السماء والأرض، لكمال علمه بخلقه، وهو المحيط بها في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علمًا، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ يعلم إيمان المؤمنين، وشرك المشركين، فالمشركون الذين أشركوا مع الله غيره بلا حجة ولا برهان، وإنما تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم، فما لهم من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال، وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، أنكروا على من يدعوهم إلى التوحيد، وبسطوا إليهم أيديهم وألستهم بالسوء، فإن موعدهم النار وعذابها ونكالها وهي أشد وأشق وأعظم مما يخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة أعظم مما ينالون منهم، وبئس النار منزلًا ومقيلاً ومرجعًا وموتلاً ومقامًا.

يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ
وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ
الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ
اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ
رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ لَأَكْبَرُ
عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا
رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾
وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾



سُورَةُ الْحَجِّ
بِأَنبَاءِ
الْحَجِّ

ضرب الله مثلاً لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به: إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمع جميع ما يعبدون من الأصنام والأنداد على خلق ذبابة واحدة ما قدروا على ذلك، بل الأمر أبلغ من ذلك فهم عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب، من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ضعف الطالب وهو الصنم، والمطلوب الذباب فهم ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه الأصنام التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، والله القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، وهو العزيز قهر كل شيء وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

والله ﷻ يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، والله سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم.

وقد أمر الله عباده بالصلاة لأنها هي النور والنجاة والبرهان يوم القيامة، أمرهم أن يصلوا جميعاً، لأن صلاة الجماعة واجبة، والصلاة مشتملة على الركوع والسجود، وأمرهم بإخلاص أعمالهم لله تعالى لأن العمل لا يقبل بدون إخلاص ومتابعة، وأمر الله عباده بفعل خصال الخير من صلة الرحم ومكارم الأخلاق، لكي يسعدوا ويفوزوا بالجنة، وأمرهم بمجاهدة أنفسهم في فعل الخير، وأمرهم بالجهاد بأموالهم وألستهم وأنفسهم، فهو ﷻ اصطفى هذه الأمة، واختارها على سائر الأمم، وفضلها وشرفها وخصها بأكرم رسول، وأكمل شرع، وشرع لهم من الدين ما يطبقون، ولم يكلفهم فوق طاقتهم، ويسر لهم في أحكام الدين، فدين الإسلام دين الحنيفية السمحة، ملة إبراهيم التوحيد الخالص، وقد أثنى الله على هذه الأمة في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء تتلى على الأحزاب والرهبان، فسأهم المسلمين من قبل هذا القرآن وفي القرآن، وهذه الأمة هي الشاهدة للأنبياء بالبلاغ، وشاهدة على الأمم، والرسول ﷺ يشهد على هذه الأمة أنه بلغها دين الله، فالواجب مقابلة هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأداء حق الله في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغني، والاعتصام بالله والالتجاء به والاستعانة به، والتوكل عليه، فهو سبحانه مولى المؤمنين وحافظهم وناصرهم على أعدائهم، فنعم الولي ونعم الناصر على الأعداء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
 وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
 فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى
 أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
 فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
 لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ
 يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
 الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
 سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
 خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
 الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا
 آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
 لَمِيتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ
 خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقُ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

سورة المؤمنون

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر صفات المؤمنين فيها

كتب الله الفوز والسعادة في الدارين للمؤمنين الصادقين، الذين يخشعون في صلاتهم، ويخافون ربهم من فوقهم، ويستشعرون وقوفهم بين يدي الله في الصلاة، خشعت قلوبهم قبل جوارحهم، فغضوا بذلك أبصارهم، فوجدوا الراحة والطمأنينة، وقرة العين في الصلاة، وهم في غير الصلاة معرضون عن الباطل، وأعظمه الشرك بالله، وكل ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، يزكون أنفسهم من الشرك ودنس المعاصي، ويخرجون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم، يرونها مغتًا، وطهرة لأموالهم، ويحفظون فروجهم من الحرام، فلم يقعوا فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم اللاتي أحلهن الله لهم، وما ملكت ألبانهم من السرايري، ومن فعل ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ومن تعدى إلى غير الأزواج والإماء، فهو من المعتدين، والمؤمنون إذا أؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدوا الأمانة إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاهدوا أوفوا بعهودهم وعقودهم، والمؤمنون يواظبون على الصلاة في مواعيها لا يؤخرونها حتى يخرج وقتها، ولا يتعمدون النوم عن الصلاة، ولا يشغلهم شيء عنها، تلك صفات المؤمنين الحميدة وأفعالهم الرشيدة، كانت لهم طريق إلى الجنة، فما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبني بيته الذي في النار، فالمؤمنون يرون منازل الكفار؛ لأنهم كلهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام المؤمنون بها أوجب الله عليهم من العبادة، وترك الكفار ما أمروا به مما خلقوا له ورث المؤمنون نصيبهم.

وقد خلق الله الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، وهو آدم عليه السلام فخلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبيث والطيب، وبين ذلك، ثم جعل نسل آدم يخلقون من ماء الرجل وماء المرأة فأول ما يكون نطفة تكون في الرحم إلى مدة ثم تصير علقة حمراء وهي دم، ثم تكون العلقة مضغة وهي قطعة كالْبَضْعَة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم تكون المضغة عظامًا فتشكل وتخلق ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها فيجعل عليها من اللحم ما يستره ويشده ويقويه، ثم ينفخ فيه الروح، فيتحرك ويصير خلقًا آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب فينقله من حال إلى حال، إلى أن يخرج طفلًا ثم ينشأ صغيرًا، ثم يبلغ، ثم يكون شابًا، ثم كهلاً ثم شيخًا، ثم هرمًا.

فتعالى شأنه في علمه الشامل وقدرته الباهرة، فهو أحسن المصورين والمقدرين، خلق عباده وأوجدهم ثم يميتهم ثم يبعثهم يوم القيامة، وخلق السموات السبع، وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، خلقهن سبع سموات بعضها فوق بعض ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن، حفظًا للعباد وتيسيرًا لمعاشهم.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَاوِكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَتَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

من نعم الله على عباده التي لا تعد ولا تحصى، إنزاله القطر من السماء، وإنزاله بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزرع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأرض التي تحتاج إلى ماء كثير لزرعها ولا تحمل إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، ومن نعمه أن جعل الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعل في الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، ولو شاء الله ألا تمطر لفعل، ولو شاء لصرفه عن الناس إلى السباخ والبراري والبحار والقفار لفعل، ولو شاء لجعله أجاباً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعل، ولو شاء لجعله لا ينزل في الأرض، بل يكون على وجهها لفعل، ولو شاء لجعله إذا نزل في الأرض يغور إلى مدى لا يصل إليه الناس ولا ينتفعون به لفعل، ولكن بطفه ينزل عليهم الماء من السحاب عذباً فرائاً زلاً لا فيسكنه في الأرض ويسلكه بنابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، فيسقي به الزرع والثمار، ويشربون منه وتشرب دوابهم وأنعامهم، ويغتسلون منه ويتطهرون ويخرج به بساتين وحدائق ذات منظر حسن، فيها نخيل وأعناب، ومن جميع الثمار، ينظر العباد إلى حسنه ونضجه، ومنه يأكلون، وشجرة الزيتون شجرة تخرج من جبل الطور، وهو طور سيناء، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون، تلك الشجرة تخرج بالدهن، وأدم للأكلين، والأنعام خلق الله فيها من المنافع، يشرب العباد من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من نسلها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملون عليها الأحمال الثقيل إلى البلاد النائية عنهم، كما يحملون على السفن في البحار، وقد أرسل الله نوحاً ﷺ إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، فأمرهم بالتوحيد ونبذ الشرك، فقال السادة والأكابر من قومه، ما هو إلا بشر يريد أن يترفع عليكم ويتعاطم بدعوى النبوة، ولو أراد الله أن يبعث نبياً، لبعث ملكاً من عنده وما سمعنا ببعثة البشر في أسلافنا وأجدادنا والأمم الماضية، وما هو إلا مجنون فيها يزعمه من أن الله أرسله إليكم، فانتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه، فلما رأى نوح ﷺ عنادهم واستكبارهم وكفرهم، ومكث فيهم تسعةائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى التوحيد، دعا ربه يستنصره على قومه، عند ذلك أمره الله تعالى بصنع السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، من ذكر وأنثى، من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله إلا من سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، وأمره الله عند معايته إنزال المطر العظيم، ألا تأخذه رافة بقومه، وشفقة عليهم، وألا يطمع في إيمانهم، فإن الله قد قضى بإغراقهم على ما هم عليه من الكفر والطغيان.

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا
 مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ
 الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا
 مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا
 اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِِقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَّرفَتُهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا
 مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
 تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ
 ﴿٣٤﴾ أَعِدَّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ
 ﴿٣٥﴾ هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
 أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾
 فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾



أمر الله نبيه نوحًا ﷺ إذا نزل العذاب بقومه، واستوى على الفلك هو ومن آمن معه أن يقول الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وتلك دعوة المؤمنين، وأمره الله عند انتهاء سيره، وعند نزوله أن يقول قل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين، والله خير الحافظين لعباده ينزلهم المنازل، ويبارك لهم فيها ويحفظهم بها.

وأنجى الله المؤمنين وأغرق الكافرين وكانت آية من آيات الله، وعظة وعبرة لجميع الأمم والأجيال، فقد كانت قصة قوم نوح ﷺ، مثلاً في صبر النبي ﷺ، ومثلاً للتكذيب والصدود والإعراض، ومثلاً لنهاية الشرك بالله، وما كان إرسال نوح ﷺ ووعظه وتذكيره إلا اختباراً لقومه، ليرى ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم، ولتقوم عليهم الحجة.

ثم بعد قوم نوح، قوم عاد؛ أرسل الله فيهم هودًا ﷺ رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فأمرهم بالتوحيد ونهاهم عن الإشراك بالله، فكذبوه وخالفوه، وأبوا اتباعه لكونه بشراً مثلهم، فكذبوا بقاء الله في القيامة، وأنكروا المعاد والبعث بعد الموت وقال أشرافهم وقادتهم، الذين كذبوا بها في الآخرة من الحساب والعقاب، وكذبوا بالبعث، وقد وسع الله عليهم من نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه من كثرة الأموال ورفاهة العيش، كيف تطيعون من يساويكم في البشرية، وفي الأكل والشرب، وهذا يستلزم أنه لا فضل له عليهم، فالحسارة في اتباعه وترك الآلهة، فجعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها قاتلهم الله أتى يؤفكون، فأرسل الله عليهم الريح العقيم فجعلتهم كالرميم.

ومن بعدهم ثمود كذبوا رسولهم صالحًا ﷺ وكفروا بالله وقالوا إنه كاذب فيها جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد، فاستفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، عند يأسه من إيمانهم بعدما سلك في دعوتهم كل مسلك فأجاب الله دعاءه ووعد بهلاكهم فأهلكوا بالصيحة، وكانوا يستحقون ذلك، فجعلتهم الصيحة صرعى هلكى كغثاء السيل فأبعد الله القوم الظالمين أنفسهم بالشرك وأهلكهم.

وخلق الله الأمم والخلائق بعدهم، وأنعم عليهم بالنعم المتتابعة، وأرسل إليهم الرسل فكذبوا وكفروا، وجحدوا نعم ربهم، فأصابهم ما أصاب الأمم قبلهم، وتلك سنة الله في المكذبين المعاندين، ينزل عليهم عذابه وسطوته، وتلك سنة الله في الموحيين ينزل عليهم نصره وتأييده وحفظه.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا
 كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَبُوهُ فَاتَّبَعَنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ
 أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ
 هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
 وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ
 ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
 ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَةً آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
 ﴿٥٠﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا
 تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
 فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
 فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا
 نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ
 ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
 بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

جعل الله لكل أمة أجلاً لا يستأخرون عنه ولا يستقدمون، بل يؤخذون حسب ما قدر لهم الله تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم، أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلقاً بعد سلف، وقد أرسل الله الرسل يتبع بعضهم بعضاً لكل أمة رسول أن اعبدوا الله واجتنبوا الطواغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، فكلما جاء أمة رسولها كذبوه وكفروا بالله فأهلكهم الله، حتى صاروا بعد الهلاك أخباراً وأحاديث للناس يتناقلونها بينهم، وبعث الله رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج والبراهين القاطعات، فكفر فرعون وقومه واستكبروا عن اتباعها، والانقياد لأمرهما، لكونها بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى عليه السلام التوراة، فيها أحكامه وأوامره ونواهيها، وذلك بعد أن أهلك الله فرعون والقيبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، وقد جعل الله قصة عبده ورسوله عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى، وأوحى الله لمريم أن تنفرد في مكان مرتفع وماء ظاهر جارٍ في بيت المقدس حين اقترب مخاضها لتلد عيسى في معزل من الناس حفظاً لعيسى من أذاهم، وأمر الله عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، وأن أكل الحلال سبب لإجابة الدعاء، وأما من مطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، لا يستجاب له، ويتورع المسلم عن المشتبه؛ لأن المشتبه طريق للحرام، ودين الأنبياء واحد، وملتهم واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ وإن الذين تفرقوا واختلفوا هم الذين بعث إليهم الأنبياء، كل فرقة يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ومستمرون في غيهم وضلالهم إلى حين هلاكهم، فهل يظن أولئك المغرورون أن ما يعطيهم الله من الأموال والأولاد لكرامتهم على الله؟ بل ذلك استدراج وإنظار وإملاء، وقد مكر الله بهم في أموالهم وأولادهم، فالعبرة ليست بالأموال ولا بالأولاد، ولكن العبرة بالإيمان والعمل الصالح، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، أولئك أهل الإيمان، يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، ولا يعبدون مع الله غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله الأحد الصمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفاء له.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاوًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾
 أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكِلْهُ
 نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
 بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
 عَمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ
 ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي
 تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
 بِهِ سَمِرًا تَهَجَّرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ
 ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ
 ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ
 كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
 ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَجًا فَخَرَجَ رَبِّكَ خَيْرٌ
 وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
 وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿٧٤﴾

أهل الإيمان مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكروههم، يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم، لخوفهم، أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، يصلون ويصومون ويتصدقون، ويخافون أن ترد أعمالهم، ويبادرون إلى الأعمال الصالحات، وهم إليها سابقون، يتنافسون فيها ابتغاء مرضاة الله، والله لم يكلف العباد بها لا يطيقون، بل يسر لهم في شرعه.

ويوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور، لا يضيع منه شيء، لا يُخسبون من الخير شيء، وأما السيئات فيعفو الله عنها ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

وأما أهل الشرك فإن قلوبهم في غفلة وضلالة عن القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ هداية للبشرية، وقد كتب عليهم أعمالاً سيئة دون الشرك، لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحقق عليهم كلمة العذاب، فإذا أخذ المذنبين في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم إذا هم يصرخون ويستغيثون، فلا محير لهم ولا مغيث، ولا محيد ولا مناص، فقد كانوا إذا دعوا إلى الإيمان أبوا، وإذا دعوا إلى التوحيد كفروا، وإن يشرك بالله يؤمنوا؛ استكباراً عن الحق واحتقاراً له ولأهله، يقضون أوقاتهم بالاستهزاء بالحق وأهله، بفحش من القول والفعل، فلو تدبروا معاني القرآن لظهر لهم صدقه وآمنوا به وبإلهه، ولكن استنكروا القرآن، لأنه لم يأت آباءهم الأولين رسول، وقد بعث فيهم رسول يعرفونه بالأمانة والصدق فأنكروه، واتهموه بالجنون مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلاً، ولكنه جاء بما يخالف هواهم فدفعوه وجحدوه تعصباً وحمية، وقد جاءهم بالدين القويم، ولكنهم لما جبلوا عليه من التعصب انحرفوا عن الصواب، وابتعدوا عن الحق، وكرهوا هذا الحق الواضح الظاهر، ولو جاء الحق على ما يهونه ويريدونه لكان ذلك مستلزماً للفساد العظيم، وخروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية، وفي هذا يتبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره لخلقته تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه.

وقد جاءهم القرآن، هداية لهم، ولكنهم أعرضوا وجحدوا واستكبروا فضلوا ضلالاً مبيناً، والأنبياء محتسبون في دعوتهم لا يسألون الناس أجراً على دعوتهم، بل يسألون الله الأجر والثواب، يدعون إلى الإسلام ولكن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الإسلام منحرفون.

﴿٧٥﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ
 وَمَا يَنْضَرُّونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
 وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ
 اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾
 قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾
 قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِنْ يَدَيْهِ
 مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

من كتب الله ضلاله فلن يستفيد من مواعظ القرآن وهدايته، ولو أفهمه الله القرآن، لما انقاد له.

ولاستمر على كفره وعناده وطغيانه، ومن كتب الله ضلاله لو ابتلي بالمصائب والشدائد لم ترده عما هو فيه من الكفر والمخالفة، بل يستمر في ضلاله وغيه، فما يخشع، ولا يرعوي، ولن يفيق من غفلته، إلا إذا جاء أمر الله وجاءته الساعة بغته، وأخذ من عقاب الله ما لم يكن يحتسب، فعند ذلك يبلس من كل خير، ويأس من كل راحة، وتنقطع آماله، مع ما أعطاه الله من السمع والبصر والعقل، فلم ينتفع بها، فقد أنعم الله على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والعقول والفهم التي يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بها في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، فما أقل شكر العباد لله على ما أنعم به عليهم، ومن قدرة الله العظيمة وسلطانه القاهر خلقه الخليقة وإيجاده لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً إلا أعاده كما بدأه، يميت الأمم ويحيي الرمم، ومن قدرة الله تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما، فأين العقول التي تدل على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء، والعقول الضالة تشابه في التفكير، فالذين أنكروا البعث، أشبهوا من قبلهم من المكذبين فاستبعدوا البعث بعد صيرورتهم إلى البلى، والله عز وجل متفرد بالألوهية، كما هو مستقل بالخلق والتصرف والملك، فهو سبحانه لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فكما يعترفون أن الذين يعبدونهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، وإنما تقرهم إليه زلفى، فلا بد أن يعترفوا بأن الله وحده لا شريك له.

فهو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات، وهو أعظم المخلوقات؟ وهم يعترفون بذلك، أفلا يخافون عقابه ويحذرون عذابه، في عبادتهم معه غيره وإشراكهم؟ فهو سبحانه بيده الملك، وهو الخالق المالك المتصرف، وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، والذي لا يناع ولا يخالف، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يسأل عما يفعل، لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته، والخلق كلهم يسألون عن أعمالهم، وهم يعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يحار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له، فأين تذهب عقولهم في عبادة غيره معه؟!

بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ
 وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ رَبِّ
 إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾
 أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يُصِفُونَ ﴿٩٦﴾
 وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ
 رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
 ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ
 هِيَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَلِذَا نُفِخَ
 فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾
 فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ
 خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ
 خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

أقام الله الحجة على المشركين بإرسال خير الأنام عليه الصلاة والسلام، وبإنزال القرآن، الذي فيه تحقيق التوحيد.

وفيه الإعلام بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وفيه الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ولكن المعاندين كاذبون في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم.

فإن لم يكن له ولد أو شريك في الملك، ويستحيل في العقل وجود إله آخر، لأنه لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط ببعضه ببعض، في غاية الكمال، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعملو بعضهم على بعض، سبحانه الله عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً، فهو سبحانه يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون.

وقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يدعو هذا الدعاء عند حلول النقم: رب إما تريني ما يوعدون، فإذا نزلت العقوبة فلا تجعلني فيهم، ولذلك كان وجود النبي وحياته أمان لهم من العقوبة العامة، ولو شاء الله لآراه ما يحل بهم من النقم والبلاء والمحن، وأمره بالإحسان إلى الناس عند مخالطتهم، وهو خلق نبوي كريم، الإحسان إلى من يسيء؛ ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، وما يوجب هذه الصفة إلا من صبر على أذى الناس، فعاملهم بالجميل مع إسدائهم إليه القبيح، وهو المحظوظ في الدنيا والآخرة، والشيطان هو الذي يأمر بالانتقام عند الغضب، فأمر المسلم أن يستعيز بالله من الشياطين، لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا يتقادون بالمعروف، وأمر المسلم بذكر الله في ابتداء الأمور، وذلك مطردة للشياطين عند الأكل ودخول البيت والخروج منه والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، والكافرون المعاندون يتمنون الرجعة عند نزول الموت بهم أو المفرطون في أمر الله تعالى، يسألون الرجعة إلى الدنيا ليصلحوا ما أفسدوه في مدة حياتهم؛ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، فهم يسألون الرجعة عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم فلا يجابون، فما تمنوا الرجوع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنوا الرجوع لعمل الصالحات، فانظر إلى أمتية الكافر المفرط فاعمل بها، وأمامهم حاجز بين الدنيا والآخرة - وهو القبر - وأهل القبور، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم، يعذب الظلمة بعذاب البرزخ، ويستمر بهم العذاب إلى يوم البعث، وينعم أهل الإيمان في قبورهم إلى يوم القيامة، فإذا نفخ في الصور، وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل نفخة النشور، فيقوم الناس من القبور، فيحينئذ لا تنفع الأنساب، ولا ينفع والد ولده، ولا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وقد كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حل عنه وزن جناح بعوضة، بل ينادى مناد ألا من كان له مظلمة فليجيئ فليأخذ حقه، فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً؛ فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، فاز ونجا من النار وأدخل الجنة، ومن ثقلت سيئاته على حسناته، خاب وهلك، وباء بالصفقة الخاسرة، تحرق النار وجهه، فيسيل لحمه على عقبه، وهو في النار عابس من هول العذاب وسوء المصير.

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا
 رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا
 أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا
 وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا
 ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
 سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
 إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ
 كَمْ لَيْسْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ
 يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَّيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَا أَنَا
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
 إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾

يؤيخ أهل النار ويقرعون، على ما ارتكبوا من الكفر، والمآثم والمحارم، والعظائم، التي أوقعتهم في النار، فقد أرسلت إليهم الرسل، وأنزلت الكتب، ولم يبق لأحد حجة فيعترفون بأن الحجة قامت عليهم، ولكنهم كانوا أشقى من أن ينقادوا لها أو يتبعوها، فضلوا عنها، ويسألون أن يردوا إلى الدار الدنيا، فإن عادوا إلى الكفر فهم الظالمون المستحقون للعقوبة، فيقال لهم امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء، ولا تعودوا إلى سؤالكم الرجعة.

لقد كانوا في الدنيا يستهزئون بعباد الله المؤمنين وأوليائه، سخروا منهم في دعائهم الله وتضرعهم إلى الله، حتى حملهم بغضهم أولياء الله أن نسوا عبادة الله، وكانوا يضحكون من عبادتهم الله، فجزي الله أولياءه وعباده الصالحين بما صبروا على أذى الكفار لهم واستهزائهم منهم، أنهم الفائزون بالسعادة والسلامة والجنة، والناجون من النار.

ربنا لا تحرمنا ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين هذا الفوز.

وأما الذين فسقوا فقد أمضوا عمرهم القصير في الدنيا في غير طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، فهم في الآخرة ينظرون إلى عمر الدنيا في حساب الحاسبين أنها مدة يسيرة على كل تقدير فلو أنهم عملوا بطاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفازوا كما فازوا.

ولو عرفوا مهمتهم في هذه الحياة، والهدف من إيجادهم، وأنهم لم يخلقوا عبثاً بلا قصد ولا إرادة ولا حكمة، لم يشركوا بالله ولم يكذبوا رسل الله، ولو آمنوا بالبعث بعد الموت وبالآخرة لم يكفروا، فتقدس الله أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم، والعرش أعظم المخلوقات وهو سقف جميع المخلوقات، حسن المنظر بهي الشكل، فمن أشرك بالله غيره، وعبد معه سواه بلا دليل فإن الله يحاسبه على ذلك.

والكفار لا فلاح لهم ولا نجاة يوم القيامة، والمؤمنون لهم المغفرة والرحمة، وفي ذلك تنبيه للدعاء بهذا الدعاء: "رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين"، فالمغفرة محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة أن يسدده الله ويوفقه في الأقوال والأفعال، فاللهم اغفر ذنوبنا وارحمنا ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
 ١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ
 بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ
 عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
 مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ ٣ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
 فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْفَاسِقُونَ ٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ ٥ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ
 فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٦
 وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٧ وَيَدْرَأُ
 عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ
 ٨ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٩
 وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠

سورة النور

وهي سورة مدنية بالإجماع، سميت بذلك لذكر نور الله تعالى فيها، وذكر فيها آثار النور في القلوب والأرواح سورة النور أنزلها الله تعالى، وأمر عباده بالاعتناء بها، والعمل فيما بين فيها من الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود وآيات مفسرات واضحات فيها العظة والذكرى، ومن ذلك حد الزنا، فالزاني لا يخلو إما أن يكون بكرًا، وهو الذي لم يتزوج، أو محصنًا، وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج، فإن حده مائة جلدة، ويزاد على ذلك أن يغرب عامًا عن بلده، فأما إن كان محصنًا فإنه يرجع حتى الموت، ولا يجوز ترك الحد رافة بالزاني والزانية، بل الرافة في إقامة الحد، والحدود إذا رفعت إلى السلطان، تقام ولا تعطل.

ويقام الحد علانية، ليكون أبلغ في الزجر، وأنجع في الردع، فإن في ذلك تقيعًا وتوبيخًا وفضيحة. وقد حرم الله الزنا ودواعيه ووسائله الموصلة إليه، والزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، والزانية لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك، وحرم على المؤمنين الزنا والتزوج بالباغيا، أو تزويج العفاف بالفجار من الرجال.

ويحرم رمي العفيفات بالزنا فإن ذلك جريمة تستوجب الحد، والقاذف يجلد ثمانين جلدة، وترد شهادته دائمًا، ويكون فاسقًا ليس بعدل، لا عند الله ولا عند الناس، ومن تاب عن القذف أقيم عليه الحد وقبلت شهادته.

وأما الزوج إذا قذف زوجته وتعرس عليه إقامة البينة، فيشرع اللعان، وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فإذا قال ذلك، بانت منه بنفس هذا اللعان، وحرمت عليه أبدًا، ويتوجه عليها بحد الزنا، ولا يدرأ عنها الحد إلا أن تلعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فيها رماها به، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

والله تعالى لطيف بخلقه، رءوف بهم، شرع لهم الفرج والمخرج من كل شدة وكل ضيق، فلو لا فضل الله على عباده ورحمته بهم، لوقعوا في الحرج ولشق عليهم كثير من أمورهم، والله تواب على عباده فيما أخطئوا فيه، حكيم فيما يشرعه من الأحكام ويأمر به، وفيما ينهى عنه.

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ
 خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى
 كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
 وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا
 جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ
 عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
 إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالْسِّنَتِ كُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ
 وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
 قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مُبْتَدَأٌ عَظِيمٌ
 ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
 وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

حادثة الإفك، وهو الكذب الذي افترى فيه على الصديقة بنت الصديق ﷺ، واتهمت في شرفها وعرضها فبرأها الله مما اتهمت به، وقصة الإفك أن عائشة ؓ خرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب، فكانت تحمل في هودج، فإذا نزلوا منزلاً أنزلوها، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه ورجع ودنوا من المدينة، أذن ليلة بالرحيل، فإذا عقد من جزع قد انقطع، فرجعت عائشة تلتمس عقدها فتأخرت، وأقبل الذين يرحلونها فحملوا هودجها فرحلوه على بعيرها الذي كانت تركبه، وهم يحسبون أنها فيه، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدها بعدما استمر الجيش، فجاءت منازلهم فلم تجد أحداً، وظنت أن القوم سيفقدونها فيرجعون إليها، فنامت وكان صفوان بن المعطل ؓ، نائم من وراء الجيش، فمشى، فرأى سواد إنسان نائم، فأتى المكان فعرف أنها عائشة ؓ، وقد كان يراها قبل أن يفرض الحجاب، فاستيقظت عائشة باسترجاعه فخمرت وجهها، ولم يكلمها بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فركبتها عائشة ؓ، فانطلق يقودها الراحلة حتى أتوا الجيش بعدما نزلوا في نحر الظهيرة، فهلك من هلك فأشاعوا حديث الإفك، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فقدموا المدينة واشتكت عائشة ؓ حين قدموا شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، وهي لا تشعر بشيء من ذلك، حتى خرجت بعدما شفيت، مع أم مسطح لقضاء الحاجة، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقالت عائشة بنسأ قلت، تسبين رجلاً قد شهد بداراً، فقالت ألم تسمعي ما قال؟ قالت عائشة وماذا قال؟ فأخبرتها بقول أهل الإفك، فازدادت مرضاً، فلما رجعت إلى بيتها دخل عليها رسول الله ﷺ، فسلم، ثم قال كيف تيكمن؟ فقالت عائشة أتأذن لي أن آتي أبوي فأذن لها رسول الله ﷺ، فجاءت إلى أهلها فقالت يا أمه، ما يتحدث الناس فقالت أي بنية هوني عليك، فقالت عائشة سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم، ثم أصبحت تبكي، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر يا معشر المسلمين من يعذري من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، ثم دخل رسول الله ﷺ بيت أبي بكر فسلم ثم جلس، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت أملت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمع عائشة حتى ما تحس منه قطرة، وقالت إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا، حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله ﷻ أعلم أنني بريئة تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف فصب رجلاً على ما تصفون ثم تحولت فاضطجعت على فراشها، فأُنزل الله على نبيه البراءة فقال أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأك، فكانت حادثة الإفك خيراً لعائشة أنزل الله براءتها في القرآن، ومن تكلم في هذه القضية، ورمى أم المؤمنين عائشة ؓ بالفاحشة، له نصيب عظيم من العذاب والعقوبة والذي ابتدأه وأشاعه له العذاب العظيم، وكان الأولى بالمؤمنين أن يقيسوا الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى، وقالوا هذا كذب ظاهر على أم المؤمنين؛ لأنهم لم يأتوا بشهود فهم الكاذبون، وتناقل الناس للخبر بلا علم ولا تثبت ذنب عظيم، وليس يسير القذف بالزنا، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل، والواجب أن المسلم لا يتكلم بهذا الكلام ولا يذكره لأحد، أما الذين يختارون ظهور الكلام القبيح في حق المؤمنين، لهم عذاب في الدنيا بالحد، وفي الآخرة العذاب الأليم.

﴿٢١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ وَمَنْ يَتَّبِعْ
 خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكٰى مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي
 مَنْ يَشَآءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ
 وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ
 الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾
 يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 ﴿٢٥﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
 الْمُبِينُ ﴿٢٦﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ
 وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ
 مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٧﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا
 وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾

أمر الله عباده المؤمنين بالابتعاد عن طرق الشيطان ومسالكه وما يأمر به، من قبائح الأفعال، وما يكرهه الله ﷻ، ومن توهين المعصية ومحبة أن تنتشر بين المؤمنين، ولولا أن الله يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شرورها وفجورها، وما فيها من أخلاق رديئة، كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً، فالله يزكي من يشاء من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغى، والله سميع لأقوال عباده عليم بهم، من يستحق منهم الهدى والضلال.

وقد حلف الصديق ﷺ ألا ينفع مسطح بن أثاثه بنافعة، بعدما قال في عائشة ما قال من حديث الإفك، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه، شرع تبارك وتعالى أن يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثه، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ﷺ، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد وقع في الذنب وتاب الله عليه منه، وضرب الحد عليه، وكان الصديق ﷺ معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فقال الصديق بلى والله إنا نحب يا ربنا أن يغفر لنا، ثم أرجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة.

وأما الذين يرمون العفاف، الغافلات عن الفواحش، اللاتي لا يقع في قلوبهن فعل الفاحشة، فيعذبون بالحدود في الدنيا، وفي الآخرة بالنار، ويوم القيامة تشهد عليهم ألسنتهم بما تكلموا به وأيديهم وأرجلهم بما عملوا بها في الدنيا، وإن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم بذنوبهم التي اقترفوها، ومعاصيهم التي عملوها، وأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم عليها موفراً، ويعلمون عند معاينتهم لذلك ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز إن الله هو الحق في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ووعدته ووعدته وحسابه.

والخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال لا يتجاوزنهم، والخبيثون مختصون بالخبيثات لا يتجاوزنهن، ولا يتكلم بالخبيث من الكلام إلا الخبيث من الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيب من الكلام إلا الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة بالخبث، ومدح للذين برءوها، فالطيبيون والطيبات مبرءون مما يقوله الخبيثون والخبيثات وهم مغفرة عظيمة من الذنوب، وفي الآخرة الجنة، ولما كان من وسائل الزنا والقذف دخول البيوت بغير استئذان نهي عنه، لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدي إلى أحد الأمرين، والإنسان يكون في بيته، ومكان خلوته على حالة لا يجب أن يراه عليها غيره، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الآخرين حتى يعلم صاحب البيت بمن يريد الدخول، ويأذن بالدخول ويسلم فيقول السلام عليكم أأدخل؟ ثلاثاً، فإن أذن له، وإلا انصرف.

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ
 قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
 فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾
 قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ
 ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ
 يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
 زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ
 وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
 آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
 أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ
 الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
 وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا
 إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

أدب الله عباده المؤمنين بوجوب الاستئذان عند دخول البيوت، فإن لم يجدوا في البيوت أحدًا يأذن لهم في دخولها فلا يدخلونها، وإن قيل لهم ارجعوا، فليرجع ولا يقف على الباب ملازمًا، لأنه أظهر للقلوب وأصلح للحال، فإن كانت البيوت ليس فيها أحد، وفيها متاع للإنسان، جاز له الدخول بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذا أذن له فيه أول مرة، والمحلات التجارية، ومنازل الأسفار المعدة للمسافرين.

وعلى كل مسلم غض بصره عن عورات المسلمين وما شرع الاستئذان إلا من أجل البصر، وفي غض البصر تخصيص للفرج وبعد عن الحرام، لأن النظر المحرم يورد المهالك، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعًا، لأن النظر داعية إلى فساد القلب، وهو سهم مسموم إلى القلب، وزنا العينين النظر، وحفظ البصر أظهر للقلوب وأنقى للدين، ومن حفظ بصره، أورثه الله نورًا في بصيرته. وأمر الله تعالى النساء المؤمنات أن يغضضن أبصارهن عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، فلا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب بشهوة، وعليها أن تحفظ نفسها ألا يراها أحد، ولا يظهر شيء من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه، كالرداء والثياب والعباءة، وأمر الله النساء بالحجاب، وذلك بوضع الخمار على الرأس فيستر الوجه والصدر وليشددن خمرهن على جيوبهن فتغطي الرأس والوجه والنحر والصدر، فلا يرى منه شيء، ولا تظهر ذلك إلا لمحارمها، وهم الزوج والأب والابن وأبناء الأولاد، والجد والعم والخال، وأبناء الأخ والأخت، والنساء، وما ملكت أيمانهن من الأرقاء، ومن يدخلون البيوت ممن في عقولهم نقص، وليس في قلوبهم ميل إلى النساء ولا يشتهونهن، والأطفال الذين لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقًا أو قريبًا منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكن من الدخول على النساء، ولا يجوز للمرأة إظهار شيء من زينتها مستورًا، وقد كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يسمع صوته ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشم الرجال طيبها، وعلى المؤمنين والمؤمنات فعل ما أمر الله به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، وترك ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر به الله ورسوله، وترك ما نهى عنه الله ورسوله.

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ
يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا
تُكْرَهُوا فَيْتَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَتْنَعُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ
لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ
وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾



أمر الله عباده المؤمنين بالنكاح، وأمر الأولياء بتزويج الأكفاء ولو كانوا فقراء، فإن النكاح سبب من أسباب الغنى فمن أطاع الله فيها أمره به من النكاح، أنجز الله له ما وعده من الغنى، فالناكح يريد العفاف بعينه الله ويوفقه، وقد زوج رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد إلا إزاره، ولم يقدر على خاتم من حديد، وجعل الصداق عليه أن يعلمها ما يحفظه من القرآن، ومن لم يستطع على النكاح فعليه بالاستعفاف عن الحرام، وبالصوم فإنه له وقاية.

وإذا طلب العبد المملوك من سيده الكتابة فعلى سيده أن يكتبه، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه، ويعطى من نصيبه الذي فرض الله له من أموال الزكاة، ونهي المسلمون عن التكسب بالإماء، فقد كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، والله من بعد إكراههن لمن غفور رحيم وإثمهن على من أكرههن. والله أنزل في القرآن آيات ووضحات مفسرات، وخبراً عن الأمم الماضية، وما حل بهم في مخالفتهم وأوامر الله تعالى وزاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم لمن اتقى الله وخافه.

والله نور، وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبنوره استنارت المخلوقات: العرش، والكروسي، والشمس، والقمر، والجنة، والسموات والأرض، وكتابه العزيز نور للقلوب، وشرعه نور، والإيمان نور في قلوب المؤمنين، فلولا نور الله تعالى، لأظلم كل شيء، فمثل نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين كنور الكوة في الحائط غير النافذة، لأنها أجمع للضوء الذي يكون فيه، فيها سراج ضوءه مشرق في زجاجة صافية، كأنها كوكب مضيء، يستمد نوره من زيت الزيتون من شجرة في مكان وسط، تشرق الشمس عليها من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها معتدلاً صافياً مشرقاً، يضيء ولو لم يشتعل، فيجتمع نور النار ونور الزيت، فكذا نور القرآن ونور الإيمان حين يجتمعان، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه، وكذلك إيمان العبد وعمله، فمثل المؤمن: المشكاة نفسه، والزجاجة صدره، والمصباح ما جعل الله فيه من الإيمان والقرآن، ويرشد الله إلى هدايته من يختاره، ويبين الله الأشياء للناس تقريباً للأفهام وتسهيلاً لسبل الإدراك، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس، وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً، والله لا يغيب عنه شيء من الأشياء معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً، أو باطناً.

وقلوب المؤمنين معلقة بالمساجد التي أمر الله بتطهيرها من الدنس واللغو والأفعال والأقوال التي لا تليق فيها، وأمر ببنائها ورفعها، وعمارها حسناً ومعنى، فبناؤها المعنوي بالصلاة والذكر وتلاوة القرآن وبمجالس العلم في جميع الأوقات.

رَجَالٌ لَا لُئْلِهِمْ تَحْدَرُ ۖ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
 الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۖ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾
 لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
 مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ
 بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
 وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
 أَوْ كُظِّمَتْ فِي بَحْرٍ لَّجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ ۖ مَوْجٌ مِّن
 فَوْقِهِ ۖ سَحَابٌ ظُلُمَتْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدَهُ لَمْ
 يَكْدِرْنَهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
 اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَطْرُقَ عَلَى الْأَرْضِ ۖ وَهِيَ السَّمَاءُ وَهِيَ الْآرِضُ وَالطَّيْرُ وَهِيَ كُلُّ شَيْءٍ
 عَالِمٌ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِطُ
 سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
 خِلَالِهِ ۖ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ
 وَيَصْرِفُهُ ۖ عَنِ مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ۖ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾

المسلم الحق هو الذي التزم بحق الله لم تشغله الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذتها، وتجارتها، عن ذكر ربه الذي خلقه ورزقه، والذي يعلم أن الذي عند الله هو خير له وأنفع مما بيده؛ لأن ما عنده ينفد وما عند الله باق؛ يقدم طاعة الله ومراده ومحبته على مراده، لا يلهيه شيء عن حضور الصلاة، وقيمتها كما أمره الله، ويحافظ على مواقيتها، وما استحفظه الله فيها، وإذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسها، يخاف يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، من شدة الفزع وعظمة الأهوال، تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشرك والكفر، وتفتح الأبصار من الأغطية، وتتقلب القلوب بين الخوف والرجاء، تخشى الهلاك وتطمع في النجاة، فهذا وأمثاله يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم، ويتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، يجزيهم بحسناتهم، وما كان من مساوئ أعمالهم لا يجزيهم بها، ويزيدهم ما لم يستحقوه بأعمالهم، ويدخلهم الجنة، ويشفعون لمن وجبت له الشفاعة، ممن صنع لهم المعروف في الدنيا، والكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر عظيم، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء حسبه ماء فقصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه لم يجده شيئاً، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليه، ونوقش على أفعاله، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل؛ لعدم الإيمان والإخلاص، وأما المقلدون لأئمة الكفر، الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم كظلمات في بحر عميق، يعلو هذا البحر موج، فيستره ويغطيه بالكلية، ثم من فوق هذا الموج موج، والموج الثاني يعلوه سحاب، فيجتمع حينئذ عليهم خوف البحر وأمواجه، والسحب المرتفعة فوقه، فهي ظلمات متكاثفة مترادفة، إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل المقلد الذي لا يدري أين يذهب، ولا هو يعرف حال من يقوده، ومن لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر، ومن لم يجعل الله له هداية فما له من هداية، والله ﷻ ينزهه ويقده من في السموات والأرض من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجهاد، ولكن لا يفقه الناس تسييحهم، والطير في حال طيرانها تسبح ربها وتعبد بتسييح ألهما وأرشداهما إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، الكل قد أرشده الله إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ، وهو عالم بجميع خلقه، لا يخفى عليه من ذلك شيء، له ملك السموات والأرض، فهو الحاكم المتصرف الذي لا معقب لحكمه، وهو الإله المعبود الذي لا ينبغي العبادة إلا له، ويوم القيامة يحكم بين عباده بما يشاء، فيجازي الذين أساءوا بها عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالجنة، فهو الخالق المالك، له الحكم في الدنيا والأخرى، وله الحمد في الأولى والآخرة، فهو سبحانه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئه وهو ضعيف، ثم يجمعه بعد تفرقه، ثم يجعله متراكماً، يركب بعضه بعضاً، فترى المطر يخرج من السحاب، وفي السماء جبال من برد ينزل الله منها البرد، يكاد ضوء برقه من شدته يحطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته، فيصيب من يشاء بما ينزل من السماء من نوعي البرد والمطر رحمة لهم، ويؤخر الغيث عمن يشاء الغيث.

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أُنزِلَتْ آيَاتُ مُبَيِّنَاتٍ
وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ
ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ
يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ
﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ
لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

من قدرة الله تعالى تصريف الليل والنهار، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه، وفي ذلك دليل على عظمته تعالى.

ومن قدرته التامة وسلطانه العظيم، خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، فمنها من يمشي على بطنه كالحية، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطير، ومنهم من يمشي على أربع كالأنعام وسائر الحيوانات؛ يخلق ما يشاء بقدرته؛ وهو على كل شيء قدير، وقد أنزل الله في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة، ما هو هداية لمن تفهمها من أولي الأبواب والبصائر والنهي.

ومن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم: آمنا بالله وبالرسول، ثم يخالفون أقوالهم بأفعالهم، فيقولون ما لا يفعلون، وإذا طلبوا إلى اتباع الهدى، فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وإذا كان الحكم لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين، وإذا كان الحكم عليهم أعرضوا ودعوا إلى غير الحق، وأحبوا أن يتحاكموا إلى غير النبي ﷺ ليروجوا باطلهم، فلا يخرج أمرهم عن أن يكون في قلوبهم مرض ملازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافوا أن يبور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأياً ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم، وهم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

وأما صفة أهل الإيمان الذين استجابوا لله ولرسوله، الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فإنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم قالوا: سمعاً وطاعة، فهم الفائزون بالمطلوب والسالمون من المرهوب.

فمن أطاع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه، وخشي الله فيما مضى من ذنوبه، واتقاه فيما يستقبل فهو الفائز بكل خير، والأمن من كل شر في الدنيا والآخرة، وأهل النفاق الذين يلحفون للرسول ﷺ لئن أمرهم بالخروج في الغزو ليخرجن، فأجابهم القرآن لا تحلفوا، قد علمت طاعتكم، إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتكم كذبتهم، والله خير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه، وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، خير بضمائر عباد، وإن أظهرها خلافها.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
 وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
 إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
 الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
 وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
 شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
 تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
 وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَيَسْتَغْفِرَنَّ لَكُمْ أَلَيْسَ لَكُم مِّنكُمْ الَّذِينَ لَمْ يَلْغُوا فِي الْحُلُمِ مِنْكُمْ
 ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ
 وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
 وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى
 بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

أمر الله بطاعته وبطاعة رسوله ﷺ، وذلك باتباع كتاب الله وسنة رسوله، فمن تولى عن الرسول وترك ما جاء به، فإنما عليه إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، وعلى المؤمنين طاعته وتعظيمه والقيام بحقوقه، فمن أطاعه فقد اهتدى، لأنه يدعو إلى صراط مستقيم، ووعد الله من أطاع الرسول ﷺ، بأن يجعلهم أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلهم بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وتظهر معالم الإسلام وشرائعه، ويجعل الله العز والتمكين للموحدين المخلصين الذين يحققون التوحيد وينشرونه ويدعون إليه، فمن كفر هذه النعم بعد هذا الوعد الصحيح واستمر على الكفر، أو كفر بعد إيمان، فأولئك هم الكافرون، الكاملون في الفسق، والفسق الخروج عن الطاعة، والطغيان في الكفر.

ومن أسباب رحمة الله بعباده القيام بالعبادة ومن أعظمها الصلاة والزكاة، فالصلاة أول ما ينظر من عمل العبد، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله، وفيها الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، والمتابعة للنبي ﷺ، فالمتابعة من أسباب الرحمة ودخول الجنة مع الإخلاص، أما من خالف النبي ﷺ وكذبه فإنهم لن يعجزوا الله، بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب؛ ومأواهم في الدار الآخرة النار وللبئس المآل لمالك الكافرين، وبئس القرار وبئس المهادر.

ومن الآداب الإسلامية استئذان الأقارب بعضهم على بعض فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيانهم، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال؛ الأول: من قبل صلاة الغداة؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم، وفي وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، وبعد صلاة العشاء لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يدخلوا دون استئذان على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى من أن يكون الرجل مع أهله، ونحو ذلك من الأعمال، وسميت هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته، أما إذا دخلوا في حال غير هذه الأوقات، فلا جناح في تمكينهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال؛ لأنه قد أذن لهم في الدخول، ولأنهم يكثر دخولهم للخدمة وغير ذلك، فيغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم، والله يبين الله لعباده الآيات الدالة على ما شرعه لهم من الأحكام والآداب، والأخلاق، والله عليم بما في قلوب عباده حكيم في شرعه وأوامره ﷻ.

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَضِنُّوا كَمَا اسْتَضَنَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ
 نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
 غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ
 حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا
 مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
 أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ
 أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
 جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
 تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ
 يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

الأطفال إذا بلغوا مبلغ الرجال وجبت عليهم الأحكام الشرعية ومن ذلك وجوب استئذانهم، عند دخول بيوت الآخرين، وتلك من الآداب التي أمر الله بها، والواجب على المرأة أن تحتجب عن الأجانب، ولا يجوز أن تبدي شيئاً منها للأجنبي، وأما المرأة التي لا تطمع بالنكاح لكبرها، فلا جناح عليها أن تضع حجابها بشرط عدم الزينة لانصراف الأنفـس عنها، إذ لا رغبة للرجال فيها، فأباح الله سبحانه لها ما لم يبحه غيرها، وإذا تركن وضع الثياب فهو خير لها من وضعها.

وهذا يدل على أن المرأة التي ليست من القواعد يحرم عليها أن تضع حجابها، وتتبرج بالزينة، فلو كانت القواعد لا تتبرج بالزينة مع كبرها وعدم رغبتها في النكاح فكيف بغيرها، وإن كانت الخيرية للقواعد في الالتزام بالحجاب فلا شك أن غيرهن أولى بذلك، وكان الرجل الأعـمى والأعرج والمريض يدخل بيت أبيه، أو أخيه أو ابنه، فتتخفـه المرأة بالشيء من الطعام، فيتخرجون أن يأكلوا من أجل أن رب البيت لم يأذن به، فأباح الله لهم الأكل، وأباح الله الأكل من بيوت الأولاد، أو بيوت الآباء، وبيوت الأمهات، وبيوت الإخوة والأخوات، وبيوت الأعمام، والعـمات، وبيوت الأخوال، والحالات.

وأباح الأكل من البيوت التي يملكون التصرف فيها بإذن أربابها، كالوكيل، والخازن، وأباح الأكل من بيوت الأصدقاء، وإن لم يكن بينه وبينه قرابة، إذا علم أن ذلك لا يشق عليه ولا يكره ذلك، والصديق في الغالب يسمح لصديقه بذلك، وتطيب به نفسه، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، وإن كانت البركة في الاجتماع على الطعام.

والمشروع للمسلم إذا دخل بيته أو بيت غيره أن يسلم تحية من عند الله، شرعها الله لعباده، فتنزل البركة في علاقاتهم، وتحل المحبة في القلوب، والذي يسلم على أخيه المسلم فكأنما يسلم على نفسه.

والسلام هو الله، والسلام تحية أهل الجنة، ويشـرع السلام في كل وقت حتى إذا دخل البيت غير المسكون، أو المسجد فليقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، ومرتبة السلام العليا أن يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهذه الأحكام والآداب يبينها الله لعباده بياناً شافياً، ليتدبروها ويتعقلوها، ويعملوا بها ويتأدبوا بها فيما بينهم.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ
 عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ
 أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ
 لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
 اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ
 بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ
 يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ
 أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ
 مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
 يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا
 ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
 يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾

اجتماع الأمة وترابطها بوحدتها واجتماع كلمتها ولا يتأتى ذلك الا باجتماع على رجل واحد يسمعون ويطيعون له، فله السمع والطاعة في المنشط والمكره وفي العسر واليسر، وكما أرشد الله عباده المؤمنين بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك. أمرهم الله تعالى ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته، وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين، ثم أمر الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء، ونهى الله عباده المؤمنين أن يجعلوا نداء النبي كنداء بعضهم بعضًا فلا يقولوا يا محمد، ولا يا ابن عبد الله، ولكن يشرفوه فيقولوا يا نبي الله، يا رسول الله وهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده.

والله يعلم المنافقين، الذين يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد، فليحذر الذين يخالفون سبيل رسول الله ﷺ، ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته أن تصيبهم فتنة في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا، بقتل أو حد أو حبس، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنًا من كان، والله هو مالك السموات والأرض، وعالم غيب السموات والأرض، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، لا يعزب عنه مثقال ذرة، ويوم ترجع الخلائق إلى الله، يخبرهم بما فعلوا في الدنيا، من جليل وحقيق، وصغير وكبير.

سورة الفرقان

وهي سورة مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وسميت بذلك لذكر الفرقان فيها، وهو القرآن

تعالى الله وتقدس في صفاته وأفعاله، وتكاثر خيره نزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ الذي يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام؛ ليكون الرسول ﷺ للجن والإنس بشيرًا ونذيرًا بالقرآن، يبشر بالتوحيد، وينذر من الشرك، أرسله مالك السموات والأرض، الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الذي يحيي ويميت، المنزه عن الولد، وعن الشريك، وخلق كل شيء، فما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتسخيره، وتديره وتقديره.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آفَاكُ
أَفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا
﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فِيهِ تَمَلَّى
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا
مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ
لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنَزِّلُ
إِلَيْهِ كُتُبًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

من جهل المشركين اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء، المالك المتصرف، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فعبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، فكيف يملكون لعبادتهم، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل ذلك كله لله ﷻ، الذي يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم، فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له، وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا ند له ولا مثيل، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ومن سخافة عقول الجهلة من الكفار، قولهم عن القرآن أنه كذب، كذبه النبي ﷺ، واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقد افتروا قولًا باطلًا، وهم يعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون وقالوا: إن هذا القرآن كتب الأوائل استنسخها، فهي تقرأ عليه في أول النهار وآخره، وهم يعلمون أن الذي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين هو الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر، فليتوبوا إلى الله فإن رحمته واسعة، وحلمه عظيم، ومن تاب إليه تاب عليه، فهم مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، دعاهم الله إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، ومن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم تعللهم عن الإيمان بالرسول ﷺ، أن الرسول يأكل الطعام كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، يتردد في الأسواق طلبًا للتكسب والتجارة، فهلا أنزل إليه ملك من عند الله، فيكون له شاهد على صدق ما يدعيه، أو يكون معه كنز ينفق منه، أو تكون له جنة يأكل منها تسير معه حيث سار، وهذا يسير على الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة، وقال الظالمون لأنفسهم بالشرك: إن تتبعون إلا رجلًا مخدوعًا، ومصروقًا عن الحق، فضربوا له الأشباه فقالوا مسحور، وكاهن وشاعر ومجنون، وكذاب وغيره، فضلوا عن الحق، فلا يستطيعون طريقًا إلى الهدى ومخرجًا عن الضلالة، ولو شاء الله لآتى نبيه خيرًا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فتكاثر وتزايد خير الذي إن شاء جعل لنبيه في الدنيا عاجلاً خيرًا مما اقترحوه، يجعل له جنة يأكل منها بمثل ما وعده في الآخرة، ويجعل له بيوتًا مشيدة، وقد عرض على النبي ﷺ أن تجعل له بطحاء مكة ذهبًا فقال لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك، فاللهم صل على محمد ولا تحرمنا شفاعته يوم القيامة، ووالدينا وأهلينا والمسلمين، وإنا يقول المشركون ذلك تكذيبًا وعنادًا، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، وقد أرصد الله لمن كذب بالساعة عذابًا أليمًا حارًا لا يطاق في نار جهنم.

إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ۖ وَإِذَا
 أَلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۖ
 لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۖ قُلْ
 أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۖ كَانَتْ
 لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۖ ۝١٥ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
 كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ۖ ۝١٦ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
 يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي
 هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۖ ۝١٧ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ
 يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ
 وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۖ ۝١٨ فَقَدْ
 كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
 نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۖ ۝١٩ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
 الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۚ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
 لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۚ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۖ ۝٢٠

النار بأهوالها وعذابها، أمرنا الله باتقائها؛ لأنها عذابه جل وعلا، وهي في القيامة إذا رأته الكفار في مقام المحشر، ومن مسيرة مائة عام، سمعوا لها حنقاً عليهم، يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله، وتزفر جهنم زفرة، لا يبقى ملك ولا نبي إلا خر ترعداً فرائضه، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليبحثو على ركبته ويقول رب لا أسألك اليوم إلا نفسي، وتضيق على الظالمين جهنم، مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، ومقرنين مع الشياطين في السلاسل، فيدعون ويلاً، وهلاكاً، فيقال لهم هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة، فادعوا أدعية كثيرة، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشد من ذلك لطول مدته، وعدم تنايهه.

أ تلك النار وما فيها من أنواع العذاب خير أم جنة الخلود التي لا موت فيها ولا انقطاع لنعيمها أعدها الله للمتقين من عباده ثواباً ومرجعاً، وجزاء على أعمالهم، ومصيراً يصيرون إليه؟ لهم فيها ما يشاؤون من النعيم، وضروب الملاذ، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا انقضاء، لا ييغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم، لا بد أن يقع وأن يكون، وعداً واجباً، ويوم القيامة يجمع الله الكفار مع من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم، فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين آتتكم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم هم؟ فيجيب المعبدون، ليس للخلاق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم قالوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، وما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإنما عبید لك، فقراء إليك، ولكن طال عليهم العمر حتى نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، وكانوا قومًا هلكى لا خير فيهم.

فيقال لهم قد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم إلى الله زلفى، فلا تقدرون صرف العذاب عنكم ولا الانتصار لأنفسكم، وجزاء من أشرك بالله العذاب الأليم يوم القيامة.

وجميع من بعث الله من الرسل المتقدمين من البشر يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذية به، ويخرجون إلى الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمنافٍ لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والمعجزات الباهرة، ما يستدل به كل ذي عقل سليم، وبصورة مستقيمة، على صدق ما جاءوا به من الله ﷻ، وقد جعل الله العباد ابتلاءً لبعض، فالغني فتنه للفقير، والصحيح فتنه للمريض، والشریف فتنه للوضيع، ليعلم الله من يطيع ممن يعصي؛ ومن يصبر على هذه الحالة التي عليها من الفقر والشدة والأذى، وربك بصير بمن صبر وبمن جزع، وبصير بمن يستحق أن يوحى إليه.

﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ
 أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا
 ﴿٢٢﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
 حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ
 هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٤﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا
 وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٥﴾ وَيَوْمَ تَشَقَقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ
 تَنْزِيلًا ﴿٢٦﴾ أَلَمْ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
 الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
 يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٨﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ
 فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٩﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
 وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ
 يُرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣١﴾ وَكَذَلِكَ
 جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا
 وَنَصِيرًا ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
 وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٣﴾

من تعنت الكفار، في كفرهم، وعنادهم قوهم لولا أرسل إلينا الملائكة، أو نخبرنا بصدق محمد، أو نرى ربنا فيخبرنا بنبو محمد، لقد تعاضموا بهذه المقالة، وطغوا في القول، ففي اليوم الذي يرون فيه الملائكة -وذلك عند الموت وفي القيامة- لا بشارة لهم بالجنة، كما يبشر المؤمنون، ففي وقت الاحتضار تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سبوم وحيم، وظل من يحوم، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن، فيضربونه، وتقول الملائكة: حرامًا حرما أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله، وفي يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر، لا يتحصل للمشركون من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصًا ولا يكون موافقًا لما جاء به الرسول ﷺ فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعها معًا، فتكون أبعد من القبول حينئذ؛ فأعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، تتطاير به الريح في مكان لا يستطيع أحد الإمساك به فتكون الأعمال ذرات في الهواء لا يمسك بها أحد، فلا يستوي الفريقان: أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والغرفات الآمنات، فهم في مقام أمين، حسن المنظر، طيب المقام، وأهل النار يصيرون إلى الدركات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات، فأهل الجنة يوم القيامة خير مستقرًا بما عملوه من الأعمال المتقبلة، فيوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وأنهم ليقبلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس، في ذلك اليوم العصيب، الذي ذكرت أهواله في القرآن، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، من انشقاق السماء وتفتطرها وانفراجها بالغمام، ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخالق في مقام المحشر، ثم يحيي الله ربنا وتعالى لفصل القضاء، والملك في ذلك اليوم الله الواحد القهار، وإن الله يطوي السموات بيمينه، ويأخذ الأرض بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض، أين الجبارون، أين المتكبرون، وهو يوم شديد صعب؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل، في ذلك اليوم يندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرية فيه، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول، يندم حيث لا ينفعه الندم، ويعض على يديه حسرة وأسفًا، ويتمنى أنه لم يتخذ صديقًا، يصرفه عن الهدى، ويعدل به إلى طريق الضلالة، ويضله عن القرآن بعد بلوغه إليه، والشيطان يخذل الإنسان عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه، والقرآن أنزله الله هداية للبشرية، وقد كان المشركون لا يصغون للقرآن ولا يسمعون، وإذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره، حتى لا يسمعه، وهذا من هجرانه، ومن هجرانه ترك تعلمه وحفظه، وترك الإتيان به وتصديقه، وترك تدبره وتفهمه، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو هو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، وترك الاستشفاء به، وقد جعل الله لكل نبي عدوًا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، وكفى بالله هاديًا ونصيرًا، لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، له الهداية والنصرة في الدنيا والآخرة.

ومن تعنت الكفار كلامهم فيما لا يعنيه، حيث قالوا: لولا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله، كالتوراة والإنجيل والزبور، فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجيًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام لثبوت قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين به، وبينه الله تبيينًا، وفسره تفسيرًا.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
 الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ
 مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى
 الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزِلْهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
 نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ
 ءَايَةً ۖ وَاعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا
 وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
 لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ
 الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرَ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا بِرَوْنَهَا بَلْ
 كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخَذُّونَكَ
 إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ
 لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ
 يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ
 مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

لا يأتي الكفار بحجة وشبهة، ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق، إلا جاءهم الجواب بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالاتهم، وحال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات، فيحشر الكافر على وجهه يوم القيامة، وإن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه، فهم شر الناس مكانة ومنزلة، ومنزلاً ومصيراً، وأخطأ طريقاً.

وقد أرسل الله رسله إلى الأمم، فعاند المتكبرون المتجبرون، فقد بعث الله موسى ﷺ، وجعل معه أخاه هارون نبياً مؤازراً، ومؤيداً وناصرًا، فكذبها فرعون وجنوده، فدمر الله عليهم، فأغرق فرعون وقومه، وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً ﷺ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، ويحذرهم نقمه، فما آمن معه إلا قليل، ولهذا أغرقهم الله، ولم يبق منهم أحد، ولم يبق على وجه الأرض من بني آدم سوى أصحاب السفينة فقط، وجعلهم الله للناس عبرة يعتبرون بها، وبعث الله إلى عاد هوداً ﷺ فكذبوا فأهلكهم الله بالريح، وبعث إلى ثمود صالحاً ﷺ فكذبوا فأهلكهم الله بالصيحة، وأما أصحاب الرس أهل قرية فلج من قرى اليمامة، وهم أصحاب يس، وهم قوم غيبوا نبيهم في بئر، وأمم بين ذلك أضعاف من ذكر أهلكتهم الله جميعاً، واستأصلهم العذاب وأبادهم إبادة ودمرهم بعد بيان الحجج وإيضاح الأدلة، وكان العرب يمرون على قرية سدوم - وهم قوم لوط - الذين أهلكهم الله بقلب قريتهم، وبالمطر والحجارة من سجيل، فكانوا يرون أثر العقوبة التي حلت بهم ولكنهم لم يعتبروا ويتعظوا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله، ولكنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بالبعث بعد الموت، ويستهنئون بالرسول - صلوات الله وسلامه عليه - إذا رأوه، ويرمونه بالعبث والنقص، ويقولون على سبيل التنقص والازدراء أهذا الذي بعث رسولاً؟ إن كاد ليصدنا عن عبادة الأصنام، لولا أن صبرنا وتحملنا واستمررتنا على عبادتها، ولكن الحقيقة في يوم القيامة حين يرون العذاب، فيعلمون أنهم كانوا في ضلال، ولكنهم لا ينفعهم ذلك، ومن كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإن الله لا يهديه، لأنهم اتخذوا الهوى إلهًا، فأطاعوا أهواءهم فكل ما تنهوا نفوسهم كان دينهم ومذهبهم، وقد كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول، فمن كانت تلك حالته فلن يكون الرسول عليه حافظاً وكفيلاً عليه يحفظه من اتباع هواه وعبادة من يهوى من دون الله.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
 كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
 الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا
 ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
 لَكُمْ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾
 وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ
 مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ
 لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
 لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطْعُمُ الْكَافِرِينَ
 وَجَهْدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ
 الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
 وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
 نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

الكفار في غيهم وكفرهم أسوأ حالاً من الأنعام، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم، فهم لا يعقلون ما ينفعهم ولا يسمعون الحق، ولو تأملوا آثار خلق الله وبديع صنعه في الكون لعلموا أن الله هو المستحق للعبادة.

ومن بديع خلق الله أن الله مد الظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، جعله ممدوداً لأنه ظل لا شمس معه، ولو شاء الله لجعله دائماً ثابتاً لا يزول ولا تذهب الشمس، ولو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا وجود النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها، فالظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزءاً فجزءاً، ومن بديع خلق الله أن جعل للعباد الليل سترًا يستترون به، فظلمته تغطي كل شيء، كاللباس الذي يشتمل على لابس، وجعل النوم راحة للأبدان وقطعاً للأعمال، وجعل النهار يقظة وزماناً ينتشر فيه الناس لابتغاء الرزق، ويتشرون لأشغالهم، ومن آيات الله الدالة على وحدانيته إرساله الرياح تبشيراً بالمطر، وإنزاله من السماء ماء يتطهر به العباد من الحدث والنجاسة، ويحيي به البلاد الميتة موأناً ويجعله سقياً للبهائم والبشر، يقسمه بين العباد، وقد قسم الله هذه الأرزاق، فجعلها في السماء الدنيا، في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم، وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى القياقي والبحار، ليتذكر العباد ويتفكروا في قدرة الله تعالى، ولكن أبى أكثر الناس إلا جحوداً، وجحودهم أنهم إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وكذا، ولو شاء الله لبعث في كل قرية رسولاً ينذرهم، ولكن الله بعث محمداً ﷺ إلى القرى كلها، وحمله ثقل النذارة جميعاً، ليستوجب بصره عليها ما أعده الله له من الكرامة والدرجة الرفيعة، فقام بها وأداها وجاهد بالقرآن الكفار ولم يطعمهم فيها دعوته إليه من موافقتهم ومداهنتهم، ومن قدرة الله تعالى أنه خلط البحرين، وأفاض أحدهما في الآخر، هذا عذب شديد العذوبة، وهذا ملح شديد الملوحة، وجعل بينهما حاجزاً بقدرته لئلا يختلط العذب بالمالح ولا المالح بالعذب، وجعل بينهما سترًا ممتوعاً فلا يغيان، ولا يفسد المالح العذب، ومن قدرة الله أن خلق من ماء الرجل والمرأة بشراً، فجعله ذا نسب وصهر، فهو في ابتداء أمره ولد نسب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار، وقرابات.

والنسب من القرابة، والصهر الخلطة التي تشبه القرابة، وهو السبب المحرم للنكاح، وقد حرم بالنسب سبغاً وبالسبب سبغاً، ويعبد المشركون من دون الله، ما لا ينفعهم إن عبدوه، ولا يضرهم إن تركوه، وكان الكافر معيناً للشيطان على ربه بالمعاصي.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾



لقد أرسل الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله، ولا يسأل على هذا البلاغ وهذا الإنذار أجرة من أحد، وإنما يفعل ذلك ابتغاء وجه الله، وجاء برسالة ربه لمن أراد أن يسلك الصراط المستقيم والمنهج القويم، وأمر المسلم أن يكون متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، رب كل شيء ومليكه، هو الذخر والملمجأ، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، يكفي عباده وينصرهم ويؤيدهم، وأمر المسلم أن يقرن بين حمد الله وتسبيحه فيخلص له العبادة والتوكل، والله لا تخفى عليه خافية، من أعمال عباده ولا يعزب عنه مثقال ذرة، خالق كل شيء وربّه ومليكه، الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع، وعلا على عرشه علواً خاصاً غير العلو العام على جميع الأكوان وهذا العلو ثابت لله تعالى على وجه الحقيقة فهو عالٍ على عرشه علواً يليق به ﷻ لا يشبه علو الإنسان على السرير، فاستواء المخلوق على شيء لا يمكن أن يماثله استواء الله على عرشه؛ لأن الله ليس كمثله شيء، يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين.

ومن أراد العلم بالله، فليأخذ بكلام رسول الله ﷺ لأنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه- الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى فما قاله فهو حق، وما أخبر به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه، فما يوافق أقواله، وأفعاله فهو الحق وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائناً من كان، وقد كان المشركون يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد، وإذا أمروا أن يسجدوا للرحمن قالوا لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، فلا يسجدون لأمر الرسول ﷺ وزادهم نفوراً عن الدين والإيمان، أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالإلهية ويسجدون له.

فتعالى الله وتقدس الذي خلق في السماء الكواكب العظام، والشمس المتيرة، التي هي كالسراج في الوجود، والقمر المضيء المشرق، وهو الذي جعل الليل والنهار يخلف كل واحد منهما الآخر، يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، وجعل في تعاقبها، توقيتاً لعبادة عباده له، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، لمن أراد أن يتذكر ويتعظ، وأراد شكر نعمة ربه عليه فيها، ومن صفات عباد الله المؤمنين أنهم يمشون على الأرض بسكينة ووقار من غير تجبر ولا استكبار، ولا مرح ولا أسر ولا بطر، وإذا سفه عليهم الجاهل بالسيئ من القول والفعل، لم يقابلوه عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، ولا يقولون إلا قولاً يسلمون به من الإثم، ولا تزيدهم شدة الجهل عليهم إلا حلاً، وفي الليل يقطعونه بالسجود والقيام وتلاوة القرآن ويدعون ربهم أن ينجيهم من عذاب النار فإن عذابها ملازماً دائماً، وهي بشئ المنزل منظراً، وبشئ المقيّل مقاماً، وهم في الإنفاق وسط بين الإسراف والبخل فهم ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرون في حقهم فلا يكفوه، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُومًا وَغُمًّا إِيَّاكَ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا
لِلْمُنْتَقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي
لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

من صفات عباد الرحمن تحقيق التوحيد والإخلاص لله تعالى، فلا يعبدون إلا الله ولا يدعون غيره، ويخافون الشرك، ويسألون ربهم أن ينجيهم وذرياتهم منه، ولا يقتلون الأنفس المعصومة وهي نفس المسلم والمعاهد والذمي والمستأمن فقد حرم الله قتل تلك الأنفس، ولا يقربون فاحشة الزنا، ولا أبواب الزنا الموصلة إليه من الاختلاط والتبرج والسفور والخلوة بالمرأة الأجنبية، والدخول على النساء، وسفر المرأة بدون محرم، ومصافحة المرأة الأجنبية.

وقد تعدد الله من فعل ذلك بواد في جهنم، يكرر عليه العذاب ويغلظ، ويخلد فيه حقيرًا ذليلاً، إلا من تاب في وقت التوبة وحسنت توبته، فأمن بعد الشرك وحقق التوحيد، وعمل الصالحات بعد الكبائر، وازداد من الإيمان بفعل الطاعات، فبيدهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، ويبدلهم بالشرك إخلاصًا، ويبدلهم بالفجور إحصانًا وبالكفر إسلامًا، وإذا خلصت التوبة ونصحت تنقلب السيئات الماضية حسنات، فهو كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجده مكتوبًا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، فله يقبل توبة من تاب وعمل صالحًا، ومن صفات عباد الرحمن، أنهم لا يحضرون الشرك وعبادة الأصنام، والكذب، والفسق، واللغو، والباطل، واللهو والغناء، وأعياد المشركين، ومجالس السوء والخنا.

وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ومن صفات المؤمنين أنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، ولم يصموا عن الحق ولم يعموا عنه، فهم قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يقصر عما كان عليه، بل يبقى مستمرًا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، وكأنه لم يسمع آيات الله فهو أصم أعمى، ومن صفات عباد الرحمن دعاء الله بصلاح الزوجة والذرية، بأن يكونوا سببًا في سعادتهم في الدنيا والآخرة، ويدعون ربهم بأن يجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير، هداة مهتدين ودعاة إلى الخير، وأن تستمر عبادتهم بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثوابًا، وأحسن مأبًا، فأصحاب تلك الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة يجزون يوم القيامة بالجنة، بما عملوا واتصفوا بصفات الكمال تبادرهم الملائكة فيها بالتحية والإكرام، ويلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، وهم في الجنة مقيمون، لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبعثون عنها حولًا حسنت منظرًا وطابت مقيلا ومنزلًا، نسأل الله الكريم الجليل أن يدخلنا الجنة وأن يجعلنا من عباد الرحمن والدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين، والله ﷻ خلق الخلق ليعبده ويوحده ويسبحوه بكرة وأصيلاً، ولولا إيمان المؤمنين لم يبال الله بهم، فالمكذبون لا يبالي الله بهم إذا لم يعبدوه؛ فقد كفروا فسوف يكون كفرهم مقتضيًا هلاكهم وعذابهم ودمارهم في الدنيا والآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② لَعَلَّكَ بَلَّغْتَ نَفْسَكَ
 أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ
 أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ
 إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑤ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ⑥ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
 كَرِيمٍ ⑦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ⑧ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑨ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ ⑩ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْقُوتَ ⑪ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُكَذِّبُونِ ⑫ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ
 إِلَى هَارُونَ ⑬ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ⑭ قَالَ
 كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ⑮ فَاتِيَا فِرْعَوْنَ
 فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑯ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
 ⑰ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ⑱
 وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ⑲

سورة الشعراء

وهي سورة مكية، إلا أربع آيات وسميت بذلك لذكر صفة الشعراء فيها، وتسمى الجامعة

الحروف المقطعة في أوائل السور جاءت لتحدي العرب بالإتيان بمثل القرآن في بلاغته وفصاحته وتحديهم بذلك فهو قرآن بين واضح، يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد، وقد كان النبي ﷺ يهلك نفسه ويتعبها في دعوة قومه، ويحزن لصدودهم وإعراضهم وكفرهم، ولو شاء الله لأراهم أمراً من أمره، لا يعمل أحد منهم بعده معصية، ويضطرهم إلى الإتيان قهراً، ولكن الله لم يرد ذلك؛ فنفذ قدره، ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، وكلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، وكذبوا بها جاءهم من الحق، واستهزءوا، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين، كيف يكفرون بالله، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان؟ وفي ذلك دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا زواجره، والله العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الرحيم بخلقهم، فلا يعجل على من عصاه، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

وقد أمر الله عبده ورسوله وكنيهم موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه حين ناداه من جانب الطور الأيمن وكلمه ونجاه وأرسله واصطفاه بالذهاب إلى فرعون وملئه؛ فقال إني أخاف أن يكذبوا رسالتي ويضيق صدري من تكذيبهم، ولا ينطلق لساني بتأدية الرسالة فأرسل إلى هارون ليؤازرني ويظاهرنى على تبليغ الرسالة، وأخاف أن يقتلوني بسبب ما كان من قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر، فأوحي إليه لا تخف من أي شيء، إن الله معكم بحفظه ونصره وتأييده، فأتيا فرعون واخبراه أن كل منكما رسول الله إليه، فليطلق بني إسرائيل من أسرهم وقبضته وقهره وتعذيبه، فإنهم عباد الله المؤمنين وحزبه المخلصين، وهم عند فرعون في العذاب المهين، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر بعين الازدراء والاحتقار فقال له أليس أنت الذي ربينا في بيتنا وعلى فراشنا وغذينا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة، أن قتلت منا رجلاً وجحدت نعمتنا عليك.

قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
 فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
 عَلَى أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ
 ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ
 ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
 قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
 لَنْ أُنْخِذَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
 أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ
 فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ
 عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
 تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
 ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ
 لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

لما قابل موسى ﷺ فرعون، وعيره بقتل النفس، قال له موسى ﷺ فعلتها في تلك الحال قبل أن يوحى إلي وينعم الله علي بالرسالة والنبوة، فهربت خوفاً منكم فأكرمني الله بالرسالة وأمرني أن أبلغك رسالته، فإن أطعت الله سلمت، وإن خالفته هلك.

وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماء، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، وكيف تمن علي بالترية وقد استعبدت قومي؟ ومن أهين قومه ذل، فتعبيدك بني إسرائيل قد أحبط إحسانك إلي، وبسبب استعبادك بني إسرائيل وقتلك أولادهم، دفعت إليك حتى ربيتني وكفلتني ولو لم تستعبدهم وتقتلهم كان لي من أهلي من يربيني ولم يلقوني في اليم، فأني نعمة لك علي؟ ومن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، قال لموسى ﷺ ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري، فقال موسى ﷺ: الله خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون، إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملته ورؤساء دولته قائلاً لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري فقال لهم موسى ﷺ: هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين، قال فرعون لقومه، إن رسولكم الذي أرسل إليكم ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري، فقال موسى ﷺ: هو الله الذي جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً، فلما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال موسى ﷺ أو لو جئتكم ببرهان قاطع واضح، قال فرعون فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج، وأخرج يده من جيبه، فإذا هي تتلألأ كقطعة من القمر، فبادر فرعون إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله إن هذا بارع في السحر، فروّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم حرضهم على مخالفتهم، والكفر به، فقال إنما أراد أن يذهب بقلوب الناس معه، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به؟

قالوا: أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليهم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصره والتأييد، فأجابهم إلى ذلك.

وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة، فاجتمع السحرة جميعاً كثيراً، وجمّاً غفيراً، وكانوا اثني عشر ألفاً، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم.

لَعَلَّنَا نَبِيعَ السَّحَرَةِ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
 قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنَّكُم إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ
 ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
 الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
 ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾
 رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
 لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
 وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا
 إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا
 أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ
 مُتَّبَعُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِن هَؤُلَاءِ
 لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَيْسَ لَهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ
 ﴿٥٧﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٨﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٩﴾
 كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٠﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿٦١﴾

اجتمع الناس لمشاهدة ما يجري بين سحرة فرعون وموسى ﷺ، ولينظروا إلى ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة، وأقنوا بنصر السحرة، والبقاء على ما كانوا عليه؛ لأن دين السحرة تأليه فرعون، والمقصود المخالفة لما دعاهم إليه موسى، فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء على ما سيفعلونه فقالوا لفرعون: أئنا جزاء تجزيانا به من مال أو جاه، بظهور غلبتنا لموسى؟ قال فرعون على ذلك نعم لكم ذلك عندي مع كونكم من المقرين لدي، فقال السحرة لموسى ﷺ: إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى، قال موسى ﷺ: بل ألقوا، فألقوا حبالهم وعصيهم، فخيّل إليهم من سحرهم أنها تسعى، فألقى موسى عصاه فإذا هي تختطف ما ألقوه وصنعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً، فلما شاهد السحرة ذلك، وعلموا أنه صنع صانع حكيم ليس من صنع البشر، ولا من غواية السحرة، آمنوا بالله وسجدوا له، وأجابوا دعوة موسى، وقبلوا نبوته، فلما سمع فرعون ذلك منهم، ورأى سجدتهم لله قال آمنتهم بغير إذن مني، ثم قال للسحرة الذين آمنوا، إنه أستاذكم الذي أخذتم عنه السحر، فكان أمراً عظيماً، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في ساعة واحدة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان جريئاً، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، فلم يقطع ذلك فيهم، وهددهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً. وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيد به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، فلم يبالوا بالتهديد بقطع الأيدي والأرجل، فالمرجع إلى الله، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يخفى عليه ما فعل بهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء؛ ويغفر لهم ما عملوه من الذنوب، وما أكرههم عليه من السحر، ويشفع لهم أن كانوا أول السابقين من القبط إلى الإيوان، فقتلهم كلهم، فلما طال مقام موسى ﷺ ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله موسى ﷺ أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى ﷺ ما أمره به ربه ﷻ، فخرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً، وكان خروجه بهم وقت طلوع القمر، وأن موسى ﷺ سأل عن قبر يوسف ﷺ فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته بنفسه ﷻ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم، فلما أصبحوا وليس في ناديم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل؛ لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده يحشر الجند ويجمعهم، ونادى فيهم إن هؤلاء لطائفة قليلة، ونحن في كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبديد خضراءهم، فجوذي في نفسه وجنده بما أراد لهم، فخرجوا من النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا، وأورث الله بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها وتمت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمر الله فرعون وقومه، فخرج فرعون في جمع كبير، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، ووصلوا إلى بني إسرائيل عند شروق الشمس.

فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
 كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ
 بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
 وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
 ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ
 نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا
 نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
 تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا
 كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ
 وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾
 الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾
 وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
 يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾
 رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾

لما سار موسى ﷺ ببني إسرائيل كما أمره ربه، تبعه فرعون وجنده فأدركوهم عند طلوع الشمس، فلما رأى كل من الفريقين صاحبه، عند ذلك قال أصحاب موسى إنا لمدركون، لأن السير انتهى بهم إلى سيف البحر - وهو البحر الأحمر - فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنوده، فقال موسى ﷺ بلغة الواثق بربه إن معي ربي سيهدين، فلن يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ها هنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد، وكان هارون ﷺ في المقدمة، ومعه يوشع بن نون ومؤمن آل فرعون، وموسى ﷺ في الساقة، فوقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون يقول لموسى ﷺ يا نبي الله، ها هنا أمرك الله أن تسير، فيقول نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبق إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر فضربه وقال: انفلق ياذن الله، فانشق البحر فكان كل قطعة من الماء كالجبل الكبير، وصار البحر اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق، وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء كالحيطان، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يسيراً كوجه الأرض، وعبر بنو إسرائيل مع موسى ﷺ وتبعه فرعون وجنده، وقدمهم الله إلى البحر، وقرهم إلى الهلاك، فلما خرج آخر أصحاب موسى، وتكامل أصحاب فرعون، أمر الله موسى ﷺ أن يضرب البحر، فرجع كما كان، وأنجى الله موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد، وأغرق الله فرعون وجنوده، فلم يبق منهم رجل إلا هلك، وفي هذه القصة من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين، وأمر الله رسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه أن يتلو على أمته خبر عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الخفاء، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله؛ فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله، ﷻ، فقال لأبيه وقومه أي شيء تعبدون، قالوا نعبد أصناماً نقيم على عبادتها، قال هل يسمعون دعاءكم إذ دعوتهم أو ينفعونكم بالرزق، أو يضرئونكم إن تركتم عبادتها، فاعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنها رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إلي بالمساء، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها، فتهرباً إبراهيم من آلهتهم، وأخلص العبادة لله وحده لا شريك له، الخالق الذي قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وهو الخالق والرازق، بما سخر ويسر من الأسباب السبابة والأرضية، فساق المزن وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً؛ سقياً للعباد، وإذا وقع الانسان في مرض فإنه لا يقدر على شفائه أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، وهو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد، وهو الذي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء، ثم سأل إبراهيم ﷺ أن يؤتيه ربه العلم، وأن يجعله مع الصالحين في الدنيا والآخرة، اللهم أحيينا مسلمين وأمنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبدلين ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ
﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنْصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُنُودُ إِبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
إِلَّا الْأَمْجُرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتُ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ * قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

من دعاء إبراهيم عليه السلام أن يجعل الله له ثناء حسناً، وذكرًا جميلًا وقبولًا عامًا في الأمم التي تحيي بعده، فأعطاه الله ذلك، فجعل كل أهل الأديان يتولونه ويشنون عليه، والذكر الحسن عمر ثان للإنسان، فدعا أن ينعم الله عليه في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعده، وفي الآخرة بأن يجعله من ورثة جنة النعيم، وهذا غاية ما يتمناه المسلم فاللهم اجعلنا ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين من ورثة جنة النعيم، ودعا لأبيه لأنه وعده بأن يستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، ودعا الله أن يحره من خزي يوم القيامة، يوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم، يوم لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا، ولو افتدى بمن في الأرض جميعًا، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والبراءة من الشرك، إلا من أتى الله بقلب سالم من الدنس والشرك، وصاحب القلب الصحيح يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهو قلب خالٍ من البدعة، مطمئن إلى السنة، يوم تقرب الجنة وتُدنى من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة لناظرها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها، وعملوا لها عملها في الدنيا، وتظهر النار ويكشف عنها، ويبدو منها عنق فتزفر زفرة تبلغ منها القلوب إلى الحناجر، ويقال لأهلها تقريرًا وتوبيخًا، أين الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد؟ هل تغني عنكم اليوم شيئًا، وتدفع عن أنفسها؟ فإنكم وإياها اليوم حطب جهنم أنتم لها واردون، فيلقى بعضهم على بعض، الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك، ومن كانوا للشيطان أعوانًا ألقوا فيها عن آخرهم، فيقول الضعفاء للذين استكبروا، وقد عادوا على أنفسهم بالملامة، لقد كنا في ضلال مبين، إذ نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين، وما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون، وليس لنا من شافع يشفع لنا لأن جلساءنا وأصدقائنا مثلنا في الضلالة، فهم يعلمون أن الصديق إذا كان صالحًا نفع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع، فيتمنون أنهم يردون إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم، وهو ﷻ يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وفي حاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله، المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

وأخبر الله عن عبده ورسوله نوح عليه السلام وعن دعوته وهو أول رسول بعث إلى الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهيًا عن ذلك، ومحذّرًا من وبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الشرك، وتكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل، فقد قال لقومه إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها، فاعبدوا الله وحده لا شريك له، وأطيعون فيما دعوتكم إليه من التوحيد، ولا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أذكر ثواب ذلك عند الله، فقد وضع لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به، فقال له قومه أنؤمن لك ونتبعك، وتساوى في ذلك بهؤلاء السفلة الذين اتبعوك وصدفوك؟ فدفعهم الكبر على رد الحق والإيمان.

قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
 لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
 ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَه يَنْحُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
 رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ
 مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَائِكِ الْمَشْحُونِ
 ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَبَتْ
 عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
 رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
 ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
 وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾
 وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
 وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

لما ذم قوم نوح ﷺ أتباعه، وأنهم أصحاب المهن الوضيعة والأعمال الرديئة، رد عليهم نوح ﷺ ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس علي من ذنابة مكاسبهم وأحوالهم شيء، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله، ولي منهم ظاهر أمرهم وحسابهم على الله، لو تعلمون ذلك ما عبتوهم بصنائعهم، وإنما بعثت نذيرًا، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنت منه، سواء كان شريفًا أو وضيعًا، أو جليلًا أو حقيرًا.

ولما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهارًا، وجهراً وإسرارًا، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح لنرجنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، قال رب احكم بيني وبينهم حكماً، ونجني ومن معي من المؤمنين، فأنجاه الله ومن معه في الفلك المملوء من الناس والطيور والحيوان كلها، وأغرق بعد إنجاء نوح، وأهله من بقي من قومه المكذبين المخالفين، وفي ذلك عبرة للأمم بعدهم.

وأخبر الله تعالى عن عبده ورسوله هود ﷺ أنه دعا قومه عادًا، وكانوا قومًا يسكنون الأحقاف، وهي جبال من الرمل قريبًا من بلاد حضرموت، وكان زمانهم بعد قوم نوح، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله إليهم رجلًا منهم رسولاً ونذيرًا، فدعاهم إلى الله وحده لا شريك له، وأنذرهم من الشرك، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، وأخبرهم بنعم الله عليهم أنهم يبنون بناءً محكمًا باهرًا هائلًا يكون معلمًا، يفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، وفي ذلك تضییع للزمان وإتعا ب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بها لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، ويتخذون البروج المشيدة، والبنیان المخلد، لكي يقيموا فيها أبدًا، وليس ذلك بحاصل لهم، بل زائل عنهم كما زال عمن كان قبلهم، وإذا أخذوا، وسطوا قتلوا وضربوا وظلموا وتجبروا، فأمرهم بنبيهم بالتوحيد وعبادة الله وحده، وبفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبطاعته في دعوته، فقد أعطاهم الله من الخير ما يعلمون من الأنعام والبنين والبساتين والأنهار، وخاف عليهم عذاب الله إن كذبوا وخالفوا، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم، فقالوا يستوي عندنا وعظك وعدمه، فلن ترجع عما نحن فيه.

إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
 فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
 لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ
 إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾
 فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
 وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
 وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
 هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا
 بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
 نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

المكذبون الجاحدون لدعوة الرسل حين يدعون إلى توحيد الله يتمسكون بالشرك، ويقولون هذا دين الأوائل من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، وبمثل ذلك قالت عاد، فلما استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده أهلكتهم الله، بأن أرسل ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، والله العزيز القوي الحكيم بأفعاله فكانوا عبرة وعظة لمن بعدهم.

وأخبر الله ﷻ عن عبده ورسوله صالح ﷺ أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وكانوا بعد عاد وقبل الخليل ﷺ فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، فأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ﷻ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال لهم واعظاً لهم ومحدراً إياهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة، وجعلهم في أمن من المحذورات، وأثبت لهم من الجنات، وأنبع لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمار، والنخيل الذي يخرج منه التمر النضيج اللين اللطيف.

ويتخذون البيوت المنحوتة في الجبال أشراً ويطراً وعبثاً، من غير حاجة إلى سكنائها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم، وأمرهم بالإقبال على عمل ما يعود نفعه عليهم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربهم الذي خلقهم ورزقهم ليوحدوه ويعبدوه ويسبحوه بكرة وأصيلاً. ولا يطيعوا أمر رؤسائهم وكبرائهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق، فكان جوابهم

لنبيهم صالح ﷺ حين دعاهم إلى عبادة ربهم قالوا إنما أنت من المسحورين، وما أنت إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى إليك دوننا، ثم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به، وليصدقن، وليتبعن، فقام نبي الله صالح ﷺ فصل، ثم دعا الله ﷻ أن يجيبهم إلى سؤالهم، فأنفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء، على الصفة التي وصفوها، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم، فقال هذه ناقة ترد ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم، وحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء وتاكل الورق والمرعى ويتنفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، اتفقوا على قتلها وعقرها فقتلوها، وندموا على فعلهم.

فرززلت الأرض زلزلاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فكانوا عبرة وعظة للأمم بعدهم.

كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ
 ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
 أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ
 مِنْ أَنْزِلِهِمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ
 لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
 رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
 إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
 مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ
 نَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ
 رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴿١٨١﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا
 تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
 وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

أخبر الله عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم، وكانوا يسكنون سدوم التي أهلكتها الله، وجعل مكانها ما يسمى اليوم بالبحر الميت، فدعاهم إلى الله تعالى أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله.

نهاهم عن إتيانهم الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسايتهم اللاتي خلقهن الله لهم، فكان جواب قومه له لئن لم تترك نبينا عن الفاحشة، لنخرجنك من بين أظهرنا، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرّون على ضلالتهم، تبرأ منهم وقال إني لعملكم من المبغضين، لا أحبه ولا أرضى به، فأنا بريء منكم، ثم دعا الله عليهم رب نجني وأهلي مما يعملون من الفواحش، فنجاه الله ومن معه إلا امرأته، وكانت عجوز سوء بقت فهلكت مع من بقي من قومها، وذلك أن الله أمره أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبّروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، فكانوا عبرة للمكذّبين.

فجرمة اللواط من أشد الجرائم وأشنعها ولذلك جاء تحريمها في القرآن مكرراً في قصة قوم لوط عليه السلام، واسم لوط أعجمي، وليس بينه وبين اسم اللواط ارتباط، ولاط في اللغة التزق، ومنه يسمى التزاق الرجل بالرجل لواط.

وأخبر الله عن أصحاب الأيكة، وهي شجر ملتف كالغيضة، تنبت السدر والأراك ونحوهما، كانوا يعبدونها، وهم أهل مدين وكان نبي الله شعيب منهم، فدعاهم إلى الله تعالى أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، فأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله تعالى وكل دعوة الأنبياء تتفق على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة، ثم أمرهم بإيفاء المكّيال والميزان، ونهاهم عن التطفيف فيها، فإذا دفعوا إلى الناس أكملوا الكيل لهم، ولا ينقصوا الكيل فيعطوه ناقصاً، ويأخذوه إن كان لهم تاماً وافيّاً، ويزنوا بالميزان العدل، ونهاهم عن قطع الطريق، والإفساد في الأرض.

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
 مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمَنْ
 الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
 فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ
 الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
 مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ
 عُلَمَاؤُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
 فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ
 فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ
 الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا
 هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ
 إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

دعا نبي الله شعيب ﷺ قومه وخوفهم بأس الله الذي خلقهم وآبأهم الأوائل، فكان جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم قالوا إنما أنت من المسحورين وبشر مثلنا، وأنت كاذب على الله، واستعجلوا العذاب فطلبوا أن يسقط عليهم قطعاً من السماء، فرد عليهم نبي الله شعيب ﷺ الله أعلم بكم، إن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، فوقع بهم كما سألوها، جزاء وفاقاً؛ فإن الله ﷻ جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جداً مدة سبعة أيام لا يقيهم منه شيء، ثم طلعت عليهم سحابة أظلمتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار، ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم؛ فكانوا عظة وعبرة للمكذبين المعرضين، وقد أنزل الله على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه القرآن، نزل به جبريل ﷺ ملك كريم أمين، ذو مكانة عند الله، مطاع في المأل الأعلى على قلب محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص؛ لينذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، ويبشر به المؤمنين المتبعين له، بلسان العرب الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر مقبياً للحجة دليلاً إلى المحجة.

وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم عيسى ﷺ خطيباً في ملته بالبشارة بأحمد. وعلماء بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها فيعترفون بها في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي عن أدركه منهم ومن شاكلهم، ومن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزله الله على رجل من الأعاجم، ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به؛ وقد أدخل الله التكذيب والكفر والجحود والعناد في قلوب المجرمين، فلا يؤمنون بالحق، حتى يروا العذاب الأليم، حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، فيأتيهم عذاب الله بغتة، ويتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا بطاعة الله، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً، وهم في الدنيا يستعجلون بالعذاب تكديماً واستبعاداً، فلو آخرهم الله وأنظرهم، وأمل لهم مدة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، وما وعدهم الله من العذاب، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعم.

مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكَنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا
 لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَنْزَلَتْ بِهِ
 الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَلْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ
 عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ
 مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَخَفِضْ
 جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي
 بِرَبِّي مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي
 يَرْبِكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ
 كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
 وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
 يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ
 بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

حين ينزل العذاب وتحل العقوبة ويشاهد الكفار العذاب يوم القيامة، ما يغني عنهم ما تمتعوا به في الحياة الدنيا فيؤتى بالكافر يوم القيامة فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له هل رأيت خيراً قط، هل رأيت نعيماً قط فيقول لا والله يا رب، ولم يهلك الله أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم، وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجج عليهم؛ وقد أنزل الله لأمة محمد ﷺ هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، نزل به الروح الأمين المؤيد من الله، ولم تنزل به الشياطين، لأن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنور والهدى والبرهان العظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ولا تستطيع الشياطين على القرآن؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرصاً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله؛ وأمر الله عباده بعبادته وحده لا شريك له، فإن من أشرك به عذبه، وأمر الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن ينذر عشيرته الأذنين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه ﷻ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه.

وأمر الله المؤمنين بالتوكل عليه في جميع أمورهم؛ فإنه مؤيدهم وناصرهم وحافظهم، وهو معهم ويراهم في عباداتهم وخلواتهم، وصلواتهم، وهو السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، والمشركون أولياء الشيطان استجابوا لدعوته وإغراءاته وتزيينه، وإخوانهم من السحرة والكهنة والعرافين، الذين يأخذون عن الشياطين استراق السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، وشعراء الكفار في تلييسهم للحق وإبطاءهم له، وإحقاق الباطل كالعرافين والكهان والسحرة، يتبعهم ضلال الإنس والجن، فهم في كل لغو يخوضون، وأكثر قوهم الكذب.

وأما شعراء أهل الإيمان فهم الذين يردون على الكفار شعرهم وينافحون عن دين الله، ويتصرفون للمؤمنين بشعرهم، ويمدحون الحق، ويذكرون الله في أشعارهم ويمجدونه وينزهونه عن النقائص، ويعملون من الطاعات ما يقرهم إلى مولاهم، فلهم السابقة في الدنيا والآخرة، وسيعلم الذين أشركوا وهجوا رسول الله ﷺ، أي مرجع إليه يرجعون بعد الموت، سيرجعون إلى جهنم وعذاب السعير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لَهُمْ
أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ
لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِكُمْ
مِنْهَا بَخْبَرٍ أَوْ ءَاتِيَكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَاءَهَا نُورٌ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ
إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ
سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَتِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فٰسِقِينَ
﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾

سورة النمل

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر قصة النمل فيها

ابتدأت السورة بالحروف المقطعة، لبيان إعجاز القرآن وتحدي العرب بالإتيان بمثله، ذلك القرآن آيات

واضحات

تظهر ما فيه من الحكم والأحكام وأحوال الآخرة التي من جُلبتها الثواب والعقاب، أو بيان سبيل الرشيد والغي، أو الفارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والوعد والوعيد، فجمع له بين الصفتين بأنه قرآن يظهر بالقراءة وكتاب يظهر بالكتابة، تحصل به الهداية والبشارة لمن آمن به واتبعه وصدق وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، والجنة والنار، أما الذين يكذبون بالآخرة، ويستبعدون وقوعها فقد حسن الله لهم ما هم فيه من الضلال، وجعلهم في غيهم يتيهون، فلهم سوء العذاب في الدنيا والآخرة، وهم في الآخرة أشد الناس خسراً، وأعظمهم خيبة لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم وصاروا إلى النار، هذا القرآن أوتي به النبي ﷺ وحياً من عند الله الحكيم العليم، الحكيم في أوامره ونواهيه، العليم بالأمور جليلها وحقيقتها، فخيرها هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، وقد ذكر الله في القرآن أمر موسى ﷺ، كيف اصطفاه الله وكلمه، ونجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابعثه إلى فرعون وملئه، فجحدها بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فإن موسى ﷺ حين سار بأهله من مدين، فأصل الطريق، وذلك في ليل وظلام، رأى ناراً تأجج وتضطرم، فقال لأهله إني أبصرت ناراً، امكنوا مكانكم، سأتيكم بخبر عن الطريق، أو أتيكم بشهاب قبس لعلكم تتدثرون به، فكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً؛ فلما أراها رأى منظرًا هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقدًا، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء، فهي لم تكن ناراً، إنما كانت نوراً يتوهج، فوقف موسى متعجباً مما رأى، فنودي أن بورك في من طلب النار، وهو موسى ﷺ، ومن حوله من الملائكة والمعنى بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين حول النار، وهذا تحية من عند الله ﷻ لموسى بالبركة، كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، وتقديس الله رب العالمين الذي يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، وهو العلي العظيم، المبين لجميع المخلوقات، ولا تكتنفه الأرض والسماوات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات.

ثم إن الله أعلم موسى ﷺ أن الذي لمخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز، الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أفعاله وأقواله، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده، ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الخالق المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك؛ فلما رآها تتحرك كأنها جان وهو نوع من الحيات أسرع حركة وأكثره اضطراباً، هرب ولم يلتفت من شدة خوفه، فنودي يا موسى لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً وأجعلك نبياً وحيهاً، ورحمة الله بأنبيائه، ورسله وبخلفه، تجعلهم يرجون رحمته ويخشون عذابه، وقد بشر الله عباده، وذلك أن من كان على عمل شيء ثم أفلح عنه ورجع وأتاب، فإن الله يتوب عليه، وأمره الله تعالى أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف، وهذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الخالق المختار، فهاتان آيتان من تسع آيات أيد الله بها موسى ﷺ، وهي برهان له إلى فرعون وقومه فلما جاءهم آيات الله بينة واضحة ظاهرة يبصرونها، قالوا هذا سحر مبين، وأرادوا معارضة بسحرهم فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين.

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا
وَقَالَ آلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَآيَهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ
وَأُوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ
لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَآيَهَا النَّمْلُ أَدْخُلُوا
مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ
أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

لما جاءت الآيات البيّنات فرعون وقومه كذبوا بها، وقلوبهم متيقنة أنها من عند الله، ظلماً وعدواناً واستكباراً في الأرض عن الحق فأهلكهم الله وأغرقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة.

وقد أخبر الله تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان، عليهما من الله السلام، من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ والعلم والشكر لله والحمد، فقد فضلوا بالعلم والحمد والشكر، وورث سليمان داود في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، وأخبر سليمان بنعم الله عليه، فيها وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر مما أخبر الله به ورسوله، فقد أفهم سليمان ﷺ ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ وأوتي من كل شيء مما يحتاج إليه الملك، وهذا فضل من الله ظاهر بَيّن، وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن يكونون بعدهم في المنزل، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حراً أظلمته منه بأجنحتها، يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له، فخرج في ركب له، حتى إذا مر سليمان ﷺ بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، فخافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها ففهم ذلك سليمان ﷺ منها، فضحك سليمان من قول النملة تعجباً، لأن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك، ثم حمد سليمان ربه على ما أنعم عليه، وقال رب أهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، وأن أعمل عملاً تحبه وترضاه، وإذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

ونظر سليمان ﷺ في أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد، فقال ما لي لا أرى الهدهد هل أخطأه بصري من الطير، أم غاب فلم يحضر، لأعذبه عذاباً شديداً بنتف ريشه، أو بمنعه من الخدمة، أو لأقتلنه، بحسب عذره، إلا إذا أتني بعذر واضح بين، وحجة قوية، فغاب الهدهد زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، وجئتكم من سبأ بخبر صدق حق يقين.

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ سَنْظُرُ
أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا
فَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ
لَوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كَيْدٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ
اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣١﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْملُوكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
تَشْهَدُونَ ﴿٣٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَى قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾
وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾

جاء الهدهد من مملكة سبأ في اليمن إلى سليمان عليه السلام بخبر شركهم وعبادتهم للشمس من دون الله، فقد وجد امرأة تملكهم وهي بلقيس بنت شراحيل، وكانت من بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاثائة واثنى عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل، وكانت بأرض يقال لها مأرب، على ثلاثة أميال من صنعاء.

وقد أوتيت من كل شيء من متاع الدنيا، ولها سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر والآلئ، وجدهم يعبدون الشمس من دون الله، فكانوا يسجدون للشمس إذا طلعت وإذا غربت، وقد حسن لهم الشيطان الشرك، وصددهم عن الإتيان بالله وتوحيده، ألا يعرفون سبيل الحق وهو إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها، الذي خلق السموات والأرض، ويخرج ما فيها من الأرزاق، المطر من السماء، والنبات من الأرض، ويعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، لا إله إلا هو رب العرش أعظم المخلوقات، فلما سمع سليمان عليه السلام كلام الهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم قال سننظر أصدقت في إخبارك هذا، أم كذبت في مقالتك؟ فكتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه الهدهد فحملة، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى فتحيرت عما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين، فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم يا أيها الملأ إني ألقى إلي كتاب كريم فقرأته عليهم، فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والإيجاز والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، فقد حذرهم من التجبر والتكبر عليه، وأمرهم أن يأتوا إليه موحدين، فطلبت رأيهم في كتاب سليمان وأخبرتهم أنها لن تقضي وتفصل في أمرها، حتى يحضرون ويشيرون، فقالوا مجيبين لها نحن أولو قوة في القتال، وأصحاب بأس عند الحرب، ثم قالوا والأمر إليك أيتها الملكة في القتال وتركه، فانظري رأيك، ونحن مطيعين لك، فقالت بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال، وكانت أحسن رأياً منهم وأعلم بأمر سليمان وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجباً بديعاً، فقالت لهم إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا؟ ويهين الأشراف والكبراء قالت إني مرسله إلى سليمان وقومه، بهدية أصانعه بها عن ملكي وأختبره بها أملك هو أم نبي، فإن يكن ملكاً قبل الهدية وانصرف، وإن كان نبياً لم يقبل الهدية ولم يرضه منا إلا أن نتبعه على دينه، فأهدت إليه وصفاء ووصائف، وطلبت ممن ذهب بالهدية أن ينقل لها ما يقول سليمان عند رؤيته الهدية.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِدُّوْنِي بِمَالٍ فَمَا آتَنِءَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا
 آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ نَفَرُحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
 بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ
 يَتَأَيَّهَا أَلَمَلُوا أَيْكُمُ يَأْتِيَنِي بَعْرُشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوَنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
 قَالَ عَفَرَيْتُ مِّنَ الْحَيِّ أَنَا وَآيِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي
 عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ
 بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا
 مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا
 نَنْظُرَ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ
 أَهْكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
 ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ
 ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ
 سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنَ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
 ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

لما جاءوا لسليمان عليه السلام، بالهدية لم ينظر إليها، ولا اعتنى بها، بل أعرض عنها، وقال أتصنعونني بهال لأثركم على شرككم وملككم، فالذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، وما جئتم به، وأنتم الذين تفرحون بالهدايا والتحف، ارجع إليهم بهديتهم، فلنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بقتالهم، ولنخرجهم من بلدهم وهم مهانين مدحورين، فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبها قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، نارية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسره، وأمرت بسرير ملكها، فجعل في سبعة أبيات، بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، فجعل سليمان يبعث الجن يأتيونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس، ممن تحت يديه، فقال أياكم يأتيني بسرير ملكها؟ فقال مارد من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مجلسك، وإني قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجواهر.

فقال سليمان عليه السلام أريد أعجل من ذلك، ومن ها هنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسخر له من الجنود، الذي لم يعطه أحدًا قبله، ولا يكون لأحد من بعده. ولتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، وقد حجبت بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك، قال الذي عنده علم من الكتاب، وهو أصف كاتب سليمان، وكان صديقًا يعلم الاسم الأعظم، فقال ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، ثم قام فتوضأ، ودعا الله تعالى وقال يا ذا الجلال والإكرام، وقال يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت، اتنتي بعرشها، فتمثل له بين يديه.

فلما شاهد سليمان وملؤه ذلك، ورآه مستقرًا عنده، قال هذا من نعم الله علي ليختبرني، أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، والله هو الغني عن العباد وعبادتهم، كريم في نفسه، وإن لم يعبد أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، فلما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تعلم أنه عرشها أو لا تعلم، فلما جاءت عرض عليها عرشها، وقد غُيِّرَ ونُكِّرَ، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو، لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غُيِّرَ وبُدِّلَ ونُكِّرَ، فقالت كأنه يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم.

وقد أوحى الله لسليمان عليه السلام بإسلامها ومنعها من عبادة الله وحده ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين، وأمر سليمان عليه السلام الشياطين فبنوا له قصرًا عظيمًا من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، ثم قيل لها ادخلي الصرح، ليرى ملكًا هو أعز من ملكها، وسلطانًا هو أعظم من سلطانها، فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها لا تشك أنه ماء نخوضه، فقيل لها إنه صرح مرمود من قوارير، فلما وقفت عند سليمان، دعاها إلى عبادة الله وعبادتها الشمس من دون الله، فأسلمت وحسن إسلامها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالْأَيِّتَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَاعْتَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

يخبر الله تعالى عن ثمود وما كان من أمرهم مع نبيهم صالح عليه السلام، حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فإذا هم فريقان مؤمن وكافر، فقال يا قوم لم تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته، فتكثروا من الاستغفار، الذي بسببه تدر الأرزاق، وتنزل الأمطار، وتزيد الخيرات، وتنزل البركات، فقالوا ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً تشاؤماً بصالح ومن آمن معه، وكان من شقائهم، لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه، وقد حرم الله التشاؤم والتطير على المؤمنين، لأن فيه إساءة الظن بالله، وشرع لعباده التفاضل، الذي يفتح أبواب الأمل والنجاح، وكل ما يصيب العباد من قضاء الله وقدره وقضائه، فكل شيء يقع من عند الله، بقضاء الله وقدره، فالله يجازيهم على ذلك، والله يبتليهم بالطاعة والمعصية، ويستدرجهم فيما هم فيه من الضلال.

وكان طغاة ثمود ورؤوسهم دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهما يقتل صالح، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، فتحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، ثم يقولوا لأقربائه، إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به، من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم، فمن كاد المؤمنين وسعى للتضييق عليهم، وأراد المكر بهم، فإن الله يجعل الدائرة عليه، ويخذله في الدنيا والآخرة، فلما عقروا الناقة، قال لهم صالح عليه السلام تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب، فدمرهم الله وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم فارغة ليس فيها أحد بها ظلموا أنفسهم بالشرك، وكانوا عبرة وعظة للمكذبين، وأنجى الله المؤمنين المصدقين، الذين يعملون بتقوى الله، فيجعلون بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والتقوى سبب في النجاة من عذاب الله.

ويخبر الله عن عبده لوط عليه السلام فقد أرسله الله إلى قرية سدوم، فأمرهم بتوحيد الله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وحذرهم من الشرك، وحذرهم من الانحراف الخلقي، والشذوذ الذي انتشر بينهم، فأندر قومه نعمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغناء الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، يرى بعضهم بعضاً على المنكر، يفعلون ذلك شهوة، وهم قوم يجهلون القيامة وعاقبة العصيان.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ
 لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ ۝٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ، قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِبِ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَسَاءً مَّطَرُ الْمُنْذَرِينَ ۝٥٨ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ
 عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩
 أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ
 أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِّهَٰمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠
 أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا
 رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ
 أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
 وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ
 مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا نَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي
 ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
 رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣﴾

لما دعا لوط ﷺ قومه إلى ترك الفاحشة والاستغناء بالحلال عن الحرام، اتفقوا على إخراجهم وأهله لأنهم قوم يترفعون عن فعل الفواحش، ويترجون من إقرارهم على صنيعهم، فهم لا يصلحون لمجاورتهم في بلادهم، فعزموا على إخراجهم، فدمر الله عليهم، وأنجى الله لوطاً ﷺ وأهله إلا زوجته كانت من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردةً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيوط لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش؛ تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها، فأُنزل الله عليهم حجارة من سجيل منضودة؛ لما قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالقوا الرسول وكذبوه، وهما بإخراجهم من بينهم، والمسلم يتعظ ويعتبر من قصة قوم لوط فيطهر نفسه من الشرك، ومن أحوال المعاصي والردائل ويظهر قلبه من الحقد والكراهية والبغضاء والغل والحسد، وأمر الله عباده بحمده وشكره على نعمه على عباده، التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلا والأسماء الحسنى، وأن يسلموا على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبياؤه الكرام عليهم الله الصلاة والسلام، وأصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنهم، والله هو الأحق بالعبادة وحده لا شريك له، وليس ما يدعيه المشركون في آلهتهم الأخرى، فهو الله المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فتلك السموات بارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض بامتدادها، وما جعل فيها من الجبال والسهول، والفيافي والقفار، والأشجار والزرع، والثار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك، فأُنزل الله لعباده من السماء ماء جعله رزقاً للعباد، فأُنبت به بساكنات ذات منظر حسن وشكل بهي، ما كان ليقدروا على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المنفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، فهم معترفون بأنه الخالق لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المنفرد بالخلق والرزق؛ فهل يجعلون لله عدلاً ونظيراً، وهو الخالق الرازق، وقد جعل الأرض قارة ثابتة، لا تتحرك بأهلها، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بسيطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، وجعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، وسير فهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه، وجعل فيها الجبال الشاخنة التي ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بالناس، وجعل بين المياه العذبة والمالحة مانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منها على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار الجارية بين الناس، وتكون عذبة زلالاً تنقي الحيوان والنبات والثمار منها، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرض من كل جانب، ويكون ماؤها ملحاً أجاباً، لئلا يفسد الهواء بريحها، فهل يستحق العبادة غيره ﷺ؟! وهو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضطرين سواه، ومن حكمة أحكم الحاكمين أن جعل العباد خلفاء الأرض، يخلف كل قرن القرن الذي قبله، ولو شاء لأوجدتهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم ذرية بعض، ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فتضيع عليهم الأرض، وتضيع عليهم معاشهم ومكاسبهم، ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ويذرهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون حتى ينقضي الأجل وتفريغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدهم عدداً، ثم تقوم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب، وهو سبحانه الذي يدل عباده في ظلمات البر والبحر بما خلق من الدلائل السامية والأرضية، وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يغيث به عباده المجدبين، فهل يشرك العباد معه غيره في العبادة؟!

أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾
 قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
 فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
 هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
 ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى
 أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ
 فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
 يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

من قدرة الله وسلطانه أنه يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو الذي ينزل مطر السماء، وينبت بركات الأرض، فهو تبارك وتعالى، ينزل من السماء ماء مباركاً فيسكنه في الأرض، ثم يخرج به أنواع الزروع والشجار والأزهار، وغير ذلك من ألوان شتى، فهو المستحق للعبادة، فليأت المشركون بدليل على صحة شركهم. ولا يعلم الغيب إلا الله، فلا أحد من أهل السموات والأرض يعلم الغيب، إنما هو المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، وحين تقوم الساعة ويرى المجرمون العذاب يتكامل علمهم في الآخرة؛ ويوقنون بوقوعها، لأنهم رأوا كل ما وعدوا به، وعابوه، فقد كانوا في الدنيا في شك من الآخرة، وكانوا لا يدركون شيئاً من دلائلها لاختلال بصائرهم فقد أعمى الله قلوبهم عن إبطار الحق، فقد استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً، وقالوا ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً، وما هذا الوعد بإعادة الأبدان، إلا أساطير عن الأولين وليس لها حقيقة.

ولو كانت لهم عقول، لنظروا في حال المكذبين بالرسول وما جاء وهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته، وتلك سنة الله في المكذبين، فجاءت التسليية للنبي صلوات الله وسلامه عليه بأن لا يحزن على المكذبين، ولا يأسف عليهم وتذهب نفسه عليهم حسرات، ولا يضيق بمكرهم، وكيدهم، فإن الله مؤيده، وناصره، ومظهر دينه على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

ويستبعد المشركون، وقوع يوم القيامة ويسألون عن وقته، فيأتي الرد أن ما تسألون عنه وتستعجلونه قد قرب وقوعه، والله ذو فضل على الناس في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، وهو الذي يعلم السرائر والضاير، كما يعلم الظواهر، فهو عالم غيب السموات والأرض، وهو عالم ما غاب عن العباد وما شاهدوه، فما من شيء يغيب عن الخلق في السماء والأرض إلا في اللوح المحفوظ فهذا القرآن العزيز، اشتمل على الهدى والبيئات والفرقان، وبين لبني إسرائيل، وهم حملة التوراة والإنجيل الذي يختلفون فيه، كاختلافهم في عيسى وتبائهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ
إِذَا وَلَوْ أُمَّدَّ بَيْنَ ۖ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ
تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُّؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۖ وَإِذَا
وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
فَوْجًا مَّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهُ
قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنِّي
ذَٰلِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ۖ لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ
دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ
صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾



أنزل الله القرآن العظيم هداية لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم فقد جاء في تشريعاته بالرحمة، فقد يسر الله لعباده في شريعة محمد ﷺ ما لم يكن في الأمم قبلهم، فكانت تلك الشريعة رحمة للعباد، وهي الخنيفة السمحة.

وفي يوم القيامة يفصل الله بين المختلفين من بني إسرائيل بما يحكم به من الحق، فيجازي المحق ويعاقب المبطل، وكذلك من افترق من هذه الأمة، وهو العزيز في انتقامه العليم بأفعال عباده وأقوالهم، وعليه يتوكل المؤمنون في أمورهم، وعليه يتوكل المرسلون في تبليغ رسالة ربهم، وهو ناصرهم ومؤيدهم على من خالفهم، فهم على الحق الواضح، ومن خالفهم على الضلال، كتب الله عليه الشقاوة وحقت عليه كلمة الغواية، فلا يسمعون شيئاً ينفعهم، فعلى قلوبهم غشاوة، وفي آذانهم وقر الكفر، أمت الله قلوبهم بالكفر والشرك، ولا ينتفع بهدي القرآن وبدعوة الأنبياء إلا من آمن وصدق وأسلم وجهه لله.

وفي آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض من مكة تحاطبهم مخاطبة، فتسبب الناس على أنوفهم وتكتب على المسلم مسلم وعلى الكافر كافر.

ويوم القيامة يحشر الله الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله، يساقون فيوقفون بين يدي الله ﷻ، في مقام المساءلة، ويسألهم عن اعتقادهم وأعمالهم مما فعلوه في الدار الدنيا تقريراً وتوبيخاً، وتصغيراً وتحقيراً، فتقوم عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ولا جواب؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية، الذي جعل الليل ظلاماً تسكن فيه حركات الناس، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم، والنهار منيراً مشرقاً، يتصرف الناس فيه في المعاش والمكاسب والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها، وفي آخر الدنيا ينفخ إسرافيل نفخة الفزع في الصور، وهو قرن ينفخ فيه، فيفزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون، ثم بعد ذلك نفخة الصعق، وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق؛ يأتون صاغرين مطيعين، لا يتخلف أحد منهم، في ذلك اليوم ترى الجبال كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تزول عن أماكنها كالسحاب، وذلك بقدرة الله العظيمة الذي قد أتقن كل ما خلق، وأودع فيه، من الحكمة ما أودع، وهو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
 وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ
 إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـذِهِ
 الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَأَمِنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَى
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايِنُهُ فَعَرَّفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ
 مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
 فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ
 طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِبحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا
 فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

المؤمن يؤمن من فزع يوم القيامة بما أعد الله له من الكرامة في الآخرة، فحسانته يثاب عليها بخير منها إلى عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأما من لقي الله بالشرك فإنه يلقي في النار على وجهه، وتقول له خزنة جهنم هل تجزون إلا ما كنتم تعملون في الدنيا من الشرك.

وقد أمر الله نبيه ورسوله ﷺ وأمته أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، فهو رب البيت الحرام، مكة المكرمة فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، هي التي يعظمها المشركون، فليعظموا ربها بالتوحيد، وهو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه، أمروا ألا يعبدوا إلا إياه، وأن ينقاد العباد له ويسلموا له، فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغ هذا القرآن للناس هداية لهم، فمن اهتدى بالقرآن فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل وأعرض عن القرآن فما على الرسل إلا البلاغ والإنذار، ومن رحمة الله بعباده ألا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه؛ والله شهيد على كل شيء.

سورة القصص

وهي سورة مكية نزلت في وقت خروجه ﷺ للهجرة، سميت بالقصص لذكر قصص موسى ﷺ فيها

افتتحت هذه السورة كغيرها بالحروف المقطعة التي تدل على إعجاز القرآن، وبلاغته الذي تحدى العرب أن يأتوا بمثله، وكتاب الله الخالد الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، جاء فيه خبر الأولين والآخرين من الأنبياء والمرسلين ومنهم نبي الله موسى ﷺ وقصته مع فرعون، فقد جاء خبرهم بالصدق والحقيقة، فإن فرعون تكبر وتجبر وطغى في الأرض، وجعل أهلها أصنافاً، في الخدمة والتسخير، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته، يستضعف بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، يستعملهم في أحسن الأعمال، ويقتل أبناءهم، ويبقي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب.

فأراد الله أن يمن على بني إسرائيل ويجعلهم قادة في الخير يقتدى بهم، وولاة وملوكا، ودعاة إلى الخير، ويجعلهم الوارثين لأرض مصر بعد فرعون وقومه.

وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا
 مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ
 أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
 وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
 فَالْقَطْعُ ؕ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
 فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾
 وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ
 أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
 فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ
 رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ
 لِأُخْتِهِ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
 عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾
 فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
 أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾



أراد الله كرامة بني إسرائيل وإنقاذهم من فرعون وقومه، وأراد إذلال فرعون وقومه، ووقوع ما يخافون منه، وهو ظهور رجل من بني إسرائيل تكون نهاية فرعون على يديه، وأراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدر الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري، بل نفذ حكمه وجرى قلمه بأن يكون إهلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احتز من وجوده، وقتل بسببه الولدان إنما منشؤه على فراشه، وفي داره، وغذاؤه من طعمه، وحفنه وهلاكه وهلاك جنوده على يديه، ليعلم أن رب السموات العلا هو القادر الغالب العظيم، العزيز القوي، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

ولما كثر القتل في ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفنى بنو إسرائيل فلا يقومون بالأعمال الشاقة، فأمر فرعون بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى عليه السلام في السنة التي يقتلون فيها الولدان، فلما وضعت أم موسى، ضاقت به ذرعًا، وخافت عليه خوفًا شديدًا وأحبته حبًا زائدًا، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفت في روعها، أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني، فاتخذت تابوتًا، ومهدت فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلت في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعت في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجوارى فاحتملته، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاء، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها؛ وكان التقاطه ليكون لهم عددًا وحزناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه؛ فلما رآه فرعون هم بقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تحاج عنه وتذبذبه، وتحببه إلى فرعون، فقالت قرة عين لي ولك، فقال: أما لك فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك، وهداها الله به، ونفعها وأسكنها الجنة بسببه، وأهلكه الله على يديه، وأرادت أن تتخذه ولدًا وتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه، وهم لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه، من الحكمة العظيمة البالغة، والحجة القاطعة، وأصبح قلب أم موسى فارغًا، من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى، إن كادت من شدة حزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله ثبتها وصبرها، وأمرت ابنتها أن تتبع أثره، وتأخذ خبره، وتطلب شأنه من نواحي البلد، فخرجت لذلك، ولما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل منها نديًا، وأبى أن يقبل شيئًا من ذلك، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رآته أخته بأيديهم عرفته، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها، ورأتهم حائرين فيمن يرضعه قالت هل ألدكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه، فأعطته ثديا فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى، وأحسنست إليها، وأعطتها عطاء جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، وأجرت عليها النفقة والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمًا في عز وجه، فسيحان من يديه الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجًا وبعد كل ضيق مخرجًا، فعلمت أن وعد الله حق برده إليها، وأنه سيكون رسولاً من المرسلين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس، وعاقبته محمودة في نفس الأمر.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْتَوَىٰ ءَاثِنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
 فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعِنِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ
 فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعِنِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ
 فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ
 ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ
 الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ
 ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
 الَّذِي اُسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
 مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ
 يَمْوَسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا
 أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
 وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ ابْنَ الْمَلَأَ
 يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلُوهُ فَأَخْرَجَ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾
 فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

وقد أكرم الله موسى ﷺ لما بلغ أربعين سنة بالنبوة والتكليم وكان سبب وصوله إلى ما كان ما قدر الله له من قضية قتله للقبطي، الذي كان سبب خروجه من مصر إلى بلاد مدين، فإنه دخل المدينة على وقت غفلة الناس ما بين المغرب والعشاء، فوجد فيها رجلين يتنازعا، هذا من بني إسرائيل والآخر قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى ﷺ، ووجد موسى فرصة، وهي غفلة الناس، فعمد إلى القبطي، فطعنه بجمع كفه كان فيها حتفه فمات، فندم موسى ﷺ، ولم يكن قصده القتل، وقال هذا من عمل الشيطان هو الذي هيج غضبي حتى ضربت هذا، إنه عدو لابن آدم مضل له ظاهر في عداوته، ثم استغفر فقال رب إني ظلمت نفسي بقتل النفس التي لم تأمرني بقتلها فاغفر لي ذلك الذنب، فغفر الله له، إن الله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم، ثم عاهد نفسه لما أنعم الله عليه بقبول التوبة والمغفرة ألا يكون معيًّا للكافرين.

ولما قتل ذلك القبطي أصبح في المدينة خائفًا من عاقبة ما فعل، يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر، فمر في بعض الطرق، فإذا الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر، فلما مر موسى، استنصره على الآخر، فقال له موسى إنك لظاهر الغواية كثير الشر، ثم عزم على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلت أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس، وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى ﷺ فلما سمعها ذلك القبطي أخذها، ثم ذهب بها إلى فرعون فألقاها عنده، فعلم بذلك، فاشتد غضبه، وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضره لذلك.

وجاء مؤمن آل فرعون يسرع في مشيه، فأخذ طريقًا قريبًا حتى سبق إلى موسى فأخبره وأذره، فقال إن الملاء يتشاورون فيك ليقتلوك فاخرج من البلد إني لك من الناصحين.

فلما أخبره الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قلبه، بل كان في رفاهية ونعمة ورتاسة، فخرج منها خائفًا يتلفت قال رب نجني من فرعون وملائته.

والعبرة من قصة موسى ﷺ مع القبطي وخروجه من المدينة هي أن الله يصطفي من يشاء من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وإذا أراد شيئًا هيا له أسبابه بقدرته، فقدّر الله القتل ليخرج موسى من مصر ليكرمه الله بالرسالة والنبوة والكلام، وليظهر وعد الله بحفظه، ونصره على أعدائه ونجاته مما كادوا له من المكائد.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
تَمْشَى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا
يَتَأْتٍ اسْتَعِجْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعِجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ
تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٍّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لما خرج موسى ﷺ من مصر قصد مدين وسلك طريقها، ومدين هو مدين بن إبراهيم، سميت البلدة باسمه، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر، وقد خرج خائفًا بلا ظهر ولا حذاء ولا زاد، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر والبقل، حتى يرى خضرته في بطنه، وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه، وهو أول ابتلاء من الله ﷻ لموسى ﷺ، ولما وصل مدين رأى الناس يسقون من بئر مدين لمواشيهم، وجد عليه جماعة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد من دون الجماعة امرأتين تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتحلوا لهم البئر، فلما رآهما موسى ﷺ رقا لهما ورحمهما، قال: ما خبركما لا تردان مع هؤلاء، قالتا: لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء، وأبونا شيخ كبير لا يستطيع أن يسقي لنا، فقال هل قربكما ماء، قالتا لا، إلا بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر، فانطلقتا، وأرينه البئر، فقال بالصخرة بيده، فنهاها، ثم استقى لهم سحلاً واحداً فسقى الغنم، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق ثمرة، فقال رب إني لما أنزلت إلي من طعام محتاج، وكان يطلب الطعام لجوعه، فلما رجعت المرأتان إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغنامهما حُفِل بطان، قال لهما: ما أعجلكما، قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحماً فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحدهما اذهبي فادعيه لي، فجاءته إحداها تمشي على استحياء، واضعة ثوبها على وجهها، قالت إن أبي يدعوك ليشيك ويكافئك على سقيك لغنمنا، فقال لهما امشي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت فارمي بحجر ففعلت، فلما جاء إلى أبيهما شعيب ﷺ وذكر له ما كان من أمره، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده، قال طب نفساً وقر عيناً، فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا، فقالت إحدى ابنتي شعيب ﷺ (وهي التي ذهبت وراء موسى ﷺ) لأبيها، يا أبت استأجره لرعي الغنم، فهو قوي أمين، وكانت علمت قوته برفعه الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وبأمانته إنه لما جاء معها تقدمت أمامه، فقال لي كوني من ورائي، فإذا اجتنبت الطريق فارمي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه، فطلب منه شعيب ﷺ أن يرعى الغنم، ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين، فزوجه التي نادته بمهر، وهو رعي الغنم ثماني سنين، فإن تبرع بزيادة سنتين فهو إليه، ولن يجد المشقة والأذى في هذه السنين، فأجر نفسه ثماني سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه، فقال موسى ﷺ لشعيب ﷺ الأمر على ما قلت الأجرة على ثمان سنين، فإن أتممت عشرًا فمِن عندي، فأبيا الأجلين ففعلت فلا حرج علي.



﴿٢٩﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ
 الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم
 مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
 فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
 الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِلَىٰ أَنَا اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا هَتَزَتْ كَأَنَّهُهَا
 جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَّ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ
 مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ
 غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ
 بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا
 قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
 أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا
 فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾
 قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا
 يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ۖ أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

لما قضى موسى ﷺ أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملها وأنقاهما، وأراد فراق شعيب ﷺ أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه في ذلك العام، وكان قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً تضيء له على بعد، فقال لأهله امكثوا إني رأيت ناراً فاجلسوا، حتى أذهب إليها، لعلني آتيكم بعلم عن الطريق، أو قطعة من النار لعلكم تتدفئون بها من البرد.

فلما أتى النار نودي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، فوجد النار تحترق في شجرة خضراء في حف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها، فناداه ربه يا موسى إني أنا الله رب العالمين، الفاعل لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله سبحانه، فأمره الله أن يلقي العصا التي في يده، فألقاها فإذا هي حية تسعى، فعرف وتحقق أن الذي يخاطبه ويكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، فلما رأى العصا تضطرب كأنها جان في حركتها السريعة مع عظم خلق قوائمها واتساع فمها، هرب ولم يلتفت؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فقال الله له يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين، فرجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله له أدخل يدك في جيب درعك ثم أخرجها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق؛ من غير برص وأمره الله أنه إذا خاف من شيء أن يضم إليه يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، فذلك دليلان قاطعان واضحا على قدرة الخالق المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه؛ وأمره الله بتبليغ الرسالة إلى فرعون وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع، إنهم كانوا قومًا خارجين عن طاعة الله، مخالفين لدين الله، قال موسى ﷺ: رب إني قتلت منهم القبطي فأخاف إن رأوني أن يقتلوني، وأخي هارون أفصح مني لساناً، يكون لي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله ﷻ؛ وبين لهم عني ما أكلهم به، فإنه يفهم عني، فلما سأل ذلك قوى الله أمره بأخيه وأعز جانبه به، فليس أحد أعظم منه على أخيه من موسى على هارون ﷺ، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون، وجعل الله لهما حجة قاهرة، فلا سبيل إلى الوصول إلى أذاهما بسبب إبلاغها آيات الله، وكفى بالله ناصراً ومعيناً ومؤيداً، فإن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

لما جاء موسى وأخوه هارون ﷺ إلى فرعون وملأه، وعرضا ما آتاها الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة على صدقها، ودعا فرعون وقومه إلى توحيد الله واتباع أوامره، فلما شاهد فرعون وملؤه وأيقنوا أنه من الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد، والطغيان والتكبر عن اتباع الحق، فقالوا ما هذا إلا سحر مفتعل مصنوع، وقالوا ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى، فقال موسى ﷺ محيياً لهم ربي أعلم مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، وستعلمون لمن تكون النصرة والظفر والتأييد، والله لا يفلح المشركين بالله.

وكفر فرعون وطغى وافترى في دعوى الإلهية لنفسه وأمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته، أن يوقد له على الطين ليتخذ له أجراً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفع لعله يبلغ أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى، وقال وإني لأظنه كاذباً في قوله أن له رباً غيبي، وطغى فرعون وتجبر هو وجنوده وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة، فأغرقهم الله في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد فكانت عاقبة الظالمين الغرق والحرق وجعلهم دعاة إلى النار لمن وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل، ويوم القيامة لا ناصر لهم، فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله، وكما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك يوم القيامة هم من المبعدين ملعونين المهلكين.

وكان إرسال موسى ﷺ بعد إهلاك الأمم قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وأنزل التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه، هدى لبني إسرائيل إلى الحق، وبصيرة لهم من العمى والغي، وإرشاداً إلى الأعمال الصالحة، لعل الناس يتذكرون بها، ويهتدون بسببها، ففي التوراة ذكر نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فمن اهتدى بهداية التوراة وفق للإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

فكانت قصة موسى ﷺ مع فرعون عبرة وعظة للمكذبين المعاندين، وللمتكبرين المتجبرين، فلم تنفع فرعون حيلته، ولا قوته، ولا جبروته، ولا جنده، ومن يهن الله فما له من مكرم، وتلك حقيقة واقعة وسنة لله باقية في دحر أعداء الملة، وصغارهم وانتصار الحق وأهله إلى قيام الساعة، فإن الباطل مهما طال وقته إلا أن له زوال واضمحلال، وللحق ظهور وانتصار.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ
 مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
 الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمُ
 آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ
 الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
 مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
 وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمُ مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا
 رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا
 لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
 مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفِرُونَ
 ﴿٤٨﴾ قُلْ فَاتَّبُوا بِكُتُبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ
 إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ
 أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ
 هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

كان ابتداء إحياء الله إلى موسى ﷺ وتكليمه له بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله فيه موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي، وقد نزل القرآن بخبره، وأوحاه لنبيه محمداً ﷺ في القرآن، ليجعل الله القرآن حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدهما، ونسوا حجج الله عليهم، وقد عهد الله إلى موسى وقومه عهداً في محمد ﷺ والإيمان به، فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها.

وقد قام أنبياء الله بالرسالة كما قام بها شعيب وموسى ﷺ فأقاموا في أهل مدين يذكروهم بالوعد والوعيد بآيات الله، والنبي ﷺ لم يشهد أخبار الأنبياء، ولكن الله أوحى إليه خبرهم، فكانت رسالته رحمة للخلق لينذر أمة لم يأتها رسول قبله، لعلهم يهتدون بها جاءهم به من الله ﷻ.

ولتقوم عليهم الحجة وليقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، فلما جاءهم الحق من عند الله على لسان محمد صلوات الله وسلامه عليه، قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد، لولا أوتي مثل ما أوتي موسى من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجزاها الله على يدي موسى ﷺ حجة وبراهين له على فرعون ومع هذا كله لم يؤمن فرعون وقومه، وقالوا ساحران تعاوننا، ونحن بكل منهما كافرون، فكفروا برسالة موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وبالتوراة والقرآن ووصفوهما بالسحر، فأمرؤا أن يأتوا بكتاب أهدى من التوراة والقرآن، وقد علم بالضرورة لذوي الأبواب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو التوراة.

ولن يستجيب المشركون بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ، وإنما يتبعون أهواءهم بلا دليل ولا حجة، ومن اتبع هواه فهو أشد الناس ضلالة وغواية، والله لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك، وتكذيب الأنبياء والإعراض عن آيات الله، فأعظم الظلم الشرك بالله تعالى، واتخاذ آفة من دون الله، من ملك أو ولي، أو شجر أو حجر أو صنم، أو قبر، ولذلك جاءت شريعة محمد ﷺ بسد أبواب الشرك ووسائله.

* وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
 ءَانَيْنَهُمُ الْكَتَبَ مِنْ قَبْلِهِ ۚ هُمْ بِهِ ءُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَالَى عَلَيْهِمْ
 قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ۖ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
 أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ
 السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
 أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ
 لَا نَبْنِغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ
 اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن
 نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنَخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا ۖ أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ
 حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ
 بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
 إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
 الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا
 كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

أنزل الله آيات القرآن يتبع بعضها بعضاً، تبين لكفار مكة أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم. ووصل لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم ينظرون إلى الآخرة في الدنيا، لعلهم يتعظون ويعتبرون، والمؤمنون من أهل الكتاب الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل والقرآن، يصدقون بما في القرآن، ويعلمون أنه حق من عند الله، وسيؤتيهم الله أجرهم مرتين بما صبروا على اتباع الحق؛ ومن صفتهم أنهم لا يقابلون السيئ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون، وينفقون مما رزقهم الله من الحلال، ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات، وصدقات النفل والقربات، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم، وإذا سفه عليهم سفيه، وكلمهم بما لا يليق بهم، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا الكلام الطيب، ويقولون لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يهدي إلى الحق دلالة إرشاد وبيان، والله يهدي هداية توفيق وإلهام، والرسول عليه البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ولما حضرت الوفاة أبا طالب عم رسول الله ﷺ وقد كان يحوطه وينصره، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان له بتلك المقالة، حتى قال آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فنهى عن الاستغفار له فسبق القدر فيه، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة.

وكان من تعنت قريش، اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى فقالوا لرسول الله ﷺ نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، فجاء تكذيبهم أن الله جعلهم في بلد أمين، وحرّم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق، يؤتى إليه من سائر الشار مما حوله من جميع البلدان، وكذلك المتاجر والأمتعة، رزقاً من عند الله، وكم أهلك الله من قرية طغت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف، فكانت خراباً ليس فيها أحد، تركوا المساكن والدور وهجرت القصور، ونزل بها عذاب الله تعالى، ولا يهلك الله إلا من قامت الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب وقد بعث الله في أم القرى النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه المبعوث إلى جميع القرى، من الجن والإنس، فحتم به الرسالة والنبوّة، فلا نبي بعده ولا رسول، بل شرعه باقٍ بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة، والله لا يهلك إلا الأمم الظالمة الجاحدة المكذبة.

وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ
 اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا
 فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ
 كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
 الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا
 يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
 لَهُمْ وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
 فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ
 يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ
 يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ
 اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
 صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ
 الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم حقيرة، وهي متاع الغرور، أفلا يعقل من يُقدّم الدنيا على الآخرة، فلا يستوي من وعده الله بالجنة وما فيها من النعم التي لا تحصى وهو مدرّكه لا محالة، فإن الله لا يخلف الميعاد، ومن أعطي بعض متاع الدنيا مع سرعة زوالها وتنغيصها، وهو يوم القيامة من المحضرين في النار، فالموعد بالجنة لا بدّ أن يظفر بها وعد به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن.

وأما الكفار المشركون فإنهم يوبخون يوم القيامة، فيقال لهم أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقرّيع والتهديد، ويقول الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر: ربنا إنا أغويناهم فاتبعونا، واليوم تنبرأ من عبادتهم، ويقال للمشركين ادعوا شركاءكم ليخلصوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، فودوا حين عاينوا العذاب، لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وينادون ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وهذا ما يسأله العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه.. هاه.. لا أدري؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، فخفيت واشتبهت عليهم الحجج، والأعذار فهم لا يسأل بعضهم بعضاً، ولا ينطقون بحجة ولا يدرون بما يجيبون، لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر، ولا حجة يوم القيامة، وأما من تاب من الشرك وصدّق بها جاء به الرسل، وأدّى الفرائض واجتنب المعاصي فهو من الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين، والله تعالى المنفرد بالخلق والاختيار، ليس له في ذلك منازع ولا معقب، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه، ويختار لعباده الذي هو خير لهم في الدارين، وليس للعباد اختيار ولا مشيئة إذا أراد الله شيئاً، فتقدس الله وتنزه عما يشركون من الأصنام والأنداد، التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

وهو سبحانه يعلم ما تكن الضائرات، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق، وهو المنفرد بالآلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ويختار سواه، وهو المحمود على كل حال؛ لعدله وحكمته، له الحكم، لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته، يجمع الخلائق يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الِئْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
 مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى
 يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
 فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الِئْلَ
 وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
 ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
 تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
 هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٥﴾ إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى
 عَلَيْهِمْ وَءَايَنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنْ مَفَاتِحَهُ لَسَنُوْا بِالْعَصْبَةِ
 أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ
 ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
 نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
 وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

امتن الله على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوام لهم بدونهما، ويَبِّن أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سمرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولستمتته النفوس، فهل يوجد إله غير الله يأتي العباد بضياء يصرون به ويستأنسون بسببه، ولو جعل الله النهار عليهم مستمراً دائماً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال، فهل يوجد إله غير الله يأتي العباد بليل يستريحون فيه من حركاتهم وأشغالهم؟ فمن رحته بعباده أن خلق لهم الليل ليسكنوا فيه وخلق والنهار ليبتغوا من فضله بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، فهل يشكر العباد ربهم بأنواع العبادات في الليل والنهار؟ ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، وفي يوم القيامة يُنادى المشركون على سبيل التقريع والتوبيخ على رؤوس الأشهاد أين آهتكم التي تزعمون في الدار الدنيا أنها تنفعكم؟ ويخرج من كل أمة رسولها الذي أرسل إليها، ليأتوا بدليل على صحة شركهم فعلموا ألا إله غير الله فلم ينطقوا ولم يستطيعوا جواباً، ولم تنفعهم آهتهم.

وكان قارون ابن عم موسى عليه السلام، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة، ولكنه نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله، فقد ترفع على قومه وتكبر وتجبر، وفتنه الله بالمال، وأتى من الأموال التي مفاتيح خزائنها يثقل حملها على الفئام من الناس لكثرتها، ووعظه الصالحون من قومه، فيما هو فيه فقالوا على سبيل النصح والإرشاد لا تبطر بما أنت فيه من الأموال، إن الله لا يحب الأشرين بالطين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، واستعمل ما وهب الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدار الآخرة، وتنعم بما أباح الله فيها من المأكول والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأنت كل ذي حق حقه.

و حسن إلى خلق الله كما أحسن الله إليك، ولا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض، وتسيء إلى خلق الله إن الله لا يحب المفسدين الذين يسعون في الأرض فساداً.

وفتنة المال من أشد الفتن، على بني آدم، فالدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها، ورب متخوض فيما اشتته نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار فمن أخذ هذا المال بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
 مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا
 وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
 فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا
 مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتْرُونَ ۚ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ
 وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا
 بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَمَا كَانِ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا
 مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَاتِبُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنًا
 وَيُكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا
 لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
 ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا
 يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

كان جواب قارون لقومه، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير، إن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي، ولولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، فجاء الرد عليه أن الله أهلك في الأمم الخالية من هو أكثر منه جمعاً للمال، ولو كان المال أو القوة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله، ولا يسأل المجرمون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تقرير وتوبيخ، فيدخلون النار بغير حساب ولا سؤال.

وخرج قارون ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجميل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى، وقالوا إنه لذو حظ وافر من الدنيا، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم ويلكم جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون، وما يلقي الجنة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة.

فلما اختال قارون في زينته، وافتخر على قومه وبغى عليهم، خسف الله به وبداره الأرض، وتلك عاقبة الكبر والطغيان، ما أغنى مال قارون عنه، ولا جمعه، ولا خدمه ولا حشمه، ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله به، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له لا من نفسه، ولا من غيره.

وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس لما رأوه في زينته لما خسف به أصبحوا يقولون ليس المال يدل على رضا الله عن صاحبه وعن عبادته؛ فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفف ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، فالله يعطي المال من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب.

ولولا لطف الله بهؤلاء وإحسانه إليهم لخسف بهم كما خسف بقارون، والكافر لا يفلح عند الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، والدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها الله لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون ترفعاً على خلق الله وتعاطياً عليهم وتجبراً عليهم، ولا عملاً بالمعاصي، ومن جاء بالحسنة يوم القيامة، فثواب الله خير من حسنته، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، لا تضاعف عليه وهذا مقام الفصل والعدل، فمن همَّ بحسنة فلم يعلمها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرًا ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، والله ﷻ يقول: إذا أراد عبيدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها اكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي
 أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ
 تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
 فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ
 اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِأَنهَا
٦٩نُحُوتُهَا
٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا
 يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
 صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤ مَنْ كَانَ يَرْجُوا
 لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ وَمَنْ
 جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٦

أمر الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه بإبلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس، وفي يوم القيامة سيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة؛ والله أعلم بالمهتدي من المعرض المكذب، وسيعلم الكفار لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، وقد أنعم الله على نبيه نعمته العظيمة، وعلى العباد إذ أرسله إليهم، وما كان يظن قبل إنزال الوحي إليه أن الوحي ينزل عليه، ولكن نزول الوحي على محمد ﷺ من رحمة الله به وبالعباد، وأمر الله نبيه ألا يكون معيناً للكافرين، ولا يتأثر بمخالفتهم له وصدهم الناس عن طريقه؛ فإن الله مؤيد دينه، ومظهر ما أرسله به على سائر الأديان، وعليه بالدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، الذي لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته.

فإنه الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، له الملك والتصرف، ولا معقب لحكمه، وإليه يرجع العباد يوم معادهم، فيجزئهم بأعمالهم، إن كان خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً.

سورة العنكبوت

وهي سورة مكية، وسميت بذلك لذكر بيت العنكبوت فيها

افتتحت هذه السورة بالحروف المقطعة لبيان إعجاز القرآن، ولا يلزم أن يقع ذكر القرآن أو الكتاب بعد تلك الحروف وإن كان ذلك هو الغالب في سور القرآن ما عدا ثلاث سور مريم وهذه السورة والروم، مع أن هذه السورة فيها إشارة إلى التحدي بإعجاز القرآن.

ومن سنة الله ﷻ في عباده المؤمنين أن يتليهم بحسب ما عندهم من الإيمان، فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمل فالأمل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء، والابتلاء ليعلم الله الذين صدقوا في دعوائهم الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، ولقد فتن الله الأنبياء والمؤمنين، فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل، فلا يظن المشركون أنهم يعجزون الله ويفوتونه، فلا يقدر على الانتقام منهم، فبس ما يظنون، فمن كان يرجو لقاء الله في الدار الآخرة وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفوراً، فإن ذلك كائن لا محالة؛ لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات، فمن عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ
﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ
﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ
﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ
شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا
مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ
﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

الله غني عن الخلائق جميعهم فمن إحسانه وبره بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، ويكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، وأمر الله عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق؛ ومع هذه الوصية بالرفقة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، وإن حرصا على أن يتبعهما على دينهما إذا كانا مشركين فلا يطعهما في ذلك، فإن مرجعهم إلى الله يوم القيامة، فيجزى المحسن بإحسانه إليهما، وبصبره على دينه، ويحشره مع الصالحين لا في زمرة والديه، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب حباً دينياً، ومن صفات المكذبين الذين يدعون الإيمان بألستهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، أنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولئن جاء نصر قريب من الله وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء إنا كنا إخوانكم في الدين، والله بأعلم بما في قلوبهم، وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهروا للمسلمين الموافقة، وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء، ليطيبن هؤلاء من هؤلاء، ومن يطيع الله في الضراء والسراء إنما يطيعه في حظ نفسه، ومن ضلال الكفار أنهم قالوا لمن آمن من قومهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا، ولنحمل آثامكم، وهم في الحقيقة لن يحملوا خطاياهم وهم كاذبون فيما يقولون، ولكن من أضل أحداً فإنه يحمل وزره يوم القيامة، فالدعاة إلى الكفر والضلالة، يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم، وأوزار من أضلوه، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، فمن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيء، ويوم القيامة يسألون عما كانوا يكذبون ويحتلقون من البهتان.

وقد أرسل الله نوحاً ﷺ إلى قومه فمكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً، وجهاً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق، وإعراضاً عنه وتكديماً له، وما آمن معه منهم إلا قليل؛ فبعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار، فأغرقهم الله جميعاً، وفي هذا تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، فلا يأسف على من كفر به من قومه، ولا يحزن عليهم؛ فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويبداه الأمر وإليه ترجع الأمور، وقد بعث الله نوحاً وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس.

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ
 (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ
 خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ أَثُونًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ
 وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تَكْذِبُوا
 فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ
 الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ
 يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ
 مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
 وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۚ
 أُولَٰئِكَ يَسُوءُ مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

لما أعرض قوم نوح ﷺ أمر الله نوحًا بصنع السفينة، فصنع السفينة وأمره الله تعالى بالركوب فيها هو ومن معه من المؤمنين، وأغرق الله قوم نوح وأنجى أصحاب السفينة، وهم الذين آمنوا بنوح ﷺ. وجعل الله نوع السفينة للناس تذكرة لنعمه على الخلق، كيف نجاهم من الطوفان، وآية تحمل الناس في البحر، وإن شاء الله أغرقهم فلا أحد ينقذهم، وإبراهيم عبد الله ورسوله وخليله إمام الحنفاء، دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا معطي غيره، ودعاهم للإخلاص لله في العبادة والخوف، فإذا فعلوا حصل لهم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنهم الشر في الدنيا والآخرة، وأخبرهم أن الأصنام التي يعبدونها والأوثان، لا تضر ولا تنفع، وإنما ينجتونها أصنامًا، ويسمونها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلهم، وهي لا تملك لهم رزقًا، فليطلبوا الرزق عند الله ويأكلوا من رزقه وليعبدوه وحده لا شريك له، وليشكروا له على ما أنعم به عليهم، فإنه يرجع الخلائق يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله، فإن كذبوا فقد كذبت أمم من قبلهم، فبلغهم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، وما على الرسول إلا التبليغ بما أمره الله تعالى من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأرشدتهم الخليل ﷺ إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، ثم وجدوا وصاروا أناسًا سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء، من السموات وما فيها من الكواكب النيرة، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وصحاري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود خالقها، الذي يقول للشيء: كن فيكون، وهو القادر على البعث بعد الموت يوم القيامة، وهو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل عدل؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، يعذب من يشاء بعدله، ويرحم من يشاء برحمته، وإليه يرجع الخلق يوم القيامة، ولا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه، وما للعباد حول ولا قوة إلا به، وما لهم من دونه ناصر وحافظ، والذين جحدوا آيات الله وكفروا بالمعاد، لا نصيب لهم من رحمة الله، ولهم عذاب موجه في الدنيا والآخرة.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
(٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيرِينَ ﴿٢٥﴾ * فَمَأْمَنَ لَهُ، لُوطٌ وَقَالَ
إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
وَعَآيَتِنَا أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
(٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ
مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾
أَيِّنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
(٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾



بعدهما دعا إبراهيم قومه وبين لهم طريق الهداية، كفروا وعاندوا وكابروا، ودفعوا الحق بالباطل، وكان جوابهم بعد أن قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة أنهم عدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، فقالوا أقتلوه أو حرقوه، فجمعوا حطبًا كثيرًا، وحفروا حفرة عظيمة، وألقوا فيها الخطب، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكفنوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوا به فيها، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وخرج منها سالمًا بعدما مكث فيها أيامًا، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إمامًا، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وقدم ولده للقربان، وجعل ماله للضييفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان، وقال لقومه موبخًا على سوء صنيعهم، في عبادتهم الأوثان إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا، وفي يوم القيامة ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وكرهاً، فيجحد بعضكم بعضًا، ويلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، ومصرهم ومرجعهم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لهم من ناصر ينصرهم، ولا منقذ ينقذهم من عذاب الله. وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك، ينادي مناوٍ من تحت العرش: يا أهل التوحيد، فيرفعون رؤوسهم، ثم ينادي: يا أهل التوحيد، ثم ينادي الثالثة: يا أهل التوحيد، إن الله قد عفا عنكم قال فيقول الناس قد تعلق بعضهم ببعض في مظالم الدنيا ثم ينادي: يا أهل التوحيد، ليعف بعضكم عن بعض، وعلى الله الثواب.

ولم يؤمن بإبراهيم إلا لوط، ابن أخيه، وهو لوط بن هاران بن آزر، وسارة امرأة إبراهيم الخليل، وهاجر سريته، وهاجر إبراهيم إلى بلاد الشام، وهاجر معه لوط ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها، واختار إبراهيم الهجرة، ابتغاء إظهار الدين والتمسك من ذلك؛ والله العزة ولرسوله وللمؤمنين به، وهو سبحانه الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية، ولما فارق إبراهيم قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وهو إسحاق، وولد له وهو يعقوب ولد في حياة جده، ومن فضل الله على خليله، مع اتحاد الله إياه خليلًا وجعله للناس إمامًا، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم ﷺ إلا وهو من سلالة، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في ملئهم مشرًا بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام من الله تعالى، وجمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبه ويتولاه، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، وفي الآخرة في زمرة الصالحين الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجر، وكثرة العطاء من الرب سبحانه، وأما نبي الله لوط ﷺ، فقد أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ويفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك، فأجابوه باستعجال العذاب إن كان صادقًا في دعوتهم فاستنصر الله عليهم.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا
 أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾
 قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا
 أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
 وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ
 كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ
 هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
 ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
 ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا
 اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
 ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
 دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ
 لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
 أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمُ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

لما استنصر لوط ﷺ الله على قومه، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ﷺ في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنهم لا رغبة لهم بالطعام نكرهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك، وأخبروه بعد البشرى بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، فأخذ يدافع لعلهم يؤخرون، لعل الله أن يهديهم، فقالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية بأمر الله، قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته فهي من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك، اهتم بأمرهم، وخاف عليهم من قومه، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة، فقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك من هذه القرية، ومن العذاب الذي سيصيبهم إلا زوجتك فهي من المعذبين سينزل الله عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم وكفرهم، فاقطلع جبريل ﷺ قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة من عند الله، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم القيامة، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد.

ويخبر الله تعالى عن عبده ورسوله شعيب ﷺ أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، ثم نهاهم عن السعي في الأرض بالفساد، والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم.

فأصبحوا في دارهم ميتين، قد ألقى بعضهم على بعض، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم الله وتنوع في عذابهم، فأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهم، وتمر عليها كثيراً، وقد حسن لهم الشيطان أعمالهم، فكانوا معجبين في دينهم وضلالتهم، يحسبون أنهم على هدى، وهم على الباطل وكانوا عقلاء ذوي بصائر، لكن الشيطان أضلهم وأعمى الله بصائرهم، وأعظم عقوبة على العبد أن يزين له سوء عمله فيراه حسناً، فلا يوفق لتوبة، ولا رجعة إلى الله تعالى.

وَقَرُّوْكَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى
 بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ
 ٣٩ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
 وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ
 الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
 وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ مَثَلُ الَّذِينَ
 اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
 اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ
 لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٤١ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤٢ وَتِلْكَ
 الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ
 ٤٣ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ٤٤ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
 وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
 وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ٤٥

من المكذبين قارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله فاستكبروا على الحق، وظنوا أنها لن يعذبها، فكانت لكل قوم عقوبة تناسبه، فعاد قالوا من أشد منا قوة، فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الطوب جذاً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشده فيبقى بدنًا بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر، وثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحًا ومن آمن معه، وتوعدهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخرجت الأصوات منهم والحركات، وقارون الذي طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحًا، وفرح ومرح وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وفرعون ووزيره هامان وجنوده عن آخرهم أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر، وما كان الله ليظلمهم فيما فعل بهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بفعلهم، وضرب الله تعالى مثلًا للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، الذي يحسن العمل في اتباع الشرع، فهو مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها، والله تعالى يعلم ما عليه المشركون من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليهم، وهذه الأمثال التي يضر بها الله للناس، ما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه، والله خلق السموات والأرض بالحق، لا على وجه العبث واللعب، ليجزي الكفار بما عملوا ويجزي الذين آمنوا بالجنة، وخلق السموات والأرض دلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية، وأمر رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهي قراءته وإبلاغه للناس، وإقامة الصلاة لأن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات لمن واطب عليها، وفيها ذكر الله تعالى، وفي الصلاة ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر القرآن يأمره وينهاه، ولذكر الله لعباده أكبر من ذكر العباد لله، فإن العبد إذا ذكر الله ذكره الله، وإذا ذكره في ملا ذكره الله في ملا خير منهم، وذكر الله أفضل الطاعات، وأجل العبادات، والله لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده.

﴿٤٦﴾ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا
 الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ
 إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ
 وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْتَهُمُ الْكِتَابَ
 يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
 إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ
 وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا زَتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ
 ءَايَاتُ يَنْتَضِ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ
 بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ
 ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ
 مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
 يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا
 يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

شرع الحوار مع أهل الكتاب، لمن أراد منهم الاستبصار ومعرفة الحق - مع اعتقاد ضلالتهم، ونسخ شريعتهم بالإسلام- واستخدام الأساليب المقتنعة لدعوتهم إلى الدين الصحيح، وأما الذين عاندوا وكابروا وحاربوا الإسلام فينتقل معهم إلى الجهاد.

وإذا أخبر أهل الكتاب بما لا يعلم صدقه ولا كذبه فلا نكذبه؛ لأنه قد يكون حقاً، ولا نصدقه؛ فلعله أن يكون باطلاً، لكن نؤمن به إيماناً مجملًا معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً، لا مبدلاً ولا مؤولاً، وقد أنزل الله القرآن على عبده كما أنزل الكتب على الرسل من قبله، فمن أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن، ومن العرب من قرئش من يؤمن بالقرآن، وما يكذب بالقرآن ويحجده إلا من يستر الحق بالباطل، فقد لبث النبي ﷺ في قومه قبل أن ينزل القرآن عليه عُمراً لا يقرأ كتاباً ولا يحسن الكتابة، وقومه وغيرهم يعرفون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب وهي صفته في الكتب المتقدمة، وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا، ولا حرفاً بيده، بل كان له كُتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم، ولو كان يحسن القراءة والكتابة لشك بعض الجهلة من الناس إنها تعلم هذا من كتب من قبله الماثورة عن الأنبياء، وقد قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة، بل إن القرآن آيات بيّنة واضحة في الدلالة على الحق، أمرًا ونهيًا وخبرًا يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظًا وتلاوة وتفسيرًا، وما يكذب بالقرآن ويبخس حقه ويرده إلا المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، ومن تعنت المشركين طلبهم الآيات والمعجزات التي تدل على صدق رسول الله ﷺ، وما علموا أن الآيات من عند الله، فلو علم الله أنهم يمتدون لأجابههم إلى سؤالهم؛ ولكنه يعلم منهم أن قصدهم التعنت والامتحان، وإنما بعث النبي ﷺ نذيرًا ومبلغًا، وما علموا أن أكبر معجزة هو هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجز الفصحاء والبلاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، أنزله الله رحمة للمؤمنين، بما فيه من بيان الحق والحلال والحرام، وهو تذكير بما فيه من حلول العقوبات على المكذبين والعصاة، والله عليم برسوله ﷺ وتبليغه رسالة ربه، ويعلم بتكذيب المشركين لا تخفى عليه خافية.

والكفار هم الخاسرون يوم المعاد سيجزيهم الله على ما فعلوا، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، وسيجازيهم الله على ذلك، إنه حكيم عليم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَلِإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٥﴾
﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلِإِنَّ
سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سَخِرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
لِيَقُولَنَّ لِلَّهِ فَإِنِّي تُوفِّكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلِإِنَّ سَأَلْتَهُمْ
مِّنْ نَّذَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا
لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

لولا ما كتب الله وقدره من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، وسيأتيهم فجأة، وقد استعجلوه، وهو واقع بهم لا محالة، والنار جامعة لهم لا يبقى أحد منهم إلا دخلها، يغطيهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وتحيط بهم جهنم، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتمهم ظلل، فالنار تغطيهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسي، ويقال لهم: ذوقوا ما كنتم تعملون، وهذا عذاب معنوي على النفوس.

وأمر الله عباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحّدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، فأينما كان الإنسان أدركه الموت، فليكن في طاعة الله وحيث أمره الله فهو خير له، فإن الموت لا يد منه، ولا محيد عنه، نسأل الله أن يمتتنا على الإسلام ويحسن خاتمتنا، ثم إلى الله المرجع، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب، فالؤمنون الذين عملوا الصالحات يسكنهم ربهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها، من ماء وخر وعسل ولبن، ما كثر فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً، فالجنة نعم الأجر على أعمال المؤمنين، نسأل الله أن يجعلنا منهم والدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين، فأهل الجنة هم الذين صبروا على دينهم، وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء وفارقوا الأهل والأقرباء؛ ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعوده، وعلى ربهم يتوكلون في أحوالهم كلها، في دينهم ودنياهم، والرزق المكتوب للإنسان لا يختص ببقعة، بل رزق الله تعالى عام لخلقهم حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، وكل مخلوق لا يطيق جمع رزقه وتحصيله ولا يستطيع أن يؤخر شيئاً لغد، فالله يقيض له رزقه على ضعفه ويسره عليه، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء والحيتان في الماء، والله السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، وهو الله لا إله إلا هو، كل العباد معترفون ومقرون بأنه خالق السموات والأرض والشمس والقمر، وهو الذي سخر الليل والنهار، وهو الخالق الرازق لعباده، ومقدر أجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلّاً منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فهو المتفرد بخلق الأشياء، فإذا كان الأمر كذلك فلم تصرف العبادة لغيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر الله تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، وحتى الملاحدة وإن أنكروا وجود الخالق إلا أن فطرهم تخالف ذلك، وهم موقنون في نفوسهم على وجوده جل وعلا..

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ
لَهُى الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي
الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّهَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَنَعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَطَفُ
النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ
مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، لا دوام لها، وغاية ما فيها هو ولعب، وإن الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء وهي مستمرة أبد الأبداء هي الدار الآخرة، فلو كان العباد يعلمون لآثروا ما يبقى على ما يفنى، ومن تناقض المشركين أنهم عند الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له، فإذا نجاهم إلى البر يشركون بربهم.

فها كان الإخلاص دائماً في جميع أحوالهم، فليجحدوا نعمة الله عليهم في إنجائهم من البحر، وليتمتعوا في الحياة الدنيا فإن لهم في الآخرة العذاب الأليم، وقد أنعم الله على قريش فيها أحلهم من حرمه الذي جعله للناس موطن عبادته، ومن دخله كان آمناً، فهم في أمن عظيم، والأعراب حولهم ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، أفيكون شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا بالله وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، وكفروا بنبي الله وعبدوه ورسوله؟ فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم بيدر، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم أنوفهم وأذل رقابهم، وليس أحد أشد جريمة ومنكراً ممن كذب على الله، ومن كذب بالحق لما جاءه فمصيبرهم إلى جهنم مصير الكافرين ومستقرهم، وأما الذين بذلوا جهدهم في مجاهدة أنفسهم، وحثها على الطاعة وأطرها على الحق فلهم البصيرة إلى الصراط المستقيم والمنهج القويم يوفقه الله ويسددهم، والله مع المحسنين بالنصر والمعونة في دنياهم، وبالثواب والمغفرة في عقابهم.

سورة الروم

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر انتصار الروم فيها على الفرس

نزلت هذه الآيات حين غلب ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، واضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، فذكر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أما إنهم سيغلبون، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال ألا جعلتها إلى دون العشر، فقد ذكر الله تبارك وتعالى هزيمة فارس للروم في أقرب أرض الشام إلى أرض فارس وهي أذرعات وكسرك، والروم من بعد غلبة فارس لهم سينتصرون على فارس، في مدة ما بين الثلاث سنوات إلى تسع سنوات، والأمر لله من قبل انتصار الروم على فارس ومن بعده، فأبي الفريقين كان لهم الغلبة فهو بأمر الله وقضائه وقدره، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله للروم على فارس، ينصر الله من يشاء، ويؤيد من يشاء، نسأل الله أن يقر عيون المسلمين بنصرة الإسلام في كل مكان.

وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
 ٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ
 ٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
 بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
 وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ
 رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا
 أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاىَ
 أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ١٠ اللَّهُ
 يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١ وَيَوْمَ تَقُومُ
 السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ
 شُفَعَاؤُاْ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ١٣ وَيَوْمَ
 تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَنْفِرُقُونَ ١٤ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥

وعد الله لا يخلف، وسنة الله لا تتغير ولا تتبدل، ووعد المؤمنين بالنصر والتمكين لا يتبدل، ووعد الله للكافرين بالخذلان والخسران المبين لا يتأخر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل، وإنها أكثر علمهم بالدنيا ومكاسبها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، يعلمون ما يعمر دنياهم وهم عن الإعداد للآخرة غافلون، عمروا الدنيا بالحضارات الزائفة والصناعات المتقدمة ولكنهم لم يعدوا للآخرة زادًا ولا عملاً، ولم يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فإن النظر والتدبر والتأمل لخلق الله من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة يقود للإيمان، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى يوم القيامة؛ فيؤمنوا بالله ويوحده وحده لا شريك له، فلو كان لهم عقول لأدركوا نهاية من كفر بالرسول، ونجاة من صدقهم، ولقد كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد من أهل مكة وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتوا معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم يبلغوا إليه، وعمرها فيها أعماراً طوالاً فعمرها الأرض أكثر منهم، واستغلوها أكثر من استغلالهم، ومع هذا لما جاءتهم رسالتهم بالبينات وفرحوا بها أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال، وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، فكانت عاقبتهم النار، حملتهم سيئاتهم على التكذيب والاستهزاء.

فإن الله سبحانه خلق عباده ابتداء وهو قادر على إعدادتهم، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله، ويوم تقوم الساعة ييأس المجرمون حين يرون العذاب وحين يرون أن آلهتهم لم تشفع لهم وهم أحوج ما كانوا إليها، فيتبرأ المتبوعون من الأتباع ويتبرأ الأتباع من المتبوعين، ييأس الكفار لأنهم لم يقدموا إلا الإجماع من الكفر والشرك والمعاصي.

ويوم تقوم الساعة يتفرق الناس فرقة لا اجتماع بعدها، فيتميز أهل الجنة من أهل النار، ويرفع أهل الإيمان إلى عليين، ويخفض أهل الكفر إلى أسفل السافلين، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضات الجنات ينعمون ويكرمون، وهم في سرور بنعيم الجنة، لا يمسهم فيها تعب ولا مشقة، ولا يبغون عنها تحويلاً، نسأل الله الجنة لنا ولوالدينا ولأهلينا ولذرياتنا وللمسلمين.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ
 فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ
 وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
 الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ
 ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
 تَنْشُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ وَالْوَنُكْمَ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ
 وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ
 خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

الكفار الذين كذبوا الرسل، وكفروا بآيات الله وبالبعث بعد الموت، مصيرهم إلى النار والعذاب يوم القيامة لا يجدون عنه مصرفاً ولا تحويلاً، وأرشد المؤمنون إلى التسييح والتحميد والتهليل في جميع الأوقات؛ لأن الذكر غذاء الروح وعدة للمؤمن، ويتأكد ذكر الله عند المساء، وهو إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح، وهو إسفار النهار عن ضيائه، وهو سبحانه المحمود على ما خلق في السموات والأرض، من نعمه العظيمة والآلاته الجسيمة، وذكر الله في العشاء وهو شدة الظلام، والإظهار وهو قوة الضياء، فسبحان خالق هذا، وفالق الإصباح وجاعل الليل سكناً، ومن كمال قدرة الله خلقه الأشياء وأضدادها، فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ومن كمال قدرته إحياء الأرض بعد موتها من الماء الذي ينزل إليها من الأمطار، فكذا قدرة الله على إحياء الناس بعد موتهم، ومن آيات الله الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق آدم من تراب، ثم جعل ذريته من ماء مهين، ثم تكون علقه، ثم مضغة، ثم عظاماً، شكله على شكل الإنسان، ثم يكسو الله تلك العظام لحماً، ثم ينفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير، ثم يخرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة؛ ومن آيات الله أن خلق للرجال إناثاً من جنسهم وجعلهم أزواجاً، فالمرأة كأنها خلقت من الرجل ليسكن إليها، فهي كالمسكن يأوي إليها، وجعل بينه وبينها محبة ورحمة وهي الرأفة، فإن الرجل بمسك المرأة إما لمحبتها لها، أو لرحمتها بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، فمن يتفكر في هذه الآية أن يخلق الله للرجل امرأة لا صلة له بها قبل الزواج، وقد تكون بعيدة النسب والبلد فتكون من أقرب الناس إليه لتعمر الأسر ويتعاقب النسل، ومن آيات قدرته العظيمة سبحانه خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، ونجومها الثوابت والسيارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار، واختلاف اللغات بين الناس، واختلاف ألوانهم، فالأحمر والأبيض والأسود، ويختلفون في أشباههم وصورهم، ومن الآيات ما جعل للعباد من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لهم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم، ومن آيات الله الدالة على عظمته أن العباد يرون البرق فيخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة، وتارة يرجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ فينزل الله المطر فتنبت الأرض بعد موتها بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِي
مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا
دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

خلق الله السموات والأرض، وهي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات، وخرج الأموات من قبورهم أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم، وكل من في السموات والأرض ملكه وعبيده، كل له خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً، وهو الذي خلقهم ابتداءً، وسيعيدهم والإعادة هيئة عليه كالبداءة، هو الله لا إله إلا هو، ولا رب غيره، ليس كمثله شيء وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يانع، بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، وهو الحكيم في أفعاله وأقواله شرعاً وقدرًا، وقد ضرب الله للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءهم من الأصنام والأنداد عبيد له وملك له هذا المثل يشهدونه ويفهمونه من أنفسهم، فإن أحدهم لا يرتضي أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وإياه فيه على السواء يخاف أن يقاسمه الأموال، وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له، فإن كان العبد يأنف من ذلك، فكيف يجعلون الله الأنداد من خلقه، وإنما عبد المشركون غير الله سفهاً من أنفسهم وجهلاً وهوى، وقد كتب الله عليهم الضلالة، فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم، وليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجبر، ولا محيد لهم عنه؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

والمسلم مأمور بالاستقامة على التوحيد، وهو الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هدى الله له المؤمنين، وهو الفطرة السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فلا يبدل المسلم خلق الله بتغييره فطرة الله التي فطره عليها، فإن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك، فكل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

والتمسك بالشرعة والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم، وهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه منحرفون، فيلزم المسلم طريق الإنابة والتوبة والخوف والمراقبة وإقامة الصلاة المفروضة، والبعد عن الشرك ووسائله وأهله ملازماً للتوحيد والإخلاص ولا يكن من المشركين الذين بدلوا دينهم وغيره وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وصاروا فرقاً وأحزاباً كل يدّعي أنه على الحق، وهذه الأمة اختلفت فيما بينها على نحل كلها على ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، وهم الفرقة الناجية الذين يكونون كما كان النبي ﷺ وأصحابه.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ
 مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
 ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ
 سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا
 النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
 إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتَاكَ الْقُرْآنُ
 حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ
 وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا
 لِّتَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ
 تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ
 شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٌ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى
 عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
 أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

الناس في حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له، وإذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم يشركون بالله، ويعبدون معه غيره، ويكفرون بنعمة الله فسوف يعلمون يوم القيامة حين يجدون العذاب الأليم، فهل عندهم حجة وبرهان ينطق بشركهم ويأمرهم به، ومن طبيعة الإنسان أنه إذا أصابته نعمة بطر وتجر، يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية إلا الذين صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء، فالمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، والله هو المتصرف بخلقه بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين، وفي ذلك آيات لأهل الإيمان الذين يعتبرون في بسط الله لمن شاء وتضييقه على من يشاء، ويدركون حكمة الله ورحمته وجوده، فله تعالى يحمي عبده المؤمن من الدنيا لكي لا يفتن فيها، فإن الفتنة بالمال من أشد الفتن، ولذلك أمر الله عباده بالإففاق، وأحسن وجوه الإففاق إعطاء القرابة من الأولاد والزوجة وهو بر وصلة وصدقه، فأعظم الدراهم درهم ينفقه الإنسان على أهله، ومن وجوه الإففاق الصدقة على المسكين وهو الذي لا شيء له يتفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته، ومن الإففاق إعطاء ابن السبيل وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره، والسعي على الأرملة واليتيم فذلك خير للذين يريدون وجه الله والدار الآخرة، ولا يريدون من الناس جزاء ولا شكورًا، وهم الفائزون في الدنيا وفي الآخرة، أما من يريد بعطائه ثناء الناس أو عطايهم فذلك لا ثواب له عند الله، وإنما الثواب عند الله في الصدقة التي يراد بها وجهه، والزكاة المفروضة فتلك بضاعفها الله أضعافًا كثيرة، والمال مال الله هو الذي رزق عباده، فهو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عربيًا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى، ثم يرزقه بعد ذلك المال والأموال والمكاسب، وهو الذي يميت عباده بعد هذه الحياة ثم يحييهم يوم القيامة، فهل من الأنداد والشركاء الذين يعبدهم البشر من دون الله من يقدر على فعل شيء من ذلك؟ بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، فتعالى الله وتقديس وتنزه وتعظيم وجل وعز، عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو، أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، والنقص في الثمار والزروع وانقطاع المطر بسبب المعاصي، فمن عصي الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، وإذا ارتكبت المعاصي كان سببًا في محق البركات من السماء والأرض، فيبتلي الله العباد بنقص الأموال والأنفس والثمرات، اختبارًا منه، ومجازاة على صنيعهم لعلهم يتوبون عن المعاصي.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ
 كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ
 كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَنْ ءَايَنَهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ
 مِنْ رَحْمَتِهِ ۚ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ۚ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ
 فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
 خِلَالِهِ ۚ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ إِذَا هُمْ يَسْتَبَشِرُونَ
 ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ
 ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

آثار الأمم السابقة شاهدة على مصارع الظالمين، وكيف حل بهم بسبب تكذيب الرسل وكفر النعم، والمؤمن مأمور بالانعاز والاعتبار، والمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمسارة إلى الخيرات؛ ليستعد ليوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يؤخر، وكل من حضر أجله قامت قيامته فلا يؤخر، ذلك اليوم الذي يفترق فيه الناس، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ فمن كفر بالله فهو يتحمل عاقبة كفره، ومن عمل صالحًا فقد قدموا لأنفسهم العمل الصالح، وعمرُوا الآخرة بالأعمال الصالحة، فيجازيهم ربهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، والله لا يحب الكافرين لأنهم خالفوا أمره، فلهم البغض والمقت، ولكنهم لا يظلمون.

ومن نعم الله على خلقه إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث بعدها؛ فالمطر رحمة ينزله الله فيحيي به العباد والبلاد، والرياح تُجري السفن في البحر، وإنما سيرها بالريح. ومن نعمه توفيقه لعباده في السعي في الأرض في التجارات والمعاش، والسير من إقليم إلى إقليم، ومن قطر إلى قطر، وكل ذلك يستوجب الشكر لله على ما أنعم به على عباده من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى.

وما أرسل الله من رسول إلا كذبه كثير من قومه، فقد كُذِّبَت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا أمهم به من الدلائل الواضحات، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم، وقد أوجب على نفسه الكريمة نصر المؤمنين تكرمًا، وفي ذلك تسلية من الله لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، ومن الآيات الدالة على قدرة الله خلق السحاب الذي ينزل منه الماء فالرياح تثير السحاب، إما من البحر، أو مما يشاء الله ﷻ فيمده الله ويكثره وينميه، ويجعل من القليل كثيرًا، فترى السحابة رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من جهة البحر ثقلاً مملوءاً ماء، ويجعله قطعاً متراكماً، فترى المطر يخرج من بين ذلك السحاب، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لحاجتهم إليه، يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم، وقد كانوا في شدة وضيق قنطين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم استبشروا وفرحوا لأنه جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً عظيماً، فبعدما كانت أرضهم مقفرة هامة أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، وكل ذلك من آثار رحمة الله، فكما أحيا الأرض بالمطر يحيي الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، والله قادر على كل شيء، يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد.

وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَّاهُ مُضْفَرًا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ
 ٥١ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ
 مُدْبِرِينَ ٥٢ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالِنِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا
 مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ٥٣ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ
 قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ٥٤
 وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ
 كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ
 لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ
 وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٥٧ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا
 لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ
 لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ٥٨ كَذَلِكَ
 يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩ فَاصْبِرْ إِنْ
 وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠

العباد حين يمحطون وينعمون، وتثبت لهم الأرض يفرحون بنعم الله لكن لو أرسل الله ريحاً يابسة على الزرع الذي زرعه، بعدما نبت وشب، فأروا زرعهم قد اصفر وفسد بعد هذه الريح لجحدوا نعم الله عليهم، وكفروا بربهم، والأنبياء عليهم البلاغ والبيان، والهداية بيد الله، ولا يقدر النبي إلا على شيء أقدره الله عليه فليس في قدرة النبي إسراع الأموات في أجدانها، ولا يبلغ كلامه الصم الذين لا يسمعون، ولا يقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه، وإنما يسمع النبي سماع انتفاع من يؤمن بآيات الله وهو خاضع مستجيب مطيع، فذلك الذي يستمع إلى الحق ويتبعه، وهذا حال المؤمن، والكافر مثل الأصم والأعمى، ومن قدرة الباري ﷻ تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظاماً ثم يكسى لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً، ثم شاباً، وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، ويشيب الرأس، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، يفعل الله ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، وهو العليم بهم القادر على تغيير حالهم، ومن جهل الكفار في الدنيا والآخرة أنهم في الدنيا عبدوا الأوثان، وفي الآخرة إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم، فصرّوا عن الحق في الدنيا وفي الآخرة، وفي القيامة يرد عليهم المؤمنون من العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة: لقد لبثتم في كتاب أعماركم التي قدرها الله من يوم خلقتم إلى أن بعثتم، ففي يوم القيامة لا ينفعهم اعتذارهم عما فعلوا، ولا هم يرجعون إلى الدنيا، وقد بين الله لعباده في هذا القرآن الحق، ووضحه لهم، وضرب لهم في الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه، ومن كتب الله عليه الضلالة لو رأى أي آية كانت، سواء كانت باقتراحه أو غيره لا يؤمن بها واعتقد أنها سحر وباطل، فقد طبع على قلبه فلا يقبل الحق، ولا يعلم التوحيد، وأمر النبي ﷺ بالصبر في دعوتهم، وعلى مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز له ما وعده من نصره إياه، وجعل العاقبة له ولمن اتبعه في الدنيا والآخرة، وأمره بالثبات على ما بعثه الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا يعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه، ولا يحمله الذين لا يوقنون على الجهل واتباعهم في الغي.

سُورَةُ الْقِسْمَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلَمْ (١) تَلِكْ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً
 لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِيْنَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) اُولٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَاُولٰٓئِكَ
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ
 لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ اُولٰٓئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَاِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا وَلِيَ مُّسْتَكْبِرًا
 كَاَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَاَن فِيْ اُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ (٧)
 اِنَّ الَّذِيْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النَّعِيْمِ (٨)
 خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ (٩) خَلَقَ
 السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَهَا ۖ وَالْقَىٰ فِي الْاَرْضِ رَوٰسِيًۭا اَنۢ تَمِيْدَ
 بِكُمْ وَبَثَّ فِيْهَا مِنۢ كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَاَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَاَنۢبَتْنَا فِيْهَا
 مِنۢ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ (١٠) هٰذَا خَلَقَ اللَّهُ فَاَرُوْنِيْ مَاذَا
 خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنۢ دُوْنِهٖ ۚ بَلِ الظَّٰلِمُوْنَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ (١١)

سورة لقمان

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر وصايا لقمان الحكيم فيها

افتتحت السورة بالحروف المقطعة للدلالة على إعجاز القرآن وبلاغته الذي عجز العرب بفصاحتهم أن يأتوا بآية منه، مع أنه مكون من الحروف التي يتكلمون بها، فهو كتاب أنزله الله هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقها، ووصلوا قرباتهم وأرحامهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراءوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورًا، فمن فعل ذلك فهم الذين كتب الله لهم الهداية بالقرآن، وعبدوا الله على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلي، وهم الفائزون في الدنيا والآخرة، وأما الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماح كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، فقد صدهم الشيطان عن طريق الحق، وأشغلهم بالغناء عن سماع القرآن والهدى، فاختاروا كلام الشيطان على كلام الرحمن، وقد يتفوقون ذلك الأموال في ابتغاء الحرام فيكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة، فيقودهم الغناء إلى اتخاذ آيات الله هزواً فجزاء أولئك كما استهانوا بآيات الله وسبيله أن يهانوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر، فهم مقلبون على اللهو واللعب والطرب، وإذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولَّوا عنها وأعرضوا وأدبروا وتصاموا وما بهم من صمم، كأنهم ما يسمعونها؛ لأنهم يتأذون بسماحها، إذ لا انتفاع لهم بها، ولا حاجة لهم فيها، فأولئك هم العذاب الأليم يوم القيامة يؤلمهم، كما تألموا بسماح كتاب الله وآياته، وأما جزاء الأبرار من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله فهو جنات النعيم يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار، من المأكول والمشارب، والملابس والمساكن، والمراكب والنساء، والنصرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً فيها، لا يظعنون، ولا يبغون عنها حولاً، وعد من الله، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء، وهو العزيز الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين، الذي خلق السموات والأرض، وما فيها وما بينهما، خلق السموات بغير عمد مرئية، وخلق الجبال فأرسل بها الأرض لثلا تضطرب بأهلها على وجه الماء، ونشر في الأرض من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها، كل ذلك من خلق الله وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك؛ فأين خلق ما يعبد المشركون ويدعونهم من الأصنام والأنداد، ولكنهم في جهل وعمى واضح ظاهر لا خفاء به.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ۖ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ ۖ وَفَصَّلْهُ ۖ فِي عَمَإَيْنِ ۖ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ ۖ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ۖ وَأَغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۖ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا، وقد أعطاه الله الفقه في الإسلام، ولم يكن نبيًّا، ولم يوح إليه، أعطاه الله الفهم والعلم والتعبير، وأمره أن يشكر الله ﷻ، على ما أتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه، ومن يشكر فإنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين، ومن كفر بنعم الله فإن الله غني عن العباد، لا يتضرر بذلك، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعًا، فإنه الغني عمن سواه، فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، ومن وصية لقمان لولده، وهو لقمان بن عنقاء بن سدون، واسم ابنه: ثاران، يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا، فالشرك أعظم الظلم، لأن الإنسان يظلم نفسه بالشرك، ولأن المشرك يشبه المخلوق الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا بمن الأمور بيده ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، وقد أوصى الله عباده بالإحسان إلى الوالدين، فقد حملته أمه جهدًا على جهد، وضعفًا على ضعف، وتربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، وهذا يدل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ وفي ذكر تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهارًا، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، فيجب عليه الإحسان وتقديم البر فمن الشكر لله الإحسان إلى الوالدين، ومن الشكر للوالدين البر بهما، والمرجع إلى الله هو الذي يجزي عباده على البر أوفر الجزاء، ومع الأمر بالإحسان، فإنه لا يجوز طاعتها في معصية الله، فإن حرصا كل الحرص على أن يتابعهما الولد على دينها فلا يقبل منها ذلك، ولا يمنعه ذلك من أن يصاحبها في الدنيا محسنًا إليهما، ويتبع سبيل المؤمنين في البر والإحسان والثبات على الحق، والجميع مرجعهم إلى الله في القيامة، ومن وصايا لقمان النافعة أن المظلمة أو الخطيئة مهما صغرت ولو كانت مثقال حبة من خردل، أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض، فإن الله يأتي بها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؛ والله لا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت وهو خير بديب النمل في الليل البهيم، ثم أمر ولده بالصلاة وأوصاه بإقامتها بحدودها وفروضها وأوقاتها، فهي أول ما ينظر في عمل العبد، ثم أوصاه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب طاقته وجهده، ويصبر على ما أصابه في طريق ذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فلا بد له من الصبر، فإن الصبر على أذى الناس من عزم الأمور.

وأوصاه باحترام الناس وعدم احتقارهم، فلا يعرض بوجهه عن الناس إذا كلمهم أو كلموه احتقارًا منه لهم واستكبارًا عليهم ولكن يلين لهم الجانب، ويسيطر إليهم وجهه، ولا يمشي في الأرض فحًا متكبرًا جبارًا عنيدًا، فإن ذلك سبب لغضب الله، فإن الله لا يحب كل معجب في نفسه، فخور على غيره، وأوصاه بأن يمشي مشيًا مقتصدًا ليس بالبطيء المتشط، ولا بالسرعة المفرط، بل عدلًا وسطًا بين بين، ولا يبالغ في الكلام، ولا يرفع صوته فيما لا فائدة فيه؛ فإن أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق، وهما صوت أهل النار.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
 عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
 بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
 مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ
 الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَن يُسَلِّمْ
 وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ
 وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ
 إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
 ﴿٢٣﴾ نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
 وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
 مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
 مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلَقَكُمْ
 وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

من نعم الله على خلقه في الدنيا والآخرة، أن سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وثلج وبرد، وجعلها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في التوحيد وإرسال الرسل بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب ماثور صحيح مبين مضيء، وإذا قيل للمجادلين في توحيد الله: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع المطهرة، لم تكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، ولو كانوا على ضلالة وهم خلف لهم فيها كانوا فيه، فقد اتبعوا الشيطان فأوردهم النار، والناس على فريقين: فريق أخلص الله العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه، وهو محسن في عمله، باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر، واستمسك بالتوحيد الذي كتب الله لأهله النجاة من النار، وعدم الخلود فيها، فمن لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، وفريق كفر بالله وكذب الرسل فمرجعهم إلى الله فينبئهم بما عملوا، ويجزيهم عليه، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية، وأمر النبي ﷺ ألا يجزن على كفرهم بالله وبما جاء به؛ فإن قدر الله نافذ فيهم، يمتعون في الدنيا، ثم يوم القيامة يلجئون ويردون إلى عذاب فظيع صعب شاق على النفوس، فهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض، ومع هذا يعبدون معه شركاء، ويعترفون أنها خلق له وملك له، فقد قامت عليهم الحجة باعتبار فهم بانفراد الله بالخلق والإيجاد، فلم يشركوا معه غيره؟ فله ما في السموات والأرض خلقه وملكه، وهو الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها، فهو سبحانه العظيم له الكبرياء والعظمة والجلال، والأسماء الحسنى والصفات العلا، وكتابه التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، فلو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً ومده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً، لأنه لا أحد يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول، وإننا ذكرنا السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، وهو سبحانه العزيز، قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه، وهو حكيم في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شؤونه، وما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هيئ عليه، فلا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده، وهو سميع لأقوال عباده بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
 وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ
 بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
 أَفْلَاكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ
 كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
 فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ
 ﴿٣٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ
 عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
 حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ
 الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ
 وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
 وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

من قدرة تعالى خلق الليل والنهار، وتعاقبهما، يأخذ من الليل في النهار، فيطول ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في زمن الشتاء، وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى غاية محدودة، وإلى يوم القيامة، فالشمس تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها، وهو سبحانه عليم بأعمال العباد لا تخفى عليه خافية، وما يظهر للعباد من آياته ليستدلوا بها على أنه الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك؛ وما يدعو المشركون هو الباطل، والله هو العلي الذي لا أعلى منه، والكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

وهو سبحانه الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بلطفه وتسخيره؛ فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ وذلك دلالة على قدرة الله، ولا ينتفع بهذه الآيات إلا كثير الصبر في الضراء، كثير الشكر في الرخاء، والمشركون في الشدة يخلصون إذا غشيهم موج كالجبال والغمام، ويشركون في الرخاء، ومنهم من يبقى على عهده وإيمانه، وما يحدد بآيات الله إلا الغدار الجحود للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها، والمؤمن يتقي الله في جميع أموره ويعد ليوم المعاد، ذلك اليوم لا يغني أحد عن أحد، فلا الوالد عن ولده ولا المولود عن والده، فليجعل المؤمن الآخرة أمامه في جميع أحواله، ولا تلهيه الدنيا، ولا يغره الشيطان ويمنيه بالركون إليها.

وقد استأثر الله بعلم الغيب فلا يعلمه إلا هو ﷻ، ومن مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها علم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وإنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرًا أو أنثى، أو سقيمًا أو سعيًا علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها، وما تدري نفس بأي أرض تموت، في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك، وإذا جعل الله منية عبد بأرض، جعل له إليها حاجة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ۝ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ۝ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
 مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ (٣) اللَّهُ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
 ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا
 تَتَذَكَّرُونَ ۝ (٤) يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
 إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ (٥) ذَلِكَ
 عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ۝ (٧) ثُمَّ جَعَلَ
 نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ
 مِنْ رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا
 مَّا تَشْكُرُونَ ۝ (٩) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي
 خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝ (١٠) قُلْ يَتُوفَّكُمُ
 مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝ (١١)

سورة السجدة

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر السجدة فيها

كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ألم تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان، وكان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك.

افتتحت السورة بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن الذي لا شك فيه ولا مرية، تنزيل من رب العالمين ولو ادعى المشركون أن النبي ﷺ اختلقه من تلقاء نفسه، بل هو الحق الذي يجب الإيمان به نذيراً لأمة لم يرسل إليها رسول يكون هداية لهم ونجاة، والله ﷻ هو الخالق للأشياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وهو المالك لأزمة الأمور، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه، فهل تصرف العبادة لغيره؟! تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك، لا إله إلا هو ولا رب سواه، يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة، يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر، وينزل الوحي مع جبريل من السماء إلى الأرض، ثم يصعد، إليه جبريل بالأمر، في يوم واحد من أيام الدنيا وقدره مسيرة ألف سنة، خمسمائة نزوله، وخمسمائة صعوده، لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام، فلو سار فيه أحد من بني آدم لم يقطعه إلا في ألف سنة، والملائكة يقطعونه في طرفة عين، فهو سبحانه المدبر لهذه الأمور، وهو شهيد على أعمال عباده، يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها، وهو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، وهو الرحيم بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته، وهو الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، وخلق أبا البشر آدم من طين، ثم جعل نسله يتناسلون من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، سوى آدم لما خلقه من تراب، خلقه سوياً مستقيماً، ونفخ فيه من روحه وجعل لعباده السمع والأبصار والعقول، ثم العباد لا يشكرون رب هذه النعم فيوحده، فالسعيد من استعمل النعم في طاعة ربه ﷻ، وقال المنكرون للبعث: أنذا تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت، أننا لنعود بعد تلك الحال، يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، بل هم كافرون بالبعث بعد الموت، وقد وكل الله ملك الموت بقبض أرواح العباد، وله أعوان ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الخلقوم تناولها ملك الموت، ثم العباد مرجعهم إلى الله يبعثهم من قبورهم للجزاء والحساب.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
 رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ
 ١٢ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ
 مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٣
 فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ
 وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤ إِنَّمَا يُوْمِنُ
 بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ
 رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ١٥ نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ
 عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
 يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً
 بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٧ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا
 لَا يَسْتَوِينَ ١٨ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ
 جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا
 فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ
 لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ٢٠



حين يعاين المشركون البعث، ويقومون بين يدي الله حقيرين ذليلين، ناكسي رؤوسهم، من الحياة والنجل، يقولون نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، فارجعنا إلى الدار الدنيا، نعمل صالحًا فقد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا يكذبون آيات الله ويخالفون رسله، ولو شاء الله لآمن من في الأرض جميعًا، لكن قضاء الله وقدره، فمن كتبت عليه الشقاوة من الجن والناس لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله من ذلك.

فيقال لأهل النار على سبيل التفرع والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له، فإنهم يعاملون معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئًا ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، فيخلدون في العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم، وإن المؤمن الحق هو الذي يصدق بآيات الله، وإذا استمع لها أطاعها قولًا وفعلاً، ولم يستكبر عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفار، ولزم الصلاة المفروضة، والنافلة وقيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوثيرة، يدعو ربه خوفًا من عقابه، وطمعًا في جزيل ثوابه، وينفق مما أعطاه الله من المال طيبة بها نفسه، فيجمع بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله للمؤمنين في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، ولما أحفوا أعمالهم أخفى الله لهم الثواب، جزاء وفاقًا؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر، فإن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنًا بآياته متبعًا لرسله، بمن كان خارجًا عن طاعة ربه مكذبًا لرسله إليه، فأصحاب النار وأصحاب الجنة لا يستون عند الله يوم القيامة.

أما الذين صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها من الصالحات، فلهم جنات فيها المساكن والدور والغرف العالية ضيافة وكرامة بسبب عملهم الصالح، فالجنة مأوى المؤمن، تحفظه من النار وأهوالها، نسأل الله الجنة ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

وأما الذين خرجوا عن الطاعة، فمصيرهم النار، إذا دفعهم هب النار إلى أعلاها ردوا إلى موضعهم فيها، لأنهم يطعمون في الخروج منها، وما هم بخارجين من النار وقال لهم خزنة جهنم -تقريبًا وتوبيخًا- ذوقوا وتحملوا عذاب النار الذي كذبتم به في الحياة الدنيا، فإن الله أعد للظالمين الكافرين.

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ
﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ
بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُوا مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ
﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

المكذبون الجاحدون يجمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب القبر وعذاب الآخرة، وقد يصابون من مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتهما، وما يحل بأهلها مما يتلى الله به عباده ليتوبوا إليه ويرجعوا وينبوا، ولكن الظالم لنفسه من لا يعتبر ولا يتعظ بالنذر، فلا أحد أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها، فهو من المجرمين الذين ينتقم الله منهم أشد الانتقام.

وقد أرسل الله عبده ورسوله موسى ﷺ وآتاه التوراة، وقد رآه رسول الله ﷺ ليلة أسري به رجلاً آدم طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، وجعل التوراة هداية لبني إسرائيل، وجعل الله منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وصبروا على أوامر الله وترك نواهيهِ وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به، فرفع الله شأنهم وأعلى مكانتهم، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالح، ولا اعتقاد صحيح؛ وذلك سبيل كل من كذب الرسل وجحد.

ألم يتبين هؤلاء المكذبين بالرسول من أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به، فلم يبق منهم باقية ولا عيناً ولا أثراً، فهم يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها، فبيوتهم خاوية، ففي ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم آيات وعبرٌ ومواعظ ودلائل متظاهرة، أفلا يسمع هؤلاء المكذبون أخبار من تقدم كيف كان أمرهم، ومن لطف الله بخلقه، وإحسانه إليهم إرساله الماء إما من السماء أو مما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي اليابسة التي لا نبات فيها، المحتاجة إليه في أوقاته؛ فيخرج منه الزروع تأكل منه الأنعام ويأكل منه البشر، فيبصرون ذلك ويشاهدونه، وفي ذلك دلالة على قدرة الباري ﷻ، والكفار يستعجلون وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكديباً وعناداً ويقولون متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا، وينتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين، فجاءهم الرد أنه إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة لا ينفع الذين كفروا بإيمانهم ولن يؤخروا، وأمر النبي ﷺ بالإعراض عن هؤلاء المشركين وتبليغ ما أنزل إليه من ربه، وانتظار وعد الله، فإن الله سينجز له ما وعده، وسينصره على من خالفه، إنه لا يخلف الميعاد، وهم ينتظرون، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر، وسيرى النبي ﷺ عاقبة صبره عليهم وعلى أداء رسالة الله، في نصرته الله له وتأييده، وسيجدون غيب ما ينتظرونه في الرسول وأصحابه، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي
جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَىٰ تَطْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمّهَتِكُمْ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ
يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ
هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ
بِهِ ۚ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا
﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۚ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ
وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ
مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

سورة الأحزاب

وهي سورة مدنية، سميت بذلك لذكر الأحزاب الذين تجمعوا على رسول الله في غزوة الأحزاب أمر الله عبده ورسوله بتقوى الله وهي أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله، والأمر لأمره من بعده، ونهى الله نبيه ورسوله عن طاعة الكفار والمنافقين، فلا يسمع منهم ولا يستشيرهم، فإن الله عليهم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله، فهو أحق أن تتبع أوامره ويطيعه عباده، وذلك باتباع الوحي، فإن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، وهو الذي يحفظ عباده ويؤيدهم وينصرهم، فليتوكلوا عليه حق التوكل في جميع أمورهم وأحوالهم، وكفى بالله وكيلاً لمن توكل عليه وأتاب إليه، والادعاء لا يكون حقيقة، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجة المظاهر أمّاً له، وإن قال أنت علي كظهر أمي، فكذلك لا يصير الدعي ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابنًا له، وقد كان زيد ابن حارثة مولى النبي ﷺ قد تبناه النبي ﷺ قبل النبوة، وكان يقال له زيد بن محمد فقطع الله تعالى هذا الإلحاق وهذه النسبة، لأن القول باللسان لا يقتضي أن يكون ابنًا حقيقيًا، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فلا يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان، والله قوله الحق العدل ويرشد إلى سبيل الحق وهو الصراط المستقيم، وأمر الله تعالى برد نسب الأدعياء إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط، وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ففسخ ذلك، وأباح تعالى زوجة الدعي وتزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة، فإن لم يعرف آباء الأدعياء فهم إخوان للمؤمنين في الدين ومواليهم، عوضًا عما فاتهم من النسب.

وإذا نسب بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، وإنما الإثم على من تعمد الباطل، فما من أحد ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه إلا كفر، وليس الكفر الأكبر، وإنما كفر دون كفر، وقد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدمًا على اختيارهم لأنفسهم، ولا يؤمن أحدهم حتى يكون الرسول أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين، وهو بمنزلة الوالد لهم يرشدهم إلى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، بأبي وأمي رسول ﷺ، وأزواجه أمهات المؤمنين في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا يتشتر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في حكم الله، فالقربات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، فقد كان المهاجري يرث الأنصاري دون قريباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، فذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية، فهذا حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل ولا يغير.

وَلِإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
 وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
 لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
 ﴿٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
 جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
 مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
 وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
 زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَلِإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
 مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ
 مِنْهُمْ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُقَاتِلُ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
 مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا
 فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ
 لَا تَوْهَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا
 اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ إِلَّا دَبْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

أخذ على أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء العهد والميثاق في إقامة دين الله وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق، فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، لكي يسأل الله النبيين عن تبليغهم الرسالة، والحكمة في سؤالهم مع علمه أنهم صادقون تبكيت من أرسلوا إليهم، وأعد للكافرين من أمم الأنبياء عذاباً موجعاً، وهذه الأمة المحمدية شاهدة أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والعاندين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال كما جاء في القرآن، ومن نعمة الله وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا، وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلوا من المدينة إلى خيبر خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم على حرب المسلمين، ووعدهوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم، وخرجت قريش، وعددهم عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة، ونزلت طائفة في أعالي المدينة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم ثلاثة آلاف، وجعل النساء في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة لهم عهد من النبي ﷺ وذمة، فذهب إليهم حيي بن أخطب فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، فعظم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، ثم أرسل الله ﷻ على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا توقد لهم نار، ولا قر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، فقد جاء الأحزاب من فوق، وبنو قريظة من أسفل، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر من شدة الخوف والفرع، وظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، ونجم النفاق حتى قال بعض المنافقين: بعدنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقیصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط، فظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون، في تلك الحال اختبر المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً، وقال المنافقون لا مقام لنا عند النبي ﷺ في مقام المراقبة، وارجعوا إلى بيوتكم ومنازلكم، وقالوا بيوتنا نخاف عليها العدو، وليس دونها ما يحجبها عن العدو، وإنما يريدون هرباً من الزحف، ولو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقطر من أقطارها ثم سئلوا الفتنة -وهي الدخول في الكفر- لكفروا سريعاً، وهم لا يحافظون على الإيثار، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفرع، وقد كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف ألا يولوا الأدبار ولا يفروا من الزحف، وسيسألهم الله عن ذلك العهد.

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا
لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ
لِإِخْوَانِهِمْ هَلَمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةً
عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ
بِالْسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ
اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ
لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ
فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ
مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

ظن المنافقون أن فرارهم يؤخر آجالهم، ويطيل أعمارهم، وما علموا أن الآجال مكتوبة، بل ربما يكون الفرار سببًا في تعجيل أخذهم غرة بعد هربهم وفرارهم، فمن يمنعهم من عذاب الله إن أراد هزيمتهم أو أراد نصرتهم فلا يجدون من دون الله قريبًا ينفعهم ولا ناصرًا يمنعهم، والله يعلم المثبتين للناس عن رسول الله ﷺ والقائلين ارجعوا إلينا ودعوا محمدًا فلا تشهدوا معه الحرب، فإننا نخاف عليكم الهلاك، وتعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثرار، ولا يشهدون الحرب إلا وقتًا قليلًا مع خوفهم وجبنهم، رياء وسمعة من غير احتساب، وهم بخلاء بالنفقة في سبيل الله والنصرة، وبخلاء بالمودة، والشفقة والرحمة، ففي وقت القتال يجزعون ويخافون، ومن شدة خوفهم وجبنهم تدور أعينهم في رؤوسهم كدوران الذي يغشى عليه من الموت، فإذا كان الأمن تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك.

وآذوا المؤمنين ورموهم بالنقيصة بالسنة حادة تقطع وتجرح، وفي وقت قسمة الغنيمة يقولون أعطونا فإننا قد شهدنا معكم القتال، فلستم أحق بالغنيمة منا، فهم عند الغنيمة أشح قوم، وعند البأس أجبن قوم، ليس فيهم خير، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير، وعدم الإيمان فأحبط الله أعمالهم، ومن جبنهم وخورهم أنهم لم يصدقوا برحيل الأحزاب وهزيمتهم، وظنوا أن لهم رجعة إلى المدينة، ويودون إذا جاءت الأحزاب أن يكونوا في البادية خارج المدينة يسألون عن أخبار المؤمنين وما كان من أمرهم مع عدوهم، ولو كانوا مع المؤمنين لم يقاتلوا إلا قليلًا؛ لكثرة جبنهم وضعف يقينهم.

وأمر الله المؤمنين بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرغ من ربه، ﷻ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين؛ وأمر المؤمنون بالتأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله في جميع الأوقات، فهو قدوة المؤمنين وهو قائدهم دهم على الخير والهدى والبر والتقوى، فمن كان يرجو ثواب الله ويخشى الله ويخشى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال، وأكثر من ذكر الله في جميع المواطن على السراء والضراء، فليتخذ رسول الله ﷺ قدوة في جميع أحواله، والمؤمنون بصبرهم ويقينهم لما رأوا الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولم تزدهم تلك الحال والضيق والشدة إلا إيمانًا بالله، وانقيادًا لأوامره، وطاعة لرسوله.

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ
 قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ
 اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ
 أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ
 وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
 فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ
 وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ
 سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ
 الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
 يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفْ
 لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

المؤمنون الصادقون بقوا على العهد والميثاق وباعوا أنفسهم رخيصة في سبيل الله، لم يغيروا ولم يبدلوا، ولم ينقضوا عهد الله وميثاقه، فمنهم من استشهد في سبيل الله مقبلاً غير مدبر، ومنهم من ينتظر الشهادة ويتمناها، ويسعى لحصولها، وإنما يختبر الله عباده بالخوف والشدائد ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم، فيجزى الله الصادقين بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه، ويعذب المنافقين الناقضين لعهد الله، المخالفين لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكنهم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقيه به فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيثار، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان، ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه، بين لعباده رحمته ومغفرته.

ورد الله الأحزاب فأجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد، فسلط عليهم هواء فرق شملهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاباً وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغیظهم وحقنهم، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا كما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالعداوة وهمم بقتله واستئصال جيشه.

ومن همّ بشيء وصدق همه بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله، وكفى الله المؤمنين القتال فلم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده عباده، بحوله وقوته، وردهم خائبين لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله وصدق وعده، ونصر رسوله وعبداه، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.

وأمر الله جبريل أن يزلزل بني قريظة، فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وحاصروهم وقذف الله في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم الله تعالى فحكم عليهم سعد بن معاذ أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذريتهم وأموالهم، فخرجوا من حصونهم وقتلت المقاتلة وأبقي النساء والذرية، وأورث الله المؤمنين أرضهم وأرض مكة وخير بعدهم، وكان النبي صلوات الله وسلامه عليه في شظف من العيش وقلة ذات اليد، فطالبتة نساؤه بالنفقة عليهن، فاعتزلن رسول الله ﷺ شهراً فجاء الأمر من الله، بأن يخير نساء بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن -رضي الله عنهن وأرضاهن- الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة، وجعل لكل واحدة منهن أجرها مرتين، كما أن نشوز إحداهن يضاعف لها العذاب ضعفين في الدنيا والآخرة، وهذا على تقدير وقوعه وحاشهن من ذلك، وكان ذلك على الله سهلاً هيناً.

* وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا
 أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ
 لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
 فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
 فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ
 الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا
 يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
 تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْتُ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ
 آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
 إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِرِينَ
 وَالصَّادِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
 وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِينَ وَالصَّامَاتِ وَالْحَافِظِينَ
 فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
 وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

أكرم الله أمهات المؤمنين الطاهرات بالمكانة العظيمة، فخصهن بالثواب الجزيل، فإمن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش، فالطاعة من إحداهن لها الأجر مرتين، لما لهن من الكرامة والرفعة، وأمر الله تعالى نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة، فتحافظ إحداهن على كرامتها بالألا ترقق كلامها للأجنبي إذا خاطبتها، فإن رقة الصوت سبب لفظة الرجل وبالأخص ضعيف الإيمان الذي يطمع بالمرأة ويفتن بصوتها، والأذن تزي وزناها السمع، وأمرهن بالقول الحسن الطيب المعروف في الخير، ليس فيه ترخيم، وأمرهن بلزوم بيوتهن فلا يخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، وهو عدم الزينة والطيب وبيوتن خير لهن، والمرأة عورة، فإذا خرجت استشفها الشيطان، وزينها في نظر الرجال، والأمر لأمهات المؤمنين وللمؤمنات بعدهن، وبذلك ندرك أن خروج المرأة من بيتها يكون في وقت الضرورة وقدر الحاجة، وقرارها بالبيت يعدها عن الرجال والاختلاط بهم، ونهاهن عن التبرج وإظهار الزينة أمام الرجال، والمرأة إذا خرجت تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية، فنهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين، وطاعة الله في أوامره ونواهيه وطاعة رسوله فيما أمر وفيما نهى، وهذه الأمور والنواهي لأمهات المؤمنين وللنساء بعدهن سبب لتجنب الإثم ونجاسة المعصية، وسبب من أسباب طهارة العرض والعفة عن الحرام، والله لطيف بعباده ومن لطفه بالمرأة أن جعل لها تشريعاً يخصها، فيه حفظ عرضها وفيه طهارتها وهو سبحانه الخير بعباده، شرع لهم ما فيه نجاتهم، ومن لطفه أن جعل أمهات المؤمنين بهذه المنزلة وجعلهن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، وقد أعد الله لعباده من المنازل ما يصلونها بأعمالهم فالمسلمون والمسلمات لهم أجرهم وثوابهم، والإسلام الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك ومعاداة أهله، والمؤمنون والمؤمنات لهم أجورهم، والإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، والقنوت هو الطاعة في سكون، فمن قنت لله من ذكر أو أنثى فله أجره عند ربه، والصدق خلاف الكذب وهو في الأقوال والأفعال، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا تزال المرأة تصدق وتتحرى الصدق حتى تكتب عند الله صديقة، والصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط، والرضا بعد الصبر، والصبر أنواع؛ صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، ومن صبر من مؤمن أو مؤمنة كان له الثواب بلا حد ولا عد، والخشوع السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، فمن خشع لله في عبادته من الرجال والنساء نال منزلة الخشوع عند الله، والصدقة هي الإحسان إلى الناس المحاييج الضعفاء، الذين لا كسب لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحساناً إلى خلقه، والمتصدق والمتصدقة يجدون صدقاتهم يوم القيامة أحوج ما كانوا إليها، والصوم زكاة البدن، يزكيه ويظهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً، وهو إمساك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ومن صام يوماً، ومن صامت يوماً، ابتغاء وجه الله باعدهم الله عن النار، وحفظ الفرج عن المحارم والمأثم إلا عن المباح من أجل الطاعات، فمن حفظ ما بين لحييه وما بين فخذيه فليشرب بالجنة، والمرأة إذا حفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربه، وذكر الله أفضل من الجهاد في سبيل الله، وخير من إنفاق الأموال، فمن أكثر من ذكر الله أفلح وسبق، ومن أكثر من ذكر الله فازت وسبقت غيرها، وكل هؤلاء هم الله لهم مغفرة لذنوبهم وأجرًا عظيمًا وهو الجنة.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد، ولا رأي ولا قول، فالؤمن والمؤمنة لا اختيار لهما أمام اختيار الله ورسوله، فلا يريدان غير ما أراد الله، أو يمتنعان مما أمر الله ورسوله به، ومن خالف أوامر الله وأوامر رسوله وأخذ باختياريه فقد أخطأ خطأ ظاهراً، وقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه قد زوج بنت عمته زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة ورضيت به لاختيار رسول الله ﷺ له، وقد أنعم الله عليه بالإسلام ومتابعة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وأنعم عليه الرسول بالعتق من الرق، وجاء زيد بن حارثة إلى النبي ﷺ يشكوها فجعل رسول الله يقول له أمسك عليك زوجك واتق الله، وكان الله أعلم نبيه أنها ستكون من زوجاته، وكان النبي ﷺ يخفي في نفسه ذلك الأمر، وكان يخشى أن يتكلم الناس أنه تزوج امرأة ابنه بالتبني، فأبطل الله ذلك وزوجه زينب من فوق سبع سموات، بعدما طلقها زيد وقضى حاجته منها وفارقها، وكان ولي تزويجها منه هو الله ﷻ، وأوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، وأباح الله لرسوله ﷺ الزواج بها؛ لثلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وقضاه، وهو كائن لا محالة، وكانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ، وما كان على النبي ﷺ من حرج فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دعيه زيد بن حارثة، وهذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وكان أمره الذي يقدره كائنًا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأنبياء الذين يبلغون رسالات الله إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها، ويخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، وكفى بالله ناصرًا ومعينًا لهم، وسيد الناس في هذا المقام محمد رسول الله ﷺ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان، فإنه قد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو صلوات الله وسلامه عليه فإنه بعث إلى جميع الخلق عرهم وعجمهم، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده أصحابه ﷺ بلغوا عنه كما أمرهم به، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم، ولم يكن النبي ﷺ له ابن ينسب له فإنه صلوات الله عليه وسلامه لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم؛ فإنه ولد له القاسم، وعبد الله، من خديجة فأتوا صغارًا، وولد له إبراهيم من مارية، فهايت رضيعًا، وكان له من خديجة أربع بنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، ﷺ أجمعين، فهايت في حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعده لسته أشهر، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين لا نبي بعده فلا رسول بعده، فالرسالة والنبوة قد انقطعت بعده، فلا رسول بعده ولا نبي، ومن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد صلوات الله وسلامه عليه، إليهم، فمن ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفك ضال مضل، وأمر الله عباده المؤمنين بكثرة ذكركم لربهم تعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، فإن الله لم يجعل للذكر حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على تركه، والتسبيح والتهليل والتحميد من الذكر وإذا فعل العباد ذلك صلى الله عليهم وملائكته، والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، وبسبب رحمة الله بعباده وثنائه عليهم ودعاء ملائكته لهم بخروجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين، وهو سبحانه رحيم بهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه هدهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم، وأما رحمته بهم في الآخرة فأمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبتهم وراقته بهم.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ، سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأَيُّهَا
النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ
مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَدَعِ أَزْوَاجَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلْلِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً
مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا
خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

تحية المؤمنين يوم القيامة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهي تحية أهل الجنة، وهي تحية يوم المزيد، يحییهم رب العالمین، وأعد الله لهم الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمناجح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقد أرسل الله نبيه محمدًا ﷺ شاهدًا على أمته ومبشرًا بالجنة، وبشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيرًا للكافرين من النار وويل العقاب، وداعيًا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجًا منيرًا بالقرآن، وحررًا للأمين، ليس بفظ ولا غليظ، ولا في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا.

ونهى الله نبيه عن طاعة الكافرين والمنافقين، وأن يترك أذاهم ولا يسمع منهم في الذي يقولونه، فيصفح ويتجاوز عنهم، ويكل أمرهم إلى الله، فإن فيه كفاية لهم، والله كافيه وناصره ومؤيده

وقد أرشد الله عباده المؤمنين إلى أحكام النكاح والطلاق والعدة، فالنكاح هو عقد الزوجية الصحيح، ولو لم يحصل مسيس ولا خلوة، والطلاق حل قيد النكاح أو بعضه، والعدة تربص محدود شرعًا بسبب طلاق أو وفاة، فإذا طلق الزوج بعد العقد، وقبل الدخول فإنه يترتب على هذا الطلاق أنه لا عدة لها، أما المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع، فإن كان حدد المهر فلها نصف المهر، أما إذا لم يحدد المهر فلها المتعة وهي مال أو متاع يعطيه المطلق لمطلقته تطيبًا لخاطرها ولا يرتبط بأن يكون نصف المهر، وإنما على حسب يسر الزوج أو عسر، ولو أعطاه متعة أكثر من مهر مثيلاتها جاز، وبالمتعة يكون السراح الجميل.

وقد أحل الله لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن، وأباح له التسري مما أخذ من المغانم، وأباح له بنت العم والعمة، وبنت الخال والحالة، وأباح له من وهبت نفسها له وأراد نكاحها، بغير مهر، وتلك من خصائص النبي ﷺ، وليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ، وأما المؤمنون فقد فرض الله عليهم في الزواج من حصرهم في أربع نسوة حرائر، وما شاءوا من الإماء، واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، وقد رخص الله لنبيه في ذلك، فلم يوجب عليه من ذلك شيئًا.

﴿٥١﴾ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُضَوِّى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ أَبْغَيْتَ
 مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ
 وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٢﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ
 النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
 حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا
 ﴿٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ
 يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
 فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ
 ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا
 يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ
 وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ
 لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ
 مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ إِنْ
 بُدِّئُوا شَيْئًا أَوْ خُفِّفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

جعل الله لنبيه ﷺ اختيار ما يشاء من الواهبات أنفسهن، وخيره في القسم بينهن، وفي القسم بين النساء اللاتي عنده، إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، وكان النبي ﷺ يقسم، وكان يستأذنهن في ذلك واستأذنهن أن يمرض عند عائشة في مرض موته، وإذا علمت أمهات المؤمنين أن الله قد وضع عن نبيه الحرج في القسم، ثم كان مع هذا يقسم بينهن اختياراً منه - لا على سبيل الوجوب - فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميل النبي ﷺ في ذلك، واعترفن بمنته عليهن في قسمه لهن وتسويته بينهن وإنصافه لهن وعدله فيهن، والله يعلم ما في القلوب من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه، ولكن ذلك لا يمنع من العدل بين الضرائر، والله عليم بضائر السرائر، يحلم ويغفر سبحانه وتعالى.

وقد أكرم الله زوجات النبي ﷺ ورضي عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ فاخترن رسول الله ﷺ، وكان جزاؤهن أن الله قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسرايري فلا حجر عليه فيهن، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ هذا الحكم، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن، ولما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهيا للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلق أنس، فجاء فأخبر النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فأدب الله المؤمنين بأن لا يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، واستثنى من ذلك إذا دعا إلى طعام، وحرم عليهم التطفل وهو انتظار نضج الطعام، حتى إذا قارب الاستواء تعرضوا للدخول، وعلمهم بآداب الوليمة، من إجابة الدعوة، والانتشار بعد أكل الطعام، وعدم الاسترسال في الحديث بعد الطعام، كما وقع لأولئك نفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم، حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ، وكان النبي يستحيي أن يطلب منهم الخروج، والله لا يستحي من الحق، والحياء صفة فعلية لله تبارك وتعالى على الوجه اللائق بالله تعالى، ونهى الله المؤمنين الدخول على أمهات المؤمنين، وما جعل الاستئذان إلا من أجل النظر، وأمرهن عند السؤال عن الحاجة أن يكون من وراء حجاب، وفي ذلك طهارة القلوب للجميع، وهذا من أصرح الأدلة في منع الاختلاط ووجوب الحجاب، فإن كان الكلام من وراء حجاب هو الطهارة لقلوب أمهات المؤمنين وللصحابة، فإن غيرهم من باب أولى وأحرى، وأجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، ويحرم إيذاء النبي ﷺ بأي أنواع الإيذاء، ومهما تكن ضائر العباد وتنطوي عليه سرائرهم فإن الله يعلمه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِيءَ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ
 إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾
 إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
 مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ
 عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ
 اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ * لَّيْنٌ لَّهُ يَنْهَى الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ
 فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ
 بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ
 أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
 الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾



لما أمر الله تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن من الأقارب من لا يجب الاحتجاب منهم، وهم الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات، والأعمام والأخوال، والنساء وأرقائهن من الذكور والإناث، وعلى المرأة خشية الله وخوفه في الخلوة والعلائية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فليراقبن الرقيب.

ومن تشريف الله لعبده ورسوله محمد ﷺ أن صلى الله عليه وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وصلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، فمنزلة عبد الله ونبيه ﷺ في الملأ الأعلى، بأن الله يثني عليه عند الملائكة المقربين، والملائكة تدعو له، ثم أمر الله تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً، وقد توعدهم الله من آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب نواهيه، وإصراره على ذلك، وأذى رسوله ﷺ بعبث أو تنقص، عياداً بالله من ذلك، توعدهم بالطرد والإبعاد عن رحمة في الدنيا والآخرة، وفي الآخرة في العذاب المهين، ومن آذى رسول الله ﷺ فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، وكذلك الذين يؤذون المؤمنين، فينسبون إليهم ما هم برآء منه مما لم يعملوه ولم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الراضية الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقص ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عنهم، ومن كانت تلك حالته فقد حمل إثم الكذب الواضح البين الظاهر، وأمر الله رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات خاصة أزواجه وبناته لشرفهن بأن يدين عليهن من جلابيبهن، ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإمام، والجلباب هو الرداء فوق الخمار، فأمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة، فكانت نساء المؤمنين لما نزلت آية الحجاب كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسهنها، فإذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا رية، فهذا حجاب المرأة التي أمرت به وهو تغطية جميع بدنها أمام الأجانب من الرجال، ولا يحل لها أن تظهر من جسمها شيء أمام الأجانب، والوجه هو ما يعرف به كل شخص وهو مجمع الحسن والقبح فكان أولى ما يستر في المرأة، والله غفور على ما يقع من المرأة من تقصير في حجابها من دون قصد أو تعمد، رحيم بالمرأة فأوجب عليها الحجاب حفاظاً عليها، ورحيم بالرجال فأوجب الحجاب حتى يسلموا من فتنة النساء، وتوعد الله المنافقين، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، الذين في قلوبهم مرض وهو الكفر والشك، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فينادون بخروج المرأة وتبرجها وسفورها ونزع حجابها واختلاطها بالرجال، ويفشون الأخبار الكاذبة، بأن يسلط الله عليهم رسوله والمؤمنون، فلا يكون لهم مقام في المدينة، فهم مطرودون مبعدون، أينما وجدوا وأدرکوا، يأخذوا ويقتلوا لذلتهم وقتلهم، وتلك سنة الله في المنافقين -إذا مردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه- أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهروهم، وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا
فَاضْلَلُونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ
وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾
يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

علم الساعة لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فلا يعلم الساعة إلا الله ﷻ، والساعة قريبة، فبعثة النبي ﷺ من علامات الساعة، والكفار مبعدين عن رحمة الله وأعد لهم في الدار الآخرة عذاباً أليماً، ماكتين فيه لا خروج لهم منه، ولا زوال لهم عنه، وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه، يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، وكان سبب ضلالتهم طاعتهم للسادة وهم الأمراء والكبراء، وخالفوا الرسل واعتقدوا أنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء، فهم في النار يدعون ربهم على من أضلهم بأن يضاعف لهم العذاب، وأن يبعدوا عن رحمة ربهم بسبب كفرهم وإغوائهم لغيرهم، ونهى الله المؤمنين عن إيذاء الأنبياء والمؤمنين، فلا يكونوا كبني إسرائيل لما آذوا كليماً الله موسى ﷺ، فإن موسى ﷺ كان رجلاً حياً ستيراً، لا يرى من جلده شيء حياء منه، فإذا من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدره وإما آفة، وإن الله ﷻ أراد أن يبرئه مما قالوا فخلاً يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملاء من بني إسرائيل، فأرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ﷻ وأبرأه الله مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، ولم ينقصه إيذاء بني إسرائيل فكانت له وجهة وجاه عند ربه ﷻ وكان مستجاب الدعوة عند الله، ولم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، وأمر الله عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا قولاً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها، ومن يطع الله ورسوله فإنه يجاز من النار، ويصير إلى النعيم المقيم، وقد عرض الله الفرائض على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، ففكروا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا به، ثم عرضها على ابن آدم فقبلها بما فيها، على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله، وبالله المستعان، وإنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين والمنافقات - وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويطنون الكفر متابعين لأهله - والمشركين والمشركات، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ﷻ ومخالفة رسله، وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

آيَاتُهَا ٥٤

نُسخة ٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ
 فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
 وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
 الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ
 قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
 ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ
 وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
 كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ
 لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
 الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
 الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
 يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ إِنَّا لَنُفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

سورة سبأ

وهي سورة مكية ، وسميت بذلك لذكر قصة سبأ فيها

لله الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم، فالجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء، يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك، عدده وكيفيته وصفاته، وما ينزل من السماء من قطر ورزق، وما يصعد إلى السماء من الأعمال الصالحة وغير ذلك، وهو الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب عباده التائبين إليه المتوكلين عليه.

وأمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فهو عالم الغيب لا يغيب عنه شيء، فالجميع تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم.

والحكمة في إعادة الأبدان وقيام الساعة لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم المغفرة والجنة، والذين سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذب رسله، وظنوا أن الله يعجزه عذابهم فلهم سوء العذاب يوم القيامة.

فالمؤمنون بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا رأوه حيثئذ عين اليقين، فكان إيمانهم هداية لهم إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق إلى الله العزيز المنيع الجنب، الذي لا يغالب ولا يناع، بل قد قهر كل شيء، والحمد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله.

أما المكذبون فيستبعدون قيام الساعة والبعث بعد الموت، فيستهزئون بالرسول ﷺ في إخباره بذلك بأن الله يحيي الأجساد بعد التفرق في الأرض والذهاب فيها كل مذهب، وقد تمزقت كل ممزق فكيف تعود إلى الحياة من جديد، وما علموا أن الله تعالى هو القادر على كل شيء سبحانه.

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
 وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ
 الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا
 يَجِبَالُ أَوَّي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اْعْمَلْ
 سَبِغَتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلَسْلِمْنَا رِيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ
 وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
 رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِّنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾
 يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ
 وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ اْعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ
 الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ
 إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ
 أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾



رمى الكفار النبي ﷺ بالكذب على الله، أو بالجنون لما أخبرهم عن البعث بعد الموت، فجاء الرد عليهم ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة، ففي الدنيا في ضلال عن الحق، وفي يوم القيامة في العذاب المهين، وكل ذلك الإنكار لما في قلوبهم من استبعاد إحياء العظام البالية والأجساد المتمزقة، وهم يرون حيثما توجهوا وذهبوا أن السماء مظلمة عليهم، والأرض تحتهم، وهي تدل على قدرة الله تعالى، ولو شاء الله لحسف بهم الأرض أو أسقط عليهم قطعاً من السماء، ولكن الله يؤخر ذلك لحلمه وعفوه عن عباده، وإن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجّاع إلى الله على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطواها وأعراضها، قادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، وقد أنعم الله على عبده ورسوله داود صلوات الله وسلامه عليه بما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشاخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، وألان له الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يقتله بيده مثل الخيوط؛ فيعمل به الدروع، وكانت صنعته دقيقة، وكانت مسامير الدروع على قدر حلقاتها وكان يعمل الدرع، فإذا اكتمل من عمله درع باعها، فتصدق بثلاثها، واشترى بثلاثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها، يستعين بصناعتها على العمل الصالح، والله هو البصير بأعمال عباده وأقوالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ومن ذلك ما أنعم الله به على سليمان ﷺ من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر، وأسأل له عين النحاس، وسخر له الجن يعملون بين يديه بقدره الله وتسخيرهم لمهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك، ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة يكون له عذاب الحريق، يعملون له ما يشاء من المحارِب وهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدرة، والتأثيل من النحاس، وكانت مباحة في شرعه، محرمة في شرعنا، ويصنعون الصحف كالخوض الذي يجبي فيه الماء، والقدر الثابتات، في أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمتها، وهم مع هذه النعم يشكرون الله على نعمه وفضله وجزائه، وقليل من العباد من إذا أعطى شكر ربه، ومن الشكر العمل الصالح، فالصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله شكر، وأفضل الشكر الحمد، وقد عمى الله موت سليمان ﷺ على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقطت إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، فتبينت الجن والإنس، أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك، فأخرجوه، ووجدوا منسأة وهي العصا بلسان الحبشة، قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات، فتيقنوا أنه لا يعلم الغيب إلا الله.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ
(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خُمٌ وَأَثَلٍ وَشَيْءٌ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ
(١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ (١٧)
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً
وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)
فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ (٢٢)

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثياريهم، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والفرق في البلاد، وقد كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم، فبنوا بينها سدًا عظيمًا محكمًا حتى ارتفع الماء، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، حتى إن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تحترف فيه الثمار، فينساقت من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف، لكثرت ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب ولم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه، وهو غفور لهم إن استمروا على التوحيد، فأعرضوا عن توحيد الله وعبادته وشكروه على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس، فأرسل الله عليهم سيل العرم وهو الماء الغزير، ولما أراد الله عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها الجرذ نقبته حتى إذا ضعف ووهى، وجاءت أيام السيول، صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فبيست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدوهم عنه إلى الباطل، ولا يعاقب الله إلا الكفور، وقد كانوا في الغبطة والنعمة، والعيش الهنيء الرغيد، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافريهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا، ويقيم في قرية ويبست في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛ وكان الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهارًا، فكفروا وسألوا ربهم أن يباعد بين أسفارهم، فجعلهم الله حديثًا للناس، وسمروا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد ها هنا وها هنا؛ وإن الذي حل هؤلاء من النعمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبة على ما ارتكبه من الكفر، لعبارة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم، وكان كل ذلك في اتباعهم الهوى والشيطان، وما كان له عليهم من حجة، فما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غرورًا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه.

وإنما سلطه الله عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيحسن عبادة ربه ﷻ في الدنيا، ممن هو منها في شك، والله على كل شيء حفيظ، ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل، والله الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فإن كان المشركون صادقين فليدعوا الآلهة التي عبدوها من دون الله فإنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، لا يملكون شيئًا استقلالًا، ولا على سبيل الشراكة، وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْمِنَ بِهِذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَّضَعُفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

الشفاعة في القرآن شفاعتان، شفاعاة منفية، وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وشفاعة مثبتة وهي ما توفر فيها شرطان: إذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع، وأعظم الشفاعات الشفاعاة العظمى لأهل الموقف، وهذه خاصة بالنبي ﷺ، ويختص بالشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، والشفاعة فيمن استحق النار أن يخفف عنه العذاب وهذه لعمه أبي طالب، وبقية أنواع الشفاعاة يشفع فيها الأنبياء والشهداء والصالحون والأفراط وغيرهم، فالله لا تحرمنا شفاعة نبيك ﷺ ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين، ومن عظمة الله تعالى العظيم أنه تعالى إذا أراد أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة، ورعدة شديدة خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بساء سألهم ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، قال فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله، والله كما تفرد بالخلق والرزق فهو سبحانه، المنفرد بالإلهية، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره، فالمشركون في ضلال كيف يفرقون بين توحيد الربوبية والألوهية؟ والمؤمنون على الهدى والحق لتحقيقهم توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والمؤمنون يدعون غيرهم إلى الله وإلى توحيدهم وإفراد العبادة له، فإن أجابوا فهم من المؤمنين، وإن كذبوا فالمؤمنون برآء منهم، ويوم القيامة يجمع الله بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يحكم بينهم بالعدل، فيجزى كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وسيعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، وهو سبحانه الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، فأين هذه الآلهة التي جعلوها الله أنداداً وصيروها له عدلاً؟ سبحانه ليس له نظير ولا نديد، ولا شريك ولا عديل، بل هو الله الواحد الأحد الذي لا شريك له، ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وغلبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، وقد أرسل الله عبده ورسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق من المكلفين، يبشر من أطاعه بالجنة، وينذر من عصاه بالنار، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، والكفار يستبعدون قيام الساعة وما علموا أن لها ميعاداً مؤجلاً معدوداً، لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، ومن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم عدم الإيذان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد، فيوم القيامة يتخاصمون بينهم ويتحاجون فيقول الأتباع للقادة والسادة: لولا أنتم صدقتمونا لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بها جاؤنا به.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
 عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
 اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ
 تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
 لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ
 مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾
 وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
 قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
 زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ
 بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي
 آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ
 إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا
 أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

حين يكون التخاصم بين الأتباع والمتبعين يوم القيامة، ويتهم الأتباع السادة والقادة أنهم صدوهم عن اتباع الرسل يقول لهم القادة والسادة نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك، فيرد الأتباع بل كنتم تكمرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغروننا وتمنوننا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب.

و تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شبهاً لتضلونا بها، وأظهر الندامة لما رأوا العذاب السادة والأتباع، كل ندم على ما سلف منه، حين وضعت السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم في النار، ولا ساعة مندم، ولم يجازوا إلا بأعمالهم، كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم.

وما بعث الله نبياً في قرية إلا كذبه أولو النعمة والثروة والرياسة، وجابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر، وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، فجاء الرد عليهم ليست الأموال ولا الأولاد دليلاً على محبة الله لهم، فالله لا ينظر إلى صور العباد ولا أموالهم، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم، وإنما الذي يقرب إلى الله الإيمان والعمل الصالح، فلهؤلاء مضاعفة الحسنات، الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، وهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه، أما الذين يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع الرسل والتصديق بآياته، فجميعهم مجزيون بأعمالهم في النار بحسبهم، والله له الحكمة البالغة، ييسط على هذا من المال كثيراً، ويضيق على هذا ويقتصر على هذا رزقه، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، وكما هم متفاوتون في الدنيا هذا فقير مدقع، وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدرجات، وأطيب الناس في الدنيا من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه.

وما أنفق العباد من شيء فيما يأمرهم الله به وأباحه لهم فهو يخلفه عليهم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، ويقول الله تعالى يا ابن آدم أنفق أنفق عليك، وفي كل يوم ملكان يقول أحدهما اللهم أعط ممسكاً تلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط منفقاً خلفاً، وما تصدق العبد من صدقة وأنفق في الخير من نفقة فالله يخلفه على المنفق، إما أن يجعله في الدنيا، وإما أن يدخره له في الآخرة، وما نقصت صدقة من مال، بل تزد بل تزد، والله خير من يعطي ويرزق.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَذَكَّرُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آيِنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آيِنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفُرْدَىٰ ثُمَّ تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾



يُؤَيِّنُ المشركون ويقرعون يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الله الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورة الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فتقول الملائكة: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله، نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، بل كانوا يعبدون الشياطين؛ لأنهم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم، ففي ذلك اليوم لا يقع لهم نفع ممن كانوا يرجون نفعه من الأنداد والأوثان، فيذوقوا عذاب النار بسبب كفرهم وتكذيبهم؛ ولأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات الله بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ﷺ، فيردون على دعوتهم إلى الحق أنهم على دين آبائهم الحق، وما جاءهم به الرسول باطل، وأن هذا القرآن كذب واختلاق وسحر، وما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه.

وقد كذبت الأمم رسل الله، وهم عاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط وغيرهم، وما بلغ المشركون عشر ما أعطيت الأمم الخالية من القوة والنعمة وطول العمر وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله؛ فكيف كان نكال الله وعقابه وانتصاره لرسله.

وأمر الله نبيه ورسوله محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنه مجنون، أن يقوموا قياماً خالصاً لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضهم بعضاً هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضهم بعضاً، ثم ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك؛ ليتبين لهم صدقه ونصحه لهم ولكنهم قوم يستكبرون عن الحق، والنبي نذير لهم بين يدي عذاب شديد إن كذبوا وكفروا وجحدوا رسالته، فالنبي لا يريد منهم مآلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله إليهم، ونصحه لهم، وأمرهم بعبادة الله، وإنما يطلب ثواب ذلك من عند الله، والله عالم بجميع الأمور، بما عليه الرسول من إخباره عن الله بإرسال الله إليهم، وما هم عليه من الكفر.

والله يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، فيرسله إلى خلقه كما أرسل محمدًا ﷺ إليهم، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ
فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ
سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فُزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ
مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَافُثُ مِنْ
مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ
بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ
كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

سُورَةُ قُطُوبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ
أَجْنَحَةٍ مَوْشَىٰ وَثُلُثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا
وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَتَأَنَّى
النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنُوا تُوفَّكُونَ ﴿٣﴾

حَكَمَ الله تعالى وقضى وقدر بظهور الحق وأهله، وبذهاب الباطل وأهله مهما طال ليل الباطل فمآله للزوال، وقد جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل وزهق واضمحل، فذهب الشرك وأهله، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يطعن الصنم بقوسه، ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١)، والخير كله من عند الله، وفيما أنزله الله ﷻ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، والله سميع لأقوال عباده، قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وفي يوم القيامة يفرغ المكذبون فلا مفر لهم، ولا وزر ولا ملجأ أخذوا من أول وهلة، حين خرجوا من قبورهم، فيقولون آمنا بالله وبكتبه ورسله، وكيف يؤمنون وقد انتقلوا من الدنيا وهي دار قبول الإيثار، وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيثار، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد، فقد طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيثار من مكان بعيد، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا بالرسول، وكانوا يرمون بالظن، فتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون كاهن، وتارة يقولون ساحر، وتارة يقولون مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد، وحيل بينهم وبين التوبة، وحيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه، كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسول، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم، وقد كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلماذا لم يتقبل منهم الإيثار عند معاينة العذاب.

سورة فاطر

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر أن الله فاطر السموات والأرض

الحمد والثناء لخالق السماوات والأرض ومبدعها على غير مثال سابق، خلق الملائكة ذوي أجنحة يطرون بها ليلبغوا ما أمروا به سريعاً، بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة، وبعضهم له أربعة أجنحة، ويزيد فيها ما يشاء وجعلهم رسلاً بينه وبين رسله، وكان جبريل له ستمائة جناح، يزيد الله في خلق الإنسان ما يشاء، وهو حسن الصوت، وحسن الصورة، وحسن العقل والتدبير، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما يعطي الله من مطر ورزق فلا يستطيع أحد حبسه، وما يمنع فلا يستطيع أحد أن يعطيه وهو الحكيم فيما أعطى وفيما منع، فكما أنه المستقل بالخلق والرزق، فليفرّد العباد ربهم بالعبادة، ولا يشركوا به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ فكيف بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، يصرفون عن الحق وهو توحيد الله وشكره، ويعبدون الأنداد والأوثان.

وَأِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
 ٤ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ٥ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
 عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ٦ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا
 فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
 عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ٨ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ
 الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ٩ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْغَزَا فَلِلَّهِ الْغَزَا جَمِيعًا
 إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ
 يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ
 ١٠ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
 وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ
 وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ١١

حال المكذبين للرسول العناد والاستكبار والصدود عن الحق، فلم تنفعهم الآيات والنذر والمعجزات، ولم يستجيبوا لنداء التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ومرجع الجميع إلى الله تعالى وسيجزئهم على ذلك أوفر الجزاء، والمعاد كائن لا محالة، وعد الله والله لا يخلف الميعاد، فلا يغتر الإنسان بالدنيا فيكذب بآيات الله، فالدنيا دنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا يلهي الإنسان عن ذلك الباقي هذه الزهرة الفانية، ولا يفتنه الشيطان ويصرفه عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرّار كذاب أفكّ، فعداوة إبليس لابن آدم ظاهرة، ومبارز لهم بالعداوة وقد أخذ على نفسه إغواء بني آدم فالإنسان يكون أشدّ عداوة له ومخالفة ويكذبه بما يغترّ به، لأن قصده أن يضلّل الناس حتى يكونوا معه في عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان وأن يرزقنا اتباع كتابه، والافتقار بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، ومن أطاع الشيطان وعصى الرحمن فله العذاب المجمع الأليم، وأما المؤمنون فلهم المغفرة من كل ذنب والأجر الكثير على ما عملوه من خير، ومن أشدّ العقوبات المعجلة للإنسان أن يزين له سوء عمله فيراه حسناً، فالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهو لأواء وأمثالهم قد أضلّهم الله، فليس من حيلة لهدايتهم فمن يضلّ الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل، فلا أسف عليهم، فإن الله حكيم في قدره، إنما يضلّ من يضلّ ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام؛ ومن الدلائل الواضحات على المعاد إحياء الأرض بعد موتها، فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزل الله عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، كذلك الأجساد، إذا أراد الله سبحانه بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً فتنبث الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض؛ فكل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ومنه يركب.

ومن أحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها، والله العزة ولرسوله وللمؤمنين، إلى الله تصعد أعمال العباد من الأقوال كالذكر والتلاوة والدعاء ومن الأعمال كالصلاة والصيام والصدقة والحج من فرائض ونوافل، فما من عبد إلا له مصل في الأرض، ومصعد عمله من السماء، فله في السماء بابان باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكى عليه، والذين يراءون بأعمالهم، ويمكرون بالناس، ويوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بغضاء إلى الله، فسيظهر الله زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداه الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على الحمقى، أما المؤمنون المتفردون فلا يروج ذلك عليهم، بل يكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية، والله ابتداء خلق آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، فجعلهم من ذكر وأنثى، لطفاً منه ورحمة وجعل لهم أزواجاً من جنسهم ليسكنوا إليها، وهو سبحانه عالم الغيب، لا يخفى عليه شيء، فما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، يعلم أعمارهم وآجالهم، فليس أحد قضى الله له طول عمر وحياة إلا بلغ ما قدر له من العمر، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدره الله لا يزداد عليه، وليس أحد قضى الله له قصر العمر والحياة إلا انتهى إلى الكتاب الذي كتب له، وذلك على الله سهل يسير لديه، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شيء.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا
 مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
 حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ
 النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
 لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ
 تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
 وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ
 ﴿١٤﴾ * يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾
 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ
 تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
 إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾



من قدرة الله العظيمة خلقه الأشياء المختلفة، وخلق البحرين العذب الزلال، والملح المر، فهذه الأنهار الجارية بين الناس من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، عذبة سائغ شربها، وهذا البحار الساكنة التي تسير فيها السفن الكبار، مالحة مرة، ومن كلها يستخرج السمك، واللؤلؤ والمرجان حلية تزين بها النساء، والسفن تمخرها وتشققها بالأسفار للتجارة، من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، فعلى العباد شكر نعمة الله على تسخيرهم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، يتصرفون فيه كيف شاءوا، ويذهبون أين أردوا، ولا يمتنع عليهم شيء منه، بل بقدرة الله قد سخر لعباده ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته، ومن قدرة الله التامة وسلطانه العظيم، تسخير الليل بظلامه والنهار بضياءه، يأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفًا وشتاءً، وسخر الشمس والقمر والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن، تقديرًا من عزيز عليم، فالذي خلق هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، والذين يدعو المشركون من الأنداد والأصنام ما يملكون للفاقة التي تكون على نواة التمرة، فلا يملكون من السموات والأرض شيئًا، ولا بمقدار هذا للفاقة، وهذه الآلهة التي يدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءهم؛ لأنها جحد لا أرواح فيها، ولو سمعوا لا يقدر على ما يطلبون منها، ويوم القيامة يتبرءون منهم، ولا يخبر بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، مثل الله تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة، وهو الغني عن سواه، والمخلوقات كلها إليه مفتقرة، ومتدلة بين يديه، فالعباد محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات؛ وهو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقول، ويقدره ويشعره، ولو شاء لأذهب الناس وأتى بقوم غيرهم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع؛ وعلى المسلم أن يحفظ نفسه من أن يكون داعية للفساد فيحمل أوزار الذين يضلهم، فإن من سن في الإسلام سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن شرًا فاستن به كان عليه وزره ومثل أوزار من تبعه غير متقص من أوزارهم شيئًا، وويل لعبد جعله الله مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير، والنفس المثقلة بأوزارها لو دعت لحمل أوزار غيرها لا تحمل منه شيئًا، ولو كان قريبًا إليها، حتى ولو كان أباه أو ابنها، فالكل مشغول بنفسه وحاله، والذي يتعظ بها جاء به رسول الله ﷺ هم أولو البصائر والنهي، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به، ومن عمل صالحًا فإنما يعود نفعه على نفسه، وإلى الله المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزى كل عامل بعمله، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ
 ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ
 إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ
 أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ
 أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ
 مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ
 الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا
 أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
 وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ
 مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ
 إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
 يَرْجُونَ تَجْرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ
 وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

الأشياء المتباينة المختلفة لا تستوي، ولا تتماثل، فالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، ولا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، ولا الأحياء ولا الأموات، وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، فالْمؤمن سميع بصير في نور يمضي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم في ظلمات يمضي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، والله هو الذي يهدي عباده إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها، فكما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصبر ورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة فيهم، ولا يستطيع أحد هدايتهم، وما على الرسول إلا البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

فقد أرسل الله رسوله بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر: أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، فلئن كذب الكفار رسول الله ﷺ فقد كذبت الأمم قبلهم جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات، بالكتب الواضحة البينة، فكان إنكار الله عليهم عظيمًا شديدًا بليغًا، ومن كمال قدرة الله خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضًا من بيض وحمرة، وفي بعضها طرق مختلفة الألوان، ومنها الجبال الطوال السود، كذلك الناس والحيوانات، فالتاس منهم بربر وحش، وسود، وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهم يختلف الألوان، بل الحيوان الواحد، فتبارك الله أحسن الخالقين، وإنما يخشى الله حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر، فالعالم بالرحمن من لم يشرك به شيئًا، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله، والعالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، وليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية، والعلم نور يجعله الله في القلب، والعلم الفقه والفهم للنصوص الشرعية، وليس كثرة المحفوظات، وجمع الأقوال والاختلافات، والعلماء هم الذين يتلون كتاب الله ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلاً ونهارًا، سرًا وعلانية، يرجون ثوابًا عند الله، يوفيه الله يوم القيامة ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تحظر لهم، وهو الغفور لذنوبهم، الشكور للقليل من أعمالهم.

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

القرآن كتاب الله الخالد الحق، أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، صدقت به الكتب المتقدمة، وهو يصدقها، والله خير بعباده، بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق منزلتهم جميعاً، صلوات الله عليهم أجمعين، وقد جعل الله القائلين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفاهم الله من عباده وهم هذه الأمة إلى ثلاثة أنواع: منهم المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات، ومنهم المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات، ومنهم الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات، فالسابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن وهو تحت المشيئة إن شاء الله عذبه وأدخله الجنة، وإن شاء غفر له وأدخله الجنة.

والعلماء أعطى الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، وماوى هؤلاء المصطفين من عباد الله الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على ربهم ﷻ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً وتبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء، ولباسهم الحرير يقولون الحمد لله الذي أزاح عنا الحزن والخوف من المحذور، وأراحنا بما كنا نتخوفه، ونحذر من هموم الدنيا والآخرة، الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومنته ورحمته، ولم يكن بأعمالنا، في تلك الدار لا يمستنا فيها عناء ولا إعياء، فلا تعب على الأبدان ولا الأرواح، لأنهم كانوا يدأبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، أما الأشقياء فهم في النار لا يموتون فيها ولا يحيون فهم في حال يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، كلما خبت عليهم النار زداها الله عليهم سعيراً، وهذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق، وهم ينادون فيها، يجأرون إلى الله ﷻ بأصواتهم، يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم، وقد علم الرب ﷻ أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نبهوا عنه، وإنهم لكاذبون، فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، وقد عاشوا في الدنيا أعماراً لو كانوا ممن ينتفع بالحق لانتفعوا به في مدة أعمارهم، ومن أحياء الله حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، فقد أعذر الله إليه، ومن جاءه الشيب فهو نذير الموت ومن جاءه الحق من ربه فليستجب، والظالمون لأنفسهم لهم عذاب النار جزاء على مخالفتهم للأنبياء في مدة أعمارهم، فما لهم يوم القيامة ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال، والله يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم ما تكنه السرائر وتنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا
يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ
كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
أَمْ عَائِنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ
إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ
جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ
وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا
﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾



خلق الله الخليفة وجعلهم في الأرض يخلف بعضهم بعضاً، فكل جيل يخلف الجيل الذي قبله فمن كفر فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره، وكلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله، وخسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة، وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئته رب العالمين، والمشركون في عبادتهم لأصنامهم وأوثانهم يعبدون ما لا يخلق شيئاً، فضلاً عن أن يشتركوا في خلق السموات والأرض، بل هم أضعف وأقل، فهم مخلوقون، خلقهم الله فكيف يخلقون، فمن الذي أمر المشركين بعبادتهم؟! هل عندهم كتاب من الله يبيح لهم ما يعملونه من الشرك؟! بل اتبعوا الأهواء والآراء والأمانى التي يتمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور. فإن الله من قدرته العظيمة أن تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيها من القوة الماسكة لها، فالله يمسك السموات والأرض أن تضطربا عن أماكنهما، ولا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حلیم غفور، يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم، فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر.

ومن كذب الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم لئن جاءهم نبي ليكون أهدى من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل.

فلما جاءهم محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم، واستكبروا عن اتباع آيات الله، ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله، وما يعود وبال المكر إلا على أنفسهم دون غيرهم.

وسيحل بهم ما حل بالأمم قبلهم من عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، وتلك سنة الله في المكذبين لا تتغير ولا تتبدل، بل هي جارية كذلك في كل من كذب وجحد واستكبر.

وليسيروا في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر الله لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السموات والأرض، فهو عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى
ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يَسَّ

الباب
٨٣ترتيب
٣٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسَّ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا
أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى
الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا نُنْذِرُ
مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرِ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

الله رحيم بعباده لو يأخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق، ولما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب، ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية.

سورة يس

وهي سورة مكية، سميت بذكر الحرفين اللذين بدئت بهما السورة

ابتدأت السورة بالحروف المقطعة لبيان إعجاز القرآن وبلاغته الذي أعجز العرب بالإتيان بمثله، وهو مكون من الحروف التي يتكلمون بها، ذلك القرآن المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي نزل على قلب محمد ﷺ فأرسل به ليكون للعالمين مبعثًا ونذيرًا، على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم، منزل من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين، فينذر من الشرك أقوامًا لم يرسل إليهم رسول قبله، وتعم دعوته أهل الأرض جميعًا إنسهم وجنهم، فبعثته في أرض العرب، ولكن دعوته لجميع أهل الأرض، في وقت كان العرب والعجم في جاهلية، وغفلة عن التوحيد، فبعث الله سيد ولد آدم ليدعوهم إلى توحيد الله ونبد الشرك، وإن كان بعضهم قد كتبت عليه الشقاوة والضلالة، فلا يؤمنون بالله ولا يصدقون رسله، فمثلهم في وصولهم إلى الهدى كمن جعل في عنقه غل، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه، فصار مقمحًا والمقمح هو الرافع رأسه، فأيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يسطوها بخير، فهم مغلولون عن كل خير، وجعل بينهم وبين الحق سدًا من أمامهم ومن خلفهم، فهم يترددون في الضلالة، فلا يبصرون الحق لما على أعينهم من الغطاء الذي يمنعهم من رؤية الحق، فهم لا ينتفعون بخير ولا يبتدون إليه، فجعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، فقد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به، وإنما ينتفع بإنذار الرسول ﷺ أهل الإيمان الذين يتبعون القرآن العظيم، ويخافون ربهم فيراقبون الله في كل أحوالهم، فلهم البشارة بمغفرة ذنوبهم، والأجر الكبير الواسع الحسن الجميل، والله قادر على أن يحبي قلوب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، وهو الذي يحبي الموتى يوم البعث والنشور، وقد كتبت أعمالهم التي عملوها في الدنيا فيجدون كل ذلك محضراً، فيجدون أعمالهم التي باسروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فيجزون عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لو كان الله تعالى مغفلاً شيئاً من شأن ابن آدم، أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته، فمن استطاع أن يكتب أثره في طاعة الله فليفعل.

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
 إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ
 الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا
 إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
 قَالُوا إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُوا لَزَجُمْنَاكُمْ وَلَيْمَسَّكُمْ
 مِمَّا عَذَابُ آلِيمٍ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ
 بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
 يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ
 لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي
 فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ
 يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
 يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي أَمِنْتُ
 رَبِّي كُمْ فَأَسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي
 يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

أرسل الله سبحانه وتعالى رسله ليدعوا الناس لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فكان لهم مع أقوامهم قصص وعبر، قصها الله في كتابة لتكون عبرة وعظة، ومن ذلك قصة أصحاب القرية وهي مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له أنطيوخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وقد أرسل الله إليهم اثنين فبادروهما بالتكذيب، فأرسل الله إليهما رسولاً ثالثاً يقويهما، ويشدد أزرهما، فقالوا لأهل تلك القرية، إنا إليكم مرسلون من ربكم الذي خلقكم، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له، فقالوا لهم كيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا يوحى إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم من الملائكة، فكذبوهم، فأجابتهم رسلهم الثلاثة: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار، وإننا علينا أن نبليكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطمعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تحببوا فستعلمون عاقبة ذلك، فعند ذلك قال لهم أهل القرية إنا لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا، فتشاءموا منهم وقالوا: لئن لم تكفوا عن دعوتنا لنقتلنكم بالحجارة، ولنعاقبكم عقوبة شديدة، فقالت لهم رسلهم تطيركم مردود عليكم، من أجل أنا ذكرناكم، وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العباد له، قابلتمونا بهذا الكلام، وتوعدتمونا وتهددتمونا، بل أنتم قوم مسرفون على أنفسكم بالكفر والتكذيب، فهم أهل القرية يقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه -وهو حبيب- وكان يعمل الحبال، وكان رجلاً مريضاً، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه، وحث قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم، فهم لا يأخذون أجراً على إبلاغ الرسالة، وهم على الحق فيما يدعونهم إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، وقال: ما يمنعني من إخلاص العباد للذي خلقتني وحده لا شريك له، ويوم المعاد يجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فهل أعبد إلهاً غير الله لو أرادني الله بسوء فإن الآلهة التي تعبدونها من دونه لا تملك لي من الأمر شيئاً فإن عبدت تلك الأصنام التي لا تملك دفع ذلك ولا منعه فأنا في ضلال وجهل واضح، إني آمنت بالله الذي كفرتم به، فاسمعوا قولي، وقال للرسل: إني آمنت بربكم الذي أرسلكم، فاشهدوا لي بذلك عنده، فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه، فجعلوا يرجونه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى قتلوه، فأدخله الله الجنة، وهو حي فيها يرزق، فلما أفضى إلى الجنة ورأى نعيمها تمنى أن قومه آمنوا ليجدوا ما وجد من النعيم والمغفرة، وتمنى أن يعلم قومه أن الله غفر له وأكرمه ليرغبوا في دين الرسل، اللهم لا تحرمنا الجنة ووالدينا وأهلينا وذريتنا والمسلمين.

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
 كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ
 ﴿٢٩﴾ يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ
 أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ
 ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
 فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ
 وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ
 وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي
 خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ
 وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ
 فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا
 ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى
 عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ
 الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

لما كذب أهل القرية الرسل، وقتلوا المؤمن، انتقم الله منهم فأنزل عليهم العذاب، أخذ جبريل بعضادي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم ميتون، فلم يبق منهم باقية، ولم يكن في إهلاكهم إنزال الملائكة عليهم؛ لأن الأمر أيسر من ذلك، فباحسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله فإنهم كانوا في الدار الدنيا مكذبون، ما يأتيهم رسول إلا كذبوه واستهزؤا به، ووجدوا ما أرسل به من الحق، ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبيلهم من المكذبين للرسل؟! كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، وجميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله ﷻ فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، ومن الدلائل على قدرة الله، وعلى البعث بعد الموت، الأرض الميتة الهامدة ليس فيها شيء من النبات، إذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ فكان فيها رزق للعباد وللأنعام، وجعل فيها أنهاراً جارية، وعيوناً تابعة، منها يزرع الناس ويستقون، فتخرج لهم الزروع والثمار، وهذا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم، فهلا يشكرون الله على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، فتنزه الله وتعالى الخالق العليم الذي خلق الأنواع من الزروع والثمار والنبات، وخلق العباد فجعل منهم ذكراً وأنثى، وخلق ما لا يعلمون من المخلوقات التي لا يعرفونها، ومن الدلائل على قدرة الله تعالى العظيمة خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضياءه، وجعلها يتعاقبان، يحیی هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيحيي هذا، فالليل يسلم عنه ضياء النهار والأصل هي الظلمة والنهار داخل عليه فإذا غربت الشمس أزيل النهار من الليل فتظهر الظلمة، ومن الآيات جريان الشمس لمستقر لها وهو مستقرها المكاني، وهو تحت العرش تذهب حتى تسجد بين يدي ربه عز وجل، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، ومستقرها الزماني منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهو وقتها وأجلها الذي لا تعدوه، كل ذلك تقدير العزيز الذي لا يخالف ولا يناع، العليم بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك، لا اختلاف فيه ولا تعاكس، ومن الآيات القمر جعله الله يسير سيراً يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، وجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالقمر قدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً، ويرتفع منزلة حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم، وهو أصل العذق، وهو العنقود من الرطب إذا عتق وبيس وانحنى، لكل منها حد لا يعده ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، ولكل منها سلطان، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل، ولا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، ولا يذهب الليل من ها هنا حتى يحیی النهار من ها هنا، ينسلخ أحدهما من الآخر، فلا انقطاع بين الليل والنهار، لأنها مسخران دائبان، وكل من الليل والنهار والشمس والقمر يدورون في فلك السماء.

وَعَايَةً لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَنْوِيلُنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

من الدلائل على قدرة الله تعالى، تسخير البحر ليحمل السفن، فمن ذلك أول سفينة، سفينة نوح عليه السلام التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم؛ فمن آيات الله أن حمل أصل هذه الخليقة وهم الذين نجوا من الطوفان في السفينة المملوءة من الأمتة والحيوانات، التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وجعل من بعد سفينة نوح سفينًا مثلها تحمل الناس، وخلق الله الإبل وهي سفن البر يحملون عليها ويركبونها، وإذا شاء الله أغرقهم فلا مغيث لهم مما هم فيه، ولا منقذ مما أصابهم، ولكن رحمة الله أن سيرهم في البر والبحر، وسلمهم إلى أجل مسمى ووقت معلوم عند الله، ومن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة، إذا قيل لهم اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية فاعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته لعل الله يرحمكم ويؤمنكم من عذابه فلا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عن التوحيد وتصديق الرسل فلا يتأملون الآيات ولا يتفكرون بها، وإذا أمروا بالإتفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين قالوا: لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم، ويستبعدون قيام الساعة تكدياً وعناداً، وما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهي نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعاشهم يَحْتَصِمُونَ ويتشاجرون على عاداتهم، فينبأهم كذا إذ أمر الله تعالى إسرأفيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها، ورفع ليتاً -وهي صفحة العنق- يتسمع الصوت من قبل السماء، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار، تحيط بهم من جوانبهم؛ فلا يوصون على ما يملكونه، فالأمر أهم من ذلك، ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق، التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث والنشور للقيام من القبور، يخرجون من القبور إلى ربهم يسرعون، فيقول المكذبون يا ويلنا من بعثنا من قبورنا؟ وقد كانوا يعتقدون أنهم لا يبعثون منها، فتقول لهم الملائكة هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، نفخة واحدة فإذا جميع الخلائق محضرون، ففي ذلك اليوم لا تظلم نفس شيئاً من عملها، ولا تجزى إلا ما كانت تعمل.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ
 فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ
 مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَزُوا الْيَوْمَ
 أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا
 تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي
 هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا
 أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ
 ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ
 عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا
 الصِّرَاطَ فَأَنْى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ
 عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾
 وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾
 وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ
 لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

نعيم أهل الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإذا نزل أهل الجنة في روضات الجنات اشتغلوا بنعيمها، فهم في نعيم مقيم، وفوز عظيم، وهم منعمون مسرورون مع أهلهم من الأزواج والأولاد، في ظلال الأشجار على السرر متكئون، لهم من جميع أنواع الفاكهة ما يطلبون، وكتب لهم السلامة رب رحيم، وسلم عليهم وهم في الجنة أن سلام عليكم، فبينما أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال السلام عليكم يا أهل الجنة، فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم، وأما الكفار المجرمون يوم القيامة فيتميزون عن المؤمنين في موقفهم، ويقال لهم: قد أمرتم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتم بعبادة الله، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتهم غير ذلك واتبعتهم الشيطان فيما أمركم به، وقد أضل وأغوى خلقًا كثيرًا منكم، ألم يكن لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعدولكم إلى اتباع الشيطان، ويقال لهم: هذه النار التي حذرتكم الرسل فكذبتموه، ادخلوها بسبب كفركم، فينكرون كفرهم وتكذيبهم للرسل، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم، ويقال لها: انطقي فتتطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول بعدًا لَكُنَّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل، وأول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه، فخذ من الرجل اليسرى.

ولو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عميًا يترددون، فيتبادروا إلى الطريق، فأنى يبصرون الحق، ولو شاء الله لجعلهم قردة وخنازير، فلا يستطيعون أن يتقدموا ولا يتأخروا، والإنسان كلما طال عمره رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط، أفلا يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ثم صيروهم إلى الشباب ثم إلى الشيخوخة؛ ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة، وقد أرسل الله رسوله ﷺ، وأوحى إليه القرآن هداية للبشرية، فكذب المشركون، ووصفوا القرآن بالشعر، فجاء الرد عليهم أن النبي ﷺ لم يكن شاعرًا، وما هو في طبعه ولا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جبلته، وإنما أرسله الله بالقرآن البين الواضح لمن تأمله وتدبره؛ لينذر بهذا القرآن البين كل حي على وجه الأرض، وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة، وهو رحمة للمؤمن، وحجة على الكافر.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا
 مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
 وَلَهُمْ فِيهَا مِنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ
 نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ
 إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا
 خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
 مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
 قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
 ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ
 مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
 إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
 فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

من نعم الله على خلقه هذه الأنعام التي سخرها لهم، وذلّلها لهم، لا تتمتع منهم، فمنها ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار، ومن الحيوانات ما يأكلون لحومها ويشربون من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى، ويتنفعون من أوبارها وشعورها وأصوافها أثنائاً ومتاعاً، كل ذلك مستوجب شكر نعمة الله وتوحيد خالقها ومسخرها، ولا يشركون به غيره.

ومن ضلال المشركين اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، وهي لا تقدر على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحق وأدحر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء؛ لأنها جمد لا تسمع ولا تعقل، وهذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها؛ ليكون ذلك أبلغ في خزيهم، وأذل عليهم في إقامة الحجة عليهم.

وأمر النبي ﷺ بالصبر على تكذيبهم، وعدم الحزن على كفرهم بالله، فانه يعلم جميع ما هم عليه، وسيجزئهم وصفهم، يوم لا يفقدون من أعبالهم جليلاً ولا حقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً، والله خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة قادر على إعادته بعد موته، هذا الإنسان الذي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته، وهو الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً إذا ثمر، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء، فالذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه، والذي خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، قادر على إعادة الأجساد، يخلق خلقاً بعد خلق وهو العليم بجميع ما خلق، وإذا أراد شيئاً أمر بالشيء أمراً واحداً، لا يحتاج إلى تكرار، فتزده وتقُدس الحي القيوم، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المتفضل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّجَرَتِ زَجْرًا ② فَالتَّلَيَّتِ ذِكْرًا ③
 إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
 الْمَشْرِقِ ⑤ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ⑥ وَحِفْظًا
 مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ⑦ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِفُونَ
 مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلَّا مَنْ خِطَفَ
 الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ، شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑩ فَاسْتَفِينَهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا
 أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ⑪ بَلْ عَجِبْتَ
 وَيَسْخَرُونَ ⑫ وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ ⑬ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ
 ⑭ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑮ أءَاذَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا
 أءَنَا لَمَبْعُوثُونَ ⑯ أَوَّابًا أَوَّانَا الْأَوَّلُونَ ⑰ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ
 ⑱ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ⑲ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا
 يَوْمُ الدِّينِ ⑳ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ㉑
 * أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ㉒ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ㉓ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ㉔

سورة الصافات

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر الصفات وهو وصف للملائكة

أقسم الله على إثبات وحدانيته بالملائكة، والله أن يقسم بما يشاء من خلقه، أما الخلق فلا يقسمون إلا بالله، فالصفات الملائكة تصف عند ربها، يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف، والملائكة تزجر السحاب وتسوقه، والرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب في يده مخراق من نار يزجر به السحاب، والصوت الذي يسمع منه زجره السحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره، والملائكة يتلون القرآن وذكر الله ﷻ، والمقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب، الذي زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بالكواكب السيارة والثوابت يتقرب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، وحفظ الله السماء، من استراق الشياطين، لئلا يصلوا إلى الملائكة الأعلى، وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بها يوحى الله مما يقوله من شرعه وقدره، فإن الشياطين تسترق السمع ويكون بعضهم فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته، ثم يلقها الآخر إلى من تحته، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن؛ فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا؛ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء، وحفظ الله للسماء بإرسال الشهب المحرقة على الشياطين، من كل جهة يقصدون السماء منها رجماً يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ولهم في الدار الآخرة عذاب دائم موجه مستمر إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقها إلى الذي تحته، فيلبس بها الكهان على الناس، فقد تصيهم الشهب المستتيرة والمحرقة وقد تحططهم، فهل هؤلاء المنكرين للبعث أشد خلقاً، أم السماوات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ فقد خلقهم من طين يلتزق بعضه ببعض، بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك، وإذا رأوا دلالة واضحة على البعث يستهزئون، ويقولون سحر واضح، ويستبعدون البعث ويكذبون به، وأمر النبي ﷺ أن يقول لهم نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون تراباً وعظاماً، وأنتم حقيرون تحت القدرة العظيمة، وإنها هو أمر واحد من الله ﷻ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، فيرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، ويندمون حيث لا ينفعهم الندم، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون هذا اليوم الذي يفصل فيه الله بين الخلائق وكنتم تكذبون به في الدنيا، ويأمر الله الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم، يحشر الكفار، وما كانوا يعبدون من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم، ويرشدون إلى طريق جهنم، ويقفون حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسَامُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
 قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
 بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴿٣١﴾
 فَأَعْوَبْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غُوثِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
 ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكْ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلَ الْهَتَانَا
 لَشَاعِرٍ تَجْنُونَ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
 لَذَٰبِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
 ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
 فَوَكَهَهُمْ مَّكْرُمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّقْبِلِينَ
 ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيَضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ
 ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ
 الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى
 بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾

يوم القيامة، يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وزوجته وبنيه، لا ينفع أحد أحدًا، ولا ينصر أحد أحدًا، كل يقول نفسي نفسي، والجميع منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يجيدون عنه، والكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار، فقد كنتم تقهروننا بالقدره منكم علينا؛ لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء، وكنتم تنهوننا عن الخير وتبطئوننا عنه، وتزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الحق، فيقول القادة من الجن والإنس للاتباع: ليس الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، وما كان لنا من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا، وتركتم الحق الذي جاءكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به، فخالفتموهم، وقد حقت علينا كلمة الله إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، دعوناكم إلى الضلالة فاستجبتم لنا، فالجميع في النار، كل بحسبه، وذلك جزاء المجرمين لأنهم في الدار الدنيا إذا دعوا إلى التوحيد يستكبرون على قول كلمة التوحيد كما يقولها المؤمنون، ومن استكبار المشركين أنهم يقولون أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون؟ -يعنون رسول الله ﷺ- فجاء الرد عليهم تكذيبًا لهم أن رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع ما شرعه الله له من الإخبار والطلب وصدق الأنبياء قبله فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله في شرعه وقدره وأمره، والمكذبون له لهم العذاب الأليم يوم القيامة لكفرهم وعنادهم واستكبارهم عن قبول الحق، وأما الموحدون الذين أفردوا الله بالعبادة فلهم الجنة وما فيها من الفواكه المتنوعة يخدمون ويرزقون ويرفهون وينعمون في جنات النعيم، على سرر متقابلين لا ينظر بعضهم في قفا بعض، يدار عليهم بناء فيه خمر جارية في الأنهار ظاهرة تراها العيون أشد بياضًا من اللبن، لذيذة لا تغتال عقولهم فتذهب بها، ولا يغلبهم على عقولهم ولا يسكرون، ولهم الحور حابسات الأعين غاضات الجفون، قصرن أعينهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، حسان الأعين، كأنهن اللؤلؤ المحصون لم تمسه الأيدي، وأقبل أهل الجنة على بعض يتساءلون عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها وذلك من حديثهم على شراهم واجتماعهم في تنادهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مأكّل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فقال أحدهم أن لي صاحبًا يكذب بيوم القيامة.

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَيْذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا
لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ
الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي
لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتُنَا
الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾
لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلًا أَمْ شَجَرَةُ
الزَّيْتُونِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ
﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ شَاءُوا مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْبَابًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
مُّنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنِعْمَ
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

من نعيم الجنة اجتماع أهلها وتذاكرهم بأحوالهم في الدنيا، فيقول أحدهم إن له صديقًا يقول له في الدنيا: أأنت تصدق بالبعث والشور والحساب والجزاء؟ وذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، وإذا كنا ترابًا إنا لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا، ويقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة: هل أنتم مشرفون على النار، فاطلع فرآه في وسط الجحيم، فقال المؤمن مخاطبًا للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك، ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل علي ورحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيد، وأعطاني الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب، فكل نعيم فإن الموت يقطعه، فلمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا، ليصبروا إليه في الآخرة، نسأل الله ألا يجرنا الجنة ووالدينا وأهلينا وذريتنا والمسلمين، فهل نعيم الجنة وما فيها من مأكّل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء؟ أم شجرة الزقوم التي في جهنم طعامًا لهم غدت من النار ومنها خلقت، وقد ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة، قال أبو جهل: إنا الزقوم التمر والزبد أترقمه، وتلك الشجرة أصل منبتها في قرار النار، طلعتها كأنه شعور الشياطين قائمة إلى السماء، يأكل أهل النار من هذه الشجرة التي لا أشبع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف بمن يكون طعامه، ويشربون الحميم على الزقوم، يمزج لهم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم، ثم إن مردهم بعد هذا إلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير يتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، إنا جوزوا بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان، وأكثر الأمم الماضية كانوا ضالين يبعثون مع الله آلهة أخرى، وقد أرسل الله فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، فتأدوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك الله المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وأظفرهم، فهذا نوح عليه السلام لقي من قومه من التكذيب ولم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ فأجاب الله دعوته ونجاه وأهله من التكذيب والأذى.



وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ مِنْ شِيعِنِهِ لَابْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيفْكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَى إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْتَا كُؤُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأَبَّأُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾

لم يبق الله بعد الطوفان إلا ذرية نوح عليه السلام، وجعل لنوح عليه السلام ذكراً حسناً يذكر به فله الذكر الجميل والثناء الحسن، هذا هو جزاء الله لمن أحسن من العباد في طاعة الله، يجعل الله له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك، فهو من المصدقين الموحدين الموقنين، وأهلك الله قومه، فلم يبق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة، ومن أهل دينه وعلى منهاجه وستته إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، جاء ربه بقلب سليم من الشرك، ومليء بالتوحيد، فأنكر على قومه عبادة الأصنام والأنداد، وقال أتعبدون من دون الله آلهة كذباً وهي ليست بأهة، ولا تصلح للعبادة، فما تظنون برب العالمين، أن يفعل بكم وقد أشركتم في عبادته غيره؟ وهذا انتقاص لله أن جعلتم له أنداداً، وأراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يختلي بأهة قومه ليكسرها، وكان لهم من الغد عيد ومجمع، وكان قومه يتعاطون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا؛ لئلا ينكروا عليه، فقالوا لإبراهيم: ألا تخرج غداً معنا إلى عيدنا، فنظر إلى النجوم فقال إني مريض، وذلك أنه أراد أن يكادهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، فذهبوا مدبرين إلى عيدهم، فذهب إبراهيم عليه السلام إلى أصنامهم بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، فقال ألا تأكلون، وكانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبرك لهم فيه، فمال عليهم ضرباً باليمين، وتركها قطعاً إلا كبيراً لهم لعلهم يسألونه إذا رجعوا، فلما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم عليه السلام هو الذي فعل ذلك، فجاءوا يسرعون لبيعاتبوه، فأخذ في تأنيبهم وعيبيهم، وقال أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تحتونها وتصنعونها بأيديكم والله خلقكم والذي تعملونه؟! فقامت عليهم الحجة فعدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فبنوا بنياناً وألقوا فيه الحطب وأججوا ناراً عظيمة وألقوا إبراهيم عليه السلام فيها، ونجاه الله من النار وكانت برداً وسلاماً عليه، وأظهره الله عليهم، وأعلى حجته ونصرها، وبعدما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، ودعا ربه أن يهب له أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، فبشره الله بغلام حلیم، وهو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، فلما كبر الغلام وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وقد كان إبراهيم عليه السلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده بمكة وينظر في أمرهما، وقد أمره الله أن يجعلهما في مكة، ورأى رؤيا أنه يذبح ابنه -ورؤيا الأنبياء حق- وكان ذلك امتحاناً لإبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام، فأعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى، وطاعة أبيه، فقال الابن بلغة المستسلم لأمر ربه امض لما أمرك الله من ذبحي، وسأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيها وعد.

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيِّرْهُمَا ﴿١٠٤﴾ قَدْ
 صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ
 الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي
 الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
 ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ
 الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
 مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى
 وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَبَجَيْنَهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
 ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاثَيْنَهُمَا الْكِتَابَ
 الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا
 عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ
 ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ
 عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾
 إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَنْتُمْ كُفْرًا ﴿١٢٤﴾ أَلْتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
 الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

لما أمر الخليل بذبح ابنه، استسلما وانقادا، إبراهيم امثال أمر الله، وإساعيل طاعة لله ولأبيه، وصرعه على وجهه ليذبحه من قفاه حتى لا يشاهد وجهه عند ذبحه؛ ليكون أهون عليه، وأوحى الله إليه يا إبراهيم قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، وكان جزاء المحسنين أن صرف الله عنهم المكارة والشدائد، وجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، وكان المقصود من ذلك إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ فكان اختباراً واضحاً جلياً؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله، متقاداً لطاعته، وفداه الله بكبش أبيض أعين أقرن نزل من الجنة، وكانت سنة الأضاحي، أمر المسلمون أن يضحوا بهيمة الأنعام، ومن رحمة الله بعباده أنه لم يأمرهم بذبح أبنائهم، فتطيب نفس المؤمن بذبح الأضاحي تقرباً لله تعالى، وجعل الله للخليل في الآخرين ثناءً حسناً، وبشره بعد ذلك بإسحاق نبياً جزاء لطاعته، وبارك الله على إبراهيم في أولاده، وعلى إسحاق بكون أكثر الأنبياء من نسله، ومن ذرية إبراهيم وإسحاق مؤمن وكافر ظاهر، ومن أنعم الله عليه نبي الله موسى ﷺ، ونبي الله هارون ﷺ، أنعم الله عليهما بالنبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأمواهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم، ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين وهو التوراة، وهدهما رهبا الصراط المستقيم في الأقوال والأفعال، وأبقى لهما ذكراً جيلاً وثناءً حسناً، ومن أنبياء الله إلياس ﷺ، بعثه الله في بني إسرائيل وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له (بعل) فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعده الإيذان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أحبب ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْلِيسَ إِنَّكَ كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ وَإِنَّ لُوطًا
لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٢﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٣﴾ إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَإِنَّكُمْ لَمُتْرُونَ عَلَيْهِمْ
مُصْبِحِينَ ﴿١٤٦﴾ وَبِالْبَيْتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٨﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٩﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٥٠﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٥١﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٥٢﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٥٣﴾
﴿ فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ ﴿١٥٤﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٥٥﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٥٦﴾
فَأَمَّا نُوا فَتَعَنَّاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٥٧﴾ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ
وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٥٨﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥٩﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٠﴾ وَلَدَ
اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٦١﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٦٢﴾

أهلك الله المكذبين من قوم إلياس، وأنجى الموحدين منهم، وجعل له ثناء جميلاً، ونحية من الله ومن عباده على إلياس، وفي لغة بعض العرب إل ياسين، ومن أنبياء الله عبده ورسوله لوط عليه السلام بعثه إلى قومه، فكذبوه فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة متنتة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بطريق يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً؛ حتى يعتبر الناس بهم كيف دمر الله عليهم.

ومن أنبياء الله يونس عليه السلام غضب على قومه فانطلق حتى انتهى إلى قوم في سفينة فعرفوه فحملوه فلما ركب السفينة وقفت فقال: ما لسفيتكم قالوا: لا ندري قال لكني أدري فيها عبد آبق من ربه إنها والله لا تسير حتى تلقوه، فافترعوا فممن وقعت عليه فليقع فافترعوا فوقعت على يونس فأبوا أن يمكنوه من الوقوع فعادوا إلى القرعة حتى وقعت على يونس ثلاث مرات، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوثاً من البحر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام، فلا يهشم له لحماً، ولا يكسر له عظماً، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها، ولما استقر يونس في بطن الحوت، حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام يصلي في بطن الحوت، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجاب الله له فطرحة الحوت بالعراء، وأنبأ الله عليه اليقطينة وهي شجرة الدباء وهو ضعيف البدن، وأرسله الله إلى مائة وثلاثين ألفاً، فصدقوه كلهم وآمنوا به.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل المشركين الضالين الذين جعلوا الملائكة بنات الله، ولهم ما يشتهون من الذكور، كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم، فهم قالوا في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولاً: جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً، وثانياً: جعلوا ذلك الولد أنثى، وثالثاً: عبدوهم من دون الله، وكل منها كافٍ في التخليد في نار جهنم، وكيف يختار الله البنات دون البنين.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُبِينٌ
 ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ
 نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمَحْضُرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا
 يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾
 مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَتَنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا
 لَهُ، مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ
 ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا
 عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ
 سَبَقَتْ كُلُّمْنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ
 جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ
 يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِزَّادِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِهِمْ فَسَاءَ
 صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ
 يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
 وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

من ضلال المشركين قولهم إن الملائكة بنات الله وذلك يدل أن ليس لهم عقول يتدبرون بها ما يقولون، وليس عندهم حجة على ما يقولونه، فليأتوا بالبرهان والدليل على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله، ومن كذبهم وافترائهم قولهم إن أمهات الملائكة من الجن، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ومن قال ذلك فله العذاب يوم الحساب لكذبه في ذلك وافترائه، وقوله الباطل بلا علم، تعالى الله وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً.

أما المخلصون، المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل، فإنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ، وعبداء الأصنام هم وأصنامهم لن يضلوا إلا من قدر الله أنه من أهل النار، وكان في سابق علم الله أنه من أهل الشقاوة، وأما الملائكة فهم عباد مكرمون، لهم مواضع مخصصة في السماوات ومقامات للعبادة، فليس في السموات موضع قدم إلا عليه ملك راعع أو ساجد، ويقفون صفوفاً في الطاعة والعبادة والذكر والتسبيح، يسبحون الرب ويمجدونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص.

وقد كان المشركون يتمنون قبل أن تأتيهم رسالة محمد ﷺ لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، ليكونوا أهدي الأمم فلما جاءهم كذبوا بآيات الله وكفروا به، وسيجدون عاقبة كفرهم العذاب الأليم يوم القيامة.

وقد كتب الله في اللوح المحفوظ أن العاقبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة، وأن جند الله لهم العاقبة والنصرة والظفر، وأما الكفار فهم منظرون للعذاب من الهزيمة في الدنيا، والعذاب والنكال في الآخرة على مخالفتهم وتكذيبهم؛ وهم لتكذيبهم وكفرهم يستعجلون العذاب، فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم، فتقدس الله وتعالى عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون علواً كبيراً، فهو سبحانه ذو العزة التي لا ترام، وسلام الله على رسل الله وأتباعهم في الدنيا والآخرة؛ لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيقته، والله الحمد في الأولى والآخرة في كل حال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ②
 كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ③ وَعَجَبُوا
 أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ④ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَدِجْرٌ كَذَابٌ ⑤
 أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⑥ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ
 مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ⑦
 مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ⑧ أَمْ نَزَلَ
 عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ
 ⑨ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ⑩ أَمْ لَهُمْ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ⑪
 جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ⑫ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
 نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ⑬ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ
 لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ⑭ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ
 فَحَقَّ عِقَابِ ⑮ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا
 مِنْ فَوْاقِ ⑯ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ⑰

سورة ص

وهي سورة مكية، سميت بهذا الاسم باسم الحرف الذي بدئت به
ابتدأت السورة بالحروف المقطعة، الدالة على إعجاز القرآن وبلاغته، فهو كتاب الله، المشتمل على ما
فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد، فهو كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار، فهو
ذكر لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم في استكبار عنه وحية ومخالفة له ومعاندة
ومفارقة، وكم من أمة مكذبة استغاثوا وجأروا إلى الله حين جاءهم العذاب وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً،
ونادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستنصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم، وليس الوقت وقت
توبة، ولا عمل، ومن تعنت المشركين تعجبهم من بعثة الرسول بشراً مثلهم، واتهموه بالسحر والكذب،
وقالوا: أزعجهم أن المعبود واحد لا إله إلا هو، وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم
عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الله بالوحدانية
أعظموا ذلك، وقال السادة والقادة والرؤساء استمروا على دينكم، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من
التوحيد، وإن هذا الذي يدعوننا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن
يكون له منكم أتباع ولسنا محبيبه إليه، وما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة،
ولو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى، إن هذا إلا كذب، واستبعدوا تخصيب النبي ﷺ بإنزال
القرآن عليه من بينهم كلهم، وهذا يدل على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول
من بينهم، وإنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله ونقمته، وسيعلمون غيب ما
قالوا، وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دُعَاً، والله سبحانه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي
يعطي من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وينزل الروح من أمره على
من يشاء من عباده ويختتم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر
وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير، وهو العزيز الذي لا يرام جنباه
الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد، وإن كان لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليصعدوا في طرق
السماء، وهؤلاء الجند المكذبون سهزمون ويغلبون ويكتبون كما كتبت الذين من قبلهم من الأحزاب
المكذبين، وقد كذبت القرون الماضية، فحل بهم العذاب والنكال والنقمات لمخالفة الرسل وتكذيب
الأنبياء، وكانوا أكثر من العرب، وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من
شيء لما جاء أمر الله، وما كان هلاكهم إلا تكذيبهم بالرسل، وما ينتظر المكذبون إلا الساعة، وقد اقتربت
ودنت وأزفت، تفجأهم الصيحة، نفخة الفزع التي يأمر الله إسرائيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل
السموات والأرض إلا فرع إلا من استثنى الله ﷻ، ومن تعنت المشركين دعاؤهم على أنفسهم بتعجيل
حظهم ونصيبهم من العذاب.

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
 إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
 مُحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
 وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا
 الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ
 خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
 وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً
 وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
 لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
 مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
 ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ
 ﴿٢٥﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
 بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾



أمر النبي ﷺ بالصبر على أذى المشركين القولي والفعل، وقد سبق النبي عليه الصلاة والسلام من الأنبياء من لقوا في سبيل تبليغ الدعوة الأذى، ومنهم داود ﷺ فقد كان في العلم والعمل والدعوة، وقد أعطي داود ﷺ قوة في العبادة، فقد كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر، وكان رجاءاً إلى الله ﷻ في جميع أموره وشئونه، سخر الله له الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، وكانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيحه إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا تستطيع الذهاب بل تقف في الهواء وتسبح معه وتحببه الجبال الشاخات ترجع معه وتسبح تبعاً له، والطير محشورة محبوسة في الهواء، كل له مطيع يسبح تبعاً له.

وجعل الله له مُلكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك، وكان أشد أهل الدنيا سلطاناً، وكان يحرسه في كل يوم أربعة آلاف، وآتاه الله النبوة والفهم والعقل والفطنة والعدل والصواب، والفصل في الخصومة ومن أسبابها الشهود والأيمان، وكان خطيباً وهو أول من قال: أما بعد، وقد امتحن الله نبيه داود ﷺ بالخصمين اللذين اختصا عنده، فتسورا على داود مكان عبادته، فخاف من دخولهما عليه، فقالا له: إنما نحن خصمان اعتدى أحدهما على الآخر فاقض بيننا بالعدل، ولا تخف الحق في حكمك علينا، ودلنا إلى أحسن طريق، فقال أحدهما إن هذا أخي له تسع وتسعون من الضأن، وليس عندي إلا ضأن واحدة، وهي الشاة فطمع فيها، وقال أعطنيها، وغلبني بحجته، فقال داود ﷺ: لقد ظلمك أخوك بسؤاله ضم نعتك إلى نعاجه، وإن من الشركاء من يعتدي بعضهم على بعض إلا من يخاف الله ويتقيه، وحكم بحكمه ولم يسمع من الخصم الثاني، وأيقن داود أنه أخطأ في حكمه بهذه الخصومة، فاستغفر ربه، وسجد تقرباً لله، ورجع إليه وتاب، وإن لداود عند ربه يوم القيامة منزلة يقربه الله ﷻ بها وحسن مرجع وهو الدرجات العاليات في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه، وأنبياء الله هم القائمون بأمر الله، ومنهم داود ﷺ استخلفه الله في الأرض، فهو خليفة الأنبياء بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأمره الله بالعدل الذي هو حكم الله بين عباده ونهاه عن اتباع هوى النفس في الحكم بين العباد لأنه سبب الضلال، وقد توعد الله تعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد، وهذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ ۚ نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ
﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْهِجَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي
أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَنَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ ۖ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ
كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِن لَّهُ عِندَنَا لُزْفٌ وَحُسْنٌ
مَّآبٍ ﴿٤٠﴾ وَآذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ۖ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ
بِنُصَبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

ما خلق الله الخلق عبثاً وإنما خلقهم ليعبده ويوحده ثم يجمعهم ليوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر الذي يكذب بالبعث والمعاد وإنما يعتقد الحياة الدنيا، فويل له يوم معاده ونشوره من النار المعدة له، ومن عدل الله وحكمته ألا يساوي بين المؤمن والكافر فلا يستون عند الله، وفي الدار الآخرة يميز بينهم يثيب فيها المطيع ويعاقب فيها الفاجر، وفي القرآن الهداية للبشرية، فمن تدبر القرآن وجد فيه الذكرى والعبرة ولا يكون ذلك لأصحاب العقول السليمة، ووهب الله لداود سليمان عليه السلام نبياً فورثه في النبوة، وهو نعم العبد لأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ، إذ عرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافيات، التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، فأشغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عن الصلاة فعقرها لوجه الله، ولم يتركها عمداً بل نسياناً كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، فقد شغل بإعداد الخيل للجهاد في سبيل الله، وقد ابتلى الله نبيه سليمان عليه السلام لأنه أقسم أن يطوف على نسائه في ليلة واحدة، وكلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق ولد، فألقى على كرسيه شق ولد، فعلم سليمان عليه السلام أن الله امتحنه بذلك واختبره فرجع إلى ربه وتاب، وقال رب اغفر لي ذنبي، وأعطني ملكاً عظيماً لا يكون مثله لأحد من البشر بعدي، فاستجاب الله له، لأنه سبحانه كثير الجود والعطاء فذل له الريح تجري بأمره تطيعه في كل أمر يأمرها به، فإنه لما عقر الخيل غضباً لله، ﷻ عوضه الله ما هو خير منها وأسرع الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر الله الشياطين فمنهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محارب وغمائل وجفان كالجواب وقدرور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر وطائفة غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ومنهم الموثقون في الأغلال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى، وهذا العطاء من الملك التام والسلطان الكامل من الله، له أن يعطي من يشاء ويحرم من يشاء بلا حساب ولا جناح في الدار الآخرة، ومن أنبياء الله عبده ورسوله أيوب عليه السلام ابتلاه الله تعالى بالضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده سليماً سوى قلبه ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله فكانت تخدم الناس بالأجرة، وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا فسلم جميع ذلك حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكاملها ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته ﷻ فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ولا مساءً إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريباً، فلما اشتد الحال وانتهى القدر المقدور تضرع إلى رب العالمين، رب إني مسني الشيطان بتعب في بدني وعذاب في مالي وولدي، وكان الشيطان سُلط عليه ابتلاء وامتحاناً، وكان يوسوس له، ويذكره بأيام الرخاء، ونسب الأذى الذي أصابه للشيطان تأديباً مع الله، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يضرب الأرض برجله، ففعل فأنبع الله عيناً وأمره أن يغسل منها فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فحضر الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهب ما كان في باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً.

وَوَهَبْنَا لَهُٗٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لَأُولَى الْأَلْبَابِ
 ٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ۚ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا
 نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُٗٓ أَوَّابٌ ٤٤ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ ۖ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ٤٥ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى
 الدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ٤٧ وَادْكُرْ
 إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ٤٨ هَذَا ذِكْرُ
 وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ ٤٩ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّنْهُنَّ لَمْ يَكُن لَّهُمُ الْآبُتُوبُ
 ٥٠ مُتَكِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ٥١
 ✽ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ ۖ أُنْرَابٌ ٥٢ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ
 الْحِسَابِ ٥٣ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَّفَادٍ ٥٤ هَذَا وَإِلَى
 لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَّآبٍ ٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسَّرُ الْمُهَادُ ٥٦ هَذَا
 فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ٥٧ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِٖٓ أَزْوَاجٌ ٥٨
 هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ ۖ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ٥٩
 قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّرَ الْقَرَارُ ٦٠
 قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعُفًا فِي النَّارِ ٦١

اغتسل أيوب عليه السلام واستبطأته زوجته وهي تنتظره لتمسك بيده، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان، فلما رآته قالت بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبلى، فوالله ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً، قال فإني أنا هو، وكان له خزانان للقمح وللشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على مكان القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في مكان الشعير حتى فاض، وأحيا الله تعالى أولاده بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم، رحمة من الله به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، فكان عبرة وعظة لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة، وكانت زوجته باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله لضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ شمراً فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه، ورجع إلى الحق، ومن أنبياء الله العابدين وعباده المرسلين إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى القوة في طاعة الله والعمل الصالح والعلم النافع والفقه في الدين، والبصيرة النافذة، ونزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها، يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها، وهم من المختارين المجتئين الأخيار، ومن أنبياء الله إسماعيل واليسع وذا الكفل صبروا على الدعوة، وتحملوا الشدائد في دين الله، اختارهم الله لنبوته، واصطفاهم من خلقه، وأمر الله رسوله ﷺ بأن يذكرهم؛ ليسلك مسلكهم في الصبر فلهم ذكر جميل في الدنيا، وشرف يذكرون به أبداً، ومع هذا الذكر الجميل حسن المرجع في الآخرة، فهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله، ورضوانه ونعيم جنته، إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها، مترعين فيها على سرر يدعون فيها بفاكهة كثيرة، مها طلبوا وجدوا وحضر كما أرادوا، والشراب أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام، وعندهم أزواجهم لا يلتفتن إلى غيرهم، متساويات في السن والعمر، فهذا وعد الله لعباده المتقين يصيرون إليه بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار، ونعيم الجنة لا فراغ له ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، وأما حال الأشقياء، الذين خرجوا عن طاعة الله وخالفوا الرسل، لهم سوء المنقلب والمراجع، جهنم يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، فبئس ما مهلوا لأنفسهم، وفرشوا لها، فشرابهم الحميم وهو الماء الحار الذي قد انتهى حره والغساق وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المؤلم، وأنواعاً من العذاب من مثل الحميم، والغساق والشيء وضده يعاقبون به، كالزehir والسوم، وهم في النار يتلأعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض فتنتقطع المودة بين الكفار، وهذه المودة التي كانت بينهم تصير عداوة فالأتباع والقادة يتناظرون في النار، ويدعو الأتباع على قادتهم الذين قادوهم إلى النار وأوصلوهم إلى بئس المنزل والمستقر والمصير أن يضاعف الله عليهم العذاب.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ
 سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
 النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ
 عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ
 إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
 لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
 مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكِكَةُ كُلُّهُمْ
 أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
 يَبٰٓٔلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ
 مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ
 ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ
 الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
 الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
 لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾

الكفار في النار يفقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وكانوا يستهزئون بهم، وهم المؤمنون، فهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فيسلون أنفسهم أنهم لم تقع أبصارهم عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، حين يناديهم أصحاب الجنة أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فهذا تخصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم بعضاً وهو حق لا مرية فيه ولا شك، وهو واقع لا محالة.

والرسول ﷺ منذر للكفار بالله المشركين به المكذبين، ينذرهم ذلك اليوم وذلك الموقف، فليوحداوا الله تعالى حتى تكتب لهم النجاة، وليعبداوا الواحد الذي قهر كل شيء وغلبه، رب السموات والأرض وهو المالك والمتصرف الغفار لعباده مع عزته وعظمته، وإرسال الله لنبيه ﷺ خبر عظيم وشأن بليغ الكفار عنه غافلون، لأن فيه نجاتهم، ولولا وحي الله لعبده لم يدر باختلاف الملائكة الأعلى، وذلك في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه، وفي الكفارات وهي: نقل الأقدام إلى الجمعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء عند الكريهات، وفي الدرجات وهي: إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة والناس نيام، وقد أعلم الله الملائكة قبل خلق آدم ﷺ بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظماً واحتراماً، وامثالاً لأمر الله ﷻ، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه فاستكبر عن السجود لآدم، الذي خلقه الله بيديه، وقد أجمع السلف على إثبات اليمين لله، فيجب إثباتها له بدون تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وهما يدان حقيقتان لله تعالى تليقان به، وخاصم إبليس ربه ﷻ في آدم، وادعى أنه خير منه، فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين والنار خير من الطين في زعمه، فخالف أمر الله، وكفر بذلك فأبعده الله وأرغم أنفه وطرده عن رحمته، وسماه "إبليس" إعلماً له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض فسأل الله البقاء إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، فأقسم بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات لهم وإدخال الشبه عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً، ثم لما علم أن كيده لا ينجح إلا في أتباعه وأحزابه من أهل الكفر والمعاصي، استثنى من لا يقدر على إضلاله ولا يجد السبيل إلى إغوائه، الذين أخلصهم الله لطاعته، وعصمهم من الشيطان الرجيم.

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ
مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ
﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ
آيَاتُهَا ٧٥
تَبَعَاتُهَا ٣٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا
لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

أقسم الله بالحق وقوله الحق ليملأن جهنم من إبليس وأتباعه من الجنة والناس أجمعين، والرسول ﷺ لا يسأل على البلاغ والنصح أجراً من عرض الحياة الدنيا، وما يزيد على ما أرسله الله به، ولا يبتغي زيادة عليه بل ما أمر به أداه، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وإنما يبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة، وما أمر بتبليغه ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، وبعد الموت يعلم الإنسان خبر وصدق الرسول ﷺ

سورة الزمر

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر سوق أهل الجنة والنار زمراً

هذا القرآن العظيم، منزل من الله تبارك وتعالى غير مخلوق، وهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، من الله المنيع الجنب، الحكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، أنزله الله بالحق يدعو إلى التوحيد ونبد الشرك، يأمر الناس بعبادة الله وحده لا شريك له، والدعوة إلى التوحيد، فالعبادة لا تصلح إلا له وحده، ليس له شريك ولا عدل ولا نديد، ولا يقبل الله من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، وعباد الأصنام من المشركين يقولون إنما يحملهم على عبادتهم للأصنام؛ أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله، ويقربوهم عنده منزلة، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها، والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه، والله سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويميز كل عامل بعمله، والله لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كفار يحدد بآياته، ومن جهل المشركين نسبة الولد إلى الله، فجاء الرد عليهم لو أراد الله الولد لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت، وهو الخالق لما في السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وهو مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، سخرهما يجريان متعاقبين، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضي يوم القيامة، وهو سبحانه غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه، مع عزته وعظمته وكبريائه.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ
 مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
 خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
 الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
 اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
 لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
 فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾
 ﴿٨﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ
 نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا
 لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
 النَّارِ ﴿٩﴾ أَمَّنْ هُوَ قَلَنْتَ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
 الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
 لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰؤُلَاءِ الْآلَبِ ﴿١٠﴾ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
 وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١﴾



خلق الله خلقه من نفس واحدة، وهو آدم ﷺ، خلقهم مع اختلاف أجناسهم وأصنافهم وألسنتهم وألوانهم، وخلق من نفس آدم ﷺ حواء ﷺ وخلق لهم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، وقدر خلق العباد في بطون أمهاتهم بأن يكون أحدهم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر، في ظلمات ثلاث ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وظلمة البطن، وهو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقهم وخلق آباءهم، وهو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك، لا تنبغي العبادة إلا له سبحانه فكيف يعبد العباد معه غيره، وأين تذهب عقولهم عن وحدانية الله، والله الغني عما سواه من المخلوقات، فلو أن أول العباد وآخرهم وإنسهم وجنهم، كانوا على أفجر قلب رجل منهم، ما نقص ذلك من ملك الله شيئاً، وهو سبحانه لا يحب الكفر من عباده ولا يأمر به، وإن كان قدره وقضاه، ويجب من عباده أن يوحده ويشكروه، فيزيدهم من فضله، ومحبة الله صفة من صفاته الفعلية، فيجب إثبات ذلك حقيقة من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكيف، ولا تمثيل، والله ﷻ موصوف بالرضا، وهو يرضى عن العمل، ويرضى عن العامل، ورضا الله صفة ثابتة لله ﷻ، وهي في نفسه، وليست شيئاً منفصلاً عنه كما يدعيه أهل التعطيل، والله لا يحاسب أحداً عن أحد، ولا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه، والجميع مرجعهم إلى الله يوم القيامة، وهو العليم بهم، لا تخفى عليه خافية.

والإنسان عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، وفي حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، فهو في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له شركاء، فليتمتع بكفره في الدنيا، فهو من أهل النار، وهذا وعيد شديد، فمن أشرك بالله وجعل له أنداداً لا يستوي عند الله بمن حقق التوحيد وعبد الله، وأخلص العبودية لله، خاشعاً في صلاته آناء الليل وأطراف النهار في حال سجوده وفي حال قيامه، خائف من الله، راجٍ لثواب الله ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، فعند الموت لا يجتمعان في قلب عبد إلا أعطاه الله ﷻ الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه، ولا يستوي أهل العلم الراسخين الذين يخشون ربهم، ويحملون العلم بشريعة الله، والذين يجهلون الأحكام، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، ولا يعلم الفرق بين هذا وهذا إلا من له عقل، والمؤمنون الصادقون الذين استقاموا على طاعة ربهم وتقواه، وأحسنوا في أعمالهم، لهم في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ومن تسر عليه فعل الطاعات، والإحسان في وطنه، فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة الله والعمل بما أمر به، والترك لما نهى عنه، والصابرون على طاعة ربهم يوفيه الله أجرهم في مقابلة صبرهم، بما لا يقدر على حصره حاصر، ولا يستطيع حسبانه حاسب.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
 أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ
 قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا
 ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ
 وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَعْبَادُونَ فَاتَّقُونَ ﴿١٦﴾
 وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
 فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
 أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾
 أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾
 لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ
 أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
 يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ، ثُمَّ يَهِيْجُ فَنَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
 يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

أمر الرسول ﷺ بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، والأمر لأمته من بعده، فهو أول المسلمين من أمته ﷺ، والمعصية سبب لعذاب الله، ولئن كان النبي ﷺ يخاف من عقوبة الله، فغيره بطريق الأولى والأحرى أن يخاف، وأشد الذنوب الشرك بالله، والواجب إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ومن أشرك فهو الخاسر يوم القيامة، يخسر نفسه فيوقعها في النار، ويخسر أهله فيتفارقون فلا لقاء لهم أبدًا، سواء ذهب أهلهم إلى الجنة، وذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، وهذا هو الخسار البين الظاهر الواضح، فالعذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم يظلمهم، ويغطيهم من كل جانب، وذلك موجب للخوف، الذي يقود المسلم أن يتبرأ من المشركين وأعمالهم، فيحقق التوحيد ويعمل بطاعة الله، ويتقي الله في جميع أحواله، ومن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، الذين يستمعون القول فيفهمونه ويعملون بما فيه، وهم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، وهم أصحاب العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، ومن كتب الله عليه الشقاوة لا يقدر أحد أن ينقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك، فلا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضل الله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضل له والسعداء لهم غرف في الجنة، وهي القصور الشاهقة، طباق فوق طباق، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات، يرى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها، وأهل الجنة يتراءون تلك القصور كما يتراءى الكوكب في السماء، تسلك الأنهار بين خلال تلك القصور، كل ذلك وعد وعده الله عباده المؤمنين، وأصل الماء الذي في الأرض من السماء، يكمن في الأرض، ثم يصرفه الله في أجزاء الأرض كما يشاء، وينبعه عيونًا ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ فيخرج الله بالماء النازل من السماء والتابع من الأرض زرعًا، مختلفًا أشكاله وطعومه وروائح ومنافعه، ثم بعد نضارته وشبابه يبس ويصفر، فيعود يابسًا يتحطم، وفي ذلك ذكرى للذين يتذكرون فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خضرة نضرة حسنة، ثم تعود عجوزًا شوهاء، والشباب يعود شيخًا هرمًا كبيرًا ضعيفًا قد خالطه اليبس، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيرًا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زرعًا وثمارًا، ثم يكون بعد ذلك حطامًا.

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ
 لِلْفَاسِقِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُِّينٍ ﴿٢٢﴾
 اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ
 جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
 إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
 يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سَوْءَ
 الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ
 ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
 لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
 الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي
 هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا
 غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ
 شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
 الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ
 ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّصُونَ ﴿٣١﴾

لا يستوي عند الله من وسع الله قلبه لقبول الحق، وفتحه للاهتداء إلى سبيل الخير، ففرح بالإسلام، واطمأن إليه ووجد السعادة في طاعة الله، فهو في أنوار الطاعة، ومن طبع على قلبه وغلظ وجفا عن قبول ذكر الله، ويعد عن الحق فلم يهتد لقسوته، فهو في ظلمات الكفر والشك والريب، والضلال البعيد عن الحق، والقرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم ﷺ هو أعظم كتاب، أنزل الله فيه الهداية للبشرية، وهو المعجز بآياته، يشبه بعضه بعضاً في الإعجاز والبلاغة، وفي الآي والحروف، فالآية تشبه الآية، والكلمة تشبه الكلمة، والحرف يشبه الحرف، ويصدق بعضه بعضاً، فليس فيه اختلاف ولا تناقض، كررت فيه القصص والفرائض والحدود والثواب والعقاب، تقشع جلود الأبرار عند سماعهم كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، وإعظماً له وتعجباً من حسنه، وبلاغته ثم تسكن قلوبهم، وتطمئن إلى ذكر الله لينة غير منقبضة، لما يرجون ويؤمنون من رحمة الله ولطفه، وهذه صفة من هداية الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، لا يستوي عند الله من يأتي آمناً يوم القيامة، ومن يأتي يوم القيامة بقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه سوء العذاب لكون يده قد صارت مغلوطة إلى عنقه، ويقرّع فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ذوقوا عقوبة ما كسبتم من الأعمال السيئة، فقد كذبت القرون الماضية المكذبة للرسول، فأهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، فأذاقهم الله الحزني في الدنيا بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين بهم، فليحذر الذين يكذبون أشرف الرسل وخاتم الأنبياء، والذي أعد الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا، ولقد بين الله للناس بضرب الأمثال في القرآن، لأن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان، فهو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وأنزله لعل العباد يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد، وضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ورجلاً خالصاً لرجل لا يملكه أحد غيره، لا يستويان، فكذا لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فأين هذا من هذا؟!

فالحمد لله، على إقامة الحجة عليهم، فإن أكثر الناس لا يعلمون، ولذلك يشركون بالله، وقد كتب الله الموت على كل نفس، فقد كتب الموت على أشرف نفس، وهي نفس الرسول ﷺ، فالجميع سينتقلون من هذه الدار لا محالة وسيجتمعون عند الله في الدار الآخرة، ويختصمون فيما هم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ، فيفصل بينهم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

﴿٢٢﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ
 إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ ﴿٢٣﴾
 جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٤﴾
 لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ
 لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ
 بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ ﴿٢٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ
 عَبْدَهُ ۚ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ
 اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۚ ﴿٢٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّضِلٍّ
 أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۚ ﴿٢٧﴾ وَلَٰئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ
 أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ
 اللَّهُ ۚ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۚ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا
 عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ۚ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾
 مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

لا أحد أظلم ممن كذب على الله، وكذَّب رسول الله ﷺ؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل، قالوا الباطل وردوا الحق، فالمشركون افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا الله ولدًا تعالى الله عن قوهم علوًا كبيرًا، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلنار منزل ومقام الجاحدين المكذبين، والرسول ﷺ جاء بالصدق والحق وصدق المرسلين، وآمن بها أنزل إليه من ربه، والمؤمنون يقولون الحق ويعملون به، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله هم في الجنة، مهما طلبوا وجدوا، يستر الله عليهم ذنوبهم بالمغفرة، ويجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوي، والله سبحانه يكفي عبده إذا توكل عليه، واعتصم به، وقد كفى الله عبده ونبيه محمدًا ﷺ من كيد الكائدين، ومن كفاية الله لعباده كفايتهم في أرزاقهم، وقد كان المشركون يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وألهتهم التي يدعونها من دون الله؛ جهلاً منهم وضلالاً؛ فكفاه الله وآواه، وهداه، ومن يهد الله فلا مضل له، ولو اجتمع عليه الخلق جميعاً، ومن أضله الله فلن تجد له هاديًا، فالله العزيز، من استند إلى جنبه ولجأ إلى بابه أعزه؛ لأنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ، والمشركون يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً؛ فما يعبد المشركون من دون الله لا يكشف الضر، ولا يجلب النفع ولا يستطيع شيئاً من الأمر.

فالعبد المؤمن لا يسأل إلا الله، وإذا استعان لا يستعين إلا بالله، ولو أن الأمة اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يكتبه الله عليه لم يضروه، ولو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له لم ينفعوه، رفعت الأقلام وجفت الصحف، فالله كاف عبده، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون، فمن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليقت الله، والرسل يعملون ما أمروا به من البلاغ والدعوة، والمشركون مكذبون ومعاندون وسيعلم الفريقين يوم القيامة ما هم عليه وسيجني المكذبون عاقبة كفرهم وعنادهم في الدنيا ذلة وصغاراً وفي الآخرة عذاباً يذهم ويجزيم، وهو عذاب دائم مستمر، لا محيد له عنه، فقد جعل الله الذلة والصغار على من خالف هدي النبي ﷺ وكفر برسالته، ولو كان له نصيب من الدنيا، فهو في ذل مربوط بذل الآخرة.

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ
 فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
 بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي
 لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمُسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ
 وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ أُتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ
 قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾
 قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ
 إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ
 قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ
 دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ
 فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

أنزل الله هذا القرآن على رسوله محمد ﷺ لينذر جميع الخلق من الإنس والجن فمن كتبت له الهداية فإنها يعود نفع ذلك إلى نفسه، ومن كتبت عليه الضلالة؛ فإنها يرجع وبال ذلك على نفسه، والرسول ﷺ ليس بموكل بهدایتهم، إنما عليه البلاغ، كل نواصي العباد بيد الله، وهو المتصرف في الوجود بما يشاء، يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، والمسلم إذا أوى إلى فراشه قال "باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"، فالله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فيمسك أنفس الأموات عنده، ويرسل أنفس الأحياء، إلى بقية أجلها، وفي ذلك آيات لقوم يتفكرون في خلق الله ويعتبرون.

والمشركون اتخذوا شفعاء من دون الله، من الأصنام والأنداد، من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير، وزعموا أنهم اتخذوها شفعاء لهم عند الله، والشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، وهو المتصرف في جميع خلقه، وإليه ترجع الخلائق يوم القيامة، فيحكم بينهم بعده، ويجزي كلاً بعمله، فهؤلاء المشركون إذا قيل لا إله إلا الله انقبضت ونفرت قلوبهم وكفرت واستكبرت عن المتابعة والانقياد لها، فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ وإذا ذكرت الأصنام والأنداد إذا هم يفرحون ويسرون، فهم يحبون الشرك وينفرون من التوحيد، وأما الموحدون المخلصون لله العبادة يشهدون أن الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض على غير مثال سبق، يعلم السر والعلانية، وهو الذي يحكم بين عباده في ما كانوا فيه يختلفون في دنياهم، ويفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم، والمسلم يدعو ربه، "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"، فالهداية إلى الحق مطلب كل المتقين، يدعون ربهم للهداية إلى الطريق المستقيم والمنهج القويم، ولا سيما في وقت الفتن والاختلاف والنزاع، حين تعم فتن الشبهات والشهوات، ويعجب كل ذي رأي برأيه، فيفرع المؤمن إلى ربه ليستلهم منه التوفيق للمنهج الحق، منهج محمد ﷺ، ويوم القيامة يتمنى المشركون أن لو كان لهم جميع ملك الأرض وضعفه معه، ليفتدوا بهذا الملك أنفسهم من العذاب الذي أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في باهم ولا في حسابهم.

وَبَدَأْ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ
نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ
عَنَّهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
❖ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن
رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ
إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي
عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لِمِنَ السَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾

يوم القيامة حين يبصر المشركون والمكذبون العذاب، يظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ويحيط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

والإنسان في حال الضراء يضرع إلى الله ﷻ وينيب إليه ويدعوه، وإذا أعطاه الله نعمة بغى وطغى، وقال: يعلم الله أي استحق ذلك، ولولا أي عند الله تعالى كريم لما أعطاني هذا، وما علم المسكين أن ذلك فتنة واختبار، ليختبره فيما أنعم عليه، أيطيع أم يعصي، مع علم الله المتقدم بذلك، ولكن من جهل الإنسان أن يقول ما يقول، ويدعي ما يدعي، وقد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم، فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، فأصابهم عاقبة سيئاتهم، وكذلك سيصيب كل من ظلم نفسه بالشرك كما أصاب أولئك، ولن يعجزوا الله، فهو القادر عليهم، وهو الذي خلقهم وأوجدهم، وهو الذي يوسع الرزق على قوم ويضيقه على آخرين، وفي ذلك عبرٌ وحججٌ لقوم يؤمنون، والله يدعو جميع عباده العصاة إلى التوبة والإنابة، وأعلمهم بأنه يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، والله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، والله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت عنه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح، ولا يقنط عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، فهو الذي يقبل التوبة عن عباده، وأمر الله عباده بالرجوع إليه وأن يستسلموا له، ويبادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة؛ فمن تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه، والله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، وينزل به الموت، فالعبد يبادر للتوبة ويتبع هدي القرآن العظيم، من قبل أن يحل العذاب به من حيث لا يعلم، ومن قبل أن يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ، ويتحسر على عمله في الدنيا كيف عاش ساخراً مستهزئاً، غير موقن مصدق، فكل مكذب سيتحسر على عمله في الدنيا، فأهل النار يرون مقاعدهم من الجنة فيقولون لو أن الله هدانا لفتكون عليهم حسرة، حتى العصاة من المؤمنين يتحسرون على فوات حياتهم بالمعصية، حتى أهل الجنة يتمنون، أن لو ازدادوا من العمل الصالح، ولا يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله تعالى فيها.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
 أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ
 مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
 وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
 تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
 بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ
 خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ
 هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا
 الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ
 أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ
 فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
 وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ
 مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

حين يحشر الخلائق يتمنى الكفار لو أن الله يردهم إلى الحياة الدنيا ليكونوا من المؤمنين المصدقين، وقد طلب منهم ذلك في الدنيا فكفروا وجحدوا؛ ففي ذلك اليوم يتمنون الهداية إلى الإسلام، ولا ينفعهم ذلك، ويتحسرون على عدم تصديق آيات الله واتباع رسله، فجاء الرد عليهم قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آيات الله في الدار الدنيا، وقامت الحجج عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها، وفي ذلك اليوم الذي تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، فالذين كذبوا على الله في دعواهم أن له شريكاً وولداً وجوهم مسودة بكذبهم وافترائهم، فجهنهم كافية لهم سجنًا وموئلاً لهم فيها دار الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق، فالمتكبرون عن الحق يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس، يعلمهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا من النار في واد يقال له (بولس) من نار الأنيار، ويسقون عصارة أهل النار، ومن طينة الخبال، وأما الذين سبقت لهم السعادة والفوز عند الله، فلهم الفوز في الآخرة لا يمسه يوم القيامة عذاب ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزون عن كل شر، مؤملون كل خير؛ فالله خالق الأشياء كلها، وربها ومليكيها، والمتصرف فيها، وكل تحت تديره وقهره، بيده خزائن السموات والأرض، وأزمنة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ والأشياء كلها موكولة إليه، فهو القائم بحفظها، وتديرها من غير مشارك له، والذين كفروا بالحجج والبراهين الدالة على استحقاق الله للعبادة هم الخاسرون في الآخرة، ومن جهل المشركين أنهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدون معه إلهه، فأمروه بالشرك، وهو الذي جاء بالتوحيد، وقد جاءه الوحي بتحريم الشرك وهو محبط للأعمال، وجاءت شرائع الأنبياء قبل النبي ﷺ بتحريم الشرك ووجوب التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، لا شريك له، وما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته، ولو قدره حق قدره ما كذبوه، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، ففي يوم القيامة يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ وأهل السنة والجماعة يشبثون اليدين لله ﷻ، وكلتا يديه يمين، وقد أجمع السلف على إثبات اليدين لله، فيجب إثباتهما له بدون تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وهما يدان حقيقتان لله تعالى تليقان به، وقد فسرهما أهل التعطيل بالنعمة أو القدرة ونحوها، وهذا تعطيل للصفات.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ

﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ

بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا

فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ

يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ

﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى

الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ

الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ

خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ

نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾

من أهوال يوم القيامة، ما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فالنفخ في الصور، ثلاث نفخات، نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث، ونفخة الصعق هي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء، ويقول لمن الملك اليوم ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول لله الواحد القهار الذي قد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء، ثم يحيي الله أول من يحيي إسرئيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث، فيصير الخلق أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفأناً، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، وأضواء الأرض يوم القيامة بتجلي الحق تبارك وتعالى للخلائق لفصل القضاء ووضع كتاب الأعمال، وجيء بالنبیین يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم، والشهداء من الملائكة الحفظة على أفعال العباد من خير وشر، وقضي بينهم بالعدل، فلا يظلم أحدٌ في ذلك اليوم، ويوفى كل عامل بعمله، من خير أو شر، ويساق الأشقياء الكفار إلى النار سوقاً عنيقاً بجزر وتهديد ووعيد، يدفعون إليها دفعاً، وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي، منهم من يشي على وجهه، وإذا وصلوا إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية على وجه التفرع والتوبيخ والتنكيل، ألم يأتكم رسل من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم بلى جاءونا وأندرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، فرجعوا على أنفسهم باللامه والندامة، وكل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ فالكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بها حكم به العدل الخبير عليهم؛ يدخلون أبواب جهنم ماكين فيها لا خروج لهم منها، ولا زوال لهم عنها، فبئس المصير وبئس المقييل لهم، بسبب تكبرهم في الدنيا، وإبائهم عن اتباع الحق، فهو الذي صيرهم إلى ما هم فيه، فبئس الحال وبئس المال، وأما السعداء المؤمنون يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة جماعة بعد جماعة، المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم، الأنبياء مع الأنبياء والصديقون مع أشكائهم، والشهداء مع أزواجهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنفهم، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً، فإذا وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قطرة بين الجنة والنار، فيقتصص لهم في مظالم كانت بينهم في الدنيا؛ حتى إذا هذبوا وثقوا أذن لهم في دخول الجنة، ورسول الله ﷺ أول من يقرع باب الجنة، وأول زمرة تدخل الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها، آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، وشرحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيًا، ثم الذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة، وأهل الجنة أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء، تلقاهم الملائكة الحزنة بالبشارة والسلام والثناء، وتقول لهم طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، فادخلوها ماكين فيها أبداً، لا تبغون عنها حولاً، ويقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك الحمد لله الذي صدقنا وعده الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا، الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، وأورثنا أرض الجنة نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء، فنعم الأجر أجرنا على عملنا، نسأل الله أن يكتب لنا الجنة ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ ﴿٧﴾



إذا نزل أهل الجنة والنار كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له والله هو العادل في ذلك الذي لا يجوز ولا يظلم، والملائكة يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وهم محدقون من حول عرشه المجيد وقد فصل بين العباد، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ونطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه الله رب العالمين، بالحمد في حكمه وعدله؛ فجميع المخلوقات تشهد له بالحمد، فافتتح الخلق بالحمد واختتم بالحمد.

سورة غافر

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر اسم الله تعالى غافر الذنب فيها

افتتحت السورة بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن الكريم، الذي أنزله الله لهداية البشرية، فهو تنزيل من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنباه، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

يعفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه، وهو شديد العقاب لمن غمر وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله، وبغى، وهو ذو السعة والغنى والخير الكثير؛ فهو المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المنن والإنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه، وإليه المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، ولا يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان، إلا الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه؛ فهم وإن نعموا في الأموال وزهرة الحياة الدنيا، فهو متاع يسير، ووقت قصير، ومصيرهم بعد ذلك إلى النار، فالمكذبون للأنبياء والرسل كانت عاقبتهم الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة.

فقوم نوح كذبوا بنبيلهم وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، والأحزاب من كل أمة كفروا وكذبوا، وحرصوا على قتل أنبيائهم بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، وأثاروا الشبه ليردوا بها الحق الواضح الجلي، فأهلكهم الله على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، فكان عذاب الله لهم، ونكاله بهم شديدًا موجعًا مؤلمًا، ووجبت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، وكذلك على المكذبين ممن كذب بالنبي الخاتم محمد ﷺ وأما المؤمنون المصدقون فلهم البشري في الدنيا والآخرة فإن الملائكة المقربين من حملة العرش، ومن حول العرش من الكروبيين، المسبحون بحمد ربهم، الذين يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح، والخاشعون لله، الأذلاء بين يديه، يستغفرون لأهل الإيثار من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقد قبض الله سبحانه ملائكته المقربين بالدعاء لهم بظهور الغيب، ويقولون إذا استغفروا للذين آمنوا، ربنا إن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، فاصفح عن المسيئين، إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ورحمتهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجه الأليم.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ
 مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ
 يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ
 أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾
 قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا
 فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ
 اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا فَاْلْحُكْمُ لِلَّهِ
 الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ
 لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾
 فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾
 رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى
 عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

من دعاء الملائكة للمؤمنين: ربنا اجمعهم مع بنهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، إنك أنت العزيز الذي لا يناع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك، وقهم وبال السيئات من العقوبات، ومن وقاه الله عقوبة السيئة يوم القيامة؛ فقد لطف به ونجاه من العقوبة، والكفار وهم في غمرات النيران يتلظئون، وقد باشرهم من عذاب الله ما لا قبل لأحد به، فمقتوا أنفسهم وأبعضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التي كانت سبب دخولهم إلى النار، تخبرهم الملائكة إخباراً عالياً، ينادونهم به نداءً، بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة، فقالوا ربنا كنا عدماً فأحييتنا وأوجدتنا، ثم أمتنا، ثم أحييتنا في الآخرة، فارجعنا للدنيا لنعمل صالحاً، فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعابوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسبها وأغلاها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، فلا رجعة أبداً، وقد تلطفوا في السؤال، وقدّموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي اعترافهم بقدرة الله العظيمة، والاعتراف بالذنوب، فأجيبوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، لأن سجاياهم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تحجده وتنفيه؛ فهم يكفرون بالله، ويحدون التوحيد، ويشركون بالله، فالحكم لله الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يبور، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو، هو الذي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، وينزل المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائح وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، وما يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها، إلا من هو بصير منيب إلى الله، ﷻ، وأمر الله عباده بالإخلاص له وحده بالعبادة والدعاء، ومخالفة المشركين في مسلكهم ومذهبهم، فهو سبحانه رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة، وهو خالق العرش ومالكه، والعرش العظيم أعلى المخلوقات كالسقف لها، وأعظمها، ينزل الوحي الذي تحيا به القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح على أنبيائه ورسله لينذروا بالوحي، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض، يلتقي العباد، يلتقي الظالم والمظلوم والخصوم، يوم يخرجون من قبورهم ويظهرون لا يسترهم شيء، لا يخفى على الله من أعمالهم وأحوالهم شيء، والملك له سبحانه الواحد القهار، الذي قهر الخلق بالموت.

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ
 اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ
 لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
 يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾
 وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
 بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ
 قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
 وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُوتَ
 فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ
 عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
 نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾



من عدل الله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيدة واحدة؛ ويقول: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"، والله يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، وأمر الله نبيه ﷺ أن ينذر أمته يوم الآزفة وهو اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، يوم تقف القلوب في الخناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه باكين، ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير، قد أحصيت عليهم أعمالهم أحصاها العليم الخبير، فعلمه التام محيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ فليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراهم، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

والله يحكم بالعدل، يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيدة السيئة، والأصنام والأوثان والأنداد لا تملك شيئاً ولا تحكم بشيء، والله سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

ألم ينظر المكذبون برسالة محمد ﷺ ما حل بالأمم المكذبة بالأنبياء، من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، وأثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديار ما لا يقدر عليه هؤلاء.

ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلمهم، وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق، فقد جاءتهم رسلهم بالذلائل الواضحات والبراهين القاطعات، فاجحدوا، فأهلكهم الله ودمر عليهم وللكافرين أمثالها، فالله ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وعقابه أليم شديد وجيع، أعاذنا الله منه، وقد أرسل الله موسى بن عمران ﷺ بالآيات البيّنات، والذلائل الواضحات؛ والحجة والبرهان إلى فرعون ملك القبط بالديار المصرية، وهامان وزيره في مملكته، وقارون، وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة، فكذبوه وجعلوه ساحراً كذاباً بأن الله أرسله، فلما جاءهم بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، أمر فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى ﷺ، وما مكروهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
 وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
 لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
 اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا
 فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
 يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمُ
 لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ
 بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا
 أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمُ إِنِّي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ
 وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾
 وَيَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مَدِيرِينَ
 مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

بعد دعوة موسى ﷺ لفرعون، عزم فرعون على قتل موسى ﷺ، وقال ليدع ربه وهذا في غاية الجحود والعناد، وخشي فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، فقال موسى ﷺ: استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله؛ فهو متكبر عن الحق مجرم؛ وقال رجل مؤمن من آل فرعون، وهو ابن عم فرعون، وهو الذي نجا مع موسى، ولم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، وقد كان يكتنم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ذروني أقتل موسى، فأخذت الرجل غصبة لله ﷻ، وقال أتقتلون رجلاً لأجل أن يقول ربي الله وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق، ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقاً وقد أذيتموه يصيبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً، فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه، ولو كان هذا الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بيتاً، يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، وتكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله، وقال المؤمن مخذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم، قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتكم رسوله، فلا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء، فقال فرعون لقومه، راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة، فغش رعيته وما نصحبهم، وما دهم إلى طريق الحق والصدق والرشد، بل دهم إلى التكذيب والكفر، وحذر مؤمن آل فرعون قومه بأس الله في الدنيا والآخرة، فيصيبهم ما أصاب الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راداً، ولا صده عنهم صاداً، وإننا أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره، وحذرهم يوم التناد يوم القيامة، يوم ينادي بعضهم بعضاً إذا جيء بجهنم ذهب الناس فرازاً، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، يوم ينادي كل قوم بأعمالهم، ينادي أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار، يوم يولي المجرمون ذاهبين هارين، ما لهم مانع يمنعهم من بأس الله وعذابه، ومن يضلله الله فلا هادي له غيره.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ
 مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ
 مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
 مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
 أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ
 يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
 يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسَبَبَ
 السَّمَوَاتِ فَاطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا
 وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ
 وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي
 ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
 يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتْعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ
 دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا
 وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

بعث الله في أهل مصر رسولاً من قبل موسى، وهو يوسف عليه السلام، وكان عزيز أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله أمته القبط، فما أطاعوه إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، فكانوا في شك مما جاءهم به حتى إذا مات قالوا لن يبعث الله من بعده رسولاً، لكفرهم وتكذيبهم، وكفروا به في حياته، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته، ولا يفضل الله إلا من هو مسرف في معاصي الله مستكثر منها مراتب في دين الله شاكٍّ في وحدانيته، ووعدته، ووعدته، والله يبغض الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجة بغير دليل وحجة معهم من الله، والمؤمنون يبغضون من تكون هذه صفته؛ فإن من كانت هذه صفته، يطع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً، ولا ينكر منكراً؛ وهو متكبر على اتباع الحق، ومن عتو فرعون وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه السلام أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له قصرًا عاليًا من الآجر المضروب من الطين المشوي، لعله يصل أبواب السموات، فيطلع إلى إله موسى، فقد كَذَّبَ موسى في أن الله تعالى أرسله إليه، وقد زُيِّنَ لفرعون سوء عمله بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه السلام وحرَمَ الهداية، وصد الرعية عن الإيمان بالله، وسيكون مكروهه وكيدته في خسار وهلاك.

وقال المؤمن لقومه من تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، اقتدوا بي في الدين أهدكم طريق الجنة، فإن هذه الحياة الدنيا قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتزول وتضمحل، والمؤمن في الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها قطرة أبداً، وخشي النبي صلى الله عليه وسلم على أمته أن تبسط لهم الدنيا كما بسطت على من كان قبلهم فيتنافسوها كما تنافسوها وتهلكهم كما أهلكتهم، والمسلم يستعد للآخرة والعمل لها، فيكون في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل، ويعد نفسه من أصحاب القبور، إذا أمسى لا ينتظر الصباح وإذا أصبح لا ينتظر المساء ويأخذ من صحته لمرضه ومن حياته لموته، ولن تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيها علم؟

والآخرة هي الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت، فلا يجزى إلا مثلها، ولا يعذب إلا بقدرها، ومن عمل عملاً صالحاً مع كونه مؤمناً بالله وبما جاءت به رسل الله يدخل الجنة يرزق فيها بغير تقدير، ومحاسبة، بل يشبهه الله ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاد.

* وَيَقَوْمٍ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى
 النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ
 لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ
 أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ
 وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
 ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ
 مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ
 يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا
 آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي
 النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا
 لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ
 ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ
 قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ
 جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

الأنبياء والرسل ومن بعدهم من الدعاة إلى الله يدعون الناس إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسله، وهذه دعوة مؤمن آل فرعون دعا قومه إلى الإيثار فدعوه إلى الشرك، دعاهم إلى العزيز في انتقامه من كفر، والغفار لذنب من آمن به وتاب إليه، فالحق الذي لا مرية فيه أن دعوتهم إلى الشرك باطلة، وليس لصاحبه حظ في الدنيا ولا في الآخرة، وليس للأصنام والأنداد استجابة دعوة تنفع، وليس لها دعوة توجب لها الألوهية في الدنيا، ولا في الآخرة، وليس لها شفاعة، والرجع للجميع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازي كلا بعمله؛ فالمشركون والمستكثرون من معاصي الله أصحاب النار خالدين فيها بإسرافهم، وشركهم بالله.

وذكرهم مؤمن آل فرعون أنهم سوف يعلمون صدق ما أمرهم به ونهاهم عنه، ونصحه لهم، وسيدكرونه، ويندمون حيث لا ينفعهم الندم، ثم أعلن توكله على الله واستعانت به، وقاطع قومه وباعدهم، والله بصير بالعباد فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

فوقى الله مؤمن آل فرعون ما أرادوا به من المكر السيئ، وما أرادوه به من الشر في الدنيا نجاه الله مع موسى عليه السلام وأما في الآخرة فبالجنة، ونزل بآل فرعون العذاب بالغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ في أشد العذاب ألماً وأعظمه نكالاً، وفي ذلك دلالة على عذاب البرزخ في القبور، وفي النار يتحاج أهل النار، ويتخاصمون، وفرعون وقومه من جملتهم، فيقول الأتباع للقادة والسادة والكبراء إنا أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، فهل تتحملون عنا قسطاً من العذاب، فيقول السادة والكبراء لا نتحمل عنكم شيئاً، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال، إن الله قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، فيتبرأ المتبوع من التابع، وإن كان يحمل وزره يوم القيامة، فإن من سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، فمن سن شراً فاستن به كان عليه وزره ومثل أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً، لأنه إمام ضلالة وغواية، وهم في العذاب مشتركون وما كثون لا يخفف عنهم، فهم يسألون الحزنة أن يدعوا لهم الله أن يخفف عنهم ولو يوماً واحداً من العذاب، لما يجدونه من أليم العقاب والنكال والعذاب، وهم يعلمون أنهم مستحقون لذلك لكفرهم في الدنيا وشركهم وتماديهم في الباطل، وسخريتهم بالرسول وبدعوتهم إلى التوحيد.

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا
 بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
 ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ
 وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
 الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى
 وَذِكْرَى لِلأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِن وَعْدَ اللَّهِ
 حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ
 وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ
 اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
 مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ
 خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾
 وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

لما علم أهل النار أن الله سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، سألوا الخزنة، أن يدعوهم الله أن يخفف عنهم ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة ردّاً عليهم، أو لم تقوم عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل، قالوا بلى، قالوا فادعوا أنتم لأنفسكم، فتحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ودعاء الكافرين لا يتقبل ولا يستجاب، وكتب الله النصر لأنبيائه ورسله، والانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، فإن من عادى وليّاً لله فقد بارز الله بالحرب؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم وأمثالهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحداً، ونصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهرائي قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلم له، وقتل صناديدهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، ففرت عنه ببليده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة؛ وفي يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل، يوم لا يقبل من المشركين عذر ولا فدية، ولهم الإبعاد والطرده من الرحمة، ولهم النار بشس المنزل والمقيل، ولقد بعث الله موسى ﷺ بالهدى والنور، وجعل لبني إسرائيل العاقبة، وأورثهم بلاد فرعون وأمواله وأرضه بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى ﷺ وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة هدى وذكرى لأولي العقول الصالحة السليمة، ووعد الله نبيه محمداً ﷺ بالنصر، وأمره بالصبر، ووعد الله بإعلاء كلمته، وجعل العاقبة له ولمن اتبعه، والله لا يخلف الميعاد، وأمره بالاستغفار، لأنه سبب الانتصار، وفي ذلك تنبيه للأمة بلزوم الاستغفار والتسبيح والحمد في أواخر النهار وأوائل الليل، وأوائل النهار وأواخر الليل، وأما الذين يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، فليس في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، فنعوذ بالله من حال مثل هؤلاء، والله السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة، وذلك سهل عليه، يسير لديه؛ لأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدءاً وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى، ولكن الناس لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترفوا بها هو أولى مما أنكروا، وكما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، فما أقل ما يتذكر كثير من الناس.

إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ
 إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
 دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَلِيلَ لِتَسْكُنُوا
 فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَمُ
 اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَن تُوَفَّكُونَ
 كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٢﴾
 اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ
 بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ
 الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ
 إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي
 الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

قضى الله تعالى وقَدَّرَ بانتهاء هذا العالم الدنيوي، وأن الساعة كائنة واقعة لا شك فيها ولكن أكثر الناس لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها، لقصور أفهامهم، وضعف عقولهم عن إدراك الحجة، والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث، فعلى العباد الأخذ بالسبيل الموصلة إلى السعادة في دار الخلود، فقد حث الله عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، والدعاء هو العبادة، ومن لم يدع الله ﷻ غضب عليه، ففعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا ينسر بعدها أبدًا، ومن استكبر عن دعاء الله وتوحيده فإن ماله جهنم صاعراً فيها، ومن نعم الله على خلقه أن جعل الليل يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في العايش بالنهار، وجعل النهار مضيئاً، ليتصرفوا فيه بالأشغال، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات، وهذا من فضل الله على الناس الموجب لشكر نعمه، ولكن أكثر الناس لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ﷻ هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، فكيف يعبدون غيره من الأصنام، التي لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة منحوتة، وكما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك كذب الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهووى، وجحدوا حجج الله وآياته.

ومن نعم الله على عباده أن جعل لهم الأرض، بساطاً مهاداً يعيشون عليها، ويتصرفون فيها، ويمشون في مناكبها، وأرسلها بالجمال لثلا تميد بهم، والسماء سقفاً للعالم محفوظاً، وخلقهم في أحسن الأشكال، ومنحهم أكمل الصور في أحسن تقويم، ورزقهم من المأكول والمشرب في الدنيا، خلق الدار، والسكان، والأرزاق فهو الخالق الرازق؛ فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم، وهو الحي أزلًا وأبدًا، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، لا نظير له ولا عدل له، مخلصين له الدين مقررين له بالتوحيد.

وقد أمر الله عباده بالتوحيد، ونهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، فقد جاءت الأدلة العقلية والنقلية، بوجوب التوحيد والاستسلام لله بالانقياد، والخضوع، فالتوحيد من أوجب الواجبات، وهو أول واجب على المكلفين، ومن فضل التوحيد أن من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، ولا يخلد أحد في النار من أهل الإيمان بل يخرج من النار من في قلبه حبة من إيمان أو مثقال ذرة، ومن عمل ملء الأرض خطايا ثم لقي الله لا يشرك به جعل الله له مثلها مغفرة.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا
شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلَنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا
قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصَرَّفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ
مَا كُنتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ
نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا
نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾

الله خلق عباده من تراب، فخلق آدم ﷺ من تراب ثم جعل نسله من ماء مهين، يقلبهم الله في أطوار، من النطفة إلى العلقة، ثم يخرجهم الله أطفالاً، ثم ينقلهم من الضعف إلى القوة والعقل، فيكبروا شيئاً فشيئاً، ثم يبلغوا غاية الكمال، ثم يبدأ بالضعف فمنهم من يموت من قبل الشيخوخة، ومنهم من يقضي الله له بعمر يبلغ أجله فيه، كل ذلك دال على وحدانية الله وحده لا شريك له، فيعقل العباد توحيد ربهم، وقدرته البالغة في خلقهم على هذه الأطوار المختلفة ويعقلوا أمر ربهم وتديره وتقديره القادر على الإحياء والإماتة المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، وإذا قضى بالأمر فإنما يقول له كن فيكون، لا يخالف ولا يبايع، بل ما شاء كان لا محالة.

ومن ضلال المكذبين بآيات الله، والمجادلين في الحق والباطل، صرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، فكذبوا بالقرآن وبما أرسلت به الرسل من الهدى والبيان، فسيعلمون حين تكون الأغلال في أعناقهم والسلاسل متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ثم توقد عليهم النار، أعادنا الله منها، ويقال لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ فيقولون ذهبوا فلم ينفعونا، وجحدوا عبادة الأصنام، فتقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم ويطركم، واستكباركم على الحق، وتكذيبكم، فمن آثار فرحهم بالباطل تطاولهم على الرسول ﷺ ومن المرح بالباطل استهزأهم بالرسول ﷺ والمؤمنين، ويقال لهم ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لهم خالدين فيها فبئس المنزل والمقبل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه، وأمر الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز له ما وعده من النصر والظفر على قومه، وجعل العاقبة له ولمن اتبعه في الدنيا والآخرة، فإما يرى ذلك في الدنيا، أو بعد مماته وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا في يوم بدر، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في أيام حياته ﷺ، وتوفاه الله وقد أقر عينه بنصرة الإسلام، وظهور دين الله، فخلفه أصحابه ونشروا دين الله تعالى، حتى امتدت دولة الإسلام في كل مكان، وسيلبغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر وأهله، وسيرجع الكفار إلى الله فيذيقهم العذاب الشديد في الآخرة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
بِتَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنْفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تَحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ
اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ
مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ
اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، منهم من أوحى الله إلى نبيه محمد ﷺ خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، والأكثر منهم لم يوح للنبي ﷺ في خبرهم شيء، وقد قص الله في كتابه خبر خمسة وعشرين نبياً، ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعدادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك، فبدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، فمهمة الأنبياء البلاغ، فإذا جاء عذاب الله ونكاله المحيط بالكلية أنجى الله المؤمنين، وكتب لهم الفوز في الدارين، وأهلك الكافرين؛ وجعل لهم الخسارة في الدارين، وإذا جاء الحق زهق الباطل وخسر المبطلون المكذبون المفسدون، وتلك حقيقة ثابتة، أن الحق يزهق الباطل ويزيله ويمحوه، ومن نعم الله على عباده ما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والترحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحرب عليها الأرض، والغنم تؤكل، ويشرب لبنها، والججميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة، يحملون على الإبل في البر وعلى السفن في البحر، ويرى الله عباده حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسهم، والتفكر في مخلوقات الله من أعظم العبادات، وأنفس الطاعات، يزيد الإيمان، فتفكر ساعة خير من قيام ليلة، فلا يقدر أحد من العباد على إنكار شيء من آياته.

وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض، وجعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا ردَّ عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل، وقالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب، وأحاط بهم ما كانوا به يكذبون ويستبعدون وقوعه، فلما عاينوا وقوع العذاب بهم، وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المعةرة؛ فلم يقبل الله منهم، وهذا حكم الله في جميع من تاب عند معارضة العذاب أنه لا يقبل منه؛ فإن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر، فإذا غرغر وبلغت الروح الحلقوم، وعان الملك فلا توبة حينئذ.

وماذا يغني إيمان قوم لم يبق فيهم إلا رمق ضعيف من الحياة، فأياهم حينئذ بمنزلة اعتراف أهل الحشر بذنوبهم وليست ساعة عمل، وكتبت الخسارة للكافرين المكذبين المعاندين، والكافر خاسر في كل وقت، ولكنهم يتبين لهم خسراهم إذا رأوا العذاب.

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

آياتها
٥٤آياتها
٤١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ
 آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
 أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ
 مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
 فَأَعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ
 أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ
 لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
 هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ
 الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۚ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾
 وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي
 أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
 فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

سورة فصلت

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر وصف آيات القرآن فيها

بدأت السورة بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن وبلاغته، ذلك الكتاب الذي بينت معانيه وأحكامه، لفظاً عربياً، بيناً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشككة، وهو المعجز من حيث لفظه ومعناه، ويعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون، يبشر المؤمنين، وينذر الكافرين، فأعرض أكثر المشركين، فلم يفهموا منه شيئاً مع بيانه ووضوحه، وقالوا قلوبنا غلف مغطاة، فلا تقبل دعوة التوحيد، وفي آذاننا صمم عن سماع الحق، وبيننا وبين توحيد الله حاجز لا يصل إلينا شيء من الحق، فاعمل أنت على طريقتك أيها النبي، ونحن على طريقتنا لا نتابعك، وهذا الحرمان من العقوبات المعجلة، فقد قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء فعوقبوا بالحرمان، وأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المكذبين المشركين، إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي بالدعوة إلى التوحيد بأن إلهكم إله واحد، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، فأخلصوا له العبادة، واستغفروه لسالف الذنوب، فمن أصر على الشرك والوثنية، فالدمار لهم، والهلاك عليهم، فهم لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ولم يطهروا أنفسهم من الشرك ومن الأخلاق الرذيلة، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أجر لا مقطوع عنهم، وكيف يعبد المشركون مع الله غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فيجعلون له نظراء وأمثالاً يعبدونها معه، وهو الخالق للأشياء، رب العالمين كلهم.

خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، فأخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والأكام وما بينها في يومين آخرين، فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السماوات في يومين، وجعل الأرض مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، وجعل فيها ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس، وكان خلق السماء بعد الأرض، وكانت بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، فقال الله لها وللأرض استجيبا لأمرى طائعتين أو مكرهتين، قالتا بل نستجيب لك مطيعين بها فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعاً مطيعين لك، سمعنا وأطعنا لرب العالمين، فلئن كانت السموات والأرض أعلنتا الطاعة لرب العالمين، فالعبد الضعيف، عليه أن يستجيب لأمر الله، وينقاد ويذل لحكم الله، ويسلم ويدعن، ويرضى بشرع الله، وحكمه، وقدره.

فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
 وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
 الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ
 عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
 خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
 فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
 الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
 ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ
 عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ
 لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى
 الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
 ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ
 أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ
 عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

خلق الله السموات في يومين، وخلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلمه إلا الله، وخلق فيها شمسها وقمرها ونجومها، وأوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي، وزين السماء الدنيا بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، وحرّسها من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى، ذلك تقدير العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، والعليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

وأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين المكذبين بما جاء به من الحق، إن أعرضتم عما جئكم به من عند الله فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضية من المكذبين بالمرسلين، هلاكًا مثل هلاك عاد وثمود، بعث الله إليهم الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين ورأوا ما أحل الله بأعدائهم من النقم، وما ألبس أوليائه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا لو أرسل الله رسلًا لكانوا ملائكة من عنده، فإنا بما أرسلتم به أيها البشر مكذبون وجاحدون لرسالتكم، وأما عاد فيغوا وعتوا في الأرض وعصوا، واغتروا بشدة تركيهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله، ولم يفكروا أن الذي يبارزونه بالعداوة، هو العظيم الذي خلق قوتهم، فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته وعصوا رسوله؛ فأرسل الله عليهم الريح الشديدة الهبوب الباردة، في أيام متتابعات، فابتدئوا بالعذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ فكما لم ينصروا في الدنيا، لم يكن لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

وأما ثمود، فقد بين الله لهم، ووضح لهم الحق على لسان نبيه صالح ﷺ، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، فبعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً، بسبب تكذيبهم وجحودهم، وأنجى الله المؤمنين المتقين من بين أظهرهم، لم يمسه سوء، ولا ناهم من ذلك ضرر، مع نبيه صالح ﷺ بإيائهم، وتقواهم الله ﷻ ويوم القيامة يجمع المشركون إلى النار، تجمعهم الزبانية أوهم على آخرهم، حتى إذا وقفوا على النار، شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يكتف من حرق، وشهادة جوارحهم وجلودهم عليهم، شهادة تكذيب وافتضاح لأنهم لما رأوا النار اعتذروا بإنكار بعض ذنوبهم طمعاً في تخفيف العذاب وإلا فقد علم الله ما كانوا يصنعون وشهدت به الحفظة، فما كانت شهادة جوارحهم إلا زيادة خزي لهم وتحسيراً وتنديباً على سوء اعتقادهم في سعة علم الله، وتخصيص السمع والأبصار والجلود بالشهادة على هؤلاء دون بقية الجوارح لأن للسمع اختصاصاً بتلقي دعوة النبي ﷺ وتلقي آيات القرآن، فسمعهم يشهد عليهم بأنهم كانوا يصرفونه عن سماع ذلك، ولأن للأبصار اختصاصاً بمشاهدة دلائل المصنوعات الدالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير فذلك دليل وحدانيته في إلهيته، وشهادة الجلود لأن الجلد يحوي جميع الجسد لتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على أنفسها فيظهر استحقاقها للحرق بالنار لبقية الأجساد دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر.

وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
 أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
 وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ
 وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ
 وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
 مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ
 يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٣﴾ وَقِضْنَا لَهُمْ
 قُرْنَاءَ فَرَزَيْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ
 الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ
 كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ
 وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا
 شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ
 أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ
 ﴿٢٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ
 وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٨﴾



حين تشهد الجوارح على الانسان يوم القيامة، يلوم الانسان أعضاءه التي شهدت عليه، فتجيب الأعضاء، أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة، فهو لا يُخَالَفُ سبحانه ولا يُنَافِئُ، والمرجع إليه سبحانه، وما كنتم تتكتمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ وهذا الذي أتلّفكم وأرداكم عند ربكم، فكنتم في مواقف القيامة من الخاسرين لأنفسهم وأهليهم، فالتاس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن إذا أحسن الظن بربه أحسن العمل، وأما الكافر والمنافق أساء الظن بالله فأساء العمل، فلا يموت الانسان إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قومًا أرداهم سوء ظنهم بالله، وسواء صبر المشركون أو لم يصبروا فهم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعبتوا ويبدوا أعذارًا فما لهم أعذار، ولا تقال لهم عثرات، وإن يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم.

وهو سبحانه الذي أضلّ المشركين بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قبض لهم من القرآن من شياطين الإنس والجن، فحسنوا لهم أعمالهم فيما مضى، وزينت لهم أعمالهم فظنوا أنفسهم على الهدى، فجلس السوء سبب للضلال والمرء على دين خليله، فمجالسة الفساق والعصاة سبب للضلالة، ومجالسة الصالحين والمتقين سبب للهداية والثبات على دين الله، وكل صداقة لغير الله فهي باطلة وتقلب إلى عداوة يوم القيامة فحققت على المكذبين كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس، فقد استووا في الخسار والدمار، فقد تواصلوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، وألا ينقادوا لأوامره، وإذا تلى لا يسمعوا له، وعارضوه بالخرافات من الرجز والشعر والتصديّة والمكاء، ورفعوا أصواتهم بها ليشوّشوا على القارئ، لعلهم يغلبونه على قراءته، وأمر الله سبحانه عباده المؤمنين بخلاف ذلك وهو الإنصات عند سماع القرآن، تعظيمًا للقرآن، واحترامًا لكلام الله، وتدبرًا لآياته، وعملاً بأحكامه، واستشفاء بآياته.

وسيجزي الله أهل الكفر بكفرهم وصددهم عن سبيل الله العذاب الشديد وبشّر أعمالهم وسيئ أفعالهم لهم النار خالدين فيها بسبب جحودهم وتكذيبهم، وينادي المكذبون وهم في النار يقولون، ربنا أرنا إبليس وقابيل بن آدم الذي قتل أخاه لأنها سنّا المعصية، نجعلهما أسفل منا في العذاب ليكونا أشدّ عذابًا منا، ليكونا في الدرك الأسفل من النار، والله تعالى قد أعطى كلًّا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ
 الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ
 وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾
 وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
 إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
 ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
 وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا
 إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
 فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
 اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
 وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
 إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ
 رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾

كتب الله السعادة لأهل الاستقامة، والاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، من أداء الفرائض، والعمل بطاعة الله، واجتناب معصيته، والمستقيمون الذين وحدوا الله وحده لا شريك له ثم ثبتوا على التوحيد، ولم يلتفتوا إلى إله غير الله، تنزل عليهم الملائكة تبشّروهم بالجنة عند الموت، وتقول الملائكة لروح المؤمن، اخرجي أيها الروح الطيبة في الجسد الطيب الذي كنت تعمريه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، وتبشّروهم في القبر وعند البعث؛ فإن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له لا تخف ولا تحزن، وتقول لهم الملائكة عند الاحتضار لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتم من أهل وولد، فإننا نخلفكم في ذلك كله، ولا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم فإن الله يغفرها لكم، وتقول لهم الملائكة الذين تنزل عليهم بالبشارة، نحن أولياؤكم وأنصاركم وأحباؤكم، وقرناؤكم في الحياة الدنيا، نسدكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم، التي كنتم توعدون بها في الدنيا، فإنكم واصلون إليها مستقرون بها خالدون في نعيمها، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم، من الكرامات واللذات، ولكم في الجنة ما تمنون ضيافةً وعطاءً وإنعاماً ورزقاً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رءوف حيث غفر وستر ورحم ولطف فبرحمته أدخلكم جنته، ولا أحسن منهجاً وطريقة من المؤمن الذي أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه، وعمل صالحاً في إجابته، وقال إنني من المسلمين، وفرق عظيم بين الحسنة والسيدة، فالحسنة هي الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فمن أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، فإذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولي لك قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك، وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، وما يعطاها إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

وأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه على الإنسان، فإذا استعاذ المؤمن بالله ولجأ إليه كفاه عنه ورد كيده، فهو السميع لاستعاذة عبده وأقواله، والعليم بأفعاله وأحواله، ومن قدرة الله العظيمة خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقران، الشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضيأؤه وتقدير منازلها في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليعرف باختلاف سيره، وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه تعالى على أنها مخلوقان عبادان من عبيده تحت قهره وتسخيره، ولما كان بعض المشركين يسجدون للشمس عند طلوعها وغروبها نهي الله عن عبادتها فهو من الشرك المحرم الذي لا يغفره الله فإنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به؛ وأمر الله العباد بالتوحيد وتحقيق العبادة، فمن استكبر عن إفراذ العبادة له وأبى إلا الشرك، فإن الملائكة، والموحدين من عباد الله ينزهون الله عن النقائص ومن أعظمها الشرك بالله، ويوحدون الله ليلاً ونهاراً، لا يتعبون من ذلك ولا يملون بل أنسهم وسعادتهم بالتوحيد.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
 اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ
 يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ
 وَإِنَّهُمْ لَكَاكِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
 خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
 لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾
 وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَتَعْجَمِي
 وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ
 يَنَادُونَكَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ
 بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا
 فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِيَهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

من آيات الله الدالة على قدرته على إعادة الموتى، الأرض تراها ميتة هامدة لا نبات فيها، يابسة جربة، غرباء، فإذا أنزل عليها الماء، تحركت بالنبات، وأخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، فالذي أحيا الأرض بالمطر لمحيي الموتى بالبعث والنشور وهو قادر على ذلك، لا يعجزه شيء كأنما ما كان، والذين يميلون عن التوحيد وعن الحق وعن الاستقامة ويميلون عن المعنى الحق في آيات الله وأسمائه وصفاته لا يخفون على الله، وهو عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ فلا يستوي عند الله الملحد الذي يلقي في النار، ومن كتب له الأمن يوم القيامة وهم الموحدون، فليعمل المشركون ما شاءوا من عمل خير أو شر، فإن الله عليم بهم وبصير بأعمالهم؛ فالذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم، وإن القرآن الذي يلحدون فيه، ويكفرون به عزيز عن أن يعارض أو يطعن فيه الطاعنون، منيع عن كل عيب، فهو حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه، وهو محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزداد فيه فيأتيه الباطل من خلفه ولا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا يحییء من بعده كتاب فيبطله، ولا يستطيع الشيطان أن يزيد فيه، ولا ينقص منه، منزل من رب العالمين، الحكيم في أقواله وأفعاله، المحمود في جميع ما يأمر به وينهى عنه، وجاءت التسليية لرسول الله ﷺ عن ما كان يتأثر له من أذية الكفار، ما يقال لك من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر والكذب والجنون إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل ما يقول لك هؤلاء، فكما قد كُذبت فقد كُذِّبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك، والله ذو مغفرة لمن تاب إليه وأتاب، وذو عقاب أليم لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته، ولولا غفران الله وتجاوزه ما هنا أحد بالعيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد، ولو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه، وجاءهم الرد أن هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، وأما المكذبون فلا يفهمون ما فيه، لما جعل في أسماهم من الصمم عن قبول الحق، وما على عيونهم من الغشاوة فلا يبصرون الحق فلا يهتدون إلى ما فيه من البيان، فهو بعيد من قلوبهم، وشبه حاتم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادي من مسافة بعيدة لا يسمع صوت من يناديه، وقد أنزل الله التوراة على موسى ﷺ فكُذِّب وأوذى، ولولا ما قضاه الله وقدره بتأخير الحساب إلى يوم المعاد، لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً، وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم، بل كانوا شاكين فيما قالوا، غير محققين لشيء كانوا فيه، فمن أطاع الله وآمن برسله ولم يكذبهم فتواب ذلك راجع إليه، ونفعه خاص به، ومن أساء فعقاب إساءته عليه لا على غيره، والله لا يعذب أحداً إلا بذنبه، ولا يقع منه الظلم لأحد، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

﴿٤٧﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا
 وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ
 شُرَكَاءِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٨﴾ وَضَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِّيصٍ ﴿٤٩﴾
 لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ
 قَنُوطٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ
 لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ
 رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
 وَلَنُنَذِرَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥١﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ
 أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ
 ﴿٥٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ
 بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ سَنُرِيهِمْ
 ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
 أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
 فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ

اختص الله ﷻ بعلم الساعة، فلا أحد يعلم الساعة إلا الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، ولا يعلم ما في وعاء الثمرة إلا هو سبحانه، فعلم ما تُخرجهُ أكمَام النخيل من الثمر بقدره وجودته وثباته أو سقوطه إلى الله تعالى، ولا يعلم حمل الأنثى من الناس والحيوان، ولا يعلم التي تلحق من التي لا تلحق إلا الله، ولا يعلم وقت وضع الأجنة فإن الإنثى تكون حوامل مثقلة ولا يعلم وقت وضعها باليوم والساعة إلا الله، فالجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ويوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ فيقولون أعلمناك، ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكاً، وذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرءوا من الشركاء، وتبرأت منهم تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها، وزال وبطل في الآخرة ما كانوا يعبدون في الدنيا من الأصنام، وأيقنوا وعلموا أنه لا مهرب لهم من العذاب، والإنسان بطبيعته لا يمل من دعائه ربه المال وصحة الجسم وغير ذلك، وإن مسه البلاء أو الفقر فيثوس من روح الله قنوط من رحمته، ويثوس من إجابة دعائه قنوط بسوء الظن بربه، ويثوس من زوال ما به من المكروه، وإذا أصابه خير ورزق بعدما كان في شدة ليقول: إني كنت أستحقه عند ربي، ويكفر بقيام الساعة لما أعطاه الله النعمة التي يفخر بها ويبطر ويقول لئن كان ثمَّ معاد فسينعم علي ربي، كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله ﷻ مع إساءته العمل وعدم اليقين، فمن كان هذا عمله واعتقاده فسيجد خبر كفره وعناده وتكذيبه في العذاب الشديد، وإذا أنعم الله على الإنسان ترفع عن الانقياد للحق، وتجبر، وأعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ﷻ، وإذا مسته الشدة، أكثر من الدعاء والمسألة لله تعالى، ولما كان المشركون ينكرون صدق القرآن، وكان إنكارهم ليس صادراً عن نظر وتمحيص يحصل به اليقين، دعاهم القرآن إلى النظر والتأمل في الدلائل، والتدبر حتى يكونوا على بينة من أمرهم في شأنه، وهم إذا تدبروه علموا صدقه، فاستدعاهم الله إلى النظر بطريق تجويز أن يكون القرآن من عند الله فإنه إذا جاز ذلك، وكانوا قد كفروا به دون تأمل كانوا قد قضاوا على أنفسهم بالضلال الشديد، وإذا كانوا كذلك فقد حَقَّت عليهم كلمات الوعيد، وقد أظهر الله لهم الدلائل والحجج على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله ﷻ على رسوله ﷺ بدلائل خارجية، من ظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، ودلائل في أنفسهم، بما في الإنسان تركيب الانسان في أحسن تقويم وأحسن صورة، وما فيه من الجوارح والأعضاء التي تدل على عظمة الخالق جل وعلا، فيتبين بتلك الدلائل أن القرآن من عند الله حقاً فلا يسعهم إلا الإيمان به، وكفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، ولكن الكفار في شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون في اليوم الآخر، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، والله على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير، والمخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وتحت علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

سُورَةُ الشُّورَى

آيَاتُهَا
٥٣نُسُخَاتُهَا
٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ① عَسَقَ ② كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ④ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ
 وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
 الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑤ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ
 ⑥ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ
 حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
 السَّعِيرِ ⑦ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ
 مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧
 أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑨ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
 إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ⑩

سورة الشورى

وهي سورة مكية ، وسميت بذلك لذكر الشورى بين المؤمنين فيها

ابتدأت السورة بالحروف إشارة إلى التحدي للكفار، بعجزهم عن معارضة القرآن وأن عجزهم عن معارضته دليل على أنه كلام الله المنزل منه، أوحاه الله إلى نبيه كما أوحى إلى الأنبياء قبله، وأنزل عليهم الكتب المشتملة على الدعوة إلى التوحيد، والله العزيز في انتقامه، والحكيم في أقواله وأفعاله، وقد كان الوحي يأتي رسول الله ﷺ أحياناً مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليه فينقطع ويزل عنده، وقد وعى ما أوحى إليه، وأحياناً يأتيه الملك رجلاً فيكلمه، فيفهم ما يقول، ومن عظمة الله أن له ما في السموات وما في الأرض، الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، وهو العلي العظيم، والعلو من صفات الله الثابتة له بالكتاب والسنة وإجماع السلف، فقد أجمع السلف على إثبات العلو لله، فيجب إثباته له من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكيف، ولا تمثيل، وهو علو حقيقي يليق بالله، والعلو على قسمين، علو صفة بمعنى أن صفاته تعالى ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، وعلو ذات بمعنى أن ذاته تعالى فوق جميع مخلوقاته، والعظيم ذو العظمة، وهي القوة والكبرياء، ومن عظمة الله أن السموات والأرض يشققن من عظمتة وجلاله من فوقهنّ، والملائكة ينزهون الله عما لا يليق به ولا يجوز عليه، ويتعجبون من جراءة المشركين على الله، ويستغفرون لعباد الله المؤمنين ويسعون فيما يستدعي المغفرة للناس، من تأخير عقوبتهم طمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق، والله كثير المغفرة والرحمة لأهل طاعته، وأوليائه، لجميع عبادته، فإن تأخير عقوبة الكفار، والعصاة نوع من أنواع مغفرته ورحمته، والله شهيد على أعمال المشركين، يحصيها ويعدها عدّاً، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء، والرسول ﷺ نذير والله على كل شيء وكيل، فقد أوحى الله لنبيه قرآناً واضحاً جلياً نبأ بلسان عربي، لينذر أهل مكة، وهي أصل الأرض، وسائر البلاد شرقاً وغرباً، وينذر يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد، ذلك اليوم الذي لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة، فينقسم الجميع إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، ولو أراد الله لجعلهم أمة واحدة إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق فدخلهم رحمته وجنته، وأضل من يشاء عنه، فدخلهم النار وله الحكمة والحجة البالغة؛ فقد اتخذ المشركون آلهة من دون الله، والله هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير، وعند الاختلاف فالمرجع إلى الله، فهو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، وهو الحاكم في كل شيء، وعليه يتوكل المؤمنون وإليه يرجعون في جميع الأمور.

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾
﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا
تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾
فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾



الله ﷻ خالق السموات والأرض وما بينهما، خلق للبشر من جنسهم وشكلهم مئة عليهم وتفضلاً للذكر الأنثى، وللأنثى الذكر، وخلق لهم من الأنعام ثمانية أزواج، يكثرهم الله ويخلقهم على هذه الصفة ذكوراً وإنثاءً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلًا بعد نسل، من الناس والأنعام، والله هو الفرد الصمد الذي لا نظير له، ولا ند ولا مثيل، فإن الله تعالى ذاتاً لا تماثل الذوات، وله صفات لا تماثل الصفات، ليس كمثله شيء في ذاته ولا صفاته، فقدم نفى المماثلة على الإثبات، لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته، كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه ليس فيه احتمال للتمثيل، لأن تمثيل صفات الله تعالى بصفات المخلوقين كفر لأنه تكذيب للقرآن، وهو سبحانه السميع، وسمع الله تعالى من الصفات الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به وهو على قسمين بمعنى الإجابة وهذا من الصفات الفعلية، وبمعنى إدراك المسموع وهذا من الصفات الذاتية، وهو سبحانه البصير، وهو بمعنى المدرك للمراتب والمصبرات، وصفة البصر من الصفات الثابتة لله حقيقة على الوجه اللائق به، فالله سبحانه يرى عباده ولا يخفى عليه شيء منهم، وهو سبحانه المتصرف الحاكم في السموات والأرض، يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، والعلم إدراك الشيء على حقيقته، والله قد أحاط بكل شيء علماً، أحاط بكل شيء مما مضى، ومما هو حاضر، ومما هو مستقبل، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله ﷻ، أو بأفعال عباده، فهو محيط بها جملة وتفصيلاً بعلمه الذي هو موصوف به أولاً وأبداً، وقد بين الله لأمة محمد ﷺ وأوضح لهم من الدين ما وصى به نوحاً، من التوحيد، ودين الإسلام، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل، وتوافقت عليها الكتب، والذي أوحى إلى محمد ﷺ من القرآن، وشرائع الإسلام، والبراءة من الشرك، وما وصى به الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى مما تطابقت عليه الشرائع من توحيد الله، والإيمان به، وطاعة رسله، وقبول شرائعه، وأولوا العزم من الرسل وهم الذين أمرت الأمة بالأخذ بها وصاهم الله به وهم نوح، وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﷺ وآخرهم محمد ﷺ. وقد عظم، وشق على المشركين ما يدعون إليه من التوحيد، ورفض الأوثان، والله يختار لتوحيده، والدخول في دينه من يشاء من عباده، ويوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته، ويقبل إلى عبادته، وما تفرق أهل الأديان المختلفة إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة، ففعلوا ذلك التفرق للبغي بينهم بطلب الرئاسة، وشدة الحمية، ولولا ما قضاه الله من تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لقضي بين من آمن وكفر بإنزال العذاب بالمكذبين في الدنيا، وإن اليهود والنصارى من بعد أنبيائهم لفي شك من محمد ﷺ ولأجل ما وقع من التفرق والشك أمر النبي ﷺ بالدعوة إلى الله، وإلى توحيده، والاستقامة على ما يدعو إليه، ونهي عن اتباع الأهواء الباطلة، وتعصبات المشركين الزائغة، وأمر بالإيمان بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأمر بالعدل في تبليغ الشرائع والأحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام، والله هو المعبود، لا إله غيره وهو الذي يجازي كلًا بعمله، فلا خصومة بين المؤمنين وأهل الكتاب، فهو سبحانه يجمع الخلائق يوم القيامة، ويجازيهم فإليه المرجع والمآب يوم الحساب، وهذا كان قبل نزول آية القتال، وبعد آية القتال، أمر بمجاهدة المشركين من أهل الكتاب وغيرهم مع الوفاء بالعهود والمواثيق.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ، حُجَّتُهُمْ
دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ
وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

الذين يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ويخاصمون في دين الله من بعد ما استجاب الناس له حجتهم باطلة عند الله، وعليهم غضب عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل، ولهم عذاب شديد يوم القيامة، والكتب المنزل من عنده على أنبيائه نزلت بالحق والعدل والإنصاف والعمل للأخرة والزهادة في الدنيا، فإن الدنيا سريعة الزوال، والساعة قريبة يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، استهزاءً منهم بها، وتكذيباً بمجيئها، والمؤمنون خائفون وجلون من محيئها، لأنهم لا يدرون ما يقدمون عليه، ويعلمون أنهم محاسبون ومجزيون ويعلمون أنها آتية لا ريب فيها، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها، والذين يجاجون في وجودها ويدفعون وقوعها، لفي في جهل بين؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى، والله سبحانه لطيف بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه البر والفاجر فيجري لطفه على عباده في كل أمورهم، يوسع على من يشاء، وهو القوي العزيز لا يعجزه شيء، فمن كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الآخرة يضاعف الله له ذلك الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويزيد الله في توفيقه، وإعانتة، وتسهيل سبل الخير له، ومن كان يريد بأعماله، وكسبه ثواب الدنيا، ومتاعها، وما يرزق الله به عباده منها يعطه الله منها ما قضاه له، ويقدر له ما قسم له، وليس له حظ في الآخرة، والمشركون لا يتبعون ما شرع الله لنبيه ﷺ من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة، ولولا ما قضاه الله من تأخير العقوبة لعوجلوا بها، والظالمون يوم القيامة خائفون وجلون مما كسبوا من السيئات، والعذاب نازل عليهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا، والمؤمنون في رياض الجنان، فأين من هو في عرصات القيامة في الذل والهوان والخوف، ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومسكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذلك الفوز العظيم، والنعمة التامة السابعة الشاملة العامة، فالظالمون في إشفاق في حال أن الذين آمنوا يطمثون في روضات الجنات، وهذا من تضاد شأني الفريقين في الآخرة على عكسه بما كانوا عليه في الدنيا، فالمؤمنون مشفقون من يوم القيامة، والكفار مكذبون لم يخافوا ولم يعدوا لهذا اليوم عدته، ففي يوم القيامة، ينقلب إشفاق المؤمنين اطمئناناً واطمئنان المشركين إشفاقاً، وشتان بين الاطمئنانين والإشفاقين، نسأل الله الجنة والدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ
 لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ
 بِكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ
 عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾
 وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ
 وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ
 لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ
 خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِّن بَعْدِ مَا قَنَطُوا
 وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِن ءَايَاتِهِ خَلْقُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
 إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَمَا
 كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ
 فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾



المؤمنون لهم البشرى في الحياة والآخرة، يبشرون بالحياة الطيبة في الدنيا، والنعيم الأبدي في الجنة، وأمر النبي ﷺ أن يقول للمشركين من كفار قريش، لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا، إن لم تنصروني فلا تؤذوني، وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم، وعليكم أن تعملوا بالطاعة التي تقرّبكم عند الله زلفى، ومن يعمل حسنة يريد بها وجه الله يزيده الله أجراً وثواباً، ويوفقه للحسنة بعدها، فإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها، والله يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر، والكفار يهتمون الرسول ﷺ بالكذب والافتراء على الله، فجاء الرد عليهم، أن افتراءه على الله لا يهكم حتى تناصبوا محمداً ﷺ العداء، فالله أولى منكم بأن يغار على انتهاك حرمة رسالته وبأن يذب عن جلاله فلا تجعلوا هذه الدعوى همكم، فإن الله لو شاء لحتم على قلبه فسلبه القدرة على أن ينسب إليه كلاماً، والله يمحو باطل المشركين وبيّتهم ويحقق ما جاء به رسوله ﷺ وهو وعد من الله بإظهار الإسلام، ووعد للمشركين بأن دينهم زائل، وبحق الله الحق بكلمات الوحي والقرآن، بالحجج والبراهين، والله عليم بما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر، والله سبحانه هو الذي يقبل توبة عباده إذا تابوا ورجعوا إليه، وهذا من كرمه وحلمه فهو يعفو ويصفح ويستر ويغفر، يقبل التوبة في المستقبل ويعفو عن السيئات في الماضي، وهو عالم بجميع ما فعل العباد وصنعوا وقالوا ومع هذا يتوب على من تاب إليه، ويستجيب الله دعاء الذين آمنوا لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم، ويزيدهم فوق ذلك ما لم يسألوه، والكافرون لهم العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم، ولو أعطى الله العباد فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً، ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، فإن من عباد الله من لا يصلحه إلا الغنى، ولو افتقر لفسد دينه، وإن من عباد الله من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغناه الله لفسد دينه، وهو الذي ينزل الغيث من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، ويعم برحمته على أهل ذلك القطر وتلك الناحية، وهو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله، ومن الآيات الدالة على عظمة الله وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر خلق السموات والأرض وما فرق ونشر فيها من الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار الأرض والسموات، ويوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق، وما أصاب الناس من المصائب فإنها هو عن سيئات تقدمت لهم، ويعفو عن كثير من السيئات، فلا يجازيهم عليها بل يعفو عنها، والعباد ليسوا بفائتين على الله هرباً في الأرض، ولا في السماء لو كانوا فيها، بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم وما لهم من دون الله من ولي يوالىهم، فيمنع عنهم ما قضاه الله، وما لهم من نصير ينصرهم من عذاب الله في الدنيا، ولا في الآخرة.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ
فَيُظِلِّلَن رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِعُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنَّعٌ
الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبِيرَ الْأَيْمِ وَالْفَوْحِشِ وَإِذَا مَا
غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ
الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ
﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ
لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى وسلطانه، تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجوارى في البحر كالجبال، لو شاء الله لأسكن الريح التي تسير بالسفن حتى لا تتحرك السفن، بل تظل راكدة لا تحيى ولا تذهب، بل واقفة على وجه الماء، وفي ذلك عبرة وعظة لكل صبار في الشدائد، شكور الله في الرخاء، وعلى تسخيره البحر وإجرائه الهواء بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، كل ذلك دلالة على نعمه تعالى على خلقه، ولو شاء الله لأهلك السفن وأغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها، ويعفو الله عن كثير من ذنوبهم، ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر، ولكن من لطف الله ورحمته أنه يرسل الريح بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، والذين يكذبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله بعد البعث يعلمون أنه لا مهرب لهم من عذاب الله، ولا محيد لهم عن بأس الله ونقمته، فهم مقهورون بقدرة الله، والحياة الدنيا وزيتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني حقيرة، مهما حصل الانسان منها وجمع فلا يغتر به، فإنها هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار ذنبة فانية زائلة لا محالة، وثواب الله خير من الدنيا وهو باق سرمدي، فلا يقدم المؤمن الفاني على الباقي؛ فما عند الله من النعيم خير وأبقى للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا، وعملوا بطاعة ربهم، وتوكلوا على الله ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات، والذين يجتنبون كبائر الذنوب خوفاً من الله، وإذا غضبوا يلمون ويكظمون الغيظ ويتجاوزون لأن سجيتهم وطبعهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، فليس سجيتهم الانتقام من الناس، والذين اتبعوا رسل الله وأطاعوا أمر الله، واجتنبوا زجره، وأقاموا الصلاة لأنها أعظم العبادات لله ﷻ، والذين لا يرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بأرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، والذين ينفقون الأموال عنهم بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم من الأقرب، والذين فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، فليسوا بعاجزين ولا أذلة، يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفواً، والانتصار للنفس من الظالم جائز لكن مع العدل فلا يجوز التعدي والعفو أفضل، فمن عفا عمن ظلمه، وأصلح بالعفو بينه وبين ظالمه فإن الله سبحانه يأجره على ذلك، وأهم الأجر تعظيماً لشأنه، وحرّم الله الاعتداء في القصاص لأنه نوع من الظلم، وليس في الانتصار من الظالم جناح، بشرط العدل وعدم الظلم، وإنما الحرج والعنت للذين يبدؤون الناس بالظلم، أو يجاوزون الحد في الانتصار والقصاص، ويعملون في الأرض المعاصي، فلهم العذاب الشديد الموجه، ومن صبر على الأذى وستر السيئة، فإن ذلك لمن حق الأمور التي أمر الله بها، وذلك من الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها الثواب الجزيل والثناء الجميل، والله تعالى المشيئة النافذة، فما شاء كان ولا رادّ له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، ومن هداه فلا مضل له، ومن يضلّل فلا هادي له، ويوم القيامة يتمنى المشركون بالله المكذبون بالبعث حين ينظرون إلى النار الرجعة إلى الدنيا.

وَتَرَنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ
 مِّنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ
 خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ
 فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنْصُرُونَهُمْ
 مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اُسْتَجِيبُوا
 لِرَبِّكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ
 مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا
 فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا
 أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِنْ نُصَبِّهِمْ سَيْئَةً
 بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً
 وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُرْوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً
 وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ
 لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
 رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾

المشركون حين يعرضون على النار متذللين متضائلين مما دهاهم، ولما لحقهم من الذل والهوان يتبدى نظهرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالذي يراد به القصاص ينظر إلى السيف لما لحقه من الذل والخوف والوجل، ويقول المؤمنون يوم القيامة إن الخسار الأكبر للذين ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفُرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقرباتهم، فخسروهم، فهم في عذاب دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منه، ولا محيد لهم عنه، وليس لهم أولياء ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ومن كتبت عليه الضلالة فليس له خلاص، وقد أمر الله عباده بالاستعداد لما يكون في يوم القيامة من الأحوال والأمور العظام الهائلة، ويكون ذلك بالاستجابة لأمر الله، وإلى الإيمان به وبكتبه ورسله من قبل أن يأتي يوم لا يقدر أحد على رده، إذا أمر الله بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وليس للعباد حصن يتحصنون فيه، ولا مكان يستترهم في القيامة، فهو يوم الاعتراف بالذنوب فلا أحد يستطيع الإنكار، فإن أعرض المشركون عن دعوة التوحيد، فالرسول ليس حافظاً يحفظ أعمالهم حتى يحاسبهم عليها، ولا موكلًا بهم رقيبًا عليهم، فما عليه إلا البلاغ لما أمر بإبلاغه، وليس عليه غير ذلك. والإنسان بطبيعته إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، وإن أصابته مصيبة، من جدد ونقمة وبلاء وشدة، جحد ما تقدم من النعمة، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقتظ.

والله خالق السموات والأرض وهو مالكها والمتصرف فيها، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ويخلق ما يشاء، يرزق من يشاء البنات فقط، ويرزق من يشاء البنين فقط، ويعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، ويجعل من يشاء لا يولد له، والله العليم بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، وهو قدير على من يشاء، من تفاوت الناس في ذلك.

ولا يصح لفرد من أفراد البشر أن يكلمه الله بوجه من الوجوه في الدنيا، إلا بأن يوحى إليه، ووحى الله إذا أوحى به إلى رسله على أنواع، تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتماهى فيه أنه من الله ﷻ، أو يكلمه من وراء حجاب، كما كلم محمدًا وموسى عليهما الصلاة والسلام، وكما كلم عبد الله بن حرام الأنصاري بعد استشهاده في يوم أحد، أو ينزل جبريل ﷺ أو غيره من الملائكة على الأنبياء ﷺ، والله هو العلي العليم الخبير الحكيم.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا
لَعَلَىٰ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا
أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي
الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

القرآن وحي الله إلى عبده ورسوله محمد ﷺ، وهو حياة القلوب يحيي النفوس بالإيمان، وما كان النبي ﷺ يعرف الكتاب ولا الإيمان، قبل الوحي، ولكن الله تعالى جعل نبيه ﷺ نوراً لهداية البشرية، وجعل القرآن الذي أنزل عليه نوراً، وهدى وشفاء، والنبي ﷺ يهدي إلى صراط مستقيم، هداية دلالة وإرشاد، فهو يدل أمته، إلى شرع الله الذي أمر به الله، فإنه رب السموات والأرض، ومالكها، والمتصرف فيها، وهو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، وإليه ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها.

سورة الزخرف

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر الزخرف فيها وأنه من متاع الدنيا

بدئت السورة بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن الذي أنزله الله قرآناً عربياً واضح الدلالة فهو حقيق بأن يُصدّقوا به لو كانوا غير مكابرين، فهو بلغتهم لغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس، وهو في اللوح المحفوظ عند الله ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، وهو محكم بريء من اللبس والزيف، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أعجز البشر بأن يأتوا بمثله، ولو بآية من مثله.

والله تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر الحكيم وهو القرآن، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، فلم يتركهم سدى، بل أمر بالإيمان بالقرآن ليهتدي من قدر الله هدايته، وتقوم الحجة على من كتب الله شقاوته، وكم أرسل الله من رسول في الأمم السابقة، فكذبهم الناس وسخروا بهم واستهزؤوا بهم، فأهلك الله المكذبين بالرسول، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين من العرب وجعلهم الله عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، وهؤلاء المشركون بالله العابدون معه غيره، يعترفون بأن الله هو الخالق للسموات والأرض، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد، الله الذي جعل الأرض فراشاً قاراً ثابتة، يسرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لثلا تميدها هكذا ولا هكذا، وجعل فيها طرقاً بين الجبال والأودية هداية لهم في السير من بلد إلى بلد، فيها يعرفون المسافات، وبها يعرفون الخالق جل وعلا، فالتفكر فيها يهدي إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا
كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ۝۱۱ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنْ أَفْئَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝۱۲ لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝۱۳ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا
لَمُنْقَلِبُونَ ۝۱۴ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانَ
لَكَفُورٌ مُبِينٌ ۝۱۵ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ
بِالْبَنِينَ ۝۱۶ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝۱۷ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي
الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝۱۸ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنشَاءً أَشْهَادُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ
شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝۱۹ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ
مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝۲۰ أَمْ أَلَيْسَتْ لَهُمْ
كِتَابَاتٌ مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝۲۱ بَلْ قَالُوا
إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ۝۲۲

من قدرة الله ﷻ الدالة على البعث والنشور، إنزال المطر بحسب الكفاية لزروع الناس وشرهم، لأنفسهم ولأنعامهم، يحيي الله الأرض الميتة بالمطر فإذا جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، فكذلك إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فهو سبحانه الذي خلق ما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزهار، وغير ذلك من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، وجعل لعباده السفن، والأنعام ذلها لهم وسخرها ويسرها يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها ويركبون ظهورها، أمرهم الله إذا تمكنوا منها واستعلوا عليها أن يتذكروا نعمة ربهم فيما سخر لهم ويقولوا ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٢) ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّ الْمَقْلُوبُونَ﴾ (١٤)، فلو لا تسخير الله لهم ما قدروا عليها، ولا ما استطاع العبد أن يركبها، والعباد صاثرون إلى الله بعد مماتهم، وإليه سيرهم الأكبر، فسير الدنيا ينسب على سير الآخرة، كما ينسب الزاد الدنيوي على الزاد الآخروي وباللباس الدنيوي على الآخروي، ومن افتراء المشركين وكذبهم جعلهم لله ولدًا، وجعلوا الله من الأولاد البنات، والإنسان ظاهر الكفران والجحود، فهم مع افتراءهم أساءوا الأدب مع الله وجعلوا له ما يكرهونه ولا يحبونه، فهم إذا بُشِّرَ أحدهم بما جعله الله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بُشِّرَ به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، فكيف يأنفون من ذلك، وينسبونه إلى الله ﷻ، والمرأة ضعيفة بطبيعتها، وفطرتها، ويكمل نقصها بلبس الحلي منذ طفولتها، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، فهي ضعيفة عاجزة عن الانتصار، وتلك أنوثة المرأة التي خلقت عليها، وهو من كمالها بصفاتها امرأة، فعلها ألا تخالف فطرتها، وتبغي ما يكون للرجل من الصفات، ومن افتراء المشركين جعلهم الملائكة المكرمين إنثاءً فهل شهدوا خلقهم، سكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في ديوان أعمالهم، ليجازيهم الله عليها، ويسألون عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد، ومن افتراء المشركين قولهم لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ؛ جعلهم لله ولدًا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا، ودعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاءً، وعبادتهم للملائكة، بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخطي في الجاهلية الجاهلاء، واحتجاجهم بتقدير الله ذلك عليهم، والحجة إنما تكون بالشرع، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيرًا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الله الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، فهل أعطاهم الله كتابًا من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله فهم يأخذون بما فيه، ويحتجون به، ويجعلونه لهم دليلًا على شركهم، بل لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم، فإنهم وجدوهم على طريقة، وهم على أمرهم متبعون لهم ومقتدون بهم.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُهَا
 إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
 ﴿٢٤﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حُتُّوا بَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا
 إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
 إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ
 ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ
 مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾
 وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا
 لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهَمْ
 يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
 بَعْضًا سُلْخًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا
 أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
 لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

المكذبون تشابه قلوبهم وأفعالهم وأقوالهم وحججهم، فهم يحتجون بآبائهم، وأنهم على آثارهم مقتدون، فقد جاءت الرسل بما فيه هدايتهم ونجاتهم، جاءتهم بالتوحيد الذي هو أهدى طريقة مما وجدوا عليه آباءهم من الشرك، ولكن المكذبين كفروا لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله، فأنزل الله عليهم أنواعاً من العذاب، كما فصله تعالى في قصصهم، فبادوا وهلكوا، ونجى الله المؤمنين، وقد قص الله خبر عبده ورسوله وخليله إمام الخفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قریش في نسبها ومذهبها، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال إنني براء مما تعبدون، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين، وهذا بمعنى لا إله إلا الله، نفى وإثبات، نفى العبادة الحققة عن غير الله وإثباتها لله، وجعل كلمة التوحيد كلمة باقية في ذريته وأتباعه من بعده، تلك الكلمة، التي هي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداة الله من ذرية إبراهيم عليه السلام.

وهؤلاء المشركون مُتَعَوِّثُونَ بطول الأعمار وكثرة الأموال وأنواع النعم هم وآباؤهم ولم يعاجلهم الله بالعقوبة فاغترّوا بالمهلة، وأكبوا على الشهوات، فتطاول عليهم العمر في ضلالهم، حتى جاءهم القرآن، والرسول محمد ﷺ ظاهر الرسالة يبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فلم يجيبوه، ولم يعملوا بما أنزل عليه.

فلما جاءهم الحق كابروه وعاندوه، فسموا القرآن سحراً، وجحدوه، واستحققوا رسول الله ﷺ وقالوا هلاً كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير من مكة أو الطائف، وأرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي، فجاءهم الرد ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله ﷻ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً، فالله هو الذي فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، ولم يفوّض ذلك إليهم، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده، وإذا كان الله سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم، ورفع درجات بعضهم على بعض، فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر النبوة، وتفويضها إلى من يشاء من خلقه، فقد فاوت الله بين خلقه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، ورحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا، ولولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاء الله المال لأحد من خلقه دليل على محبة الله له فيجتمع الناس على الكفر لأجل المال لجعل الله للكفار لبيوتهم سُقُفًا من فضة، وسلاماً ودرجاً من فضة عليها يصعدون.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّوْنَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ
كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا
فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَى الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ
إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُكْمَرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾
فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُزِيلَنَّ الَّذِي
وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

لولا افتتان الناس بالمال لفتح الله المال على الكفار فتنة واستدرأجًا، فيجعل لبيوتهم أبوابًا من فضة، وسررًا من فضة، ومن ذهب تحملهم، كل ذلك من متاع الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله، يجعل الله لهم بحسانتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، والآخرة خاصة لمن اتقى الشرك، والمعاصي، وآمن بالله وحده، وعمل بطاعته لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ومن يتعامى ويتغافل ويعرض عن القرآن يهين الله له قرين من الشياطين يُضلّه عن الهدى ويُزين له الكفر والمعاصي، ويحول بينه وبين سبيل الحق ويمنعه منه، ويوسوس له أنه على الهدى، يلزمه لا ينفك عنه، فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وُكِّل به، ويتمنى أنه كان بينه وبينه في الدنيا بعد ما بين المشرق والمغرب، وإذا بعث الكافر من قبره يوم القيامة أخذ بيده شيطان لا يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فيجتمعون في النار، بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك، ولا يغني عنهم اجتماعهم في النار واشتراكهم في العذاب الأليم، فلا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب؛ لأن لكل أحد من الكفار والشياطين الحظ الأوفر من العذاب، ومن كتب الله عليه الضلالة والغواية لا يستطيع أحد هدايته، والرسول ﷺ عليه البلاغ، وليس عليه هدايته، ولكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك، ومن كتبت ضلالته فهو بمنزلة الأصم الذي لا يعقل ما جاء به الرسول، وبمنزلة الأعمى الذي لا يبصر لإفراطه في الضلالة، وتمكنه من الجهالة، فستنزل بهم عقوبة الله في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته، ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكّمه في نواصيهم، وملّكه ما تضمنته ديارهم، وأمر الله نبيه ﷺ بالتمسك بالقرآن المنزل على قلبه، فإنه الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

وهو شرف للنبي ﷺ ولقومه وأمته فقد أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم، وفي القرآن الذكرى والعظة والعبرة لمن أراد أن يتذكر، وسيسأل الله العباد عن هذا القرآن كيف كانوا في العمل به والاستجابة له، وجميع الرسل دعوا إلى ما دعا إليه النبي ﷺ الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، فكل نبي بعث في أمة أمر قومه بعبادة الله واجتناب الطاغوت، فقد بعث الله عبده ورسوله موسى ﷺ إلى فرعون وملائه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وبعث معه آيات عظامًا، كاليد والعصا، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها.

وَمَا نُزِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ
بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَّيِهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ
قَالَ يَبْقَوْمِ الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ
مَعَهُ الْمَلَأُكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ
فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا
انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ
مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءِالِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ
﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَّلَأُكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلِفُونَ ﴿٦٠﴾

بعث الله موسى ﷺ بالآيات إلى فرعون وقومه، كل واحدة أكبر من التي قبلها، وأعظم قدرًا مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها، فما رجعوا عن غيهم وضلالهم وجهلهم، وكلما جاءت آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى ﷺ ويتلطفون له في العبارة بقولهم يا أيها العالم، وكان علماء زمانهم هم السحرة، وفي كل مرة يعدون موسى ﷺ إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل، وفي كل مرة ينقضون ما عاهدوا عليه، وتمرد فرعون وعتى وكفر وعانده وجمع قومه فنادى فيهم مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها، فلا ينازعه فيه أحد، ولا يخالفه مخالف، ونهر النيل يجري بين يديه، ومن تحت قصره، ففرق من هو في هذه العظمة والملك، وبين موسى الفقير الضعيف، الذي لا ملك له ولا سلطان ولا مال، ولا يكاد يفصح عن كلامه، فلا يفهم، كل ذلك أراد به التلييس على رعيته، فإنهم كانوا جهلة، ومن تلييسه قوله: هلا حُلِّيَ بأساورة الذهب إن كان عظيمًا، وكان الرجل فيهم إذا سودوه سوروه بسوار من ذهب، وطوقوه بطوق من ذهب، أو جاء معه الملائكة يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، فاستخف عقول قومه بهذا التلييس، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له مع فسقهم وضلالهم، فلما أسخطوا الله وأغضبوه نزل بهم العذاب وهو الغرق، فجعلهم الله قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار في استحقاق العذاب، وعبرة لمن بعدهم.

ومن تعنت قريش في كفرها وتعمدها العناد والجدل قولهم لما سمعوا قول الله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أليست النصارى يعبدون المسيح، فالمسيح في جهنم، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى، فأعرضوا عن الحق وصدوا عنه بهذه المقالة، وما ضربوا هذا المثل في عيسى إلا ليجادلوا النبي ﷺ، فهم قوم شديداً الخصومة، وكثيرو اللدد، وعظيمو الجدل، والجدل بغير الحق سبب الضلال والإضلال، وما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، وما ضلت أمة بعد نبيا إلا أعطوا الجدل، أما المجادلة بالتي هي أحسن لبيان الحق والهدى فقد أمر الله بها، وحث عليها النبي ﷺ.

والمسيح عيسى ابن مريم عبد من عباد الله أكرمه الله بالرسالة والنبوة، وجعله آية، ودلالة وحجة وعبرة لبني إسرائيل يعرفون به قدرة الله سبحانه، فإنه كان من غير أب، وكان يحيي الموتى، ويرى الأكفم والأبرص وكل مريض، ولو شاء الله أهلك المكذبين وجعل بدلًا منهم ملائكة في الأرض يخلفونهم فيها، يعمرون الأرض بدلًا منهم.

وَأَنَّهُ لَعَلَّمُ لِلْسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ
 ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ
 وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ
 ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ الْيَمِّ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ
 تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ
 بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ
 عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا
 وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
 تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ
 وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

من علامات الساعة نزول المسيح ابن مريم قبل يوم القيامة، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بنزول عيسى ابن مريم ﷺ قبل يوم القيامة، مصدقاً بمحمد ﷺ على ملته إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً، يكسر الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة فلا يسعى على شاة ولا يعير وتُرفع الشحنة والتباغض ويُنزع السم من كل ذات سم حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله، فلا شك في وقوع الساعة وعلاماتها، تصديقاً بخبر الصادق المصدوق ﷺ، فاتباع خبره وأمره هو الطريق إلى الجنة، الذي يصد الشيطان عنه، ويغوي بني آدم ليقودهم إلى النار، فقد جاءت الرسل في بيان التوحيد والتحذير من الشرك، وقد اختلف بنو إسرائيل بعد موسى ﷺ ووقعوا في الشرك، فبعث الله المسيح ابن مريم رسولاً إليهم وأنزل عليه الإنجيل، ليكون لهم هداية من الاختلاف، وأمرهم بطاعة الله، وتقواه، وألزمهم بإفراد الله بالعبادة، وهو التوحيد الذي من أجله أرسلت الرسل، فالجميع عباد الله، ويجب عليهم أن يوحدوه، ويخلصوا له العبادة فاختلفت بنو إسرائيل في عيسى ﷺ، وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً فهل ينتظر المشركون المكذبون للرسل إلا الساعة فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم، فكل صداقة وصحبة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، يعادي بعضهم بعضاً، لأنها قد انقطعت بينهم العلائق واشتغل كل واحد منهم بنفسه، ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسباباً للعذاب فصاروا أعداء، إلا ما كان لله ﷻ فإنه دائم بدوامه، لأنهم أخلاء في الدنيا والآخرة، فتلك الخلقة كانت بينهم في أسباب الخير والثواب فبقيت خلتهم على حالها، فيقال هؤلاء المتقين المتحابين في الله لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، فيذهب عند ذلك خوفهم ويرتفع حزنهم، لأن قلوبهم وبواطنهم آمنت، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم، ويبشرون بالجنة هم ومن مثلهم في العمل، ونسأوهم المؤمنين ينعمون ويسعدون، ويكرمون، ويفرحون، لهم في الجنة أطعمة يطاف عليهم بها في صحاف الذهب، ولهم فيها أشربة يطاف عليهم بها في الأكواب، مما تشتهي أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ونحوها مما تطلبه النفس وتمناه كائن ما كان، وتلد الأعين من كل المستلذات التي تستلذ بها وتطلب مشاهدتها، وفيها يخلدون لا يموتون، ولا يخرجون منها فقد صارت إليهم الجنة كما يصير الميراث إلى الوارث بما كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة، ولهم في الجنة سوى الطعام والشراب، فاكهة كثيرة الأنواع والأصناف، فلهم مع الطعام والشراب، الفاكهة لتتم النعمة والغبطة.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ
 فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾
 وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
 جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا
 فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ
 وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَئِبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ
 الْعَبِيدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ
 عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ
 الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ
 إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾
 وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن
 شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
 لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَآَنَىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

الأشقياء الذين كتبت عليهم الشقاوة فكذبوا الرسل وكفروا ببرهم أعد الله لهم من العذاب الأليم في جهنم ما لا ينقطع عنهم ساعة واحدة، يخلدون فيه، يأسون فيه من كل خير بسبب أعمالهم السيئة بعد قيام الحجاج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فَجُوزُوا بذلك جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، ومن شدة العذاب ينادون مالكا خازن النار؛ ليقبض الله أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فيجيبهم مالك بعد ألف سنة، إنكم ماكثون، لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها، فقد جاءهم الحق فلم يقبلوه، وإنما انتقادوا للباطل وعظموه، وصدوا عن الحق ورفضوه، وأحكموا كيذاً للنبي ﷺ، فكادهم الله جزاءً وفاقاً، فلئن قضا أمراً، وتحايلوا في رد الحق بالباطل بحيل ومكر، فإن الله يقضي عليهم بالعذاب، فإن الله يسمع سرهم وعلاانيتهم، والملائكة يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها، وأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة، ويقطع ما يوردونه من الشبهة، إن كان لله ولد في قولكم، وعلى زعمكم، فأننا أول من عبد الله وحده، لأن من عبد الله وحده، فقد دفع أن يكون له ولد، فتعالى الله وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفء له، فلا ولد له، فإن لم يستجيبوا للحق والهدى فليلهوا في دنياهم، ويخوضوا في أباطيلهم، وجهلهم وضلالهم حتى يوم القيامة، فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم في ذلك اليوم، فهو سبحانه إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبداه أهلها، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، فهو الحكيم في شرعه، والعليم بخلقه، فتزده الله وتعالى وتقدس خالق السموات والأرض وما بينهما ومالكهما والمتصرف فيها، بلا مدافعة ولا ممانعة، فهو الرب العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمّة الأمور نقضاً وإبراماً، وعنده علم الساعة لا يجليها لوقتها إلا هو، وإليه ترجع الخلائق، فيجازي كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يملك الذين يدعون من دونه من الأصنام والأوثان الشفاعة، لأن شفاعتهم باطلة، أما من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذن الله له، ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره من خلقهم لاعترفوا أن الله هو الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، وشكا النبي ﷺ إلى ربه قومه الذين كذبوه أنهم قوم لا يؤمنون، فأمر ألا يجيبهم بمثل ما يخاطبونه به من الكلام السيئ، ولكن يتألفهم ويصفح عنهم فعلاً وقولاً، وسيجدون عاقبة تكذيبهم في يوم القيامة، وفي الدنيا على أيدي أوليائه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب.

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ
 مُبَرَّكََةٍ ③ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ④ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ⑤
 أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا ⑥ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑦ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ⑧ إِنَّهُ هُوَ
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑨ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ⑩
 إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ⑪ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ
 وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑫ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ
 ⑬ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ⑭ يَغْشَى
 النَّاسَ ⑮ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑯ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ
 إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⑰ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑱
 ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ⑲ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا
 إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ⑳ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ
 ㉑ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ
 كَرِيمٌ ㉒ أَنْ أَدَّوْا إِلَى عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ㉓

سورة الدخان

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر الدخان فيها وأنه من علامات الساعة

ابتدأت السورة بالحروف المقطعة الدالة على بلاغة القرآن وإعجازه، أنزله الله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، في شهر رمضان، فقد أنزل جملة واحدة إلى بيت العزة في رمضان، وابتدأ نزوله مفرقاً على النبي ﷺ في رمضان في ليلة القدر منه في العشر الأواخر منه، أنزله الله بالندارة من الشرك والبشارة بالتوحيد؛ لنقوم حجة الله على عباده، تلك الليلة المباركة التي تُقدر فيها المقادير، وتنسخ فيها الملائكة من اللوح المحفوظ أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها أمراً، محكماً لا يبدل ولا يغير، قضاء الله وقدره.

فإن من رحمة الله بعباده قضاؤه وقدره بإرسال أفضل البشر وخير الرسل محمد ﷺ إلى الناس يتلو عليهم آيات الله مبينات، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فهو سبحانه السميع لمن دعاه، وسمعه وسع الأصوات كلها، وسمع الله تعالى من الصفات الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به، وهو بمعنى الإجابة وهذا من الصفات الفعلية، وبمعنى إدراك المسموع وهذا من الصفات الذاتية، وهو سبحانه العليم، وعلم الله تعالى كامل محيط بكل شيء جملة وتفصيلاً، والعلم إدراك الشيء على حقيقته، وهو سبحانه رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيها، وإن كان المشركون يشكون في ذلك مع إقرارهم به، لأنهم لو كانوا موقنين بذلك لأفردوا العبادة لله وحده لا شريك له، الذي خلقهم ورزقهم وأوجدهم هم وآباؤهم الأولين وأماهم ثم يعنتهم، ولكنهم في شك من التوحيد والبعث وفي إقرارهم بأن الله خالقهم وخالق سائر المخلوقات، وأن ذلك منهم على طريقة اللعب والاستهزاء، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينتظر فيهم يوم تأتي الساء بدخان مبين، وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي ﷺ حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً من الجهد والجوع والقحط يشملهم الدخان، ويحيط بهم حتى قالوا هذا عذاب أليم، فأتوا النبي ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا، وسيكون دخان آخر الزمان هو من أشراط الساعة، يمكث في الأرض أربعين يوماً، وهو من جملة العشر آيات التي تكون قبل قيام الساعة، والكفار مهملون رأوا من الآيات لا يتذكرون، ولا يتعظون بما نزل بهم فقد جاءهم رسول بين لهم كل شيء يحتاجون إليه من أمر الدين، والدنيا، فأعرضوا عن ذلك الرسول الذي جاءهم، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل جاوزوه، وقالوا إنما يُعلمه القرآن بشر، وقالوا إنه مجنون، فكيف يتذكر هؤلاء، ثم لما دعوا الله بأن يكشف عنهم العذاب، وأنه إذا كشف عنهم آمنوا فكشف سبحانه عنهم العذاب زماناً قليلاً، فلم ينزجروا عما كانوا عليه من الشرك، ولم يفوا بما وعدوا به من الإيمان، فبقوا على الشرك والكفر والعناد، فانتقم الله منهم بوقعة بدر، فقتل سادتهم وأشرفهم، وهم يوم القيامة العقوبة الكبرى لتكذيبهم وكفرهم، وقد أرسل الله سبحانه إلى قوم فرعون موسى وهارون عليهما السلام، فأمرهم بما شرعه الله لهم، فكذبوه، وطغوا وبغوا، وقد جاءهم موسى ﷺ رسول كريم على الله كريم في قومه، فطلب منهم أن يسلموا إليه بني إسرائيل، ويطلقوهم من العذاب، فهو رسول من الله إليهم، أمين على الرسالة غير متهم.

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا
رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِعِ بَعَادِي لِيَلَّا إِنَّكُمْ
مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ
تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً
كَانُوا فِيهَا فَكِيهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾
فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ
نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ
﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا
نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَاتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمُ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْتٍ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

دعا موسى ﷺ فرعون وقومه ونهاهم أن يستكبروا ويتعالوا على دعوة التوحيد عن اتباع آيات الله والانقياد لحججه والإيمان ببراهيمه، فقد جاءهم بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة، واستعاض بالله سبحانه لما توعده بالقتل أن يرموه بالحجارة، ويشتمونه بألسنتهم، وإن لم يصدّقوه، ويقرّوا بنبوّته، فليتركوه، ولا يتعرّضوا له بأذى، وليدعوا الأمر بينه وبينهم مسألة إلى أن يقضي الله بينهم؛ فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك ما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ فإن فرعون سيتبعه بجنوده، فلما جاوز موسى ﷺ وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم، فأمره الله أن يتركه على حاله ساكناً، يبساً كهيبته، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى، وتركوا البساتين والأنهار والآبار، والمساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة، فقد كانت الجنان بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، وزرع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وتركوا عيشة كانوا يتفكّهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، ولم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدانهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فتفقدتهم؛ فلماذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم، فما من عبد إلا وله في السماء بابان، باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكى عليه، وأنقذ الله بني إسرائيل مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهيئة الشاقة، فقد كان مستكبراً جباراً عنيداً، فاختر الله بني إسرائيل على عالمي زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك، وأعطاهم الله معجزات موسى ﷺ، اختباراً ظاهراً، وامتحاناً واضحاً لينظر كيف يعملون، والآيات: إنجاؤهم من الغرق، وخلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المنّ والسلوى لهم، والشّر الذي كفهم عنه، والخير الذي أمرهم به، ومن جهل المشركين إنكارهم البعث والمعاد، ولا حياة بعد المات، ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بأبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في هذه الدار، بل بعد انقضاءها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويعمل الظالمين لنار جهنم وقوداً، وجاء الوعيد والإنذار لهم أن يحل بهم بأس الله الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث، كقوم تبع وهم سبأ حيث أهلكهم الله وخرب بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم، والذين من قبلهم عاد، وثمود، أهلكوا بذنوبهم وكفرهم، والله سبحانه منزّه في أفعاله عن اللعب والعبث والباطل، فلم يخلق عباده عبثاً، ولم يخلق السموات والأرض لعباً، وإنما خلقهما بالحق والعدل والحكم عظيمة، ولكن الناس لا يعلمون كثيراً من حكم الله في خلقه.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى
 عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ
 إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾
 طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي
 الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
 صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
 أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ
 ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
 ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾
 كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
 فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ
 إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا
 مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ
 لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

يوم القيامة يوم يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين، وهو ميقات لجميع الخلق يجمعهم الله كلهم أولهم وآخرهم، في ذلك اليوم لا ينصر قريب قريباً، ولا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنون، فإنهم يؤذن لهم في الشفاعة فيشفعون، ولا ينفع في ذلك اليوم إلا من رحمه الله ﷻ فهو العزيز ذو الرحمة الواسعة.

والكفار في النار ليس لهم طعام إلا شجرة الزقوم وهي طعام الفجار ليس لهم طعام غيرها، والزقوم لو وقعت منه قطرة في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معابشهم، يغلي في بطن أهل النار كغلي الحميم من حرارتها ورداءتها، ويقال للزبانية خذوه؛ فيبتدره سبعون ألفاً منهم، ويسوقونه سحجاً ودفعاً على ظهره إلى وسط النار، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه، حتى تترق من كعبه، أعاذنا الله تعالى من ذلك، ويقال له على وجه التهكم والتوبيخ ذق إنك أنت العزيز الكريم، إن هذا ما كنتم به تكذبون.

وأما السعداء في الآخرة في الجنة، قد آمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيد، وسائر الآفات والمصائب، في جنات وعيون، يلبسون رفيع الحرير، وما غلظ من الحرير، وما فيه بريق ولمعان، يتقابلون على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره، وأعطاهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتي كأنهن الياقوت والمرجان، ومهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا، لا يذوقون فيها الموت أبداً، لأنه يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.

ويقال لأهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، ومع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب؛ كل ذلك بفضل الله عليهم وإحسانه إليهم، نسأل الله الجنة والدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

وقد يسر الله هذا القرآن الذي أنزله سهلاً واضحاً بيناً جليلاً بلسان عربي مبين، الذي هو أفصح اللغات وأجلها وأحلاها وأعلاها لعلهم يفهمون ويعملون، ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح، من الناس، من كفر ومن خالف وعاند، فسيعلمون في الدنيا وفي يوم القيامة لمن يكون النصر والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لمحمد ولإخوانه من النبيين والمرسلين ومن اتبعهم من المؤمنين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَةٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ (٤) وَأَخْلَفَ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِنْ رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَةٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ۝ (٥) تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ
اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ (٦) وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ (٧) يَسْمَعُ ءَايَاتِ
اللَّهِ تُنَالِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
۝ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ۝ (٩) مَنْ وَرَّاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا
وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ (١٠) هَذَا
هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ ۝ (١١)
﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ (١٣)﴾

سورة الجاثية

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر حال الأمم يوم القيامة فيها

ابتدأت السورة بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن، الذي أنزله الله ليكون هداية للبشرية، وفيه الأمر بالتفكير في آلاء الله ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات الأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبها دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياؤه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق، فيحيي به الأرض بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، وتقلب الرياح، تهب تارة من جهة وتارة من أخرى، وتارة تكون حارة وتارة تكون باردة، وتارة نافعة، وتارة ضارة، كل ذلك آية وعظة وعبرة للمؤمنين الذين يعقلون آيات الله فتزيدهم يقيناً وإيماناً، ويتدبرون القرآن فيجدون العظة والعبرة، فأيات القرآن فيها من الحجج والبيّنات، وتتضمن الحق من الله، فمن لم يؤمن بها ولم ينقد لها فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمن، فويل لكل كذاب حلاف مهيّن أنيم في فعله وقيله كافر بآيات الله، يسمع آيات الله تقرأ عليه، ثم يصّر على كفره وجحوده استكباراً وعناداً، كأنه ما سمعها، فله عند الله يوم القيامة عذابٌ أليمٌ موجعٌ، وإذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذة سخرية وهزواً فله عذاب مهين في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ وذلك في جهنم يوم القيامة، ولا ينفعه ماله ولا أولاده، ولا تغني عنه الألهة التي عبدها من دون الله شيئاً، فهذا القرآن هدى للبشرية ولكن من كتب عليه الشقاء فلا يجد هداية القرآن طريقاً، فله عذاب مؤلم موجع بسبب كفره وعنده، ومن نعم الله على عبده ما سخر لهم من البحر تجري السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها فتحملهم في المتاجر والمكاسب لعلهم يشكروا الله على حصول المنافع المجلوبة إليهم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، وجميع ما ينتفعون به، فالجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ من عنده وحده لا شريك له في ذلك.

قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ
 قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ
 وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
 بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيْنَتٍ مِنَ الْأَمْرِ
 فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ
 رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
 ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
 أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ
 شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ
 ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
 ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ
 مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
 وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

أمر الله الذين آمنوا أن يصفحوا عن المشركين، ويتحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد، فإذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ والجميع يعودون إلى الله يوم القيامة فيعرضون بأعمالهم عليه، فيجزئهم بأعمالهم خيرا وشرها، وقد أنعم الله على بني إسرائيل بإنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعل الملك فيهم، ورزقهم من المأكول والمشارب، وفضلهم على العالمين في زمانهم، وأعطاهم الله الحجج والبراهين والأدلة القاطعات، فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، والله سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ وعليهم التمسك بشريعة محمد ﷺ التي أوحيت إليه من ربه لا إله إلا هو، ويجب عليهم الإعراض عن المشركين، وعدم اتباعهم في أهوائهم فإن اتباعهم ضلال وإفلاس، ودمار وهلاك، والمشركون أولياء بعض، والله ولي المتقين يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، وهذا القرآن براهين ودلائل للمؤمنين فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين والدنيا، فهو بصائر للقلوب، ورشد وهداية إلى الطريق المؤدي إلى الجنة لمن عمل به، ورحمة من الله في الآخرة، يشفع لأهله، يقول القرآن رب منعتهم النوم بالليل فشفعني فيه فيشفع، وينزلهم المنازل العالية في الجنة، يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها، ويلبس أهل القرآن الحلل يوم القيامة؛ فإذا جاء صاحب القرآن يوم القيامة يقول القرآن يا رب حلّه فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ارض عنه فيرضى عنه رب العالمين، فالقرآن شافع مشفع ومآخِلٌ مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار، والماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران، من ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيج به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم، فلا يستوي المؤمنون والكافرون، ولا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة؛ فالذين عملوا السيئات وكسبوها، لا يساؤون بالذين آمنوا وعملوا الصالحات في الدنيا والآخرة، ومن ساوى بينهم فقد ساء ظنه بربه، وفسد حكمه أن يساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار، فقد خلق الله السموات والأرض بالعدل، ولتُجزى النفوس بما عملت، وربك لا يظلم أحداً.

أَفْرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ
وَقَلْبِهِ ۖ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ۗ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا
إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُتِلَى
عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُتَوَاتَبُ بَابِنَا إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ
﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَآئِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
مُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ
مَا نَذَرِي مَا السَّاعَةُ ۖ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَقِيقِينَ ﴿٣٢﴾

الهمى أساس كل خطيئة، وباب كل فتنة، ومن اتخذ هواه إلهًا يأتمر به فما رآه حسنًا فعله وما رآه قبيحًا تركه فهو لا يهوى شيئًا إلا عبده، فقد ضل ضلالًا مبینًا، فقد أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه، فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئًا يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها؛ ومن جهل المشركين أنهم قالوا: ما الحياة إلا الحياة التي نحن فيها، يصيبنا الموت والحياة فيها، وليس وراء ذلك حياة، ونموت نحن، ويحيا فيها أولادنا، وما يهلكنا إلا الموت، مع مرور الأيام والليالي إنكارًا للبعث وتكذيبًا بالآخرة، وليس عندهم علم بهذا وإنما يتبعون الظن، وإذا ثلثت آيات القرآن على المشركين بينات واضحات ظاهرة المعنى تدل على البعث بعد الموت ما كان لهم حجة ولا متمسك إلا هذا القول الباطل: اتنوا بآبائنا، فليس في هذا القول من الحجة في شيء، وإنما سباه الله حجة تهكمًا بهم، ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يردّ عليهم، أن الله يحييهم في الدنيا، ثم يميتهم عند انقضاء آجالهم، ثم يجمعهم بالبعث والنشور؛ لا شك في ذلك لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولذلك ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد؛ لأنهم لم يقدروا الله حق قدره وهو مالك السموات والأرض، الحاكم فيها في الدنيا والآخرة؛ ويوم تقوم القيامة يحسر الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات، يوم تميز الأمم، وتجتثوا كل أمة على ركبها من الشدة والعظمة، إذا جيء بجهنم؛ فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول نفسي نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى ليقول، لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك اليوم مريم التي ولدتي، كل أمة تُدعى إلى كتاب أعمالها، فيجازون بأعمالهم خيرها وشرها، فكتاب الأعمال يستحضر جميع أعمالهم من غير زيادة ولا نقص، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدًا، فقد كان الحفظة تكتب أعمالهم عليهم، تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر مما كتبه الله في الأزل على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، فالذين آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات، وهي الخالصة الموافقة للشرع، يدخلهم رهم في الجنة، وذلك هو الفوز البين الواضح، والذين كفروا فيقال لهم تقريراً وتوبيخاً: أما قرئتم عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها، وكنتم قومًا مجرمين في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب، وإذا قال لكم المؤمنون أن الساعة حق والبعث بعد الموت حقيقة، قلتم لا نعرفها، إن تنوهم وقوعها إلا توهّمّا، وما نحن بمتحققين.

وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾
 وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا
 لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا وَغَرَّتْكُمُ
 الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ ﴿٣٥﴾
 فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
 الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
 أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ
 لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

يوم القيامة يظهر للمشرّكين عقوبة أعمالهم السيئة، ويحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من العذاب والنكال، ويقال لهم اليوم نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم كما نسيتم الآخرة فلم تعملوا لها لأنكم لم تصدقوا بها، فالنار مسكنكم ومستقرّكم الذي تأوّنوا إليه وما لكم من ينصركم ويمنع عنكم العذاب، بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً، وخدعتم الدنيا بزخارفها وأباطيلها، فظننتم أنه لا دار غيرها، ولا بعث ولا نشور، فاليوم لا يخرجون من النار، ولا يطلب منهم العتبي، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب، فله الحمد رب السموات ورب الأرض وما فيها؛ وهو رب العالمين كلهم، وله السلطان العظيم الممجّد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه، وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع، والحكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو.

سورة الأحقاف

وهي سورة مكية، وسميت بذلك لذكر الأحقاف فيها، وهي أرض قوم عاد

بدئت السورة بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن وبلاغته، الذي أنزله الله على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، فالله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، لا على وجه العبث والباطل، وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص، والذين كفروا، لاهون عما أنذروا، وقد أنزل إليهم كتاباً وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله، وسيعلمون عاقبة شركهم وكفرهم وعنادهم وجحودهم يوم القيامة؛ فالذين يعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان ماذا خلقوا، وأي مكان استقلوا بخلقه من الأرض، وهل لهم اشتراك في خلق السموات أو تدبيرها، والحق أنهم ما يملكون من قطمير، فإن الملك والتصرف كله إلى الله ﷻ فكيف يعبد العباد مع الله غيره ويشركون به، فمن أرشدهم إلى الشرك، ومن دعاهم إليه، فليأتوا بكتاب من كتب الله المنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمرهم بعبادة الأصنام، أو دليل يبيّن على الشرك، إن كانوا صادقين، فلا دليل لهم نقلي ولا عقلي على ذلك؛ فلا أضل ممن يدعو أصناماً ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد حجارة صم.

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا
تُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ
وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَنَامَنَ وَاسْتَكَبَرْتُمْ
عَنِ اللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ
فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ
إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا
اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة تبارأت الأصنام من المشركين، وكانت أعداء لهم، وتكذبهم وتعادهم بلسان الحال لا بلسان المقال، وأما الملائكة، والمسيح، وعزير، والشياطين، فإنهم يتبرءون ممن عبدتهم يوم القيامة، ومن كفر المشركين وعنادهم، أنهم إذا تليت عليهم آيات الله، واضحة المعاني ظاهرة الدلالة، قالوا هذا سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا، واتهموا النبي ﷺ بالكذب، وما علموا أنه لو أن النبي كذب على الله لعاقبه الله أشد العقوبة، والله أعلم بما يقولون في القرآن، ويخوضون فيه من التكذيب له، والقول بأنه سحر وكهانة، والله يشهد أن القرآن من عنده، وأن النبي قد بلغه، ويشهد عليهم بالتكذيب والجحود، والله الغفور لمن تاب وآمن، وصدق بالقرآن وعمل بما فيه، وهو رحيم بالمؤمنين، والرحمة صفة حقيقية ثابتة لله تعالى دل عليها اسم الرحيم، وليست إرادة الإحسان ولا الإحسان نفسه، وإنما إرادة الإحسان والإحسان نفسه من آثار هذه الرحمة، ومن أثر هذه الرحمة أنه يرحم بهذه الرحمة من يستحقها، وخاتم الأنبياء محمد ﷺ ليس بأول رسول، بل قد جاءت الرسل من قبله، فقد أرسل الله قبله جميع الأنبياء إلى الأمم، والرسول لا يدري ما يفعل به ولا بمن يدعوهم في الدنيا، هل يخرج كما أخرجت الأنبياء من قبله، أم يقتل كما قتلت الأنبياء من قبله، ولا يدري أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون، ولا يدري أيخسف بهم أو يرمون بالحجارة، أما بالنسبة إلى الآخرة فإنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وإنما النبي عليه الصلاة والسلام يتبع ما ينزله الله عليه من الوحي، وهو نذير بين النذارة، وأمره ظاهر لكل ذي لب وعقل، وهذا القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، وكفر به المشركون حقاً، فما ظن المشركين أن الله صانع بهم وقد كفروا وكذبوا بالكتاب الذي جاء به رسوله وأمره بإبلاغه لعباده، وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبل محمد ﷺ، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به فآمن من شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته، آمن بنبيه وبكتابه، وكفر المشركون بنبيهم وكتابهم وقد آمن بالقرآن من بني إسرائيل مثل عبد الله بن سلام وغيره، وقال الذين كفروا: لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجهة وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً، وأخطأوا خطأ بيناً، فهم لما لم يهتدوا بالقرآن قالوا إنه كذب مأثور عن الأقدمين، وانتقصوا القرآن وأهله، ومن قبل القرآن التوراة كتاب يقتدى به في الدين، ورحمة من الله لمن آمن به قبل نزول القرآن، وهذا القرآن مصدق لما قبله من الكتب فصيحاً بيناً واضحاً، مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين، الذين جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة، لا يخافون من وقوع مكروه بهم فيما يستقبلون، ولا يجزنون من فوات محبوب، وذلك مستمر دائم، وهم أصحاب الجنة دار المؤمنين، مخلدون فيها بسبب أعمالهم التي عملوها من الطاعات لله، وترك معاصيه.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي
ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِلَيَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
نَنْقِبُلُهُمْ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ
الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ
لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ أَنِّي آتِعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ
قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ
مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذَهَبَتْكُمْ طَبِيعَتُكُمْ
فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمَنَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ
بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

الإحسان إلى الوالدين، قرينة وطاعة وبر ووفاء، وقد أوصى الله عباده بالوالدين إحساناً إليهما وحنواً عليهما، فقد قاست الأم بسبب الولد في حال حمله مشقة وتعّباً من وحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما ينال الحوامل من التعب والمشقة، ووضعته بمشقة من الطلق وشدته، ولاقت في إرضاعه وحضانه آلاماً وتعّباً ومشقة، فمدة الرضاعة سنتان، ومع أقل الحمل ستة أشهر تكون المدة ثلاثين شهراً، فإذا قوى وشب وبلغ أربعين سنة تنأى عقله وكمل فهمه وحلمه، فعليه أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ، ويعزم عليها، ويسأل ربه أن يلهمه شكر نعمته، وأن يوفقه لحسن العبادة وصلاح العمل، يرضي بذلك ربه وخالقه، ويدعو لوالديه ويستغفر لهما، ويدعو بصلاح نسله وعقبه، فاللهم ارحم الدنيا وأصلح ذريتنا، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمك، مثنين بها عليك قابلين، وأتمها علينا، فالتائبون إلى الله المنيون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، وهم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأناب؛ ووعد الله هو الصدق لا يخلف الله الميعاد، وأما حال الأشقياء العاقين للوالدين الذين جحدوا الإحسان وبادروا إلى العقوق فقد توعدهم الله بالنار يوم القيامة، ووصف القرآن فئة من أبناء المشركين أسلم آباؤهم ودعواهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم، وأغلظوا لهم القول فضمّوا إلى الكفر شنيع عقوق الوالدين وهو أقبح الأفعال لمنافاته الفطرة التي فطر الله الناس عليها لأن حال الوالدين مع أبنائهم يقتضي معاملتهما بالحسن، فهم ينكرون البعث بعد الموت والديهم يسألون الله فيهم أن يهديهم ويقولون لهم: ويليك آمن إن وعد الله حق فيقول: ما هذا الذي تقولانه من البعث إلا أحاديث الأولين، وأباطيلهم التي سطرّوها في الكتب، وهذا يعم العاقين الذين يعقون والديهم وهم يتسبون للإسلام، فإن العقوق كبيرة من كبائر الذنوب فمن عق والديه فقد وجب عليه العذاب، كما وجب على كثير من الأمم المكذبة من الجن والإنس الذين خسروا الدنيا والآخرة، ولكل فريق من الفريقين المؤمنين، والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم فدرجات أهل النار تذهب سفلاً، ودرجات أهل الجنة تذهب علواً، وأعمالهم توفى لهم لا يظلمهم الله مثقال ذرة فما دونها، ويقال لهم يوم القيامة تقرّباً وتوبيخاً: اتبعتم الشهوات واللذات التي في معاصي الله سبحانه، ولم تبالوا بالذنوب تكذيباً منكم لما جاءت به الرسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب فالיום تجزون بالعذاب الذي فيه ذل لكم، وخزي عليكم، بسبب تكبركم عن عبادة الله، والإيمان به وتوحيده، وبما كنتم تخرجون عن طاعة الله، وتعملون بمعاصيه.



* وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا
 بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ
 وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾
 فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا
 بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ
 شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ
 وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
 وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ
 أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
 ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
 بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

أرسل الله نبيه هودًا ﷺ إلى عادٍ الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف، وهي الجبال من الرمل، وتقع جنوب الجزيرة العربية، وقد أرسل الله إلى من حول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، فقالوا هود ﷺ أجئنا لتصدنا عن آلهتنا، وتعملوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم لوقوعه، فقال لهم هود ﷺ الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به، ولكنكم قوم لا تعقلون ولا تفهمون، فلما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه سبحانه سحاب ممطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، فكان العذاب الذي استعجلوه، ريجًا تخرب كل شيء من بلادهم مما من شأنه الخراب بإذن الله لها في ذلك، فأصبحوا وقد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم بقية، وهذا جزاء من كذب رسل الله، وخالف أمر الله، وكان النبي ﷺ إذا رأى الغيم يخاف، ويقول: "ما يؤمني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا".

ولقد مكن الله للأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطاهم منها ما لم يعط من بعدهم، وقد أعرضوا عن قبول الحجة والتذكر مع ما أعطاهم الله من الحواس التي بها تدرك الأدلة، فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد، وصحة الوعد والوعيد، ولم ينتفعوا بوجه من وجوه النفع لأنهم كانوا يحددون دعوة التوحيد، وقد أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، ويكذبون به ويستبعدون وقوعه، فليحذر كل إنسان أن يكون مثلهم، فيصيبه مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول ممن حول مكة كعادٍ، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها، وقد بينت لهم الحجج ونوعت؛ لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا، فلم ينصرهم من عذاب الله ناصر، لم تنصرهم آلهتهم التي يتقربون بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم، ولم تمنعهم من الهلاك الواقع بهم، بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليها، وهذا من كذبهم وافتراءهم في اتخاذهم إياهم آلهة، قد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتقادهم عليها، وتلك نهاية كل مكذب وجاحد ومعاند، الزوال والهلاك، وفي ذلك عبرة وعظة لهذه الأمة، أن تعلم أن نهاية كل طاغوت ومجرم ومحاد لله ولرسوله الهلاك والذلة في الدنيا قبل ذل وهوان الآخرة، وأنه مهما طال عمر الباطل فإن مآله إلى الزهوق والزوال، وأن الحق سينتصر في النهاية، لا محالة، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ
 (٢٩) قَالُوا يَتَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
 (٣٠) يَتَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَغَ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

كان رسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة، بنخلة في طريقه إلى سوق عكاظ، فلما سمع الجن القرآن استمعوا له، فقالوا هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشd فأمنّا به، ولن نشرك بربنا أحداً، ولم يشعر رسول الله ﷺ بأمرهم حتى أنزل الله عليه خبرهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً قومًا بعد قوم، وفوجًا بعد فوج، وإنذار الجن لقومهم بالقرآن الذي أنزل بعد موسى ﷺ، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى ﷺ أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وقليل من التحليل والتحرّيم، وهو في الحقيقة كالمتّمس لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ ووصفوا القرآن أنه يصدق الكتب المنزلة قبله على الأنبياء، يهدي إلى الحق في الاعتقاد والإخبار، وإلى طريق الجنة والقرآن يشتمل على شيئين خبر وطلب، فخره صدق، وطلبه عدل، ودعوا قومهم لتصديق رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه، لأن الله أرسله إلى الثقلين الإنس والجن، وتصديق الرسول ﷺ سبب لمغفرة الذنوب والوقاية من عذاب الله، وجزاء المؤمنين من الجن كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، وقدرة الله شاملة على كل من كذب وتولى من الجن والإنس، لا يجيرهم من الله أحد، وليس لهم من دون الله أنصار يمنعونه من عذاب الله، فهم في ضلال ظاهر واضح، وهؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد، ألم يعلموا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعجز عن خلقهن، بل قال لها: كوني، فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلّة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء، ويوم القيامة حين يعرض الكفار على النار، يقال لهم، أليس هذا العذاب حق، فلا يسعهم إلا الاعتراف، فيقال لهم، فذوقوا العذاب بما كنتم تتجحدون عذاب النار وتكفرونه في الدنيا، وأمر الله رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه كما صبر أولو العزم من الرسل على تكذيب قومهم لهم، وأولو العزم ﷺ نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، وأمره ألا يستعجل لقومه حلول العقوبة بهم، فهم حين يعاينوا يوم القيامة وشدائده وطوله يستقصروا مدة لبثهم في الدنيا وفي البرزخ لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم، وهذا القرآن بلاغ، ففيه النجاة والمخرج من الفتن، وفيه التوحيد، والإخلاص ولا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة، الواقعون في معاصي الله ولا يهلك على الله إلا هالك مشرك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝^(١) وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝^(٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝^(٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى
إِذَا اتَّخَضْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مَتَابَعْدُ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ
أُوزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ
بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝^(٤) سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝^(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ۝^(٦) يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝^(٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعَسَّاهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝^(٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝^(٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۝^(١٠)
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۝^(١١)

سورة محمد

وهي سورة مدنية سميت بذلك لذكر اسم النبي ﷺ وتسمى سورة القتال لذكر أحكام القتال

الكفار الذين كذبوا بآيات الله، وصدوا غيرهم عن الإسلام، أبطل الله أعمالهم وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثواباً، فهي هباء منثور، وما يعملون من خير في الدنيا يعجل لهم جزاؤه في الحياة الدنيا، وأما الذين آمنوا بقلوبهم وسرائرهم، وانقادوا لجوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، وأمنوا ببعثة محمد صلوات الله وسلامه عليه الذي جاءهم بالحق والهدى من ربهم يكفر الله عنهم سيئاتهم ويصلح شأنهم وحالهم وأمرهم. وإنما أبطل الله أعمال الكفار، وتجاوز عن سيئات الأبرار، وأصلح شأنهم؛ لأن الذين كفروا اختاروا الباطل على الحق، والذين آمنوا بسبب اتباعهم للحق الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان، وعمل الطاعات، والله يبين للناس مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، وأمر الله المؤمنين في حال حروبهم مع المشركين أنهم إذا واجهوهم فليحصدوهم حصداً بالسيوف، حتى إذا أهلكوهم قتلاً، فليشدوا وثاق الأسارى الذين يأسروهم، ثم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة يخبرون في أمرهم، إن شاءوا أطلقوهم، بدون فداء، وإن شاءوا أخذوا منهم الفداء، وإن شاءوا قتلوهم، وذلك إلى غاية هي أن لا يكون حرب مع الكفار، ولا يكون دين غير دين الإسلام، ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، ولكن شرع الجهاد وقتال الأعداء للأمة ليقع الابتلاء والاختبار، والشهداء في سبيل الله لن تذهب أعمالهم بل يكثرها الله لهم وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله في طول برزخه، فيعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه، يكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمن من الفرع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحل حلة الإيمان، ويهديهم إلى الجنة، وأهل الجنة يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً، وإن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا.

ويصلح الله أمرهم وحالهم، ويدخلهم الجنة عرفهم بها، وهدهم إليها، وبين الله طريق النصر للمؤمنين بأن ينصروا الله في أنفسهم، وعلى أرضهم بالعمل بطاعة الله وتحقيق التوحيد، فحينئذ ينزل عليهم نصر الله وتأنيده، فإن الجزاء من جنس العمل؛ فيثبت الله أقدامهم، حين ملاقات الأعداء، ويثبت أقدامهم على الصراط، وأما الكفار المكذبين فهلاكاً لهم وشقاء، أحبط الله أعمالهم وأبطلها؛ والسبب كرههم ما أنزل الله على رسوله من القرآن، لاشتغالهم على التوحيد والبعث، فهم في ضلال فلم يعتبروا ويتعظوا بمصارع الظالمين قبلهم، وكيف كانت عاقبة تكذيبهم وكفرهم، وكيف نجى الله المؤمنين من بين أظهرهم؛ لأن الله مولى المؤمنين والكافرين لا مولى لهم.

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ
 وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ
 الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ
 مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ
 الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ
 يَنْغَيِّرْ طَعْمَهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى
 وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ
 وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
 حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا
 أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ
 أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا
 السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ
 ذِكْرُنَهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
 وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

كتب الله للمؤمنين الجنة، يدخلهم في نعيمها وأنهارها، وقصورها، يتمتعون فيها كما حبسوا أنفسهم عن شهوات الدنيا، نسأل الله ألا يجرمنا ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين الجنة، وأما الكفار في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، وليس لهم همة إلا في ذلك، يتمتعون بمتاع الدنيا ويتنفعون به؛ كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عن العقابة لاهون بها هم فيه، والنار مقامهم يقيمون فيها، ومنزلهم الذي ينزلونه ويستقرون فيه جزاء لهم، وقد أهلك الله الأمم الذين كذبوا الرسل بسبب كفرهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فإذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والآخرة، فإن الله رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يضاعف على الكافرين به في معادهم، ولا يستوي عند الله من كان على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه وبيا أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم وبيا جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة وبين من زين له سوء عمله، فكفر بالله وتعدى محارم على الله، واتبع هواه فكان من الغاوين، فأهل الإيثار مألهم إلى الجنة التي وعدهم ربهم بها، فيها أنهار من ماء غير متغير، صافٍ لا كدر فيه، وأنهار من لبن في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وأنهار من خمر ليست كريمة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، لا تريل العقل ولا تغطيه، وأنهار من عسل في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، ولهم في الجنة من كل الثمرات لهم من كل فاكهة زوجان، ولهم المغفرة والرضوان من الله، فلا يستوي هؤلاء الذين ذكرت منزلتهم من الجنة مع من هو خالد في النار، فهؤلاء في الدرجات وهؤلاء في الدرجات، وسقوا ماء النار ماء حارًا شديد الحر، لا يستطاع، فقطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عيادًا بالله من ذلك، ولا يستوي المؤمنون الذين يفهمون كلام الله وكلام رسوله ﷺ ويعملون به والمتافقون في بلادهم وقلة فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده قالوا للصحابة ماذا قال النبي الساعة على طريقة الاستهزاء، فإننا لم نلتفت إلى قوله، فقد طبع الله على قلوبهم فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح، وإننا يحكمون أهواءهم، والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، وألهمهم رشدهم، فهل ينتظر المكذبون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم غافلون عنها، فقد جاء أمارات اقترابها، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر صلوات الله وسلامه عليه، بأمارات الساعة وأشراتها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، وكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك، ولا ينفع إلا العلم بالتوحيد والعمل به وما تقتضيه كلمة الإخلاص لا إله إلا الله مع كثرة الاستغفار، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات، والعلم يكون قبل القول والعمل، فلا ينفع العمل بلا علم، والله يعلم تصرف العباد في نهارهم ومستقرهم في ليلهم.

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ
مُحْكَمَةٌ وَذِكْرُهَا يُقْتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ
طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢٠﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٢﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُتْرَاتِ
أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ
مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ
لَهُمْ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ
اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ
﴿٢٥﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ
وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٧﴾ أَمْ حَسِبَ
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٨﴾

المؤمنون الصادقون يتمنون نصره الإسلام، وانتشاره في أرجاء المعمورة، ودخول الناس في دين الله، ومن طرق نشر الإسلام مجاهدة من يصد الناس عن الإسلام، فكانوا يتمنون شرعية الجهاد، فلما فرضه الله ﷻ، وأمر به ونزلت أحكام القتال؛ خاف المنافقون من الأعداء، ونظروا إلى رسول الله ﷺ نظر المغشي عليه من الموت، من فزعهم ورعيتهم وجبنهم من لقاء الأعداء، ولو أنهم سمعوا وأطاعوا، حين سماعهم الآيات فإذا جد الحال، وحضر القتال، أخلصوا الله النية، لكان النصر حليفهم والأجر لهم، فهو لا إن تولوا عن الجهاد وتركوه انشغلوا بالإفساد في الأرض بإثارة الفتن، والخروج على ولاة أمرهم، وحاربوهم، وقطعوا أرحامهم بالبغي، والظلم، والقتل، فعادوا إلى الجاهلية الجهلاء، يسفكون الدماء ويقطعون الأرحام؛ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال، فما من ذنب أحرى أن يجعل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم، فقد جاء في القرآن هدايتهم ونجاتهم، فلو تدبروا القرآن وفهموه، ولكن على قلوبهم أقفال، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معاني القرآن، فالذين فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر من بعدما تبين لهم الحق وعرفوا دين الله، فقد استحوذ عليهم الشيطان وزين لهم الكفر وحسنه، وغرهم وخدعهم، وسبب ذلك كرههم للإسلام والرسول والمسلمين، وأطاعوا الكفار واثوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذه طريقة المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ والله يعلم ما يسرون وما يخفون، وهو مطلع عليهم وعالم بهم، فكيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، يقال لهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون، بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي، وكرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد والطاعة فأبطل أعمالهم التي صورتها صورة الطاعة، وإلا فلا عمل لكافر.

فهل يعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وتلك حال أهل النفاق يظنون أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم، ويظنون أنهم يخادعون الله وهو خادعهم، ويخادعون الرسول ﷺ والمؤمنين، ويراءون في أعمالهم، وإذا خلا بعضهم ببعض استهزؤوا بالمؤمنين، فهم قد خدعوا أنفسهم، بإبطان كفرهم وإظهار الإسلام ظنًا منهم أن الله لا يعلم ما في ضمائرهم وما توسوس به صدورهم، وظنهم ذلك هو الذي أبقاهم على الكفر، وصدهم عن الحق.

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي
لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ
الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ ﴿٣٢﴾
﴿٣٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ
وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تَتَّقُوا يَوْمَ تُؤْتَوْنَ أَجُورَكُمْ
وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفَفْكُمْ
تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَصْغَرَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤِلَآءِ تَدْعُونَ
لِلنُّفُوقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّن يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ
فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾



المنافقون يتخفون بلباس الإسلام الظاهري ظناً منهم أنهم يمدعون المؤمنين، ولو شاء الله لأرى نبيه ﷺ أشخاصهم، فعرفهم عياناً، ولكن لم يشأ ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى علمها، ولكنهم يعرفون بعلاوات منها ما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، فما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفتلت لسانه، والله شرع لعبادة الشرائع بالأوامر والنواهي ليختبرهم حتى يتبين المجاهد والصابر على دينه من غيره، ويظهر الله الأعمال ويكشفها بعصيان من يعصي الله، وبطاعة من يطيع الله، ومن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، فإنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات، ويجب على عباد الله المؤمنين طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، وليحذروا من الردة عن دين الله بالقول أو الفعل، فهي مبطلّة للأعمال، فمن مات على الشرك والكفر فلن يغفر له، وعلى المؤمنين ألا يضعفوا عن الأعداء، ويدعوا إلى المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينهم وبين الكفار في حال قوتهم وكثرة عددهم وعدتهم؛ وأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم إلى ذلك، والله مع المؤمنين، وهذه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ولن يحبط الله أعمال المؤمنين ويبطلها ويسلبهم إياها، بل يوفيهم ثوابها ولا ينقصهم منها شيئاً، فهذه الحياة الدنيا لعب ولهو، وتفاخر في الأموال والأولاد، والسعيد من تزود فيها بالإيمان والتقوى، فسيجد ثوابها عند ربه، وأما ما وهبه الله لعباده من زينة الدنيا من الأموال، فإن الله لم يشرع الإنفاق لعباده إلا لما فيه خيرهم في الآخرة، والله غني عنهم لا يطلب منهم شيئاً، وإنما فرض عليهم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانهم الفقراء ليعود نفع ذلك عليهم، ويرجع ثوابه إليهم، والله لم يأمر عباده بإخراج جميع أموالهم، فإن ذلك سبب لأن يبخلوا بها، ويمتنعوا من الامتنال، وقد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان، فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيها هو أحب إلى الشخص منه، والمؤمنون يدعون لينفقوا في الجهاد وفي طريق الخير، فمنهم من يبخل ويشح بما يطلب منه، ويدعى إليه من الإنفاق في سبيل الله، فإذا كان من الناس من يبخل بالتسريح من المال، فكيف لا يبخل بالكثير وهو جميع الأموال، ولذلك لم يكلف الله عباده بها لا يطيقون، وضرر البخل عائد على النفس يمنعها الأجر والثواب ببخله، والله الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، والعباد فقراء إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه، ومن أعرض عن الإيمان والتقوى، استبدل الله قوماً آخرين يكونون مكانهم، هم أطوع لله منهم ولا يكونوا أمثالهم في التولي عن الإيمان والتقوى، وفي البخل والإنفاق في سبيل الله.

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِأَنهَا
٢٩أُتِيَتْ بِهَا
٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
 وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾
 وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
 الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
 سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ
 الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ
 بِاللَّهِ ظَنٍّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
 شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

سورة الفتح

وهي سورة مدنية وسميت بذلك لذكر الفتح فيها

قضى الله وقدر الفتح لرسوله ﷺ والمؤمنين، وهو فتح الحديبية، فلم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم، أسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام، وفتح الحديبية توطئة لفتح مكة وكان الصلح من الفتح، فغفران الذنوب تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، فأنم الله عليه النعمة بالنبوة والحكمة، ودخول الناس دين الله أفواجًا، فاجتمع له مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية به إلى الصراط المستقيم وهو الإسلام، وبسبب خضوعه لأمر الله رفعه الله ونصره على أعدائه نصرًا غالبًا، وهو سبحانه الذي أنزل الطمأنينة والوقار في قلوب المؤمنين لثلاث تنزع نفوسهم لما يرد عليهم، فقد بعث الله رسوله بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوه زادهم الصلاة ثم الزكاة ثم الصيام ثم الحج ثم الجهاد، حتى أكمل لهم دينهم، فكلما أمروا بشيء فصدقوه ازدادوا تصديقًا إلى تصديقهم، وبقينًا مع يقينهم، ولو شاء الله لانتصر من الكافرين، فلو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ والله العليم بعباده والحكيم في شرعه، ليدخل المؤمنين والمؤمنات المجاهدين والمجاهدات جنات تجري من تحتها الأنهار في النعيم المقيم، ويكفر عنهم ما سلف من سيئاتهم فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستريح ويرحم ويشكر، وهذا هو الفوز العظيم، وأما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات الذين يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية فإن العذاب والهلاك الذي يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم ويعددهم الله من رحمته، وعليهم غضب الله وهو العذاب الأليم في جهنم، وفيها من جند الله الذين أعدهم لعذاب المكذبين الظالمين، فقد أرسل الله تعالى نبيه محمدًا صلوات الله وسلامه عليه شاهدًا على الخلق، ومبشرًا للمؤمنين، ونذيرًا للكافرين، ليحصل الإيمان بالله وبرسالته التي بعث بها رسوله ﷺ وتقوم الأمة بحقوق هذا النبي من الإعزاز والتعظيم والتوقير والاحترام والإجلال والإكرام، ويعظم الله بالتوحيد وتنزيهه الله عن النقائص في جميع الأحوال أول النهار وآخره.

إِنَّ الَّذِيكُ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
 فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ
 اللَّهُ فَمُسَوِّتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ
 مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
 بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
 شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى
 أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءَ
 وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا
 أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى
 مَغَائِمٍ لِتَأْخُذْوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا
 كَلِمَ اللَّهِ ۚ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ
 فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

لما خرج النبي ﷺ وأصحابه للعمرة وصدته قريش عن البيت الحرام، وبعث عثمان إلى مكة ليخبرهم أنه لم يرد إلا العمرة، وأشيع أن عثمان قد قتل، بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت أن لا يفروا، فهم بايعوا رسول الله، وهم في الأصل يبايعون الله، لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة.

وكانوا أربع عشرة مائة، ويد الله بالوفاء بما وعدهم من الخير فوق أيديهم، ويد الله فوق أيديهم على حقيقتها وظاهرها، وذلك لأن يد الله تعالى صفة من صفاته وهو سبحانه فوقهم على العرش استوى، فكانت يده فوق أيديهم، وهو سبحانه معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ، فمن نقض البيعة، فإننا يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه، ومن أوفى بالعهد فله الثواب الجزيل وهو الجنة، وقد كان رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا، فتناقل عنه كثير من الأعراب وتحلفوا واعتلوا بالشغل بالنساء والذراي، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يستغفر لهم عن تحلفهم عنه، فكذبهم الله ﷻ في اعتذارهم، فهم يقولون بألسنتهم من أمر الاستغفار، والحقيقة أنهم لا يبالون أستغفر لهم النبي ﷺ أو لا، وظنوا أن تحلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر، ويعجل لهم النفع بالسلامة في أنفسهم وأموالهم، وما علموا أنه لا يقدر أحد أن يرد ما أراه الله فيهم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائرهم وضمائرهم، وإن صانعوا المسلمين وتابعوهم، ولم يكن تحلفهم تحلف معذور ولا عاص، بل تحلف نفاق، لأنهم اعتقدوا أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستبد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، فهم قوم هلكى لا يصلحون لخبر، زين لهم الشيطان ذلك الظن في قلوبهم، ومن لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر، والله سبحانه هو الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض، يغفر لمن تاب إليه وأناب، وخضع له، وسيقول الذين تحلفوا عن الحديبية إذا سرتهم وذهبتهم إلى غنائم خيبر نريد أن نخرج إلى المغنم، وقد تحلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقدرًا، يريدون أن يغيروا وعد الله تعالى لأهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصة، فغنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب، فسيقولون يمنعكم الحسد من أن نصيب معكم الغنائم، لأنهم لا يعلمون عن الله ما لهم وعليهم من الدين.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ
 تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا
 وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ
 عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ
 وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ * لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
 الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
 فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ
 كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ
 مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
 النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا
 مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا
 وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
 اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

المتخلفون عن الحديدية، والراغبون في غنمة خير، جاء القرآن ببيان أمرهم أنهم سيدعون لقتال قوم أقوياء أشداء يشرع لهم جهادهم وقتالهم، ولهم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون في الدين بلا قتال، وباختيار، فإن استجابوا ونفروا إلى الجهاد وأدوا الذي عليهم فيه، فلهم عند الله الأجر العظيم، والجنة، وإن تولوا كما تولوا زمن الحديدية، حيث دعوا فتخلفوا، فلهم العذاب الأليم في جهنم، وقد عذر الله في ترك الجهاد الأعمى والأعرج والمرضى، ولم يعذر غيرهم من أهل القوة والجلد، فمن يطع الله ورسوله فيما أمره به ونهياه عنه، يدخله الجنة، ومن يعرض عن الطاعة يعذبه الله عذاباً شديداً الأليم في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار، فقد كتب الله الرضا للمبايعين تحت الشجرة بالحديدية على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا، وسميت تلك البيعة بيعة الرضوان، ولن يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة، فقد علم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء، فأنزل الطمأنينة والرضا، عليهم وأثابهم فتح خير، ومغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خير، وكانت خير ذات عقر وأموال، فاقسمها رسول الله ﷺ بينهم، والرضا من صفات الله الثابتة له بالكتاب، والسنة، وأجمع السلف على إثبات الرضا لله تعالى فيجب إثباته له من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكيف، ولا تمثيل، وهو رضا حقيقي يليق بالله تعالى، وقد وعد الله المؤمنين المغانم الكثيرة من الفتوحات التي تفتح لهم إلى يوم القيامة، فعمل لهم خير، وكف أيدي الناس عنهم، وذلك أن النبي ﷺ لما قصد خير وحاصر أهلها همت قبائل من بني أسد وغطفان أن يغيروا على عيال المسلمين وذرائعهم بالمدينة، فكف الله أيديهم بالقاء العرب في قلوبهم، وقد كف أيدي الناس عنهم بالصلح مع قريش وهذا الكف آية وعبرة للمؤمنين على صدق النبي ﷺ وليعلموا أن الله هو المتولي حياتهم وحراستهم في مشاهدهم ومغيبيهم، ويشبههم على الإسلام ويزيدهم بصيرة و يقيناً بصلح الحديدية، وفتح خير، وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديدية أقام بالمدينة بقية ذي الحجة وبعض المحرم ثم خرج في بقية المحرم سنة سبع إلى خير، وعدهم الله فتح بلدان أخرى لم يقدرها عليها، من بلاد فارس والروم، وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم، بل كانوا خدماً لهم حتى قدروا عليها بالإسلام، وهذه البلاد حفظها الله لهم ومنعها من غيرهم حتى يأخذوها، ويفتحها لهم، والله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء، ولو قاتل الكفار من أسد، وغطفان، وأهل خير، لانهمزوا أمام المسلمين، ولا يجدون من ينصرهم ويؤيدهم، وهذه سنة الله في نصر أوليائه وقهر أعدائه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وسنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن إلا نصر الله الإيمان على الكفر، ورفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعددهم.

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ
 بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمْ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ
 مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ
 لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ
 لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ
 كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
 عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى
 وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾
 لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
 لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ
 فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
 الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

يمتن الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، والكفار الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، والمؤمنون أحق به، وهم أهله في نفس الأمر، وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات بين أظهرهم ممن يكتم إبانته ويخفيه منهم خيفةً على أنفسهم من قومهم، لسلط الله المؤمنين عليهم فقتلوهم وأبادوا خضراءهم، ولكن بينهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا يعرفهم المؤمنون فقد يصيبهم القتل؛ فيقع المسلمون في الإثم والغرامة، ومن ذلك نعلم أنه لا يجوز قتل الكفار إذا كان بينهم مسلمون، فكيف إذا كان الكفار مستأمنين ومعاهدين، فلا يجوز قتالهم ولو لم يكن بينهم مسلمون، فإن قتل المستأمن والمعاهد والذمي محرّم في شريعة رب العالمين، وعلى من قتله الإثم والكفارة والدية.

ولكن الله يؤخر عقوبة الكفار ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، ولو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلط الله عليهم أهل الإيمان فقتلوهم قتلاً ذريعاً، ومن حمية الكفار صدهم رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، ولم يقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم، وأنكروا محمداً رسول الله ﷺ، فأنزل الله الطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين حتى لا تدخل قلوبهم الحمية فيعصوا الله في قتالهم، وخصهم الله بكلمة التوحيد التي يتقى بها الشرك بالله، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهم أحق بها من كفار مكة، وهم أهلها في علم الله، لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير، ولقد صدق الله رسوله الرؤيا، وذلك أن النبي ﷺ أرى في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين، ويحلّقون رؤوسهم ويقصرون، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق عليهم، وكان تحقق الرؤيا في العام المقبل، فرؤيا الأنبياء صدقٌ وحقٌّ، فكان الخير للأمة في الصلح وتأخير الدخول، فكان قبل تحقق الرؤيا فتح الحديبية، وقد أرسل الله رسوله بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ليظهره على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، وكفى بالله شهيداً أنه رسوله، وهو ناصره.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ
تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ
فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى
عَلَى سَوْفِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ
فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

محمدٌ رسول الله، بعثه الله بالرحمة لجميع الخلق، واختار خير الخلق لصحبته، غلاظٌ على الكفار لا تأخذهم فيهم رافة، يتعاطفون، ويتوادون فيما بينهم، تعلوا على وجوههم الابتسامة والبشاشة ولين الجانب للمؤمن،

يحافظون على صلاتهم ويدأومون عليها، يتبعون الأجر من الله، ويطمعون أن يدخلهم الجنة، ويرغبون أن يرضى الله عنهم، علامتهم، في وجوههم من أثر السجود، وهو النور والبياض والبهاء في وجوههم يوم القيامة يعرفون به فتكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر، فالسجود أورثهم الخشوع والسمت الحسن والتواضع الذي يعرفون به، تلك صفتهم في التوراة، وأما صفتهم في الإنجيل، يكونون في الابتداء قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزراع، فإنه يكون في الابتداء ضعيفاً، ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه، فإنهم ينتبتون نبات الزرع يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر، ليكونوا غيظاً للكافرين، ووعدهم الله سبحانه مغفرة ذنوبهم، وأن ييزل أجرحهم بإدخالهم الجنة التي هي أكبر نعمة وأعظم منة.

سورة الحجرات

وهي سورة مدنية وسميت بذلك لذكر حجرات النبي ﷺ

أدب الله عباده المؤمنين بأداب فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فلا يسرعوا في الأشياء قبله، بل يكونوا تبعاً له في جميع الأمور، ولا يقولوا خلاف الكتاب والسنة.

ولا يفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضي الله على لسان نبيه ما يشاء، وأن يتقوا الله فيما يأمرهم به، وهو السميع لأقوالهم، والعليم بنياتهم، ومما أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، ونهى الله عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبة غيره، بل يخاطب النبي ﷺ بسكينة ووقار وتعظيم؛ وسبب النهي عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، ثم حث الله ﷻ المؤمنين، إلى خفض الصوت عنده، وأرشد إليه، ورغب فيه، فالذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى، وجعلها أهلاً ومحلاً لها، ولهم المغفرة والأجر العظيم في الآخرة، وذم الله الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع بعض الأعراب لغلبة الجهل عليهم، وكثرة الجفاء في طباعهم، فقد نادى الأقرع بن حابس رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال يا محمد، فلم يجبه، فقال يا رسول الله، إن مدحي لزين، وإن دمي لشين، فقال الرسول ﷺ ذاك الله ﷻ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا
 أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِمِينَ ﴿٦﴾
 وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
 الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾
 فَضَلَا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ
 مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ آفَسَتَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنُ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
 عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ
 فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
 ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ
 عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا
 مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ
 الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

من الأدب التي أمر الله تعالى المؤمنين بها في التأدب مع سيد البشر أن ينتظروا خروجه إليهم، ولا يعجلوا بالمناداة له، ففي ذلك صلاح لهم في دينهم ودنياهم، لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، ورعاية جانبه الشريف والعمل بما يستحقه من التعظيم والإجلال، والله كثير المغفرة والرحمة، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب مع رسول الله ﷺ، وأمر الله تعالى المؤمنين بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله فيكون كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، فيجب على المؤمن التعرف والتفحص، والأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر، لئلا يتهموا أحدًا بخبر غير صحيح، فيندموا على ما فعلوا، وأمر الله المؤمنين بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره، والتأدب معه، والانقياد لأمره، فإنه أعلم بمصالح المؤمنين، وأشفق عليهم من أنفسهم، ورأيه فيهم أتم من رأيهم لأنفسهم، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإن رأي الإنسان ضعيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحه، ولو أن النبي أطاعهم في جميع ما يختارونه لأدى ذلك إلى عنتهم وحرجه، ولكن الله حبيب الإيمان إلى نفوسهم وحسنه في قلوبهم، وبغض إليهم الكفر والفسوق، من الكبائر، وجميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة، والمتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم، وهذا العطاء الذي أعطاه الله عباده هو فضل منه عليهم ونعمة من لدنه، والله عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وحكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وأمر الله عباده بالإصلاح بين المسلمين الباغيين بعضهم على بعض، فهم مؤمنون مع الاقتتال، وهذا يدل أن المؤمن لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، فإن اعتدت إحدى الفتنين على الأخرى بعد الصلح، فليقاتلوا التي تعتدي حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه، فإن رجعت إلى الحق فيعدل بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالعدل، والله يحب العادلين، ومحبة لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء، وجميع المؤمنين إخوة في الدين، فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، والمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا، فإن حصل بين المؤمنين خلاف فليسعى بالصلح بينهم بعض المؤمنين ليحصل له الأجر والرحمة من الله، وليتقوا الله في الصلح وفي جميع أمورهم فإن ذلك سبب لرحمة الله، ونهى الله عباده المؤمنين عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، واستصغارهم، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ وذلك في الرجال والنساء، ولا يظعن بعضهم ببعض، ولا يلعن بعضهم بعضًا ولا يلقب بعضهم بعضًا بلقب سيء، يسوء الشخص سماعه، فبئس الصفة والاسم الفسوق، والتنازع بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يفعلونه، ومن لم يتب عما نهى الله عنه فهم الظالمون، لارتكابهم ما نهى الله عنه، وامتناعهم من التوبة، فظلموا من لقبوه، وظلموا أنفسهم بما لزمها من الإثم.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
﴿١٧﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيْمَنِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾
يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾



نهى الله عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً، فالظن أكذب الحديث، ونهى الله عن التجسس، وهو غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وهو البحث عما يخفى من عيوب المسلمين وعوراتهم، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معائب الناس ومثالبهم، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، فإن في التجسس إظهار عورات المسلمين، وإطلاع عليها، ونهى الله عباده عن الغيبة، وهي ذكر الإنسان أخاه بما يكره، والغبية محرمة بالإجماع، وهي من كبائر الذنوب ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، ومثل الله سبحانه الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، وعرض الإنسان كلحمه، فإنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه، وفي هذا من التنفير عن الغيبة، والتوبيخ لفاعليها، والتشجيع عليه ما لا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، وتستكرهه الجيلة البشرية، فضلاً عن كونه محرماً، والتقوى اجتناب الغيبة، ومراقبة الله فيها يأمر به وينهى عنه، والله تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه، وطريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود، وأن يتحلل من الذي اغتابه، إن قدر على ذلك وإلا فيشي عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسب جهده وطاقته، فتكون تلك بتلك، والله خلق الناس من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ وإنما جعلوا قبائل، ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته، والتفاضل عند الله بالتقوى لا بالأحساب، وقد جاء الذم للأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيثار، ولم يتمكن الإيثار في قلوبهم بعد، وقد استفيد من هذه الآية الكريمة، أن الإيثار أحص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، فهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيثار، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أنهم لم يصلوا إلى حقيقة الإيثار بعد، ومن يطع الله ورسوله، لا ينقص الله من أجره شيئاً، والله غفور رحيم لمن تاب إليه وأتاب، وكاملو الإيثار الذين آمنوا بالله ورسوله ولم يشكوا بل ثبتوا على حال واحدة وهي التصديق المحض وبذلوا مهجهم ونفائس أمواهم في طاعة الله ورضوانه، فهم الصادقون في الانتصاف بصفة الإيثار، والدخول في عداد أهله، لا من عداهم ممن أظهر الإسلام بلسانه، وادعى أنه مؤمن، ولم يطمئن بالإيمان قلبه، ولا وصل إليه معناه، ولا عمل بأعمال أهله، وهم الأعراب، وسائر أهل النفاق، فهل هم يخبرون الله بدينهم، والله يعلم ما في ضمائرهم، ويعلم ما في السموات وما في الأرض، ولا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وفي ذلك دليل على عدم مشروعية التلفظ بالنية لأن التلفظ بالنية بدعة، وهؤلاء الأعراب يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم للرسول، فجاء الرد عليهم، لا تمتنوا بإسلامكم، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه إن كنتم صادقين في دعواكم ذلك، والله عليم بجميع الكائنات، وبأعمال المخلوقات فهو يعلم غيب السموات والأرض.

سُورَةُ قَدْ

آياتها
٤٥ترتيبها
٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ١ بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ
 فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ٢ أَوَ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا نُرَآبَا ذَٰلِكَ
 رَجَعُ بَعِيدٌ ٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ
 حَفِیْظٌ ٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِیْجٍ
 ٥ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا
 وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
 وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِیْجٍ ٧ تَبَصَّرَ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ
 مُّنِيبٍ ٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ
 وَحَبَّ الْحَصِيدِ ٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ١٠
 رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ١١ كَذَبَتْ
 قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ
 لُوطٍ ١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ
 ١٤ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ١٥

سورة ق

وهي سورة مكية ، وسميت بذلك لافتتاحها بالعرف ق

ابتدأت السورة بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وقد تعجب الكفار من إرسال رسول إليهم من البشر، وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، ومن عجبهم ما جاء به الرسول من إثبات المعاد، وقالوا: إذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب، ذلك رجع بعيد الوقوع، ويستحيل إمكانه، والله تعالى يعلم ما تأكل الأرض من أجسادهم في البلى، ولا يخفى عليه أين تفرقت الأبدان، وأين ذهبت، وإلى أين صارت، وعنده كتاب حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب فيه كل الأشياء مضبوطة، وسبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد أنهم كذبوا بالحق لما جاءهم، فهم في أمر مختلف مضطرب، والله قادر على كل شيء، ومن قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه، خلق السموات فوهم كيف بنيت وزينت بالمصابيح وما لها من شقوق، وخلق الأرض ووسعها وفرشها، وجعل الجبال تثبتها لثلاثيم بأهلها وتضطرب؛ فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، وما أنبت فيها من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع حسن نضر، تلك الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد خاضع خائف وجل رجاء إلى الله ﷻ، وأنزل الله من السماء من الماء النافع، فأثبت به حقائق من بساتين ونحوها، والزرع الذي يراد لحبه وادخاره، والنخل الطوال الشاهقات، لها طلع مترابض نضد بعضه على بعض، رزقاً للخلق، وأحيا الله بالماء الأرض الهامدة، فبعد الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يجار الطرف في حسننها، وذلك بعدما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحیی الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، وحال المكذبين، كقوم نوح، وأصحاب الرس، وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب ﷺ، وقوم تبع اليماني، كل هذه الأمم وهؤلاء القرون كذبت رسولها، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل، فحق عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك، فلم يعجز الله ابتداء الخلق حتى يكونوا في شك من الإعادة، والإعادة أسهل منه.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
 مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ
 ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ
 الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ
 يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ
 كُنْتَ فِي عَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ
 ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
 عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ
 وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
 إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾
 يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ
 الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ
 ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا
 بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾



خلق الله الخلق، وهم تحت قدرته ومشيتته، وقد أحاط بأعمالهم علماً، يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد بعلمه وإحاطته، ومعيته، وملائكته الذين يقبضون الأرواح إذا حضروا لقبض الروح أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، والملائكة اللذان يكتبان عمل الإنسان، عن اليمين وعن الشمال يترصدان كل ما يصدر منه، فما يتكلم بكلمة، إلا ولها من يراقبها معتمد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، ويكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله، أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائرته، وفي الساعة الحاسمة للإنسان ينزل الموت به، وتصيبه سكرات الموت وهي آلام النزع، وهو الوقت الذي يكشف فيه للإنسان أجله، فيكون على يقين بالموت، ويرى ملائكة الرحمن تلك الساعة التي كان الإنسان منها يفر قد جاءته، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص، أسأل الله أن يهون علينا تلك الساعة وأن يكتب لنا حسن الختام، والنفخ في الصور ثلاث نفخات: الفزع والصعق والبعث وذلك يوم القيامة، تأتي كل نفس معها ملك يسوقها إلى المحشر وملك يشهد عليها بأعمالها، فالإنسان في غفلة عن هذا اليوم، وفي هذا اليوم ينكشف غطاء الغفلة ويحصل اليقين، فبصره نافذٌ يبصر به ما كان يخفى عليه في الدنيا، ويقول الملك الموكل بعمل ابن آدم، يا رب هذا ابن آدم الذي وكلتني به، قد أحضرته، وأحضرت ديوان عمله، فيحكم الله سبحانه تعالى في الخليقة بالعدل فيقول ألقيا في جهنم كل كثير الكفر والتكذيب بالحق، معانداً للحق، معارضاً له بالباطل مع علمه بذلك، فهو لم يؤد ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، وتجاوز الحد فيها ينفقه ويصرفه، ومعتد في منطقته وسيرته وأمره، وشاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره، قد أشرك بالله فبعد معه غيره، فيلقى في العذاب الأليم، ويقول الشيطان الذي وكل به: ربنا ما أضللته، بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق، فيختصمان بين يدي الحق فيقول الإنسي يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، فيقول الرب ﷻ للإنسي وقرينه من الجن لا تختصموا عندي، قد أعدت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين، قد قضيت ما أنا قاض، لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه، ويقال لجهنم يوم القيامة هل امتلأت، وذلك أنه وعداها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي تقول، هل بقي شيء تريدوني، ولا تزال جهنم يلقي فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكرمك، وأدנית وقربت الجنة من المتقين، في زمن غير بعيد، وذلك يوم القيامة، فهو واقع لا محالة، وكل ما هو آتٍ آتٍ، وهذا وعد الله لكل رجاء تائب مقلع، يحفظ العهد فلا ينقضه ولا يئنه، الذي خاف الله في سره حيث لا يراه أحدٌ إلا الله، ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه، يقال لهم ادخلوا الجنة بسلام، سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله، يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبيغون عنها حولاً، مهما اختاروا وجدوا ومن أي أصناف الملائكة طلبوا أحضر لهم، وفيها المزيد وهي رؤية وجه الله الكريم، نسأل الله أن لا يحرمانا والدينا وأهلينا وذريتنا والمسلمين رؤية الرب تبارك وتعالى، فالله ﷻ يرى بالعين رؤية حقيقية، ولكنه لا يدرك بهذه الرؤية، لأنه ﷻ أعظم من أن يحاط به، وهذا هو الذي ذهب إليه السلف، ويرون أن أكمل نعيم ينعم به الإنسان أن ينظر إلى وجه الله ﷻ.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي
 الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّخِصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ
 لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا
 مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
 قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
 وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مَن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
 ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
 نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ
 عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
 وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الدَّارَاتِ

آيَاتُهَا
٦٠تُرْتَبِّعُهَا
٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّرِيَّتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
 فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

أهلك الله الأمم المكذبة، وقد كانوا أكثر من مشركي العرب وأشد قوة منهم، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ وضربوا في الأرض، وساروا في البلاد يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طاف العرب، فلم يجدوا من قضاء الله وقدره مفراً، ولم ينفعهم ما جمعوه، ولا رد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل، وكذلك من كذب النبي ﷺ لا مفر له من العقوبة ولا محيد ولا مناص، وفي ذلك عبرة وعظة، لمن كان له عقلٌ يعي به، واستمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه، والله قادر على البعث والنشور فهو الذي خلق السموات والأرض من غير إعياء ولا نصب ولا تعب، وهو قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأخرى، وأمر الله نبيه ﷺ بالصبر على أذى المكذبين، والاستعانة بالذكر وبالصلاة، قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، والتزود من قيام الليل، وبكثرة التسيح بعد الصلاة، والمؤمن الموقن بالبعث والنشور، يؤمن بالنفخ في الصور حين ينادي بها إسرافيل تلك النفخة التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يكذبون، وهو يوم الخروج من الأجداث، والله سبحانه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا، فينزل الله مطرًا من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور، فترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فتدب فيه كما يدب السم في اللدغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سرعًا، مبادرين إلى أمر الله ﷻ، تلك إعادة سهلة ويسيرة على الله، وعلم الله محيطٌ بما يقول المشركون من التكذيب والنبي ﷺ لا يجبر أحدًا على الهدى، وليس ذلك ما كلف به، وإنما هو مبلغ رسالة ربه، ويذكر بها من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعودك يا رحيم.

سورة الذاريات

وهي سورة مكية، وسميت بذلك لذكر الذاريات فيها

أقسم الله بالذاريات وهي الرياح، وبالحاملات وهي السحاب لأنها تحمل الماء، وبالجاريات يسرًا، وهي السفن تجري ميسرة في الماء جريًا سهلًا، وبالمقنسات أمراء، وهي الملائكة تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية، وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ فما يوعد به الخلق، وهو خبر صدق، ويوم الحساب كائنٌ لا محالة.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ
 أَفَكَ ﴿٩﴾ قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾
 يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا
 فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
 وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ
 ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
 ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ
 لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ
 وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قُورَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ
 نَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾
 إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَغَ إِلَى
 أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
 ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنُعْمٍ عَلَيْهِ
 ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ
 ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

أقسم الله بالسماء ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات، وجواب القسم أن المشركين المكذبين للرسول في قول مختلف مضطرب، لا يلتزم ولا يجتمع، فهم ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به، وإنما يروج على من هو ضال في نفسه؛ لأنه قول باطل، وينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال، لا فهم له، لعن الكذابون المكذبون للبعث، وهم في الكفر والشك غافلون لاهون، يقولون متى يوم القيامة، تكديماً وعناداً وشكاً واستبعاداً، فجاء الرد عليهم يوم هم على النار يعذبون، ذوقوا عذابكم، هذا العذاب الذي استعجلتم عليه، يقال لهم ذلك تقيعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً، وأما المتقون لله ﷻ، فإنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعميون، بخلاف أولئك الأشقياء بما هم فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال، فقد كانوا عاملين بما آتاهم الله من الفرائض، وكانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال، فهم في الجنات والعيون في النعيم والسرور والغبطة، فقد كانوا يكابدون قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا قليلاً، وكانوا يكثرون من الاستغفار في الأسحار.

وكانوا ينفقون النفقة الواجبة والمستحبة ففي أموالهم جزء مقسوم قد أخرجوه للسائل والمحروم، وهو الذي لا مال له بأي سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله بأفة أو نحوها، وفي الأرض من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ فمن تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة، وفي السماء المطر، وهو رزق العباد، وفي السماء الجنة التي وعد الله عباده بها، وما وعد الله به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا يشك أحد فيه كما لا يشك في نطقه حين ينطق، وفي قصة الخليل مع الملائكة عبرة وعظة، فهم ضيوف مكرمون، وأكرمهم بالضيافة، وحيوه بالسلام، فرد عليهم التحية بأحسن منها، وقد أنكر الخليل قدومهم بهذه الصورة، وذلك أن الملائكة وهم جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شبان حسان عليهم مهابة عظيمة؛ فأنسل خفية في سرعة، فجاء بعجل سمين من خيار ماله، مشوي على الحجر، فأدناه منهم، وقال ألا تأكلون على سبيل العرض والتلطف، فلما رأهم لا يريدون الطعام، خاف منهم، وبشروه بغلام عليم وهو إسحاق ﷺ، فضربت زوجة إبراهيم بيدها على جبينها تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، وقالت كيف ألد وأنا عجوزٌ وقد كنت في حال الصبا عقيلاً لا ألد، فأخبروها أنه أمر الله وقضاؤه، وهو العليم بمن يستحق الكرامة، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله.

* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ
 مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
 لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا
 فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ
 مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَحَرُ أَوْ يُجْنُونُ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ
 فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ
 الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾
 وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
 فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ
 وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
 فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ
 فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
 لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فِفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾
 وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾

لما علم إبراهيم الخليل ﷺ أن ضيوفه ملائكة، سألهم ما شأنهم وفيهم جئتم؟ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم لوط، لنرسل عليهم حجارة من طين معلمة، مكتتبه عند الله بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، بعدما تمادوا في الضلالة وجاوزوا الحد في الفجور، ولما أورد الله إهلاك قوم لوط أخرج من كان في قري قوم لوط من قومه المؤمنين به، وهم أهل بيت شريف، وهم أهل بيت لوط، هم المسلمون المنقادون والمستسلمون لأمر الله سبحانه وكانت تلك القرى علامة ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب، وهي عبرة لكل من يخاف عذاب الله، ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم، الذين يتعظون بالمواعظ، ويتفكرون في الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك، وهم المشركون المكذبون بالبعث، والوعد والوعيد، وهذه الآية هي آثار العذاب في تلك القرى، فإنها ظاهرة بيّنة، وقد أرسل الله نبيه موسى ﷺ إلى فرعون بدليل باهر وحجة قاطعة، فأعرض فرعون عما جاء به موسى من الحق المبين، استكباراً، وعناداً، وقال: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً، أو مجنوناً.

فأخذ الله وجنوده فأغرقهم في البحر، وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند، وأرسل الله إلى عاد لما كذبت الريح المفسدة التي لا تنتج شيئاً، ولا تأتي على شيء إلا جعلته كالشيء الهالك البالي، وثمود لما كذبوا وكفروا قيل لهم: تمتعوا إلى وقت فناء آجالكم، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار، فما استطاعوا من هرب ولا نهوض، ولا يقدرين على أن ينتصروا مما هم فيه، وأهلك الله قوم نوح من قبل هؤلاء، وكانوا قومًا كافرين مكذبين بالرسول، قد خرجوا عن طاعة ربهم، وخلق الله السماء وبناها، وجعلها سقفاً محفوظاً رقيقاً بقوة، وأوسع أرجاءها ورفعها بغير عمد، حتى استقلت كما هي، والأرض جعلها فراشاً للمخلوقات، ومهداً لأهلها، فما أعظم خلق الله وأكمله، ومن جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وير وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات، جن وإنس، ذكور وإناث، والنباتات، كل ذلك يدل على أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، فليلجأ العباد إلى ربهم خالقهم، ويعتمدوا في أمورهم عليه، ولا يشركوا بالله شيئاً، وما على الرسل إلا البلاغ والنذارة من الشرك.

ففي التوحيد نجاة العباد وصلاح أحوالهم في الدنيا والآخرة، فقد كتب الله لأهل التوحيد الجنة، ولو دخلوا النار فإنهم يخرجون منها، وحرّم الله الجنة على كل مشرك، فالؤمن يخاف من الشرك ووسائله وطرقه الموصلة إليه كما خاف ذلك سادات الأنبياء والمرسلين والصالحين.

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ
 ٥٢ أَتَوَصَّوْنَهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٥٣ فَنُفِّلْنَاهُمْ فَمَا أَنْتَ
 بِمَلُومٍ ٥٤ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ٥٥ وَمَا
 خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ
 وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ
 ٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ
 ٥٩ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ٦٠

سُورَةُ الطُّورِ ٥٢ نِسْهَا ٤٩ آيَاتُهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ١ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍ مَنَشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ
 الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ
 عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ
 مَوْرًا ٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ
 ١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ
 جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤

كل المكذبين بالرسل المعاندين للحق كلما جاءهم رسول رموه بالسحر والجنون، فقد تشابهت قلوبهم بالكفر والجحود، فمثلهم كمثل المتواصين بهذه المقالة، ولكنهم الطغيان، فقال المتأخرون كما قال المتقدمون، وأمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم، وما يلومهم أحد بذلك، وأمر بتذكير القلوب المؤمنة المصدقة فإن الذكرى لا تنفع إلا القلوب الحية بالإيمان، وما خلق الخلق من جن وإنس إلا ليوحّدوا الله، ويفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، فمن أطاع الله جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وسبحانه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم، وهو القوي الشديد في قوته، الشديد في عزته، الشديد في جميع صفات الجبروت، الذي لا يعجزه شيء ﷻ، فالذين أشركوا بالله لهم نصيب من العذاب، مثل نصيب المشركين قبلهم فلا يستعجلوا ذلك، فإنه واقع بهم لا محالة، ففي يوم القيامة يأتيهم ما يوعدون من العذاب.

سورة الطور

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر الطور فيها

أقسم الله تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة، أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم، فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وأقسم باللوح المحفوظ، المبسوط في أديم الصحف، والبيت المعمور في السماء السابعة حيال الكعبة يدخله في كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم، يتعبدون فيه ويطوفون، وأقسم بالسقف المرفوع وهو السماء، وأقسم بالبحر المسجور، وهو الماء الذي تحت العرش، الذي ينزل الله منه المطر الذي يحيى به الأجساد في قبورها يوم معادها، وهو يوقد يوم القيامة ناراً، وجواب القسم: إن العذاب واقع بالكافرين، ليس له دافع يدفعه عنهم ويرده عن أهل النار إذا أراد الله بهم ذلك، في ذلك اليوم تتحرك السماء تحريكاً، وتشقق، وتدور دوراً، وتذهب الجبال وتزول عن أماكنها، وتسير عن مواضعها كسير السحاب، فتصير هباء منبثاً، وتنسف نسفاً..

فويل للكافرين والمشركين في ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابه لهم، الذين كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، وهم في تردد في الباطل، واندفاع فيه يلهون لا يذكرون حساباً، ولا يخافون عقاباً، ويخوضون في أمر محمد ﷺ بالكذب والاستهزاء، يوم يدفعون ويساقون إلى نار جهنم دفعاً، وتقول لهم الزبانية ذلك تقريراً وتوبيخاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون .

أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصِيرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا
 أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
 إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَاءٍ أُنْهِمَ رَبُّهُمْ
 وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُورٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمُ
 بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا
 بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ
 رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ
 فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ
 لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ
 ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَلَّاهُ
 عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ
 نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ
 رَبِّكَ يَكَاهِنِ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّ
 الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

حين يدخل الكفار النار، ويشاهدونها حقيقة يقال لهم هل هذه سحر أم لا تبصرونها؟ توبيخاً لهم وتقريعاً، ادخلوها دخول من تغمره النار من جميع جهاته، سواء صبرتم على عذابها ونكأها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ولا يظلم الله أحداً، بل يجازي كلًّا بعمله، وأما حال السعداء الأتقياء فهم في جنات ونعيم، يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مأكّل ومشارب وملابس ومسكن ومراكب وغير ذلك، ونجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها وحدها، مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يتكئون على سرر وجوه بعضهم إلى بعض متقابلين، وجعل لهم قرينات صالحات، وزوجات حسناً من الحور العين، ومن فضل الله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيوان يلحقهم بآبائهم في المنزل وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل، بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزله، للتساوي بينه وبين ذاك، ومن العدل ألا يؤاخذ أحداً بذنب أحد، بل كل مرتين بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، ومن نعيم أهل الجنة، الفواكه واللحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى، يتعاطون في الجنة كأساً من الخمر لا إثم ولا فحش ولا باطل، فتره الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صدامع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، ولا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المضمن للهذيان والفحش، مع حسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها، وأما خدمهم وحشمهم في الجنة فهم ولدان كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون في حسنهم وبهائهم، ونظافتهم وحسن ملابسهم، يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، فقالوا قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، فتصدق الله علينا وأجارنا مما نخاف، وكنا نتضرع إليه فاستجاب الله لنا وأعطانا سؤلنا، إنه هو البر الرحيم.

وأمر الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور من الكهانة والجنون والشعر، وما ينتظرون بالنبي ﷺ من قوارع الدهر، أو يأتيه الموت فيستريحون منه فجاء الرد عليهم، انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ
 بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ
 ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
 رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسْطَاطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
 مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
 أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
 يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
 أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا
 مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا
 يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
 وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
 بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

المكذبون بالرسول لا يفكرون بالحق ويتوصلون إليه بعقولهم التي أنعم الله بها عليهم، لكن من ضعف رأيهم وقلة بصيرتهم هدتهم عقولهم إلى التكذيب والكفر لأنهم قوم ضلال معاندون، فمن جهلهم قولهم أن القرآن اختلاق من النبي ﷺ، وما حملهم على ذلك إلا كفرهم فإن كانوا صادقين في قولهم فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله، ولا بآية، فهل أوجدوا من غير موجد، أم هم أوجدوا أنفسهم؟! لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، أم هم خلقوا السموات والأرض، وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك، أهم يتصرفون في الملك ويدهم مفاتيح الخزائن، أم هم المحاسبون للخلائق؟! بل الله ﷻ هو المالك المتصرف الفعال لما يريد، أم هم سلم يرقون به إلى الملاء الأعلى؟ فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، ولا يستطيعون ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل.

وكيف يفكرون على الله ويجعلون الملائكة بنات الله، ويعبدونهم مع الله، ولم يجعل الله الرسل جباة يأخذون على من يبلغونهم الأموال فهؤلاء المشركون يتبرمون من أدنى شيء، ويثقلهم ويشق عليهم، أن تؤخذ منهم الأموال وهل عندهم علم الغيب فهم يكتبون المقادير، بل لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، أم يريدون الكيد لدين الإسلام وللرسول وأصحابه، فكيدهم إننا يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، أم هم إله حق غير الله سبحانه الله عما يقولون ويفترون ويشركون، ومن عناد المشركين ومكابرتهم للمحسوس أنهم لو نزل عليهم قطعاً من السماء لم يصدقوا ولم يوقنوا، بل قالوا سحاب متراكم، وليس لهم موعد إلا يوم القيامة، حين يهلكهم العذاب، يوم لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذي استعملوه في الدنيا، ولا يجدي عنهم يوم القيامة شيئاً، ولهم من العذاب في الدار الدنيا من الذلة والصغار، ولكنهم في غفلة، يعذبون في الدنيا، ويتلون فيها بالمصائب، لعلمهم يرجعون وينبيون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه، وأمر الله النبي ﷺ بالصبر على أذاهم، فالله حافظ رسوله ومؤيده وناصره، وعاصمه من الناس، وأمره بالتسبيح عند الصلوات وفي الخلوات وأدبار المكتوبات، والأمر للدعاة بعد النبي ﷺ بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وتحمل أذى الناس، وتبليغ دين الله، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله، وفي تبليغ الدعوة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) وَمَا يَنْطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ۝ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ (٥)
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ (٨)
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ (١٠)
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ (١١) أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ
نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝ (١٥)
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ (١٩) وَمَنُوءَ
الثَّالِثَةِ الْاُخْرَىٰ ۝ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ۝ (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰ ۝ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۝
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۝ (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ (٢٤) فَلِلَّهِ
الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۝ (٢٥) * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۝ (٢٦)

سورة النجم

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر النجم فيها

أقسم الله بالنجم إذا سقط مع الفجر، والله أن يقسم بها شاء من خلقه، والمخلوق لا يجوز له أن يقسم إلا بالخالق والمقسم عليه هو الشهادة للرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، فنهى الله ﷻ رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطوائف اليهود، وعن علم الشيء وكتابه والعمل بخلافه، بل هو صلوات الله وسلامه عليه، وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، وما يقول قولاً عن هوى وغرض، وإنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موفراً من غير زيادة ولا نقصان، وكلامه ﷻ وحي من الله، نزل به جبريل عليه السلام ذو المنظر الحسن، والقوة الشديدة، على عبد الله ورسوله محمد ﷺ، ولم ير جبريل رسول الله ﷺ في صورته إلا مرتين، هبط عليه جبريل عليه السلام، وتدلّى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستانة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين، بعد ما بين وتر القوس إلى كبدها، أو أقرب، فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل، ليلة المعراج، وما أخطأ قلب محمد بما رأى من أحداث الإسراء والمعراج، ورؤيته لجبريل على صورته التي خلقه الله بها، وله ستانة جناح قد سد الأفق، ينثر من ريشه التهاويل والدر والياقوت، عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى يغشاها فراش من ذهب، على كل ورقة من ورقها ملك قائم يسبح الله ﷻ ما ذهب بصر النبي ﷺ ميمناً ولا شهلاً، وما جاوز ما أمر به، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي، ورأى من آيات ربه الدالة على قدرة الله وعظمته، وهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك، ولقال ذلك للناس، ومن جهل المشركين عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام ومنها اللات، وهي صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، وقد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، واللات رجل يلبس للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه، ومنها العزى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، ومنها مناة، وكانت بين مكة والمدينة وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة، ومن قبح المشركين وسفاهة عقولهم أنهم يجعلون لله ولداً، ويجعلون ولده أنثى، ويختارون لأنفسهم الذكور، فلو اقتسموا هذه القسمة مع مخلوق مثلهم، لكانت هذه القسمة جوراً باطلة، فكيف يقاسمون ربه هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً؟! ومن جهلهم ما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آله سموها من تلقاء أنفسهم، ما أنزل الله بها من حجة، وليس لهم مستند، ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له، وليس كل من تمنى خيراً حصل له، وما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له، وإنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والملائكة المقربون لا تتفع شفاعتهم إلا بشرطين إذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف يرجون شفاعته هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك في جميع كتبه.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى ۚ
 وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ
 الْحَقِّ شَيْئًا ۚ (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا ۚ (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
 سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ۚ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
 فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
 بِالْحُسْنَى ۚ (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ
 إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
 وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ
 بِمَنِ اتَّقَى ۚ (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۚ (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى
 ۚ (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۚ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ
 مُوسَى ۚ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۚ (٣٧) أَلَا نَزَرُ وَأَنْزَرُ ۚ وَزُرْ أُخْرَى
 ۚ (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۚ (٣٩) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ
 يُرَى ۚ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى ۚ (٤١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْهَى
 ۚ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۚ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۚ (٤٤)

من جهل المشركين تسميتهم الملائكة تسمية الأئني، وجعلهم بنات الله، وليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور واقتراء، وكفر شنيع، وإنما هو اتباع الظن والظن لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق، وأمر الرسول ﷺ بالإعراض عن الذين أعرضوا عن الحق وهجروه، وإنما أكثر همهم ومبلغ علمهم الدنيا، فذاك هو غاية ما لديهم، طلب الدنيا والسعي لها، والله هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبداً، لا في شرعه ولا في قدره، وهو مالك السموات والأرض، وهو الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، يجازي كلًّا بعمله، إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً، فيجازي المحسنين بالجنة، الذين يجتنبون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر ومحقرات الأعمال فإن الله يغفر لهم ويستر عليهم.

ورحمة الله وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، وهو البصير بعباده، العليم بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم التي تصدر عنهم وتقع منهم، حين أنشأ أباهم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين، فريقاً للجنة وفريقاً للسعير، وقد كتب الملك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد، فلا يمدح الإنسان نفسه ويمن بعمله، فالله أعلم بمن اتقى، فتزكية النفس واعتقاد كمالها يورث الغرور والعجب والكبر، فيبس من تولى عن طاعة الله وهجر عبادة الله تعالى، وانقطع عن العمل الصالح والإنفاق في سبيل الله، أعنده علم الغيب بأن ما في يده سينفذ، فأمسك عن معرفته، فهو يرى الفقر بعينه، وليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً؛ وقد أنزل الله تعالى من كتبه صحف موسى وإبراهيم من الحكم والمواعظ ما فيه عبرة وعظة للأمم، فإبراهيم الخليل ﷺ وفق طاعة الله، وأدّى رسالته إلى خلقه، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يُقتدى به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله، وما أوحاه الله في صحف إبراهيم وموسى، أن كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحملها عنها أحد، وكما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، وأن عمل الإنسان سيراه يوم القيامة، فيجزيه عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً، وأن المعاد إلى الله يوم القيامة إلى الجنة أو إلى النار، وهو سبحانه خلق في عباده الضحك، والبكاء وسببهما وهما مختلفان، أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار، وأضحك من شاء في الدنيا بأن سرّه، وأبكى من شاء بأن غمه، وأضحك المطيعين بالرحمة، وأبكى العاصين بالسخط وهو سبحانه الذي خلق الموت والحياة، وقضى بأسباب الموت والحياة، ولا يقدر على ذلك غيره، وأمات الآباء وأحيا الأبناء، وأمات في الدنيا وأحيا للبعث، وأمات بعدله وأحيا بفضله، أمات الكافر وأحيا المؤمن.

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۖ (٤٦) وَأَنَّهُ
 عَلَيْهِ النَّشَأُ الْأُخْرَىٰ ۖ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۖ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ
 السَّعْرَىٰ ۖ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۖ (٥٠) وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ۖ (٥١)
 وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۖ (٥٢) وَالْمُؤَنِفَكَةَ
 أَهْوَىٰ ۖ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا عَشَىٰ ۖ (٥٤) فَإِيَّاءِ آلَ رَبِّكَ نَتَمَارَىٰ ۖ (٥٥)
 هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَىٰ ۖ (٥٦) أَرِيتِ الْأَزِفَةَ ۖ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن
 دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۖ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۖ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ
 وَلَا تَبْكُونَ ۖ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ۖ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۖ (٦٢)

سُورَةُ الْقَبَسِ

آياتها
٥٥تسبحتها
٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا
 وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۖ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
 وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۖ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ
 مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۖ (٤) حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النَّذِرُ
 ۖ (٥) فَقَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ۖ (٦)

الله ﷻ خلق الذكر والأنثى، من ماء الرجل وماء المرأة، وهو كما خلق البداء، قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة، وهو الذي أعطى عباده المال، وجعله لهم قنية مقيماً عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، وهو تمام النعمة عليهم، وهو سبحانه الغني وأفقر الخلائق إليه، وهو رب الشعري وهو نجم وقاد، كانت طائفة من العرب يعبدونه، وهو سبحانه أهلكت قوم هود، كانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله، ودمر ثمود قوم صالح ﷺ فلم يبق منهم أحدًا، وهو الذي أغرق قوم نوح من قبل هؤلاء، وكانوا أشد تمرّدًا من الذين من بعدهم، ومدائن لوط قلبها عليهم جعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، فألبسها ما ألبسها من الحجارة التي وقعت عليها، فأبى نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمتري فهذا النبي محمد ﷺ من جنس الأنبياء قبله، أرسل كما أرسلوا، وهو أفضلهم وخاتمهم

فقد اقتربت القرية، وهي القيامة، لا يدفعها من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه، أفيعجب المشركون في صحة القرآن ويضحكون منه استهزاء وسخرية، ولا يكون كما يفعل الموقنون به، قد ألهاهم الغناء فاستعاضوا به عن القرآن، وأمر الله عباده بالسجود له والعبادة، والمتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص.

سورة القمر

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر القمر فيها

الساعة حق ووقوعها قد اقرب، واقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضاءها قد دنا، والناس في غفلة معرضون ومن علامات الساعة انشقاق القمر، وكان هذا في زمان رسول الله ﷺ، وهو إحدى المعجزات الباهرات، انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، كل فرقة على جبل، فقال المشركون سحرنا محمد، وسحره باطل مضمحل لا دوام له، وكذبوا بالحق لما جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراءهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم، والخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، ولقد جاء المشركون من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسول وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب، وحكمة الله في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله، وما تغني النذر عن من كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه، فمن الذي يهديه من بعد الله؟

وأمر النبي ﷺ بالإعراض عن المشركين والانتظار فيهم يوم القيامة، حين يدعون إلى شيء منكرو فظيع، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء، والزلازل والأحوال.

خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾
 مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَبَتْ
 قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا
 رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ
 ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾
 وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ
 كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ
 عَذَابِي وَنُذِرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ
 ﴿١٧﴾ كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
 رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ
 نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ
 لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا
 مِمَّنَّا وَاحِدًا نَبْتَعُكُمْ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ أَهْلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ
 مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ
 الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسِلُوا النَّااقَةَ فِنَّهَ لَهُمْ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ﴿٢٧﴾

في يوم القيامة حين يحشر الكفار ذليلة أبصارهم، يخرجون من القبور، كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق؛ مسرعين إلى الداعي، لا يخالفون ولا يتأخرون، يقول الكافرون هذا يوم شديد الهول، وقد كذب قوم نوح ﷺ رسولهم، وصرحوا له بالكذب واتهموه بالجنون، وانتهروه وزجروه وأوعده، فدعا ربه إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم، فانتصرا يا رب لدينك ففتح الله أبواب السماء بهاء كثير، ونبتت جميع أرجاء الأرض، فالتقى الماء من السماء ومن الأرض على أمر مقدر، وحمل الله نوحًا والذين آمنوا معه في السفينة من الخشب والمسامير، تجري بأمر الله، يراهم ويحوطهم، كل ذلك كان جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارًا لنوح ﷺ وقد أبقي الله السفن تذكرة وعبرة، فهل من يتذكر ويتعظ، فكيف كان عذاب الله لمن كفر به وكذب رسله ولم يتعظ بها جاءت به نذر الله؟ وكيف انتصر لأنبيائه، وأخذ لهم بالثأر؟ وقد سهل الله القرآن لفظه ومعناه؛ ليتذكر الناس، ولولا أن الله يسره على لسان آدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ، وقد جعل الله القرآن شفيعًا لأصحابه يوم القيامة، العاملين به المتدبرين لآياته وعظاته، ففي القرآن من العبر والعظات والدروس ما هو منهج أمة، ونظام حياة، من أخذ به أفلح ونجح، ووفق في الدنيا والآخرة، وقاريء القرآن الماهر به مع السفارة الكرام البررة، والذي يقرأه وهو عليه شاق له أجران، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، الذين كتبت لهم الرفعة في الدنيا والآخرة.

وقد كذبت عاد قوم هود رسولهم، كما صنع قوم نوح، فأرسل الله عليهم الريح الباردة الشديدة البرد، في يوم مستمر عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالآخروي، وكانت الريح تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فيثلم رأسه فيبقى جثة بلا رأس، فكانوا كأعجاز نخل منقطع، ومن بعد عاد ثمود كذبوا رسولهم صالحًا ﷺ، فقالوا لقد خبنا وخسرنا إن سلطنا قيادنا لواحد منا، ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب وتجاوز في حد الكذب، وسيعلمون حين ينزل عليهم العذاب من هو الكذاب الأشهر، وأرسل الله الناقة بعدما طلبوها اختبارًا لهم، فأخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح ﷺ فيما جاءهم به، وأمر الله عبده ورسوله صالحًا ﷺ أن ينتظر ما يؤول إليه أمرهم، ويصبر عليهم، فإن العاقبة له والنصر له في الدنيا والآخرة.

وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوَّ صَاحِبُهُمْ
فَنَعَاطَى فَقَعَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُّوطٍ بِالْأُنْذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِالْأُنْذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ
﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ
فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ
وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

أمر الله تعالى نبيه صالحاً ﷺ أن يخبر قومه أن لهم يوماً يشربون فيه، وللناقة يوم تشرب فيه، فإذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن، فاتفقوا على قتل الناقة وكان عاقر الناقة قدار بن سالف، وكان أشقى قومه، فاجترأ على تعاطي العقر، فأنزل الله عليهم العقوبة على كفرهم بالله، وتكذيبهم رسول الله، فأرسل الله عليهم صيحة واحدة، فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كالمرعى بالصحراء حين يبيس ويحترق وتنسفه الريح، وكذب قوم لوط رسوله وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل ﷺ فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ إلا آل لوط، خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسه سوء؛ كذلك جزاء من آمن بالله تعالى وشكره على نعمه، وكان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم نبيهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتمازوا به، وفي ليلة محيى الملائكة إليه: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل في صورة شباب مرد حسان محنة من الله بهم، فأضافهم لوط ﷺ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط ﷺ يدافعهم ويمنعهم دون أضيافه، ويقول لهم النساء أظهر لكم، فقالوا ليس لنا فيهن حاجة، وإنك لتعلم ما نريد، فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل ﷺ، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم، ولم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالخيطان، ويتوعدون لوطاً ﷺ إلى الصباح، فصبحهم العذاب الذي لا يحيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه، وقد كذب فرعون وقومه رسول الله موسى وأخاه هارون فقد جاءوا بالبشارة إن آمنوا، والندارة إن كفروا، وأيدهما الله بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبراً ولا عيناً ولا أثراً، أفىكون كفار قريش خير من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب، أم معهم من الله براءة ألا ينالهم عذاب ولا نكال، أم يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء، فستتفرق شملهم ويغلبون، وموعد عذابهم الأخروي، وليس عذاب الدنيا، وعذاب الدنيا بالقتل والأسر والقهر، وهو تمام ما وعدوا به من العذاب، وعذاب الساعة أعظم في الضرر وأفظع، وأشد مرارة من عذاب الدنيا، فالمرمومون المكذبون في ضلال عن الحق، وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق، فأورثهم الله النار، يسحبون فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقيعاً وتوبيخاً ذوقوا عذاب النار، وكل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه بقدر قدره، وقضاء قضاء سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه.

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ ﴿٥٥﴾

سُورَةُ الرَّحْمَنِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٧٨ آيَاتُهَا
٥٥ نُسُخَاتُهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ
مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿١٦﴾

أمر الله تعالى يكون بكلمة واحدة كلمح البصر في اليسر والسرعة، وقد أهلك أمثال الكفار وما سلفهم من الأمم السابقة المكذبن بالرسول، فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، وكل شيء فعلوه مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام، من صغير وكبير مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والمتقون الأبرار في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون، اللهم اجعلنا منهم والدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

سورة الرحمن

وهي سورة مكية سميت بذلك لافتتاحها باسم الله الرحمن

أنكر أهل مكة الرحمن، وقالوا: وما الرحمن، فجاء الرد عليهم الرحمن، علم القرآن محمدًا، وخلق آدم عليه السلام، وعلمه أسماء كل شيء، وعلم جميع الناس النطق والكتابة والفهم والإفهام، حتى عرف ما يقول وما يقال له، وعلم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به، والشمس والقمر يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب.

والنجم والشجر يسجدان لله تعالى وينقادان لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين، والله يسجد من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجال والشجر والدواب وكثير من الناس، ورفع الله السماء، وضع في الأرض العدل، فلا يتجاوز الناس العدل، ولا يبخسون الوزن، بل يزنون بالحق والقسط، ووضع الله الأرض ومهداها، وأرساها بالجلال الراسيات الشاخصات، لتستقر لما على وجهها من الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألوانهم، في سائر أقطارها وأرجائها، وفي الأرض الفاكهة مختلفة الألوان والطعوم والروائح، وفيها النخل فيها أوعية الطلع، الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون برًا ثم رطبًا، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه.

وفي الأرض جميع ما يقتات من الحبوب، وما يخرج منه كالتبن طعامًا للحيوان، وما له رائحة طيبة، ونعم الله على عباده من الجن والإنس كثيرة، لا يمكن أن يحدها ويكذبوا بها، وهم متنعمون بها، فقد خلق الله آدم، من الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، يشبه في يسه الخزف الذي يطبخ بالنار، وخلق أبا الجن من مارج من نار، والمارج اللهب الصافي من النار، فهل يكذب العباد نعمة ربهم في خلقهم وإيجادهم؟!؟

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾
 مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَاتِ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ
 ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى
 وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ
 أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ
 إِلَّا بِإِذْنِ سُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ
 شَوَاطِئَ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ
 ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ
 إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

خلق الله تعالى مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء، وفي اختلاف هذه المشارق والمغارب، مصالح للخلق من الجن والإنس، فهي من نعم الله التي تستحق الشكر من العباد، ومن نعم الله الماء المالح والماء الحلو لا يلتقيان ولا يختلطان، فهذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخًا حاجزًا يفصل بينهما، يخرج منها اللؤلؤ والمرجان، والمرجان هو صغار اللؤلؤ، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم وأمرهم بشكرها، ومن نعم الله السفن المخلوقات التي تجري في البحر كالجبال في كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ مما يستحق الشكر من العباد لخالقهم ورازقهم، وجميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وأهل السموات إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا، فكل شيء هالك إلا وجهه، ذو العظمة والكبرياء، فهو أهل أن يجبل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، والوجه ثابت لله تعالى بدلالة الكتاب والسنة وإجماع السلف، فيجب إثباته له بدون تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وهو وجه حقيقي يليق بالله، وهو سبحانه الغني عما سواه وافتقار الخلاق إليه في جميع الحالات، وهم يسألونه بلسان حالهم ومقاهم، وأنه كل يوم هو في شأن، فمن شأنه أن يجيب داعيًا، أو يعطي سائلًا أو يفك عانيًا، أو يشفي سقيمًا، ويكشف كربًا، ويحيب مضطرًا ويغفر ذنبًا، ولا يستغني عنه أهل السموات والأرض، يحیی ميتًا، ويميت حيًا، ويربي صغيرًا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصرخهم، ومنتهى شكواهم، وهو سبحانه يحاسب عباده من الجن والإنس، لا يشغله شيء عن شيء، والجن والإنس لا يستطيعون هربًا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بهم، لا يقدرّون على التخلص من حكمه فيهم، أينما ذهبوا أحيط بهم، وهذا في مقام المحشر، فالملائكة محدة بالخلاق، سبعة صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بأمر الله، فلو ذهبوا هارين يوم القيامة لردتهم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليهم ليرجعوا، فلا يقدرّون على الامتناع من عذاب الله، ففي يوم القيامة، تشقق السماء وتدوب كما يذوب الذهب والفضة والحديد في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم، فيؤمر بالمجرمين إلى النار من الإنس والجن، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها، فيختم على أفواه القوم، وتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، ولا يسألهم الله هل عملتم كذا وكذا، لأنه أعلم بذلك منهم.

يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَيَأَيَّ
 ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ
 يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٤٥﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ﴿٤٦﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
 ثَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ
 رَوْحَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ
 بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ
 وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
 وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ
 الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا
 عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأَيَّ ءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

في يوم القيامة يعرف الكفار بعلامات تظهر عليهم، ومنها اسوداد الوجوه وزرقة العيون، كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء، فتجتمع الزبانية ناصية الكافر مع قدميه، في سلسلة من وراء ظهره، ويلقونه في النار ويقال لهم ذلك تقريبًا وتوبيخًا وتصغيرًا وتحقيرًا: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ها هي حاضرة تشاهدونها عيانًا، تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، حار قد بلغ الغاية في الحرارة، لا يستطيع من شدة ذلك. معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه

وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، نعمة يستحق شكر الله تعالى من العباد وأما من خاف مقامه بين يدي الله ﷻ يوم القيامة، ونهى النفس عن الهوى، ولم يطع، ولا أثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، من فضة آتيتها وما فيها، وجنتان من ذهب آتيتها وما فيها، جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين وهذا عام في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء، ومن صفات الجنتين فيها أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، وظل الأغصان على الحيطان، وفيها فنون من الملاذ، وفيها عينان تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان، إحداها يقال لها تسنيم، والأخرى السلسيل، وفيها من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأساء، فبين ذلك فرق بين في التفاضل، ويضجطع أهل الجنة، ويجلسون على فرش بطائنها من إستبرق، وهو ما غلظ من الديباج، وظواهرها من نور، وثمرها قريب إليهم، متى شاءوا تناولوه على أي صفة كانوا، دانية عليهم ظلها وذلت قطوفها تذليلًا، وفي الفرش حور غضيضات البصر عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئًا أحسن في الجنة من أزواجهن، أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، كأنهن في صفاء الباقوت وبياض المرجان، فالمرأة من نساء أهل الجنة يرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من الحرير، حتى يرى نكحها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمألأت ما بينها رجًا، ولطاب ما بينها، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها، وهذا جزاء من أحسن في الدنيا العمل، فله الإحسان في الدار الآخرة، فهل جزاء ما أنعم الله عليه بالتوحيد إلا الجنة؟ فاللهم لا تحرمنا الجنة ووالدينا وأهلينا وذريانا والمسلمين، وهذه نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، تستوجب الاعتراف بنعم الله والعمل على شكرها.

وأما جنتي أصحاب اليمين وهي دون اللتين قبلها في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، وهما جنتان من فضة آتيتها وما فيها، ومن صفات هاتين الجنتين أنها قد اسودتا من الخضرة، من شدة الري من الماء، فهما خضراوان، ممتلئتان من الخضرة، ناعمتان، فيها عينان فياضتان، تفيض على وجه الأرض، ممتلئتان لا تنقطعان.

فِيهَا فُكِّهَةٌ وَنُحْلٌ وَرُمَانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَايَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
 فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَيَايَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
 مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَيَايَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
 لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾ فَيَايَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٧٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَيَايَ
 آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبِّذْكَ أَشْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

آياتها
٩٦نسخها
٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ
 ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾
 فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ
 الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمِئْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ
 الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾
 فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ
 ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾

وفي جنتي أصحاب اليمين من كل الفواكة، ونخل ورمان، ونخل الجنة سفعها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم، ومنها حللهم، وكرها ذهب أحر، وجدوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وليس له عجم، والرمانة من رمانها كمثل البعير، وفيهن خيرات كثيرة حسنة في الجنة، ومنها المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه، من الحور مستورات في الخيام، لم يمسهن قبل أزواجهن إنس ولا جان، والخيمة في الجنة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون، وأدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، يتكئون على الوسائد والفرش والبسط الأخضر وكل غالٍ ونفيس وجليل من المجالس الجميلة، نسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الجنة ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين، تعالى اسم الله وتقدس ذي العظمة والكبرياء، هو أهل أن يحل فلا يعصى، وأن يعظم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

سورة الواقعة

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر الواقعة فيها

الواقعة من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقيق كونها وجودها، ليس لوقوعها إذا أراد الله صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، فلا بد أن تكون، تحفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء، في ذلك اليوم تزلزل الأرض زلزلاً شديداً فتهتز وتضطرب بطولها وعرضها، وتفتت الجبال فتا، فتكون كرهج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء، وتكون كالهباء الذي يطير من النار، إذا اضطربت يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً، وينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين، وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، والعرب تسمي اليد اليسرى الشؤمى، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار، وطائفة سابقون بين يدي الله وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين؛ وهم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، وهم المقرَّبون إلى جزيل ثواب الله، وعظيم كرامته، والذين قربت درجاتهم، وأعليت مراتبهم عند الله فهم مقرَّبون عند الله في جنات النعيم، منهم جماعة من صدر هذه الأمة، وقليل من آخر هذه الأمة، وأمة محمد ﷺ هم الأولون يوم القيامة وهم نصف أهل الجنة والسابقون في الجنة على سرر منسوجة بالذهب، ومشبكة بالدر والياقوت، وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنَزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفِكَهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ
الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ
الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ
﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا
مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَهُنَّ
أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ
الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ
الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ
عَلَى الْحَنَثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظْمًا إِيَّا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّا
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

السابقون من أهل الجنة يطوف عليهم في الجنة ولدان على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشبون ولا يتغيرون، بأكواب وهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان، وبالأباريق، وهي التي جمعت الوصفين، والكؤوس المليئة من خمر من عين جارية معين، لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطرية واللذة الحاصلة، ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار، وإذا نزع ثمرة في الجنة، عادت مكانها أخرى، ومما يشتهون من لحوم الطير، وطير الجنة كأمثال الإبل، يرعى في شجر الجنة، فطيرها ناعمة كما أهلها ناعمون، ويطاف عليهم بحور عين في القصور والخيام، كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه، مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل، لا يسمعون في الجنة كلامًا غثًا خاليًا عن المعنى، أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف، ولا كلامًا فيه قبح، إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، وكلامهم سالم من اللغو والإثم، وأما أصحاب اليمين وهم الأبرار وحالهم ومآلهم في سدر لا شوك فيه موقر بالثمر، قد جعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تنبت ثمرةً تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من الطعام، ما فيها لون يشبه الآخر، وفي طلح منضود وهو الموز المترابك المصفوف، وفي ظل ممدود، ففي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، وظل الجنة لا ينقطع، ليس فيها شمس ولا حر، مثل قبل طلوع الفجر، وفي ماء يجري في غير أخدود، وهي أنهار الجنة، وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل، يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعام غير الطعام، لا تنقطع شتاء ولا صيفًا، بل أكلها دائم مستمر أبدًا، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء، ولا يمنعه من تناولها عود ولا شوك ولا بعد، وفرشهم في الجنة عالية وطيبة ناعمة، ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ونساؤهم في الدنيا يرجعن أبكارًا، حسنة التبعيل، والتحبب للأزواج، وحسنة الكلام، في سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، خلقن لأصحاب اليمين، وادخرن لأصحاب اليمين، وأصحاب اليمين من هذه الأمة جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين، وأما أصحاب الشمال، فهواء حار، وماء حار، وفي ظل الدخان الأسود، ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر، ولا كريم المنظر لأنهم كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يقبلون ما جاءتهم به الرسل، وكانوا يصممون على الكفر بالله، وجعل الأوثان والأنداد أربابًا من دون الله، وكانوا يكذبون بالبعث، ولا ينوون توبة، ويقولون مكذبين به مستبعدين لوقوعه أنذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أننا لمبعوثون وما علموا أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعهم الله إلى عرصات القيامة، لا يغادر منهم أحدًا، في وقت محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَھَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾
 فَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُ مِنْ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا
 شُرْبَ الْهَلِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
 تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
 الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
 عَلَى أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
 عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ
 ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
 حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ
 ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ
 أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
 ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ
 نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ
 ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ
 بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

جزاء الضالين المكذبين يوم القيامة في النار الأكل من شجر الزقوم حتى يملثوا منها بطونهم، فيشربون عليه من الماء الحار كأنهم في شربهم شرب الإبل العطاش، فلا يروون من الحميم أبدًا، هذا ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم.

فالله هو الذي ابتداء خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، أفليس الذي قدر على البداء بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى، فهل يصدقون بالبعث، فالمي الذي يخرج من الرجل والمرأة ومنه يخلق الإنسان هو خلق الله، وليس خلق الإنسان، وهو سبحانه الذي قدر الأعمار، وكتب الآجال، وسأوى فيها بين أهل الساء والأرض، ولم يعجزه ذلك، فيكتب الموت على الصغير والكبير والشريف والوضع، والذكر والأنثى، وهو القادر على أن يخلق غيرهم بعد موتهم ويجعل لهم من الصفات والأحوال، وقد تيقن العباد أن الله أنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا، فخلقهم وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا يتذكرون ويعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة، قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأخرى، والعباد عاجزون عن تحصيل مصالحهم من الحراثة والزراعة، فشق الأرض وإثارتها والبذر فيها فعل الإنسان فمن الذي هداه لذلك، هو الله ﷻ، وهل يستطيع الإنسان إخراج الثمرة، فهو سبحانه الذي يخرج ثمرتها، فهو الذي أنبتاها بلطفه ورحمته، وأبقاها لعباده رحمة بهم، ولو شاء الله لأيسها قبل استوائها وحصادها، ولأصبح العباد يتعجبون فيما نزل بهم في زرعهم، ويقولون لقد ذهب المال بفساد الزرع، وحرمانا رزقنا بذهاب زروعنا، ومن عجز الإنسان وقلة حيلته هذا الماء الذي يشرب منه وهو قوام حياته، هل هو الذي أنزله من السحاب أم الله ﷻ، ولو شاء الله لجعله مرًا لا يصلح لشرب ولا زرع، فهل يشكر العباد نعمة الله عليهم في إنزاله المطر عليهم عذبًا زلالًا، وهذا الشجر الذي يوقد الناس عليه طعامهم ومصلحتهم، متاع للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار، وما يستخرج منه النار، وللعرب شجرتان: إحداهما المرخ، والأخرى العفار، إذا أخذ منها غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر، تناثر من بينهما شرر النار، فهل الإنسان هو الذي خلقها وأوجدتها أم الله الواحد القهار؟ هذه النار التي تذكر النار الكبرى، وهي جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، فسبحان الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة الماء العذب الزلال البارد، ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزاجرًا لهم في المعاد، وأقسم الله بمواقع النجوم مطالعها ومشارقها ومنازلها، وهذا القسم الذي أقسم الله به قسم عظيم، لو يعلمون عظمتة لعظموا المقسم به عليه، وهو القرآن العظيم.

إِنَّهُ لَقَرَّاءٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا
 الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ
 أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا
 إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُّنْظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
 إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ
 ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ
 ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ
 الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
 الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ
 ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

سُورَةُ الْحَادِثِ

آياتها ٢٩

ترتيبها ٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾
 هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

أقسم الله بمواقع النجوم على شرف القرآن وعظمته، فهو كتاب معظم في كتاب معظم محفوظ موقر، ومن تعظيمه أنه لا يمسه إلا الطاهر، فلا يمس القرآن إلا طاهر، وهو منزل من الله رب العالمين، فما يكذب بهذا القرآن إلا كافر أو منافق، ومن الكفر عدم شكر الله على نعمه فمن يقول مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بالله مؤمن بالكواكب، فنسبة النعمة إلى غير المنعم بها كفر وجحود، وفي الساعة الحاسمة والنهاية الفاصلة حين تبلغ الروح الحلق، وذلك وقت الاحتضار، وأهله حوله ينظرون، إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت، والملائكة الذين يقبضون روحه أقرب إلى الميت منهم، ولكن لا يرونهم، فإن كانوا غير مصدقين أنهم يدانون ويبعثون ويجزون، ويحاسبون فليردوا هذه النفس، التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها في الجسد، وأحوال الناس عند احتضارهم على ثلاثة أحوال إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله؛ فالمقربون الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، لهم روح وريحان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، وتقول لهم ملائكة الرحمة أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب الذي كنت تعمريه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان، راحة وريحان، وجنة ورخاء، فمن مات من المقربين حصل له الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن، فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله ﷻ، والله ﷻ للقاءه أحب، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم وأهلينا وذرياتنا والمسلمين، وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، تبشرهم الملائكة بالسلامة، وتسلم عليهم، وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، فضيافة الحميم الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود، وتغمره النار من جميع جهاته، فهذا الخبر الحق اليقين الذي لا مرية فيه، ولا محيد لأحد عنه، فسبحان الله العظيم.

سورة الحديد

وهي سورة مدنية، سميت بذلك لذكر الحديد فيها

يسبح الله ما في السموات والأرض، من الحيوانات والنباتات، وكل شيء يسبح بحمده ولكن لا نفقه تسبيحهم.

وهو سبحانه العزيز الذي قد خضع له كل شيء، والحكيم في خلقه وأمره وشرعه، وهو المالك المتصرف في خلقه فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الأول فليس قبله شيء وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء وهو الباطن فليس دونه شيء، وهذه الأسماء الأربعة متقابلة في الزمان والمكان، تفيد إحاطة الله ﷻ بكل شيء أولاً وآخرًا وكذلك في المكان ففيه الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية، وهو سبحانه المحيط بعلمه بكل شيء جملة وتفصيلاً.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
 عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
 السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
 ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
 الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ
 مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾
 وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ
 أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ
 ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ
 لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ
 وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا
 وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا
 الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

الله ﷻ هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش بعد خلقهن، يعلم عدد ما يدخل في الأرض من حب وقطر، وما يخرج منها من زرع ونبات وثمار، ويعلم ما ينزل من السماء من الأمطار، والثلوج والبرد، والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام، وما يصعد إليها من الملائكة والأعمال، فيرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، وهو مع عباده رقيب عليهم، شهيد على أعمالهم حيثما كانوا، من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامهم ويرى مكانهم، ويعلم سرهم ونجواهم، وهو سبحانه المالك للعالمين والآخرة، وهو المحمود على ذلك، فجميع ما في السماوات والأرض ملك له، وأهلها عبيد أرقاء أذلاء بين يديه وإليه المرجع يوم القيامة، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجر ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشرة أمثالها، وهو سبحانه المتصرف في الخلق، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يكونان معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيطاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به خلقه، وهو العالم بالسرائر وإن دقت، وإن خفيت، والمؤمنون يؤمنون بالله ورسوله على الوجه الأكمل، ويسألون ربهم الدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وينفقون من الأموال التي استخلفهم الله عليها فهي عارية الله عندهم، فإن المال قد كان في أيدي من قبلهم ثم صار إليهم، فيستعمل المؤمن المال في طاعة الله، فإن لم يفعل حاسبه الله عليه، والذي ينفق المال ابتغاء وجه الله وفي مرضاة الله له الأجر العظيم والجزاء الجزيل من الله تعالى، ومن الذي يمنع المشركين من الإيمان والرسول بين أظهرهم، يدعوهم إلى ذلك ويبين لهم الحجج والبراهين على صحة ما جاءهم به، وقد أخذ الله عليهم الميثاق وهم في صلب آدم، بالإيمان بالله وحده لا شريك له، وقد أنزل الله على عبده الحجج الواضحات، والدلائل الباهرات، والبراهين القاطعات، لتكون سبباً في إخراج العباد من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان، وهو سبحانه رؤوف رحيم بعباده في إنزاله الكتب وإرساله الرسل هداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشبه، والإنفاق ابتغاء مرضاة الله سبب للعيش الرغيد والحياة الطيبة والفوز بمرضاة الله فالمؤمنون ينفقون ولا يخشون الفقر والإفلال، فيما أنفقوه في سبيله، وهو مالك السموات والأرض، ويده مقاليدهما، وعنده خزائنها، فمن توكل على الله أنفق، ولم يخش من ذي العرش إقلالاً، وعلم أن الله سيخلفه عليه، ولا يستوي من أنفق قبل فتح مكة، وكانت الحال شديدة، وكان في نفقتهم نصرة للإسلام، ومن أنفق بعد الفتح، لأنه بعد الفتح ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وقد وعد الله الجميع من أنفق قبل الفتح وبعده الثواب على ما عملوا، ووعدهم بالجنة وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، والله عليم خبير، فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق، ومن أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة، سواء نفقة واجبة أو مستحبة فقد تقرب إلى الله تعالى، له بذلك مضاعفة الحسنات.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
بُشْرَانَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَاؤُنْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾
أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا
اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾



المؤمنون يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم، يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة، وكل الناس يعطون نورًا يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفى نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفى نور المنافقين، فيقولون: ربنا، أنعم لنا نورنا، ويعرف النبي ﷺ أمته بنورهم يسعى بين أيديهم، وبأبائهم كتبهم، ويقال لهم: لكم البشارة بجنت تجري من تحتها الأنهار، ماكنث فيها أبدًا، وحين ينطفيء نور المنافقين والمنافقات وينظرون للمؤمنين يسرع بهم نورهم إلى الجنة يقولون: انتظرونا نستضيء بنوركم فيقول لهم الملائكة: ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا النور الذي وجده المؤمنون، وهو الإيمان، والأعمال الصالحة، فيضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه نور المؤمن وظاهره ظلمة المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات، فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين لهم: بلى، قد كنتم معنا، ولكنكم فتنتم أنفسكم بالذلات والمعاصي والشهوات وأخرتم التوبة من وقت إلى وقت، وتربصتم بالحق وأهلكم، وشككنتم بالبعث بعد الموت وغرتمكم الدنيا، وما زلتم في هذا حتى جاء الموت وغركم بالله الشيطان، فكنتم على خدعة من الشيطان، وما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار، فكانوا معهم بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كانوا في حيرة وشك فكانوا يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا، فلو جاء أحدهم اليوم بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله، ما قبل منه، ومصيرهم النار وإليها منقلبهم، وهي أولى بهم من كل منزل على كفرهم وارتياهم، وبئس المصير، ودعوة من الله لعباده المؤمنين أن تلين قلوبهم عند الذكر والموعظة وسماح القرآن، ففهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه، ولا يتشبهون بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى لما تناول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلًا ونبدوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا آحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيده، فخرجوا عن طاعة ربهم، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة، فالله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي النفوس بعد ضلالها، ويفرج الكرب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجذبة الهامدة بالغيث، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعدما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال، والذين ينفقون الأموال على أهل الحاجة والفقر والمسكنة، ويتصدقون بها ابتغاء وجه الله بنية خالصة لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكورًا يضاعف الله لهم أموالهم في الدنيا، والأجور في الآخرة، يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك، ولهم ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح ومآب كريم.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ وَالشَّهَادَةُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيٰوةُ
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ۖ ثُمَّ يَهِيَجُ فترثُهُ
مُضْفَرًا ۖ ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾
سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ
مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا
تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ ۚ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبَخْلِ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون، يصدقون بموعود الله ويؤمنون بما أخبر به رسول الله ﷺ من الأمور الغيبية المستقبلية، وصدقوا جميع رسل الله، والقائمون لله سبحانه بالتوحيد، والشهداء وهم الذين قتلوا في سبيل الله عند ربهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش، ولهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال، والذين جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات في النار يعدبون بها، ولا أجر لهم ولا نور، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة، فهم يعيشون في الباطل وغفلة عن الآخرة، وترزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة، وتفاخر فيها بين الناس بالخلقة والقوة، والمال والجاه، والأنساب والأحساب، وتكاثر بالأموال والأولاد، والحياة الدنيا حقيرة لا تساوي عند الله شيئاً فهي زهرة فانية ونعمة زائلة، كالطرير الذي يأتي بعد قنوط الناس، يعجب الزراع نبات هذا المطر ثم يحف ذلك الزرع فتراه مصفراً بعدما كان خضراً نضراً، ثم يكون يبساً متحطماً، وهكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غصاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وتضعف قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، فلا يعيش إلا عيش الآخرة، وليس في الآخرة إلا عذاب شديد، أو مغفرة من الله ورضوان، والحياة الدنيا متاع فإنها تفر من ركن إليها، فتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة، والمؤمنون الصادقون هم الذين يبادرون إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنهم الذنوب والزلات، وتحصل لهم الثواب والدرجات، فيتسابق الصادقون في مضمار الطاعة، ليصلوا إلى المغفرة، وإلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض، وهي فضل الله ومثته على عباده وإحسانه إليهم، نسأل الله أن لا يحرمانا فضله ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

فما يصيب الإنسان من مصيبة في الآفاق وفي نفسه، إلا في كتاب من قبل أن يخلق الله الخليفة ويرأى النسيئة، فكل في كتاب، وعلم الله تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها وفق ما يوجد في حينها سهل على الله ﷻ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وذلك ليعلم العباد أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فلا يأسوا على ما فاتهم، فإنه لو قدر شيء لكان، ولا يسروا بما جاءهم، ولا يفخروا على الناس بما أنعم الله به عليهم، فإن ذلك ليس بسعيهم ولا كدهم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لهم، فلا يتخذوا نعم الله أشراً وبطراً، يفخرون بها على الناس؛ فالله لا يحب كل مختال في نفسه متكبر فخور على غيره، وليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن يجعل الفرح شكراً والحزن صبراً، والذين يخلون بأداء حقوق الله عليهم، ولا ينفقون ما أمرهم الله به، ويحضون الناس على التفريط في حق الله، ومنع ما أمر الله به من النفاق، فإن الله غني عنه، وعن إنفاقه، وهو سبحانه المحمود في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ
بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عِثَرِهِمْ
بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً
أَبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا
رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ
نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ لَكَ
أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

أرسل الله الرسل بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات، وأنزل معهم الكتاب هداية للناس، وشرع لهم العدل، ليتبعوا ما أمروا به من العدل، فيتعاملوا فيما بينهم بالعدل، ومن العدل اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، وجعل الله الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وتبيان ودلائل، فلما قامت الحجة على من خالف، شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيف، وضرب الرقاب لمن خالف القرآن وكذب به وعانده، ففي الحديد من السلاح كالسيف، والحراب، والسنان، والنصال، والدروع، وما استجد من صناعة السلاح قوة للحق، ومنافع للناس في معاشهم مما لا قوام للناس بدونه، والله يعلم من نيته في حمل السلاح نصره الله ورسله، وهو القوي العزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليلو الناس ببعض، فمنذ أن بعث الله نوحاً ﷺ لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم ﷺ خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته، حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما وأوحى الله إليه الإنجيل، وجعل في قلوب الخواريين خشية الله، ورحمة بالخلق، ومبالغة في العبادة، والانقطاع عن الناس وهي بدعة ابتدعتها النصارى لم تشرع لهم، ولذلك حذر من البدع سيد ولد آدم محمد ﷺ، ولو قصد بها التقرب، فإن النصارى قصدوا ببدعهم ابتغاء مرضاة الله، فما قاموا بها التزموه حق القيام، وقد ذمهم الله من وجهين: الابتداء في دين الله مما لم يأمر به الله، والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى الله ﷻ.

فالذين آمنوا بعيسى، وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله، لهم الأجر العظيم من الله تبارك وتعالى، وأكثر النصارى خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به، ومن آمن من أهل الكتاب برسالة محمد ﷺ له أجره مرتين أجر بإيمانه برسوله، وبإيمانه بمحمد ﷺ وتصديقه.

ولما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وعد الله المؤمنين من هذه الأمة إذا آمنوا واتفقوا، فلهم ما لأهل الكتاب من الأجر، فيجعل لهم ضعفين، من الأجر وزادهم، بأن يجعل لهم هدى يتبصرون به من العمى والجهالة، ويغفر لهم، فضللهم بالنور والمغفرة، ليتحقق أهل الكتاب أنهم لا يقدرين على رد ما أعطاه الله، ولا على إعطاء ما منع الله، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

سُورَةُ الْمُحَاجَّاتِ

آياتها
٢٢نسخها
٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ
 وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
 مِنْكُمْ مَنْ نَسَاءِبِهِمْ مَا هُمْ بِأُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي
 وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ
 اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ
 لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تُوعِظُونَ
 بِهِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
 مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ
 مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا
 كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ
 عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
 عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

 الجزء ٢٨
 الحزب ٥٥

سورة المجادلة

وهي سورة مدنية . وسميت بذلك لذكر قصة المجادلة فيها

كانت خولة بنت ثعلبة زوجة لأوس بن الصامت، فقال لها: أنت علي كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، وأتت رسول الله ﷺ، وعائشة رضي الله عنها تغسل شق رأسه، فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت ظاهر مني وقد ندم، فقال رسول الله ﷺ: حرمت عليه، فقالت: إن لي صبية صغارًا إن ضمنتهم إليه ضاعوا وإن ضمنتهم إليّ جاعوا، فسمع الله سبحانه كلامها مع رسوله فأنزل حكم الظهار.

قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها إن المرأة لتحاوّر رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفي علي بعض، فسمع الله صوت التي تخاصم نبيه وتحاوّر وتراجعه في زوجها وتشتكي إلى الله حالها، والله سميع لمن يناجيه ويتضرع إليه، ويصير بمن يشكو إليه، وصورة الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، أو أنت مني أو معي أو عندي كظهر أمي، وكذلك لو قال: أنت علي كبطن أمي أو كراس أمي أو كيد أمي، أو قال: بطنك أو رأسك أو يدك علي كظهر أمي أو شبه عضوًا منها بعضو آخر من أعضاء أمه فيكون ظهارًا، والظهار كذب وزور، ومنكر لأنه على غير حقيقته، فالذين يجعلون زوجاتهم كأمهاتهم الحقيقة أنهم لسن بأمهات لهم، وما أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم، وقد عفا الله عن المظاهر وغفر له بإيجاب الكفارة عليه، وحكم الظهار أنه يحرم على الزوج بجامعة زوجته بعد الظهار ما لم يكفر، والكفارة تجب قبل العود للجماع، وهي: إعتاق رقبة مؤمنة من قبل أن يمسها بالجماع، فمن لم يجد الرقبة، فيجب عليه صيام شهرين متتابعين، فمن لم يستطع الصوم أطعم ستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع من الطعام.

وكفارة الظهار مرتبة يجب عليه عتق رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن أفطر يومًا متعمدًا يجب عليه استئناف الشهرين، فإن عجز عن الصوم يجب عليه أن يطعم ستين مسكينًا، وهذه الأحكام أتى بها الرسول ﷺ من الله ﷻ، يجب تصديقها والعمل بها، وهي حدود الله يحرم ارتكابها، ويحرم تجاوزها، وأما من كفر بالأحكام، وجحد فله العذاب الأليم في الآخرة، والذين يعادون الله ورسوله ويشاقون ويخالفون أمرها أذهم الله وأخزاهم، وأهانهم كما أذل الله من قبلهم وقد أنزل الله آيات واضحات لا يخالفها ولا يعاندها إلا كافر فاجر مكابر، وله يوم القيامة عذاب يهينه لأنه استكبر عن اتباع شرع الله، والانقياد له، والخضوع لديه، ويوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر حفظه الله عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عليه، والله لا يغيب عنه شيء ولا يخفي ولا ينسى شيئًا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ
 مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ
 وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمُ
 بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
 نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ
 وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
 بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ
 جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا
 تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا
 بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَى وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى
 مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ
 اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

الله سبحانه علمه محيط بخلقه يراهم ويسمع كلامهم، ولا يخفى عليه شيء منهم حيث كانوا وأين كانوا، فما يكون من سر ثلاثة إلا هو رابعهم بعلمه، ولا خمسة إلا هو سادسهم بعلمه، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم بعلمه، أين ما كانوا يطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، والملائكة يكتبون ما يتناجون به، مع علم الله وسمعه لهم، وكان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم، فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن التجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى التجوى، وتحدثوا فيما بينهم بالإثم وبالعدوان، وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يصرون عليها ويتواصون بها، وإذا جاءوا إلى رسول الله ﷺ قالوا السام عليك يا أبا القاسم، فيقول رسول الله ﷺ: وعليكم، ويقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نسرّه، ولأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا، فكانت عقوبتهم أن جهنم كفائتهم في الدار الآخرة يدخلونها فبئس المرجع، ونهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثل الكفرة والمنافقين يتناجون بأسباب الإثم والاعتداء على الآخرين، وأمرهم بالتناجي بأسباب البر والعمل الصالح، وملازمة تقوى الله الذي يجمع العباد يوم القيامة فيخبرهم بجميع أعمالهم وأقوالهم التي أحصاها عليهم، والمسارة بين الناس من تسويل الشيطان وتزيينه، ليحزن المؤمن ويسوء، وليس ذلك بضاراً شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله، والواجب على المؤمنين إذا كانوا ثلاثة ألا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن هذا الأمر يحزنه، ومن الآداب التي أمر بها المؤمنون التفسح في المجالس، والتوسعة في المجلس، وعدم التضايق فيه ومن امتثل الأمر وفعل ما أمر به وسع الله له في الجنة، وفي كل ما يريد التفسح فيه من المكان والرزق وغيرهما، ومن الآداب أنه إذا قيل لهم انفضوا إلى أمر من الأمور الدينية، فلينهضوا ولا يتثاقلوا، فينهضون إلى الصلاة، والجهاد، وعمل الخير، فيجيئون إذا دعوا إلى أمر بمعروف، ويرفع الله الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات، والعلم فضيلة يهبها الله من شاء من عباده، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، والعلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد من خير وشر، فهو مجازيهم بالخير خيراً وبالشر شراً.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ
 صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
 ١٢ ءَأَسْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقْتِ فَإِذْ لَّمْ تَفْعَلُوا
 وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٣ ﴿﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا
 غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤ اَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ١٥ اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ
 عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٦ لَّنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ
 شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٧ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
 اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ءَلَا
 إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ١٨ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ
 اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ءَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ
 ١٩ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْآذِلِينَ ٢٠
 ٢١ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ



أمر الله عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يسار رسول الله ﷺ فيما بينه وبينه أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكّيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام؛ إلا من عجز عن ذلك لفقده فإله غفور رحيم عباده لا يكلف نفساً إلا وسعها، ونسخ هذا الحكم، وأمروا إن كان وقع منهم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى، فليثبتوا على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، فيما يؤمرون به وينهون عنه، ونهى الله المؤمنين من مولاة الكافرين، فإن المنافقين يوالون الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، ويحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم، عياداً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله له إنهم مؤمنون، وقد أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أفعالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم، ومعاداة المؤمنين وغشهم؛ فهم أظهروا الإيمان وأبطأوا الكفر، واستتروا بالأيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فآغرت بهم، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس، فلهم في يوم القيامة العذاب الذي يهينهم ويخزيهم، ولن يدفع عنهم العذاب الأموال والأولاد إذا جاءهم، وهم أصحاب النار لا يفارقونها، ويوم يحشرهم الله يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً، فيحلفون بالله ﷻ، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة؛ وقد غلب عليهم واستولى الشيطان على قلوبهم حتى أنساهم ذكر الله ﷻ، وكذلك يصنع بمن استولى عليه، فهم جنود الشيطان وأتباعه ورهطه، وهم الكاملون في الخسران؛ لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة، وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة، والذين يجانبون الحق ويشاقون أحكام الله، هم الأشقياء المبعدون المطرودون عن الصواب، الأذلون في الدنيا والآخرة، وقد كتب الله الذلة والصغار لمن خالف أمره، وقد حكم القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه، وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يبايع ولا يبدل، بأن النصر له وكتابه ولرسله ولعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، وهذا قدر محكم وأمر مبرم، وهي سنة الله في نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين؛ لأن الله أراد أن يكون رسوله ﷺ غالباً لأعدائه وذلك من آثار قدرة الله التي لا يغلبها شيء وقد كتب الله لجميع رسله الغلبة على أعدائهم، فغلبتهم من غلبة الله، ولا يشك المؤمن في أن وعد الله حق، وأن الذين يجادون الله ورسوله هم الأذلون، وأن الله ورسله هم الغالبون، وأن هذا كائن لا محالة.

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الْحَشْرِ

آياتها
٢٤آياتها
٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ
لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ
فَاعْتَرِبُوا يَتَأُولَى الْأَبْصَرِ ﴿٢﴾ وَلَوْ لَا أَنْ كُنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
الْجَلَاءَ لَعَذَبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

الولاء والبراء أوثق عرى الإيمان، فالؤمنون الصادقون هم الذين لا يجدون في قلوبهم محبة للكفار، ولو كان هؤلاء الكفار آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، وقد كتب الله لهم السعادة وقررها في قلوبهم وزين الإيمان في بصيرتهم، وقواهم في الحق، فلهم الجنات التي تجري الأنهار من خلالها لا يبغون عنها حولا، وكتب الله لهم الرضوان.

لأنهم لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم، فهم عباد الله وأهل كرامته، لهم الفلاح والسعادة والنصرة في الدنيا والآخرة.

سورة الحشر

وهي سورة مدنية، سميت بذلك لذكر الحشر فيها، وتسمى سورة بني النضير

جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح لله ويمجده ويقده، ويصلي له ويوحده، ولكن لا نفقه تسبيحهم والله هو العزيز والحكيم في قدره وشرعه، وهو سبحانه الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم لأول أرض المحشر وهي الشام، وقد كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً ودية، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، وأرادوا أن يقتلوه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وظن اليهود أن حصونهم مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم ما لم يكن ببالهم، فقذف الله في قلوبهم الخوف والهلل والجزع، وسيرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يجربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم؛ وفي ذلك عبرة وفكرة في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم، ولولا أن كتب الله عليهم النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك، وإنما قدر الله لهم الجلاء دون التعذيب في الدنيا لمصلحة اقتضتها حكمته، وهي أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم وحوائطهم دون إتلاف من نفوس المسلمين مما لا يخلو منه القتال لأن الله أراد استبقاء قوة المسلمين لما يستقبل من الفتوح، فليس تقدير الجلاء لهم لقصد اللطف بهم وكرامتهم وإن كانوا قد آثروه على الحرب، وإنما لمصلحة المؤمنين، ولهم في الآخرة العذاب الأليم في النار.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً
 عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ
 عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ
 دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
 نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾
 لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
 يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ
 هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً
 مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

سلط الله على يهود بني النضير رسوله ﷺ وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، وكذا الميل مع الكفار، ونقض العهد، ومن يعادي الله ورسله والمؤمنين فله العذاب الشديد، ولما حاصرهم رسول الله ﷺ أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم، وإرهاقاً لقلوبهم، فبعث بنو النضير يقولون لرسول الله ﷺ: إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار، فجاء الرد عليهم في القرآن: ما قطع وما ترك من الأشجار فالجميع بإذن الله ومشيتته وقدرته ورضاه، وفيه نكاية بالعدو، وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم، والتحريق والقطع راجع إلى ولي الأمر إن كان ينكي في العدو فيشرع وإن كان لا يضر العدو فتركه أولى، ومما شرع الله أخذه من الكفار من الأموال غير الغنائم الفبي، وهو كل مال أخذ من الكفار بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير، فإنها لم يقاتل المسلمون الأعداء فيها بالمبارزة والمصالوة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هبة رسول الله ﷺ، فأفاءه الله على رسوله؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء، فردّه على المسلمين في وجوه البر والمصالح، والله على كل شيء قدير لا يغالب ولا يانع، بل هو القاهر لكل شيء، وما أفاء الله على رسوله من جميع البلدان التي تفتح هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير: فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فهذه مصارف أموال الفبي ووجوهه.

وكانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح في سبيل الله ﷻ، وقد جعل الله هذه المصارف لمال الفبي لثلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منها شيئاً إلى الفقراء، والواجب على المسلمين امتثال أوامر الرسول ﷺ واجتناب ما نهى عنه، فإنه إنما يأمر بالخير، وينهى عن الشر، وعلى المسلم التزام التقوى في امتثال أوامره وترك زواجه؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه، والفقراء المستحقين لمال الفبي، هم الذين خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، ونصروا الله ورسوله، فصدقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين، والذين سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم، من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم، ولا يجحدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف، والتقديم في الذكر والرتبة، ويقدمون المحاويع على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، فآثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه، ومن سلم من الشح فقد أفلح وأنجح.



وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلُوا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

القسم الثالث من يستحق فقراؤهم من مال الفيء هم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون بإحسان، المتبعون لأثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية؛ يحبون أصحاب محمد ﷺ ويترضون عنهم، ويطرحون عليهم ويذكرون محاسنهم، ويكفون عما شجر بينهم فيما هم فيه مجتهدون، ولا يحملون على مؤمن غلاً، ولا حسداً، ولا حقداً، فقلوبهم سليمة طاهرة نقية، فأفضل الناس كل مغموم القلب التقي النقي؛ لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد، وأما المنافق الخائن الغادر حامل الحقد والحسد، الذي يترصد بالمؤمنين الدوائر، فهم في الأزمان ينحازون إلى الكفار، فهذا عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين، بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، والخروج معهم إن أخرجوا، وهم كاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا لهم قولاً من نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه؛ لأنهم من أجبين الناس وأخوفهم من المسلمين، والمنافقون واليهود يخافون من المسلمين أكثر من خوفهم من الله، فهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرّون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة، وعداوتهم فيما بينهم شديدة، يراهم المسلم مجتمعين فيحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق وهذا الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئاً، ولو عقلوا؛ لعرفوا الحق واتبعوه، وتلك طبيعة أهل النفاق، الخيانة والغدر، والاجتماع على محاربة أهل الحق، للمنافقون على مر التاريخ، يضعون أيديهم بأيدي الأعداء ضد المسلمين، فهم يعدون الخفط في طمس الإسلام والقضاء على أهله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، والواجب على أهل الحق أن يرفعوا بدين الإسلام رأساً، ولا يستسلموا لأعدائهم من المنافقين والكفار، فإن الله قضى وحكم بنصرة جنده وحزبه، وقد نصر الله أوليائه، وهزم أعداءه، كمثّل ما أصاب كفار قريش يوم بدر، ويهود بني قينقاع، وقد أجلاهم رسول الله ﷺ قبل بني النضير، فذاقوا سوء عاقبة كفرهم في الدنيا، بالقتل والإجلاء من ديارهم، وفي الآخرة لهم العذاب الأليم، ومثّل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين كمثّل الشيطان إذ سول للإنسان والعياذ بالله الكفر، فإذا دخل فيها سوله تبرأ منه وتصل، فيعتبر المسلم فلا يستسلم للشيطان، ويأخذ حذره منه، ويسد جميع طرقه إليه بالإغواء والإغراء.

ويتسلح بالالتجاء إلى ربه، بأن يحفظه من الشيطان الرجيم، ويكثر من الأخذ بأسباب الحفظ من الشيطان الرجيم التي أرشد إليها الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه.

فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ
 نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
 ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ
 هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا
 الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ
 اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
 ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ
 الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ
 ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ
 يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

الشيطان عدو الإنسان، لا يزال به حتى يكفر بالله تعالى، فتكون عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له أنهما في نار جهنم خالدين فيها، وهذا جزء كل ظالم لنفسه بالشرك، والمسلم الحق هو من يلتزم تقوى الله تعالى في السر والعلن، ويعد نفسه للمستقبل الأخروي فيحاسب نفسه قبل أن تحاسب، وينظر ماذا ادخر لنفسه من الأعمال الصالحة ليوم معاده وعرضه على ربه، والله عالم بجميع أعمال العباد وأحوالهم لا تخفى عليه منهم خافية، ولا يغيب عنه من أمورهم جليل ولا حقير، وعلى العباد ألا ينسوا ذكر الله، فينسيهم الله العمل لمصالح أنفسهم التي تنفعهم في معادهم، فإن الجزء من جنس العمل؛ ومن يفعل ذلك فهو من الخارجين عن طاعة الله، الهالكين يوم القيامة، الخاسرين يوم معادهم، فلا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة في حكم الله يوم القيامة، فأصحاب الجنة هم الناجون المسلمون من عذاب الله، ﷻ، الذين آمنوا بالقرآن وخشعت قلوبهم له وذرفت عيونهم عند سماعه، هذا القرآن الذي تتصدع منه الجبال الراسيات، فإن الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله ﷻ، فكيف يليق بالبرشر ألا تلين قلوبهم وتخشع وتصدع من خشية الله، وقد فهموا عن الله أمره وتدبروا كتابه، فهو الله الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره، ولا إله بحق في الوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه باطل، يعلم جميع الكائنات المشاهدات للعباد والغائبات عنهم فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات، وهو ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وهو المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، وهو القدوس الطاهر الذي تقدس وتنزه عن النقائص والعيوب، والسلام الذي سلم من جميع العيوب والنقائص؛ بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المؤمن الذي آمن خلقه من أن يظلمهم، وصدق عباده المؤمنين في إيمانهم به، وهو المهيمن الشاهد على خلقه بأعمالهم، والرقيب عليهم، وهو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنباه؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه؛ الجبار الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، وهو المصلح لأموال خلقه، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم، وهو المتكبر عن كل سوء، تنزه الله عما يقوله أهل التعطيل والإلحاد والإشراك، وهو الخالق الذي أوجد عباده من العدم، وهو البارئ الذي خلق الخلق على صفة وفطرهم عليها، وهو المصور الذي صور خلقه كيف شاء على صور مختلفة، له الأسماء الحسنى البالغة في الحسن غاية؛ لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه ينزهه ويقدسه ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الذي لا يرام جنباه والحكيم في شرعه وقدره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ
وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي
وَأَبْغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ (١) إِنْ
يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ
بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ (٣) قَدْ
كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَاءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا
قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ (٥)

سورة الههتنة

وهي سورة مدنية ، وسميت بذلك لذكر امتحان النساء في إيمانهن فيها

نهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين المحاربين لله ولرسوله وللمؤمنين أولياء وأصدقاء وأخلاء،
يوصلون بالمودة والمحبة، وشرع الله عداوتهم ومصارمتهم، وقد كفروا بالقرآن وأخرجوا الرسول من مكة
والمؤمنين بسبب إيمانهم، وكراهة ما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده؛ فمن خرج مجاهدًا في
سبيل الله، مبتغيًا لمرضاته، مهاجرًا إلى الله ورسوله، فلا يوال أعداء الله، وقد أخرجوا المؤمنين من ديارهم
وأموالهم، والله هو العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، فمن يوال أعداء الله، ويلق إليهم بالمودة، فقد أخطأ
طريق الحق والصواب، وضلّ عن قصد السبيل، فإنهم لو قدروا على المؤمنين لم يسلم المؤمنون من آذاهم
بالمقال والفعال، وتمنوا ارتدادهم، وودّوا رجوعهم إلى الكفر وحرصوا على ألا ينالوا خيرًا، ولن ينفع
المؤمن أقاربه من الكفار ولا أولاده الذين يوالي الكفار لأجلهم، بل الذي ينفعه هو ما أمره الله به من معادة
الكفار وترك موالاتهم، وفي يوم القيامة لا تنفع الأرحام ولا الأولاد، فكلّ منهم يفرّ من الآخر من شدة
الهلول، وفي يوم القيامة يفرّق بينهم، فيدخل أهل الطاعة الجنة، وأهل المعصية النار، والله لا يخفى عليه شيء
من أقوال العباد وأفعالهم، فهو مجازيهم على ذلك، وللمؤمنين قدوة في إبراهيم وأتباعه الذين آمنوا معه، إذ
تبرءوا من قومهم، ومن دينهم وطريقتهم، وأعلنوا لهم العداوة والبغضاء ما داموا على كفرهم إلى أن
يوحداوا الله فيعبدوه وحده لا شريك له، ويخلعوا ما يعبدون معه من الأنداد والأوثان، وما كان استغفار
إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وقد نهى المؤمنون عن الاستغفار
للمشركين، ولو كانوا قرباتهم لأنهم ماتوا على الشرك، والشرك محبط للأعمال وهنا يتحقق الولاء للمؤمنين
والبراءة من المشركين، والبراءة من المشركين لا تعني ظلمهم ويخسهم حقوقهم من المعاهدين والمستأمنين
وغيرهم؛ لأن لهم ذمة وعهدًا، ولا يعني معاهدة الكافر حبه ومودته، وإنما يعاهد ويتعامل معه في التجارة
مع البغض والكراهية، والمؤمن يلجأ إلى الله فهو وليه وناصره كما قال إبراهيم والذين معه حين فارقوا
قومهم وتبرءوا منهم لجئوا إلى الله وتضرعوا إليه بالتوكل عليه في جميع أمورهم، وسلموا أمورهم إليه، فلإيه
المرجع والمعاد في الدار الآخرة، وسألوا ربهم ألا يظهر الكفار عليهم، ولا يسلطهم عليهم، فيصدوا عن
دين الله، وأن يستر ذنوبهم عن غيره، ويعف عنها فيما بينهم وبينه، إنه العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه،
والحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمَن يَتَّبِعِ الْإِسْلَامَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لهنَّ وءاتوهنَّ
مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُم أَن تَكْفُوهُنَّ إِذَا ءَايَتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَسَأَلُوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُم مَّا أَنفَقُوا
ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَّا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

الاقتداء بالأنبياء وأتباعهم، طريق المتقين، الذين يرجون ثواب الله ويخافون عقابه، ومن تولى عن الاقتداء بهم، فإن الله غني عنه وعن عمله، فهو الغني الذي كمل في غناه، ليس له كفاء، وليس كمثلته شيء، سبحانه الله الواحد القهار، وهو المحمود في جميع أفعاله وأقواله، لا إله غيره، ولا رب سواه، وهو القادر على هداية الكفار فتقلب البغضاء إلى محبة والنفرة إلى ألفة، وهو سبحانه الذي يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم لكل من تاب إليه من أي ذنب كان، والإحسان إلى الكفار المسلمين الذين لا يقاتلون المسلمين، كالنساء والضعفة منهم جائز شرعاً، فيحسن إليهم، والعدل فيما بينهم وبين المسلمين من الوفاء بالعهد فالهدية للكافر المسلم وصلته بالمال مما أباحه الإسلام، وإنما ينهى الله عن موالاة الذين ناصبوا العداوة للمؤمنين فقاتلوهم وأخرجوهم، وعاونوا على إخراجهم، ومن تولاهم فهو ظالم لنفسه، والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب والتولي كفر وهو مظاهرة المشرك ومعونته على المؤمن، وليعلم أن من ظاهر المشركين لا يكفر، بل ينظر في أمره فقد يكون مكرهاً مرغماً على ذلك، وكان من شرط صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، ألا يأتي المسلمين من أهل مكة أحد وإن كان على دين الإسلام إلا رده الرسول ﷺ، فأمر الله عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعهن إلى الكفار، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن، وكان اختبارهن أن يستحلفن بالله ما أخرجكن النشوز وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله، فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن، ولا ترجع إلى الكفار لأنها لا تحل للكافر، ويعطى زوجها الكافر مهره الذي قد أعطاه للمؤمنة، وأباح الله نكاحهن للمسلمين، وإن كان هن أزواج في دار الكفر لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار، ونهى الله المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، فمن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها، فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما، وإن لحقت امرأة من المسلمين بالمشركين مرتدة فليسأل زوجها المسلم المهر من تزوجها منهم، وليسأل المشركون الذين لحقت أزواجهم بالمسلمين ما دفعوا من المهر من تزوجها من المسلمين، وهذا هو حكم الله في الصلح واستثناء النساء منه، يحكم به بين خلقه، وهو عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك، وأما الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها.

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَ
 بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
 بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ
 فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 ١٢ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 قَدْ يَسْأَوْنَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ١٣

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 ١ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢
 كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٣ إِنَّ
 اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
 بُنِينَ مَرْصُوصٌ ٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ
 تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
 زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥

بايع النبي ﷺ المؤمنين بالكلام ولم يصفحهن لأن مصافحة المرأة الأجنبية لا تجوز، شرط عليهن ألا يشركن بالله شيئاً، لأن الشرك ظلم عظيم، ولا يسرقن لأن السرقة لا تليق بالمسلمة، ولا يزينن لأن الزنا من كبائر الذنوب، ولا يقتلن أولادهن لأن ذلك من أمر الجاهلية، ولا يلحقن بأزواجهن ولذا ليس منهم، ولا يعصين رسول الله ﷺ فلا يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه، ويقطعن الشعور، ويدعون بالشبور، وألا يحدثن الرجال إلا أن تكون ذات محرم، وبالأخص إذا كان في خضوع من القول، ونهى الله عباده عن موالاة الكافرين من اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليهم ولعنهم واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف يوالونهم ويتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يتسوا من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ، كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا.

سورة الصف

وهي سورة مدنية سميت بذلك لوصف حال المؤمنين فيها عند القتال

كل من في السماوات ومن في الأرض ينزهون الله ويقدمونه عن النقائص، وهو سبحانه العزيز الحكيم، وأرشد الله عباده المؤمنين بأدب موافقة القول للعمل، ولا يخلف عمل المؤمن قوله، ومن ذلك الوفاء بالعهد والوعد، فإن الله يبغض بغضاً شديداً أن يقول الإنسان ما لا يعمل، أو يتحدث الإنسان عن نفسه أنه عمل وهو لم يعمل، والله يحب عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواهبين لأعداء الله، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان أن يكون صفهم ملتصق بعضه في بعض، كأنهم بنيان مثبت، لا يزول، ملتصق بعضه ببعض، ويخبر الله عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ أنه قال لقومه، لم توصلون الأذى إلي وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة، فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزعج الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصاب من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى، فإن إيذاء النبي ﷺ من أسباب غضب الله، سواء كان بالقول والفعل، فمن آذى النبي ﷺ فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، ومن آذى أصحاب رسول الله ﷺ فقد آذى رسول الله ﷺ، ومن آذى رسول الله ﷺ، فقد آذى الله ﷻ، ومن آذى الله ﷻ فقد آذى الله ﷻ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه.

وَلَمَّا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ
عَلَى تَحَرُّقٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنَ
طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ
مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا
أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا تَ طَافِيَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَكَفَرَتْ طَافِيَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

أرسل الله نبيه وعبدَه عيسى ابن مريم إلى بني إسرائيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة التي قد بشرت به، وهو مبشر بمن بعده، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي المدني أحمد، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه.

ولما جاءهم أحمد، المبشر به في العصور المتقدمة، المنه بذكره في القرون السالفة، وظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون، ما جاء به سحر، فلا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله، ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص؛ ويحاول أن يرد الحق بالباطل، ويريد إبطال القرآن والإسلام، بأقواله الخارجة من فيه، والله متم نور الإسلام والقرآن بإظهاره في الآفاق وإعلائه على غيره، ولوكره الكفار ظهور الإسلام، والله أرسل رسوله محمداً بالملة الحققة، ملة الإسلام؛ ليجعله ظاهراً على جميع الأديان عالياً عليها غالباً لها، ولو كره المشركون ذلك، فإنه كائن لا محالة، وليلبغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر، وأعظم التجارة المتاجرة في العمل الصالح وهي التجارة العظيمة التي لا تبور، والتي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور، فالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، ومنه جهاد النفس وجهاد المنافقين، وذلك خير من تجارة الدنيا، وهذه التجارة سبب لمغفرة السيئات والزلات، ودخول الجنات، والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات، وهذا أعظم فوز يناله الإنسان، ويزيد الله أهل التجارة الرابحة العلو في الدنيا بالنصر على الأعداء والتمكين في الأرض، والفتوحات المتتابعة العاجلة فتلك الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه؛ وهذا أعظم ما تقر به عيون المؤمنين الموحدين الذين ينصرون دين الله، تلك وصية الله لعباده المؤمنين بأن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين طلب منهم من يعينه في الدعوة إلى الله ﷺ، فقال أتباع عيسى ﷺ نحن أنصارك على ما أرسلت به ومؤازروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريباً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي، حتى يقض الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه وآزروه، ومنعوه من الأسود والأحر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سباهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم ﷺ وأرضاهم، ولما بلغ عيسى ابن مريم ﷺ رسالة ربه إلى قومه، ونصره من ناصر من الخواريين، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قاتل منهم إنه ابن الله، وقائل إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس، ومن قاتل إنه الله، فنصر الله من آمن به على من عاداه من فرق النصارى، فأصبحوا ظاهرين عليهم، وأيد الله أتباع محمد ﷺ على جميع الملل والنحل.

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

آيَاتُهَا

سُورَتُهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ
 الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو
 عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا
 مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ
 وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
 ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ
 يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ
 الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾
 قُلْ يَتَايَأُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ
 دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَسْمَنُونَهُ
 أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ
 الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ
 إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

سورة الجمعة

وهي سورة مدنية، سميت بذلك لذكر الجمعة فيها

ينزه الله ويقده كل ما في السموات وما في الأرض، من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، وهو مالك السموات والأرض المتصرف فيها بحكمه، وهو القدوس المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال، العزيز الحكيم، وهو الذي بعث في الأميين وهم العرب، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، والأي في الأصل الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وكان غالب العرب كذلك، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكد، ولا ينافي عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم، وبعثة النبي الخاتم ﷺ إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعثه الله ﷺ وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل، واشتداد الحاجة إليه، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم ﷺ، فقد كان العرب قديماً، متمسكين بدين إبراهيم الخليل ﷺ فبدلوه وغيروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله، وهو فاصل لجميع الشبهات والريب في الأصول والفروع، ويظهرهم من الشرك والوثنية، ويهذب نفوسهم وطبائعهم، ويعلمهم القرآن والسنة، وجمع له تعالى جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين، فصلوات الله وسلامه عليه، وأرسله إلى العرب وغيرهم من الأعاجم وجميع الأمم ولهذا كتب ﷺ كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله ﷻ، وهو عليه الصلاة والسلام نبي إلى قيام الساعة، والله ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره، وما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته ﷺ إليهم فضل الله من فضله به وفضل أمته، وقد أعطى الله اليهود التوراة لتكون هداية لهم، فلم يعملوا بها، فمثلهم في ذلك، كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسيماً ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمر؛ لأن الحمار لا يفهم له، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها؛ فبئس مثلهم أن شبهوا بالحمار بل هم أضل والله لا يوفق للهداية من ظلم نفسه بالإعراض عن هداية الله، وقد كان اليهود يدعون لأنفسهم الهداية، فقبل لهم: إن كنتم ترعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفتنتين، إن كنتم صادقين فيما ترعومونه، ولأن من علم أنه من أهل الجنة أحب الخلوص من هذه الدار فيصير إلى الكرامة، ولن يتمنوا الموت أبداً لعلمهم، ما هم عليه من الكفر والظلم والفجور، والله عليم بهم، ولن يتمنوا الموت لأنهم أحرص الناس على الحياة، والموت الذي يفرون منه يلاقيهم في طريق الفرار، وكل شيء تفر منه تبعد عنه إلا الموت فإنك تفر عنه إليه لأنك في فرارك تقرب إليه وهو قدر الله عليك، فاليهود مها فروا من الموت فلن يؤخر ذلك من عذابهم، فإنهم سيصيرون إلى الله الذي يعلم سرهم وجهرهم، فيجدون ما عملوا من الأعمال القبيحة، أمامهم، ويجازيهم عليها.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ
فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ
وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ
مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾
اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

أمر الله تعالى عباده بإقامة صلاة الجمعة، وسميت الجمعة جمعة؛ لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة، وفيه كمل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض، وفيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، والأُمم قبلنا أمروا به فضلوها عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، فتحن الآخرون السابقون يوم القيامة، وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فيقصد المسلم الصلاة ويعمد إليها ويهتم بها، ويسعى بقلبه وعمله، ويستحب لمن جاء الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها، ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه، ويتطيب ويتسوك، ويتنظف ويتطهر، ويكر إليها، فإذا نودي إليها النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر حرم البيع والشراء، وقد اتفق العلماء رحمهم الله على تحريم البيع بعد النداء الثاني، ويؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان، ويعذر المسافر والمريض وقيم المريض، وما أشبه ذلك من الأعدار، وترك البيع والإقبال إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير للمسلم في الدنيا والآخرة، فإذا فرغ من الصلاة، جاز البيع والشراء والتكسب والانتشار في الأرض، ولا ينس المسلم ذكر الله حال بيعه وشرائه، وأخذ عطاءه، ولا تشغله الدنيا عن الذي ينفعه في الدار الآخرة، وقد وقع من الصحابة الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة، وكان معها طبل، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم، والذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة، خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازيين لمن توكل عليه، وطلب الرزق في وقته، فمنه سبحانه يطلب الرزق، وإليه يتوسل بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه.

سورة المنافقون

وهي سورة مدنية وسميت بذلك لذكر المنافقين فيها

يخبر الله عن المنافقين إنهم إنما يتكلمون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ وحضروا عنده واجهوه بذلك، وأظهروا له ذلك فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك، وهم كاذبون فيما أخبروا به، والله يعلم كذبهم وسيجازيهم، فهم يلبسون على الناس بالأيمان الكاذبة والحلف الآثم، ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جليلة أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، وتصديقهم الظاهر تقية يتقون به القتل، ويصدون عن الإسلام، وإنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى فختم على قلوبهم فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي، وهم وإن كانوا ذوي أشكال حسنة وذوي فصاحة وألسنة، إذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، فهم في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن، كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجنهم أنه نازل بهم فهم أشكال وصور بلا معاني، وهم الأعداء الحقيقيون للإسلام، يجب على المسلمين أن يأخذوا حذرهم منهم، لعنهم الله وأخزاهم كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَ رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ
خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ
مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ
أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ
مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي
إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ
يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

المنافقون بما في قلوبهم من الشك والشرك والكفر والاستهزاء، إذا دعوا أن يطلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم ويطلب الرحمة لهم من رب العالمين، ويدعو لهم صدوا وأعرضوا عما قيل لهم، استكباراً عن ذلك، واحتقاراً وحولوا وجههم على اليمين، ونظروا بأعينهم شزراً، فحرموا بركة استغفار النبي ﷺ لهم، فلاستغفار وعدمه سواء لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق، واستمرارهم على الكفر، ومن خبث المنافقين قولهم لا تنفقوا عند الرسول، وفقراء المهاجرين عنده حتى يتفرقوا عنه، وما علموا أن الله هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين؛ لأن خزائن الرزق له فيعطي من شاء ما شاء، ويمنع من شاء ما شاء، ولكن المنافقين لا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله ﷻ، وأنه الباسط القابض المعطي المانع، ومن خبثهم قول عبد الله بن أبي رأس المنافقين، لئن رجعنا إلى المدينة بعد الغزو ليخرجن الأعز من المدينة الأذل، وعنى بالأعز نفسه ومن معه، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه، وما علموا أن القوة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحى عباده لا غيرهم، ولكن المنافقين لا يعلمون ما فيه النفع فيفعلونه، وبما فيه الضرر فيجتنبونه، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم ومزيد حيرتهم، والطبع على قلوبهم، وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمربي به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ بل نترقب به ونحسن صحبته ما بقي معنا، فوقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه، ورائك فقال: ما لك ويلك، فقال: والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ، وكان يسير آخر الجيش فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله، والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن، وأمر الله عباده المؤمنين بكثرة ذكره ونهاهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، فإن من أشغلته الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وأن الإنفاق في طاعة الله هو التجارة الرباحة ما دام في ساعة المهلة، فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً، يستعيب ويستدرك ما فات، وهيهات، كان ما كان، وأتى ما هو آتٍ، وكل بحسب تفریطه، ولن يُنظر الله أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر مما كان عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى
اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي
لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَالتَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّجَّابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

سورة التغابن

وهي سورة مدنية ، وقيل مكية ، وسميت بذلك لذكر التغابن فيها

كل المخلوقات تسبح لبارئها ومالكها؛ المتصرف في جميع الكائنات، والمحمود على جميع ما يخلقه ويقدره، وهو على كل شيء قدير، مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن، خلق عباده: كافر ومؤمن وتلك مشيئته وقدره، وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزئهم بها أتم الجزاء، خلق السماوات والأرض بالعدل والحكمة، وصور المخلوقات بأحسن الأشكال، وهو العالم بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية، في السر والعلن، وما تخفي الصدور، فتلك الأمم الماضية حل بها العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فذاقوا عاقبة تكذيبهم ورديء أفعالهم، هذا في الدنيا من العقوبة والخزي، وفي الدار الآخرة العذاب الأليم فقد جاءتهم الرسل بالحجج والدلائل والبراهين، فاستبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم، فكذبوا بالحق ونكلوا عن العمل، واستغنى الله عنهم وهو الغني عن عباده وهو المحمود على كل حال، ومن إفك المشركين والكفار والملحدين إنكارهم البعث بعد الموت، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقسم بربه على بعثهم ثم يخبرون بجميع أفعالهم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، والبعث والمجازاة يسيرة على الله تعالى فما بعث العباد كلهم ومجازاتهم إلا كبعث نفس واحدة ومجازاتهم، وأمر الله العباد بالإيمان برسوله ﷺ وبالقرآن وهو النور والضياء لمن آمن به واهتدى بهداه، والله لا تخفى عليه من أعمال العباد خافية، وفي يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيغبن فيه بعض أهل المحشر بعضًا، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ويغبن فيه أهل الإيثار الكفر، وأهل الطاعة أهل المعصية، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار، ونزولهم منازلهم التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار، فأهل النار استبدلوا الخير بالشر، والجيد بالرديء، والتعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس من ذلك، فلا خسارة أعظم من هذه الخسارة، وبيان ذلك أن المؤمنين بالله تعالى يكفر الله عنهم سيئاتهم ويغفر لهم، ويدخلهم الجنات التي فيها الأنهار والتعيم يخلدون فيها أبد الآباد، وذلك هو الفوز والفلاح والنجاة التي هي أمنية المتقين، اللهم إنا نسألك الجنة والدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ
 مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ
 تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا
 لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا
 فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ
 فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ
 وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ
 يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَقَرَّضُوا
 اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ
 حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

الكفار الجاحدون المكذبون مصيرهم إلى جهنم بس النزل نزلهم، وبُست النهاية نهايتهم، وذلك أعظم الخسران.

وكل ما يقع في الكون من المصائب هي قدر الله ومشيتته، ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه، وعرضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه و يقيناً صادقاً، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه.

ومن هداية الله لعبده أن يوفقه للاسترجاع فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون، فإذا مات ولد العبد قال الله للملائكة قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم، فيقول ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد، وما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى في مصيبتى واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها، وأمر الله بطاعته وطاعة رسوله فيها شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، فمن ترك العمل فما على الرسول إلا البلاغ، وعلى العباد ما حملوا من السمع والطاعة، فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، والله هو الأحد الصمد، الذي لا إله غيره، وعلى العباد أن يوحدوه ويخلصوا العبادة له، ويتوكلوا عليه حق التوكل، ومن الأزواج والأولاد من هو عدو للإنسان يليه عن العمل الصالح، فليحذر المؤمن أن يصدّه أحد عن دينه، والأموال والأولاد اختبار وابتلاء من الله خلقه، ليعلم من يطيعه عن يعصيه، والله عنده يوم القيامة أجر عظيم، فيتقي الله المسلم فيهم ما استطاع، ويعلمهم عوناً له في طاعة الله إذا أحسن تربيتهم وتنشئتهم على الخير، والمسلم يبذل جهده وطاقته في القيام بما أمر به، وينقاد لما يأمره الله به ورسوله، ولا يجحد عنه يمناً ولا يسرة، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله، ولا يتخلف عما به أمر، ولا يرتكب ما عنه زجر، ويبذل ما رزقه الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، والإحسان إلى خلق الله كما أحسن الله إليه، فيكون ذلك خيراً له في الدنيا والآخرة.

ومن وقاه الله البخل فقد فاز وأفلح، ومهما أنفق الإنسان من شيء فإن الله يخلفه، ومهما تصدق بشيء فله جزاؤه، وهو بمنزلة القرض له، وهو سبب لتكفير السيئات، والله يشكر عباده فيجزى على القليل بالكثير وهو حلیم يعفو ويصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات، يعلم غيب العباد وسرهم، كما يعلم علانيتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
 الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ
 وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ
 اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ
 اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ
 بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ
 وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ
 مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ
 بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي بَيَّسَ
 مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعَدَّتِهِنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ
 وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
 وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ
 إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

سورة الطلاق

وهي سورة مدنية ، وسميت بذلك لذكر أحكام الطلاق فيها

الطلاق في الشرع حل قيد النكاح أو بعضه، وقد أمر الله النبي ﷺ والأمر لأمرته أن يطلقوا النساء لعدتهن، والعدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، أو حاملاً، فلا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه، ولا يطلقها وهي نفساء، والطلاق ينقسم إلى طلاق سنة وطلاق بدعة، فطلاق السنة أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها، والبدعي أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة، وغير المدخول بها، وقد أمر الله بحفظ عدة المطلقة في ابتدائها وانتهائها؛ لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج، مع تقوى الله في ذلك فلا تضار المطلقة، ولا تخبر المرأة بانتها عدها وهي لم تنته، ولا يخرج من بيوتهم في مدة العدة، فلها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضا الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج، وهذا في حق المطلقة الرجعية، ولا يخرج من بيوتهم إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة هي الزنا، وتلك شرائع الله ومحارمه، ومن يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه بفعل ذلك، وإنها شرع بقاء المطلقة الرجعية في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله في قلبه رجعتها، فيكون ذلك أسير وأسهل، فإذا شارفت المعتدة على انقضاء العدة وقاربت ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده، محسناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها، من غير مقابحة ولا مشاقمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن، ويشهد على الرجعة ذوي عدل إذا عزم عليها.

وما يأتمر بهذا إلا من يؤمن بالله وأنه هو الذي شرع هذا، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة، ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من جهة لا تخطر بباله، وينجي من كل كرب في الدنيا والآخرة، ومن طلق كما أمره الله يجعل الله له مخرجاً، ومن أحسن التوكل على الله، فإن الله يكفيه ما أهمه ويسدده ويعينه، وقضاء الله في عبادته نافذ يحكم بما يريد ويشاء، فكل شيء بقضاء الله وقدره، والمعتدات على أقسام: فمنهن من تعدت بالأشهر وهن الآيسة التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها، والصغيرة التي لم تبلغ سن الحيض، فعدتهن ثلاثة أشهر، وكذلك المتوفى عنها زوجها تعدت أربعة أشهر وعشرة أيام، ومن المعتدات من تكون نهاية عدتها وضع حملها، وهي الحامل المطلقة أو الحامل المتوفى عنها، فمن كانت حاملاً فعدتها بوضعها، ومن المعتدات من تعدت بالحيض، وهي ثلاث حيض وهي المرأة المطلقة، وهي لا تزال تحيض، فهي ليست صغيرة ولا آيسة، ومن يلزم تقوى الله في جميع أموره يسهل له أمره، ويسره عليه، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً، وهذا حكم الله وشرعه أنزله إلى عباده بواسطة رسول الله ﷺ، والتقوى سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات، وذهاب المحذور، وجزيل الثواب.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارِزُوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا
 عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
 فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ
 تَعَاَسَرْتُمْ فَسِئْرَضِعْ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ
 وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا
 إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
 عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا
 عَذَابًا ثُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾
 أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ
 لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
 سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعَالَمِ أَنْ
 اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

أمر الله عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزله حتى تنقضي عدتها، ويكون ذلك المنزل على حسب طاقته وجهده ولا يضيق عليها لتفتدي منه بإلها أو تخرج من مسكنه، ولا يطلقها، فإذا بقي يومان من عدتها راجعها، وإن كانت المطلقة البائن حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها، فإذا وضعت المرأة المطلقة حملها، فقد بانت بانقضاء عدتها، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذية باللبأ، وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للولد غالباً إلا به، فإن أرضعت استحققت أجر مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجر؛ بشرط أن تكون هذه الأمور فيما بينهم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة أجره الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهي أحق بولدها، ولينفق على المولود والده أو وليه، بحسب قدرته، ومن ضيق عليه رزقه ولم يجد ما ينفق به على المولود فلا حرج عليه، لأن الله لا يكلف النفس بما لا تطيق، وبعد العسر يأتي اليسر وعدد من الله تعالى، ووعده حق لا يخلفه، وقد حل بالأُمم السالفة العقوبات العظيمة لما خالفت أمر الله، وكذبت رسله، وسلكت غير ما شرعه، وتمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، فذاقت عاقبة مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وكان أمرهم إلى الخسران والبوار في الدنيا، وفي الدار الآخرة، وفي ذلك عبرة لذوي الأفهام المستقيمة، لا يكونون مثلهم فيصيبهم ما أصابهم، فالمؤمنون يتعظون ويعتبرون بما قص الله في القرآن من العبر، ويتبعون الرسول المبلغ عن رب العالمين آياته البينات الواضحات، فيخرجهم الله من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الإسلام باتباع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فللمؤمنين العاقبة الحميدة والوعد الحسن بدخول الجنات التي تجري تحتها الأنهار يخلدون فيها أبد الآباد، وقد وسع الله عليهم أرزاقهم في الجنة، والله سبحانه له القدرة التامة والسلطان العظيم خلق سبع سماوات طباقاً بعضها فوق بعض، وخلق سبع أرضين، ومماثلة الأرض للسماوات في خلقها دلالة على عظيم قدرة الله تعالى، وخلق الأرض ليس أضعف دلالة على القدرة من خلق السماوات لأن لكل منها خصائص دالة على عظيم القدرة، يتنزل الأمر من السموات السبع إلى السبع الأرضين، وما يدبر فيهن من عجب تدبير الله، فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها، فينقلهم من حال إلى حال، ليعلم العباد كمال قدرة الله، وإحاطته بالأشياء، فالله قد أحاط بكل شيء علماً، فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان، فلا تخفى عليه خافية، في الأرض ولا في السماء.

سُورَةُ التَّحْنِثِ

آياتها
١٢آياتها
١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ
 وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا
 فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ
 فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ
 ﴿٣﴾ إِنْ نُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ
 فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ
 بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا
 خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ تَبَيَّنَتْ عَنَدَاتٍ سَيِّحَتِ
 ثِيَابَ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُورًا أَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
 نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ
 لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

سورة التحريم

وهي سورة مدنية، وسميت بذلك لذكر تحريم النبي ﷺ على نفسه العسل

كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأت عائشة وحفصة على أيتها دخل عليها، فلتقتل له أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مغافير، والمغافير شيء شبيه بالصمغ يكون في الرمث وشجر فيه حلاوة، قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً، فحرم العسل على نفسه، فعاتب الله نبيه محمداً ﷺ كيف يحرم الحلال ابتغاء رضاء زوجاته؟ وأمر الله نبيه أن يُكفّر عن يمينه، وكفارة اليمين، عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع، أو كسوة عشرة مساكين كسوة تسترهم في الصلاة فمن لم يجد فيصوم ثلاثة أيام، وأظهرت المرأة التي أسرها النبي ﷺ -وهي حفصة- أنه شرب العسل، لعائشة أمر العسل، فأطلع الله نبيه على ذلك، فأخبرها ببعض خبر إفشاء السر وأعرض عن بعضه، قالت حفصة من أخبرك به، قال رسول الله ﷺ: أخبرني الذي لا يخفى عليه خافية، إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة فقد عدلت قلوبكما ومالت عن الحق، فقد أحببنا ما كره رسول الله ﷺ، وهو إفشاء الحديث، وإن تتعاضدا وتعاونوا في الغيرة عليه منكما وإفشاء سرّه فإن الله يتولى نصره وكذلك جبريل، ومن صلح من عباده المؤمنين، فلن يعدم ناصرًا ينصره، وجميع الملائكة أعوان له يظاهرونه، فإن أراد النبي ﷺ طلاقاً فإِنَّ الله يعطيه بذلك أزواجاً أفضل منكن، قائلات بفرائض الإسلام مصدقات بالله وملائكته، وكتبه ورسله، والقدر خيرته وشرّه، مسلمات لأمر الله ورسوله، مطيعات لله، تائبات من الذنوب عابدات لله متذللات له، صائمات، ثيبات وأبكاراً، والثيبة هي المرأة التي قد تزوجت، والبكر التي لم تتزوج، وأمر الله المؤمنين بأن يقوموا بواجب التربية لأهلهم من زوجات وبنين وبنات يادبهم، ويعلموهم، ويأمرهم بالذكر والطاعة التي تنجيهم من النار، فحق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه، فيسعون بهذه التربية أن يقوهم من نار حطبها الذي يلقي فيها جثث بني آدم، وحجارة الكبريت، وعلى النار ملائكة طباعهم غليظة، قد نزع من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، وتركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية عباداً بالله منهم، ويقال للكفرة يوم القيامة، لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
 أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
 يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيدُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمَرَاتَ نُوحٍ وَأُمَرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
 عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾
 وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أُمَرَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ
 قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ
 وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ
 عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا
 وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ﴿١٢﴾

أمر الله عباده المؤمنين بالتوبة الصادقة الجازمة، التي تمحو ما قبلها من السيئات، والتوبة النصوح هي أن يقلع الإنسان عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لأدمي رده إليه بأي طريقة، والتوبة تكفر السيئات، وتدخل العباد الجنات التي تجري من تحتها الأنهار في يوم يكتب فيه الخزي على أعداء الله، والفوز والنجاة للنبي وأتباعه على الحق، نور إيمانهم من بين أيديهم وبأيانهم، ويسألون ربهم أن يتم نورهم، حين يرون نور المنافقين ينطفئ، ويسألون ربهم المغفرة، وأمر الله رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بالحجة والبيان، والتشديد عليهم في الدعوة، واستعمال الخشونة في أمرهم بالشرائع وبإقامة الحدود عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود، ومصيرهم في الآخرة النار فبئس المرجع الذي يرجعون إليه، ولا ينفع عند الله مخالطة الكفار والمنافقين للمسلمين ومعاشرتهم لهم، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم، ومن ذلك امرأة نوح وامرأة لوط كانتا زوجتي نبيين من أنبياء الله يؤاكلانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط فخانتاهما في الإيمان، ولم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يجد ذلك كله شيئًا، ولا دفع عنها العذاب؛ فلم يغنِ النبي عن زوجته من الله شيئًا لكفرها بالله، ويقال لها يوم القيامة ادخلا النار مع الداخلين، والمؤمن لا تضره مخالطة الكافرين إذا كان محتاجًا إليهم، أما إن كان لا يحتاج فإن مخالطة المشرك تضر في الدين، وتنقص الإيمان لما تورث المخالطة من المحبة والمودة، وأما المؤمن المضطهد في دينه إذا صبر وثبت على دين الله، كانت له العاقبة الحميدة، فقد كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعدهم عن الله، فما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربهما وهي آسية بنت مزاحم ؑ، لأن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه، وكانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف الجنود عنها أظلمتها الملائكة بأجنحتها، وسألت ربهما بيتًا عنده في الجنة، فاختارت الجار قبل الدار، وكانت ترى بيتها في الجنة، وسألت ربهما أن يخلصها من فرعون وعمله، وأن ينجيها من فعل القوم الظالمين، ومن المؤمنات الصادقات، مريم ابنة عمران التي حفظت فرجها وصاتته، فبعث الله جبريل إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه في جيب درعها، فتزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى ﷺ، وصدقت بقدر الله وشرعه، وكانت من العابدات الطاهرات، فأفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون.

سُورَةُ الْمُلْكِ

آياتها
٣٠آياتها
٦٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①
 الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ②
 الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ③
 ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④
 الَّذِي أَمَّا نَبَا الْمُصْطَفَى ⑤ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُنْسُ الْمُصِيرُ
 إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ⑥
 تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑦
 قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ⑧
 وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑨
 فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩
 إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑪

سورة الهالك

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر أن الملك بيد الله فيها

تعالى الله وتعظم وتقدس عن صفات المخلوقين، الذي بيده ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، فهو يعزّ من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء، ومن تعظيم الله إثبات الصفات له سبحانه وتعالى كما أثبتنا لنفسه، وكما أثبتنا رسوله عليه الصلاة والسلام، وقد أجمع السلف على إثبات البدين لله، فيجب إثباتها له بدون تحريف ولا تعطيل، ولا تكيف، ولا تمثيل، وهما يدان حقيقتان لله تعالى تليقان به، فالله تعالى وحده هو المالك الملك المطلق العام الشامل، ونسبة الملك إلى غيره نسبة إضافية، وهو سبحانه بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرّف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام، ورفع ووضع، وإعطاء ومنع، وهو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، أوجد الخلاق من العدم، ليختبرهم أيهم أحسن عملاً، والعمل الحسن ما توفر فيه شرطان: الإخلاص والمتابعة للرسول ﷺ، والله العزيز العظيم المنيع الجناّب، وهو غفور لمن تاب إليه وأناب بعدما عصاه وخالف أمره، خلق سبع سماوات طباقاً طبقة بعد طبقة، ليس في خلق الرحمن من اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة، ولا نقص ولا عيب ولا خلل؛ فلينظر الإنسان إلى السماء فيتأملها، هل يرى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو شقوقاً؟ وليكرر النظر مرات، يرجع البصر صاعراً ذليلاً منقطعاً عن أن يرى عيباً أو خللاً وهو كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار، ولا يرى نقصاً، فقد زين الله السماء الدنيا بالكواكب التي تضيء كإضاءة السراج، وقد جعلت رجوماً يرمي بها الشياطين الذين يسترقون السمع، وللشياطين هذا الخزي في الدنيا، وفي الآخرة عذاب السعير، وإنما خلقت النجوم لثلاث خصال؛ خلقها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، ومصير الذين كفروا عذاب جهنم بئس المآل والمنقلب، إذا طرحوا فيها كما يطرح الحطب في النار سمعوا للنار صوتاً كصوت الحميم عند أول نهيقها، وهو أقبح الأصوات، وهي تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير، يكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحققها بهم، كلما ألقى في جهنم جماعة من الكفار سألهم خزنتها من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع ألم يأتيكم في الدنيا رسول يذكركم هذا اليوم، ويذكركم منه؟ فيقولون: بلى قد جاءنا نذير، فأندرنا وخوفنا وأخبرنا بهذا اليوم فكدبنا ذلك النذير، وقلنا ما أنتم أيها الرسل فيم تدعون أن الله نزل عليكم آيات تنذرونا بها إلّا في ذهاب عن الحق، وبعد عن الصواب كبير، وعادوا على أنفسهم باللامّة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، فقالوا: لو كانت لنا عقول نتنتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتراض به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاء به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، فاعترفوا بذنبهم وجرمهم الذي استحقوا به عذاب النار، وهو الكفر وتكذيب الأنبياء، فبعداً لهم من الله ومن رحمته، وأما الذين يخشون عذاب الله ولم يروه، فيؤمنون به خوفاً من عذابه، ويخشون ربه في السر، وفي حال الخلوة والبعد عن أعين الناس، فلهن المغفرة العظيمة يغفر الله بها ذنوبهم وهم الجنة.

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ
﴿١٥﴾ ءَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ
تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا
يُמَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَنْ هَذَا الَّذِي
هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ
﴿٢٠﴾ أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ
وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ ۚ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا
عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ
فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾

لا تخفى على الله خافيه، فهو سبحانه يرى عباده، ولا يخفى عليه شيء منهم، فهو مطلع على الضائر والسرائر، والسر والعلانية عنده سواء عليم بما يخطر في القلوب، ألا يعلم الله خلقه الذي خلقهم وأوجدهم ووهبهم جميع الجوارح، وهو اللطيف الذي لطف علمه بما في القلوب، والذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، والخير بما تسره النفوس وتضمره من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية، سخر لعباده الأرض وجعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهباً فيها من المنافع ومواضع الزروع والثار، يسافر الناس حيث شاءوا في أقطارها، وترددون في أقاليمها وأرجائها وأطرافها وفجاجها ونواحيها، في أنواع المكاسب والتجارات، وسعيهم لا يجدي عليهم شيئاً، إلا بعد تيسير الله لهم، والأخذ بالأسباب من التوكل على الله فهو المسخر المسير المسبب، وإليه المرجع يوم القيامة، ومن لطف الله ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به، وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يعلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل، فهو قادر على أن يحسف بهم الأرض فإذا هي تتحرك وتحيى وتضطرب، وقادر على أن يرسل ريحاً فيها حصباء تدمغهم، فإذا عاينوا العقوبة علموا صدق الرسول الذي أنذرهم، وقد كذبت الأمم السالفة والقرون الخالية، فكيف كانت عقوبة الله لهم، لقد كانت عظيمة شديدة أليمة، ومن قدرة الله تعالى الطير تطير في السماء، تارة يصفون أجنتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ما يمسكن في الجو إلا الرحمن بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، فهو البصير بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، فالمشركون الذين عبدوا مع الله غيره، يتغنون عندهم نصراً ورزقاً، ليس لهم من دون الله من ولي ولا واق، ولا ناصر لهم غيره؛ ولكن الكفار في غرور، غرهم الشيطان فاتبعوه، ومن الذي إذا قطع الله رزقه عنهم يرزقهم بعده، فلا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق، وينصر إلا الله ﷻ وحده لا شريك له، والمشركون يعلمون ذلك، ويعبدون مع الله غيره، وهم مستمرون في طغيانهم وإفكهم وضلالهم وعنادهم واستكبارهم ونفورهم على أدبارهم عن الحق، لا يسمعون له ولا يتبعونه، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي منحنيّاً لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب بل تائه حائر ضال، والمؤمن يمشي منتصب القامة على طريق واضح بيّن، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يمشي سويّاً على صراط مستقيم، مقض به إلى الجنة الفحاء، وأما الكافر فإنه يمشي يمشي على وجهه إلى نار جهنم، فالذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، فأيهم أهدي سبيلاً؟! وهو سبحانه الذي ابتداء خلق العباد بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، وجعل لهم العقول والإدراك، والقليل من الناس من يستعمل هذه القوى التي أنعم الله بها عليه، في طاعة الله وامتنال أوامره وترك زواجره، وهو سبحانه الذي بث العباد ونشرهم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألستهم في لغاتهم وألوانهم، وأشكالهم وصورهم، وإليه يجمعون بعد التفرق والشتات، يجمعهم كما فرقهم ويعيدهم كما بدأهم، والكفار المنكرون للمعاد يقولون متى يقع الاجتماع بعد التفرق؟ فأمر النبي ﷺ أن يقول لهم: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ﷻ لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه، وما علي إلا البلاغ.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي
كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الْقَلَمِ

آياتها
٥٧

نزلت بها
٦٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾
وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾
فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطْعُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ يُدْهَنُ فَيْدُهُنُوتٌ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعُ كُلَّ
حَلَافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَزَ مَشَاءٍ بَنِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَكُ اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

إذا قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريباً؛ لأن كل ما هو آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، لما يعلمون بما لهم هناك من الشر، فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، فيقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ: هذا الذي كنتم به تستعجلون، وقد كان الكفار يتمنون هلاك النبي ﷺ والمؤمنين معه فأمر النبي ﷺ أن يقول لهم: أخبروني إن أهلكني الله بموت أو قتل ومن معي من المؤمنين أو آخر ذلك إلى أجل، فمن ينجيكم مع كفركم من العذاب، فخلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، سواء عذبا الله أو رحماً، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم، فالمؤمنون يؤمنون بالله وعليه يتوكلون في جميع أمورهم، ويوم القيامة يعلمون لمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة، وأمر النبي ﷺ أن يسأل الكفار لو أن ماءكم ذاهبٌ في الأرض، لا ينال بالفؤوس الحداد، ولا السواعد الشداد، فمن يأتي العباد بالماء النابع السائح الجاري على وجه الأرض؟ إنه الله الذي لا يقدر على ذلك غيره، فمن فضله وكرمه أن أنبع لعباده المياه وأجرها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فله الحمد والمنة.

سورة القلم

وهي سورة مكية وقيل مدنية وسميت بذلك لذكر القلم فيها وتسمى سورة ن

ابتدأت السورة بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن الكريم وبلاغته، وأقسم الله بالقلم، وهو قسم منه تعالى تنبيه لخلقته على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم؛ فالكتابة قيد العلم، وخلق الله القلم الذي أجراه الله بالقدر فكتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف سنة، ومما قضاه الله وقدره إرسال خير البشر محمد ﷺ الذي رماه قومه بالجنون، فنفى الله عنه الجنون، وجعل له الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبید على إبلاغه رسالة ربه إلى الخلق، وصبره على أذاهم مع ما جبله الله عليه من الأخلاق العظيمة، فقد كان خلقه القرآن، وأرسله بالدين العظيم وهو الإسلام، وسيعلم النبي ﷺ يوم القيامة وسيعلم مخالفوه ومكذبوه من المفتون الضال، ومن هو أولى بالشیطان، فانه تعالى يعلم من المهتدي من الفريقين، ومن هو الضال عن الحق، ونهى الله نبيه ﷺ عن طاعة المكذبين، فإنهم يودون لو يركن إلى آهتهم ويترك ما هو عليه من الحق، ونهاه عن طاعة كثير الخلف بالباطل الذي يغتاب الناس ويمشي بين الناس، بالنميمة ويحرف بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهو الحقير عند الله والوضيع والذليل، يمنع ما عليه وما لديه من الخير، يتعدى حدود ما أحل الله له، ويتجاوز فيها الحد المشروع ويتناول المحرمات، فهو فظ غليظ، جموع منوع، وتلك صفة أهل النار، فمن كانت تلك صفته لا يطاع ولا يتبع حتى لو كانت له الأموال الطائلة والأولاد، والجاه والسلطان، فهو إذا تليت عليه آيات الله كذب بها، ونسبها إلى أخبار الماضين.

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُوطِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ
أَعْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾
أَن لَّا يَدْخُلَتْهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ
لَكُمْ لَوْلَا تَسْبِيحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا بُولَلَاءَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ
رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ
الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ
﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِن لَّكُمْ فِيهِ مَا تَخْتَارُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ
عَلَيْنَا بَلَاغُهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِن لَّكُمْ مَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ
بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

المكذب بآيات الله تعالى يبين الله أمره بياناً واضحاً، حتى يعرف ولا يخفى على الناس، كما لا تخفى السمة على الخراطيم فكما أن السمة شين لا يفارق الإنسان فكذلك كل من كذب بآيات الله فلاهل النار سمة لا تفارقهم، يعرفون بها من سواد الوجوه يوم القيامة، والذلة والمهانة، ولأهل المعاصي سمة في وجوههم في الدنيا من سواد الوجوه، وذل المعصية، وقد ضرب الله لكفار قريش مثلاً فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهي بعثه محمداً ﷺ إليهم، فقابلوه بالكذب والرد والمحاربة؛ فقد كان ذلك اختباراً لهم كما كان لأصحاب البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، اختبرهم الله، إذ حلفوا فيما بينهم ليجدن ثمر بستانهم ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمره عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ولم يستثنوا في حلفهم، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم، فأصابته آفة سماوية، فأصبح كالليل الأسود، هشياً يساً، قد حرموا خير بستانهم بذنبهم، فلما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ، وأوصى بعضهم بعضاً، في الذهاب أول النهار إن كانوا يريدون الصرام، فذهبوا وهم يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم، ويقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم، وذهبوا أول النهار بقوة وشدة وجد وغيظ على المساكين، وهم يظنون بأنفسهم أنهم قادرون على تنفيذ ما يريدون، فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها، وهي على الحالة التي قال الله ﷻ قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلمة، لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطئوا الطريق، ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي فقالوا بل هذه هي، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب، وقال أعدهم وخيرهم: ألم أقل لكم لولا تسنون، وكان استثناءهم في ذلك الزمان تسييحاً، وهو قول القائل إن شاء الله، وقال خيرهم: لولا تسبحون الله وتشكروه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، خير مما تمنعون الفقراء، فسبحوا الله بعد ذلك، واعترفوا بالذنب، وأتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينفع؛ فلام بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، وأنهم اعتدوا وبغوا وطغوا وجاوزوا الحد حتى أصابهم ما أصابهم، واحتسبوا الثواب في الدار الآخرة، وهذا عذاب الله لمن خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقراء وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفراً، وعذاب الآخرة أشق.

وأما من اتقى الله وأطاعه، فله في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها، فهل يساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟! كلا ورب الأرض والسماء، فلا يظن ظان أن الله يسوي بينهم، وهل بأيديهم كتاب منزل من السماء يدرسونه ويحفظونه أن الله يساوي بين المؤمن والكافر والمطيع والمعاصي؟ وهل معهم عهد من الله ومواثيق مؤكدة، على ذلك، أم يريدون أن يحصل لهم ما يشتهون؟ فمن هو المتضمن المتكفل بهذا، أم أن ما يعبدون من الأصنام والأنداد يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة، فليأتوا بهذه الأصنام يوم القيامة تضمن لهم ما يدعون لأنفسهم إن كانوا صادقين، ففي يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام يكشف الله عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً، والقول في الساق كالقول في سائر الصفات نثبتها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تشبيه.

خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ
 ٤٣ قَدْ رَفَى وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ٤٥ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ
 مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ٤٦ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُوبُونَ ٤٧ فَاصْبِرْ
 لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ٤٨ تَوَلَّى
 أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لِنَيْذٍ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٤٩ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ
 فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ٥٠ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ
 لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٥٢

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣ كَذَبَتْ ثُمُودُ
 وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا ثُمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا
 عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
 سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى
 كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٨

في يوم القيامة تغشى الكفار ذلة شديدة وحسرة وندامة لإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلّى الرب ﷻ يسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون، فمن كذب بالقرآن فله عقوبة الاستدراج، ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، فلا يعتقد أن إمهال الكافر من الله كرامة، بل هو إهانة، بل يؤخرهم وينظرهم ويمدهم، وهذا من كيد الله ومكره بهم؛ وكيد الله عظيم لمن خالف أمره، وكذب رسله، واجترأ على معصيته، والرسول ﷺ يدعو إلى الله ﷻ بلا أجر يأخذه من الكفار، بل يرجو ثواب ذلك عند الله ﷻ، وهم يكذبون بها جاء به بمجرد الجهل والكفر والعناد، وأمر الله نبيه محمداً ﷺ بالصبر على أذى قومه له وتكذيبهم، فإن الله سيحكم له عليهم، ويجعل العاقبة له ولأتباعه في الدنيا والآخرة، ولا يستعجل على قومه كيونس بن متى ﷺ حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان، من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماحه تسبيح البحر بها فيه للعلي القدير، الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات، وهو مغموم ومكروب أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجاب الله له ونجاه من الغم، وجعله من الكاملين في الصلاح، وعصمه من الذنب، ومن شدة إغاض الكفار وعداوتهم للرسول ﷺ يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوه ويعينونه، حسداً من عند أنفسهم، ولولا وقاية الله له، وحمايته إياه منهم لأصابه ما يريدون، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله ﷻ وهم يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون إنه لمجنون لأنه أتى بالقرآن، وما علموا أن القرآن ذكر للعالمين.

سورة الحاقة

وهي سورة مكية، وسميت بذلك لذكر الحاقة فيها

الحاقة من أساء يوم القيامة؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد؛ ولهذا عظم الله تعالى أمرها، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالحاقة، الذين أنكروا البعث بعد الموت فأهلك الله ثمود بالصيحة التي أسكتتهم، وعاد أهلكتها بريح باردة، شديدة الهبوب، عنت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم، بغير رحمة ولا بركة، سلطها الله عليهم، سبع ليال وثنائية أيام كوامل متتابعات، وجعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه، فيشده رأسه وتبقى جثته هامة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان، ولم يبق أحد منهم ينتسب إليهم، بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً.

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْحَاظِئَةِ ⑨ فَعَصَوْا رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ⑩ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ
⑪ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَعِيَةٌ ⑫ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ
نَفْخَةً وَاحِدَةً ⑬ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ⑭
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ⑮ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ
⑯ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ
⑰ يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ⑱ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ⑲ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ
حَسَابِيَةَ ⑳ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ㉑ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ㉒
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ㉓ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ㉔ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ، بِشِمَالِهِ، فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ
㉕ وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ ㉖ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ㉗ مَا أَغْنَى
عَنِّي مَالِيَةَ ㉘ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ㉙ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ㉚ ثُمَّ الْجَحِيمَ
صَلُّوهُ ㉛ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ㉜ إِنَّهُ
كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ㉝ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ㉞

كذب فرعون وقومه رسول الله موسى ﷺ، ومن قبله من الأمم، كمثل قوم لوط، فقد فعلوا فعلتهم الخاطئة، وهي التكذيب بها أنزل الله، فكلهم كذب رسول الله إليهم، ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع، لأن الواجب الإيمان بجميع الرسل فأخذهم الله أخذة عظيمة شديدة أليمة مهلكة، فأهلك قوم نوح ﷺ بالغرق، فإنه لما زاد الماء على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود أغرقهم الله، وذلك بسبب دعوة نوح ﷺ على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، حملهم الله على السفينة الجارية على وجه الماء، فالتاس كلهم من سلالة نوح وذريته، وأبقى الله السفن من جنس سفينة نوح ﷺ، يركب الناس عليها على تيار الماء في البحار، فيدركوا نعمة الله عليهم، ولا يدرك ذلك إلا الأذن الواعية الحافظة السامعة، التي عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله، فاستعدت بالعمل الصالح والإعداد لليوم الآخر، وقد أخبر الله عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور نفخة واحدة، فيحيا الناس جميعاً، فتند الجبال وتبدل الأرض غير الأرض، ففي ذلك اليوم قامت القيامة، وانشقت السماء بنزول ما فيها من الملائكة فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية، والملائكة على أطرافها وجوانبها، ويوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، وهم حملة العرش، وهم الأوعال، ما بين شحمة أذن الملك منهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، في ذلك اليوم يعرض العباد على الله لا يخفى عليه شيء من أمورهم، فهو عالم بالظواهر والسرائر والضائير، يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، عرضتان، معاذير وخصومات، والعرضة الثالثة تطير الصحف في الأيدي، فمن أوتي كتابه يوم القيامة يمينه، من شدة فرحه يقول لكل من لقيه خذوا أقرؤوا كتابي؛ لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسانات محض؛ لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات، فالؤمن يعطى كتابه يمينه في ستر من الله، فيقرأ سيئاته، فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرأها، فيرجع إليه لونه، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات، لأنه كان موقفاً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، فهو اليوم في عيشة مرضية، في جنة رفيعة قصورها، حسان حورها، نعمة دورها، دائم جوارها، ثمارها قريبة، يتناولها أحدهم وهو نائم على سرير، ويقال لهم تفضلاً عليهم، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً: تنعموا بنعيم الجنة من الأكل والشرب وفي عيشة هنية لما قدمتم من الأعمال لصالحه التي كانت سبباً لرحمة الله بكم وإلا فالعمل لا يدخل الجنة، فلن يدخل أحد عمله الجنة، إلا أن يتغمده الله برحمته منه وفضل، وأما الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه في يوم القيامة بشأله، فحينئذ يندم غاية الندم.

ويجزن غاية الحزن لما رأى فيه من سيئاته فيتمنى أنه لم يعط كتابه، ولم يدرك أي شيء حسابه ويتمنى أن الموتة التي ماتها كانت القاطعة للحياة، ولم يحي بعد، لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب، فتمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه، فلم يدفع عنه ماله ولا جأه عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إليه وحده، فلا معين له ولا مجير، فيأمر الله ﷻ الزبانية أن يأخذوه عنفاً من المحشر، فيبتدروا سبعون ألف ملك، أيهم يجعل الغل في عنقه، فتوضع الأغلال في عنقه، ثم تورده إلى جهنم فتغمره فيها، فتدخل الأغلال في دبره ثم تخرج من فيه، ينظّمون فيها كما ينظّم الشواء في العود حين يشوى، لأنه كان لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤذي حقهم، فإن الله على العباد أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنًا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ۝٣٦ لَا يَأْكُلُهُ
 إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝٣٧ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩
 إِنَّهُ، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١
 وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ
 نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا
 مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُ، لَذِكْرٌ
 لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُ، لِحَسْرَةٍ عَلَى
 الْكَافِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُ، لِحَقُّ الْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٥٢

سُورَةُ الْمَجَلَّةِ

آياتها
٤٤آياتها
٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ، دَافِعٌ ۝٢ مِنْ
 اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي
 يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥
 إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ، بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ
 ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠

في يوم القيامة، حين يدخل أهل النار النار فلا يجدون فيها أحدًا ينقذهم من عذاب الله، لا قريب، ولا شفيع يطاع، ولا طعام له في النار إلا شجر الزقوم، والدم والماء يسيل من لحومهم وهو صديد أهل النار، ويقسم الله لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم على أن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فما هو بشاعر ولا بكاهن، وإنما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه، ولو كان كما يزعمون مفترياً على الله، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلى الله، وليس كذلك لعاجله الله بالعقوبة، فأخذت منه يمينه، ولقطع وتينه -وهو نياط القلب- عرق علق القلب فيه، فما يقدر أحد من الناس على أن يحجز بين الله وبينه إذا أرد الله به شيئاً من ذلك، ولكنه صادق بار راشد؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات، وهذا القرآن تذكرة وموعظة، وهدى وشفاء، وبيان للحق، ومع هذا البيان والوضوح، كذب بالقرآن من الكفار من كذب، وإن التكذيب لحسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة، وهذا القرآن هو الخبر الصادق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب، فسبحان الله الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

سورة المعارج

وهي سورة مكية وسميت بذلك لذكر المعارج فيها

سأل سائل من الكفار وهو النضر بن الحارث عن عذاب الله، وهو عذاب نازل على الكافرين معد لهم، ليس له مانع يمنع من وقوعه لأنه من الله ذي الدرجات والفواضل والنعم، تصعد الملائكة وجبريل ﷺ إليه في يوم القيامة الذي مقداره خمسين ألف سنة من سني الدنيا، فموقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة وهو على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ويخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا، وأمر الله نبيه محمداً بالصبر على أذى قومه وتكذيبهم وهذا قبل أن يؤمر بالقتال، فهم يرون العذاب بعيداً وهو قريب لأن ما هو آت قريب، ففي يوم القيامة تكون السماء كالفضة إذا أديت، تذوب وتشقق وتكون أبواباً، والجبال تكون كالصوف المصبوغ المنفوش، ولا يسأل القريب عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره.

يَبْصُرُونَهُ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
 وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا
 مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا
 ﴿٢٠﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢١﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا
 الْمُصَلِّينَ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ فِي
 أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٥﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ
 يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ عَذَابَ
 رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا عَلَىٰ
 أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣١﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ
 ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ
 ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ
 ﴿٣٥﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٦﴾ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ
 ﴿٣٧﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٨﴾ أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ
 أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٩﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾



في موقف القيامة، يعرف الناس بعضهم بعضًا، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، لكل واحد منهم يومئذ شأن يغنيه عن الآخر، يتمنى المكذب أن يفدي نفسه من العذاب إذا رأى الأهل، ولا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهبًا، أو بولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده، أو بقبيلته وبشيرته أو بأمه، فلا نجاة من النار التي تلهب على أهلها تنزع جلدة الرأس، وتنزع الجلود، وما دون العظم من اللحم، وأطراف اليدين والرجلين، فتحرق كل شيء فيه، ويبقى فؤاده يصيح، وتدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب، ممن كذب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، وجمع المال بعضه على بعض، ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة، فالإنسان شديد الحرص، إذا أصابه الضر فرع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، وإذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها، إلا من عصمه الله ووقفه، وهداه إلى الخير وسر له أسبابه، وهم المصلون الذين يحافظون على أوقاتهم وواجباتهم وفرائضهم، ويخشعون في صلاتهم وإذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه، والذين في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات من الذين يسألون الناس المال، والذين حرموا المال وهم الفقراء، والذين يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب، فهم خائفون وجلون، من عذاب الله الذي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى، والذين يكفون فروجهم عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، من الزواج وما ملكت اليمين، فإن الله لم يجعل عليهم حرجًا في التمتع بما أباح الله لهم، بل جعل لهم قضاء الشهوة فيما أباحه لهم أجرًا وثوابًا، والذين إذا أوثقوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، والذين يحافظون على الشهادة لا يزيدون فيها، ولا ينقصون منها ولا يكتُمونها، والذين يحافظون على الصلاة في موافقتها، ويأتون بأركانها وواجباتها ومستحباتها، فجزاؤهم الجنات يكرمون فيها بأنواع الملاذ والمسار، والكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ يشاهدونه، وبما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، مع ذلك فروا منه، وتفرقوا عنه، يمينًا وشمالًا فرقًا فرقًا، وشيعًا شيعًا، لا يرغبون في كتاب الله، ولا في نبيه ﷺ، أبطع هؤلاء وهم في هذه الحالة، من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفورهم من الحق، وفرارهم عنه أن يدخلوا جنات النعيم، كلا بل مأواهم الجحيم، فقد خلقهم الله من المني الضعيف وهو قادر على إعادتهم.

فَلَا أُقِيمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ
﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَنْصَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا
اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا
فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ
فِي عَادَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا
﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

أقسم الله تعالى الذي خلق السموات والأرض، وجعل مشرقاً ومغرباً، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها، على قدرته على البعث والنشور، فالعباد قد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض، وتسخير ما فيها من المخلوقات من الحيوانات والجمادات، وسائر صنوف الموجودات، ففي يوم القيامة يعيد الناس بأبدان خير من أبدانهم، وما يعجزه ذلك سبحانه، فليكذب هؤلاء بالبعث وليستمروا بالكفر والعناد، حتى يأتيهم اليوم الموعود يوم يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعاً كأنهم إلى علم يسعون ويسرعون خاضعة أبصارهم ذليلة نفوسهم، تغشاهم وتحوطهم ذلة الكفر والمعاصي فقد استكبروا في الدنيا عن الطاعة.

سورة نوح

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر قصة نوح ﷺ فيها

أرسل الله نوحاً ﷺ إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنبأوا رفع الله عنهم؛ فهو نذير من الشرك، بين النذارة، ظاهر الأمر، وأمرهم بتوحيد الله، وترك محارمه واجتناب المآثم، فيطيعون رسولهم فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، فإذا فعلوا ذلك غفر الله لهم ذنوبهم، وأمد في أعمارهم ودراً عنهم العذاب لأن الطاعة والبر وصلة الرحم تزيد في العمر حقيقة؛ فإذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب.

فليبادروا بالطاعة قبل حلول النعمة، فإن الله إذا أمر بكون ذلك لا يرد ولا يانع، فإنه العظيم الذي قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، فصد قوم نوح ﷺ عن دعوته وكذبوه، فاشتكى إلى ربه ﷻ ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشd والسبيل الأقوم، فلم يترك دعوتهم في ليل ولا نهار، امتثالاً لأمر الله وابتغاء لطاعته، فكلما دعاهم ليقربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه، وسدوا آذانهم لئلا يسمعوها ما يدعوهم إليه، وتنكروا له لئلا يعرفهم، وغطوا رءوسهم لئلا يسمعوها ما يقول، واستمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم، واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له، فقد دعاهم جهرة بين الناس، وأظهر دعوته بصوت عال، وأسر بدعوته فيما بينه وبينهم، لتكون الدعوة أنجح فيهم، وأمرهم بالرجوع عما هم فيه من الشرك والتوبة، فإنه من تاب إلى الله تاب عليه، ولو كانت ذنوبه معها كانت في الكفر والشرك.

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا نَنْدُرُكَ إِلَهًا ۝٢٣ وَنَسَرْنَا ۝٢٤ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٥ وَمِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝٢٦ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٧ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٨ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ۝٢٩

أمر نوح ﷺ قومه بالتوبة والاستغفار، وهو أمر من الله لجميع عباده لأن الاستغفار، سبب لنزول الأمطار المتواصلة، وسبب لكثرة الرزق ونبات بركات الأرض، وسبب لزيادة الأموال والأولاد، وذلك وعد من الله لعبادة إن حققوا التوحيد، ولزموا العمل الصالح والاستغفار والتوبة.

أما من لم يعظم الله حق تعظيمه، ولم يخف من بأسه ونقمته، فليس له إلا العذاب لأنه لم يشكر نعمة الله عليه فقد خلقه الله من نقطة، ثم من علقه، ثم من مضغه، وخلق الله السموات المتطابقة بعضها فوق بعض، التي هي أكبر من خلق الناس، وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا، ففاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلاً منهما أنموذجًا على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبيها، وقدر القمر منازل وبروجًا، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع في النقص حتى يستسر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، والإنسان في أصل خلقته، خلق من التراب، ثم يموت ويدفن في الأرض، ثم يخرج الله منها يوم القيامة، وهو سبحانه الذي بسط الأرض ومهداها، وثبتها بالجلال الراسيات الشم الشاخات، ليسلك الناس فيها أين شاءوا من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح ﷺ على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيها جعل لهم من المنافع السامية والأرضية، فهو الخالق الرزاق، جعل السماء بناء، والأرض مهادًا، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحى ولا يشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له ولا عدل له، ولا ند ولا كفاء، ولا صاحبة ولا ولد، بل هو العلي الكبير، ومع هذا البيان والدعوة المتنوعة المشتمة على الترغيب تارة والترهيب أخرى، فقد عصوا نبيهم وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بهال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام؛ ومكروا مكراً عظيماً، وكبيراً، بقول كبرائهم لا تتركوا عبادة إلهتكم، وهي الأصنام والصور التي كانت لهم، ثم عبدتها العرب من بعدهم، وظنهم أنهم على الحق والهدى، وتواصوا على عبادة الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، وتلك الأصنام أسماء رجل صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، فكانت عبادة الأصنام، وقد ضل في عبادة الأصنام التي اتخذوها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، ودعا نوح ﷺ على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، وقد استجاب الله له في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به، فبسبب كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، ومن الغرق إلى الحرق، ولم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله، ودعا نوح ﷺ الله ألا يترك على وجه الأرض منهم أحداً يسكن الدار، فإن بقاء الكفار سبب لإضلال العباد، وذريتهم مثلهم في الفجور والإضلال، فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، ودعا نوح ﷺ لأتباعه من المؤمنين بالمغفرة، وأبندأ بالولديه، وهو دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، يعم الأحياء منهم والأموات؛ ولهذا يستحب الدعاء بمثل هذا الدعاء اقتداء بنوح ﷺ، ودعا على الظالمين المكذبين ألا يزيدهم الله إلا هلاكاً وخساراً في الدنيا والآخرة.

سُورَةُ الْجِنِّ

آياتها
٢٨درتسها
٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾
وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ
مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ
اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِّلسَّمْعِ فَمَن
يَسْمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ
وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعْجِزَ
اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهْدَى
ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

سورة الجن

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر الجن فيها

الجن من مخلوقات الله خلقهم من النار، وكلفهم بالأعمال والتوحيد والإخلاص واتباع الرسل، وقد استمعوا للقرآن فأمنوا به وصدقوا رسالة النبي ﷺ، وقالوا لقومهم لما رجعوا إليهم إنا سمعنا كلامًا مقروءًا عجيبًا في فصاحته وبلاغته، وعجبًا في مواعظه وفي بركته، يهدي إلى مرشد الأمور، وهي الحق والصواب، وإلى توحيد الله، فصدّقنا به بأنه من عند الله ولن نتخذ مع الله إلهًا آخر؛ لأنه المتفرد بالربوبية، فهو المتفرد بالألوهية وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنت الجنّ بسماح القرآن مرة واحدة، وانتفعوا بسماح آيات يسيرة منه، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به، ولم ينتفع كفار الإنس لا سيما رؤسائهم وعظماؤهم بسماحه مرّات متعدّدة، وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة مع كون الرسول منهم ويتلو عليهم بلسانهم.

فأفرد الجنّ ربهم بالعبادة وعظموه وقالوا ارتفعت عظمة ربنا وجلاله، وآلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه، وتعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، فنزهوا الله تعالى ﷻ وعظموه حين أسلموا وآمنوا بالقرآن، ونزهوه عن اتخاذ الصاحبة والولد، وأنه كان يقول إبليس على الله جورًا، وظلمًا كبيرًا، وقد كانوا قبل إسلامهم يقولون على الله باطلاً وزورًا؛ وقالوا ما حسبنا أن الإنس والجنّ يتمالئون على الكذب على الله في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنّا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك، وقد كانوا يرون أن لهم فضلًا على الإنس؛ لأنه كانوا يعوذون بهم، فقد كان من عادة العرب في جاهليتها أنهم يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم خوفًا وإرهابًا وذعرًا، حتى يبقوا أشدّ منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم، وقد كان الجن يخافون من الإنس كما يخاف الإنس منهم أو أشدّ، وكان الإنس إذا نزلوا وادّيا هرب الجن، فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادي، فقال الجنّ نراهم يخافون منا كما نخاف منهم، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبيل والجنون، وقد ظنّ الجنّ كما ظنّ الإنس أن لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولًا، وحين بعث الله رسوله محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظ الله له أن السماء ملئت حرسًا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئًا من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق، وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، فمن يريد أن يسترق السمع يجد له شهابًا مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه، وكانت الجنّ لا تدري ما سبب هذا الأمر الذي حدث في السماء، أشر أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشداً؟ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله ﷻ، فكان هو السبب الذي حملهم على طلب السبب، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فأمن من آمن منهم، وتمرد في طغيانه من بقي، فمنهم المؤمنون الصالحون ومنهم الكفار فصاروا طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، وهم يعلمون أن قدرة الله حاكمة عليهم وأنهم لا يعجزونه في الأرض، ولو أمعنوا في الهرب، فإنه عليهم قادر لا يعجزه أحد منهم، وأنهم بادروا بعد سماع الحق على الإجابة، وهذا شرف رفيع وصفة حسنة، ومن يؤمن بربه فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته.

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ
تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥
وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝١٦ لَتَفِينَنَّهُمْ
فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧ وَأَنْ
الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ
بِهِ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي
لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَاغًا
مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ
مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ۝٢٤ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ
مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۝٢٥ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ
يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝٢٧ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا
رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨

من الجن المسلم ومنهم الجائر عن الحق الناكب عنه، فمن أسلم منهم فقد طلب لنفسه النجاة، وأما الكافرون فهم وقود جهنم تسعر بهم، ولو أنهم آمنوا واستقاموا على الإسلام لوسع الله عليهم أرزاقهم، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وفتحت عليهم بركات السماء والأرض، وهذا العطاء اختياريًا وامتنحانًا لهم، وكذلك يمتحن الله الكفار فينعم عليهم بالأرزاق استدرأًا لهم، وقد كتب الله للمعرضين عن الإيمان والقرآن العذاب الشاق الشديد الموجه المولم، والواجب على العباد أن يوحّدوا الله في عبادته، ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به، ويجب تعظيم الله تعالى بالتوحيد، وتطهير أماكن العبادة من الشرك، فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولا العبادة من الدعاء والذبح وقراءة القرآن لا الدعاء للميت، ولا تجوز الصلاة في المسجد الذي فيه قبر، فإن كان القبر قبل المسجد هدم المسجد، وإن كان المسجد قبل قبر نبش القبر، ولما دعا النبي ﷺ إلى التوحيد، اجتمعت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره وبمضيه ويظهره على من ناواه، وأمره الله أن يقول لمن آذاه وخالفه وكذبه وتظاهر عليه؛ ليبطل ما جاء به من الحق واجتمع على عداوته، إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، وإنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، وعبد من عباد الله ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ، وإني لو عصيت ربي فإنه لا يقدر أحد على إنقاذه من عذابه، ولا يجيرني منه ويخلصني إلا بإلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي، وأبلغكم رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدًا فيها أبدًا، لا يحيد له عنها، ولا خروج له منها، وفي يوم القيامة حين يرى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقل عددًا، هم أم المؤمنون الموحّدون لله ﷻ؟ بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عددًا من جنود الله ﷻ، والرسول ﷺ لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد؟ ولا يعلمها إلا من يعلم الغيب والشهادة، ولا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا من اصطفاه من الرسل، أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه؛ ليكون ذلك دالًّا على نبوته.

ويحفظ الله ذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسول فيجعل بين يدي الرسول ومن خلفه حرسًا من الملائكة يحرسونه من تعرّض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب، أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرسًا من الملائكة يحوطونه من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة، ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته، ليعلم ذلك واقعًا كما علمه غيبًا، فإن تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعًا لا محالة؛ والله قد أحاط بما لديهم من الأحوال وأحصى كل فرد من مخلوقاته على حدة.

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ

آياتها
٢٠رقبها
٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ① قُرْ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِصْفَهُ ③ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا
④ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ⑤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا
ثَقِيلًا ⑥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑦ إِنَّ لَكَ فِي
النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑧ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑨
رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑩ وَأَصْبِرْ
عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑪ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ
أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑫ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ⑬
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑭ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْثَابًا مَهِيلًا ⑮ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ⑯ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ
فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ⑰ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
الْوِلْدَانَ شِيبًا ⑱ السَّمَاءُ مِنْفَطِرُهُ يَوْمَ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ⑲
إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ⑳

سورة المزمل

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر المزمل فيها

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه ﷻ، فامتثل رسول الله ﷺ ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده، فأمره أن يقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليه في ذلك، وأن يقرأ القرآن على تمهل، فإنه يكون عوناً له على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، فيستحب للمؤمن الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، لا ينثره نثر الدقل ولا يهذه هذ الشعر، يقف عند عجائبه، ويحرك به القلوب، ولا يكن همه آخر السورة، وأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بقيام الليل ليكون عوناً له لتحمل نزول القرآن عليه، ولتحمل أعباء الرسالة، فإن القرآن ثقیل وقت نزوله من عظمتة، وثقیل في العمل به عند النفوس الضعيفة، وقد كان الوحي إذا نزل على رسول الله ﷺ في اليوم الشديد البرد ينقطع عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً، وإذا نزل عليه وهو على راحلته بركت، فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه، وهو ثقیل يوم القيامة في الموازين، وساعات الليل وأوقاته أشد مواطاة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ وأجمع للخطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش، وللمسلم في النهار الكثير من النوافل، وأمر الله نبيه محمداً ﷺ، والأمر لأتمته من بعده بالإكثار من ذكر الله، والانقطاع إليه، والتفرغ لعبادته إذا فرغ من أشغاله، وما يحتاج إليه من أمور دنياه، وأن يخلص له العبادة، والاجتهاد في العبادة دون انقطاع، فإن الله هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب لا إله إلا هو، وكما يفرده العباد بالعبادة فليفرده بالتوكل، وأمر الله رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً وهو الذي لا عتاب معه، وتوعد الله الكفار وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء، وبالأخص المكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، فإن لهم مهلة ثم يصيرون إلى العذاب والجحيم، وطعامهم في النار يعترض في الخلق فلا يدخل ولا يخرج، يوم تزلزل الأرض، وتكون الجبال ككتبان الرمل بعدما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها وادياً، ولا رابية، وقد أرسل الله لكفار قريش، رسولاً شاهداً عليهم بأعمالهم، كما أرسل موسى ﷺ إلى فرعون فأخذه الله أخذاً شديداً، فليحذر من يكذب محمداً ﷺ أن يصيبه ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وهم أولى بالهلاك والدمار إن كذبوا؛ لأن رسولهم أشرف وأعظم من موسى بن عمران، فكيف يحتمل من كفر يوماً تشيب فيه ولدان، من شدة أهواله وزلازله، وذلك حين يقول الله لأدم: ابعث بعث النار، فيقول: من كم، فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، كيف يتحمل هول هذا اليوم وكربته من أعرض عن الله؟ فبسبب شدته وهوله تشقق السماء، ذلك اليوم الموعود يقع فيه كل موعود لا محالة، ولا يحيد عنه، فهذا القرآن وما فيه من الآيات تذكرة، يتذكر بها أولو الألباب؛ بمن شاء الله هدايتهم، فاتخذوا من الأعمال الصالحة سبغاً إلى الآخرة.

﴿١﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ
مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ
وَأُخَرُونَ يَصْرِيحُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأُخَرُونَ
يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ يَجِدُوهُ
عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الْمُنَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾
فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ
غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ، مَا لَا
مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهَدَاءَ ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ، تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ
أَن أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ، كَانَ لِإِيْتِنَا عِنْدًا ﴿١٦﴾ سَاءَ رَهَقَهُ، صَعُودًا ﴿١٧﴾

أوجب الله على نبيه محمدًا ﷺ قيام الليل، وكان المؤمنون يصلون في الليل، فكانوا يقومون أقل من ثلثي الليل، وأقل من نصفه، وأقل من ثلثه، من غير قصد منهم، وهم لا يقدرّون على المواظبة على ما أمرهم الله به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليهم؛ ولا يستطيعون معرفة قدر الليل والنهار، لأنها تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا، فأمرهم الله أن يقوموا من الليل ما تيسر، وعبر عن الصلاة بالقراءة، فإله سبحانه يعلم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله فيقومون من الليل ما تيسر عليهم منه، ولو بركعة، وليقيموا صلاتهم الواجبة عليهم، ويخرجوا الزكاة المفروضة ولينفقوا في سبيل الله من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره، وجميع ما يقدمه العباد بين أيديهم يجدون أجره عند ربهم، وهو خير مما أبقوه لأنفسهم في الدنيا، وليكثر العباد من ذكر الله واستغفاره في أمورهم كلها؛ فإنه غفور رحيم لمن استغفره.

سورة الهدى

وهي سورة مكية وسميت بذكر المذنب فيها

لما نزل القرآن على النبي ﷺ تغطي بغطاء، فأنزل الله عليه يا أيها المتخشي بشيابه قم، فشمّر عن ساق العزم، وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال، كما حصل باقراً النبوة، وربك فعظمه بالتوحيد، ونفسك طهرها من المعاصي والأصنام، فاهجرها وأهلها، ولا تعط العطية تلتمس أكثر منها، ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره، ولا تضعف أن تستكثر من الخير، واجعل صبرك على أذى قومك لوجه ربك ﷻ، فإذا نفع في الصور، فذلك يومئذ يوم شديد على الكافرين غير سهل، وقد توعد الله الوليد بن المغيرة ومن شابهه في الجحود، الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر، فقد خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله مالًا واسعًا كثيرًا، وجعل له بنين حضورًا عنده لا يسافرون في التجارات، بل موالهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم، وكانوا ثلاثة عشر، ومكن الله له من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، ثم يطمع بالزيادة وهو معاند، كافر بنعم الله عليه، ففي يوم القيامة يكلف أن يصعد جبلًا في النار من نار، فإذا وضع يده ذابت، وإذا رفعها عادت، فإذا وضع رجله ذابت، وإذا رفعها عادت، ويعيش في مشقة من العذاب لا راحة فيه، لبعده عن الإيمان.

إِنَّهُ، فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾
 ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
 يُؤْتِرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَذْرَكَ
 مَا سَفَرُ ﴿٢٧﴾ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرُ ﴿٢٨﴾ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشَرَ
 ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزدادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا
 وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
 وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي
 مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا
 وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى
 الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ
 نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّتٍ يَسَاءَ لُونِ
 ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ
 الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
 الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

كان المشركون يصفون القرآن بالسحر والشعر، وسمع الوليد بن المغيرة القرآن وأعجب بأسلوبه، ولكن كفار قريش ألحوا عليه أن يقول في القرآن قولاً فقال أمهلوني، ففكر ماذا يقول في القرآن وماذا يخلق من المقال؟

فلعن الله وعذبه كيف قدر من الكلام؟ ثم تدبر بأي شيء يدفع القرآن ويقدر فيه؟ ثم أعاد النظرة والتروي، ثم قبض بين عينيه وقطب، وكلح وجهه وتغير، ثم أعرض عن الحق، ورجع القهقري مستكبراً عن الانقياد للقرآن، وقال إن هذا سحر ينقله محمد عن غيره عمن كان قبله ويحكيه عنهم، وهو ليس بكلام الله، إنما هو قول الناس، فمآله النار، وسقر من أساء النار، ومن دركات جهنم، وسقر لا تبقي للكفار لحماً ولا تذر لهم عظماً ولا تبقي من فيها حياً ولا تذرهم ميتاً، مغيرة للكفار، ومحرقة لجلودهم، ومسودة لهم مما يصيبهم من حرها وزمهريرها، وزبانية النار تسعة عشر من الملائكة، وما جعل الله خزنة النار إلا زبانية غلاظاً شداداً، لا يقاومون ولا يغالبون، وما ذكر عددهم أنهم تسعة عشر إلا اختبأ من الله للناس؛ ليعلم اليهود والنصارى أن هذا الرسول حق؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله، ويزداد إيمان المؤمنين بها يشاهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ، ويوقن أهل الكتاب والمؤمنون بنبوة محمد ﷺ ويقول الكفار ومن في قلبه شك وحيرة: ما الحكمة في ذكر عدد زبانية النار؟ كذلك يضل الله عن الجنة من يشاء، ويهدي إليها من يشاء، وما يعلم عدد خلق الله، ومقدار الملائكة، وغيرهم إلا هو وحده، ولا يعلم عدد الملائكة الذين خلقهم الله لتعذيب أهل النار إلا الله، وإن كان خزنة النار تسعة عشر، فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، وما ذكر عدد خزنة النار إلا تذكراً وموعظة للعالمين، وليعلموا كمال قدرة الله، وأقسم الله تعالى بالقمر والليل إذا تولى ذاهباً، والصبح إذا أضاء وتبين وجواب القسم أن سقر إحدى الأمور العظام، وهي نذير للبشر، وما أُنذر الله بشيء أدهى منها، وهي نذير لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها ويولي ويردها، فكل نفس معتقلة بعملها يوم القيامة، إلا أصحاب اليمين فإنهم لا يرتنون بذنوبهم في النار ولكن يغفرها الله لهم فهم في جنات يتسألون، يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم ما أدخلكم النار؟ فيجيبونهم ما عبدنا ربنا ولا أحسننا إلى خلقه من جنسنا، وكنا نتكلم فيما لا نعلم، وكنا نكذب بيوم البعث والنشور، حتى أتانا الموت.

فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ
 ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ
 كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُتَوَّىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ
 الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾
 وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيْحَسِبُ
 الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَدَرِينٌ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ﴿٤﴾ بَلْ
 يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾
 وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ
 أَتَيْنَ الْمَفْرُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ
 يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ
 مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
 وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾



في يوم القيامة لا تنفع المشركين شفاعة شافع فيهم؛ لأن الشفاعة لا تنفع إلا من رضي الله عنه، فأما من وافى الله كافرًا يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالداً فيها، فما هؤلاء الكفرة الذين يدعون إلى الله، وقد أعرضوا عن الذكرى كأنهم في نفورهم عن الحق، وإعراضهم عنه حر من حر الوحش إذا فرت من الأسد، وقالوا ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك لرسوله تؤمر فيه باتباعك، وكل ذلك من المكابرة والعناد، وإنما أفسدهم عدم إيمانهم وتكذيبهم، والقرآن تذكرة لمن أراد أن يتذكر ويعتبر، وما يعتبر ويتعظ إلا من أراد الله هدايته، والله أهل أن تتقى محارمه، وهو أهل أن يخاف منه وأهل أن يغفر لمن اتقاه، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب.

سورة القيامة

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر القيامة فيها

أقسم الله بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللوامة، وهي النفس التي تلوم على الخير والشر، وتندم على ما فات، وجواب القسم، أيظن الإنسان ألا يقدر الله على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة، بلى سيجمعها الله، ولو شاء الله لبعثه أزيد مما كان، فيجعل أطراف أصابعه مستوية، والإنسان يمضي به الأمل، فيسوف بالتوبة، ونفسه تقوده إلى معصية الله قدماً قدماً، إلا من عصمه الله، ويقول متى يكون يوم القيامة؟ وهو سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، ويوم القيامة حين تشخص الأبصار وتنبهر وتحشع وتحار وتدل من شدة الأهوال من عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور، وذهب ضوء القمر، وكور الشمس والقمر، فإذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر ويقول أين المفر؟ هل من ملجأ أو موئل؟ فلا نجاة اليوم، وليس لهم مكان يعتصمون فيه، إلى الله المرجع والمصير، يخبر الإنسان بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، وهو شهيد على نفسه، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، ويشهد عليه سمعه وبصره ويداه ورجلاه وجوارحه، وعلم الله ﷻ رسوله ﷺ كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه؛ وتبيين حلاله وحرامه.

سكتة
لطيفة
على النون

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالنَّفَتْ
السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ
﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
الرَّجُلَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سُورَةُ الْإِنشَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ
الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

ما حمل الكفار على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم إلا محبتهم الدار الدنيا العاجلة، فهم متشاغلون فيها عن الآخرة، والمؤمنون الذين آثروا الآخرة يوم القيامة وجوههم حسنة بهية مشرقة مسرورة، ترى ربها عياناً، وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة، فما أعطي أهل الجنة شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهي الزيادة، أسأل الله ألا يحرمنا ووالدنا وأهلنا وذريتنا والمسلمين تلك الرؤية، وأما وجوه الفجار يوم القيامة فهي كالخة وعابسة، قد أيقنت أنها هالكة، والمؤمن يعد العدة، وأول تلك الأهوال ساعة الاحتضار ثبتنا الله بالقول الثابت، حين تبلغ الروح الحلقوم، وتتنزع حتى تبلغ عظام الترقوة، وتطلب الراقي ليرقيه، والطبيب ليصف له الدواء، واجتمع عليه آخر يوم في الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله، واجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه، إلى الله المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات، فيقول الله ﷻ ردوا عبي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فالكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقلبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، فلم يصدق بآيات الله ولم يصلِّ لله ركعة واحدة، وإنما كذب بالحق، وأعرض أشراً بطراً كسلاناً، لا همة له ولا عمل، يختل ويتبختر، فليختل وليتبختر وليتكبر فإن مصيره العذاب، وهل يظن الإنسان أن الله خلقه عبثاً وتركه لا يؤمر ولا ينهى، ويترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منه في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة، فقد كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، يمنى ويراق من الأصلاب في الأرحام، فصار علقة ثم مضغة، ثم شكل ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً آخر سوياً سليم الأعضاء، ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره، فالذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة قادر على أن يعيده كما بدأه

سورة الإنسان

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر الإنسان فيها

خلق الله الإنسان وأوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه، خلقه من ماء الرجل وماء المرأة، إذا اجتماعا واختلطتا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولون إلى لون، خلقه ليختبره، وأنعم عليه بالسمع والبصر ليمكن بهما من الطاعة والمعصية، وبين الله له ووضح طريق الخير وطريق الشر، فإما يشكر النعمة بالتوحيد، أو يكفرها بالشرك، فكل الناس غاد، فمبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فمهلكها، وأعد الله للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال اللهب والحريق في نار جهنم، وأما ما أعده الله لعباده المؤمنين في الجنة فهم يشربون من خمر الجنة مخلوط بالكافور.

عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَطْوَافُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ
مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا
﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ
مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

يسقى المؤمنون من عين الكافور يجرونها إلى حيث يريدون، ويتنفعون بها كما يشاءون، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه، وتبعهم حيث مالوا مالت معهم، فقد كانوا في الدنيا يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر، ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره منتشر عام على الناس إلا من رحم الله، ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له المسكين واليتيم والأسير، وقد كانوا يكرمون الأسارى، ويقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، يطلبون في هذا الإطعام ثواب الله ورضاه، لا يطلبون مجازاة من أحد ولا شكرًا من الناس.

ويسألون ربهم أن يرحمهم ويلطف بهم في اليوم الضيق الطويل، يوم يعبس الكافر حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، ففي يوم القيامة يؤمنهم الله من الخوف، ويعلو وجوههم البشر والنور، وتسر قلوبهم وتبتهج لما يرون من نعيم الله، وبسبب صبرهم أعطاهم الله وبوأهم الجنة منزلًا رجبًا، وعيشًا رغدًا، ولباسًا حسنًا، يضطجعون ويجلسون على السرر تحت الحجال، ليس عندهم حر مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سرمدي، قريبة إليهم أغصان الأشجار، لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد، إن قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، ويطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم، في بياض الفضة وصفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، وهذه الأكواب هي من فضة، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا، على قدر ربهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي معدة لذلك، مقدرة بحسب ري صاحبها، على قدر أكف الخدام، ويسقون الأبرار في هذه الأكواب خمرًا، ممزوجًا بالزنجبيل، فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور، وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منها خالصًا، وعين الزنجبيل في الجنة تسمى سلسبيلاً، سميت بذلك لسلاسة سيلها وحدة جريها.

ويطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة، على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وفي كثرتهم، وفي صباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن، وما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه، ففي الجنة ونيعتها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الخيرة والسرور، وهي النعيم المقيم والملك العظيم، ولباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه السندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والاستبرق منه ما فيه بريق ولعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس، وحليهم الأساور من الفضة، وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون لباسهم فيها الحرير ويحلون فيها الأساور من الذهب واللؤلؤ، ومع زينة الظاهر بالحرير والحلي، طهر الله بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، هذا التكريم لهم والإحسان إليهم بما كانوا يعملون في الدنيا، فقد جازاهم الله على القليل بالكثير، وقد امتن الله على رسوله ﷺ بما نزل عليه من القرآن العظيم فكرمه بالرسالة، وأمره بالصبر على قضائه وقدره، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين إن أرادوا صده عما أنزل إليه، بل عليه البلاغ والتوكل على الله؛ فإن الله عاصمه من الناس، وأمره بالإكثار من ذكر الله في أول النهار وآخره.

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

آياتها
٥٠آياتها
٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْصَقْتَ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَرَقْتَ فَرَقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلَقْتَ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْقَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُحِلَّتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

أمر النبي ﷺ بقيام الليل، ورجب المصطفى عليه الصلاة والسلام أمته بالقيام والصلاة بالليل تسبيح وتنزيه لله، وتعظيم ودعاء واستغفار، واستعداد للدار الآخرة، والكفار ومن أشبههم يؤثرون الدنيا والإقبال عليها والإنصباب إليها، على الدار الآخرة، ويتركون الاستعداد ليوم القيامة، وما فيه من الشدائد والأهوال، وهو سبحانه الذي ابتداء خلق عباده من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم، وقوى خلقهم، وإذا شاء الله بعثهم يوم القيامة، فأعادهم خلقاً جديداً، وهو سبحانه قادر أن يأتي بقوم آخرين غيرهم.

فهذا القرآن عبرة وذكرى لمن اتخذ إلى الله طريقاً ومسلماً ممن شاء الله هدايته، ولا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجز لنفسه نفعاً إلا أن يشاء الله فهو العليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

سورة المرسلات

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر المرسلات فيها

أقسم الله بالملائكة المرسله بوحيه وأمره ونهيه، التي أرسلت بالمعروف، وأقسم الله بالرياح الشديدة الهبوب، وأقسم الله بالرياح اللينة، التي يرسلها الله بُشراً بين يدي رحمته، وأقسم الله بالملائكة التي تأتي بما يفرق بين الحق والباطل، وأقسم الله بالملائكة التي تلقي إلى الرسل وحياً فيه إعدار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره.

وجواب القسم: إن ما وعد الله به الناس من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كله كائن لا محالة، ففي ذلك اليوم يذهب ضوء النجوم، والسماء تنفطر وتنشق، وتتلدأ أرجاؤها، وتوهى أطرافها، والجبال تذهب، فلا يبقى لها عين ولا أثر، وتجمع الرسل لميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة ليشهدوا على الأمم، فقد أخروا، وضرب لهم الأجل لجمعهم ليوم الفصل، يوم يفصل الله بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار، يوم يكون الهلاك لمن كذب الرسل، فقد أهلك الله المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به، ومن شابههم ممن كذب الرسل بعدهم، وتلك سنن الله في المجرمين الذين كذبوا الرسل، وكفروا بآيات الله.

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ
 مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
 أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسَى
 شَمِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾
 أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ
 شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ
 كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صَفَرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
 هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ
 لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي
 ظِلِّ وَعْيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا
 بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوْا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ
 يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

خلق الله الإنسان من طين ثم جعله نسله من ماء ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة البارئ ﷻ، وجمعه الله في الرحم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء، إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر؛ وذلك تقدير الله، وهو القادر على الخلق والإيجاد، فلا أحد يقدر كقدرته سبحانه وتعالى.

وهو الذي جعل الأرض بطنها للأموات، وظهرها للأحياء، وجعل في الأرض الجبال، أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب، وهو الذي أسقى عباده ماءً عذباً زلالاً من السحاب، وما أنبئه الله من عيون الأرض، فويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره، وفي يوم القيامة يقال للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، أسرعوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون به في الحياة الدنيا، أسرعوا واستظلووا بظل جهنم وهو دخان جهنم إذا ارتفع انشعب وافترق ثلاث فرق، وظل الدخان ليس ظلاً في نفسه، ولا يقيهم حر اللهب، ويتطاير من النار شرر كالخوص، في عظمه وكبره، ولونه كالإبل السود، التي تميل إلى الصفرة، نسأل الله السلامة من النار، والنجاة منها ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين، ففي ذلك الموقف لا يتكلم الكفار، ولا يقدرّون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، فقد جمعهم الله بقدرته في صعيد واحد، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، فلا يقدرّون على التخلص من قبضة الله، ولا ينجون من حكمه، فأين جبروتهم وتكبرهم على عبادة الله في الدنيا؟ وأما عباد الله المتقين الذين عبدوا الله بأداء الواجبات، وترك المحرمات، فهم يوم القيامة في جنات وعيون، هم من سائر أنواع الثمار، مهما طلبوا وجدوا، يقال لهم كلوا واشربوا في عيشة هنية في الجنة بما كنتم تعملون في الدنيا، وهذا جزاء الله لمن أحسن العمل، وأما المكذبون الضالون يتمتعون في الدنيا بشهواتهم مدة قليلة قريبة قصيرة، ثم يساقون إلى نار جهنم، فقد كانوا إذا أمروا بأن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنها؛ وفي ذلك دلالة على وجوب صلاة الجماعة، التي أوجبها الله في حال الأمن والخوف، والتي تفضل على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، وقد همّ النبي ﷺ بتحريق المتخلفين عن صلاة الجماعة، وصلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كثر فهو أحب إلى الله تعالى فمن لم يؤمن بهذا القرآن، فبأي كلام يؤمن به، ومن لم يهتد بالقرآن فبماذا يهتدي؟ ومن لم يتأثر بالقرآن فبأي شيء يتأثر، ومن لم يتعظ بزواجر القرآن فبأي شيء ينزجر.

سُورَةُ النَّبَاِ

بأنها
٤٠ترتيبها
٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ② الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ ③
 كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ④ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ⑤ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ⑥
 وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ⑧ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا
 ⑨ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّبَاسًا ⑩ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ⑪ وَبَنَيْنَا
 فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ⑫ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑬ وَأَنْزَلْنَا
 مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ⑭ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮ وَجَنَّاتٍ
 أَلْفَافًا ⑯ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ⑰ يَوْمَ يُفْخِ فِي الْأُصُورِ
 فَنُاتُونَ أَفْوَاجًا ⑱ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ⑲ وَسُيِّرَتِ
 الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ⑳ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ㉑ لِلطَّاغِينَ
 مَنَابًا ㉒ لِّيَبْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ㉓ لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
 ㉔ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ㉕ جَزَاءً وَفَاقًا ㉖ إِنَّهُمْ كَانُوا
 لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ㉗ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ㉘ وَكُلُّ شَيْءٍ
 أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ㉙ فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ㉚

 الجزء ٣٠
الحزب ٥٩

سورة النبا

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر الأنبياء فيها

يتساءل المشركون عن القيامة إنكاراً لوقوعها، فهم يتساءلون عن الساعة والبعث بعد الموت، وهو الخبر الهائل المفزع الباهر، الذي اختلف الناس فيه على قولين، مؤمن به وكافر، فأما المؤمن، فيزداد يقيناً واستعداداً وبصيرة في دينه، وأما الكافر فيزداد استهزاء وسخرية، وسيعلمون حقيقة ذلك عند الاحتضار وفي القبر، وسيعلمون عند البعث، والله سبحانه قادر على البعث والنشور كما خلقهم أول مرة، وما خلق الله من السماء والأرض وغيرها إلا دليل على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقد خلق الله الأرض ممهدة للخلائق ذلولاً لهم، قارة ساكنة ثابتة، وجعل لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها، وخلق بني آدم من جنسين ذكر وأنثى يستمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك، وجعل النوم سكناً، وقطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعاش في النهار، وجعل الليل غطاء يغشى الناس ظلامه وسواده، وجعل النهار مشرقاً منيراً مضيئاً، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات، وغير ذلك، وخلق الله السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات؛ وجعل فيها الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم، وأنزل من السحاب ماء منصّباً، متتابعاً، كثيراً، فأخرج الله بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك من الحبوب يدخرها الناس طعاماً لهم وللأنعام، ويخرج منه خضراً يؤكل رطباً، ويخرج منه بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً، ويوم القيامة مؤقت بأجل محدود، لا يزداد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله ﷻ، حين ينفخ إسرافيل في الصور وهي النفخة الثالثة فيقوم الناس من قبورهم جماعات، تأتي كل أمة مع رسولها، وتفتح السماء فتكون طرقاً ومسالك لنزول الملائكة، وتذوب الجبال فيخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، فتذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، وتعد جهنم للمردة العصاة المخالفين للرسول، ترصد لهم فتأخذهم فهي المرجع والمنقلب والمصير والنزل، ويلبثون في النار أزمنة لا نهاية لها، وأما أهل التوحيد فيمحصون في النار على قدر ذنوبهم ثم يدخلون الجنة، لا يجد الكفار في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به، فشرابهم الحميم وهو الماء الحار الذي قد انتهى حره، والغساق وهو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطيع من برده، ولا يواجه من نتنه أجارنا الله من ذلك بمنه وكرمه كل ذلك عقوبة على أفعالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا، فلم يكونوا يعتقدون البعث والنشور والجزاء والحساب، وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله، فيقابلونها بالكذب والمعاذلة، وقد أحصى الله أعمال العباد كلهم وكتبها عليهم، وسيجزئهم على ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ويقال لأهل النار ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝ (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝ (٣٣) وَكَأْسًا
 دِهَاقًا ۝ (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ۝ (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ
 حِسَابًا ۝ (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ
 مِنْهُ خِطَابًا ۝ (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ
 إِلَّا مَن أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝ (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن
 شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۝ (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
 يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۝ (٤٠)

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

نُزِّلَتْهَا

أَيَّاهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ (١) وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝ (٢) وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا
 ۝ (٣) فَالسَّبِقَاتِ سَبْقًا ۝ (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ
 ۝ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ (٨) أَبْصَرُهَا
 خَشِيعَةٌ ۝ (٩) يَقُولُونَ أَيْنَا لِمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝ (١٠) أَيْنَا كُنَّا
 عِظْمًا نَّخِرَةً ۝ (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
 وَاحِدَةٌ ۝ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ (١٥)

أعد الله تعالى لعباده المتقين من الكرامة والنعيم المقيم، فقد كتب لهم الفوز، وهو النجاة من النار، ودخول الجنة فلهم في الجنة البساتين من النخيل والأعناب، ولهم من الحور العين الأبنكار في سن واحدة، قد صار ثديهن كالكعب في صدورهن، ولهم فيها من الشراب كؤوس من الخمر ممتلئة، لا يسمعون فيها كلام لغو ولا فاحش، ولا إثم ولا كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص، جازاهم الله بذلك وأعطاهم بفضلهم ومنه وإحسانه ورحمته؛ عطاء كافياً وافراً شاملاً كثيراً، فهو سبحانه رب السموات والأرض وما فيها وما بينهما، وهو الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، في ذلك اليوم يقوم جبريل عليه السلام والملائكة صفاً لا يتكلمون، إلا من أذن له الرحمن بالكلام، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ولا يقولون إلا حقاً، ومن الحق لا إله إلا الله، فذلك يوم كائن لا محالة، فمن أراد نجاته نفسه فليتخذ إلى الله مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه ومنهجاً يمر به عليه، وهو العمل الصالح، فيوم القيامة قريب لتأكد وقوعه، يوم تعرض فيه جميع أعمال العباد عليهم، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، ويود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلقاً، ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين يعاين عذاب الله، وينظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة، وحين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يبور، حتى إنه ليقصص للشاة الجملاء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال الله لها كوني تراباً، فتصير تراباً، فعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت حيواناً فأرجع إلى التراب.

سورة النازعات

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر النازعات فيها

أقسم الله بالملائكة، التي تنزع أرواح الكفار، فتأخذ أرواحهم بعنف فتغرق في نزعها، كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، فتخرج نفسه كالغريق في الماء، وأقسم الله بالملائكة التي تأخذ أرواح المؤمنين بسهولة وتحملها حلاً رقيقاً فتقبضها، كما ينشط العقال من يد البعير يحمل برفق.

وأقسم الله بالشمس والقمر والكواكب والنجوم السابحة في الفضاء الدالة على قدرة الله تعالى، وأقسم الله بالخليل في سبيل الله التي تسبق على الجهاد وإعلاء كلمة الله، وأقسم الله بالملائكة التي تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، بأمر ربها عليه السلام، وجواب القسم وقوع الراجفة وهي الصيحة العظيمة، وهي النفخ في الصور وهي نفخة الصعق والثانية التي تردف الأولى نفخة البعث، فقلوب العباد عند نفخة البعث خائفة، أبصارها ذليلة حقيرة؛ مما عاينت من الأهوال، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى القبور، بعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها؛ ووقوع البعث بعد موتهم خسارة للكفار، والبعث أمر من الله يأمر إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عليه السلام ينظرون، فهي صيحة واحدة، فإذا هم على وجه الأرض بعد أن كانوا في بطنها، ويخبر الله رسوله محمداً عليه السلام عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾
 فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ
 آيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعًى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ
 فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى
 ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا
 ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾
 وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾
 وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَ كُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ
 الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُورِزَتِ الْجَحِيمُ
 لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ
 هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ
 ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا
 ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ
 مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوُّهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

لما رجع موسى ﷺ من مدين، كلمه الله نداء، بوادي طوى المطهر، وأرسله رسولاً إلى فرعون وقومه فقد تجبر وتمرد وعتا، وأمره الله أن يدعو فرعون بالقول اللين، وأن يقول له، هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تسلم وتطيع وأدلك إلى عبادة ربك، فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً بعدما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير، فلم يستجب، فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية، ودليلاً واضحاً على صدق ما جاء به من عند الله، وهي العصا واليد، فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة، وأسرع في مقابلة الحق بالباطل، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى ﷺ من المعجزة الباهرة، فحشر جنده وسحرته، ونادى في قومه فقال أنا ربكم الأعلى، فانتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا والآخرة، وفي إهلاك فرعون عبرة لمن يتعظ وينزجر، والذين ينكرون البعث وإعادة الخلق، هل هم أعظم خلقاً من السماء؟ بل السماء أشد خلقاً منهم، جعلها الله عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء، وجعل ليلها مظلاً أسود حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً، ومن عظيم قدرة الله خلق الأرض ودحوها، وهو إخراج الماء منها والمرعى، وشق الأنهار فيها، وإنباع عيونها، وإظهار مكنونها، وإجراء أنهارها، وإنبات زروعها وأشجارها وثمارها، وخلق الجبال والرمال والسبل والأكام فيها، وبالجبال قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم، كل ذلك متاعاً خلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل، فإذا جاءت القيامة، التي تطم على كل أمر هائل مقطوع، حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره، وأظهرت النار للناظرين فرأها الناس عياناً، فأما من تمرد وعتا، وقدم الدنيا على أمر دينه وأخراه، فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم، وأما من خاف القيام بين يدي الله ﷻ، وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردّها إلى طاعة مولاها، فإن منقلبته ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء، اللهم اجعلنا منهم وأهلينا وذريتنا والمسلمين، ويتساءل الكفار عن الساعة متى تكون، فأمر النبي ﷺ أن يقول ليس علمها إلي ولا إلى أحد من الخلق، بل مردّها ومرجعها إلى الله ﷻ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، وإنما النبي ﷺ بعث لينذر الناس ويحذّرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده، اتبعه فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذبه وخالفه، فهم إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية من يوم أو ضحى من يوم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنِّي ۝ (٣) أَوْ
يَذْكُرُ فَتَنَعَهُ الزِّكْرَى ۝ (٤) أَمْ أَمِنَ اسْتَعْنَى ۝ (٥) فَأَن تَ لَهُ تَصَدَّى ۝ (٦)
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَنِّي ۝ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۝ (٩) فَأَن تَ
عَنْهُ لَهْفَى ۝ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ ۝ (١١) لِمَنْ شَاءَ ذِكْرُهُ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ
۝ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ (١٦) قِيلَ الْإِنْسَنُ
مَا أَكْفَرُهُ ۝ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ (١٨) مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۝ (١٩) ثُمَّ
السَّيْلَ يَسْرَهُ ۝ (٢٠) ثُمَّ أَمَلَهُ فَاقْبَرَهُ ۝ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۝ (٢٢) كَلَّا لَمَّا
يَقْضِ مَا أَمَرُهُ ۝ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ ۝ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا
۝ (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝ (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ (٢٧) وَعَبَا وَقَضْبًا ۝ (٢٨)
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ (٣٠) وَفِكَهَةً وَأَبًّا ۝ (٣١) مَتَّعَا لَكُمْ
وَلَا نَعْمَكُمْ ۝ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ ۝ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ (٣٤)
وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ (٣٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ۝ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ ۝ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ۝ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ (٣٩) وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۝ (٤٢)

سورة عبس

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر عبوس النبي فيها

كان رسول الله ﷺ يوماً يخاطب أحد عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك لتيتمكن من مخاطبة ذلك الرجل؛ طمعاً ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فعاتبه الله في ذلك، وما يعلم النبي ﷺ لعل في جوابه لابن أم مكتوم تحصل له الزكاة والطهارة في نفسه، أو يحصل له اتعاض وانزجار عن المحارم، أما الغني فإنه يتعرض له لعله يهتدي، ما هو بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة، وأما من يقصده ويؤممه ليهتدى بها يقول له، فهو يتشاغل عنه، وأمر الله ﷻ رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، فالقرآن تذكرة وعبرة وعظة، فمن رغب فيها اتعظ بها، وحفظها وعمل بموجبها، ومن رغب عنها، كما فعله من استغنى، فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره، والقرآن في صحف معظمة موقرة، مرفوعة القدر، والذكر، ومرفوعة عن الشبه والتناقض، مطهرة من الدنس والزيادة والنقص، بأيدي الملائكة، وهم السفرة بين الله وبين خلقه، خلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة، فينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد، والإنسان حين يضل عن الطريق يكذب، فلعن الإنسان ما أكثر تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم، وما أشد كفره، فقد خلقه الله من نطفة حقيرة، وهو قادر على إعادته كما بدأه، وهو الذي قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد، ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه، وبعد خلقه له هو الذي يميته ويقبره، فهو سبحانه الذي شرع لعباده القبر للميت كرامة له، ثم إذا أراد الله بعثه بعد موته بعثه، فالإنسان الكافر الذي يزعم أنه أدى حق الله عليه في نفسه وماله، فهو في الحقيقة لم يؤد حق الله لأنه لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه عز وجل، وأعظمها التوحيد، فقد خلق الله للإنسان طعامه بإحياء النبات من الأرض الهامدة بإنزال الماء من السماء على الأرض، فأسكنه فيها فدخل في تخومها وتخلل في أجزاء الحب المدودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، فنبتت الحبوب، والأعشاب، والعلف للأنعام، ونبت الزيتون والتخليل، يؤكل بلحاً بسرّاً، ورطباً، وعمرّاً، ونيئاً، ومطبوخاً، وأنبت البساتين فيها الشجر الذي يستظل به، وفيها الفاكهة، وهي ما يتفكه به من الثمار، وفيها الأب وهو ما أنبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، كل ذلك عيشة للإنسان وللأنعام في هذه الدار إلى يوم القيامة، فإذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ الأسعاع، فتبالغ في إسعاعها حتى تكاد تصممها، يفر الإنسان من أقاربه، يراهم ويفر منهم، ويتبعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل، فلكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء، ويصرفه عنهم، يفر عنهم حذراً من مطالبهم إياه بما بينهم فالجميع في شغل شاغل عن غيره، ويكون الناس فريقين وجوه مستنيرة، مسرورة فرحة من سرور قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة، ووجوه يعلوها ويغشاها السواد، وهم الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

نَسِيهَا
٨١

آيَاتُهَا
٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ
سِيَّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ
⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا
الْمَوءُ دُهُ سِيلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ
⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَسِ ⑮
الْجَوَارِ الْكُنَسِ ⑯ وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَعَسَ ⑰ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ⑱
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ⑳ مُطَاعٍ
ثُمَّ أَمِينٍ ㉑ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ㉒ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ
㉓ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ㉔ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ㉕
فَأَتَيْنَ تَذْهَبُونَ ㉖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ㉗ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
يَسْتَقِيمَ ㉘ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ㉙

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

نَسِيهَا
٨٢

آيَاتُهَا
٢٩

سورة التكويد

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر تكويد الشمس فيها

في يوم القيامة تغلظ الشمس وتضمحل وتذهب، ويجمع بعضها إلى بعض، ثم تلف فيرمى بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها، والنجوم تنثر، وتزول الجبال عن أماكنها وتسف، وتكون الأرض قاعاً صفتفاً، وتهمل عشار الإبل وتترك، وتختلط الدواب والطيور والوحوش وتجمع، وتوقد البحار، وتصير ناراً تتأجج، ويقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، وذلك تزويد الأنفس، والموءودة التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، تسأل على أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا، وأعطى كل إنسان صحيفته يمينته أو بشماله، فصحيفة ابن آدم يملأ فيها أعماله، ثم تطوى، ثم تنشر عليه يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملأ في صحيفته؟ والسماء تذهب، والجحيم توقد، والجنة تقرب إلى أهلها، فإذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، وأقسم الله بالنجوم التي تخس بالنهار، وتظهر بالليل، وتجري تستقبل المشرق، وأقسم الله بالليل في إقباله بظلامه، وإذا ذهب فتولى، وبالصبح إذا طلع، وأضاء وأقبل، وجواب القسم: إن هذا القرآن تبليغ رسول كريم، ملك شريف حسن الخلق، بهي المنظر، وهو جبريل عليه السلام شديد الخلق، شديد البطش والفعل، له مكانة عند الله ﷻ ومنزلة رفيعة، وله وجهة، وهو مسموع القول مطاع في الملاء الأعلى، وهو أمين الله على وحيه، وأما محمد ﷺ فهو رسول رب العالمين، ليس بمجنون ولا بشاعر ولا بكاهن ولا بساحر، ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح بالأفق البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وما محمد على ما أنزله الله إليه بمتهم، وما هو ببخيل، بل يبذله لكل أحد، فقد كان القرآن غيباً، فأنزله الله على محمد، فما ضن به على الناس، بل بلغه ونشره وبذله لكل من أراه، وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له، فأين تذهب عقول المشركين في تكذيبهم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه جاء من عند الله ﷻ، وأين تذهب عقولهم عن كتاب الله وعن طاعته، فهذا القرآن ذكر لجميع الناس، يتذكرون به ويتعظون، فمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، وليست المشيئة موكولة إلى العباد، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع للمشيئة الله ﷻ رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَثَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ
فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ⑤ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا
كُنُوبِينَ ⑪ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ
الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑭ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ⑮ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ
⑯ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ⑰ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ
⑱ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ⑲ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ⑲

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ②
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ
مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥

سورة الانفطار

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر انفطار السماء فيها

في يوم القيامة تنشق السماء، وتساقط الكواكب، والبحار يفجر الله بعضها في بعض، فيذهب ماؤها، والقبور تتحرك فيخرج من فيها، فإذا حصل هذا، تعلم كل نفس، ما تقدم من عملها وما تأخر، فيا ابن آدم ما غرك بربك العظيم حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بها لا يليق؟! غره جهله بربه، وغره العدو الشيطان، فالرب الكريم لا ينبغي أن يقابل بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء، الذي جعل الإنسان سويًا معتدل القامة، في أحسن الهيئات والأشكال.

فالله ﷻ قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلق على شكل حسن مستقيم معتدل تام، حسن المنظر والهيئة، وإنما يحمل العباد على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبهم بالمعاد والجزاء والحساب، وجعل الله على عباده ملائكة حفظة كرامًا، فلا يقابلوهم بالقباح، فلهم يكتبون عليهم جميع أعمالهم، وينقسم العباد إلى فريقين، الأبرار إلى النعيم، وهم الذين أطاعوا الله ﷻ، ولم يقابلوه بالمعاصي، والفجار إلى الجحيم والعذاب المقيم، يعاقبون بذلك يوم الحساب والجزاء والقيامة، لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة، ولو يومًا واحدًا، ففي يوم الدين تدان الخلائق بأعمالها، وهو يوم لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، والأمر والمملك لله تعالى.

سورة المطففين

وهي سورة مدنية ، سميت بذلك لذكر الوعيد للمطففين فيها

توعد الله الذين ينقصون المكيال في بيعهم، ويزيدون في شرائهم واقتضاءهم، ووعدهم الله بالخسارة والهلاك فهم يأخذون حقهم بالوافي والزائد، وإذا باعوا بالكيل ينقصون، وقد أمر الله تعالى عباده بالوفاء في الكيل والميزان، أفلا يخاف المطففون من يوم البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل نارًا حامية، يوم يقوم الناس حفاة عراة غرلاً في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله ما تعجز القوى والحواس عنه.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ
 مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَبِلَ يَوْمٍ مِّدٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾
 وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ
 الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ
 عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْ حَاجِبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ
 هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾
 وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾
 إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي
 وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾
 خِتَمُهُمْ مِنْ مَّسْكٍ ؕ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرْجَاهُهُ
 مِنَ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ
 يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾
 وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ
 حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾

مصير الكفار وما أواهم سجين، وهي النار سجن مقيم وعذاب أليم، وسجين تحت الأرض السابعة، كتاب مكتوب مفروغ منه أنهم في النار، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد، فإذا صار الكفار يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهيّن، وجدوا الهلاك والدمار، لأنهم لا يصدقون بوقوع البعث، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره، وإذا سمعوا كلام الله من الرسول ﷺ كذبوا به، وظنوا به ظن السوء، واعتقدوا أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الران الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ويوم القيامة يجربون عن رؤية ربهم وخالقهم، وأما المؤمنون يرون ربهم ﷻ يوم القيامة، ورؤية المؤمنين ربهم ﷻ في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عرصات القيامة، وفي روضات الجنان الفاخرة، ومع هذا الحرمان لأهل النيران عن رؤية الرحمن يحرقون في النار ويعذبون فيها ويقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ والتصغير والتحقير ذوقوا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا.

وأما كتاب الأبرار في الجنة في السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين، وعليون مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع، كتاب مكتوب ومفروض يشهده من كل سماء مقربوها، فهم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم، على السرر تحت الحجال، ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد، وينظرون إلى الله ﷻ تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم، صفة الترفه والحشمة والسرور والدعة والرياسة؛ مما هم فيه من النعيم العظيم، يسقون من خمر الجنة مخلوط بالمسك، فقد طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء وجعل فيها مسكًا، ففي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون، ومزاج هذا الرحيق شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، وهو عين يشربها المقربون صرفًا، وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا، وأما المجرمون الذين كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، ويستهزئون بهم ويحتقرونهم وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، محتقرين لهم، وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فرحين مسرورين باحتقارهم للمؤمنين، ووصفوا المؤمنين بالضلال لأنهم على غير دينهم، وما بُعث هؤلاء المجرمون حافظين على المؤمنين أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم، ففي يوم القيامة يضحك المؤمنون على الكفار، جزاء وفاءً فكما كانوا يضحكون منهم في الدنيا فهم في الآخرة يضحكون من الكفار وما صاروا إليه من النهاية المؤلمة.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ هَلْ تُوْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ
 ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا
 الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمُلْقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
 كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلُبُ
 إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ
 يَدْعُوا بُرُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾
 إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أَقْسِمُ
 بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾
 لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ
 عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
 إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

المؤمنون يوم القيامة يضحكون على الكفار، وهم على السرر ينظرون إلى الله ﷻ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، وهم أولياء الله المقربون، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته، فقد جرى الله الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتقصص، بأن يضحك منهم المؤمنون، وذلك أوفر الجزاء وأتمه وأكملة.

سورة الانشقاق

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر انشقاق السماء فيها

في يوم القيامة تنشق السماء وتكون أبواباً وطرقاً للملائكة، والله سبحانه هو الذي أمرها فاستمعت لربها وأطاعت أمره فيها أمرها به من الانشقاق، وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء، والأرض تبسط، وتفرش وتوسع، وتلقي ما في بطنها من الأموات، وتخلت منهم، كل ذلك استجابة لأمر ربها فاستمعت لربها وأطاعت أمره فيها أمرها به من الاتساع والبسط، وحق لها أن تطيع أمره، والإنسان ساع إلى ربه سعيًا، وعامل عملاً وسيلقى ما عمل من خير أو شر، وسيلقي ربه فيجازيه بعمله ويكافئه على سعيه، فمن أعطي كتابه بيمينه فسيكون حسابه سهلاً بلا تعسير، ولا يحقق عليه جميع دقائق أعماله؛ فإن من نوقش الحساب يوم القيامة عذب، والحساب اليسير أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، ويرجع إلى أهله في الجنة فرحان مغتبطاً بما أعطاه الله ﷻ، وأما من أعطي كتابه بشماله من وراء ظهره، تنثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك، فيدعو على نفسه بالخسار والهلاك، ويحرق في نار جهنم فقد كان في الدنيا فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، وكان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته، والله سعيده كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإنه كان به علياً خبيراً، وأقسم الله بالشفق وهو حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس، وإما بعد غروبها، وأقسم الله بالنهار مدبراً، وبالليل مقبلاً، وما جمع من نجم ودابة، وأقسم بالقمر إذا اجتمع واستوى، وتكامل نوره وأبدر، وجواب القسم: إن الإنسان ينتقل من حال إلى حال، فقوم كانوا في الدنيا ضعيف أمرهم فارتفعوا في الآخرة، وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا فأتضعوا في الآخرة، وفي الدنيا ينتقل من حال إلى حال، فطيماً بعدما كان رضيعاً، وشيخاً بعدما كان شاباً، ورخاء بعد شدة وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقرًا بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة، فماذا يمنع الناس من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر؟ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن وكلامه، لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً، ولكن الكفار من صفتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق، والله أعلم بما يكتُمون في صدورهم، فلهم العذاب الأليم يوم القيامة، وأما الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم لهم أجر في الدار الآخرة غير منقوص وغير مقطوع، والله ﷻ له المنة على أهل الجنة في كل حال وأن لحظته، وإنما دخلوها بفضلها ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائماً سرمداً، نسأل الله ألا يحرمنا الجنة ووالدينا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين.

سُورَةُ الْبُرُوجِ

آياتها
٢٢آياتها
٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قِيلَ أَصْحَبُ الْأَخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑪ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيَعِيدُ ⑬ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ⑭ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑮ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ⑯ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ⑰ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ⑱ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ⑲ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ⑳ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ㉑ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ㉒

سُورَةُ الطَّارِقِ

آياتها
١٧آياتها
٨٦

سورة البروج

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر البروج فيها

أقسم الله بالسماء وبروجها، النجوم العظام، وأقسم الله باليوم الموعود، وهو يوم القيامة وبالشاهد وهو يوم الجمعة وبالمشهد وهو يوم عرفة، وجواب القسم: لعن أصحاب الأعدود، وهو الشق العظيم المستطيل في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ﷺ، فقهرهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أهدودًا وأججوا فيه نارًا، وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به، وقعدوا على النار يعرضون عليهم الكفر فمن لم يقبل منهم قذفوه فيها، والمملك وحاشيته يشاهدون ما يفعل بالمؤمنين، وكان ذنبهم إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذبجنابه، المنيع الحميد في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس، وهو المالك لجميع السموات والأرض وما فيها وما بينهما، لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية، فالذين حرقوا المؤمنين، وفتنهم في دينهم، ولم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا، فلهم العذاب في جهنم بالزمهرير، ثم يعذبون بعذاب الحريق، فالأول عذاب بيردها، والثاني عذاب بحرّها، وأما عباد الله المؤمنين ممن حرقوا في الأهدود فلهم الجنة بسبب إيمانهم، وثباتهم على الإيمان، ومن اتصف بهاتين الصفتين الإيمان وعمل الصالحات فله الجنات التي تجري خلالها الأنهار وذلك هو الفوز الحقيقي لا فوز الدنيا وزينتها، وأخذ الله للظلمة بالعذاب شديد، وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره عظيم قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين، الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل ملح البصر، أو هو أقرب؛ فمن قوته وقدرته التامة أنه يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه، بلا مناع ولا مدافع، وهو الذي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه، ولو كان الذنب من أي شيء كان، والود خالص المحبة بالله ﷺ واد ومودود، واد لأوليائه، وأوليائه يودونه ويحبونه، ويحبون الوصول إليه وإلى جنته ورضوانه، وهو سبحانه صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلق، وهو أعظم المخلوقات وأعلاها وهو سبحانه المجيد الكبير العظيم الجليل الموصوف بصفات المجد والكبرياء والعظمة والجلال، إذا أراد شيئًا فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله، وقد أهلك الله الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم ومنهم فرعون وقومه، وثمود قوم صالح عليه السلام، فقد كفروا وعاندوا، فوقع عليهم العذاب، والكفار في شك وريب وكفر وعناد، والله قادر عليهم، قاهر لهم لا يفوتونه ولا يعجزونه، وهذا القرآن الذي كذبوا به عظيم كريم، وهو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③ إِنَّ كُلَّ
نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ④ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ
دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧
يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ⑨ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ⑩ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ⑪
وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ⑫ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ⑬ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ⑭ لَهُمْ
يَكِيدُونَ كَيْدًا ⑮ وَآكِيدُ كَيْدًا ⑯ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُؤُودًا ⑰

سُورَةُ الْأَعْلَى

آياتها
١٩

رُتِبَها
٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ③
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ⑤ سَنُقَرِّثُكَ
فَلَا تَنْسَى ⑥ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ⑦ وَنُيَسِّرُكَ
لِلْيُسْرَى ⑧ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ⑨ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ⑩
وَيَنْجَنِبُهَا الْأَشْقَى ⑪ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ⑫ ثُمَّ لَا يَمُوتُ
فِيهَا وَلَا يَحْيَى ⑬ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ⑭ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ⑮

سورة الطارق

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر الطارق فيها

أقسم الله تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة وسمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، وهو المضيء، يثقب الشياطين إذا أرسل عليها، وجواب القسم: إن كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، وقد خلق الله الإنسان من مني يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منها الولد بإذن الله ﷻ يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صدرها، والله سبحانه قادر على رجوع الإنسان، وإعادته وبعثه إلى الدار الآخرة؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة، يعيدهم في يوم تظهر فيه السرائر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً، فما للإنسان يوم القيامة من قوة في نفسه، ولا ناصر من خارج منه، فلا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك، وأقسم الله بالسماء ذات المطر، وأقسم الله بالأرض التي تنصدع عن النبات، وجواب القسم أن القرآن حق، وحكم عدل، يفصل بين الحق والباطل، وهو حق، لم ينزل باللعب، فهو جدّ ليس بالهزل، والكفار يمحرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن، والله ينظرهم ويمهلهم قليلاً، وسيرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك.

سورة النعل

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر اسم الله الأعلى فيها

أمر الله بتنزيهه عن كل ما لا يليق به وتعظيمه، الذي خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات، والذي هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراعاتها، والذي أخرج المرعى من جميع صنوف النباتات والزرع، فجعله هشيماً متغيراً، ووعد الله نبيه محمداً ﷺ بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها، إلا ما شاء الله رفعه فلا عليه أن يتركه، فهو يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ووعد به أن يسهل عليه أفعال الخير وأقواله، ويشرع له شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر، وأمره بالتذكير حيث تنفع التذكرة، ومن ذلك يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، فلا يحدث الناس حديثاً لا تبلغه عقولهم فيكون فتنة لبعضهم، وسيتعظ من يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ويتجنب الذكرى الأشقى الذي كتبت عليه الشقاوة، فهو في النار لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، بل هي مضرّة عليه، وقد كتب الله الفوز لمن طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وأقام الصلاة في أوقاتها؛ ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتنالاً لشرع الله، ويفلح من أدّى زكاة الفطر وصلى صلاة العيد لأنها من شعائر الإسلام.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٧ إِنَّ
هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝١٩

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ
آياتها ٢٦
آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢
عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ عَانِيَةٍ ۝٥
لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧
وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَّةٌ ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَارٍ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦
أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ
بِمُصِيطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
الْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝٢٦

الناس يقدمون الحياة الدنيا على أمر الآخرة، ويفضلون الدنيا، على ما فيه نفعهم وصلاحهم في معاشهم ومعادهم، وثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟ فهذه الوصايا في صحف إبراهيم وموسى عليه السلام.

سورة الغاشية

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر الغاشية فيها

جاء خبر يوم القيامة، للنبي ﷺ، والقيامة؛ تغشى الخلائق بأهوالها وتعمهم، وفي القيامة ينقسم الناس إلى فريقين، وجوه ذليلة، عملت عملاً كثيراً، وتعبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حارة شديدة الحر، شرابهم من عين قد انتهت حرها وغليانها، وطعامهم شجر من نار، من شر الطعام وأبشعه وأخبثه، لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور، ووجوه يعرف النعيم فيها، صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم، وما أعدّه الله لهم من الخير الذي يفوق الوصف، وهي لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرّت به عيونها، فهم في جنة رفيعة هبة في الغرفات آمنون، لا يسمعون في الجنة كلمة لغو، فيها عيون تجري مياهها، وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة، فيها سرر عالية ناعمة كثيرة الفرش، مرتفعة السمك، عليها الحور العين ولهم أواني الشرب معدة موضوعة بين أيديهم يشربون منها، ووسائد مصفوفة بعضها إلى بعض وبسط مبسوطة متفرقة ها هنا وها هنا لمن أراد الجلوس عليها، وأمر الله عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته فالإبل خلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدّة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، ويتنفع بوبرها، ويشرب لبنها، ونهبوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، والسما كيف رفعها الله ﷻ عن الأرض؟ والجبال جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لثلاثمئدة الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن، والأرض بسطت ومدت ومهدت، فنبه المسلم على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسما التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه، وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يذكر الناس بما أرسل به إليهم، فإنما عليه البلاغ وعلى الله الحاسب؛ والنبي ﷺ لا يكره الناس على الإيمان، وليس عليهم بجبار، فمن تولى عن العمل بأركانه، وكفر بالحق بجنانه ولسانه، فله العذاب الأكبر الدائم في جهنم، فإلى الله مرجع العباد ومنقلبهم والله يحاسبهم على أعمالهم ويمجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّاً.

سُورَةُ الْفَجْرِ

بَابُهَا

رُكُوعُهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لِبَالْعِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝١٦ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۝٢٣

سورة الفجر

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لإقسام الله بالفجر فيها

أقسم الله بالفجر وهو الصبح ، وسمي فجرًا لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم ، وفيه صلاة الفجر من الصلوات المفروضة ، وأقسم الله بالليالي العشر وهي عشر ذي الحجة ، التي العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من غيرهن من الأيام ، وهي أفضل أيام الدنيا ، وأقسم الله بالشفع والوتر ، والشفع يوم النحر لكونه العاشر ، وهو أفضل الأيام عند الله ، وهو يوم العج والثج ، والوتر يوم عرفة ، لكونه التاسع ، وأقسم الله بالليل إذا ذهب ، وهذا القسم من الله تعالى لذي عقل ولب ودين ، وإنما سمي العقل حجرًا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، وهذا القسم بأوقات العبادة ، وبفسن العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له ، الخائفون منه ، المتواضعون لديه ، الخاشعون لوجهه الكريم ، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم ، ذكر بعدهم المتمردين العتاة الجبارين ، الخارجين عن طاعته المكذبين لرسله ، الجاحدين لكتبه ، فذكر تعالى كيف أهلكتهم ودمرهم ، وجعلهم أحداث وعبرًا ، فأهلك الله عادًا الأولى ، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا عليه السلام ، فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن ليعتبر بمصرعهم المؤمنون ، فقد كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقوامهم بطشًا ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم ، فهم قبيلة لم يخلق الله مثلها في بلادهم ، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبتهم ، وأهلك الله ثمودًا الذين يقطعون الصخر بالوادي ، ينحتونها ويخرقونها وبنيتهم صالح عليه السلام ، أهلكتهم الله بالصيحة ، وأهلك الله فرعون صاحب الجنود الذين يشدون له أمره ، كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها ، وقد ضرب لامرأته أربعة أوتاد ، ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت ، فهذه الأمم تترددوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس ، فأنزل الله عليهم عذابًا من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يردوها عن القوم المجرمين ، والله سبحانه يسمع ويرى ، خلقه فيما يعملون ، ويجازي كلًا بسعيه في الدنيا والآخرة ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه ، فيحكم فيهم بعدله ، ويقابل كلًا بما يستحقه ، وهو المنزه عن الظلم والجور ، والإنسان إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك اعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان ، فلا يغتر بما أعطاه الله ، فقد يكون استدراجًا ، وفي الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق ، اعتقد أن ذلك من الله إهانة له ، فليس الأمر كما زعم ، لا في هذا ولا في هذا ، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من يحب ، وعلى من كان غنيًا أن يشكر الله على ذلك ، ومن كان فقيرًا أن يصبر ، وأمر الله بإكرام اليتيم ، فخير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ، وكافل اليتيم في الجنة مع رسول الله ﷺ ، وأمر الله تعالى عباده بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، والتواصي في ذلك والتعاون ، ونهى الله عباده عن أكل ميراث اليتامى وميراث النساء والصغار ، فمن طبيعة الإنسان حب المال ، لكن لا يزيد حبه في قلبه فيأخذه عن طريق الحرام ، والمسلم يعد للدار الآخرة ، ففي يوم القيامة من الأحوال العظيمة ، ما يشيب منه الولدان ، ففي يوم القيامة تنزلزل الأرض وتتحرك وتسوى الأرض والجبال ، وتقوم الخلائق من قبورهم لربهم ، ويجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والمجيء من صفات الله الفعلية وهو ثابت الله على الوجه اللائق به ، وأجمع السلف على ثبوت المجيء لله تعالى ، فيجب إثباته له من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل ، وهو مجيء حقيقي يليق بالله تعالى ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا ، ويؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ، ففي ذلك اليوم يتذكر الإنسان عمله وما كان أسلفه في قديم الدهر وحديثه ، وكيف تنفعه الذكرى .

يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِي
إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ
﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ
أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ
﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾
فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ
﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ



في يوم القيامة يندم الإنسان على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعاً، ففي ذلك اليوم ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه، وليس أحد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربه ﷻ هذا في حق المجرمين من الخلاق والظالمين، وأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق، الموقنة بالإيمان وتوحيد الله، الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالطها شك، ولا يعترها ريب، والراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها يقال لها ارجعي إلى جوار ربك وثوابه وما أعد لعباده في جنته، راضية بالثواب الذي أعطيت، وقد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاه، فادخلي في جملة عباد الله الصالحين وهذا أعظم وسام وأشرفه، وادخلي جنة الله التي أعدت للمتقين وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره، وكذلك ها هنا.

سورة البلد

وهي سورة مكية، سميت بذلك لإقسام الله بالبلد فيها

أقسم الله ﷻ بمكة أم القرى لعظم قدرها، وهي بلد حرام بحرمة الله، ووعد الله نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده، وقد أحلها الله له ساعة من نهار في يوم الفتح، وأقسم الله بآدم أبي البشر وولده، وجواب القسم: إن الله خلق الإنسان سوياً مستقيماً، وهو في الدنيا في شدة وطلب معيشة ومشقة، يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة، فهل يظن الإنسان أن لن يقدر عليه أحد؟ يأخذ ماله، ويسأله من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟ والله هو القادر عليه وعلى ماله، ولا يستكثر المسلم المال الذي ينفقه ابتغاء مرضاة الله فإن الله يخلفه، فلا يقول أنفقت ما لا كثيراً، فإن ما ينفقه الإنسان هو الذي يبقى له في الآخرة، فإن الله يرى عباده ويطلع على سرائرهم وقصدهم، فقد جعل الله للإنسان عينين يبصر بهما، ولساناً ينطق به، فيعبر عما في ضميره، وشفتين يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه، ودله الله إلى طريق الخير والشر، فعلى المسلم الاستعداد بالعمل لصالح، ومجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فالمجاهد لنفسه كالذي يتكلف صعود العقبة، وفي النار عقبة، سبعون درجة في جهنم، فيسلك المسلم الطريق التي فيها النجاة والخير، من إعتاق الرقاب، فإن من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاهة من النار، عضواً بعضو، وإطعام الطعام في أوقات المجاعة لأيتام من الأقارب وغيرهم، والمساكين الذين لا يجدون ما يأكلون، وهذه الأعمال تنفع مع الإيمان، واحتساب ثواب ذلك عند الله ﷻ، والصبر على الأعمال الصالحة وأذى الخلق والتواصي على ذلك، ورحمة الخلق سبيل المؤمنين أصحاب اليمين، فمن لا يرحم، لا يرحم، والراحمون يرحمهم الرحمن، وأما الكفار فهم أصحاب الشمال، لهم النار المطبقة عليهم، فلا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ①
وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ②
وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③
وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④
وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ⑤
وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ⑥
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ⑨
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩
كَذَبَتْ ثُمُودُ
بَطْعُونَهَا ⑪
إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا ⑫
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ
نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬
فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ⑭
وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ⑮

سُورَةُ الْيَلِكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ①
وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ②
وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③
إِنْ سَعَيْكُمْ لَشَيْءٌ ④
فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ⑤
وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ⑥
فَسَيِّسِرُهُ لِّلْیُسْرَى ⑦
وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ⑧
وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑨
فَسَيِّسِرُهُ لِّلْعُسْرَى ⑩
وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑪
إِنْ عَلَيْنَا
لِلْهُدَى ⑫
وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ⑬
فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْظَى ⑭

سورة الشمس

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لإقسام الله بالشمس فيها

أقسم الله بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار، وأقسم الله بالقمر إذا تبع الشمس، وأقسم بالنهار إذا أضاء وجلت الظلمة، وأقسم بالليل يغشى الشمس حين تغيب، فتظلم الآفاق، وأقسم بالسماء وبنائها، وأقسم بالأرض وبسطها، ومهداها، وأقسم بالنفس خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، فأرشدها إلى الخير والشر وبيّن لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها، فقد كتب الله الفوز والنجاة لمن زكى نفسه، بطاعة الله، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، وكتب الله الخسارة لمن أضل نفسه وأغواها، فركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ.

فقد خسرت ثمود لما كذبوا رسولهم، لما كانوا عليه من الطغيان والبغي، فقد قام أشقى القبيلة، وهو قدار بن سالف عاقر الناقة ليقتل الناقة فقال لهم صالح ﷺ احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ولا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، فكذبوه فيها جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم، فغضب الله عليهم، وأنزل عليهم العقوبة جميعاً، ولا يخاف الله من أحد تبعة في إنزال العقوبة عليهم.

سورة الليل

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لإقسام الله بالليل فيها

أقسم الله تعالى بالليل إذا غشي الخليفة بظلامه، وأقسم بالنهار إذا تجلّى بضياؤه وإشراقه، وأقسم بالذي خلق الذكر والأنثى، وجواب القسم: إن أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة ومتخالفة، فمن فاعل خير ومن فاعل شر، فمنهم الذي أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره، وصدق بالشواب، وبالحلف، فثوابه في الدنيا أن ييسر الله له طرق الخير، ويقوده ذلك إلى الجنة، فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وأما الذي يخل بماله، واستغنى عن ربه ﷻ، وكذب بالجزاء في الدار الآخرة، فمن العقوبة المعجلة أن ييسر الله له طرق الشر، فمن جزاء السيئة السيئة بعدها؛ فالإنسان لا يغني عنه شيئاً ماله الذي يخل به، وأي شيء يغني عنه إذا هلك وتركه، فالله ﷻ يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر، فكل ميسر لما خلق له، فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء، فالله سبحانه يبين لعباده الحلال والحرام، والدنيا والآخرة ملك الله وهو المتصرف فيها، وقد حذر الله عباده وخوفهم من نار تتوقد وتتوهج.

لَا يَصْلُهَا إِلَّا الْأَشَقَى ①٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ①٦ وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأَتَقَى ①٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ①٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ
نِعْمَةٍ تُجْزَى ①٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ②٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ②١

سُورَةُ الضَّحَى

آياتها ١١

نزل بها ٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ③
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَى ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَى ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪

سُورَةُ الشَّرْحِ

آياتها ٨

نزل بها ٩٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي
أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ⑧

النار لا تحرق إلا من كتبت عليه الشقاوة، الذي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وأعرض عن الطاعة، وسيزحج عن النار التقي النقي الأتقى، الذي ينفق ماله في طاعة ربه؛ ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا، وليس بذله مكافأة لمن أسدى إليه معروفًا، وإنما بذل ماله طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، ولهذا وأمثاله الثواب الذي يرضى به عن ربه.

سورة الضحى

وهي سورة مكية، سميت بذلك لإقسام الله بالضحى فيها

لما أبطأ الوحي عن النبي ﷺ فقال الكفار ودع محمد، فأقسم الله بالضحى وما جعل فيه من الضياء، وأقسم بالليل إذا سكن فأظلم وادهم، أن الله تعالى لم يترك نبيه ولم يغيضه وأن الدار الآخرة خير للنبي ﷺ من هذه الدار، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا، ولما خير ﷺ في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله ﷻ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية، ووعد الله في الدار الآخرة أن يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعد له من الكرامة، فقد أنعم الله على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه فقد كان يتيم الأبوين فحفظه الله ورعاه وشرفه بالنبوة والرسالة، وهده الله بالوحي فكان إمام المهتدين، وكان فقيرًا ذا عيال، فأغناه الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه وجعل غناه في قلبه، فاختار الفقر على الغنى، وأمر الله نبيه محمدًا ﷺ ألا يذل اليتيم وينهره ويبينه، وأمره بالإحسان إليه، والتلطف به، ونهاه عن زجر السائل والإغلاظ له، ولكن يبذل له اليسير، أو يرده بالجميل، ونهاه عن نهر السائل في العلم المسترشد. وأمره الله بالتحدث بنعمة الله عليه، فالتحدث بنعمة الله شكر الله، واعتراف بنعمة الخالق جل جلاله.

سورة الشرح

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر شرح صدر النبي فيها

من الفضائل والخصائص للنبي ﷺ أن الله نور صدره وجعله فسيحًا رحبًا واسعًا، وجعل شرعه فسيحًا واسعًا سمحًا سهلًا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق، وقد شرح الله صدر النبي ﷺ حسًا مرتين: في وقت رضاعته في بادية بني سعد، وفي ليلة الإسراء، ومن فضائله أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فغفر له الذنوب التي تثقل الظهور، ورفع الله ذكره في العالمين فلا يذكر الله إلا ذكر معه كما في الشهادتين وإذا وجد العسر وجد اليسر، ولا يغلب عسر واحد يسرين اثنين، فالفرج مع اليسر، وأمر الله نبيه محمدًا ﷺ إذا فرغ من أمور الدنيا وأشغالها وقطع علائقها، أن ينصب لله في العبادة، ويقوم إليها نشاطًا فارغ البال، ويخلص لربه النية، والرغبة والأمر له ولأمته.

سُورَةُ التِّينِ

آياتها ٨

ترتيبها ٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾
 لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ
 إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٥﴾
 فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٦﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٧﴾

سُورَةُ الْعَلَقِ

آياتها ١٩

ترتيبها ٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
 الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ
 الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ
 الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ
 بِالْقَوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ
 لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فليدع ناديه ﴿١٧﴾
 سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْرَبْ ﴿١٩﴾

سورة التين

وهي سورة مكية، وسميت بذلك لإقسام الله بالتين فيها

أقسم الله بالتين والزيتون وجبل طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى، وأقسم بمكة، وهذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم، والثاني طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، والثالث مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ، والمقسم عليه: إن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها، فبعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل؛ ويؤمن بالله ويعمل صالحاً، والعمل الصالح ما كان خالصاً، وموافقاً لشرعية محمد ﷺ، فمن اتصف بذلك فله الأجر غير المقطوع في الجنة، فأى شيء يحمل الإنسان على التكذيب بالمعاد وقد عرف أن الله هو الذي خلقه وأوجده فمن قدر على البداء، قادر على الرجعة بطريق الأولى، فمن حكمة أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً ومن عدله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم في الدنيا عن ظلمه.

سورة العلق

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر العلق فيها

أمر الله عباده أن يبتدئوا القراءة باسم الله الذي خلق الخلائق كلها، فخلق ابن آدم من علق، والعلقة الدم الجامد وأمر الله نبيه محمداً ﷺ بالقراءة لما اعتذر أنه ليس من أهل القراءة، فإن الله هو الحليم عن جهل العباد لا يعجل عليهم بالعقوبة، علم الإنسان الخط والكتابة، علمه ما لم يعلم من أنواع الهدى والبيان، وهذه الآيات أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، والإنسان إذا رأى نفسه استغنى وكثر ماله، فرح وأشر وبطر وطغى، وإلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبه على ماله من أين جمعه؟ وفيمن أنفق؟ وقد لقي النبي ﷺ في سبيل تبليغ الدعوة الأذى والتضييق ومن ذلك ما توعد به أبو جهل النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، والذي ينهاه خير منه على الطريق المستقيمة في فعله، وهو يزجره ويتوعده على صلاته؛ وما علم الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجزيه على فعله أتم الجزاء، فإن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد، ليأخذن الله بناصيته إلى النار فتوسم بالسواد يوم القيامة، تلك الناصية الكاذبة في مقالها الخاطئة في فعالها، فحينئذ فلينادي قومه وعشيرته، ويستنصر بهم، كما كان يفعل بالدنيا، فإن الله يوكل به ملائكة العذاب، وأمر الله نبيه محمداً ﷺ ألا يستجيب إلى ما ينهاه عنه، وليداوم على العبادة وكثرتها، وليصل حيث شاء ولا يبالي به وليتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، فإن الله حافظه وناصره، وعاصمه من الناس.

سُورَةُ الْقَمَلِكَةِ

آيَاتُهَا ٥

نُزِيلُهَا ٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ②
 لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ
 فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑤

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

آيَاتُهَا ٨

نُزِيلُهَا ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ
 حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ②
 فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ④ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
 لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ
 الْقِيمَةِ ⑤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
 فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ⑥ إِنَّ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ⑦

سورة القدر

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر ليلة القدر فيها

أنزل الله القرآن في ليلة القدر، وهي الليلة المباركة، وهي من شهر رمضان، فقد أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ، وكان ابتداءه في ليلة القدر، ومن شرف هذه الليلة أن العبادة فيها تعدل عبادة ألف شهر، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ويكثر نزول الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم تعظيماً له، وينزل جبريل ﷺ في هذه الليلة، وفيها تقدر المقادير، وتقضى فيها الأمور، وتقدر الآجال والأرزاق وهي سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، أو يعمل فيها أذى، وتسلم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد، حتى يطلع الفجر، وليلة القدر في العشر البواقي من رمضان، من قامهن ابتغاء ليلة القدر، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه، وهي ليلة وتر، تاسعة أو سابعة، أو خامسة، أو ثالثة، ومن علامتها أنها صافية بلجة، ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة سجيّة، لا برد فيها ولا حر، والشمس صبيحتها تخرج مستوية، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر.

سورة البينة

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر البينة فيها

لم يكن أهل الكتاب والمشركون ليتنبهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد ﷺ بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم، ودعاهم إلى الإيمان، وهذا بيان عن النعمة، والإنقاذ به من الجهل والضلالة، وهذا فيمن آمن من الفريقين، فجاءهم محمد ﷺ، بالهدى ودين الحق، وما أنزل عليه من القرآن العظيم، الذي هو مكتوب في الملائ الأعلى، في صحف مطهرة، وفي هذه الصحف المطهرة كتب من الله عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ؛ لأنها من عند الله ﷻ وأهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، تفرقوا واختلّفوا بعدما أقام الله عليهم الحجج والبيّنات، وقد أمرهم بالتوحيد وتحقيق العبودية لله وحده لا شريك له، مائلين عن الشرك إلى التوحيد، وقيموا الصلاة المفروضة وهي أشرف عبادات البدن، ويخرجوا الزكاة وهي إحسان إلى الفقراء، وتلك الملة القائمة العادلة، المستقيمة المعتدلة، ومآل الفجار، من كفره أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسله يوم القيامة في نار جهنم ماكثين فيها، لا يحولون عنها ولا يزولون لأنهم شر الخليقة التي برأها الله وذراها، وأما الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بأبدانهم فهم خير من خلق الله وفي ذلك دليل على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة.

جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

آياتها ٨

نزل بها ٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨

سُورَةُ الْعَادَاتِ

آياتها ١١

نزل بها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَتِ صَبْحًا ۝١ فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَتِ صَبْحًا ۝٣ فَاتْرَنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩

ثواب المؤمنين عند خالقهم جنات عدن، وهي أوسط الجنات وأفضلها، لا يخرجون منها، ولا يظعنون عنها، بل هم دائمون في نعيمها مستمرّون في لذاتها رضي الله عنهم ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم، ورضوا عن ربهم فيما منحهم من الفضل العميم، وهذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وقد علم أنه إن لم يره فإنه يراه.

سورة الزلزلة

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر الزلزلة فيها

في يوم القيامة تتحرك الأرض حركة شديدة لقيام الساعة، وتخرج موتاها وكنوزها فتلقاها على ظهرها، فيجيء القتاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول، في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا، ويستنكر الإنسان أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها، ثم تغير حالها، فصارت متحركة مضطربة، لأنه جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذي لا يحيد لها عنه، وتشهد الأرض على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها فتقول: عمل علي يوم كذا وكذا، كذا وكذا؛ لأن الله أمرها بالكلام وأذن لها بأن تجرب بما عمل عليها، ويرجع الناس عن موقف الحساب بعد العرض، متفرقين فأخذ ذات اليمين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار، ليروا جزاء أعمالهم، فمن عمل مثقال وزن نملة صغيرة من الخير يره في ذلك الموقف وير ثوابه، ومن عمل مثقال وزن نملة صغيرة من الشر يراه في ذلك الموقف وير عقوبته، فليس مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا في الدنيا إلا أراه الله إياه يوم القيامة، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر الله سيئاته، ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذبه بسيئاته.

سورة العاديات

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر العاديات فيها

أقسم الله بالخيال إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو، وإذا اصطك نعلها بالصخر فتدح منه النار، وإذا أغارت وقت الصباح، فأظهرت الغبار عند عدوها، واجتمعت في وسط مكان القتال، وكل ما أقسم الله به من صفات الخيل مما يرهب أعداء الله، والمقسم عليه: إن الإنسان جحود كفور لنعم ربه، وقد شهد على ذلك لسان حاله، فظهر ذلك في أقواله وأفعاله، وهو شديد المحبة للمال، وبخيل في إنفاقه، والمؤمن يزهّد في الدنيا، ويرغب في الآخرة، فما هي حاله إذا أخرج ما في القبور من الأموات؟

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝۱۰ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝۱۱

سُورَةُ الْقَلْعَةِ ۝۱۱ آيَاتُهَا ۱۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ۝۱ مَا الْقَارِعَةُ ۝۲ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝۳
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝۴
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝۵ فَأَمَّا
مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝۶ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝۷
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝۸ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝۹
وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۝۱۰ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝۱۱

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ ۝۸ آيَاتُهَا ۸

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَنُكُمُ التَّكْوِيْنُ ۝۱ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝۲ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ۝۳ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝۴ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ الْيَقِيْنِ ۝۵ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ ۝۶ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا
عَيْنَ الْيَقِيْنِ ۝۷ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ ۝۸

في يوم القيامة يظهر الله ما في نفوس الناس، فيصير السر علانية، وهو سبحانه العالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون، مجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

سورة القارعة

وهي سورة مكية، وسميت بذلك لذكر القارعة فيها

القارعة اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها تفرع القلوب بالفرع، وتفرع أعداء الله بالعذاب في ذلك اليوم يكون الناس كالفرش في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومحيثهم، من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فرش متفرق منتشر، وتكون الجبال كالصوف المنفوش، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق، في ذلك اليوم ينقسم الناس، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة، بحسب أعمالهم، فمن رجحت حسناته على سيئاته، فهو في عيشة راضية مرضية يرضاها صاحبها ومن رجحت سيئاته على حسناته، فهو ساقط على دماغه في نار جهنم، فيكون مسكنه جهنم، وسأها أمه؛ لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه، والهاوية من أسماء جهنم، وهي نار حارة شديدة الحر، قوة اللهب والسعير.

سورة التكاثر

وهي سورة مكية، سميت بذلك لذكر التكاثف فيها

الإنسان بطبيعته يشغله حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، ويتمادى به، حتى يأتيه الموت ويزور المقابر، ويصير من أهلها، فهو للقبور زائر ينتقل بعدها، وابن آدم يقول: مالي مالي، وهل له من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وسيعلم العباد الغافلون إذا نزل بهم الموت وفي القبر حقيقة غفلتهم وإعراضهم، وسيعلمون يوم القيامة، ولو كانوا يعلمون الأمر علمًا يقينًا لشغلهم ذلك عن التكاثر والتفاخر، ولفعلوا ما ينفعهم من الخير من الأعمال الصالحة التي تقرهم إلى الله، فهي الباقيات الصالحات التي يجدونها يوم القيامة، وسيرون النار التي إذا زفرت زفرة خرَّ كل ملك مقرب، ونبي مرسل على ركبته من المهابة والعظمة ومعينة الأهل، ويسألون عن شكر ما أنعم الله به عليهم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، والله سبحانه سائل كل ذي نعمة عما أنعم عليه.

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ٣

سورة الهنزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ٨ فِي عَمْدٍ مُّتَدَدَةٍ ٩

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ٥

سورة العصر

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لإقسام الله بالعصر فيها

أقسم الله بالعصر، وهو الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر، ولأن فيه عبرة للناظر، وهو عمر الإنسان وهو خزانة الأعمال، وفيه دلالة بينة على الله ﷻ، وعلى توحيده، وجواب القسم: إن الإنسان في خسارة وهلاك، واستثنى الله من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وتواصوا في أداء الطاعات، وترك المحرمات، من الإيثار بالله والتوحيد، والقيام بما شرعه الله، واجتناب ما نهى عنه، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتواصوا بالصبر على المصائب والأقدار، وأذى من يؤدي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.

سورة الهزلة

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر الهزلة فيها

كتب الله الهلاك لكل من يطعن في الناس ويعيبهم ويزدرهم ويتقصصهم بالقول والفعل، ويغتابهم، والغالب يمثل من اتصف بهذه الخلاق الدينية إعجابه بما جمع من المال، وظنه أن الفضل له، فلأجل ذلك يتقصص غيره، فهو يجمع المال بعضه على بعض، ويحصى عدده لئلا ينقص لبخله وشحه فيلهيه ماله بالنهار، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة، ويظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار، وليس الأمر كما زعم ولا كما حسب، فإن هذا المال لم يؤد فيه حق الله كان سبباً في دخوله النار، وفي إلقائه في تلك النار التي يحطم بعضها بعضاً وتحطم كل من يلقي فيها فهي نار أوقد عليه آلاف السنين تحرقهم إلى الأبدلة وهم أحياء، فتأكل كل شيء من أجسادهم، حتى إذا بلغت أفتدتهم حذو حلوقهم ترجع على أجسادهم، فهي عليهم مطبقة، أطبقت الأبواب عليهم، ثم شددت بأوتاد من حديد، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم روح.

سورة الفيل

وهي سورة مكية سميت بذلك لذكر الفيل فيها

من النعم التي امتن الله بها على قريش، أن صرف عنهم أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأرسل الله عليهم خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب، تحمل ثلاثة أحجار حجري في أرجلها وحجراً في منقارها، فجاءت حتى صفت على رؤوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا وخرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً، فصاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب وبقي منه بقايا، فأبادهم الله، وأرغم أنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْلَفٍ قُرَيْشٍ ① إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ
 ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
 مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ④

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ ① فَذَلِكَ الَّذِي
 يَدْعُ الْيَتِيمَ ② وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ③
 فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
 ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦

سُورَةُ الْكَوثرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوثرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ②
 إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③

سورة قريش

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر قريش فيها

حفظ الله البيت الحرام من أصحاب الفيل لائتلاف قريش واجتماعهم في بلدهم آمنين، وقد كانوا يألفون الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم أحترمهم، وتلك نعمة عظيمة تحتاج إلى شكر وشكرها توحيد الله بالعبادة، فقد تفضل الله عليهم بالأمن من الخوف والإطعام من الجوع، فوجب عليهم أن يفرّدوا الله بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنًا ولا ندًا ولا وثنًا، فمن استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبها منه.

سورة الماعون

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر الماعون فيها

الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة حتى يصير ذلك لها خلقًا إذا نشأت عليه، فالمكذب بيوم المعاد والجزاء والثواب، هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه، ولا يطعمه ولا يحسن إليه، ولا يحث على إطعام الفقراء والمساكين لأنه لا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا، ولا يقوم بفرائض الله وأعظمها الصلاة المفروضة، لأنه لا يرجو ما عند الله من الأجر ولا يخاف العقاب، فلا يصليها في وقتها، وإذا صلى صلاة رآى بها الناس، لأنه يرجو مدح الناس وثناءهم، فهو لم يحسن عبادة ربه، ولا أحسن إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليه، فهذا المنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى.

سورة الكوثر

وهي سورة مكية ، وسميت بذلك لذكر الكوثر فيها

من الفضائل والخصائص التي خص بها سيد ولد آدم محمد ﷺ الكوثر، وهو نهر يجري، ولم يشق شقًا، وحافته قباب اللؤلؤ، تربته مسك أذفر، وحصاه اللؤلؤ، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجزر، والكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر، وأمر الله نبيه ﷺ بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له والأمر لأمرته، ومن العبادات الصلاة المكتوبة والنافلة، والنحر، والذبح عبادة، فلا يذبح إلا لله، ولا يذكر غير اسم الله عند الذبح والنحر، ومبغض النبي ﷺ هو مبغض لما جاء به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، فهو الأقل الأذل المنقطع ذكره، وقد أبقى الله ذكر النبي ﷺ على رءوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرًا على دوام الآباد، إلى يوم الخسر والمعاد صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم التناد.

سُورَةُ الْكَافُرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ٤
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ٣

سُورَةُ الْمَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ ٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَامْرَأَتُهُ
حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ٥

سورة الكافرون

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر الكافرين فيها

من جهل المشركين أنهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأمر الله رسوله ﷺ أن يتبرأ من دينهم بالكليّة، من عبادة الأصنام والأنداد، فهو لاء المشركون لن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وأمر النبي ﷺ أن يعبد الله وحده لا شريك له والأمر لأمته أن يعبدوا الله على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بها شرعه؛ ولهذا كانت كلمة الإسلام لا إله إلا الله محمد رسول الله معناها لا معبود بحق إلا الله ولا طريق إليه إلا بها جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله؛ فهم على الكفر، والمؤمنون على التوحيد، وهذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، وتشمل كل كافر على وجه الأرض.

سورة النصر

وهي سورة مدنية ، سميت بذلك لذكر النصر فيها

أرسل الله سبحانه نبيه محمدًا ﷺ، فعاداه الناس وأذوه، حتى هاجر إلى المدينة، فكانت دار إسلام فأعز الله جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، وفتح الله لنبيه مكة، وأذل الله المشركين وأعز المؤمنين، ودخل الناس في دين الله جماعات وقبائل، من غير قتال، وتلك علامة لقرب أجل النبي ﷺ، فأمر بتنزيه الله وتقديسه وبالاستغفار، وكان رسول الله ﷺ يكثر من قول سبحان الله ويحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فأمر بالتسبيح والتوبة، ليختتم له بالزيادة في العمل الصالح، وقد عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين، وفي ذلك أمر للمؤمنين أن يكثروا من التسبيح والاستغفار والتوبة.

سورة الهند

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لذكر المسد فيها

جمع النبي ﷺ قريشًا، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا نعم، قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب أهذا جعنتا، تبًا لك، وأبو لهب أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وإنها سمي أبا لهب لإشراق وجهه، فجاء القرآن بأن الخاسر والهالك، والذي ضل عمله وسعيه، هو أبو لهب فلن ينفعه ماله وولده، وسيحرق بنار ذات شرر وهيب وإحراق شديد، هو وزوجته أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وكانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه في عذابه في نار جهنم، فهي تحمل الخطب فتلقي على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهي مهياة لذلك مستعدة له، في عنقها حبل من مسد النار، وكانت تمشي بالنميمة بين الناس فهي تنقل النار التي تفرق بين الأحبة.

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①
اللَّهُ الصَّمَدُ ②
لَمْ يَكِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ③
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④

سُورَةُ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ①
مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ②
وَمِنْ
شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③
وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي
الْعُقَدِ ④
وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①
مَلِكِ النَّاسِ ②
إِلَهِ
النَّاسِ ③
مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④
الَّذِي
يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥

سورة الإخلاص

وهي سورة مكية ، سميت بذلك لأنها تدعوا إلى الإخلاص

الله سبحانه هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، وهو الكامل في جميع صفاته وأفعاله، إليه تصمد الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وهو السيد الذي قد انتهى سؤده، ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، وليس له مثل ﷺ، وهذه السورة تعدل ثلث القرآن، وحبا يدخل الجنة، فهي صفة الرحمن.

سورة الفلق

وهي سورة مدنية ، سميت بذلك لذكر الفلق فيها

أمر الله نبيه ﷺ أن يتعوذ برب الفلق، وهو الصبح لأنه يفلق عنه الليل، والاستعاذة هي الالتجاء والاعتصام بالله تعالى، من شر جميع المخلوقات، ومن شر الليل إذا أقبل بظلامه، ومن شر السواحر إذا رقى ونفش في العقد، فهن ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها، ومن شر الحاسد، والحسد تمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود، فأمرنا أن نستعيذ من شر الحاسد إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه، وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، ومن الحسد العين، وهي حق يستعاذ منها، فهي تدخل الرجل القبر والجمل القدر.

سورة الناس

وهي سورة مدنية سميت بذلك لذكر الناس فيها

أمر النبي ﷺ بالاستعاذة برب الناس، الذي ربي عباده ونقلهم من حال إلى حال إلى حد التمام، وهو مالكم ومصالحهم، والناس مأخوذ من النوس وهو الحركة فكل ما يتحرك فهو من الناس، فهو سبحانه رب العالمين، وهو سبحانه الإله الحق الذي يجب أن تصرف له العبادة له وحده لا شريك له، من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم من عصم الله، وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهو الخناس الذي يهرب عند الذكر، فالشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فهو الوسواس الخناس.

فهو يوسوس في صدور الناس فيستعاذ بالله، من شياطين الإنس والجن، وشياطين الإنس أعظم جرماً وأشد خطراً، فإن شيطان الإنس إذا ذكر الله لا يفر، بل يبقى يجلب بإغوائه البشر، نسأل الله السلامة من شياطين الجن والإنس.

الخاتمة

من نعم الله علي أن هداي للإسلام وسلك بي طريق الحكمة والقرآن، ومنَّ علي بالهداية للصراط المستقيم الذي أسأل الله أن يثبتي عليه إلى الممات، وأحمد الله علي أن وفقني ويسر لي كتابة هذا التفسير، ومنحني الصحة والعافية فمكنتني من العيش مع القرآن العظيم، فأسأل الله أن يتم علي النعمة بالعلم النافع والعمل الصالح والحياة في سبيل الله، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتكمل المكرمات، وتنال بفضلله الدرجات والحسنات، فالحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وأسأله تعالى أن يجعل عملي خالصاً لوجه الكريم أرجو به وإحسانه إنه هو البر الرحيم، كما أسأله تعالى أن ينفع بهذا التفسير عموم المسلمين الذين يحرصون على التدبر والتفكير والعمل، فهم الذين أردت أن أقرب لهم معاني القرآن العزيز بأوضح كلمة وأخصر عبارة، فيقتبسوا من أنواره وهداياته العلم والعمل والنور والهداية، كما أدعو الله لكل من شجعني على كتابة هذا التفسير، بأن يوفق الأحياء منهم لكل خير، وأن يرحم الأموات بواسع رحمته، وأن يسكنهم فسيح جنته، وأن يشرك الجميع في الأجر والثواب ورحمة العلي الوهاب، وأخص بالذكر أم صالح حفظها الله وبارك في عمرها وأولادي أصلحهم الله ووقفهم لكل خير، ومن رأى خللاً فليحسن الظن بكاتبه، فإن ذلك من نفسي والشيطان وأستغفر الله منه، وما كان من توفيق وصواب فمن الله وحده لا شريك له، له الحمد والمنة، علّم عبده الضعيف، وأسبل عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فلك اللهم الحمد والشكر وحدك لا شريك لك.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وكتبه العبد الفقير إلى رحمة الله ورضوانه

أحمد بن صالح بن إبراهيم الطويان

مكة المكرمة - ١٤٣١/٨/١٥ هـ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرس

٥٩٢	الغاشية	٥٤٥	الحشر	٤٠٤	الروم	١	الفتحة
٥٩٣	الفجر	٥٤٩	المتحنة	٤١١	لقمان	٢	البقرة
٥٩٤	البلد	٥٥١	الصف	٤١٥	السجدة	٥٠	آل عمران
٥٩٥	الشمس	٥٥٣	الجمعة	٤١٨	الأحزاب	٧٧	النساء
٥٩٥	الليل	٥٥٤	المنافقون	٤٢٨	سبا	١٠٦	المائدة
٥٩٦	الضحى	٥٥٦	التغابن	٤٣٤	فاطر	١٢٨	الأنعام
٥٩٦	الشرح	٥٥٨	الطلاق	٤٤٠	يس	١٥١	الأعراف
٥٩٧	التين	٥٦٠	التحريم	٤٤٦	الصافات	١٧٧	الأنفال
٥٩٧	العلق	٥٦٢	الملك	٤٥٣	ص	١٨٧	التوبة
٥٩٨	القدر	٥٦٤	القلم	٤٥٨	الزمر	٢٠٨	يونس
٥٩٨	البيضة	٥٦٦	الحاقة	٤٦٧	غافر	٢٢١	هود
٥٩٩	الزلزلة	٥٦٨	المعارج	٤٧٧	فصلت	٢٣٥	يوسف
٥٩٩	العاديات	٥٧٠	نوح	٤٨٣	الشورى	٢٤٩	الرعد
٦٠٠	القارعة	٥٧٢	الجن	٤٨٩	الزخرف	٢٥٥	إبراهيم
٦٠٠	التكاثر	٥٧٤	المزمل	٤٩٦	الدخان	٢٦٢	الحجر
٦٠١	العصر	٥٧٥	المدثر	٤٩٩	الجاثية	٢٦٧	النحل
٦٠١	الهزعة	٥٧٧	القيامة	٥٠٢	الأحقاف	٢٨٢	الإسراء
٦٠١	الفيل	٥٧٨	الإنسان	٥٠٧	محمد	٢٩٣	الحكهف
٦٠٢	قريش	٥٨٠	المرسلات	٥١١	الفتح	٣٠٥	مريم
٦٠٢	الماعون	٥٨٢	النبأ	٥١٥	الحجرات	٣١٢	طه
٦٠٢	الكوثر	٥٨٣	التازعات	٥١٨	ق	٣٢٢	الأنبياء
٦٠٣	الكافرون	٥٨٥	عبس	٥٢٠	الذاريات	٣٢٢	الحج
٦٠٣	النصر	٥٨٦	التكوير	٥٢٣	الطور	٣٤٢	المؤمنون
٦٠٣	المسد	٥٨٧	الانفطار	٥٢٦	النجم	٣٥٠	النور
٦٠٤	الإخلاص	٥٨٧	المطففين	٥٢٨	القمر	٣٥٩	الفرقان
٦٠٤	الفلق	٥٨٩	الانشقاق	٥٣١	الرحمن	٣٦٧	الشعراء
٦٠٤	الناس	٥٩٠	البروج	٥٣٤	الواقعة	٣٧٧	النمل
		٥٩١	الطارق	٥٣٧	الحديد	٣٨٥	القصص
		٥٩١	الأعلى	٥٤٢	المجادلة	٣٩٦	العنكبوت

مميزات تيسير التفسير

١. تقريب معاني الآيات إجمالاً دون التوسع في تفاصيل دقائق التفسير؛ لأن القصد تقريب المعاني.
٢. اعتماد التفسير على المصحف كل وجه يقابله تفسيره دون زيادة أو نقصان.
٣. اعتماد كتب أئمة التفسير كالطبري يرحمه الله وابن كثير يرحمه الله فقد تضمن هذا الكتاب زبدة تفسيره.
٤. عرض منهج السلف في العقيدة والتوحيد والأسماء والصفات.
٥. ربط معاني القرآن بالواقع.
٦. وضوح العبارة، وشموليتها.
٧. التركيز على الدروس والعبر والعظات من الآيات.

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com